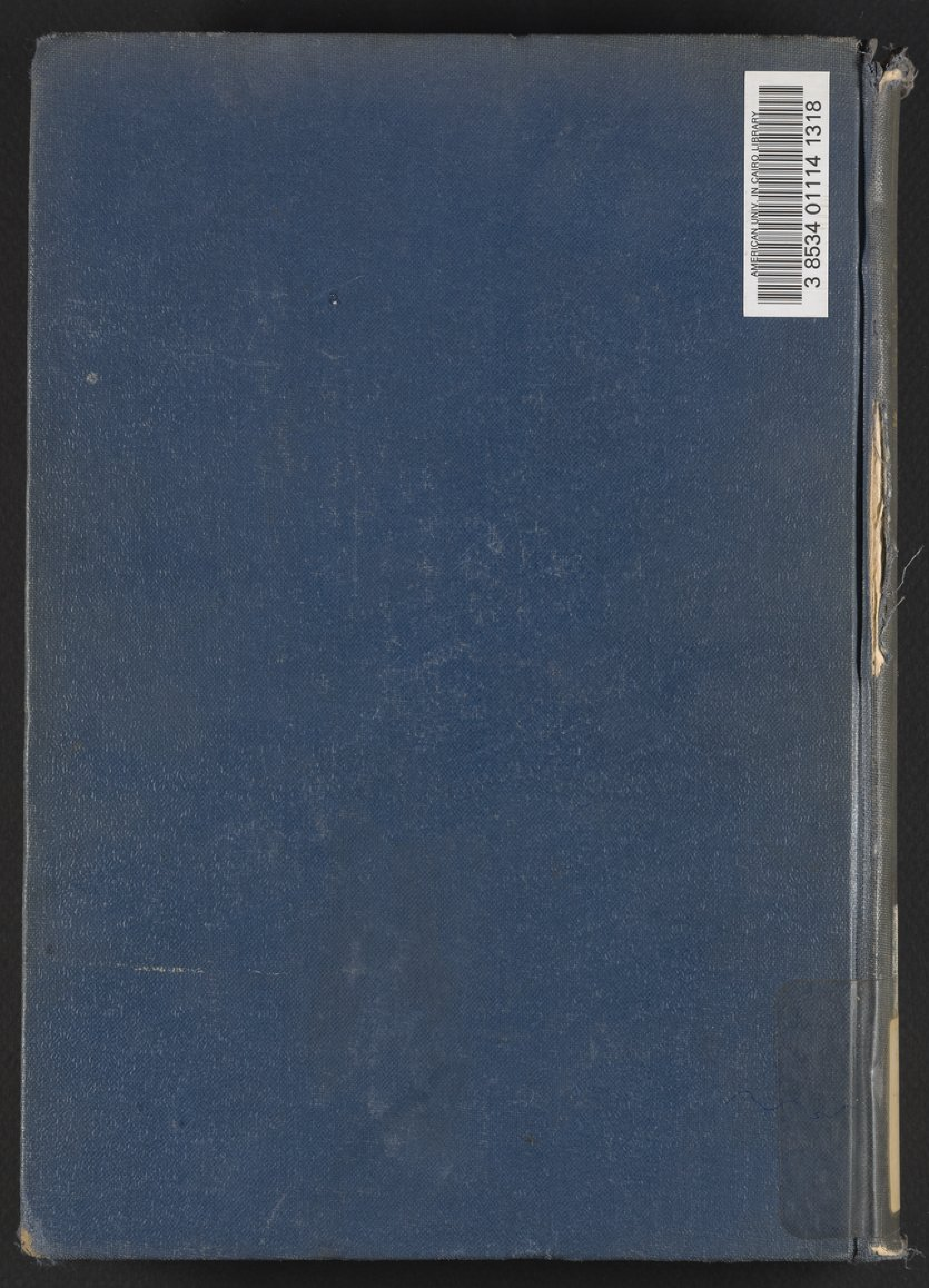
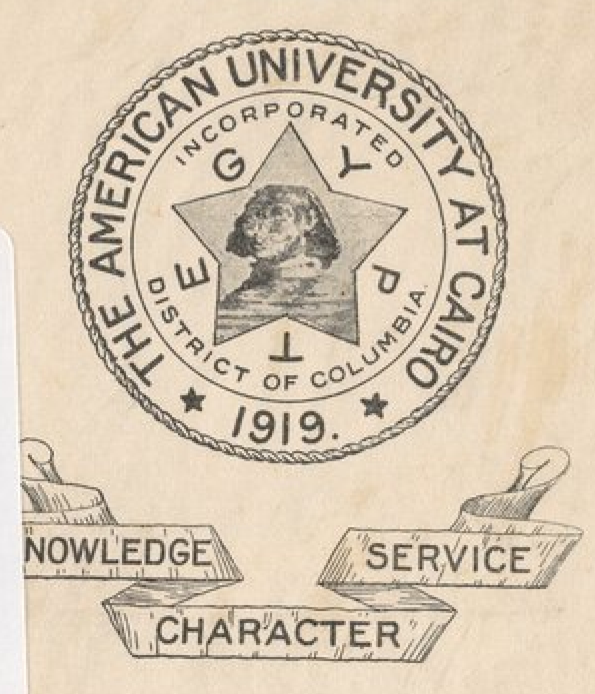
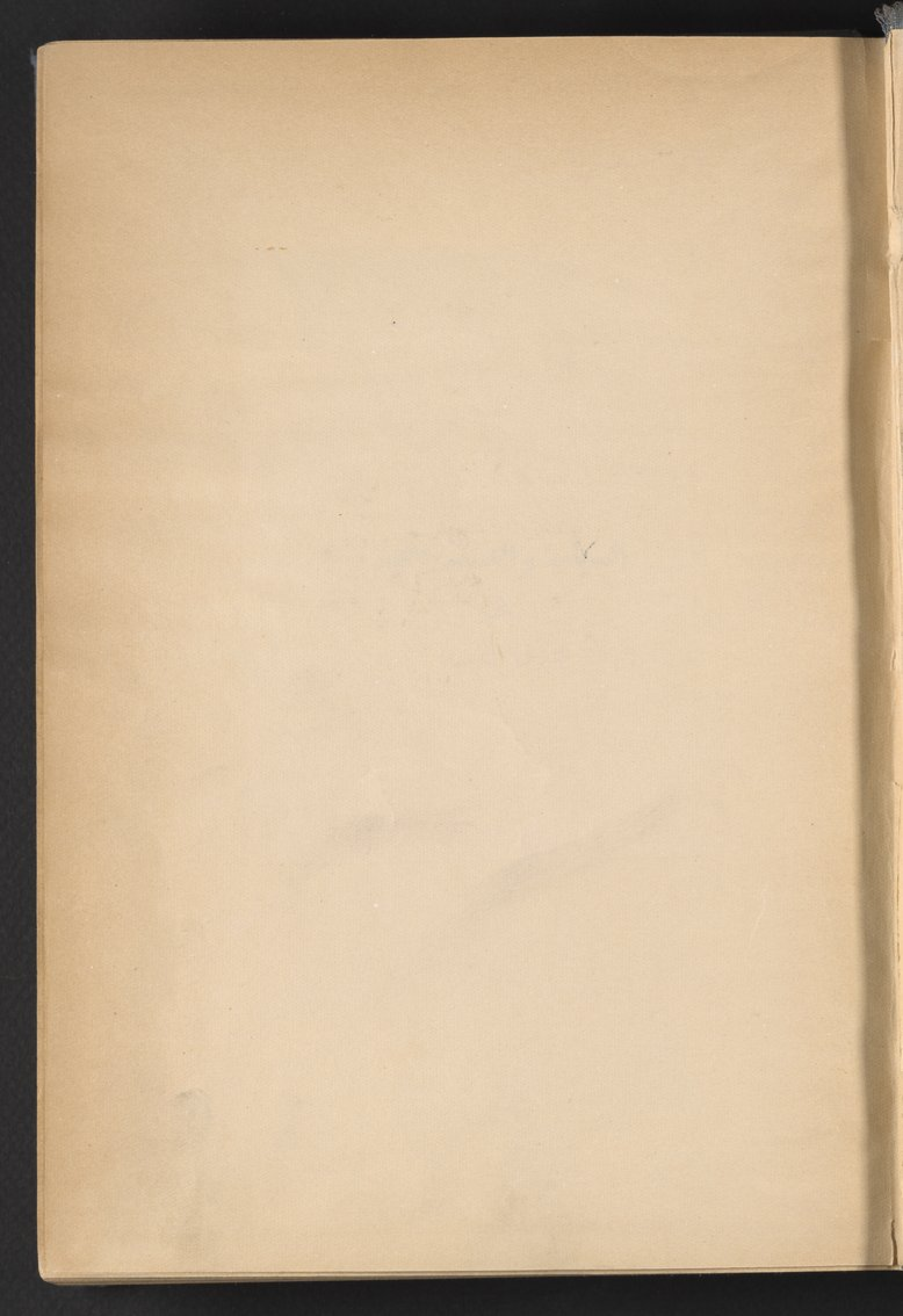
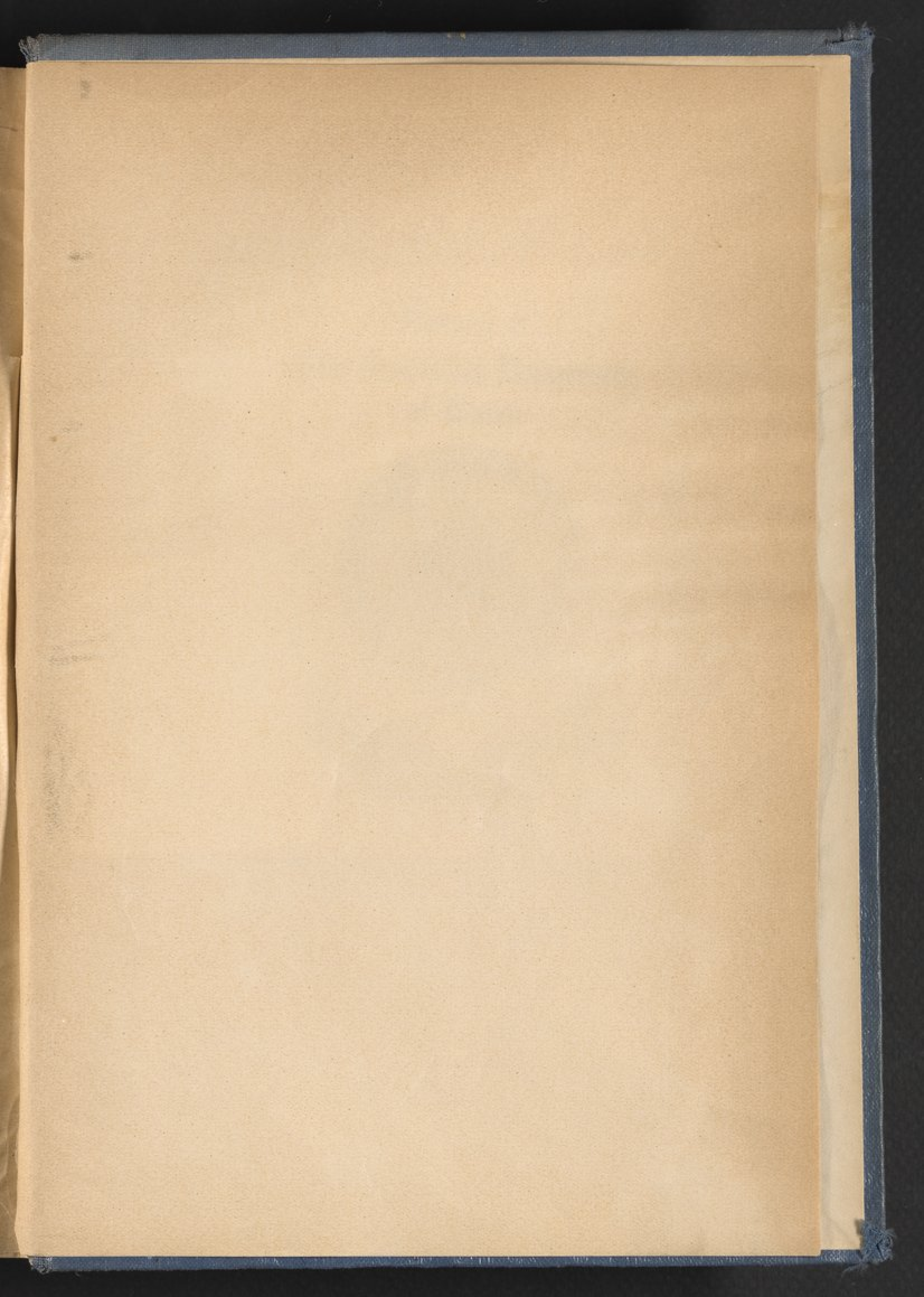

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01114 1318


THE AMERICAN UNIVERSITY AT CAIRO
INCORPORATED
E G Y P T
DISTRICT OF COLUMBIA
1919.
KNOWLEDGE
SERVICE
CHARACTER

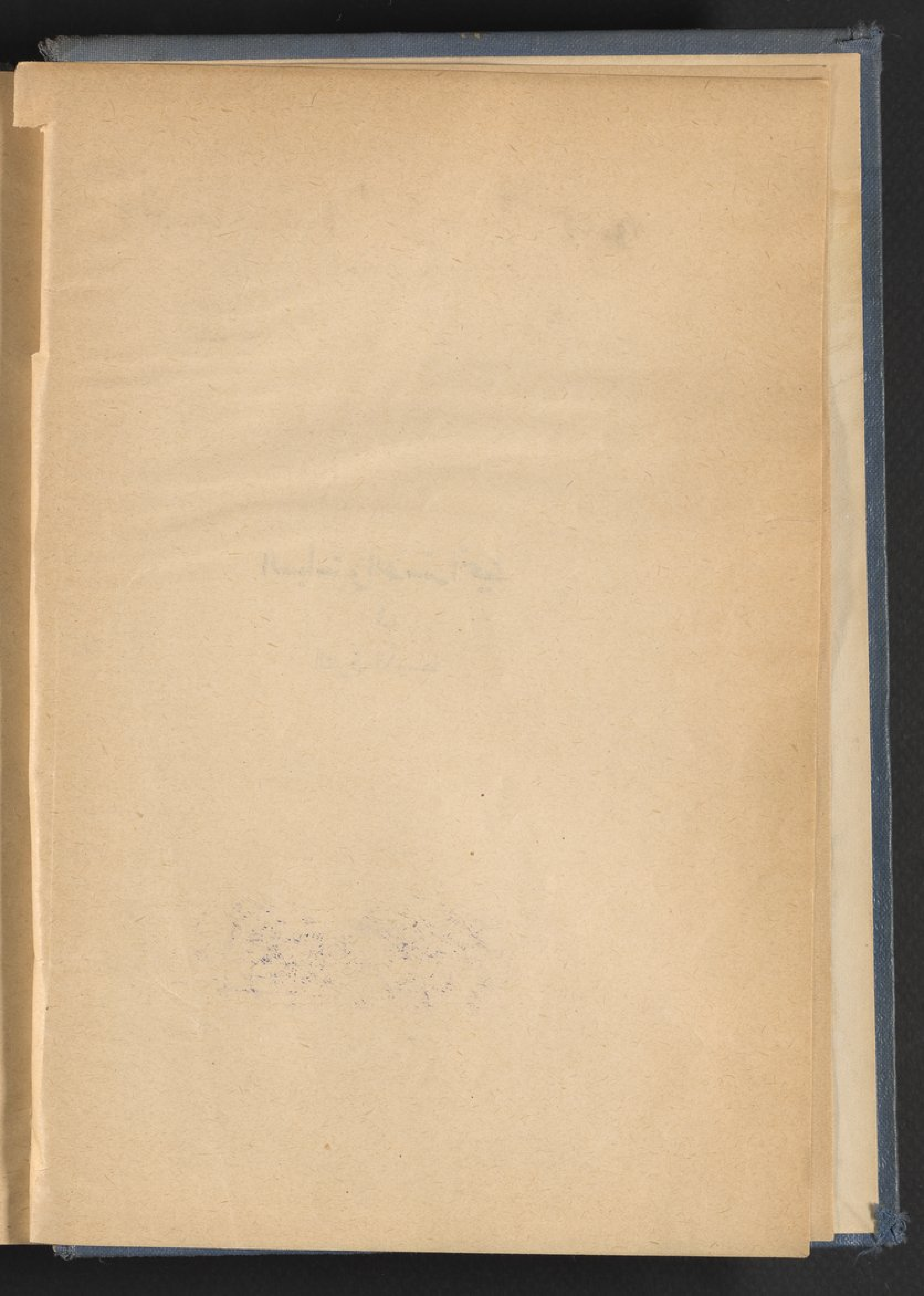




السياسة والاستراتيجية

في

الشرق الأوسط



السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط

الجزء الأول

تأليف
حسين فوزي النجار

To Prof.
B. Dodge
with my best wishes
and good hope for the
future of our nations.
Yours Sincerely
Dr. H. F. El Naggar

الطبعة الأولى

١٩٥٣



ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

الإهداء

الي روح أمى فى السماء

بعض ما لها من فضل

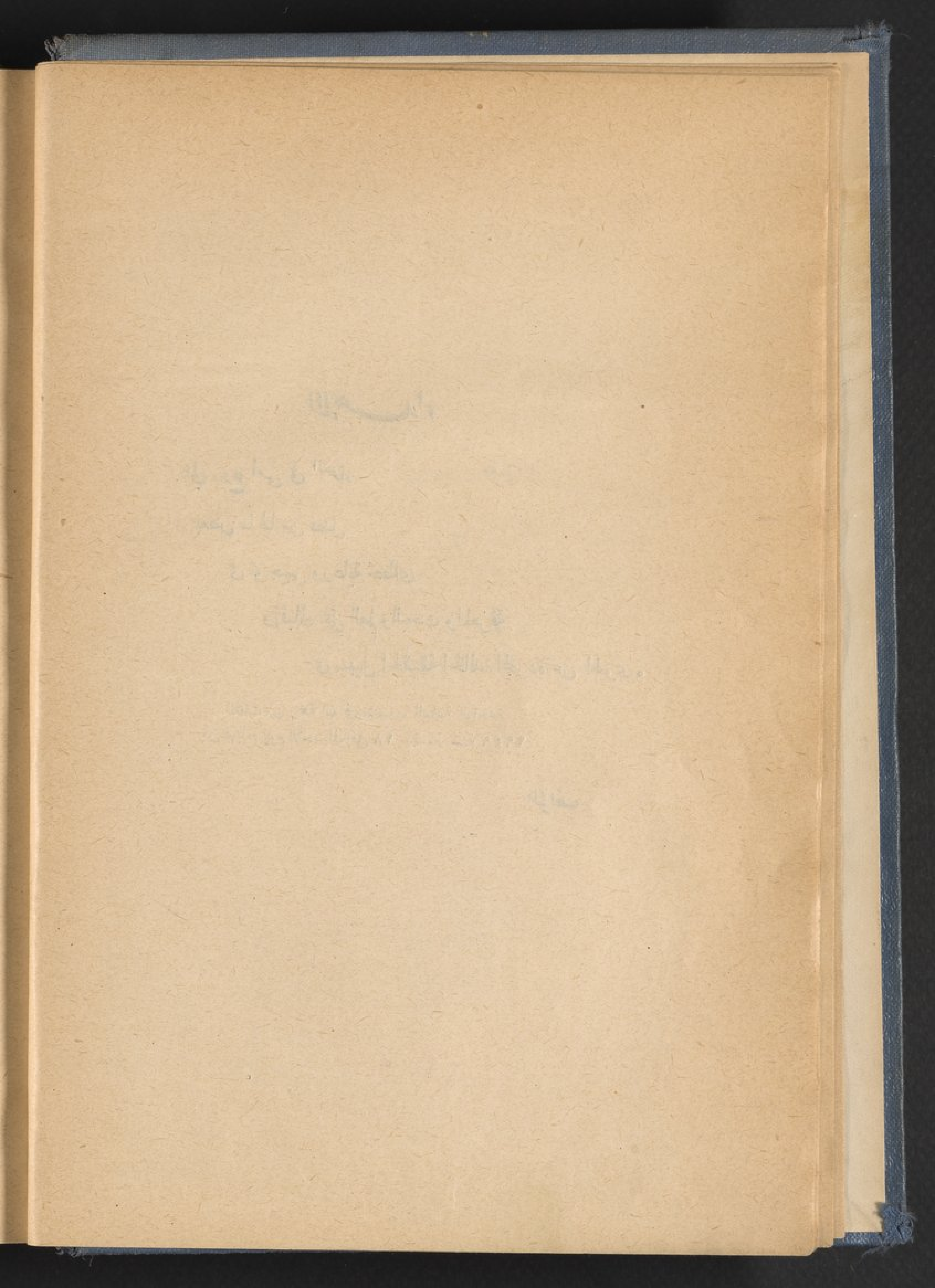
فى توجيهى ورعاية خطاى

وإقبالى على العلم والبحث والمعرفة

فى سبيل الحقيقة الخالدة المجردة عن الهوى.

انتقلت إلى رحمة الله فى منتصف الساعة الواحدة
من صباح يوم الأحد الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٩

المؤلف



محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الصفحة

تقـديم

بقـلم

الدكتور محمد حسين هيكل

يسرنى أن أقدم لكتاب الأستاذ حسين فوزى النجار « السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط » ، لأنه الكتاب الأول من نوعه فى هذا الموضوع فى المكتبة العربية على ما أعلم ، ولأن للأستاذ حسين فوزى النجار من الصلة بى منذ نشأته المدرسية والجامعية ما يجعلنى أغتبط بجهوده الموفقة فى الحياة بوجه عام ، وفى التأليف بوجه خاص .

ويزيدنى سرورا بتقديم هـذا الكتاب أنه ملأ فراغا فى أدبنا السياسى والتاريخى كنا فى مسيس الحاجة لأن يملأ . فالمطلع على هذا الكتاب يشعر بالحقيقة التى تغيب عن كثيرين . وهى أن العالم وحدة متصلة على الزمان ، وأن الأمم والشعوب تتفاعل فى حياتها على الأجيال تفاعلا هو الذى ينشىء تاريخ العالم ، وأنه ما من أمة استطاعت أن تعيش فى عزلة تامة عن غيرها من الأمم ، وأن تطور الحياة السياسية على مر القرون بصور مختلفة تأثر بأطوار العالم الاقتصادية أكثر مما تأثر بغيرها من الأطوار ، وأن هذا الأثر هو الذى صور سياسة الدول الخارجية ، وهو الذى أدى إلى الحروب حينا ، وإلى التدخل غير المسلح أو التدخل السلمى كما يسمونه حينا آخر ، وإلى مناطق النفوذ حينا ثالثاً ، وإلى الاتفاقات الثنائية أو الجماعية حينا رابعاً ، وإلى غير ذلك من ألوان العلاقات الدولية ، سلمية أو عدوانية ، مما تعاقب على التاريخ منذ نشأة التاريخ إلى يومنا هذا .

وقد كان الشرق الأوسط منذ فجر التاريخ محط أنظار العالم ، ولا يزال محط نظره فى وقتنا الحاضر . ففى هذا الشرق الأوسط نشأت الحضارات الأولى ، نشأت الحضارة المصرية والحضارة الأشورية والحضارة الإغريقية. كما تأثرت هذه الحضارات بحضارة فارس والهند . ثم انتقلت من بعد ذلك إلى أوربا فصاغت حضارتها الغربية الحالية . وفى هذا الشرق الأوسط نشأت الأديان التى صاغت للعالم عقائده ومظاهر إيمانه . فالموسوية والمسيحية والإسلام نشأت كلها حول حوض البحر الأبيض والأحمر وانتشرت منهما إلى أقطار العالم المحيطة بهما أو المتصلة بالدول التى تشاطئهما . وحول هذا الشرق الأوسط قامت المنازعات الدولية التى ترمى لحكم العالم وتوجيه مصائره . فدراسة تاريخه من نواحيه المختلفة هى فى الواقع دراسة لتاريخ العالم فى جهده المتصل نحو الكمال .

وقد حرص الاستاذ حسين فوزى النجار فى دراسة الناحية التى اختارها ـ ناحية السياسة والاستراتيجية ـ على أن يعود بقارئه إلى العصور القديمة وإلى العوامل التى أدت إلى عناية العالم عناية خاصة بهذه المنطقة من مناطقه ، ولما كان موضوع كتابه عن السياسة والاستراتيجية فقد جعل لهذه الناحية الاعتبار الأول فى بحثه ، وإن لم يغفل ماسواها من الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية وما إليها . وموقع الشرق الأوسط فى مركز الدائرة من القارات الثلاث ـ أوربا وأفريقيا وآسيا ـ يجعله ممتازاً من الناحية الاستراتيجية ، وبخاصة فيما اختص به ذلك الموقع من ميزات قل أن تتوافر لغيره من الناحية البرية والبحرية والجوية .

والواقع أن ما حدث من مد وجزر فى حقب التاريخ المختلفة قد طغى على هذه المنطقة أو انحسر عنها إن لم يكن قد صدر بالفعل عن الدول القائمة حول بحاره وشطئانه . أما وله هذه الأهمية فى الماضى ، فلن يستطيع أحد

فهم التاريخ على حقيقته مالم يعرف من أمر هذا الشرق الاوسط ودقائق حياته ما يجلو أمامه صحف هذا التاريخ بوضوح يستطيع معه أن يدرك مرامى السياسة الدولية حوله .

وأهمية الشرق الأوسط فى العصور الأخيرة ليست دون أهميته فى العصور المتقدمة إن لم تزد عليها . لقد كان الشرق الأوسط فى الأيام الخوالى ممر التجارة بين الشرق والغرب ، وكان المتسلط على هذا الشرق الأوسط من أبنائه أو من الأجانب عنه هو المتحكم إلى حد بعيد فى هذه التجارة . وقد ازدادت أهمية الشرق الأوسط من هذه الناحية منذ القرن السابع عشر ، ثم أطردت هذه الزيادة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ حين بدأت أوربا سياستها الاستعمارية فى آسيا ، ثم حين شقت قناة السويس ، فقربت بين الشرق والغرب على نحو لم يفت المفكرين من قبل ، بل منذ عهود الفراعنة ، وفى عهد الفتح الإسلامى الاول لمصر . فلما استهل عصر الطيران وبدأت الطرق التجارية تصبح عالمية غير مقصورة على منطقة هذا الشرق الاوسط إذا منابع البترول تلفت إليه النظر أكثر من ذى قبل ، وإذا بعض البلاد التى كانت تعتبر صحراء جرداء كبلاد العرب ، أو تعتبر قليلة الأهمية كاليمن أو العراق أو فارس ، تقفز إلى الصف الاول فى نظر الاقتصاد العالمى ، وإذا العالمان القديم والجديد - أوربا وأمريكا - يتسابقان يريد كل منهما أن تكون له الكلمة الاولى والنفوذ الظاهر فى هذه البلاد . لهذا بقى اسم الشرق الاوسط يتكرر على ألسن الساسة فى دول العالم الكبرى كما كان يتكرر من قبل ، وأكثر مما كان يتكرر من قبل .

وقد لعب الشرق الاوسط أدوارا خطيرة فى حياة العالم ، سواء بنفسه أو بالدول التى غزته واستقرت فيه . وكان من حظه أن نشأت فيه الإمبراطورية الإسلامية وأن امتدت منه إلى بلاد المغرب حتى مراكش وإلى الشرق حتى

الهندو الصين ، وأن أصبحت هذه الكتلة مخشية الجانب فى بعض أدوار التاريخ ، وأن انضمت إليها تركيا لتصبح دولة الخلافة الإسلامية عدة قرون حسوما، وإن أدى هذا الانضمام إلى ظهور المسألة الشرقية فى القرن التاسع عشر . فلما تدهورت تركيا وأصبحت الرجل المريض ، لم تستطع أن تقاوم الغزو الغربى فى أوائل هذا القرن العشرين كما قاومه صلاح الدين الايوبى فى عهد الحروب الصليبية . بذلك انتهت حلقة من حلقات التاريخ العالمى وبدأت حلقة أخرى تطورت ولا تزال تتطور أثر الحربين العالميتين الاولى والثانية. ومن العسير التكهن بما يتمخض عنه هذا التطور .

وهذا الجزء الأول من كتاب « السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط» يقف من أحداث التاريخ عند نهاية الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٨ وماتلاهذه الحرب إلى مايقارب الحرب العالمية الثانية . أما الجزء الثانى الذى أعد المؤلف مواده تحت الطبع وسيظهر عما قريب ، فسيتابع أحداث العالم فى هذه المنطقة الجوهرية من مناطقه حتى وقت ظهوره . وحسبك أن تطلع على هذا الجزء الاول لترى غزارة مادته ، وسعة الرقعة التى يتناولها من العالم ، وتفاعل الأحداث فى هذه الرقعة تفاعلا قوى الاثر عميقه فى توجيه حضارة العالم وسياسته واقتصاده ؛ ولترى العوامل الظاهرة والخفية التى لعبت أدوارا أساسية أو أدوارا ثانوية فى تطوره ؛ ولتدرك صدق قولهم أن لاجديد تحت الشمس ، وأن الحوادث تتكرر مختلفة الصور والالوان متفقة الدوافع فى جزرها ومدها ، وأن المشتغل بالشئون العامة لا غنى له عن تتبع هذه الأحداث والحوادث إذا أراد أن يصور المستقبل تصويراً صحيحاً على هدى الماضى وما كان فيه .

ولقد كان طبيعيا أن يعنى المؤلف عناية خاصة بالمسألة المصرية منذ الحملة الفرنسية وولاية محمد على أمر مصر . فمصر وطنه ووطننا جميعا . ولمصر من

لمكانة فى الشرق الأوسط منذ أقدم عصور التاريخ ما يطبع تاريخ هذه المنطقة من العالم بطابع خاص . فمن مصر صدرت الحضارة العالمية الأولى . وفى مصر ظهر موسى وانتقل منها إلى فلسطين . وعلى ضفاف النيل بدأ نشاط المسيحية ، فلما كان الاسلام كان لمصر أثرها فى تطور الامبراطورية الاسلامية ، وعلى الرغم من دخول مصر فى الامبراطورية الاسلامية فقد بقيت ولها فى هذه الامبراطورية طابع خاص جعل لها من الاستقلال عن عاصمة الخلافة ما لم يتسن لغيرها من البلاد الاسلامية الاخرى . وجهاد مصر فى سبيل الحرية منذ الحملة الفرنسية ، وحماية مصر للأحرار من العرب طيلة القرن التاسع عشر وفى مستهل هذا القرن العشرين قد كان لها الاثر الاول فى نهضة شعوب الشرق الاوسط فى هذه الحقبة الاخيرة من حقب التاريخ . لاغرو وذلك شأنها ، وهى وطن المؤلف ووطننا جميعاً ، أن تنال من عنايته القسط الوفير .

وقد يلفت النظر أن تكون مصر بين الشعوب الافريقية هى وحدها التى تدخل فى نطاق الشرق الاوسط من بين دول أفريقيا جميعا . فما سواها من دول هذا الشرق الاوسط قد كانت على حقب التاريخ أسيوية كلها . وذلك ما دعا بعضهم إلى القول بأن الثقافة المصرية منذ أقدم عهود التاريخ ثقافة أسيوية تمت لآشور وفارس والهند بصلات عدة . ولعله كذلك هو الذى دعا اليوم لتكون مصر بين دول الجامعة العربية هى وحدها الدولة الافريقية . وأنت تشعر من خلال هذا الكتاب أن مصير مصر ارتبط بمصائر الشام والعراق أكثر مما ارتبط بمصائر السودان وليبيا ، وأن السياسة المصرية تتطلع إلى تلك البلاد أكثر من تطلعها إلى الجنوب أو إلى الغرب ، ترى أيظل ذلك وضعها فى المستقبل ، أم ترى تمتد رقعة الشرق الاوسط جنوباً وغرباً لتتخطى الصحارى الفاصلة بين مصر والسودان ، وبين مصر وليبيا كما تخطت الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ، وبين مصر وبلاد العرب ؟

وإذا كان المؤلف قد أشار إلى هذا الموضوع فى الجزء الاول من كتابه ، فأحسبه سيتناوله بالتفصيل فى الجزء الثانى منه .

أما وذلك شأن الكتاب « السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط » فلا مبالغة فى القول بأن المكتبة العربية كانت فى أمس الحاجة إلى مثله . بل لا أحسبنى أغلو إذا قلت أن كل مشتغل بالشؤون العامة وبالأمور السياسية لا يستطيع أن يسير فى طريقه على هدى إذا هو لم يتعمق فى التاريخ العام وتاريخ المنطقة التى يمارس نشاطه فيها بنوع خاص . ومصر والبلاد العربية جميعا وبلاد الشرق الاوسط كلها كثيراً ما عانت من سياسة الارتجال أكبر الضرر . فلعل هذا الكتاب وما إليه من مثله يجنب هؤلاء الساسة ذلك الارتجال ، ويدعوهم للتفكير العميق كيما يكفلوا لبلادهم ولأبنائها الحرية والرخاء والطمأنينة .

وانى اذ أختتم هذه الكلمة فى تقديم الكتاب ، أخلى بين القارىء وبين فصوله المختلفة ، مطمئنا إلى أنه سيجد فيه من الفائدة والمتعة ما يلذه ويفيده .

محمد حسين هيكل

المقدمة

كان من آثار الحرب العالمية الثانية أن أخذ الشرق الأوسط يحتل مكان الصدارة من اهتمام السياسة العالمية الجارية ، اهتماما لم يكن مبعثه تلك العوامل القديمة التى أضفت على تلك المنطقة طوال تاريخها القديم والحديث ألواناً من الأهمية والرعاية ، كمعبر اجتازته الهجرات التاريخية الكبرى ، أو ممر للجيوش العابرة أو المتصارعة على أديمه ، أو ملتقى ثقافات وأديان كيفت تقاليد العالم وعاداته ومأثوراته . ولم يكن مبعثه تلك العوامل الجديدة التى بدأت تتخذ سماتها ببداية الاستعمار الأوربى فى الشرق الأقصى ، والتى أخذت تتطور بعد عودة الطرق التجارية البرية عبر الشرق الأوسط إلى نشاطها القديم الذى شهدته العصور الوسطى ، والتى أخذ التجار والمستعمرون يهجرونها بعد كشف الطريق البحرى حول أفريقيا حتى عادت إلى سابق مجدها بعد أن شقت قناة السويس وتقدمت وسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية ، ولم يكن مبعثه وفرة البترول فى أرضه ، وما لهذه المادة من أهمية عمرانية واستراتيجية فى عالم الصناعة وفى عالم الحرب . وإنما كان مبعثه عامل جديد أخذ يكيف اتجاهات السياسة العالمية ، ويرسم خطوطها ويوجه أساليبها ، هذا العامل الجديد هو طغيان المذهب الشيوعى وسيطرته على كثير من الدول ونفوذه إلى غيرها نفوذاً أخذ يهدد نظمها بالانهيار والزوال . وكان من آثاره انقسام العالم إلى كتلتين كبيرتين الكتلة الشرقية أو الشيوعية وتتزعمها روسيا ، والكتلة الغربية أو الرأسمالية وتتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية .

وأهمية الشرق الأوسط بين هاتين الكتلتين أنه حاجز ضخم من الأرض يمتد على طول شمال أفريقيا ، ومن بحر الإدرياتيك فى الغرب إلى جبال الهملايا فى الشرق ويقف دون الامتداد الشيوعى ، ويحول بينه وبين الوصول إلى المراكز الحيوية الهامة التى تستند إليها الكتلة الغربية فى العالم ، وتعتبرها سياجاً لنظامها وحصناً له من طغيان الشيوعية ويحقق توازن القوى بين الكتلتين المتنافستين .

ثم أن هذا الحاجز الضخم من الأرض يكون وحدة إقليمية طبيعية رغم الفروق

الملحوظة بين أجزائه ، وفوق ذلك ، يكون وحدة ثقافية تمتد جذورها إلى أزمنة متناهية فى القدم ، شهدت مطلع الحضارة وقيام المدنيات ، وسبقت بهما بلاد العالم أجمع ، ثم دعمها وقوى أصولها قيام إمبراطوريات قوية استطاعت أن تجمع بقاعه فى وحدة سياسية متينة لأزمان طويلة ، فقد امتدت الإمبراطورية المصرية القديمة — وهى أولى إمبراطوريات التاريخ — من أقصى بلاد النوبة فى الجنوب إلى أعالى الفرات فى الشمال ، ومن حدود ليبيا فى الشرق إلى حدود فارس فى الغرب ؛ ثم الإمبراطورية الفارسية ، فإمبراطورية الإسكندر الذى كان يهدف إلى نشر الثقافة الهيلينية بين البلاد التى دانت له ، حتى إذا قامت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب استطاعت أن تضم بلاد الشرق الأدنى إلى المحيط الإطلنطى فى الغرب ، فى الوقت الذى قامت فيه الإمبراطورية الفارسية تنشر سيادتها على الشرق من بادية الشام غربا إلى حدود الهند شرقا .

وكانت هذه الإمبراطوريات التى تواترت خلال العصور على سيادة هذه المنطقة تبث حضارتها وتنشر علومها وفنونها وتقاليدها ودياناتها بين الشعوب التى تحكمها ، مما جعل الأصول القديمة لحضارة الشرق الأوسط لاشذوذ فيها ولا اختلاف .

ثم جد عامل جديد كانت له آثاره البعيدة فى ربط هذه الشعوب التى تقوم فى الشرق الأوسط برباط قوى من الدين والثقافة والجنس ، فضلا عن الوحدة السياسية التى جمعت بين بلاده لأزمنة طويلة . هذا العامل الجديد هو ظهور الإسلام وانتشاره بين هذه الشعوب ، والفتوح الإسلامية الباهرة التى طوت فى امتدادها ملك كسرى وقيصر وورثت أملاكهما ، وقيام حكومة إسلامية تربط هذه البلاد فى نظام سياسى محكم يستمد أصوله من سيادة الخليفة الروحية والزمنية ، ومن شريعة القرآن ونهج السنة .

وقد صحب انتشار الإسلام بين هذه الشعوب حركة استعراب قوية ، كانت فى بعض الأحيان تسبق انتشار الدين وذيوعه ، فقد صحب الغزو العربى وامتداده الحربى غزو جنسى تمثل فى هجرة أفواج من القبائل العربية أخذت تفد تباعاً إلى البلاد المفتوحة تقيم فيها وتستوطنها وتختلط بسكانها اختلاطاً كان من آثاره استعراب هذه

الشعوب استعراباً أكثر ما كان وضوحاً فى انتشار اللغة العربية وحلولها محل اللغات المحلية وقضائها عليها فى أكثر البلاد المفتوحة .

وكانت الوحدة التى ربط بها الإسلام شعوب هذا الإقليم لاتقوم على الدين فحسب بل تقوم على انتشار اللغة العربية واختلاط العرب اختلاطاً تاما بشعوب هذه البلاد ، وظهور ما يعرف برابطة العروبة ، وغلبة هذه الرابطة فى كثير من الأحيان على عوامل القومية المحلية فى الشعوب التى استعربت وإن احتفظت هذه الشعوب بسماتها البارزة واضحة قوية واستطاعت إلى حد كبير أن تتمثل هؤلاء المهاجرين وتنزلهم على طبائعها الخاصة وتهضمهم فى قالبها العام ، كما نراه بين المصريين والبربر فى شمال أفريقيا إلا أن وحدة اللغة ثم وحدة الدين جعلا طابع العروبة هو الصفة البارزة التى تربط هذه الشعوب بعضها ببعض وظهر فى التاريخ ما يعرف بمجموعة الشعوب العربية تربطها وشائج الدين واللغة والثقافة ، ووحدة الأهداف والأغراض ، وإن لم يجمعها نظام سياسى واحد ، وتشمل هذه المجموعة القوية فى الوقت الحاضر بلاد العراق والشام بدويلاته الحديثة ومصر ودول شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية بممالكها وإماراتها ، وهى كما ترى مجموعة قوية متماسكة تحتل أعظم موقع استراتيجى وتجارى فى العالم ، وتألف بعضها جامعة الدول العربية فى الوقت الحاضر وتحاول الأخرى أن تضم إلى الجامعة العربية وتلقى فى محاولاتها تعضيداً قوياً من أعضائها ، ولا يحول دون اشتراكها فيها إلا ما يحيط بها من ظروف سياسية قاهرة .

وليست الرابطة العربية التى تتمثل فى مجموعة الشعوب العربية التى تضمها هذه الرقعة الهائلة من الأرض التى تقف حاجزاً بين الكتلتين الشرقيه والغربيه ، وتدعم مبدأ توازن القوى بينهما هى كل ما يتميز به عاملا الوحدة والتماسك فى هذا النطاق الجغرافى من الأرض ، بل هناك الرابطة الإسلامية العامة التى تضم إلى هذه المجموعة المتماسكة شعوباً أخرى مجاورة لم تستعرب ما استعربت هذه البلاد ، ولكن ربطت بينها وحدة الدين ووحدة الأحداث التاريخية . بل كان منها ما مد رواقه على بلاد العروبة قروناً طويلة من الزمان ، كالشعب التركى الذى فرض سيادته الروحية والزمنية على العالم العربى زهاء أربعة قرون ، من مطلع القرن السادس عشر إلى مستهل القرن العشرين .

وتتمثل فى هذه الشعوب جميعاً الوحدة الإسلاميه الكبرى ، هذه الوحدة التى استوحاها السلطان عبد الحميد والمصلح الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى الدعوة إلى الجامعه الإسلاميه فى القرن التاسع عشر ، وكان هدفها تكتيل البلاد الإسلاميه وتوحيدها ضد أخطار توغل الاستعمار الأوربى فى البلاد الإسلاميه ، هذا الاستعمار الذى كان قد نفذ إلى بلاد الهند وجزر الهند الشرقيه وشمال أفريقيا وأخذ يدب دبيبه الخيف فى فارس ، وفى بلاد الدولة العثمانيه .

هذه الوحدة الإسلامية الكبرى بما فيها من الشعوب العربية تضم مجموعة بشرية هائلة تبلغ قرابة أربعمائة مليون وتمتد فى نطاق واحد من الأرض يصل إلى بلاد الصين فى الشرق وإلى البلقان ونهاية إمتداد أفريقيا الشمالية فى الغرب لا يفصل بين دولها أو شعوبها فاصل بشرى أو إقليمى أو ثقافى فأن وحدة الثقافة العامة فما بينها تستمد أصولها من دينها الحنيف الذى يدعو إلى الأخوة والتماسك أولا ثم من روحها الشرقية التى أتسم بها الشرق منذ قديم الزمن .

وقد أخذت هذه الوحدة الإسلامية الكبرى تشعر بضرورة التماسك فما بينها فى الوقت الحاضر وأخذت تتجه إلى تنسيق سياستها الخارجية حيال السياسة العالمية العامة وإتجاه الوحدات الجنسية والثقافية والأقليمية فى العالم إلى التكتل والتجمع كالوحدة التى تجمع شعوب أمريكا اللاتينية خاصة وتربطها بشعوب القارة الأمريكية عامة ، والوحدة الأوربية التى نادى بها كثير من الساسة فى القرن الأخير ، أو الوحدات الجنسية التى أعتنقها بعض المفكرين والساسة كوحدة الشعوب السلافية أو الجرمانية أو الطورانية . هذه الوحدات الثقافية أو الاقليمية أو الجنسية سواء منها ما كان الإتجاه إليها قديماً أو كان وليد التطور فى التفكير السياسى الحديث لا تتسم بعوامل الوحدة القوية التى تتسم بها الوحدة الاسلامية الكبرى من حيث وحدة الدين الاسلامى وتماسكه والأخوة التى فرضها بين إتباعه والارتباط الجغرافى وتشابه الأصول الثقافية أو وحدتها وتقارب الجنس ما يجعل منها أقوى وحدة يمكن أن يرجى لها البقاء والاستمرار .

أما موقف هذه المجموعة أو الوحدة الاسلامية بين الكتلتين المتنازعتين فهو الذى يضفى عليها هذه الأهمية التى تتميز بها فى الوقت الحاضر . فهذه المجموعة فضلا عن أنها تمتد فى نطاق من الأرض يقف حاجزاً قويا أمام الكتلة الشرقية أو الشيوعية ويحول دون نفوذها أو تسربها إلى البلاد الأخرى التى تقبع وراءها وتتركز فيها مصالح الكتلة الغربية أو الرأسمالية فأنها بأعرافها وتقاليدها ودينها لاتتقبل الفكرة الشيوعية بسهولة تمهد لها الانتشار والذيوع . .

ثم أن امتداد الكتلة الشرقية أو الشيوعية فى نطاق من الأرض يمتد من شرقى آسيا ويطل على المحيط الهادى من الشرق إلى الغرب فى أوربا حيث تقف عند برلين وهى فى جزء كبير من هذا الامتداد تطل على مجموعة الشعوب الاسلامية ، قد جعل ميزان القوى فى العالم ينحرف إلى منطقة الشرق الأوسط التى تضم فى نطاقها مجموعة الشعوب العربية والتى تربطها بالشعوب الاسلامية على إمتدادها فى الشرق الأقصى تلك الروابط القوية التى أشرنا إليها .

ولقد ظلت أوربا طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين إلى نهاية الحرب العالمية الثانية موطن توازن القوى فى العالم وكان ميدان غرب أوربا هو الميدان الذى ظلت القوى العالمية تتطاحن فيه للاخلال بهذا المبدأ منذ بداية الحروب النابليونية التى إجتاحت القارة وأخلت بمبدأ توازن القوى فيها اخلالا شديداً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ثم كان ظهور بروسيا بقوتها العسكرية العارمة وتحقيق الوحدة الألمانية وإتصال العداوة بينها وبين فرنسا ووضوح مرامى السيادة والتفوق الألمانى فى القارة وفيما وراء البحار قد جعل ميزان القوى فى غرب أوربا رهناً باستتباب الرضاء بين الدولتين الكبيرتين فى القارة نفسها وقد دفع الحرص على سلامة مبدأ توازن القوى بدول أوربا إلى الارتباط بمحالفات عسكرية لصيانة مصالحها فكان الوفاق الثلاثى الذى يربط فرنسا وإنجلترا وروسيا وكان التحالف الثلاثى الذى يربط ألمانيا وأمبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا وكان هذا التكتل الدولى العسكرى فى أوربا بادرة النزاع الذى شب بين المعسكرين وادى إلى اشعال الحرب العالمية الأولى .

وثمة مكان آخر فى أوربا كان خطراً على سلامة مبدأ توازن القوى وهو المبدأ الذى سيطر على إتجاهات إنجلترا السياسية فى القارة الأوربية سواء فى غرب القارة أوفى شرقها، فى البلقان ، فقدكان ميداناً لمناورات السياسة الأوربية حول المسألة الشرقية وكانت الأطماع الروسية فى السيطرة على البواغيز وزعامة الشعوب السلافية وهما لب المسألة الشرقية عوامل الخطر الذى ينبع من البلقان على ويهدد توازن القوى فى أوربا وفى العالم .

وقد جاء حل المسألة الشرقيـة طبيعياً بعد الحرب العالمية الأولى ولم تعد مثارا للخلافات دولية وخاصة بعد أن نفضت روسيا عنها أطماعها التقليدية ولجأت إلى نوع من العزلة الحكيمه لتنظيم أمورها الداخليه قبل أن تغامر بالاشتراك فى مشاكل العالم الخارجيه .

وانتهت الحرب العالميه الأولى بتنظيم التوازن الدولى فى أوربا على الوجه الذى ارتضته الدولتان المنتصرتان وهما إنجلترا وفرنسا وخاصة بعد أن تمسكت الولايات المتحدة الأمريكيه بعزلتها التقليديه .

ولـكن ظهور الفاشيه فى إيطاليا ثم النازيه فى ألمانيا وعودة النعرة الجرمانيه للسيادة والتفوق إلى الظهور وسريان حمى التسلح والاستعداد للحرب فى ألمانيـا وإيطاليا وعقد محور برلين روما طوكيو قد جعل الخطر على سلامة مبدأ توازن القوى يبدو من جديد وكان الخطر أشد مايكون وضوحا من ناحية المانيا ولذلك تعرضت دول غرب أوربا لألوان من القلق والذعر وأصبح غرب أوربا مرة ثانيه هو الميدان الذى يمكن أن يتقرر فيه مصير القوى المتنازعة فى العالم

وقد إنتهت الحرب العالميه الثانيه بظهور مانسميه بالتكتل الجمعى للشعوب فى ظل عقيدة سياسيه أوإجتماعيه تنافح عنها وتبث لها دعايتها بين الشعوب المحايدة أو التى يمكن أن تنادى بالحياد بين الـكتلتين المتنافستين إذا قدر لدولة أن تحافظ على حيادها وسط هذا الضرام الذى يلفح الأمم والشعوب بسعيره ولهيبه .

وثم كانت منطقه الشرق الأوسط بكتلتها المتماسكة ووحدة شعوبها القويه وتأثيرها المباشر على شعوبها الشرقيه ولا سيما الشعوب الاسلاميه منها هى الميدان الذى تحقق سلامته توازن القوى بين الـكتلتين المتنازعتين ، ونستطيع بهذا أن نؤكد أن

ميزان القوى الدولية قد انحرف انحرافا شديداً نحو الشرق الأوسط ، بعد أن كان يتأرجح بين غرب أوربا والبلقان فى الفترة التى سبقت الحربين الأخيرتين .

فإذا استطاعت الشيوعية أن تنفذ إلى هذا الميدان وتسوده . رجحت كفتها فى ميزان القوى الدولية على كفة الرأسمالية رغم ماتبديه الكتلة الغربية من عناية بميدان غرب أوربا تفوق عنايتها بميدان الشرق الأوسط ، فإن هذه العناية مرجعها فى الأصل إلى إيمان الكتلة الغربية بضرورة سلامة الحصن الغربى الذى يضم الدول الكبرى صاحبة النفوذ الأول فى بلاد الشرق الأوسط ، فإن فى سلامته سلامة لدوله التابعة له ثم إن تغلغل المبادىء الشيوعية وانتشارها بين دول غرب أوربا ، ووجود جهات قوية داخلية لها بين شعوبها ، واشتراك هذه الجهات الشيوعيـة فى تسيير السياسة الداخلية والخارجية ما يدفع الرأسمالية إلى بذل مجهود أوفى لمقاومتها فى تلك البلاد ، فإن الغلبة فى هذا الميدان فى جانب الكتلة التى تقدم أعظم معونة مادية لهذه الشعوب التى لا تحفل بغير فائدتها المادية ، ولا تعنيها كثيراً النواحى الروحية ، ثم أن الآلام والتشرد والفاقة التى خلفها الحرب بين شعوبها ، والتى جعلت منها بيئة صالحة لتقبل الفكرة الشيوعية قد جعلتها أحرى بعناية الرأسمالية من أى منطقة أخرى فى العالم .

وثمة عامل آخر يفسر لنا هذا الجمود فى سياسة الكتلة الغربية نحو دول الشرق الأوسط هو أن الولايات المتحدة الأمريكية التى أخذت على عاتقها عون دول غرب أوربا ومساعدتها على التخلص من آثار الفاقة والعوز والتشرد التى خلفتها الحرب بين شعوبها . قد تركت عبء العناية بميـدان الشرق الأوسط إلى انجلترا ، التى تمسكت بسياستها التقليدية حيال شعوبه لطول ما مارست من أسباب السيادة والنفوذ بين دوله ، وأغضت عن العوامل القومية والسياسية التى بدأت تعلن عن نفسها وتفيد من تطور الأحداث السياسية لتحقيق أهدافها فتركت القضايا القائمة بينها وبين هذه الشعوب معلقة لاتحل كقضية مصر والعراق .

وقد خلق جمود السياسة البريطانية حيال مشاكل الشرق الأوسط نوعاً من القلق والتوتر فى هذه المنطقة لاتحمد عواقبه ، ومن العجيب أن تتسم السياسـة البريطانية بهذا الجمود ، وهى التى اتصفت بالمرونة الفائقة فى مواجهة مشاكلها ، وتفهم نفسيات

الشعوب التى تتعامل معها ، وتقدير ما يحيط بهذه الشعوب من تيارات سياسية مختلفة ، على ضوء ما تراه من تطور السياسة العالمية ، واتجاهاتها البعيدة أو القريبة .

وإذا كان هذا الجمود فى سياسة بريطانيا فى الشرق الأوسط قد خلق نوعاً من التوتر والقلق بين شعوبه ، فقد أوجد حالة من الشك فى نوايا بريطانيا ، وفى صدق معونتها لهذه الشعوب على استكمال سيادتها ورفع مستواها العام .

وإذا كانت بريطانيا قد باركت مولد الجامعه العربية حتي تجعل من أممها سداً أمام الروسيا ، وعوناً لها فيما تتمخض عنه أحداث الحرب من بروز الروسيا وأمريكا فى مجال التنافس الدولى المرتقب فى الشرق الأوسط ، فقد كانت ولا ريب تدرك أهمية الروابط التاريخية التى تجمع الشعوب العربية وتقدر أهمية موقفها فى النضال القادم .

ولكن بريطانيا رغم تقديرها لاحتمالات الموقف الدولى العام فى الشرق الأوسط فإنها لاتتقدم لتصفية المشاكل التى خلفتها لها سياستها التقليدية التى انتهجتها فى هذه المنطقة منذ بداية الاهتمام الأوربى بها حتى الوقت الحاضر والتى لم تعد توافق التطور الفكرى والسياسى بين هذه الشعوب ، أو تتلاءم وتطور السياسة الدولية التى تتخذ من ميثاق الأمم المتحدة نبراساً لها .

ولعل بريطانيا تلمس مناعة هذه المنطقة ضد انتشار الشيوعية ونفوذها إليها أو على الأقل تدرك أن أنظمة الحكم فى الشرق الأوسط تحول دون تسرب الشيوعية إليه أو قيام نفوذ لها فيه ، فلا ضير عليها إن احتفظت بسياستها التقليدية فيه ، ما دامت تضمن وقوف دول الشرق الأوسط إلى جانبها دفاعاً عن نظمها وتقاليدها وأعرافها إن لم يكن انتصارا لبريطانيا وحباً لها .

ولعلها تتعلل بأهمية القواعد الاستراتيجية فى الشرق الأوسط لتبرير مسلكها حيال دوله ، والإبقاء على سيادتها ونفوذها التقليدى فيها ، وقد نجحت فى حمل أمريكا على مشايعتها فى هذا التفكير ، كما نجحت فى حملها على التسليم لها بمقتضيات الدفاع

عن الشرق الأوسط والمحافظة على أمنه والاستقرار فى ربوعه ، وضمان حيادها المشبع بالعطف فى كل ما يمس سياستها فيه .

ولم تكتف بريطانيا بالجمود تطبع به سياستها ، بل كثيرا ما تلجأ إلى وسائل الضغط والمناورات الملتوية للوصول إلى أهدافها ، مما لا يتفق وروح الحرية والمساواة وحقوق السيادة للشعوب ، تلك العوامل التى بدأت تسود فى القرن العشرين .

ولكن إذا كانت وسائل العنف والضغط السياسى قد حققت لبريطانيا كثيرا من أهدافها فى الماضى فقد أضحت أمرا لا تقره الأوضاع الدولية فى الوقت الحاضر ، وإن ظل الضغط السياسى وسيلة سلمية تلجأ إليها الشعوب الكبيرة لإملاء إرادتها على الشعوب الصغيرة إلا أنه وسيلة لا تشيع غير الشك والتوتر والحقد مما يحول دون قيام تعاون وثيق هو خير ضابط لسلام الشعوب وأمنها .

ولا ريب أن بريطانيا تدرك قبل غيرها ما يثور فى بلاد الشرق الأوسط من انفعالات الغضب والتوتر نتيجة لجمود سياستها الحاضرة وما خلفه اتصالها السابق بتلك البلاد من تراث وإحن ولكنها رغم ذلك لا تجعل لهذه العوامل النفسية تأثيراً على سياستها فنراها تتمسك باحتلال القناة ولا ترى فى هذا ما يمس الكرامة المصرية إذا كانت الكرامة الإنجليزية ذاتها لا تمس ولا تغضب لوجود قوات أمريكية فى بلادها وقد أدخلت هذه الحقيقة فى روع الأمريكيين متجاهلة فروق القياس وآثار الماضى المقيت للاحتلال البريطانى لوادى النيل .

وقد جهلت أمريكا ذاتها هذه العوامل النفسية التى تكمن فى بلاد الأسلام عند ما آزرت قيام اسرائيل وتبنت دعوة الصهيونية وما زالت تلح فى عقد الصلح بينها وبين العرب رغم أن هذه العوامل النفسية هى أعمق وأقوى ما يربط المسلمين بعضهم ببعض سواء فى بلاد الأسلام أو فى خارج بلاد الأسلام .

وإذا كان هناك من الدول الإسلامية من اعترف بقيام اسرائيل كتركيا وإيران فلا ريب أن هناك عوامل أقوى من هذه العوامل النفسية قد دفعتها إلى هذا الموقف كحرصها على معونة أمريكا التى تنثال عليها وتغمرها بالرواج الاقتصادى والمعونة الحربية

وتحميها من طغيان الشيوعية وسيادتها ولا يمكن أن نسلم بأن روح الشعب فى تركيا وإيران تشجع قيام إسرائيل أو تعطف عليها رغم ماخلفته ثورة العرب على الأتراك فى الحرب العالمية الأولى من غضب فى نفوس الترك من العرب ، ثم أن تركيا تؤمن إيمانا عميقا بترك هذه المنازعات الإقليمية فى سبيل الغرض العام المشترك وهو التكتل أمام الطغيان الشيوعى وخوفها الأصيل من روسيا .

وإذا كانت إيران وموقفها كموقف تركيا من حيث التعرض للخطر الشيوعى وحاجتها إلى المعونة الامريكية إلا أنها لم تعدم من يقوم معارضاً فى اعترافها باسرائيل فقد قامت جماعة فدائيان اسلام تطالب فى بعض ماتطالب به الغاء اعتراف إيران باسرائيل .

ولكن بريطانيا رغم هذا كله تتطلع فى اصرار عنيد إلى تصفية مشاكلها فى الشرق الأوسط على أساس المحافظة على مصالحها الإمبراطورية والابقاء على نفوذها التقليدى الذى يربطها بدوله مما يتعارض وحقوق السيادة التى تطالب بها هذه الدول والخلاص من آخر مايربطها بعجلة الاستعمار من روابط مازالت تبعث فيها ألوانا من الألم الممض والغضب المكبوت من آثار الماضى . هذا الغضب الذى تقدره بريطانيا وتحسه فلا تأمن آثاره فى المستقبل القريب أو البعيد عند ماتعلن آلهة الحرب غضبها المروع . ولا تتقدم بريطانيا بعون دول الشرق الأوسط أو مساعدتها على النهوض قبل أن تضمن استقرار العلاقات بينها وبين هذه الدول على الأساس الذى ترتجيه لمصلحتها وتصر عليه لتحقيقها ، وأول ماتمتنع عنه تسليح هذه الدول وتقويتها حربيا قبل أن تضمن هذه القوات العسكرية إلى جانبها ، ولا يكون شعور هذه الدول بقوتها الجديدة عاملا من عوامل إصرارها وقوة عارضتها حيالها ، ولا يدفعها إلى التكتل العنيف ضدها وضد مصالحها .

وإذا كانت بريطانيا تؤمن بقدرتها على فرض إرادتها على هذه الدول عندما يندلع لهيب الحرب بين الكتلتين المتنازعتين وتجد من ضرورات الحرب تبريراً لمسلكها فإنها لابد قد جهلت ما يعتمل فى هذه البلاد من روح جديد بعد أن أخذت تشعر بذاتيتها الجديدة ، وتتخلص من أخطاء الماضى وتحقق أسباب وحدتها وتكتلها .

هذا التكتل الذى تطبعه الوحدة الاقليمية والدينية والثقافيه بطابع قوى من الأخوة والتعاطف رغم مايشب بينها أحيانا من خلاف لاينهض دليلا على وهن هذه الأخوة أو ضعفها . فإن هذه الأخوة هى ميراث التاريخ فى حقبه الطوال ، وقد تمر حقبة أو بعض حقبة قبل أن تبين عن قوتها وأثرها فى توجيه الحضارة الإنسانية والسلام العالمى ، وأن أخذت تعلن عن نفسها فى شتى المناسبات الحاضرة سواء فيما بينها أو حيال الأحداث الدولية العامة .

وتجر هذه الكتلة الإسلامية فى تيارها مجموعة الشعوب الشرقية الأخرى التى لاتدين بالإسلام كالهند التى قامت تتزعم الكتلة الأسيوية للدعوة إلى السلام والتحكيم فى الحرب الكورية ، أو اليابان التى أخذت تهز بنهضتها القوية أعطاف الشرق فى مطلع القرن العشرين ، والتى كان لها من عون أممه فى كارثة زلزالها المشهور ما كان أعظم دليل على تعاطف الأمم الشرقية وتآزرها وتعاطف شعوبها .

وثمة عامل آخر تبينته بريطانيا وإن لم تجعل له من الأهمية فى تكييف سياستها فى تلك المنطقة ماتقيم له أمريكا من أهمية فى توجيه سياستها فى البلاد التى يتغلغل فيها النفوذ الأمريكى ، وإن كان لبريطانيا عذرها فيما تعانيه من أزمة مالية قد أصابتها من جراء اشتراكها فى حربين كبيرتين فى مدى ثلاثين عاما حملت فيهما أكبر العبء فى سبيل النصر فلا تستطيع أن تمد البلاد التى تخضع لنفوذها بالعون الذى تقدر عليه أمريكا وتقوم على تنفيذه . هذا العامل هو الحد من انتشار الشيوعية بتوفير الرخاء المادى والنهوض بالمستوى الاقتصادى للشعوب والحرص على دعم الاستقرار السياسى فى بلاد وإن كانت نظمها وتقاليدها تحد من انتشار الشيوعية فيما بينها أوتقبلها إلا أن ماتعانيه من فقر وقلق حول مستقبلها السياسى يجعلها تربة صالحة لتقبل الشيوعية وانتشارها .

وهذا هو مانعنيه بأن الشرق الأوسط بكتلته الاقليمية التى تحتل مكانا فريدا فى مواجهة الشيوعية وتقف حاجزا دون تسربها إلى البلاد البعيدة فيما وراء حدوده والتى تحول تقاليد شعوبه ونظمها دون سريانها اليه ، قد جعل ميزان القوى فى العالم

ينحرف اليه ويميل إلى ناحيته ويجعل منه ميدان الصراع القادم فى سبيل النصر لكتلة على الأخرى أو لمذهب على الآخر .

وهذا هو مانعنيه بأن أهمية الشرق الأوسط لاترجع إلى أهميته التاريخية كموطن للثقافات أو معبر للهجرات التاريخية أو طريق تعبره أهم المواصلات العالمية أو منبع هائل لأهم مواد الحرب وهو البترول ، وإنما أهميته الحقيقية فى أنه حاجز ضخم يضم مجموعة من الشعوب تربطها أواصر تاريخية يقويها الدين وتدعمها الثقافة ويشدها إلى بعضها فى كثير من شعوبه وحدة الجنس واللغة والأهداف مايجعلها أقوى وحدة بشرية تحتل مكانا هاما فى العالم .

وهذه الأهمية التى نراها للشرق الأوسط بكتلته الاقليمية ومجموعة شعوبه هى أقوى ماتكون فى وقت السلم حيث تتضارب تيارات السياسة الدولية وتتجاذب بين ربوعه وتجد الاطماع الدولية فيه قنطرة تعبر فوقها إلى السيطرة على العالم وسيادته ، ولا نقول أن هذه القنطرة قد عبرها الاسكندر الأكبر للوصول إلى الهند بغية تحقيق وحدة عالمية تسودها الحضارة الهيلينية ، وكانت معبرا للاسلام فى توسعه وانتشاره شرقا وغربا ، أو ممرا اجتاحته جحافل المغول لدعم تفوقها العسكرى على العالم فى التاريخ القديم والمتوسط فحسب بل تطلع اليها نابليون ليعبر فوقها إلى الهند والشرق الأقصى فى التاريخ الحديث وكانت حملته على مصر وسوريا الخطوة الأولى لتحقيق هذا المشروع وفكر فيها الأمبراطور ولهلم الثانى فدعم ارتباط المانيا بالدولة العثمانية وكان مشروع سكة حديد بغداد مظهراً عملياً لتنفيذ سياسته البعيدة حتى إذا كانت التسويات التى تمت بعد الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا جد حريصة على دعم سيادتها ونفوذها على هذا النطاق الإقليمى الذى يقوم على المنافذ البرية والبحرية إلى أمبراطوريتها الواسعة وتسعى روسيا جاهدة فى الوقت الحاضر إلى عبور هـــذه القنطرة لتبسط سيادتها على العالم .

ووسائل السياسة وقت السلم غيرها وقت الحرب ونجد هناك مظهرين عمليين للأساليب السياسية فى الشرق الأوسط وقت السلم يوجههما مدى الارتباط الدولى بين حكوماته وشعوبه والدول المتنافسة فيه . فالدولة صاحبة السيادة أو النفوذ فى الأقليم

تدعم إرتباطها بالمعاهدات والمواثيق التى تضمن لهـا تحقيق أهدافها وأطماعها فيه وغالباً ما يكون مركز الدولة ونفوذها عاملامهما فى توجيه هذه المعاهدات والمواثيق إلى الوجهة التى تضمن لها مصالحها وتحققها كالمعاهدات التى ربطت بين بريطانيـا والعراق وبينها وبين مصر ثم بينها وبين شرق الأردن فى فترة ما بين الحربين وما تحاولة بريطانيا من تجديد هذه الارتباطات بمعاهدات جديدة بعد الحرب العالميـة الثانية . وإذا كانت هذه المعاهدات تهدف إلى تحقيق المصالح الحيوية للدولة الغالبـة إلا أنها لاتهمل آمال الشعوب ومطامحها كسند يدعم سياسة الحكومات القوميـة والخارجية بين شعوبها ويضمن تنفيذ هذه المعاهدات بروح يغلب عليها التعاون أكثر مما تغلب عليها روح المقاومة الشعبية .

أما الدولة التى لاسيادة لها ولا نفوذ فى الأقليم فأنها تلتمس تحقيق أهدافها ومطامعها لدى الشعوب فتعمل جاهده على تملق عواطف الشعوب وبث دعايتها التى تهدف إلى تقرير مركزها بين هذه الشعوب فى الوقت الذى تعمل فيه على بث روح المقاومة والعداء نحو الدولة صاحبة النفوذ .

وقد جرت ألمانيا وإيطاليا على هـذه السياسة فيما بين الحربين وقت أن كانت أطماعهما تدفعهما إلى سيادة العالم وتحطيم الحواجز التى تحول بينهما وبين تحقيق هذه السيادة بالقضاء على قوى السيادة البريطانية والفرنسية فى العالم . وقد نجحت هذه السياسة إلى حدما فى الشرق الأوسط وخاصة فيما يتعلق بألمانيا فأن سياسة إيطاليا فى ليبيا فد أثارت موجة من عداء العالم الاسلامى نحوها كما أن أطماعها فى البحر الأبيض المتوسط قد أثار حذر تركيا منها فضلا عن أن إغتصابها واحة جغبوب من مصر قد أبعد مابينها وبين المصريين رغما عن قوة دعايتها بينهم .

وقد كان للدعاية الألمانية فى الشرق الأوسط والتفوق الألمانى فى القارة الأوروبية من الأثر بين شعوب الشرق الأوسط فى فترة مابين الحربين ما كان لها من الأثر فى الفترة التى سبقت قيام الحرب الأولى يوم وقف الامبراطور ولهلم الثانى ينادى بانتصاره للمسلمين وحمايتهم . وقد لمسنا آثار هذه الدعاية فى قيام ثورة الـكيلانى فى العراق

ومقاومة أمبراطور إيران لمطالب الحلفاء وقت الحرب والصداقة التى ربطته بألمانيا قبل الحرب كما لمسناه فى روح العطف الشعبى لكثير من المصريين نحو ألمانيا فى أثناء الحرب .

وإلى هذه الوسيلة تلجأ روسيا فى الوقت الحاضر فأنها تبث دعايتها السرية والعلنية بين شعوب الشرق الاوسط لتثير روح المقاومة الشعبية فيه حتى تكون عونا لجيوشها عندما تجتاح هذه المنطقة فضلا عن تسهيل أعمال الطابور الخامس الذى تعتمد عليه روسيا فى تحطيم المقاومة الداخلية .

أما فى وقت الحرب فأن للدولة صاحبة النفوذ من القوة ما تستطيع أن تقبض فيه على ناصية الحال ويكون أول أعمالها هو القضاء على العناصر المقاومة لها وإعتقال أشياع الدولة المعادية ورعاياها ولا يكون للدولة المعادية أزاء حالة الحرب إلا أن تنجح دعايتها التى بثتها وقت السلم فى أثارة مقاومة شعبية مسلحة تكون عوناً لها وأن كانت هذه الغاية لم تتحقق فى الحربين الماضيين فقد كان الألمان يطمعون فى ثورة العالم الاسلامى وإعلان الجهاد الدينى ضد الحلفاء عندما تدخل تركيا الحرب إلى جانبهم كما كان الأتراك المتقدمين لغزو مصر فى الحرب الأولى يطمعون فى ثورة المصريين عندما يسمعون بوصول القوات التركية إلى قناة السويس كما أمل الالمان فى قيامة المصريين عند ما وصل روميل إلى العلمين وقد يكون لهذا الامل أثره فى كف الالمان عن ضرب المدن والقواعد المصرية التى كانت تعج بقوات الحلفاء مدة الحرب ولم يكن إمتناع مصر عن اعلان الحرب عليها ليحول بينها وبين ضربها ولا يتنافى هذا وقواعد القانون الدولى .

وثمة خطر يكمن فى خفايا الغيب وتنم عنه الأحداث الجارية فى الوقت الحاضر الذى يقف العالم فيه على شفا الهاوية كما تنم عنه أساليب السياسة الروسية فى البلاد التى لا تدين لها بالنفوذ فأن هذه السياسة لا تقوم على الدعاية فحسب كما جرت ألمانيا وإيطاليا فى أساليبها السياسية قبيل الحرب الثانية وإنما تقوم أيضاً على التنظيمات السرية للخلايا الشيوعية التى تبث مبادئها وتنشر فروعها لتكون جيشاً منظما مسلحاً يثير الذعر والدمار فى صفوف الجبهة الداخلية وقت الحرب وهى بهذا أشد خطراً مما لجأت

اليه دولتا المحور فهى تهىء للثورة المسلحة التى تمدها بالعتاد والتوجيه فى وقت الحرب كما تبث دعايتها وتنظم صفوفها وقت السلم ، واذا كانت دول الحلفاء قد استطاعت أن تضع يدها فى بداية الحرب على دعاة النازية والفاشستيه وتحد من نشاطهم فأن التنظيم السرى للخلايا الشيوعية لا يدع مجالا لاكتشاف أمرها والقضاء على خطرها فى الوقت المناسب .

وإذا كانت هذه الأهمية التى تراها للشرق الأوسط بكتلته الإقليمية ومجموعة شعوبه هى أبلغ ما تكون وقت السلم فأن خطرها لاينكر وقت الحرب إذا مادفعت شعوبه الآمال والغايات إلى اتخاذ موقف معين كما جرى فى ثورة العرب على الترك خلال الحرب العالمية الأولى فقد امتدت هذه الثورة فى النطاق الأصلى للبلاد العربية الذى يمتد من سواحل المحيط الهندى جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أقصى الشمال من البلاد السورية على حدود الوطن التركى وكان لهذه الثورة من الأثر فى ترجيح كفة الحلفاء فى ميدان الشرق مانوه به الأصدقاء والأعداء على السواء ، وإن كانت هذه الثورة لم تكسب عطف العالم العربى والاسلامى كله الا أنها شملت شعوبا كانت تدفعها غاياتها إلى القيام بها وهى الشعوب التى بقيت تحت الحكم التركى تعانى أوضاره ومساوئه مما دفعها إلى الثورة ضده لصالحها وخيرها لا لصالح الحلفاء ولالعونهم ، أما الشعوب العربية والإسلامية الأخرى فكانت قد دخلت فى نطاق الاستعمار الأوربى وكان هواها ما زال يتصل بتركيا ويرف نحوها فى الوقت الذى كانت تعانى فيه مرارة الاستعمار وتمتلىء حقداوضغينة على المستعمر ولهذا كان عطفها على الأتراك فى محنتهم مثلما كان غضبها على الثوار العرب فى خروجهم على الخلافة وفيما ظنوه جفوة للأخوة الإسلامية .

وإذا اجتمعت هذه الشعوب على هدف واحد تشترك فيه جميعاً وتؤمن به إيماناً يدفعها إلى البذل والتضحية كان موقفها من الحرب عاملا له أهميته فى توجيه كفة النصر .

ولهذا جرت سياسة الدول وتجرى فى السلم بين تلك الشعوب نحو كسبها إيماناً أو كرهاً لزمن الحرب . وقد اشتد صراع هذه القوى الكبرى فى العالم حولها بعد الحرب العالمية الأخيرة ، فأصبحت موطن الجذب فى السياسة العالمية كأثر لانحراف

مركز الثقل الدولى فى السياسة العالمية نحوها بعد انهيار ألمانيا وأصبحت الدول الظافرة التى اشتركت فى القضاء على ألمانيا هى التى تتداول عوامل الجذب فى السياسة العالمية الحاضرة ، وتمثلت عوامل الجذب الأخيرة فى الروسيا التى خلعت رداء عزلتها التى استكانت اليها بعد الثورة حتى اشتراكها مع الحلفاء فى كسب النصر ضد قوات المحور ، ثم فى الولايات المتحدة التى لم تعد ترى فى عزلتها التقليدية ضماناً لسلامتها فخرجت على مبدأ منرو لتنهج نهجاً جديداً فى تزعم السياسة العامة للشعوب التى تدين بعقيدتها وتجرى فى تيارها ، وعلى رأس هذه الشعوب بريطانيا ودول الكتلة الغربية .

وأصبح الشرق الأوسط ميدان الجذب بين هاتين القوتين الكبيرتين ما دامت كتلته الهائلة تقف حاجزاً ضخماً بين الكتلتين المتنازعتين ، واشتباك مصالحهما وأهدافهما فى نطاقه ، وعبر هذا النطاق إلى البلاد البعيدة فى سبيل السيادة والتفوق المذهبى والإقليمى .

وإذا كانت الرغبة فى التفوق المذهبى قد شكلت أساليب السياسة الدولية فإنها قد جعلت للكتل الاقليمية والجنسية والدينية كياناً فى مجال السياسة العالمية ، وقد أبانت انتخابات لجان هيئة الأمم المتحدة عن قيمة هذا التكتل الإقليمى أو الجنسى أو الدينى ، فإن دول أمريكا اللاتينية تقف صفاً واحداً وتشايع بعضها البعض ، كما تقف مجموعة الدول العربيــة متساندة متكاتفة وكثيراً ما تجر وراءها مجموعة الدول الإسلامية الأخرى كإيران والباكستان وأندونيسيا ، وأصبحنا نسمع عن التكتل الأسيوى والأوربى ، بل أن مجموعة شعوب الكومنولث ليست إلا لوناً من ألوان هذا التكتل الذى تتضح فيه رابطة الثقافة أو الجنس أو كليهما معاً .

ولهذا كانت أهمية الشرق الأوسط بكتلته الإقليمية المتماسكة وتوافقه الجنسى والدينى تنبع عن هذا التطور العام فى أسلوب السياسة الدولية الذى دفعت إليــه الرغبة فى التفوق المذهبى أكثر مما دفعت إليه الرغبة فى التفوق الإقليمى وحيــازة الأرض والمستعمرات .

ولكن الشرق الأوســط ما زال يحتفظ بمزاياه التقليدية التى دفعت الدول

الكبرى نحوه باستمرار فقد ظل المعبر الذى تتجمع فيه أهم طرق المواصلات العالمية من برية أو بحرية أو جوية كما ظل يملك ناصية القواعد الاستراتيجية الهامة للسيطرة على العالم كما أنه سوق رائج للانتاج الصناعى الضخم فى أوربا وأمريكا ونبع فياض لاستثمار رءوس الأموال الأجنبية فضلا عن خاماته الجيدة التى تغذى الصناعة العالمية بحاجاتها منها ، فقد ظل القطن المصرى هو المورد الأصيل لمصانع النسيج فى لنكشير الذى يضمن لها التفوق فى الإنتاج وجودة الصناعة .

وكان لاكتشاف البترول ووفرة منابعه فى بلاد الشرق الأوسط ما ضاعف أهميته الاستراتيجية كمصدر لأهم مادة تعتمد عليها آلة الحرب الحديثة ، وأهميته الاقتصادية والعمرانية كمورد للقوى المحركة فى عالم الصناعة أو لحاجات الإنسان فى مطالبه اليومية فى الوقت الذى تفتقر فيه الدول الصناعية الكبرى فى أوربا إلى البترول مما يدفعها إلى التسابق نحو امتلاك منابعه واستغلالها فى كافة موارده فى العالم .

وتبدو أهمية البترول لدول أوربا الغربية التى تفتقر إليه فى أراضيها ، والتى تعتمد على حاجتها منه مما يأتيها من منابعه التى تستغلها وتستثمرها فى الخارج ، أكثر منه لأمريكا أو روسيا فإن لكل منهما من منابعه ما يغنيها عن الحاجة إلى مصادره البعيدة وإن لم تمنعهما كفايتهما منه عن التنافس حول تملك منابعه واستثمارها حباً فى الربح وزيادة فى الفائدة ، مما لا يتصل بسياستهما الاستراتيجية إلا من حيث حرمان الآخرين من أهم مادة لتسيير آلة الحرب .

وإذا كانت أهم مبادىء الاستراتيجية أن تملك الدولة أو تسيطر على موارد الإنتاج اللازمة لإدارة دفة الحرب ، فإن افتقار دول أوربا الغربية إلى البترول يجعلها تتطلع فى اهتمام وحرص إلى تملك منابعه واستثمارها والمحافظة على أمنها وسلامتها فى الشرق الأوسط ، وهو أقرب مصادر إنتاجه اليها مما يجعل سياستها الاستراتيجية أكثر سلامة وأوفر أمناً .

وقد أدركت بريطانيا هذه الحقيقة منذ أوائل الحرب العالمية الأولى ، ومنذ أخذت تستعيض عن الفحم بالبترول فى إدارة أسطولها وتسييره ، ودفعها هذا إلى تملك بترول فارس ، ومساهمة الحكومة فى شركة البترول الإنجليزية الفارسية بأكثر

من نصف رأس المال لحساب البحرية الإنجليزية . وهذا ما يفسر لنا فزع الإنجليز من تأميم بترول إيران ، فإن هذا يفقدهم السيطرة على أهم موارد الإمبراطورية منه مما يهدد أمنها الاستراتيجي ويضعف مواردها الاقتصادية وكيانها الصناعي .

كل هذه العوامل ، سواء منها ما جد حديثاً أو ما كان له اعتباره القديم ، قد جعلت من الشرق الأوسط أكثر مناطق العالم أهمية فى الصدام القادم بين الكتلتين المتنازعتين ، فهو جزء من النطاق الأرضى الذى تقيمه الديمقراطية حول الشيوعية وهو بكتلته التى أوضحنا ميزاتها ومدى تماسكها ، أقوى حاجز فى هذا النطاق الأرضى وهو أقربها إلى نطاق الشيوعية وأشدها تعرضاً لأهوال الحرب القادمة ، بل لن نغالى إذا قلنا أن المعركة الحاسمة ستكون على أرضه ، وأن مصير الحرب سيتقرر فوق أديمه ، ولن نعد الحقيقة إذا قلنا أن مستقبل السلام العام رهن بقوة هذه الكتلة وتماسكها ، فهى التى تستطيع بأعرافها وتقاليدها وسلامة مراميها أن توازن بين الكتلتين المتنازعتين . وقد التزمت أكثر دولها الحياد فى الحرب الكورية ، ونادت بالسلام والتحكيم مما كان له أثره فى وقف الحرب ، فإن الأمم المتحدة لم تجد من إجماع الأمم العربية والأسيوية ما يشجعها على المضى فى الحرب ، وإن لم يكن هذا العامل هو الوحيد فى وقف القتال ، إلا أنه كان أحداها .

ويخيل الينا أن ميزان الحضارة قد بدأ يميل مرة أخرى نحو هذه المنطقة ، فإن المادية التى طغت على حضارة الغرب ، والتى أخذت تتأرجح تارة بين المادية الجائرة التى يدين بها أتباع ماركس ، والمادية الجامحة التى يدين بها عبدة المال من الرأسماليين لن تجد مجالا لتوازنها فى غير الروحانية التى صبغت حضارة الشرق منذ أبعد عصور الحضارات التى قامت على أديمه ، والتى كان للأديان التى بعثت على أرضه فضل تهذيبها وتقويمها ، فكانت روحانية المسيحية وتسامحها واشتراكية الإسلام وتواضعه وقوته أساساً قويماً لمجتمع رفيع منظم فيه حق للسائل والمحروم ، وفيه حق للعامل والمجد ، وإن كانت مجتمعات الشرق قد انحرفت فى بعض تطوراتها وانقلاباتها إلى مجتمعات أوتوقراطية ، فقد كان هذا خروجا على سماحة المسيحية واشتراكية الإسلام وافتئاتاً على روحانية الشرق .

وفى التطور الذى وصلت اليه قداسة حقوق الإنسان فى الوقت الحاضر لانجد فى غير الشرق بأديانه وتاريخه عرفاناً لهذه الحقيقة الخالدة فقد كان للفرد فى ربوعه من الحقوق والاعتبارات مالم يكن للفرد فى الغرب ، حتى إذا جاهد الفرد فى الغرب للظفر بحقه الإنسانى ، كانت خطاه إلى الكمال بعض جهاده الرائع لبلوغها عن طريق العلم والبحث والحقيقة ، فى الوقت الذى ران على الشرق ألوان من الجمود والخمول العقلى ما ضيع حقوق الفرد حيال جشع الحاكمين ، وجهل رجال الدين .

ولكن إذا كانت اليقظة قد أخذت تدب فى روح الشرق النائم ، فان له من أعرافه ومأثوراته وتاريخه ما يقود خطاه إلى الحقيقة والخير ، ويعوز الغرب فى تخبطه نحو الكمال المطلق فى جو التحرر البعيد والمادية الجائرة .

وثم أخذ الغرب فى إحساسه بالانهيار الروحى يجد بحثاً عن مقومات الروحانية فى تاريخه وأعرافه فلا يراها إلا فى العودة إلى حمى الدين ورعاية الروح . وتحرر العقل فى حمى الروح وفى نطاق الوجود الانسانى .

وقد عاشت الإنسانية بوجودها وتقاليدها وحضاراتها وتطورها نحو الكمال ، تستمد وجودها من وحى الروح وإلهامه ومنطق العقل وحقائقه ، فإذا طغى الروح على العقل جمدت الحضارة ووقف ركب التقدم ، وإذا أنكر العقل وحى الروح تقوضت المثل العليا وحقائق الوجود الإنسانى التى رسبت فى أعماق النفس البشرية خلال وجودها الطويل ولم تعد إلا إحساساً خفياً يقود الانسان فى ضلاله وقصر تجاربه نحو حقائق الوجود التى ينشدها لخيره وكماله .

واستجاب الإنسان خلال وجوده الطويل على الأرض لتلك العوامل الخفية التى تدفعه دفعاً إلى إدراك معين أو إحساس مطلق لايدرك كنهه ولا يدرى من دوافعه غير تلك القوى الخفية التى تدفعه اليها ، وليست فى الحقيقة إلا نتاج التفاعل بين ما رسب فى أعماق الإنسان خلال وجوده الطويل على الأرض وبين ما تدفعه إليه حياته وبيئته الحاضرة أو هى تفاعل بين الروح والعقل .

وقد اتسمت أمم الشرق بقدمها وعراقة وجودها الإنسانى وإدراكها حقائق الوجود قبل أن تشب أمم الغرب عن الطوق أو تدرج نحو الوجود الإنسانى ،



ومر بأمم الشرق من التجارب التى زاولتها خلال وجودها الطويل وتطور كيانها العام بين حضارات بينة تأصلت جذورها فى بيئتها ما لم يمر بأمم الغرب التى لم يعد على وجودها الإنسانى غير بضع مئات من السنين .

ومن هذا التباين بين الأمم الشرقية والأمم الغربية كان تطور الحضارات فى كليهما خاضعاً لهذا التباين الواضح بين الطبيعتين ، فحضارة الشرق حضارة روحانية تنبع من اتصال الروح بالوجود المطلق وما يوحيه هذا الاتصال من حقائق ومثل وتعاليم ، أما حضارة الغرب فحضارة مادية تنبع من اتصال العقل بهذا الوجود المطلق ، وما يكشف عنه العقل من قوانين وقواعد ونظريات ، وكانت حضارة الشرق حضارة أديان وفلسفات ، وكانت حضارة الغرب حضارة علوم ومخترعات ، وكان الإنهيار الذى يلم بحضارات الشرق مبعثه جمود الروح وضلالها عن تبين حقائق الوجود ، وكان الانهيار الذى يلم بحضارة الغرب مبعثه طغيان العقل وتمرده وغروره ما دفع الحضارة إلى التبذل والإباحية والجشع . وقد أشار المؤرخ الإنجليزى جيبون إلى ذلك فى كتابه عن « انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية » فقدعزى سقوطها وانهيارها إلى ما أصاب حكامها وشعوبها من إباحية وتبذل وجشع نتيجة إغراقها فى المادة وتحررها من مقومات الروح ، وإن ما يصيب حضارة الغرب القائمة اليوم من قلق وانهيار هو بعض ما أشار اليه جيبون من أسباب انهيار الحضارة الرومانية وإن الحروب التى أضحت سمة الحضارة القائمة هى بعض ما أصاب العقل البشرى من تمرد وغرور وما أوحى به إلى أربابه من جشع وصراع قاتل لايقود إلا إلى الحروب والدمار .

أما سقوط الشرق وانهيار حضاراته فمرده إلى الجمود والركود الذى يصيب هذه الحضارات فى تفاعلها بين الماضى والحاضر أو وهن التفاعل بين وحى الروح ومنطق العقل أو قوى الروح وقوى العقل .

ولم يصب الحضارات الشرقية من مصيبة أقوى من هذا الجمود الذى طغى عليها حتى هرمت وشاخت ولم تستطع أن تلحق ركب الوجود الإنسانى فى تطوره الدائم نحو الكمال فقد ظلت الحضارة الفرعونية قائمة بتقاليدها ومقومات وجودها حتى

شاخت وهرمت ولم تستطع أن تلاحق ركب الإنسانية فاختفت تدريجا دون أن يكون سبب فنائها عامل مفاجيء أو انقلاب عنيف يغير أوضاع الحياة وتطورها كهذا العامل المفاجيء الذى أصاب الحضارة الرومانية من اجتياح البرابرة لهـا أو أصاب الحضارة السومرية من اجتياح قبائل الرعاة . حتى أن المسيحية عندما نزلت على الحضارة المصرية بتعاليمها الجـديدة لم يكن لهـا من التأثير على تلك الحضارة رغم شيخوختها ما كان لتلك الحضارة من التأثير عليها ولم تـكن المسيحية أبداً عاملا من عوامل فناء الحضارة الفرعوتية فأن المسيحية لو لم تـكن قد أتت إلى مصر فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه عوامل الضعف تدب فى الحضارة الفرعونية لما تغير المصير المحتوم الذى كان ينتظر هذه الحضارة .

وقد ظلت الحضارة الأسلاميه مزدهرة زهاء ألف عام ثم أصابها الخمول والجمود وغشى روحانيتها ظلام مطبق وران على مرونتها جمود قاتل فعاشت فى حاضرها دون أن تنبش فى أمجاد ماضيها ولم يكن لطغيان المادة من أثر فى جمودها بل كان الانحراف الروحى بعض أسباب شيخوختها وجمودها فـكثرت الفرق الصوفيه وضاقت رحابة الدين وعسر يسره ولم تعد الرحابة واليسر فى الإسلام إلا كفرا وزندقة .

وكانت اليقظة الإسلاميه فى القرن التاسع عشر وليدة حركة الاحياء الدينى وكان المصلحون الدينيون فى الشرق الأسلامى أول من راد مجال النهضة والا صلاح فيه فـكانت حركة احياء ونهضة دينية واجتماعية ربطت قوتها ونجاحها بقوة الدولة وسيادتها وكان من الممكن أن يكون نجاح الدولة الوهابية نجاحا للدعوة الوهابية وكان القضاء على الدولة الوهابية فى مهدها شلا للدعوة الوهابية وحصرا لها فى نطاقها المحدود من هضاب نجد وفيافيها .

وعلى غرار الحركة الوهابية كانت الحركة السنوسية فى شمال إفريقيا وحركة المهدى فى السودان فقد كانت كلها دعوات إصلاح دينى وأجتماعى تعتمد فى نجاحها على قوه الجماعة وقيام حكومة لهذه الجماعة تنتظم نشاط الدعوة الجديده وتربط نشاطها بنشاط الدولة التى قامت على أكتافها .

ولم يفصل الإسلام فى تاريخه بين الدين والدولة وان لم يربط من ناحية أخرى

بينهما وأن كانت الشريعة الأسلامية قد تناولت كثيرا من أنظمة الحكم وألوانه وطرائقه وعلاقة الفرد بالمجتمع وعلاقته بالحكومة وأولى الأمر بالتوجيه والارشاد .

وكانت دعوة جمال الدين الأفغانى دينية وسياسية فكانت دعوة نهوض شامل لكل مظاهر الحياة وأوجه نشاطها الدينى والسياسى والاجتماعى .

فالشرق فى نهضته يعود إلى استجلاء نواحى عظمته الروحية وربط الحياة بتعاليمها ووحيها ويتخذها أساسا لرقى الحياة ونموها وتقدمها .

أما الغرب فقد قامت نهضته الحديثة على تفتح قوى العقل على مظاهر الحضارة اليونانية القديمة فهى رجعى إلى وثنية سبقت إشراق المسيحية وانتشارها فى أوربا وكانت النهضة الأوربية الحديثة بعثا قويا للعلوم والفنون والأداب الوثنية الاغريقية والرومانية ، وكانت حركة الأصلاح الدينى التى قام بها لوثر وكلفن تطورا بالمسيحية إلى مجاراة العقل والتحرر من جمود الكاثوليكية التى سادت أوربا دينيا وسياسيا عدة قرون حتى تحررت الدولة من ربقة الكنيسة .

ولم تسبق حركة الاصلاح الدينى فى أوربا حركة احياء العلوم والأداب والفنون ومظاهر النهضة الأخر بل جاءت تبعا لها وكانت نتيجة من نتائجها لاعاملا على بعثها وقوتها بعكس ما كانت فى الشرق فى يقظته الحديثة ، أو فى الأمم الاسلامية خاصه فى حاضرها المتوثب .

وكثيرا ما كانت الثورة على الدين مظهرا من مظاهر الثورات الكبرى فى التاريخ الأوربى فقد صحب الثورة الفرنسية تمرد على الدين وعلى كل ما يتصل بالدين والكنيسة من تعاليم ومظاهر وكانت الثورة الشيوعية فى روسيا ثورة على الدين والدولة وتقاليد المجتمع وكان كفرها بتعاليم الدين ككفرها بنظم الدولة القائمة وتقاليد المجتمع البورجوازى فى روسيا وفى غيرها من بلاد العالم أجمع .

ولم يشهد تاريخ الأمم الشرقية انقلابا ثار الناس فيه على قواعد دينهم وتعاليمه ماشهد تاريخ الامم الغربية وظل الأكبار والتعظيم للدين ناموس الشعوب فى بلاد الشرق على اختلاف ملله ونحله وأديانه من مسيحية أو اسلام وهى عبادات السماء أو كونفوشيه أو بوذية وهى من تعاليم الفلاسفة والحكماء .

وقد بلغت اليابان أرقى مدارج الحضارة الغربية ولـكن فى كنف تقاليدهاوحمى دينها وأعرافها ما أصبح مضرب الأمثال فى تاريخ الحضارات والتقدم الأنسانى .

فالنهضة فى الشرق مصدرها الروح والعقل أو تفاعل القوى الروحية التى تستلهم آثار الماضى وتعاليم الدين والقوى العقلية التى تستلهم العلم وتطور الحياة ، أما النهضة فى الغرب فمصدرها القوى المادية التى تستلهم مظاهر الحياه الحسية والقوى العقلية التى تستلهم العلم المجرد المتحرر من رباط الماضى أو نطاق الدين .

وقد ضلت الحضارة الأوربية سبيلها وأخذت تسوم أبناءها شواظا من سعيرها وضلالها ولم تعد تبنى لخيرالوجودالأنسانى بقدرما تدمر من هذا الوجود الانسانى وقاسى العالم من ضيرها خلال خمسين عاما ما لم يقاسيه فى وجوده الطويل وفاقت الحضارة الغربية فى فتـكها بأبنائها كل فتك المجاعات والأوبئة التى حلت بالبشريه فى تاريخها الطويل .

وأخذ رواد الخير يتناولون مساوىء الحضارة الغربية السائدة وضلالهابالبحث والتعقيب عليهم يجدون منفذا لعالم أفضل يسوده الخير والحق والجمال فى ظلال هـذا التقدم الحضارى الباهر فلم يجدوا سيئة أقوى من طغيان المادة على الروح وتحرر الانسان من ماضيه فى سبيل وجوده الحاضر وكيانه الموقوت بحدود الزمن الذى يعيش فيه . وقد قادت المادية التي اتسمت بها الحضارة القائمة إلى الطغيان والجشع والأثرة وكانت سر ماحاق بالعالم من حروب ودمار كادت تودى بمعالم هذه الحضارة وتنذر بزوالها .

هذا فى الوقت الذى أخذت فيه أمم الشرق تخلع ثوب خمولها وتـكشف عن نهضتها وتطلعها وتأخذ من حضارة الغرب كل مايدعم أسباب نهوضها وتطلعها على هدى ماضيها وأعرافها وتقاليدهاوما أختزنته السنون فى أعماقهامن ذخيرة روحيةأصيلة

وإذا كان الغرب قد أخذ يتهاوى تحت ثقل ماديته الجائرة ويقضى على أثارجهاده الطويل فى الحضارة والتقدم فأن ميزان الحضارة قد أخـذ يميل ميلا شديدا نحو الشرق فى تقاليده وأعرافه وماضيه ودينه وروحانيته مايوازن مساوىء الحضارة الغربية وفضائلها ويدعم قواها فى هذا المجتمع الجديد .

ولعل الغرب فى غروره لا يحس هذا الانقلاب الجديد فى ميزان الحضارة ولعل الناس من بهر الحضارة الغربية لا يرون هذا التطور الجديد ولكنها سنة الكون فى تجدده وبقائه والمحافظة على وجوده وكماله .

وتعانى أمم الشرق الأوسط بوادر هذا التطور الجديد وتحس مدى عنفه ويثور فيها من مظاهر القلق النفسانى والاجتماعى والسياسى مايصاحب فترة الانتقال والتطور الذى يلم بالشعوب ويجعل منها مواطن حساسة للمشاعر والأفكار والأعمال ، ويسبغ هذا القلق على منطقة الشرق الأوسط اهتمام الدول الغربية التى يهمها أن تتوفر فيه عوامل الأمن والاستقرار ويدفعها هذا الاهتمام وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا إلى رعايته والتدخل فى شئونه الداخلية وتتبع التيارات المتباينة التى تلم به .

ولقد ظلت أمم الشرق الأوسط تعانى ألواناً من الكبت الشديد طوال المائة سنة الأخيرة وكان هذا الكبت نتاج ما أحاط بها من عوامل داخلية وأخرى خارجية ففى الداخل ظل جهاد هذه الشعوب متصلا لاستكمال حقوق الشعب حيال الحاكمين ومن الخارج كان ضغط المستعمر ومحاولاته لبث نفوذه يزداد ويتضح وبين هذين العاملين كانت مشاريع الإصلاح والتقدم لا تقوم وتنهض حتى تتعثر وتكبو ومشاعر الشعوب لا تهدأ وتخبو حتى تثور وتنفجر ، والحضارة الغربية تتقدم وتغزو وتتفاعل مع تقاليد الشرق وأفكاره لتصدر فى لون جديد قد يتطرف فيشذ ويخطىء الغايه ، والتطرف إما رجعى إلى الجمود أو تطور إلى التحرر وإنكار الماضى وما خلف من تراث ضخم فى أعماق النفس الإنسانية ، وقد يعدل فتكون الصورة اللامعة للتطور الهادىء نحو الكمال والتقدم . وما زال التفاعل فى عنفوانه وما زالت الأفكار والمشاعر والأحاسيس وليدة هذا التفاعل ولكنها تكشف عن نفسها يوما بعد الآخر حتى تهدأ وتأخذ سيرها المرسوم فى الحياة وتستقبل رسالتها الموعودة فى تطور الزمن .

هذا هو المحور الذى يدور حوله موضوع هذا الكتاب ، وهو موضوع جدير بالتناول على هدى البحث العلمى الصحيح والفهم العميق للأحداث المحلية وتيارات السياسة الخارجية بعيداً عن التعصب والهوى الشخصى .

وقد طرق الغربيون هذا الموضوع وتناولوه من نواح عديدة بحثاً وتمحيصاً ولكنهم لم يلمسوا روح الشرق فظلوا بعيدين عن الوصول إلى الحقيقة المجردة والفهم الصحيح للأمور والأصالة التى تنفذ إلى لب الأشياء وتصل إلى كنهها كما لاينقصهم الهوى الشخصى والتعصب القديم الذى ثار بين الغرب والشرق من قديم الزمن فجاءت كتاباتهم بعيدة عن الحقيقة إذا ما تعارضت مع مصالحهم رغم ما يتسمون به من الدقة العلمية والبحث العميق والوصول بالحقائق إلى أصولها المجردة ولكن تفسير الحقائق على هواهم هو ما يطغى على دقة بحوثهم وإصالة تفكيرهم والتاريخ تفسير للحقائق أكثر منه تسجيل لها أوتدوين لأصولها .

وفى الوقت الذى يصدر فيه الغربيون عن عناية بهذا الموضوع عناية دفعتهم إلى التأليف فيه وإصدار المجلات والصحف التى تقتصر على بحثه وإنشاء المؤسسات العلمية وتنظيم الدراسات الأكاديمية فى الجامعات وخارج الجامعات لدراسته دراسة تقوم على الأسس العلمية المنظمة لا نرى بيننا من يتوفر على دراسته وبحثه والتأليف فيه كما لا نرى فى الجامعات والمعاهد العليا دراسة منظمة له تتناوله من جميع نواحيه ومختلف جوانبه وإن وردت فى بعض الدراسات الجامعية أوفى الكتب التى تنشر ، منثورة متفرقة كجزء من دراسة أخرى أعم وأشمل .

وإنى لأسجل بالفخر لكلية أركان الحرب الملكية المصرية اهتمامها بهذا الموضوع فهى أول من نظمت له دراسة شاملة منظمة لطلابها من ضباط الجيش المصرى وإن قصرت هذه الدراسة على ناحيتين بارزتين هما السياسة والاستراتجية فى الشرق الأوسط إلا أنها لم تهمل بعض النواحى الأخرى التى تتصل بهاتين الناحيتين كجغرافية الإقليم وتاريخه واقتصادياته وإن جاءت كتفسير لتطورات السياسة وتوضيح للأهمية الاستراتجية ، وهذه كلها هى موضوع دراسة هذا الكتاب فضلا عن ربط هذه الأهمية السياستة والاستراتجية للشرق الأوسط بتطوره القومى والسياسى وتأثرها به

وقد توفرت على دراسة هذا الموضوع وأتيت على كثير من المراجع فى مصادرها، الأجنبية والعربية مستعيناً عليه بما علمتنيه الجامعة من طرائق البحث العلمى المنظم وبما أفدته من دراساتى العسكرية المختلفة :

وقد لقيت من تشجيع طلابى ورفاقى فى خدمة الجيش وإلحاحهم وإقبالهم على

هذه الدراسة ماحفزنى إلى نشر هذا المؤلف عسانى أرضى إلحاحهم وأفى حق إقبالهم وأكون قد وفيت المكتبة العربية ببحث جامع فيما يهم بلادنا الشرقية من أمور هى شغل العالم فى الوقت الحاضر كما هى شغلنا وموضع اهتمامنا ، وعسانى أكون قد أديت لبلادى بعض مالها فى نفسى من حب ينبع من أعماقى كنبع تاريخها من أصل الوجود .

والسلام على من اتبع الهدى وآمن بالحق وجعله رائده ومبتغاه .

المعادى : أول يناير ١٩٥٢

حسين فوزى النجار

الفصل الأول

الشرق الاوسط

تعريفه جغرافيته ومناخه ـ موارده
الاقتصادية ـ ماضيه وحاضره فى التاريخ

ماذا نعنى بمدلول هذه العبارة « الشرق الأوسط » وما هو المحيط الجغرافى الذى تعنيه هذه التسمية وما أصل هذه العبارة قديماً وحديثاً ، وماهى الشعوب والدول التى يحويها هذا الأقليم المعروف بالشرق الأوسط .

الشرق الأوسط عبارة حديثة المدلول لم تظهر وتنتشر إلا فى أثناء الحربين الماضيتين وفى أعقابهما وقد جرت أول ماجرت على لسان رجال الحرب البريطانيين وأرباب السياسة منهم عندما أنشأوا قيادة الشرق الأوسط العسكرية فى القاهرة وفى غيرها من بلدان هذه المنطقة حتى أن معاهد التدريب العسكرية البريطانية فى القاهرة وحيفا وغيرهما كانت تنسب جميعاً الى الشرق الأوسط ثم شاع استعمال هذه العبارة فى الصحف حتى أصبحت تطلق دائماً للدلالة على المحيط الجغرافى أو السياسى الذى تعنيه ، ولم تأخذ الدوائر العلمية بهذه العبارة بالسهولة التى أخذتها بها الصحافة والدوائر السياسية فما زالت تميل الى إستعمال العبارات التقليدية القديمة التى جرى عليها التقسيم الأقليمى للشرق وإن كانت هذه الدوائر العلمية قد أخذت تميل إلى إلى استعمال العبارة الجديدة وأخصها الدوائر العلمية الانجليزية فالمعهد الملكى البريطانى للشئون الخارجية يصدر كتبه وبحوثه عن هذه المنطقة بعنوان الشرق الأوسط وكذا المؤلفون الإنجليز أمثال فيشر الذى أصدر مؤلفه عن هذه المنطقة بعنوان ترجمته

«الشرق الأوسط(١)» ، وكيرك الذى جعل عنوان كتابه ماترجمته «مختصر تاريخ الشرق الأوسط» وكذلك كروجر مؤلف «تركيا الكمالية والشرق الأوسط» وبونيه مؤلف كتابى «النمو الاقتصادى للشرق الأوسط» و«الدولة والنظم الاقتصادية فى الشرق الأوسط» .

ولكن يخيل الينا أن الأمريكيين لا يميلون الى استعمال هذه العبارة دائماً فى مدلولها العام وإنما يميلون الى التخصيص والتفرقة بين مدلولى الشرق الأوسط والشرق الأدنى وهذا ما جرى عليه سبيذر عندما أصدر كتابه «الولايات المتحدة والشرق الأدنى» . وقد أنشىء أخيراً سنة ١٩٤٧ فى واشنطون معهد لدراسات الشرق الأوسط يصدر مجلة بهذا العنوان «مجلة الشرق الأوسط» ممايدل على غلبة هذا الاتجاه الجديد فى الأخذ بهذه العبارة ومدلولها العام الذى تعنيه وهو ماتؤيده وجهة النظر الرسمية للسياسة الأمريكية بل أنها تربط بتلك المنطقة أرتريا والصومال لإرتباطهما بالإستراتجية الأمريكية فيه . وهو ماسارت عليه الكتابة العربية بدورها وما تميل إلى الأخذ به أيضاً وإن كنا نميل عند الكتابه التاريخية إلى التفريق بين الشرق الأدنى والأوسط وخاصة فيما سبق الحرب العالمية الأولى من عهود ، فأن أحداث هذه المنطقة قد أخذت تتصل وتتشابه وتختلط فى الفترة التى سبقت هذه الحرب أو على وجه الدقة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ولعلنا لانغالى إذا إعتبرنا أن الدعوة إلى الجامعه الإسلامية التى قام بها الأفغانى بمؤازرة وتوجيه السلطان عبدالحميد كانت بداية إحياء الصلات التاريخية والسياسية بين بلاد المسلمين فى الشرقين الأوسط والأدنى وأن كانت لم تترك من الآثار فى محيط السياسة العامه فى هذه البلاد وارتباطها الدولى العام ماتركته تيارات السياسة الاوروبية التى أخذت تصب فيها من كل جانب وتحورها وتشكلها وفقا لأطماعها السافرة والخفية والتى كان من أهداف الجامعة الإسلامية أوهدفها الأول مقاومتها وتكتيل الأمم الإسلامية للوقوف حيالها وكان هذا الاتصال والتشابه والاختلاط بين أحداث السياسة ومصالحها واتجاه الجامعة الاسلامية

---

١ – يرجع الى أسمائها الأفرنجية فى ثبت المراجع .

فى الشرقين الأوسط والأدنى ما جعلهما وحدة سياسية قائمة بذاتها هى الوحدة التى أصبحت تعنيها عبارة « الشرق الأوسط » ومدلولها الشامل .

فالشرق الأوسط تعبير سياسى أكثر منه جغرافى وقد جاء مطابقاً لارتباطات شعوبه ومصالحها المتشابكة ووحدة الاقليم الاستراتيجيه أكثر من ذلك التعبير الجغرافى الذى يفرق بين الشرقين الاوسط والأدنى ويجعل منهما وحدتين جغرافيتين منفصلتين تتكون أولاهما من الجزيرة العربية والعراق وفارس وأفغانستان وهى التى يطلق عليها فى التعبير القديم أو الجغرافى الشرق الأوسط وتتكون الثانية من شبه جزيرة البلقان وتركيا ومنطقه اللفانت ومصر وهى التى يطلق عليها الشرق الأدنى .

ولا ريب أن هذا التقسيم المفتعل لايطابق مايقوم عليه هذا النطاق الأقليمى من وحدة سياسية واقتصادية فضلا عن وحدة أصوله التاريخية ، وعلى هذا الأساس أمكننا أن نعد مصر وهى دولة أفريقية ، دولة من دول الشرق الأدنى فى التعبير القديم أو من دول الشرق الأوسط فى التعبير الجديد ، وبالتالى نعتبر السودان جزء من هذا الإقليم لارتباطه بمصر .

ويشمل الشرق الأوسط أو تلك الوحدة السياسة والأقليمية الجديدة من الدول تركيا والعراق وسوريا ولبنان والمملكه الأردنية الهاشمية وفلسطين وشبه جزيرة العرب بدولها وإماراتها (المملكه العربية السعودية واليمن والبحرين والكويت ومسقط وعمان وقطر وعدن والمحميات والامارات الساحلية) وإيران ومصر والسودان وقبرص وتبلغ مساحتها جميعاً ... ٣٧٣١ ميلا مربعاً .

وقد أخذ المعهد الملكى البريطانى للشؤن الخارجية بهذا التقسيم والتعريف بدول الشرق الاوسط الحديث ولا يخالف ذلك ماجرى عليه مدلول هذا التعبير فى البلاد الأخرى غير أنه لايميل إلى أدماج ليبيا فى هذه الوحدة السياسية والأستراتيجيه وكذلك إرتريا وإن كنا نميل إلى أدماج ليبيا فى منطقة الشرق الأوسط أما أرتريا فيمكن إعتبارها من الناحية الاستراتيجية ذات صلة بالشرق الأوسط ولم يدمج أفغانستان فى هذه الوحدة رغم ماجرى عليه البعض من ربطها بالشرق الأوسط ، على اعتبار أنها ترتبط بدول آسيا الوسطى والهند أكثر من ارتباطها بدول الشرق الأوسط ولانخالفه فى ذلك .

ورغم أن هذا المعهد وهو أعظم مؤسسة لدراسة السياسة الخارجية والعلاقات الدولية بانجلترا قد أخذ بهذا المدلول تبعاً لما كانت تعنيه هذه العبارة عندما أنشئت قيادة الشرق الأوسط البريطانية بالقاهرة أثناء الحرب وهو ما يتفق ودراستنا الاستراتيجية لهـذه المنطقة إلا أننا لا نميل إلى ذلك إلا من حيث نشأة التسمية وتطور مدلولها ونعتبر أن هذه الوحدة السياسية والاقتصادية والاستراتيجية وتشابه الأصول التاريخية فى هذا الأقاليم هى التى تدعونا إلى إدماجه تحت مسمى واحد وهى روابط قديمـــة إمتدت خلال أزمنة مختلفة منذ أقدم عصور التاريخ حتى وقتنا هذا لم يدركها الذين أخذوا بهذه التفرقة وجروا على تقسيم بلاد أسيا الغربية والوسطى إلى شرق أدنى وأوسط ولا ريب أن إدراك هذه الوحدة من جانب واحد وهو الجانب الاستراتيجى الذى أنشئت على أساسه القيادة البريطانيـــة للشرق الأوسط هو الذى أوحى بهذه التسمية الموحدة التى شاعت وانتشرت وطوت فى تيارها التقسيم القديم .

وتقسيم الشرق أو آسيا بالأحرى إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى تقسيم أوربى جرى على لسان المغامرين والجوابين فى آفاقه قبل أن يجرى على لسان الجغرافيين والمؤرخين وهو تقسيم يقوم على موقع آسيا من أوربا فأقرب الأجزاء من آسيا إلى أوربا هى الشرق الأدنى وأبعدها هى الشرق الاقصى وما بينهما الشرق الأوسط وقد اعتبرت شبه جزيرة البلقان جزءا من الشرق الادنى لارتباطها فى ذلك الحين والى عهد قريب بالدولة العثمانية ولا يفوتنا أن نذكر أن دول شبه جزيرة البلقان قد فقدت روابطها القديمة بهذه الوحدة منذ أن زالت صلتها بالدولة العثمانية وأصبحنا نميل إلى اعتبارها دولا أوربية غربية تقع فى النطاق الشرقى لأوربا .

ولا ريب أن التسمية الإسلامية لهـذه المنطقة كانت أصدق دلالة من التسمية الأوربيه كما أن التقسيم الإسلامى لها أقرب إلى فهم الروابط والصلات فى هذه المنطقة من التقسيم الأوربى الذى طغى عليـه وساده وكاد يمحوه إلا من صفحات المؤرخين القدامى من المسلمين .

وقد قام التقسيم الإسلامى لبلاد الإسلام على اعتبار أن البلاد الإسلامية التى تقع إلى الشرق من مصر هى الشرق الإسلامى وأن البلاد التى تقع إلى الغرب منها هى الغرب الإسلامى، وقد جرى هذا التقسيم كما نرى من حيث النظر إلى البلاد الإسلامية

دون أى اعتبار جغرافى آخر فهو تقسيم إسلامى خالص ولكنه يتفق إلى حد بعيد مع وحدة هذا المحيط الإسلامى وصلاته وارتباط شعوبه وبلدانه ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد إن ما كان يعنى بالشرق الإسلامى هو ما نعنيه الآن بالشرق الأوسط .

من كل هذا يمكننا أن ندرك مدلول عبارة الشرق الأوسط ، بأنها ذلك النطاق من الأرض الذى يمتد غرباً من أفغانستان فى آسيا حتى شبه جزيرة البلقان فى أوربا وليبيا فى أفريقيا ومن حدود روسيا الأسيوية فى الشمال إلى سواحل المحيط الهندى والسودان فى الجنوب ويضم الدول التى سبق ذكرها أو بمعنى آخر الدول التى تطل على البحرين الأحمر والأسود والحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

وهذه المنطقة غنية بظواهرها الجغرافية الطبيعية والصناعية ففيها الجبال والسهول والوديان والصحارى ومجارى الأنهار والبحيرات والقنوات والمدن فضلا عن امتدادها وسعة مساحتها مما يؤثر تأثيراً قوياً على العمليات الحربية التي تدور فيها فضلا عن تشكيل القوات المحاربة ونوع تسليحها وتموينها .

ومن الظواهر الطبيعية الواضحة فى الشرق الأوسط وجود مساحات مترامية من الصحارى والهضاب الممتدة على حدوده أو الواقعة فى قلبه وداخل حدوده فهناك الصحراء الليبية على حدود مصر الغربية وهى امتداد للصحراء الأفريقية الكبرى وصحراء العرب بين وادى النيل والبحر الأحمر ثم صحارى شبه جزيرة العرب وصحراء سينا فى المثلث الواقع بين خليج العقبة وخليج السويس وإلى شمالها الشرقى تمتد بادية الشام حتى أرض الجزيرة ، ومن الهضاب هضبة نجد وهضبه الأناضول وهضبة إيران وهضبة حوارن ويفصلها عن بعضها الخليج الفارسى وأرض الجزيرة وسهل البقاع .

ويمتد فى هذا الإقليم عدد من سلاسل الجبال أهمها جبال طوروس التى تسير موازية لساحل البحر الأبيض المتوسط على امتداد هضبة الأناضول فى الجنوب وجبال بنطس المتاخمة لساحل البحر الأسود فى الشمال الشرقى للهضبة وجبال الأضاع بين نهرى سقاريا وقيزل أرمق وجبال أرارات فى أرمينية التى ينتهى إليها امتداد الهضبة من الشرق وتتصل جبال طوروس بسلسلة مرتفعات يهوذا فى الجنوب الشرقى لآسيا

الصغرى وهى تمتد مخترقة أراضى سوريا ولبنان ويفصلها عن سلسلة جبال معاب فى الشرق سهل البقاع الخصب ويعرف امتدادها فى الشمال بجبل الحرمون ولبنان الصغير .

ويجرى فى الشرق الأوسط عدد وافر من الأنهار أهمها وأعظمها نهر النيل ثانى أنهار الدنيا طولا وأعرقها تاريخاً ويليه فى الأهمية الرافدان العظيمان لشط العرب دجلة والفرات ويضمان بينهما أرض الجزيرة الخصبة ، ثم نهرا الأردن والعاصى ويشغلان منخفضاً طولياً من الأرض يمتد من الشمال إلى الجنوب بين سلسلتى جبال معاب ويهوذا ، وهذا خلاف عدد من النهيرات التى لا أهمية لها سوى أن وديانها يمكن أن تكون خطوط اقتراب استراتيجية كوادى أطنه ويشقه نهر سيمون وهو خط الاقتراب الرئيسى لهضبة الأناضول من الشرق .

وهناك عدد من البحيرات الملحة لا تخلو من بعض المزايا الاقتصادية والاستراتيجية وفى مصر منها عدد أوفر نسبياً مما فى غيرها من بلاد الشرق الأوسط الأخرى كبحيرة قارون والمنزلة والتمساح والبحيرات المرة وأدكو ومريوط والبرلس وفى فلسطين البحر الميت وبحيرة طبرية والحولة وفى هضبة الأناضول بحيرة توز .

ويضم هذا الإقليم مساحات من الأراضى الخصبة وهى على ضآلتها بالنسبة لمساحة الإقليم كله إلا أنها من أخصب بقاع الدنيا كأراضى النيل الطامية السهلة وأرض الجزيرة والهلال الخصيب . وهى المصدر الرئيسى لثروة الإقليم الزراعية .

ويمكننا أن نجمل مناخ الشرق الأوسط فى أربعة أنواع هى : —

١ — مناخ البحر الأبيض المتوسط وهو حار جاف صيفاً ومعتدل ممطر شتاء ، ونراه واضحاً فى الجهات الساحلية للبحر الأبيض المتوسط فى فلسطين ولبنان وسوريا وتركيا والساحل الشمالى لمصر وليبيا .

٢ — المناخ القارى وهو حار صيفاً بارد شتاء ويكاد يكون عديم المطر طوال العام ويتضح فى هضبة الأناضول وسوريا الشرقية والعراق وخوزستان فى جنوبى إيران .

٣ — المناخ الصحراوى وهو شبيه بالمناخ القارى وتنعدم أمطاره تماما إلا فى

جهات قليلة تظهر فيها الواحات وبعض المراعى الضئيلة ويوجد فى مصر العليا والسودان الشمالى وشبه جزيرة العرب .

٤ — مناخ ما دون الاستوائى وهو شديد الحرارة نسبيا طوال العام وتسقط أمطاره فى الربيع والخريف وهما فصلا تعامد الشمس فى انتقالها من خط الاستواء إلى مدار السرطان وبالعكس على هذه المنطقة ويتمثل فى السودان الجنوبى والأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة العرب ماعدا اليمن التى تتعرض لتأثير الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تهب فى الصيف وتسقط أمطارها على المرتفعات الجنوبية لليمن بينما تترك ساحل تهامة جافاً لا تسقط عليه من غيثها ماء .

ولا نستطيع أن نقول أن هذا التقسيم المناخى للشرق الأوسط ينطبق على كل نواحيه وإنما يتوقف هذا إلى حد كبير على المؤثرات المناخية الأخرى كارتفاع الإقليم أو انخفاضه أو قربه أو بعده عن البحر أو تعرضه للرياح فمناخ وادى الأردن الشديد الحرارة يختلف تماماً عن مناخ المناطق المجاورة التى تتأثر بمناخ البحر الأبيض المتوسط المعتدل ، كما يمكن أن نشاهد أثر المناخ الجزرى واضحاً فى سواحل بحر قزوين الإيرانية وسواحل البحر الأسود التركية ، ولايفوتنا أن نفرق بين الحرارة والرطوبة فى سواحل الخليج الفارسى والبحر الأحمر صيفاً والحرارة والجفاف داخل شبه جزيرة العرب والعراق .

وأهم مانراه فى مناخ الشرق الأوسط عامة هو قلة الامطار قلة تحول دون الاعتماد عليها فى الزراعة إلا فى مناطق ضيقة محدودة وقد تنعدم الأمطار تماما فى كثير من نواحيه فلا يكون إلا الجفاف والمحل الذى نشاهده بينا واضحاً فى امتداد صحاريه واتساعها وشدة قحطها وجفافها .

ولا يمكننا أن ندعى أن الشرق الأوسط ذو موارد طائلة ومعين من الثروة لا ينضب وإن كان باطن الأرض يكشف كل يوم عن مخبوء كنوزه وإن كان تقدم العلم يبشر باستغلال مواطن الجدب والجفاف من أرضه بما يجعلها تفيض ثراء وخيراً فهناك من الاحتمالات مايوحى باستغلال صحاريه وإصلاحها للزراعة إذا كانت روسيا كما تتواتر أخبارها قد أمكنها أن تحول صحاريها إلى أراض خصبة تجود فيها

الزراعة باستخدام القوى الذرية وإذا كان من الممكن الكشف عن الأنهار الجوفية فلا ريب أن مساحات واسعة بين صحارى الشرق الأوسط يمكن أن تتحول إلى مراع أو أراض زراعية وفى مقدمة هذه الصحارى صحراء سيناء كما أن بعض المهندسين قد فكر فى تحويل ما يصبه النيل من مياهه فى البحر إلى بعض المناطق الصحراوية فى مصر واستنباتها .

ولم تبدأ الصناعات الضخمة فى الشرق الأوسط بعد وإن كان من اليسير أن تكون بعض مناطقه مراكز جيدة للقوى الصناعية والصناعات الضخمة إذا استخدمت مساقط المياه لتوليد القوى الكهربائية واستغل بتروله فى إحياء الصناعة وإنمائها ويمكن لصناعاته أن تدخل سوق المنافسة العالمية معتمدة على رخصها بالنسبة لرخص الأيدى العاملة وقلة تكاليف الإنتاج ويمكن أن تتوفر لها الجودة إذا اعتمدت على على التوجيه الفنى والعلمى مع مهارة العامل ودقته وصبره وهى ميزات تتوفر فى الأيدى العاملة فى تلك المنطقة التى اشتهرت منذ قديم الزمن بصناعاتها الدقيقة التى تحتاج إلى كثير من الصبر والمهارة كصناعة السجاد والعاج والقطع الفنية الدقيقة .

ولكن الشرق الأوسط فى حاضره فقير الموارد لايقوم إنتاجه على غير الزراعة وبعض الصناعات المحلية التافهة وقد قدرت مساحة أراضيه الزراعية بما يساوى ٥ ٪ من مساحته الكلية كما يقول مورى فى كتابه «مشاكل الشرق الأوسط الاقتصادية» وإذا كان هناك من المناطق ما تجود زراعتها وتخصب أراضيها وتكفى حاجة الاستهلاك المحلى فإنها لا تعتبر قياساً بالنسبة للانتاج العام للمنطقة كلها .

والشرق الأوسط رغم سعة مساحته التى تبلغ أكثر من ضعف مساحة الهند إلا أن مجموع سكانه ويقرب من سبعين مليوناً من الأنفس لايبلغ سدس مجموع سكان الهند، ومعنى ذلك أن إمكانيات هذه المنطقة يمكن أن تسد حاجة الاستهلاك المحلى وإن كان توزيع السكان لايتناسب مطلقاً وسعة المساحة وامتدادها فهناك المساحات الواسعة المجدبة من الحياة والعمران والمساحات الأخرى التى تكتظ بسكانها وتزدحم وقد جرى تجمع السكان فى المناطق الخصبة وفى وديان الأنهار منذ قديم الأزمان وكانت هذه الأماكن هى مراكز الحضارات القديمة ، ولكن ضيق المساحات الخصبة وتأخر

الإصلاح الزراعى مع الزيادة المطردة فى عـدد السكان قد جعل مستوى المعيشة يتخلف إلى حد كبير عن مستواه فى بلاد غرب أوربا فإن متوسط دخل الفرد فى بلاد الشرق الأوسط لا يتعدى خمس متوسط دخل الفرد فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ هذا المتوسط ضعفه فى بريطانيا .

وتعتمد بلاد الشرق الأوسط على بعض الصادرات التى تجود بها أرضه وتؤثر تأثيراً كبيراً فى اقتصادياته كالقطن المصرى الذى يتميز بنوعه وحاجة مصانع لنكشير الملحة إليه والموالح التى تجود بها أرض فلسطين والتمر العراقى والعنب وهو أهم ما تصدره تركيا إلى الخارج وأخيراً البترول الذى بدأت تتكشف عنـه أراضيه ويفيض بوفرة جعلت منه مركز الاهتمام والنشاط فى عوالم السياسة والاستراتجية والاقتصاد وأصبح عاملا قوياً من عوامل نموه الاقتصادى ، وهناك الثروة المعدنية التى تحتويها مياه البحر الميت والتى دأب اليهود على استغلالها والانتفاع بها كالبرومين والمغنسيوم والبوتاس .

والشرق الأوسط بيئة طيبة للاستثمار المالى مما يرفع من أهميته فى مضمار التنافس الاقتصادى العالمى ، وتتطلع الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المنطقة فى كثير من الحرص والأمل ، الحرص الذى يجعلها تسلك مسلك الحذر فى السيطرة الاقتصادية على هـذه المنطقة حتى لا يتطور التنافس الاقتصادى بينها وبين حلفائها الغربيين إلى تنافس سياسى قد يحطم وحدة المعسكر الغربى ويثلمها أمام التكتل الشيوعى، والأمل فى أن يتغلب الدولار الأمريكى بقوته على كل منافس آخر فى السيطرة الاقتصادية عليها تغلباً طبيعياً يتم على مدى الأيام حتى لا تثير الطفرة والغلبة السريعة مكامن الحذر والخوف من جانب حلفاء الغرب . وفى رأيى أن السياسة الأمريكية تتجه إلى هـذه الغاية فى براعة لا يكشف النظر العابر مدى عمقها وتحوطها وقد بدأت هذه السياسة فى أعقاب الحرب الأولى حينما أخذت تطالب بسياسة الباب المفتوح فى الميدان الاقتصادى فى الشرق الأوسط ولا سيما فى التنافس حول امتيازات البترول وكان فوز الشركات الأمريكية بحصة مماثلة لما فازت به كل من الشركات العالمية الأخرى ، أول القطر الذى يوشك أن ينهمر غيثاً .

وهو سوق رائج للتجارة الأوربية ومصدر لبعض الخامات الضرورية للصناعة الأوربية كما أنه يعتمد فى حاجاته الصناعية على الإنتاج الصناعى الأوربى وقد أخذت قدرته الاستهلاكية فى الزيادة والنمو نتيجة إقباله على مستحدثات الحضارة الغربية ولوازمها كما أن هذه القدرة الاستهلاكية تبشر بنمو مطرد نتيجة لنمو الثروة القومية وارتفاع مستوى المعيشة للفرد العادى كأثر من آثار الإقبال على التعليم وازدياد عدد المتعلمين . وهذه القدرة الاستهلاكية النامية تدفع بلاده إلى سياسة التصنيع حتى تسد مطالب الأهلين وحاجاتهم الصناعية ولاريب أن سياسة التصنيع ستدفع برءوس الأموال الأجنبية إلى هذا المجال البكر بعد أن ضاقت بلادها باستثمار جديد ومما يشجع رءوس الأموال الأجنبية على الدخول فى هذا المضمار أن الوعى الاقتصادى مازال قاصراً فى تلك البلاد التى تتركز رءوس أموالها فى الاستثمار الزراعى الذى يسيطر عليه طبقة محدودة من ملاك الأرض وسادتها لا يرضون عن هذا السبيل بديلا .

ويقول بونيه أن الشرق الأوسط يمكن أن يستوعب ألف مليون جنيه زيادة على موارده المالية خلال عشرين عاما حتى يتحقق نموه الاقتصادى ولا سبيل للحصول على هذا المبلغ الضخم إلا من أسواق المال الأجنبية ، وهذه ناحية تفسر لنا اهتمام الدول الرأسمالية والصناعية الكبرى بهذا الميدان البكر للاستثمار والتسويق والتصنيع .

ولا ريب أن مستقبل هذا الإقليم يعج بالأحداث وستلعب القوى الاقتصادية فى ربوعه أضخم دور لعبته فى تاريخه وستكون العامل القوى فى توجيه التيارات السياسية والاستراتجية التى تتجمع حوله وتصب فيه وتتصادم فى بقاعه .

وقد كان الشرق الأوسط أخصب بيئة فى التاريخ القديم لاستثمار جهود الإنسان فقد كانت الطبيعة فى غاية السخاء عندما منحته كل مقومات الحياة فكان مهد الحضارات القديمة والأمم القوية التى عاشت فى ربوعه حقباً طويلة والعالم فى طور النشوء والارتقاء .

وقد شهدت بلاده حضارة مصر فى وادى النيل الأدنى وسومر وأشور وبابل فى العراق ومعين وسبأ فى اليمن وفينيقيا فى شاطىء اللفانت ، واتصلت بلاده بالحضارتين

الإغريقية والرومانية وكان غزو الإسكندر المقدونى له محاولة قوية لإدماج العالم المعروف وقتذاك فى وحدة الحضارة الهيلينية كما كانت أول غزو يقوم به الغرب للشرق.

وطلعت الديانات السماوية على العالم من ثناياه ففى مصر بعث موسى إلى بنى إسرائيل يهديهم وينقذهم من جور فرعون واستعباد المصريين وفى الناصرة من أعمال فلسطين أشرق دين المحبة والسلام على الأرض بظهور المسيح ومن مكة طلعت رسالة التوحيد وشريعة الحياة بعث بها محمد ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، وصبغت هذه الديانات عقيدة أهله فى الحياة بصبغة من الروحانية والتدين العميق فكان الدين من أقوى العوامل التى توجه عواطف الجماهير وتغذيها فى بلاده ،

وما زالت طبائع الحياة التى خلفتها الحضارات القديمة فى شعوبه والديانات التى مارستها حتى قبل أن تنزل رسالات السماء، باقية واضحة المعالم تكيف اتجاهات الناس وميولهم وعاداتهم وطبائعهم ومأثوراتهم وإن كانت العين العابرة تخطىء ظواهرها إلا أن التعمق فى تحليلها وفهمها يقودنا إلى أصولها التى تنبع من الحضارة والدين والتى بقيت كمينه فى أغوار النفس الإنسانية لاتثور إلا إذا أهتاج عوامل الوارثة فيها مثير يتصل بمقوماتها ، ولعل الإيمان الدينى فى بلاد الشرق الأوسط ومصر على الأخص وارتباط القيم الإنسانية والأخلاقية بالدين هو أقوى ما تتسم به شعوب هذه المنطقة .

وكانت الحضارات التى تعاقبت على أرضه ذات أثر قوى فى تطور الحضارات المتأخرة وتقدمها فقد كان تأثير الحضارة المصرية والبابلية بالغاً فى الحضارة الأوربية الحديثة حتى فى مقوماتها العلمية والفنية المتميزة فالعلوم والرياضيات كما نعرفها فى الوقت الحاضر قد انتقلت إلينا خلال الإغريق والعرب متأثرة بما نقلاه عن المصريين والبابليين .

ويقول توينبى فى كتابه «دراسة التاريخ» أن اثنى عشرة حضارة من بين احدى

وعشرين من الحضارات النامية المكتملة التى شهدها العالم فى ماضيه وحاضره قد قامت فى الشرق الأوسط .

وتعود المؤثرات الحاضرة فى الشرق الأوسط إلى بداية ظهور الأسلام وانطلاق العرب فى فتوحات ظافرة من قلب الصحراء يحملون رسالتهم وشريعتهم إلى بلاده وكانت تتقسمها أمبراطوريتان سادتا العالم المعروف وقتذاك ، الفرس فى الشرق والروم فى الغرب وكانت الحروب التى اتصلت بينهما طويلا قد تجددت فى أوائل القرن السابع الميلادى والأسلام فى فجره الصادق وأصبحت بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى ساحة النضال بين الدولتين وانتهى الدور الأول من هذه الحرب بسقوط هذه البلاد كلها فى أيدى الفرس ، ونهب بيت المقدس وحملت تحفه وأيقوناته وصوره ونفائسه وذخائره إلى بلاد فارس . ولم تمض بضع سنين على هذه النصر حتى كان هرقل يقود جيوش الروم ليحرز نصرا سريعاً على الفرس وتعود هذه البلاد مرة أخرى إلى سيادة بيزنطة وتحتفل البلاد المسيحية بعودة الصليب الأعظم إلى مكانه من بيت المقدس وفى هذه الحرب بين الدولتين نزلت الآية الكريمة « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » وذلك قبل أن تبدو فى الأفق بوادر النصر الرومانى .

وفى غمرة هذا النضال بين العاهلين وصلت إلى كل منهما رسالة من عربى مجهول لم يسمعا بذكره من قبل بدعوة جديدة ،ولقيت الرسالة من من عاهل الروم اكبارا وتوقيرا وازور عنها كسرى ومزقها ، وكانت الرسالة من محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يدعوهما فيها إلى الإسلام .

ولم تمض غير أعوام قلائل حتى كانت جيوش الأسلام تقضى على ملك فارس قضاءا تاما وتقطع أطراف الدولة البيزنطية وتأخذ منها مصر والشام وشمال أفريقيا فى عهد الخلفاء الراشدين ، وامتدت موجة الفتوح الأسلامية فى عهد الأمويين حتى وصلت فى مدى نصف قرن الى حدود الهند شرقا واجتازت العدوة من شمال إفريقيا إلى إسبانيا غربا .

وارتفعت كلة التوحيد فى تلك البلاد واعتنق أهلوها الاسلام وشملتها حركة

استعراب قوية إثر ما انثال عليها من هجرات البطون والقبائل العربية التي حملت لغتها وصفاتها الجنسية إليها ،

وكان لانتشار الاسلام فى البلاد التي امتدت إليها موجة الفتوح الاسلامية أن قام فى حدود هـذا النطاق الأقليمى الفسيح الأرجاء وحدة دينية قوية سيطرت على أتجاهات تاريخه حتى وقتنا هـذا ، وكانت الخلافة الأسلامية عنوان هـذه الوحدة القوية حتى بعد أن ضعف سلطان الخليفة الزمنى وقام الأمراء والولاة يقصون من حقوق هذه السيادة لأنفسهم ، فإن سيادة الخليفة الروحية على العالم الأسلامى قد بقيت قوية مسيطرة تجمع المسلمين فى نطاقها ووحدتها حتى سقطت الخلافة على أيدى الكماليين فى تركيا عام ١٩٢٤ فكان لسقوطها صدى أليما فى نفوس المسلمين حتى البعيدين منهم عن التبعية المباشرة لسلطان الخلافة كمسلمى الهند والملايو وأواسط إفريقيا وبلاد الأفغان ، بل أن سقوط الخلافة العثمانية قد أثار ثائرة الكراهية الشديدة عند مسلمى الهند لبريطانيا فقاموا يبدون استعدادهم للترحيب بغزو الافغانيين لبلادهم انتقاما من البريطانيين الذين كانوا يرون أنهم السبب فيما نزل بالخلافة من كوارث .

وقامت فى هذه البلاد حضارة إسلامية باهرة استوعبت كل حضارات الفرس والروم ونقلت عن اليونان كما نقلت عن الهند وظلت هـذه الحضارة زاهية زاهرة تجدد من تراثها وتضيف إليه ، حتى انتقلت السيادة فى البلاد الأسلامية إلى العناصر التركية التى أخذت تدخل فى خدمة الدولة فى خلافة المعتصم العباسى ومابعدها ، ولم يكن للأتراك من اتساع الآفاق الذهنية ماكان لأندادهم العرب وإن كانوا محاربين مهرة ومقاتلين ذوى بسالة ودربة .

وما أن قامت الدولة العثمانية وبسطت نفوذها على العالم الأسلامى حتى كانت عناصر البحث والتجديد التى تغذى لهيب الحضارة قد فقدت مقوماتها فى الحضارة العربية وران على العقلية الأسلامية جمود قاتم فى الوقت الذى أخذت أوربا تنبش تراث الحضارات الماضية لتقيم دعائم نهضتها الحديثة . وبانت آثار هذا الجمود العقلى عندما أخذت عوامل الضعف تدب فى كيان الدولة العثمانية وتضاعفت عندما ضربت

الدولة نطاقا من العزلة حول أملاكها ضد الأمتداد الأوربى الذى أخذ يهددها فى ضعفها وكان لهذه العزلة آثارها الأقتصادية كما كانت لها آثارها الفكريه . أمامن الناحية الأقتصاديه فإن خوف التاجر الأوربى من المغامرة فى قلب العالم العثمانى لما كان يتعرض له من اضطهاد وعدوان وسلب كان يحول دون قيام علاقات اقتصادية منظمة بين البلاد العثمانية والتجار الأوربيين ثم كان للمنافسة التجارية بين الدول البحرية الجديدة كأسبانيا والبرتغال والإمارات التى كانت تسيطر على المسالك البحرية فى البحر الأبيض المتوسط كجنوى والبندقية من الآثار ما دفع هذه الدول الجديدة للبحث عن مسالك أخرى للتجارة غير التى تسيطر عليها جنوى والبندقية تصل بهم إلى تجارة الهند وقد قادهم ذلك إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة الشرق إليه وأدى ذلك إلى أنهيار تجارة المرور فى بلاد الدولة العثمانية ومصر التى أصبحت أيالة عثمانية ، وجمهوريات أيطاليا مما كان له أبعد الأثر فى هبوط مواردها المالية.

وأمامن الناحية الفكرية فأن نظرة الخوف والحذر التى شاعت فى العالم الإسلامى وكانت مظهراً بارزا لجمود المسلمين العقلى وتخلفهم عن متابعة ركب الحضارة وتطور المدنيه قد حالت بينهم وبين الإتصال العقلى بأوربا التى أخذت تسبق فى مضمار الرقى والتفوق بلاد الشرق التى ظلت لآماد طويلة موطن الحضارات والتمدين والفكر الرفيع .

وقبل أن تنشأ الدولة العثمانية وتقوم لتجدد موجة الفتوح الأسلامية فى أوربا تعرضت بلاد الشرق الأوسط لموجتين قويتين من الغزو الخارجى وكانت الدولة العباسية قد استطاعت أن تحقق نوعا من السلام والأمن فى بلادها الا ما كان يثور بين الأمراء والحكام فى البلاد الإسلامية عندما ضعف سلطان الخليفة العباسى من ألوان الخصومة والنزاع ولكنها لم تهدد طابع السلام العام الذى كان يمد رواقه على العالم الأسلامى ، وكان هذا السلام أشبه ما يكون بالسلام الرومانى الذى حققته روما فى أمبراطوريتها

وقد جاءت موجة الغزو الأولى التى هددت السلام فى الشرق الأسلامى من

الغرب عندما أعلنت أوربا المسيحية دعوة الجهاد الدينى ضد المسلمين الكفار الذين يهددون مسالك الحج الى بيت المقدس ويملكونها .

وبدأت الدعوة الدينية لهذا الغزو الأوربى المسيحى للشرق الأسلامى عام١٠٩٥ عندما وقف البابا « أربانوس الثانى » فى « كليرمونت » يدعو المسيحيين الأبرار لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين الكفار . وكان أربانوس لسنا فصيحا فما أن أتم خطبته حتى تجاوبت أصداء كلمته « إنها إرادة الله » كل أوربا المسيحية فامتشقت الحسام لحرب المسلمين ، وظل ساحل الشرق زهاء قرنين مسرحا للنضال بين الشرق والغرب وامتد مسرح النضال فى عهد الأيوبيين إلى مصر عندما أصبحت معقل القوى الإسلامية التى أخذت تهدد سلامة الأمارات اللاتينيه التى كونها الصليبيون فى ساحل اللفانت بعد نجاح حملتهم الأولى على البلاد وانتهى هذا النضال باستيلاء الأشرف خليل أحد سلاطين دولة المماليك على عكا آخر معقل بقى فى أيدى الصيلبيين عام ١٢٩١ ، وانطوت بذلك صفحة رائعة من صفحات الصراع بين الشرق والغرب . وقد وصف جيبون نهاية هذه الحروب الصليبية بقوله « وخيم سكون محزن على الشاطىء الذى ظل زمنا طويلا ميدانا تسمع فيه قعقعة سيوف النضال » .

ولم تكن هذه الحروب الصليبية خالصة للدين وحده فقد كان بين الغزاة من تحدوهم إلى الشرق أطماع ورغبات لا تتصل بلب الجهاد الدينى ، فالأمراء يريدون إفتتاح أراض جديدة تخفق عليها أعلامهم والتجار من بيزا والبندقية وجنوى يرجون تحقيق مصالح تجارية والمذنبون يأملون فى التكفير عن خطاياهم كما وعدهم البابا ، فكان الجيش الصليبى حافلا بالمنافقين والمؤمنين وأهل الشقاوة وشذاذ الآفاق والمغامرين ، والواقع أن اندفاع الجماهير فى فرنسا واللورين وإيطاليا وصقلية إلى امتشاق الحسام لم يكن كله تضحية بل تفريجاً للأزمة الإقتصادية والإجتماعية التى كانت تعانيها تلك البلاد .

أما موجة الغزو الثانية فقد جاءت من ناحية الشرق والحروب الصليبية توشك أن تطوى صفحتها والنضال لما ينتهى بعد بين المسلمين والصليبيين عندما قام المغول من أواسط آسيا يجتاحون العالم شرقا وغربا ويهددون الحضارات المجاورة ويدمرون

معالمها بقيادة عاهلهم الدموى جنكيز خان الذى قضى على الدولة الخوارزمية التى كانت تمتد من حدود فارس غربا الى حدود الهند شرقا وكان ذلك فى الربع الأول من القرن الثالث عشر .

ثم عاد المد المغولى يجتاح العالم مرة أخرى فى عهد هولاكو الذى اجتاح فارس والعراق ونزل على بغداد وأوقع الرعب والفزع بأهليها ودمر معالمها وقتل الخليفة المستعصم بالله وأخذت جيوشه تتقدم فى بلاد الشام صوب مصر فلم يوقف تقدمها غير المماليك المصريين الذين أوقعوا بها هزيمة فاصلة فى معركة عين جالوت عام ١٢٦ وأنقذوا مصر من شرهم وانحسرت هذه الموجة الكثيبة التى هددت الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت .

وكانت الموجة الأخيرة للاجتياح المغولى عندما انقضوا بقيادة عاهلهم الأعرج تيمورلنك وأوقعوا بالعثمانيين هزيمة منكرة فى معركة أنقرة عام ١٤٠٢ وأخذوا السلطان بايزيد العثمانى أسيراً ولكنهم لم يعبروا الأناضول إلى أوربا بل عادوا أدراجهم إلى سمرقند ثم لم تلبث دولتهم أن تجزأت على أثر موت تيمورلنك عام ١٤٠٥ .

وقد ترك الغزاة الأول من آثارهم العقلية والجنسية والاقتصادية مانم عليهم فى الشرق الإسلامى وكانوا رسل الحضارة الإسلامية إلى أوربا أما الآخرون فلم يخلفوا فى العالم الإسلامى غير الدمار والخراب وإن كانوا كأترابهم العثمانيين مدوا موجة الفتح الإسلامى الى الهند وأسسوا دولة إسلامية عظيمة فيها كالدولة التى أقامها العثمانيون فى آسيا الصغرى وأوربا وبلاد المشرق وشمال إفريقيا .

وما انجابت غمة الحروب الصليبية عن الشرق الإسلامى بعد أن فشلت فى تحقيق أهدافها حتى كان الأتراك العثمانيون يجددون شباب الإسلام وقوته ويعيدون عرامة الفتوح الإسلامية الباهرة التى وقفت دونها أسوار القسطنطينية فى عهد بنى أمية .

وقد أسس الأتراك العثمانيون أمارتهم الأولى قرب أنقرة وكان السلاجقة قد أقطعوها لزعيمهم الأول أرطغرل جزاءاً طيباً على ما قدم لهم من معونة فى معركة ضد المغول وكان أرطغرل يتجول على رأس قبيلته قريباً من ميدان المعركة ودخلها

فى صف الفريق الخاسر دون أن يدرى من أمر المتحاربين شيئاً وكم كان فرحه عظيما حينما عرف أنه ما أنجد إلا أبناء عمومته من الأتراك السلاجقة .

ولما مات أرطغرل عام ١٢٨٨ خلفه ابنه عثمان واليه تنسب الدولة ، وقد بدأ سياسة التوسع التى سار عليها سلاطين آل عثمان من بعده حتى اجتاحوا كل آسيا الصغرى ووصلوا الى آخر سواحل بحر مرمرة واجتازوه لأول مرة فى عهد أورخان الذى أقام لجنده قواعد حربية فى غاليبولى اتخذها خلفاؤه مراكز وثوب الى البلقان وتهديد القسطنطينية المعقل الأخير للدولة البيزنطية وآخر ما بقى لها من أملاكها الفسيحة وقد سلمت أدرنة للسلطان مراد بن أورخان واتخذها الأتراك عاصمة لهم عام ١٣٦٧ ثم انتصر العثمانيون فى معركة قوصوه عام ١٣٨٩ على مسيحيى البلقان الذين تحالفوا ضدهم وانفتح لهم بهذا النصر طريق البلقان إلى أواسط أوربا، وقد قاومت الشعوب المسيحية فى البلقان تقدم العثمانيين وتفوقهم ولكنهم كانوا يمنون بهزائم فادحة كان آخرها هزيمتهم بقيادة البطل المجرى هنياد عند ورنة على البحر الأسود عام ١٤٤٤ ثم فى معركة قوصوه الثانية عام ١٤٤٨ وكان لمحمد الثانى فضل الإستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ودعى لذلك بمحمد الفاتح .وأطلق عليها اسم استانبول وأصبحت كبغداد ودمشق والقاهرة إحدى حواضر العالم الإسلامى الكبرى حتى وقتنا هذا فما زالت تنم عنها أمجادها القديمة وموقعها الاستراتيجى الفريد رغم انتقال عاصمة تركيا الحديثة إلى أنقرة .

وقد امتدت فتوح العثمانيين فى أوربا حتى طوت شبه جزيرة البلقان والقرم فى دولتهم ووصلت إلى أواسط أوربا وإيطاليا ولم يمنعهم من إبتلاعها إلا صلابة القائد المجرى هنياد ومقاومة أسكندر بك الألبانى الذى خرج على الدولة طمعاً فى الاستقلال بألبانيا ، كما وسعت أملاك العثمانيين جزر بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط .

وفى عهد السلطان سليم الأول اتجهت موجة الفتوح العثمانية نحو الشرق فاستولى على ديار بكر وكردستان بعد أن هزم جيوش إسماعيل الصفوى شاه فارس وبعد ذلك بعامين استولى على الشام ومصر عام ١٥١٧ وحمل الخليفة العباسى بمصر على التنازل له عن الخلافة فأصبح لسلاطين آل عثمان من بعده سيادة العالم الاسلامى الروحية بجانب سيادتهم الزمنية .

ولما ارتقى العرش إبنه سليمان القانونى ضربت جيوشه فى الشرق والغرب وضم إلى ملكه فى الشرق أرمنية والعراق وفى الغرب استولى على بلغراد ورودس واجتاح المجر واستولى على بودابست وأقام عليها من قبله حاكما من أهلها ثم تقدم إلى فينا وحاصرها ولكنه ارتد عنها عندما فاجأه شتاؤها القارس عام ١٥٢٩ ، واستمرت الحرب بين سليمان القانونى وفرديناند ملك النمسا حتي إنتهت بصلح رضى فيه فرديناند أن يدفع الجزية للعثمانيين ويعترف بسيادتهم على ترانسلفانيا والمجر .

وفى عهد سليمان القانونى بلغت قوة البحرية العثمانية أوجها ، حمل لواءها أبطال من قراصنة البحر خدموا الدولة وبسطوا سيادتها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وجزره يدفعهم المجد الى المغامرة والعاطفة الدينية إلى خدمة الدولة حتى عقدوا لها سيادة البحار ومن أعظمهم شأناً وأعلاهم ذكراً « خير الدين بربروس » أعظم رجال البحر فى عصره ، بدأحياته قرصاناودانت له ثغور البحر فى عصره ، ثم أعلن ولاءه وخضوعه للسلطان العثمانى واستولى على الجزائر بإسمه وعينه السلطان سليم الأول حاكما عليهاعام ١٥١٩ ثم أصبح أميراً للبحر فى عهد سليمان القانونى وأوقع بأسطول شارل الخامس ملك أسبانيا هزيمة ماحقه وأنقض على شواطىء إيطاليا ينهب ويسلب ثم أوقع هزيمة أخرى بأساطيل البندقية وأسبانيا والبابا التى تحالفت ضد الدولة وقضى بذلك على هيبة البنادقة البحرية كما أوقع بأسطول شارل الخامس هزيمة ثالثة تجاه ساحل الجزائر وكان أسطول شارل الخامس قد خرج للأغارة عليها . وفى عام ١٥٤٣ أرسله سليمان القانونى لعون حليفة ملك فرنسا .

ومن هؤلاء الأبطال « بيرى ريس » و « سيدى على » وكانت لهما اليد الطولى فى بسط نفوذ الدولة على شواطىء بلاد العرب وفارس والهند . ومن أشدهم بأسا « طورغود » وقد عاصر بربروس ونشأ نشأته حتى ضمه بربروس الى خدمة الدولة ونصبه وكيلا له وقد انتصر على أسطول جنوى فى عدة مواقع كما قام بفتح المهدية عاصمة تونس فى ذلك الوقت .

ويجمع المؤرخون على أن عصر سليمان القانونى هو العصر الذهبى للدولة العثمانية

فقد بلغت فيه أوج مجدها وأقصى اتساعها حتى وسعت بلادا تمتد من الخليج الفارسى وأرض الجزيرة شرقا إلى مملكة النمسا فى أوربا وحدود مراكش فى إفريقيا غربا ومن شواطىء شبه الجزيرة العربية جنوبا إلى شبه جزيرة القرم وسواحل البحر الأسود شمالا .

ثم انتاب الدولة ما ينتاب الدول بعد أن ترقى قمة المجد فتأخذ فى الإنحدار وهى ظاهرة طبيعية تصيب الشعوب والأفراد على الدوام وإن كان فلاسفة التاريخ والاجتماع ما انفكوا يعللون هذه الظاهرة ويفسرونها دون أن ينقذوا الشعوب والأفراد من مصائرها المحتومة فإن سنة التطور هى التى تغلب على طبائع الأشياء وظواهرها .

وقد أخذت الدولة العثمانية فى الإنحلال والضعف بعد عصر سليمان القانونى ، وكانت معركة « ليبانتو » البحرية التى انتصرت فيها أساطيل الحلف المقدس الذى تكون من البندقية وأسبانيا والبابوية على الأسطول العثمانى عام ١٥٧١ ، أول ضربة تنزل بالهيبة العثمانية ، بعد ما وقر فى الأذهان أن العثمانيين لايقهرون .

ولكن عناصر القوة ما زالت تسرى فى أعطاف الدولة ، وكان النظام الباهر الذى وضعه سليمان القانونى ما برح يجد له من بعض رجال الدولة وحكامها ، من تدفعهم روح سليمان العظيم إلى العمل والبذل لإعلاء شأن الدولة ومنهم وزيره صقلى محمود الذى أمر سنان باشا بتوطيد سلطة الدولة فى بلاد العرب ، وقد تم له إخضاعها عام ١٥٧٠ . وكذلك لالا مصطفى أحد نظراء صقلى الذى قام بفتح قبرص ، وانتزاعها من أيدى البنادقة ، ورغم انتصار دول الحلف المقدس فى معركة ليبانتو لم يستطع البنادقة استعادة قبرص وتنازلوا عنها لتركيا عام ١٥٧٣ بعد أن عقدوا صلحاً انفراديامعها ، خرجوا به على وحدة الحلف المقدس . كما استطاع العثمانيون بعد معركة ليبانتو بعامين أن ينشئوا أسطولا جديداً وأن يحتفظوا بتفوقهم فى البحر الأبيض المتوسط .

وما كانت هذه الظواهر لقوة الدولة لتخفى علامات الضعف التى أخذت تدب فى كيانها ، فلأول مرة عام ١٦٠٦ يعقد النمساويون معها صلحاً يقفون وإياها فيه على قدم المساواة ويرفضون دفع الجزية ، واستمر الضعف ينوش الدولة ويسرى فى كيانها حتى تولى منصب الصدارة العظمى وزراء من أسرة « كبريلى » واحداً بعد الآخر لمدة نصف قرن استطاعوا خلاله أن يستعيدوا كثيراً من هيبة الدولة العثمانية وقوتها وسيادتها التى تحققت فى عهود السلاطين الأقوياء .

وقد قام أولهم محمد كبريلى بإجلاء أسطول البنادقة عن الدردنيل واستعاد جزيرتى لمنوس وتندوس كما ضيق الحصار على كانديا فى كريت . وأخذ يتأهب لتجديد الفتوح العثمانية فى أوربا .

وعندما تولى إبنه أحمد كبريلى منصب الصدر الأعظم تابع سياسة أبيه ، وفى عهده سقطت كانديا فى أيدى الأتراك بعد أن استمر حصارها قرابة ربع قرن ، وتم للأتراك الاستيلاء على كريت عام ١٦٦٩ ، كما اجتاحت القوات العثمانية بلاد النمسا والمجر وأحرزت عدة انتصارات ، ولكنها هزمت أخيراً هزيمة لم تكن حاسمة ولم تفقد الدولة العثمانية شيئاً من هيبتها أو سيادتها ، كما أحرزت عدة انتصارات أخرى ضد بولندا ، كادت تحقق للعثمانيين أهدافهم لولا قيام البولنديين بقيادة جون سوبيسكى الذى استطاع أن ينتصر على الأتراك فى معركتين كبيرتين ولكنه اضطر أخيراً لقبول الصلح واعترف للأتراك بسيادتهم على بادوليا وأوكرانيا فى معاهدة زراڤنا عام ١٦٧٦ .

وقد مات أحمد كبريلى بعد صلح زراڤنا بعدة أيام ، وتولى منصب الصدر الأعظم بعده صهره قره مصطفى وكان طموحا إلا أن طموحه كان يفوق قدرته ، فجعل كل أمانيه أن يقتحم أسوار فينا ويحقق حلماً لم يتحقق للسلاطين العظام من قبل ، ونجحت الجيوش العثمانية فى الوصول إلى أسوار فينا للمرة الثانية والأخيرة وقد ضيع قره مصطفى فرصة اقتحام المدينة بتلكؤه حتى وصلت الإمدادات البولندية بقيادة جون سوبيسكى وأنزلت بالأتراك هزيمة ماحقة ، أما قره مصطفى فإن الأتراك قد باعوه ذلك النصر المضيع بضرب عنقه .

وتوالت الهزائم على الجيوش العثمانية حتى أجلاهم سوبيسكى عن المجر وانضم البنادقة إلى قوات سوبيسكى فى اقتفاء أثر الفلول التركية المنهزمة . وتكون الحلف المقدس من البابا والامبراطور والبندقية وبولنده وأخذت فتوحه تمتد على نهر الطونة براً وفى البحر الأبيض المتوسط بحراً ، واستطاع دوق لورين أن يوقع بالأتراك فى معركة موهاكس .

ولم تستطع الدولة العثمانية بعد ذلك أن تسترجع هيبتها وسيادتها القديمة فى تلك النواحى مرة ثانية ودخلت الروسيا الحرب بدورها تحقيقاً للسياسة التى وضعها بطرس الأكبر واستولت على آزوف واضطر السلطان بعد أن يئس من نتيجة الحرب أن يعقد صلح كارلوفتز وأن يكون هذا الصلح بداية الانهيار الحقيقى للدولة واعـــترافها بالعجز أمام الضغط الأوربى المتزايد ودخول المسألة الشرقية فى طور جديد .

وقد كانت شروط معاهدة كارلوفتز تقضى بتنازل السلطان عن كل بلاد المجر ما عدا تمسفار وكرواتيا وترانسلفانيا وسلافونيا للنمسا وأن تكون المورة ومعظم دالماشيا والبندقية وبادوليا لبولندا وآزوف للروسيا .

وللمرة الأولى نرى الروسيا تدخل فى حرب ضد الدولة العثمانية وتشارك فى الغنائم التى أحرزتها الدول على حسابها فى معاهدة كارلوفتز ويكون ذلك بداية الدور العنيف الذى لعبته فى المسألة الشرقية لمدة قرنين من الزمان بعد ذلك والذى صبغ تاريخ الشرق الأدنى وسياسته بذلك اللون من النضال الحربى والسياسى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

* * *

وقد رأينا فى غمار الفتوح العثمانية كيف دخلت بلاد الشرق الأوسط تحت سيادة الدولة العثمانية وأصبحت بلاد الإســلام ولايات عثمانية ، وقد انتقلت إليهم الخلافة الإسلامية بعد أن تنازل لهم عنها آخر الخلفاء العباسيين فى مصر إثر فتح السلطان

سليم الأول لها عام ١٥١٧ وأصبح لهم من الزعامة الروحية على العالم الإسلامى مالهم من السيادة الزمنية فيه .

ولم يبق خارجاً عن سياة العثمانيين من العالم الإسلامى غير بلاد فارس وكانت قد تكونت فيها دولة شيعية بعد احتياج المغول لها وانحسارهم عنها تحكمها أسرة الصفوى ، واتصلت الحروب بين العثمانيين والصفويين ردحاً طويلا من الزمن منذ غزو سليم الأول لفارس عام ١٥١٤ حتى شغلت الدولتان بالضغط الخارجى الأوربى الذى وقع عليهما فى وقت واحد تقريباً وكان نذيراً بما أخذ ينتابهما من ضعف واضمحلال .

الفصل الثانى

السياسة والاستراتيجية
والشرق الأوسط

يحتل الشرق الأوسط فى هذه الأيام من الإهتمام العالمى مكانة لم تكن له فى يوم من الأيام منذ الفتوح الإسلامية الباهرة ، يوم تركزت القوى العالمية جميعها فى أرضه وفوق أديمه ، وفى أيدى قادته .

وليس مصدر هذا الاهتمام الجديد ، تلك العوامل القديمة التى سطرت تاريخه ، وصنعت اتجاهاته ، وجعلت منه مركز القوى العالمية فى العصور القديمة والوسطى ، وليس مصدره تلك اليقظة التى أخذت تدب فى أرجائه تتجه تارة إلى تراث الماضى وتميل تارة أخرى نحو الغرب بمادياته وعلومه وتفوقه الحضارى الماثل ، وإنما مصدره تلك التيارات السياسية والاستراتيجية التى تتجمع فى أرضه وتجعل منه مركز تنافس القوى العالمية وتطاحنها على أرضه .

ولقد تغير أسلوب السياسة ، وتطور التفكير الاستراتيجى . وكان هذا التطور فى أسلوب السياسة والتفكير الاستراتيجى ، ذا أثر بين فى زيادة الاهتمام العالمى بالشرق الأوسط .

وقد أصبحت السياسة كما أصبحت الاستراتيجية من السعة والشمول بحيث جعلتا من العالم وحدة كبرى تتناولها تياراتهما وأهدافهما ، وأصبحت الأقاليم والوحدات السياسية التى احتفظت بعزلتها فى الماضى ، تتأثر بالتيار العام للسياسة العالمية ،وأصبحت سياسة الدولة ترسم على هدى هذا الاتجاه وأهدافه ، وهذا هو ما حمل الولايات المتحدة الأمريكية على الاشتراك فى الحربين الماضيتين ، ودفعها أخيراً إلى نبذ سياسة

العزلة التى جرت عليها منذ إعلان مبدأ منرو سنة ١٨٢٣ ، والاشتراك فى السياسة العالمية ، بل وتوجيهها ، حتى قبل أن يعلن الرئيس ترومان عقيدته الجديدة فى ربيع سنة ١٩٤٧ . وهو تاريخ إعلان السياسة الأمريكية الجديدة واتجاهها العام بصفة رسمية ، وكان ذلك عندما أعلن الرئيس ترومان أن حماية تركيا واليونان من العدوان الخارجى (ويعنى به عدوان روسيا) مسألة تعنى الولايات المتحدة وتهمها .

وهذا الاتجاه الجديد للولايات المتحدة هو الاتجاه الذى أصبح يسود تيار السياسة العالمى ، فلم يعد مستطاعا أن تعيش دولة بمعزل عن المجموعة العالمية للدول ، أو بمنأى عن السياسة العامة التى توجهها وتؤثر فيها .

وقد تأثر هذا الاتجاه الجديد للسياسة العالمية بعدة عوامل كانت سبباً له ودافعاً لتياراته المختلفة ومؤثراً عظيما فى طابعه .

وأول هذه العوامل هو تلك الروابط والصلات الجديدة التى أصبحت تربط العالم بعضه ببعض ، فإن تطور المواصلات وسرعتها . ووسائل الاتصال السريع بين أنحاء المعمورة قد قضى على عاملى المسافة والزمن فى الاتصال العالمى وأصبح العالم وحدة متماسكة تربطها وسائل المواصلات السريعة المختلفة ، كما تتجاوب الإذاعة والصحافة بكل أفكار العالم وأحداثه واتجاهاته ، بما يقوى الصلات بين المجموعات البشرية التى تعيش فى بقاعه المختلفة .

وأخذت الحضارة رغم الفروق المحلية تتخذ طابعاً واحدا فى كل أنحاء المعمورة ، كما أخذت الأفكار والمذاهب من العالم مسرحا لتطاحنها ، بعد أن كانت حبيسة المناطق التى تنبت فيها .

واستيقظ الوعى الإنسانى فى الشعوب الهاجعة المغلوبة ، ولم تعد هناك قابلية لسيادة جنس على آخر ، أو استغلال فرد لأفراد . وإذا كانت حقوق الإنسان قد أعلنتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وأجملتها فى وثيقة رسمية ، وإذا كانت هيئة الأمم المتحدة قد أعلنت هذه الحقوق على العالم فى وثيقة دولية ، فإن الأديان والشرائع القديمة لم تخل من الإشارة إليها ، ولعل الإسلام كان أكثر الأديان تناولا وشرحا وإقراراً لحقوق الإنسان ، إلا أن هذا الوعى الإنسانى الجديد لم يكن وليد هذه

الحقوق التى أعلنت بقدر ما كان هذا الإعلان وليد الوعى الإنسانى فى مراحل تطوره وإذا كانت هيئة الأمم المتحدة قد أعلنت على العالم إقرار حقوق الإنسان ، فإن الوعى الإنسانى لم يكن ليقوم على هذا الإعلان ، ولم يكن وحيه ، وإنما هو ثمرة هذا التطور الحضارى الشامل للعالم الجديد ، هذا التطور الذى يقوم على الفكر والثقافة ويستمد أصوله من إدراك الإنسان لكيانه العام كفرد بين أفراد يرتبطون جميعاً بمصير واحد ويؤثرون تأثيرا مشتركا فى بنـاء الحضارة وتقدم العالم .

وكان لهذا الوعى الإنسانى أثره فى علاقة الحاكم بالمحكوم فى داخل الدولة نفسها وفى علاقة الشعوب بعضها ببعض فلم تعد هناك سيادة لجنس على آخر ، كما كان له أثره فى العلاقات الدولية ، فلم يعد من حق دولة أن تستغل دولة أخرى لصالحها أو تستعبدها لأهوائهـــا ، ولم يكن حق تقرير المصير للشعوب المهضومة إلا صدى هذا الوعى الإنسانى الجديد ، وإن كانت الاتجاهات السائدة والأنظمة الغالبة قد قضت عليه إلا أنها لم تقض على آثاره ولم تحد من تفوقه ونمائه ، وأصبح للزمن وحده أن يقرر غلبة هذا الحق المقدس وسيادته ، ولم تعد العلاقات الدولية تقوم على كره من الشعوب بقدر ما تقوم على حق الشعب فى تقرير علاقاته الدولية وتوجيهها والرضاء عنها .

وأصبحت الدول التى تمتعت بحقوق السيادة طويلا على شعوب استعمرتها بقوة السلاح تنشد أن تبقى على بعض مظاهر سيادتها باتفاقيات أو معاهدات تبرمها مع هذه الشعوب برضائها ، وتلح فى ذلك إلحاحاً عنيفاً قد تلجأ فيه إلى وسائل التهديد والعنف إلا أنها لا تبغى من وراء ذلك إلا أن تـكسب إقرارا شرعياً من وجهة النظر الدولية لارتباطاتها الجديدة بهذه الدول وشعوبها .

وإذا كان الاستعمار الذى يقوم على قوة السلاح ، ويرمى إلى الاســـتغلال الاقتصادى فى أبعد مظاهره وأتم صوره وختام أهدافه ، فإن هذا الاستقلال الاقتصادى الذى كان يتم قهراً وجبراً يمكن أن يتحقق فى صورة اتفاقيات أو امتيازات للاستثمار المالى واستغلال الموارد ، وهذا هو طابع الاستعمار الجديد .

وأصبح هذا الطابع الجديد للاستعمار هو الذى يوجه تيارات السياسة الدولية

ويكيفها ، ويؤثر فيها ، ويثير التطاحن بين الدول ، كما كان يثيره الاستعمار القديم .

هذه هى العوامل المختلفة التى تؤثر فى السياسة العالمية وتوجهها ، فالعالم من حيث أنه وحدة متماسكة لم يعد للسياسة المحلية كيان فى أرجائه ولم يعد النفوذ السياسى مرتبطاً بوحدات صغيرة من الأرض والشعوب ، بل أصبح مرتبطاً بالوحدات الإقليمية الكبرى فى ارتباطها ووحدة أهدافها واتحاد مصالحها ، فدول حلف الأطلنطى تجتمع على غايه واحدة وهدف مشترك ، ومجموعة الدول العربية تجمعها مصالح مشتركة ، وأمريكا الجنوبية تتأثر فى سياستها العامة باتجاهين : ارتباطها بالولايات المتحدة وهى تمثل القوى المادية فى توجيه سياسة أمريكا الجنوبية ، ثم ارتباطها بأسبانيا الوطن الأم ، وتمثل القوى الروحية والمعنوية فى اتجاهها السياسى .

فالسياسة العالمية هى سياسة هذه الوحدات الإقليمية الكبرى وتأثرها بعضها ببعض كما هى سياسة التكتلات المذهبية التى تسود العالم فى الوقت الحاضر . فالعالم يسوده ويتقسمه مذهبان اقتصاديان قد لبسا رداء السياسة ومسوحها الباهتة ، المذهب الشيوعى ، وعلى رأسه روسيا ، وقد أصبح يضم ما يقرب من ثلث سكان العالم بين دول مختلفة تمتد فى نطاق واحد ، والمذهب الرأسمالى وعلى رأسه الولايات المتحدة ويمتد على حدود الكتلة الشيوعية ، ويلف بها فى محيط من الأرض لا يخلو من الفجوات والثغرات التى تقوم فيها دول لا تحب أن تسير فى ركاب أى منهما ، وفى غمار التنافس بين الكتلتين يندفع تيار السياسة العالمية ليحمل فى مجراه الدول والشعوب .

وكان التنافس بين المذهبين الشيوعى والرأسمالى أول العوامل فى وضوح أهمية الوحدات الإقليمية أو الجغرافية الكبرى ، فإن اتجاه إقليم ما إلى مذهب من المذهبين إضعاف للمذهب الآخر . وقامت دعاية المذهبين حامية الوطيس فى هذه الأقاليم كل منها ضد الآخر ، وجرت محاربة الاتجاهات الشيوعية فى الكتلة الرأسمالية ، كما جرت محاربة النزعات الرأسماليه فى الكتلة الشيوعية فى كثير من العنف والقسوة وأصبحت الاتجاهات السياسية لكل من الكتلتين ترمى إلى جمع الأعوان والأنصار حتى تقوى جبهتها أمام الجبهة الأخرى ، وكلما كان الإقليم قريباً من موطن التنافس ارتفعت

أهميته فى مضمار السياسة العالمية ، ومن ثم احتل الشرق الأوسط من الاهتمام العالمى فى هذه الأيام مكانة لم تكن له منذ زمن بعيد ، ولا نغالى إذا قلنا أن مركز الثقل الدولى قد تحرك إلى هذه المنطقة فى أعقاب الحرب الثانية حيث يتركز صراع الكتلتين وتنافسهما .

ثم أن هذه الوحدات الإقليمية تكاد تكون وحدات اقتصادية لها صفاتها ومميزاتها الخاصة من حيث الموارد والخامات والإنتاج ، ومن حيث أنها أسواق تجارية تستهلك أنواعا من الإنتاج الصناعى أو الطبيعى قد يفيض على حاجة الأقاليم الأخرى وتحتاجه هذه الأقاليم بنوع خاص . ومن مجموع هذه الوحدات الاقتصادية يتكون الإقتصاد العالمى ، وهو وحدة متماسكة رغم ما يقوم بين أقاليمه من حواجز ، وهذه الوحدة هى التى يمكن أن ندعوها « بوحدة الاقتصاد العالمى » .

ولم تكن هذه الوحدات الاقتصادية المختلفة التى تتكون منها وحدة الاقتصاد العالمى ، متشابهة أو على درجة واحدة من النمو والازدهار ، فمنها الوحدات المتفوقة ومنها الوحدات المتأخرة أو المتخلفة عن المستوى المعروف للنمو الاقتصادى ، وقد يكون هذا التأخر الاقتصادى بعض آثار التأخر العلمى والاجتماعى ، أو بعضهما معاً أو بمعنى أشمل قد يكون هذا التأخر الاقتصادى أثراً من آثار التأخر الحضارى الذى يتخلف عن عدة عوامل ، قد لا يكون التأخر العلمى أو الاجتماعى أهمها وأبرزها ، فعوامل البيئة والمناخ وطبيعة الإقليم والنشاط البشرى ، كلها من أسباب نمو الحضارة وتقدمها .

ولكن هذه الوحدات الإقليمية الإقتصادية ، متقدمة كانت أو متأخرة ترتبط جميعاً وتتماسك فى تلك الوحدة الإقتصادية الكبرى للعالم التى تتركز فيها وتدور حولها كل تيارات السياسة العالمية ، فالعامل الإقتصادى هو فى الواقع أهم العوامل التى توجه السياسة العالمية التى تهدف فى غايتها إلى الاستعمار فى أى صورة ، وفى أى شكل له ، ومن الطبيعى أن تكون البلاد المتأخرة أو المتخلفة هى مواطن الاستغلال والاستثمار للبلاد المتقدمة .

ولكن البلاد المتأخرة قد بدأت تستيقظ وتستوعب نموها القومى والإقتصادى وتطالب بحقها فى الحرية والإستقلال ، وتتجه إلى الأخذ بأسباب التفوق فى الحضارة الغربية ، ما قضى على أساليب السياسة الاستعمارية القديمة قضاء كان كافياً لخلق أساليب جديدة فى معاملة هذه الشعوب التى أخذت تكشف عن تطلعها إلى المستقبل فى ثقة وانطلاقها نحو حياة جديدة ، ولكن هذه الأساليب مهما تغيرت إلا أن هدفها الأخير لم يتغير ، ولايغيب هذا الهدف عن أذهان هذه الشعوب التى أخذت تستوفى بعض نضجها السياسى ، وتفضح خبايا الدهاء الاستعمارى الذى عانته زمناً حتى حفظت كل ألاعيبه .

وبقيت المنافسة الاستعمارية بين الدول على شدتها من العنف والتحايل لم تتأثر بتلك القوى الجديدة التى أخذت تكيف حيـــاة المستعمرات ومستقبلها ، فالدول الاستعمارية لاترفض أن تقوم العلاقات بينها وبين المستعمرات على أساس يتملق هذه القوى الجديدة فى المستعمرات ، ولايضيع الفوائد التى تجنيها منها ، ولكنها فيما بينها لا تسلم فى هذه الفوائد لبعضها ، وتقاوم كل منها أى محاولة لدولة أخرى ترمى إلى إضعاف نفوذها أو القضاء على مصالحها أو الطمع فيها مما يثير بينها هذه الحروب التى شهد العالم بعضاً منها ، وما زال يستعد للبعض الآخر ، فقدكان طابع الحربين الأخيرتين هو التنافس الاستعمارى بين جانبين يستعمر أحدهما العالم ويستغله ، ويقف الآخر — رغم قوته وتفوقه — يتطلع إلى متنفس له فلا يجده إلا وقد سبقه الجانب الآخر إليه .

وقد ظل هتلر يتكلم عن المجال الحيوى لألمانيـــا ، ويطالب بالنظر فى تقسيم مواطن النفوذ فى العالم على هدى ذلك المجال الحيوى للرايخ الثالث ، كما ظل موسولينى ينادى بحق إيطاليا فى البحر الأبيض والمستعمرات الرومانية القديمة فى آسيا وإفريقيا وطلعت اليابان بدعوة « آسيا للأسيويين » حتى يتسع المجال لأطماعها ونفوذها الفق وكانت هذه الاتجاهات هى التى رسمت سياسة المحور وألفت بين دوله . ولا ريب أن الحرب القادمة يرسم خطوطها التنافس حول الأسواق التجارية ومواطن الاستغلال والاستثمار الإقتصادى وإن كانت ترتدى مسوح التعاليم والمذاهب الإجتماعية والسياسية .

ولكن كيف توفق الدول بين دعوتها إلى احترام سيادة الشعوب وحقها فى الحرية وتقرير المصير وبين تلك الأطماع الاستعمارية الباديه ؟ وللاجابة على ذلك نقول أن التطور الجديد للسياسة الدولية هو الذى يتغلب على هذه الصعوبة فتقسيم مناطق النفوذ يجب أن يتم باتفاق الدول الكبرى أو بعضها وليس هناك ضير فى أن تتكتل بعض هذه الدول التى تتفق مصالحها للقضاء على منافسة البعض الآخر ثم تقتسم فيما بينها مناطق النفوذ فى العالم ، على أن يتم هذا النفوذ فى شكل معاهدات أو اتفاقيات تربط بين الدولة صاحبة النفوذ والدول التابعة لها ولن تعدم تلك الدولة من ألوان الضغط السياسى والإقتصادى ما يحمل الدول التابعة على الارتباط بها ويجب أن نشير هنا إلى أن الضغط العسكرى الذى كان يستخدم فى الماضى لم يعد له وجود فى العالم الجديد وإن بقى رمزاً لصولة الدولة وقوتها وهيبتها وللمحافظة على نفوذها فى مضمار التنافس الدولى .

وقد أصبح تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ موضع دراسة الجيو بولتكس « Geopolitics » والجيو بولتكس علم حديث الوجود لم يبرز إلا فى أعقاب الحرب الأولى ، عند ما أنشأ الجنرال هشوفر « K. Haushofer » أول مدرسة له فى ألمانيا عام ١٩٢٣ . ويقوم علم الجيوبولتكس على دراسة السياسة على ضوء الاعتبارات الجغرافية ، وقد اشتق من دراسة راتزل الألمانى للجغرافيا السياسية سنة ١٨٩٧ . أما التسمية فقد ابتدعها تلميذه السويدى كچلين « Kjellen » ، وفى الوقت الذى كانت أسس هذه الدراسة تتبلور وتتضح فى ألمانيا كان هناك علماء آخرون فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة يتناولون نفس الموضوع ويدورون حواليه أشهرهم جميعاً الإنجليزى « ماكيندر » وهو أبرز من أقاموا نظريات الجيوبولتكس وتناولوها بالبحث والتحليل قبل مدرسة هشوفر وقد أخرج نظريته عن تقسيم العالم تقسيما جيوبولتيكيا عام ١٩١٩ ، وتقوم هذه النظرية على اعتبار أن القارات الثلاثة القديمة أوربا وآسيا وأفريقيا تكون جزيرة هائلة هى التى يسميها « جزيرة العالم » ويطلق عليها اسم « افريوراسيا » وإن القارات الأخرى وهى أمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا ومجموعة الجزر المتصلة بها توابع لها ، ثم يقول أن قلب الأرض يقع فى « جزيرة العالم » ويمتد من نهر الفولجا إلى مرتفعات سيبريا الشرقية ومن المحيط المتجمد الشمالى إلى جبال همالايا ؛ ويضم قلب الأرض بذلك جزءاً كبيراً من روسيا وبلاد فارس وهضبة التبت ومنغوليا والمسطح

الأرض الذى يلى قلب الأرض فى شرقى أوربا هو الحصن الذى يحميه ويمتد فى نطاق من الأرض بين الفولجا وفلنسبرج وتريستا ويضم ألمانيا الشرقية والنمسا بما فيهما فينا وبرلين ، وإن قلب الأرض الثانوى يقع فى أفريقيا ويقول ماكيندر « أن من يحكم أوربا الشرقيـة يسـيطر على قلب الأرض ، ومن يسـيطر على قلب الأرض يسيطر على جزيرة العالم» وقد وصل إلى هذه النتيجة على اعتبار أن أوربا الغربية هى مركز الثقل الدولى فى العالم وأن شرق أوربا يحجزها عن أوراسيا وقد تأثرت المدرسة الألمانية فى الجيوبولتكس بنظريات ماكيندر فهى ترى أن الشعوب أو الحكومات ما هى إلا وحدات فردية متماسكة يربطها تنازع البقاء الدائم فالعالم بطبيعة تكوينه ينقسم إلى عدد من الوحدات الإقليمية هى المجال الجغرافى للصراع بين الشعوب وهى التى توجه دفة السياسة وتربطها بقوانين مستقلة عن المؤثرات الإنسانية بل هى التى تدفع الشعوب فى تيارها الغلاب وتخضع الإنسان لمؤثراتها القاهرة فى مراحل التاريخ المتعاقبة . ومن أمثلة هـذه الوحدات الإقليمية منطقة الأطلنطى والباسفيكى ومنطقتى الدانوب والبحر الأبيض المتوسط ، وهناك من الوحدات الإقليميه المتسعة ما تشمل القارات والمحيطات ، وهى وحدات رئيسية ولها طابعها المميز كما أن هناك وحدات إقليمية صغيرة أو ثانوية وهى فى العادة مسرح تتنازع فيه الأقاليم الكبرى وتحولها إلى ميدان صراع .

وعلى هدى نظريات ماكيندر كان دراسة جون سبيكمان الأمريكى للجيوبولتكس ويقول أنها تهدف إلى وضع سياسة عملية لتأمين كيان الدولة ومصالحها على ضوء العوامل الجغرافية ويرى أن دراسة حيز الإقليم وموقعه من العالم أهم عاملين يكيفان سياسته الخارجية ويتفق سبيكمان وماكيندر فى أهمية قلب الأرض ولكن سبيكمان يرى أن حصن أوراسيا ليس هو أوربا الشرقية فحسب بل يمتد فى المحيط الأرضى الذى يطوق قلب الأرض من كل نواحيه ويمتد هذا المحيط الأرضى أو أرض الهامش فى الوقت الحاضر من شرقى آسيا إلى غربى أوربا ويشمل سيبريا الشرقية وكوريا وآسيا الشرقية الجنوبية والهند وأفغانستان وشبه جزيرة العرب والعراق وآسيا الصغرى والبلقان وإيطاليا وجنوبى فرنسا ودول أوربا الغربية .

وتهدف الجيوبولتكس إلى ترشيد السياسة الخارجية بشرح العوامل التى توجه

كيان الإقليم على ضوء الدراسات الجغرافية والتاريخية له على اعتبار أن الصراع بين الشعوب لاينتهى وأن السياسة الخارجية للدولة تطغى دائماً على سياستها الداخلية وأن الأفكار السياسية والنظم الدستورية تؤولها مصلحة القوميات ونموها على ضوء الاعتبارات الجغرافية .

وعلى ضوء نظريات الجيوبولتكس توشك أن تنشأ مدرسة جديدة لدراسة الاستراتيجية على أساس جغرافى ، وقد أخذت عبارة چيوستراتجى «Geostrategy» فى الظهور والتداول بين الباحثين فى الاستراتجية ولا ريب أن الچيوستراتجى ترمى إلى ترشيد الاستراتجية وهى السياسة الحربية للدولة ترشيداً يقوم على القواعد المقررة للاستراتجية على هدى التطور الجديد للحروب ذلك التطور الذى ظهر فيما يعرف بالحرب الشاملة ، ويراعى العوامل الجغرافية التى أصبحت تتحكم فى مصير الحرب بعد ما أصبحت الحرب تشمل مجموعات كبيرة من الشعوب ومساحات مترامية من الأراضى والأقاليم .

والعوامل التى تؤثر فى اتجاهات السياسة هى نفس العوامل التى تؤثر فى اتجاهات الإستراتجية فالوحدة العالمية فى السياسة والإقتصاد والحضارة ويقظة الشعوب المتأخرة وتطور الوعى القومى فيها تطوراً أخذ يكشف عن اتجاهاتها فى السياسة والإقتصاد والنمو الحضارى وقوة الوعى الإنسانى الذى انتهى إلى إقرار حقوق الإنسان ، كلها عوامل جديدة تؤثر فى اتجاهات الإستراتجية وخطوطها الرئيسية كما تؤثر فى اتجاهات السياسة وأساليبها .

ولم تعد الاستراتجية قائمة على حسبان أهمية القواعد والمراكز الاستراتجية كجبل طارق ومالطة وعدن وقناة السويس بل أصبحت تقوم على حسبان أهمية الإقليم من حيث أنه وحدة إقليمية تتميز بأهمية خاصة ولم تعد للقواعد والمراكز الاستراتجية مناعتها وأهميتها القديمة ولم تعد غير نقط للحراسة أو الوثوب تضيع أهميتها ومناعتها حتى فى هذه الناحية مالم تعتمد اعتماداً كلياً على السلامة الاستراتجية للاقليم الذى تقوم فيه ، فقد تعطلت الملاحة فى قناة السويس عندما تعرض البحر الأبيض المتوسط للخطر فى الحرب الماضية كما سقطت سنغافورة رغم مناعتها فى وقت قصير لأن السلامة البرية لم تعد متوفرة فى الإقليم

الذى ترتكز عليه أثر اجتياح اليابان له ولن تضمن انجلترا سلامة قاعدة جبل طارق إذا وقع نزاع بينها وبين أسبانيا التى تقع الصخرة فى حيزها الإقليمى كما تقع فى مواجهتها على الشاطىء الإفريقى قاعدة سبته البحرية الأسبانية ولن تتوفر سلامة الملاحة فى مضيق جبل طارق إذا هددتها قاعدة سبتة البحرية التى تشرف على المضيق والميناء ، وقد تعرضت عدن للخطر فى الحرب الأولى من الحاميات التركية التى كانت تقيم فى الحجاز وكان من الممكن أن تجتاح عدن لولم تقم الثورة العربية لصالح الحلفاء وتحصر القوات التركية فى شبه الجزيرة العربية ولم يعد للدردنيل والبسفور أهميتهما التقليدية القديمة فإن سلامة الكتلة البلقانية تقع فى الإعتبار الأول قبلهما إذا كان الهدف الاستراتيجى هو الوثوب إلى شمال أفريقيا فإن الخوف من اجتياز روسيا للبواغيز لم يعد من القوة بجانب الخوف من سيطرتها على شواطىء بحر إيجه باجتياح البلقان .

أما وحدة الإقليم ككل فهى العامل الأول فى أهميته الاستراتجية وقد قلنا أن العالم يتجزأ إلى وحدات إقليمية معينة لها مميزاتها الجغرافية والإقتصادية والبشرية والثقافية ترتبط كلها فى الوحدة العالمية العامة وهذه الوحدات الإقليمية المتسعة ذات أثر بين فى تطور الإستراتجية الحديثة كما كانت ذات أثر واضح فى تطور السياسة الدولية واتجاهاتها . وقد بينا أن الحرب قد أصبحت حربا شاملة فى معداتها وفى اتساع رقعتها فهى حرب تتعاون فيها الأساطيل الجوية والبحرية والقوات البرية التى تميزت بالأسلحة ذات المرامى البعيدة والسرعة الهائلة التى طوت فى مداها الأزمنة والمسافات والمساحات وامتد أثرها إلى المدنيين كما هو للمحاربين وشمل الجهة الداخلية كما هو للجهة الخارجية . وهى حرب تمتد رقعتها فتشمل وحدات إقليمية بأكملها ويتأثر بها العالم بأجمعه وستكون الحرب القادمة أكثر سعة وشمولا ولن تكون الأزمنة والمسافات والمساحات عوائق تحد من امتدادها وانتشارها .

ولذلك كان تطور الاستراتجية متأثراً تمام التأثر بعوامل الحرب الشاملة من حيث الإعداد والتسليح والأقاليم الجغرافية التى تمتد إليها أو تتأثر بها وتؤثر فيها والسرعة والوقت الذى تشغله .

وأصبحت الحرب تستمد مقوماتها من مزايا الإقليم الجغرافية والإقتصادية والبشرية تلك المزايا التى نطلق عليها دائماً المزايا الاستراتجية للاقليم وهى الأساس الذى قامت عليه دراسة الچيوستراتجى .

فكأن الجيوبولتكس والجيوستراتجى اتجاهان جديدان فى دراسة السياسة والاستراتجية على ضوء العوامل الجغرافية فى سعتها وشمولها سواء كانت إقليمية أو اقتصادية أو بشرية .

وقد تأثرت الاستراتجية الألمانية فى الحرب الماضية بنظريات ماكيندر فى الجيوبولتكس فأن اجتياح هتلر لبولندا لم يكن الاخطوة للسيطره على شرق أوربا ومن ثم السيطرة على قلب الأرض فالسيطرة على جزيرة العالم بعد ذلك . وكان حديثه عن المجال الحيوى لألمانيا متأثرا إلى حد كبير بالعقيدة الألمانية فى الجيوبولتكس التى تقول أن المانيا ستظل حبيسة موقعها الجغرافى المكشوف فى وسط أوربا وستظل قوة ثانوية فى العالم شأنها فى ذلك شأن الصين والهند , مالم تتغلب على عوائق مجالها الجغرافى المخنوق حتى تحقق سيادتها المأمولة على العالم فقد كانت ترى أنها هى الوارث الطبيعى للامبراطوريتين البريطانية والفرنسية وتطلعت إلى تحقيق سيادتها على أوربا الشرقية حتى تستطيع أن تحطم ذلك الحاجز الاقليمى الضخم لروسيا الذى يحول بينها وبين السيادة العالمية ، وكان هشوفر يعتقد أن مركز الثقل الدولى يتحول إلى منطقة الباسفيكى وأن منطقة الأطلنطى توشك أن تفقد أهميتها التقليدية وبذلك وضع الخطوط النظرية للتحالف الألمانى اليابانى ضد الشيوعية وقد أبرم فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٦ وانضمت إليه إيطاليا فى ١٦ نوفمبر من العام التالى .

ومما يجب أن نشير اليه فى تطبيق نظرية ماكيندر أن روسيا تسيطر فى الوقت الحاضر على شرقى أوربا فهل تتحقق لها سيادة جزيرة العالم ؟

ويرد بعض المعقبين على ذلك بأن الأهمية التى أصبحت للطيران فى الحرب القادمة وظهور القنبلة الذرية والقنابل الصاروخية لابد وأن تؤثر بعض الشىء فى نظرية ماكيندر خاصة وفى قواعد الجيوبولتكس عامة .

وتتأثر الاستراتجية الأمريكية فى الوقت الحاضر بنظريات سبيكمان عن أهمية المحيط الأرضى للسيطرة على قلب الأرض فهو يقول « أن من يسيطر على دول المحيط الأرضى يسيطر على أوراسيا ويملك قلب الأرض ومن يسيطر على أوراسيا يسيطر على العالم » وتقوم على تقوية دفاعات المحيط الأرضى وإقامة سلسلة من القواعد العسكرية

على امتداده تصلح كنقط وثوب لمهاجمة قلب الأرض والسيطرة على طرق وممرات الغزو البرية والبحرية فيه حتى تمنع القوات الروسية من استخدامها فى الهجوم، ويرجع اهتمام الولايات المتحدة بافريقيا إلى أنها تكون قلب الأرض الثانوى وأن الدفاع الغربى يمكن أن يستند الى العمق الاستراتيجى الذى تهيؤه طبيعة الحيز الأفريقى الذى يمتد إلى أقصى ما يمكن نحو الجنوب ويتصل اتصالا جويا وبحريا مباشرا مع كل من الأمريكيتين واستراليشيا وآسيا الجنوبية الشرقية وأوربا الغربية .

ويمكن أن نفهم من هذا أن الجيوبولتكس أعم وأشمل من الجيو ستراتجى فالجيوستراتجى ترسم سياسة الدولة الحربية على أساس جغرافى والجيوبولتكس ترسم سياسة الدولة الخارجية على هدى الاعتبارات الجغرافية للأقليم أيضاً مع ارتباطهما معا بالوحدة العالمية للسياسة والاستراتجية ، والسياسة الحربية للدولة هى جزء من السياسة الخارجية لها .

وتتأثر الجيو ستراتجى بنفس العوامل الجغرافية التى تتأثر بها الجيوبولتكس فضلا عن تأثرها بطبيعة التسليح وتطور آلة الحرب أكثر مما تأثر بها الجيوبولتكس

والشرق الأوسط على ضوء هذا التطور الجديد فى التفكير السياسى والاستراتيجى يشغل حيزا متجانسا من الأرض له مزاياه العديدة من وجهة نظر الجيوبولتكس والجيوستراتجى ويكون هذا الحيز وحدة أقليمية ثابتة فى ذاتها ولها مظاهرها البارزة المتميزة ولكنها كانت شديدة الاتصال على الدوام بالوحدة العالمية ومركز الثقل السياسى والاستراتيجى فى العالم ففى عهد الأمبراطورية المصرية القديمة ظلت هذه المنطقة طوال عصر الامبراطورية مركز الثقل السياسى والاستراتيجى فى العالم وموطن الجذب فى القوى العالمية وفى عهد الامبراطوريتين الفارسية والرومانية كانت منطقة فاصلة أو كما يسمونها فى التعبير الجيوبولتيكى خط القوة الذى يفصل حيوز القوى بعضها عن بعض ، وحيز القوة هو المجال الذى تتصارع فيه القوى الدولية .

وفى عهد الدولة الإسلامية تحول اليه مركز الثقل الدولى مرة ثانيه وظل قابعاً فيه حتى تحول إلى أوربا الغربية .

وعنـدما تحول مركز الثقل الدولى إلى أوربا الغربية أصبح الشرق الأوسط مجال صراع وتنافس للقوى الكبرى وأخذت أهميته تتزايد حتى ليتنظر أن يصبح مركز الجاذبية الاستراتيجية فى العالم بالنسبة لتعدد الأطماع الدولية وتطاحنها على أرضه فى الوقت الحاضر كما يقول سبيندر فى كتابه « الولايات المتحدة والشرق الأدنى »

وإذا أردنا أن نفسر هذا الإهتمام الجديد للقوى العالمية الكبرى بهذه المنطقة على هدى نظريات الجيوبولتكس نقول أن الشرق الأوسط يقع فى أقرب مكان إلى قلب الأرض وأنه يكون جزأ من النطاق الأرضى الذى يحيط بقلب الأرض بل أن إيران نفسها كما يرى ما كيندر جزء من قلب الأرض وهى الجزء الوحيد من قلب الأرض الذى ظل بعيدا عن سيطرة روسيا بعد الحرب الأخيرة ، التى انتهت لا بسيطرة روسيا على قلب الأرض فحسب بل بسيطرتها على الحيز الأرضى أو الحصن الطبيعى الذى يحمى قلب الأرض فى أوربا الشرقية حتى حدود برلين . وإذا كانت أوربا الشرقية كما يرى ما كيندر هى المكان الطبيعى الذى يمكن منه تهديد قلب الأرض فإن الشرق الأوسط كما نراه فى الوقت الحاضر هو الحصن الطبيعى فى الجنوب لقلب الأرض وبالتالى هو الحيز الأرضى الذى يقع منه التهديد على قلب الأرض فى جنوبه الأوسط وإذا كان حلف الاطلنطى قد قام لحماية أوربا الغربية من خطر قلب الأرض فأنه بالتالى يرمى إلى تخليص أوربا الشرقية من سيطرة قلب الأرض وثلم الحصن الذى يحميه ويمهد له سبيل السيادة على العالم ، وأصبح من الضرورى أن يقوم حلف مماثل فى الشرق الأوسط يمكن منه تهديد قلب الأرض والوقوف دون امتداده للسيطرة على العالم والحيلولة بينه وبين استكمال حيزه الارضى فى إيران .

وقد كان ما كيندر من دقة الفهم فى تحديد ما يعنيه بقلب الارض حينما أجمل إيران فى نطاقه فإن سيطرة روسيا على إيران تحول ميزان القوى فى الشرق الأوسط لصالحها وتجعل من العسير على أى قوة أخرى غيرها السيطرة عليه .

فالشرق الأوسط وحدة إقليمية ظلت طوال تاريخها شديدة الإتصال بقوى العالم الكبرى ولها مظاهرها البارزة المتميزة فى ذاتها فهو كوحدة أقليمية يكاد يكون وحدة سياسية تتفق حدودها مع حدوده الأقليمية ولا نعنى بالوحدة السياسية هنا وحدة الأنظمة الحكومية والقوانين والتشريعات فى دوله المختلفة ولكن مانعنيه هو اتصال هذه الكتلة بتيارات السياسة العالمية فقد جرت سياسة القوى الكبرى فى العالم على أن تنظر إلى هذا الإقليم ككل ولم تحاول أن تفصل بين أجزائه إلا تحت ضغط التنافس الدولى فى بقاعه وحتى هذه التجزئة بين بقاعه لم تتم إلا باتفاق دول متحالفة ذات أهداف واحدة إن اختلفت فيما بينها إلا أن وحدة الغاية تجمعها دائماً .

ويقوم مشروع الدفاع الغربى عن الشرق الأوسط على تقدير هذه الوحدة السياسية فضلا عن الوحدة الإقليمية حتى أن التحديد الدقيق لمناطق الشرق الأوسط يختلف باختلاف التقدير الاستراتيجى لوحدته السياسية فالاستراتيجية الأمريكية تجعل أرتريا والصومال وليبيا فى حدوده بينما الاستراتيجية الإنجليزية لا تجعل منها غير ليبيا . ويرى المعهد الملكى للشئون الدولية بلندن أن الشرق الأوسط تعبير سياسى أكثر منه جغرافى بمعنى أن التقسيم الجغرافى القديم لهذه المنطقة إلى شرق أدنى وأوسط تقسيم مفتعل لإقليم ليس مجرد وحدة إقليمية أوسياسية أواقتصادية فحسب بل وحدة ربطت أصولها الأحداث التاريخية التى صنعت تاريخه على مر العصور والتيارات السياسية التى تصب فى أرضه .

وقد طبعت الأحداث التاريخية هذه المنطقة بطابع متميز فهو موطن الحضارات القديمة وموئل الأديان والمعبر الذى أجتازته الثقافات والحضارات ثم كان نشوء الإسلام فى بقاعه والأخوة التى طبع بها معتنقيه ماأصبحت بها وحدة الشعوب الإسلامية أقوى الوحدات الدينية التى يمكن أن تقوم فى العالم ، وإن لم يعد للدين من القوة فى توجيه تيارات السياسة العالمية ما كان له من قبل ، إلا أن العاطفة الدينية مازالت أقوى العواطف التى تربط الشعوب بعضها ببعض وهى فى الإسلام أقوى منها فى أى دين آخر وقد بقى الإسلام رباطاً قوياً يلم شعوب الشرق الأوسط فى وحدة متجانسة من العواطف والانفعالات والاتجاهات الحضارية إلى وقتنا هذا .

ولدراسة السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ، يجب أن تقوم هذه الدراسة على فهم دقيق للاعتبارات المتقدمة بمعنى أن تتناول :

١ — دراسة هذا الإقليم كوحدة إقليمية لها مميزاتها البارزة من حيث الموقع ؛ وأهمية هذا الموقع وسط المجموعة العالمية والعوامل الجغرافية والتاريخية التى أثرت فيه وتأثر بها .

٢ — دراسته كوحدة سياسية لها طابعها المعين فى الإتصال بالسياسة العالمية وتوجيه تياراتها والتأثر بها .

٣ — دراسته كوحدة إقتصادية تتميز بمواردها الثابتة ، وحاجة العالم إلى هذه الموارد وأثر هذه الحاجة فى الاهتمام العالمى بها وما يمكن أن يكون لهذه الموارد الزراعية والمعدنية والبشرية من أثر فى نمو الإقليم وتقدمه الإجتماعى والإقتصادى .

٤ — دراسته كوحدة ثقافية ودينية تميزت طوال تاريخها بلون معين من الثقافة والأفكار وارتبطت فى وحدة دينية لها معالمها الخاصة وتجاوبها مع الحياة والمجتمع ، وتلعب دورا غير منكور فى اتجاهاته السياسية ، بل والإستراتيجية .

ففى الناحية الأولى تبرز جمعيتا فدائيان إسلام فى إيران ، والإخوان المسلمين فى مصر والرابطة الإسلامية فى الباكستان وفى الناحية الثانية كان الخوف من دعوة الخليفة العثمانى إلى الجهاد الدينى بعض ماحرك الحلفاء لاحتضان ثورة الشريف حسين أمير مكة وسليل بيت النبوة أثناء الحرب العالمية الأولى .

ونعتمد فى ذلك على الدراسة الشاملة لجغرافية الإقليم من حيث موقعه والحيز الذى يشغله وأهمية الموقع والحيز بالنسبة للكتلة الأرضية العالمية ، ثم مناخه وطبيعة أرضه فإنهما ذاتا أثرين فى استراتيجية الحرب وفى استخدام الآلة الحربية وتكييفها بحيث تلائم طبيعة الأرض والعوامل المناخية المختلفة وأخيراً موارده البشرية والمعدنية والزراعية وقدرته الصناعية وقوته الإستهلاكية ومستواه الإجتماعى والثقافى فإنها جميعاً عوامل

مؤثره فى توجيه السياسة والاستراتيجية . كما تقوم هذه الدراسة على استقراء التاريخ وكيف سارت الأحداث فى عالمه حتى نتبين حقيقة العوامل التي توجه سياسته وأهدافه ومدى استجابة هذه السياسة للتيارات الخارجية للسياسة وما لأهدافه ومراميه من أثر فى علاقاته الخارجية كما نتعرف قدرته الحقيقية فى دائرة النشاط العالمى العام ومسايرة التطور والحضارة السائدة ، ونتفهم أصول العوامل النفسية التى توجه عواطفه وغرائزه فالشعوب كالأفراد لها عواملها النفسية التى تسيطر عليها وتوجه توازنها أو هدوءها ، أو اندفاعها أو انطوائها على نفسها .

ومن ثنايا هذه الدراسة يمكننا أن نتكهن بمستقبل الإقليم وما ينتظره من نواحى القوة أو الضعف ، النشاط أو الخمول ، التفوق أو التأخر فنخرج بصورة صحيحة لأحكامنا وتقديراتنا حتى تبنى على هدى العلم ونشيد على دعائم قوية من الفهم والمعرفة .

الفصل الثالث

الأهمية السياسية والاستراتيجية

للشرق الأوسط

يقول سبيكمان أستاذ الجيوبولتكس الأمريكى : « إن موقع الدولة الجغرافى يكيف سياستها الخارجية » . وقد قلنا أن سياسة الدول تتأثر إلى حد بعيد إن لم يكن تاماً بتيارات السياسة العالمية . فالموقع الجغرافى للدولة هو الذى يهيىء سبل اتصالها بدول العالم وارتباطها بالوحدات السياسية الكبرى فى أرجائه .

وموقع الشرق الأوسط الجغرافى هو الذى يضفى عليه هذه الأهمية الكبرى فى المعترك الدولى .

ويحتل الشرق الأوسط موقعاً جغرافياً ممتازاً ، فهو يمتلك ناصية ثلاثة قارات كانت وما زالت منبع التيارات السياسية المتضاربة فى أرضه ، وموطن الحضارات القديمة والإمبراطوريات العظيمة التى قامت فى بلاده التى تسع جنوب غربى آسيا ، والشمال الشرقى لإفريقيا ، والجنوب الشرقى لأوربا ، وقد تجمع لهذا الإقليم من المقومات التاريخية والمزايا الجغرافية ما صبغ تاريخه بتأثيرها ، وما جعل سياسته واتجاهاته فى المعترك الدولى تقوم على نبراسها .

ولم يفقد الشرق الأوسط أهميته طوال عصور التاريخ المختلفة ، فقد ظل طوال العصور القديمة والوسطى من التاريخ منبع التيارات السياسية ومركز الثقل الدولى فى العالم ، وكان لتطور الاتجاهات الدولية فى السياسة والإقتصاد والحرب فى الوقت الحاضر ما جعل هذه الأهمية تتضح وتتفتح وأخذ مركز الثقل الدولى ينحرف إليه ويتركز فيه ، حتى قيل أن هذه

الاتجاهات الجديدة فى السياسة والاقتصاد والحرب توشك أن تكشف عن ثورة سياسية واجتماعية واقتصادية تعم كل أرجائه .

وإذا أخذنا بنظريات الجيوبولتكس ، فإن موقع الشرق الشرق الأوسط الجغرافى هو أهم ما يمكن أن يحتله إقليم فى العالم ، فهو مركز الاتصال بين قارات الجزيرة العالمية « أفروبوراسيا » وهو المعبر الذى يصل قلب الأرض الأصلى فى أوراسيا ، وقلب الأرض الثانوى فى أفريقيا ، ثم أنه يحتل أهم جزء فى المحيط الأرضى الذى يحيط بقلب الأرض الأصلى ويحول دون سيادة من يملكه على العالم .

وقد كان ماكيندر يرى أن أهم جزء فى المحيط الأرضى هو الذى يقع فى شرق أوربا على اعتبار أن أوربا هى مركز الصراع السياسى والحربى فى أى نزاع ينشب بين الدول ، وأن شرق أوربا هو الذى يحول دائماً دون طغيان روسيا على غربى أوربا . ولكن مركز الصراع القادم كما يبدو سيكون فى الحيز الذى يشغله الشرق الأوسط .

وتسيطر روسيا فى الوقت الحاضر على شرقى أوربا ، وأصبحت تهدد غرب أوربا تهديدا خطيرا مما حمل أحد المعقبين الحربيين فى الولايات المتحدة ، على التصريح بأنه « لن يكون فى قدرة أية قوات للكتلة الغربية فى أوربا عندما تبدأ الحرب إلا أن تحارب متقهقرة . ولكن انسحابها سيكون سريعاً . وسيتم دون قتال كبير » . ويرى بعض هؤلاء المعقبين الحربيين أن فى استطاعة القوات الروسية أن تصل إلى السواحل الغربية والجنوبية لأوربا خلال بضعة أسابيع من قيام الحرب .

ويرى الأمريكيون أنه لن يكون فى استطاعة من يسيطر على أوراسيا أن يسيطر على جزيرة العالم ما لم يصل إلى جنوبى أفريقيا ، ويسيطر عليها وهى الحيز الذى يشغله « قلب الأرض الثانوى » . ومن هذا يتضح اهتمام أمريكا بالدفاع عن المعبر الذى يؤدى إلى إفريقيا

أما البريطانيون فإنهم فضلا عما يرونه من حقيقة نظريات الجيوبولتكس فإن امبراطوريتهم الحقيقية تقع فى إفريقيا ، فى ذلك الحيز الذى يقوم فيه قلب الأرض الثانوى بعد أن انحسرت سيادتهم عن آسيا ، وكان اهتمامهم بتأمين المعابر البرية والمائية

إلى إفريقيا ، لا يقل عن اهتمام الأمريكيين بتأمينها وسلامتها .

وقد كان لموقع الشرق الأوسط فى هذه البقعة المتوسطة من العالم ما جعله على الدوام فى ملتقى المواصلات العالمية ومعبراً تمر به التجارة بين الشرق والغرب سواء من أواسط آسيا والصين عبر الطرق البرية ، أو من جنوبها حيث تجارة الهندوجزر الهند الشرقية الرائجة فى أسواق أوربا منذ أيام الدولة الرومانية عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر ومصر فأوربا ، أو مخترقة شبه الجزيرة العربية والشام إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط أو مجتازة الخليج الفارسى إلى أرض الجزيرة فآسيا الصغرى إلى أوربا .

ولم يفقد هذا الإقليم أهميته كمعبر لتجارة الشرق والغرب إلا بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إلى الطريق البحرى حول إفريقيا إلى بلاد الشرق البعيد الغنية بالخامات والتوابل ، وإن بقى الطريق القديم يطرقه التجار من البنادقة والعرب والفرنسيين ، وتزدهر فيه تجارة اللفانت وأرض الجزيرة وبلاد فارس ومصر .

ولكن تجارة الهند والشرق البعيد كانت قد تحولت كلية إلى الطريق البحرى بعد أن ضعف شأن أسبانيا وكانت قد استولت على البرتغال عام ١٥٨٤ وأصبحت تسيطر بأسطولها على طريق رأس الرجاء الصالح مما جعل الانجليز والفرنسيين والهولنديين يفضلون الطريق البرى متحاشين صولة أسبانيا وسيطرتها على البحار الجنوبية .

وكان لتحول الانجليز والهولنديين إلى الطريق البحرى الجديد أثره فى ركود تجارة المرور عبر الطريق البرى القديم غير أن فرنسا وقد وجدت أن كلا من انجلترا وهولندا تتنازعان السيطرة على الطريق البحرى أرادت أن تنتهز هذه السانحة لإحياء الطريق البرى حتى تضمن نجاحا فى المنافسة التجارية بينها وبين غرمائها ، ثم قوى هذا الاهتمام حتى أصبح إحياء الطريق البرى قاعدة من قواعد السياسة الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر وفى عهد خلفائه مما دفع الفرنسيين مرارا إلى التفكير فى احتلال مصر وقد أخذ هذا التفكير يزداد قوة وعنفا فى أواخر القرن السابع عشر ولم تكن

الرغبة من احتلال مصر ، أحياء الطريق البرى والسيطرة عليه لمصلحة فرنسا فحسب وإنما كانت رغبة الفرنسيين فى إنشاء مستعمرة شرقية تعوض عليهم ما خسروه من مستعمرات فى صلح أوترخت عام ١٧١٣ وفى صلح باريس عام ١٧٦٣ هى ما كانت تحدوهم بدورها لاحتلال مصر بجانب الرغبه فى السيطرة على الطريق البرى واحيائه .

ولم يمر هذا الاهتمام الفرنسى بإحياء الطريق البرى القديم دون أن يسترعى انتباه الانجليز فأخذوا يتابعون هذا النشاط ويرقبونه عن كثب ونجحوا فى عقد معاهدة تجارية مع « أبى الذهب » عام ١٧٧٥ ، وإن كانت هذه المعاهدة لم تلق تأييدا من جانب تركيا فأن حماس الأنجليز لها لم يكن عظيما لأنهم كانوا يعتبرون أن إحياء الطريق البرى سيعود بالخسارة على شركة الهند الشرقية التجارية ولكن ظهور النمسا فى الميدان ورغبتها فى السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها الى الطريق البرى تحت إشرافها (وكان يحمل هذه الرغبة « كارلو روسيتى » قنصل النمسا فى مصر) قد أثار خوف الانجليز على مصالح شركة الهند الشرقية التجارية كما دفع الفرنسيين إلى متابعة جهودهم لدى الباب العالى والمماليك لفتح الطريق البرى للتجارة الفرنسية وقد نجحوا فى عقد ثلاثة اتفاقيات عام ١٧٨٥ مع المماليك وملتزم الجمارك العام وأحد شيوخ العربان الذى أخذ على عاتقه نقل التجارة الفرنسية بأمان فى الطريق الصحراوى بين السويس والاسكندرية ، وفى السنة نفسها أعاد الانجليز فتح قنصليتهم فى مصر بعد أن ظلت مغلقة منذ عام ١٧٥٦ على أثر ظهور كتاب « لجورج بلدوين » عرض فيه لأهمية موقع البلاد الجغرافى وتجارتها وحاصلاتها ومنتجاتها وطرق مهاجمتها ووسائل الدفاع عنها وقيمة موقعها بالنسبة لانجلترا وصلاتها التجارية والسياسية بالهند والخطر الذى تتعرض له المصالح البريطانية باحتلال الفرنسيين لها وكان رأيه أن مصر إحدى الحلقات التى لاغنى عنها فى السلسلة التى تربط انجلترا بالهند .

ويفسر لنا هذا الاهتمام الأوربى الباكر بإحياء الطريق البرى وإيجاد علاقات سياسية وتجارية مع بلاده أهمية هذا الموقع الجغرافى لتلك البلاد وسط العالم وفى ملتقى الشرق والغرب .

ولكن هذا الاهتمام الأوربى الباكر لم يتبلور ويتخذ مظهره العنيف فى السياسة

والحرب إلا بعد أن قامت فرنسا بمغامرتها العسكرية فى مصر تلك المغامرة التى أخرجتها الى حيز التنفيذ عبقرية نابليون وطموحه الوثاب فى مستهل القرن الثامن عشر وأخذت هـذه المنطقة تستقبل أنواء السياسة الأوربية وعواصفها منذ ذلك التاريخ حتى وقتنا هذا .

وقد أظهرت الحملة الفرنسية على مصر أهمية هذه البلاد من الناحية الإستراتجية هذه الأهمية التى تتمثل فى طبيعة موقعها وسيطرة هذا الموقع على طرق الإقتراب الرئيسية فى العالم القديم .

ولم تكن أهمية الشرق الأوسط الإستراتجية فى ذلك الوقت حتى عام ١٨٦٩ عندما تم شق قناة السويس وفتحها للملاحة لتتمثل إلا فى أنه طريق الأقتراب البرى إلى الهند والبحار الموسمية الغنية مصدر الخامات الرئيسية فى الصناعة والسوق التجارى الضخم لتصريف منتجات الصناعة الأوربية ، وتقوم مصر على رأس هذا الطريق البرى ومنها يبدأ مشروع نابليون الضخم الذى كان يفكر فيه وهو الزحف على الهند باختراق الطريق البرى عبر الشام وأرض الجزيرة ففارس إلى الهند وكان التفكير فى هذا المشروع يقض مضاجع الإنجليز فلم تسترح لهم بال حتى ظفروا بإخراج الفرنسيين من مصر وأصبحت سلامة هذا الطريق موضع اعتبارهم منذ ذلك الوقت وكان لذلك الإعتبار أثره فى تلك السياسة التى انتهجها « بلمرستون » حيال محمد على ، فلم يكن بلمرستون ليرضى عن قيام دولة قوية فى ذلك النطاق من الأرض تستطيع أن تتحكم فى الطريق البرى الى الهند وتسيطر عليه وتهدد مصالح انجلترا التقليدية فى تلك البلاد ولا سيما بعد أن وصل نفوذ محمد على الى شواطى شبه جزيرة العرب بعد أن دانت له الحساو القطيف من ناحية وانتصرت قواته على عسير واحتل عدن لفتره قصيرة من ناحية أخرى وأخذ يقترب من الخليج الفارس بل ويبادل شاه فارس عواطف الود . ولم يكن هذا التوسع الجديد موضع رضاء انجلترا فقد أخذ محمد على يدنو من معاقل نفوذها ولم تكن تأمن طموح هذا العاهل القوى رغم المحاولات الكثيرة التى أبداها للتقرب منها ، ثم أن سياسة بلمرستون فى مقاومة طموح محمد على لم تكن لتشذ عن سياسة إنجلترا التقليدية فى المحافظة على كيان

الدولة العثمانية تلك السياسة التى أعلنها « وليم بت » عام ١٧٩١ ، فأن توسع محمد على كان يهدد سلامة الدولة العثمانية تهديدا خطيرا ولاينسى بلمرستون أن تهديد محمد على للسلطان هو الذى ألقى به فى أحضان الروس فيظفرون بتلك الامتيازات التى نالوها فى معاهدة هنكيارسكلسى عام ١٨٣٣ .

وقد كانت انجلترا هى صاحبة المصالح الاستراتجية فى هذا الطريق فلم تكن لتهمها تجارة مصر أو اللفانت أوأرض الجزيرة قدر ماتهمها سلامة هذا الطريق ولم تكن لها مصالح اقتصادية تدعوها إلى امتلاكها أو احتلالها أو بسط نفوذها عليها فى ذلك الوقت واكتفت باحتلال مراكز استراتجية متفرقه على امتداد هذا الطريق تضمن لها الدفاع عنه كما تستطيع منها أن ترقب تطور الأحداث فى تلك المنطقة والتيارات السياسة التى تنوشها فاحتلت مالطة عام ١٨٠٠ وعدن عام ١٨٣٩ وتنازلت لها تركيا عام ١٨٧٨ بعد الحرب التركية الروسية عن قبرص وكانت قد وضعت يدها على جبل طارق عام ١٧٠٤ وأيد صلح أو ترخت عام ١٧١٣ احتلالها للصخرة وأخذت تبسط نفوذها على شواطىء الخليج الفارسى وشبه الجزيرة العربية ولم تحاول أن تدخل إلى قلب الشرق العربى مكتفية بضمان سلامة الدولة العثمانية التى تقع هذه البلاد فى نطاقها وتضم خطوط الاقتراب الإستراتجية إلى المناطق الغنية التى تتنافس الدول على امتلاكها أو السيطرة عليها فى شرقى أسيا وجنوبها الشرقى .

ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر هى غاية الطموح الفرنسى ولم تكن آمالهم تتركز فى إنشاء مستعمرة فرنسية فى تلك البلاد تعوض عليهم مافقدوه من مستعمرات فى جهات أخرى أو احتكار تجارة مصر واللفانت لأنفسهم فحسب وإنما كانوا يتطلعون فضلا عن ذلك الى منافسة الإنجليز فى تجارة الهند ولم يكن أمامهم إلا أن يسلكوا إليها هذا الطريق البرى ويسيطروا على مصر التى تحتل المنافذ الرئيسية للطريق البرى أو تشرف عليها .

فالإهتمام الفرنسى باستعمار مصر لم يكن إلا وليد التقدير الاستراتيجى لأهمية موقع مصر والبلاد التى يسلكها الطريق البرى وأن كان يحقق من ناحية أخرى

إنشاء مستعمرة فرنسية فى أخصب البقاع من العالم والتى يرويها أجمل أنهار الدنيا كما وصفها البارون دى توت فى مذكرة إلى الحكومة الفرنسية عام ١٧٧٦ ، ولم ينس أن يذكر موقعها الجغرافى الممتاز الذى يجعل منها مقر تجارة العالم كما أشار بطريق غير مباشر إلى إمكان إنشاء قناة تربط النيل عند دمياط بالبحر الأحمر .

وقد درس علماء الحملة الفرنسية فكرة ربط البحرين الأبيض والأحمر بقناة تصل بينهما ، تلك الفكرة التى نبذها محمد على ولم يفكر فيها رغم إهتمامه بالطريق البرى وتيسير عبور التجارة وتأمينها فيه .

أما مشروع حفر قناة السويس الذى أخرجه ديلسبس إلى حيز الوجود فلم يكن إلا صورة من صور الإهتمام الفرنسى بتيسير الطريق البرى لتجارة الهند ومعنى ذلك أن الفرنسيين لم ينسوا أبداً أحلامهم القديمة فى مصر وشواطىء اللفانت ولم يهجروا فكرة السيطرة على تجارة الهند بتحويلها الى طرق تخضع لهم .

وظل التنافس الفرنسى الإنجليزى يسود هذه المنطقة حتى إبرام الإتفاق الودى بينهما على تقسيم مناطق النفوذ فى شمال إفريقيا عام ١٩٠٤ ، وكان هذا التنافس يتخذ شكل مناورات سياسية تعنف أحياناً وتخف أحياناً أخر رغم إتفاق الدولتين فيما يختص بالمسألة الشرقية .

وكان شق قناة السويس وافتتاحها للملاحة عام ١٨٦٩ عاملا خطيراً فى أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية ، فقد أصبحت طريق الإقتراب البحرى الرئيسى إلى الهند كما صارت المعبر الأول لتجارة الشرق والغرب ، ولم يعد الشرق الأوسط يضم طرق الإقتراب البرية إلى شرقى آسيا وشمالى أوربا ، بل أصبح يضم أهم شريان مائى يصل بين الشرق والغرب ، وقد قاومت انجلترا مشروع شق القناة كما قاومت من قبل مشروع الخط الحديدى بين السويس والإسكندرية الذى فكر فيه محمد على ، وإن عادت فى أيام عباس الأول تشجع مد هذا الخط الحديدى وتستعيض به عن التفكير فى شق قناة تصل البحرين وتربط بينهما ، وكانت مقاومتها للمشروع فى عهد محمد على تقوم على الخوف من أن يكون للنفوذ الفرنسى دخل فيه ، وكان تشجيعها لمد الخط الحديدى فى عهد عباس ، وإيحائها بالفكرة إليه يرمى إلى صرف الأنظار

عن شق قناة ، يكون للفرنسيين دخل فى شقها ، أو الإشراف عليها . ولكنها أرادت أن تحتاط لشق القناة ، فاحتلت بريم فى مدخل البحر الأحمر الجنوبى عام ١٨٥٧ ، وكان من نتائج شق القناة أن أخذت ترنو بأبصارها إلى قبرص حتى تشرف منها على هذا الشريان المائى ، وسمحت لها تركيا باحتلالها عام ١٨٧٨ ، ثم ظفرت بشراء نصيب مصر من أسهم القناة ، وكانت صفقة اقتنصها دزرائيلى الداهية دون أن يستشير أو ينتظر موافقة البرلمان ، وكسبت انجلترا مغنما ماليا ومركزا ممتازا فى شركة القناة ، وزاد عدد الأعضاء الأنجليز فى مجلس الإدارة حتى بلغ الثلث ، وعلى الضد من ذلك ضعف نفوذ فرنسا السياسى فى مصر ، وكان قد بدأ يتدهور منذ هزيمتها أمام بروسيا عام ١٨٧٠ .

وكانت القناة عاملا من أهم العوامل التى حملت انجلترا على احتلال مصر عام ١٨٨٢ ، وصارت القناة منذ ذلك الوقت جزءا من المسألة المصرية ، ووصلت أهميتها إلى درجة جعلتها فى نظر أوربا أهم من مصر نفسها .

وباحتلال انجلترا لمصر أصبحت تسيطر على الطريق البحرى إلى الهند ، ولم يتم احتلالها لمصر إلا وكانت قد انتهت من احتلال أهم القواعد الاستراتيجية التى تنتشر على امتداده من جبل طارق إلى عدن وبريم وسقوطرة التى احتلتها عام ١٨٧٦ .

ومن المنافذ البحرية التى لعبت أهميتها الاستراتجية دورا كبيرا فى تاريخ المسألة الشرقية وفى تقدير الأهمية الاستراتجية لموقع الشرق الأوسط مضيقا البسفور والدردنيل ، ويصلان البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط ، وتقع الآستانة حاضرة الخلافة العثمانية على مضيق البسفور المنيع ، ويقع المضيقان ضمن حدود تركيا ، وقد أتاحت لهما الطبيعة من المنعة ما يجعل اختراقهما كرهاً مجازفة تقود إلى الدمار ، وترجع هذه المنعة إلى ضيقهما الذى يتحكم فى مرور البواخر ، وسهولة غلقهما وتعرض مياههما تعرضاً تاما للنيران الساحلية من الجانبين .

والمضيقان هما المنفذ الوحيد للبحر الأسود – الذى يعتبر بدونهما بحرا مغلقا – إلى البحر الأبيض المتوسط ، وهما الممر الوحيد الذى يصل روسيا بالبحار الدافئة ، والأقاليم الجنوبية ؛ وقد أصبحت الرغبة فى السيطرة على المضيقين قاعدة من قواعد

السياسة الروسية منذ عهد بطرس الأكبر حتى الوقت الحاضر لم تشذ عنها إلا لفترة وجيزة تمتد بين الحربين ، عندما دفعتها ظروف الوطن الداخلية إلى العزلة والابتعاد عن مشاكل السياسة الخارجية ومهادنة تركيا التى دفعتها الظروف إلى مهادنة روسيا بدورها .

وقد حرصت إنجلترا على ضمان سلامة الدولة العثمانية ، حتى تكون حاجزاً يحول دون وصول روسيا إلى مناطق النفوذ البريطانى أو اقترابها منها أو تهديد المواصلات الإمبراطورية بالسيطرة على المضيقين والنفوذ إلى البحر الأبيض المتوسط .

وكان تقدم وسائل المواصلات البرية ومد الخطوط الحديدية بين البلاد المختلفة وإمكان مدها لتربط بين القارات التى لاتفصلها بحار أو محيطات عن بعضها عاملا جديداً فى زيادة أهمية الشرق الأوسط السياسية والاستراتيجية . فما لا ريب فيه أن سهولة المواصلات تيسر للنفوذ الأجنبى أياً كان لونه أن يمتد ويتغلغل ولا تعوقه تلك الصعوبات التى كان يتعرض لها بالنقل البرى المألوف ، قبل مد الخطوط الحديدية وانتشارها .

أما من الناحية الاستراتيجية فإن سرعة المواصلات الجديدة ويسرها قد قضيا على ما كانت تتعرض له تعبئة القوات وحشدها وتقدمها إلى الجبهة المختارة من صعوبات ، كما لم يعد لعاملى المسافة والزمن فى الحرب اعتبارهما الأول ، وأصبح تعرض البلاد البعيدة للغزو أمراً محتملا ، على أن تكون البلاد التى تضم طرق الإقتراب خاضعة للدولة الغازية أو تحت نفوذها .

وقد بدأت ألمانيا سياستها نحو الشرق بضمان نفوذها فى الدولة العثمانية ، ثم أخذت تمد خط حديد بغداد وتقترب من مراكز النفوذ الإنجليزى فى الخليج الفارسى ، ولم تأبه انجلترا للمشروع فى بدايته ، بل بلغ من استخفافها بسعى الألمان أن تقدم السفير الإنجليزى فى برلين عام ١٨٩٢ يقترح على حكومته تسهيل التجارة الألمانية فى الخليج الفارسى حتى يكون ذلك حجر عثرة أمام الأطماع الروسية .

ولكن ما أن خرج المشروع إلى حيز التنفيذ ، وبدأ الألمان يفكرون فى مده إلى الخليج الفارسى ، حتى أخذ الإنجليز يحسون هذا الخطر الجديد ويلمسونه وتبدأ مقاومتهم لفكرة مد خط حديد بغداد إلى الخليج الفارسى .

وقد أحست روسيا بما يكمن وراء هذا المشروع من خطر ، فعارضت مرور الخط الحديدى بسيواس وديار بكر ، حتى لايقترب من حدودها فى القوقاز ، وكان أن تحول الخط إلى قونيه فحلب إلى الموصل فبغداد .

وكان مشروع السلطان لمد خط حديد الحجاز لا يقل خطراً من الناحية الاستراتجية عن خط حديد بغداد ، فمن وجهة النظر المحلية سيتيح للسلطان أن يوطد نفوذه فى أملاكه الشرقية ، ومن وجهة النظر الخارجية سيتيح للنفوذ الألمانى أن يصل إلى شواطىء البحر الأحمر ، ويهدد طريق المواصلات البحرى للامبراطورية البريطانية ، وقد يمتد الخط إلى الجنوب فتقع عدن تحت التهديد المباشر للأتراك ، ويقترب منها نفوذ الألمان بدوره ، فضلا عن قربه من قناة السويس التى تصبح قريبة من النفوذ الألمانى الجديد فى الدولة العثمانية .

وأصبح الطريق البرى عبر سوريا والعراق وبلاد العرب بمد خطى حديد بغداد والحجاز لايقل خطراً فى أهميته عن الطريق البحرى الجديد ، بعد أن شقت قناة السويس .

وكان لتقدم الطيران بدوره من الأثر فى مضاعفة الأهمية السياسية والاستراتجية للشرق الأوسط ما لا يقل عن الآثار التى ترتبت على شق قناة السويس ، ومد الخطوط الحديدية الهامة فى أرضه ، فكأن العوامل كلها كانت تتجمع لتضفى على هذه المنطقة أعظم الميزات الاستراتيجية وأجلها خطراً لأى منطقة فى العالم ، ولاغرو فإن الموقع المتوسط للشرق الأوسط بين دول العالم القديم هو الذى أضفى عليه كل هذه الأهمية ، وماكان شق القناة أو مد الخطوط الحديدية أو الجوية إلا عوامل هيأت أحسن الوسائل للافادة من أهمية الموقع .

وقد أصبحت أجواء الشرق الأوسط أهم معبر هوائى تجتازه الطائرات بين

الشرق والغرب ، وكان لصلاحية جوه للطيران ما شجع على قيام الشركات التى تشتغل به ، وجعل الإقبال على تعلمه يزداد فى تلك البلاد ، وأقيمت المحطات الجوية والمطارات فى مختلف بلاده تهبط فيها الطائرات للراحة والتزود بالوقود ، وتقل المسافرين ، وتحمل البضائع والرسائل .

ويبدو هذا الجانب من الأهمية الإستراتجية للشرق الأوسط واضحاً فى تلك السلسلة من القواعد الجوية الأمريكية التى تنتشر فى بلاده ، والتى تتأهب فيها الولايات المتحدة لإرسال قاذفاتها ونافثاتها للهجوم ، وتدمير حشود العدو وقواته وقواعده ومصانعه ، وبذر الخراب فى أرضه عندما يدق ناقوس الحرب .

ومن أهم قواعد الطيران الأمريكية فى الشرق الأوسط ، قاعدة الظهران الجوية فى إمارة الحسا بالمملكة العربية السعودية ، ويبدو واضحاً أنها أقيمت لحماية منابع البترول الغنية فى أبقيق ودمام والقطيف ، التى تستغلها الشركات الأمريكية ، كما يمكن أن تكون قاعدة هجومية تخرج منها الطائرات لضرب القواعد الروسية ، ومراكز التموين والصناعة ، وتعود فى مرحلة واحدة لا تستغرق وقتاً طويلا . وهناك أيضاً قاعدة الحمامة الجوية فى طرابلس بليبيا التى تستطيع منها الولايات المتحدة أن تطل على البحر الأبيض المتوسط ، وتسيطر على خط العبور فى القطاع بين بحرى إيجه والأدرياتيك إلى سواحل ليبيا ، ولا ننسى أن المكان الذى يمكن أن تعبر منه روسيا إلى أفريقيا يقع فى هذا القطاع ، كما لا ننسى أن ليبيا أحد مكانين يمكن أن تثب إليهما روسيا للتوغل فى إفريقيا ، أما الثانى فهو صحراء سيناء ، ومن هذا تتضح الأهمية الاستراتيجية الجديدة لموقع ليبيا .

وليست أهمية الشرق الأوسط فى موقعه المتوسط من مواصلات العالم ، أو فى أنه يضم خطوط الإقتراب الرئيسية نحو الهند والمناطق الموسمية الغنية فى آسيا واستراليشيا فحسب ، بل أن من دواعى أهميته أنه حاجز ضخم ، ومنطقة فاصلة بين مناطق النفوذ البريطانى فى الجنوب والشرق ، ومساحة روسيا الهائلة فى الشمال ، وقد جهدت روسيا طويلا لاجتياز هذا الحاجز والوصول إلى المياه الدافئة ، حيث

البحار المفتوحة إلى مواطن الخامات والتجـارة والنفوذ ، وقد عملت انجلترا على الوقوف دائما أمام الأطماع الروسـية حتى تنفرد بالسيطرة على البقاع الغنية التى تملكها فضلا عن احتكار أسواقها التجاريه ، كما وقفت أمام فرنسا قديما وألمانيا حديثا حينما حاولت كل منهما أن تقترب من هذه المناطق .

وقد نجحت روسيا إبان توسعها الإستعمارى فى أن تمد رواقها على منطقة المراعى الأسيوية ، وبلاد التركستان ، وتطل على فارس وأفغانستان ، وتصـل إلى المحيط الهادى ، وقد استعان الروس على تحقيق أهدافهم هذه بكل الوسائل فشجعوا بنى جنسهم على الهجرة ، واتخذوا من القوزاق جيشـا منقطع النظير ، تغلبوا به على السكان الرحل ، وسلكوا فى سبيل ذلك كل مسالك العنف ، فكان تقدمهم الإستعمارى نحو الشرق من النوع الذى يطلق عليـه « الإستعمار تحت حماية الحراب » .

وأدركت إنجلترا خطر هذا التقدم الروسى الذى أصبح يهددها فى الهند فعملت على حماية نفوذها من هذا الخطر الجائح بالأستيلاء على بلوخستان وأقامة قاعدة حربية هامة فى « كوتا » . وأمنت مصالحها مع أفغانستان بعد أن فشلت مرتين فى الإستيلاء عليها بأن أبرمت معها معاهدة تعترف فيها باستقلالها على أن تكون سياسة أفغانستان الخارجية خاضعة لتوجيه حكومة الهند مقابل هبة مالية كانت تمنحها إياها سنويا .

واتخذ التنافس الأنجليزى الروسى مظهره واضحا فى فارس وكان خير ضمان لاستقلال هذه البلاد ونجاتها من الاستعمار وان لم تنج من كل أوضار التدخل الأوربى والأمتيازات الأجنبية والأستثمار المالى لمرافقها وثروتها .

وكان كل هم انجلترا من التدخل فى شئون فارس هو أبعاد الخطر الروسى عن مناطق نفوذها وتأمين قواعـد الخليج الفارسى التى تحمى طريق الهند البحرى وبالتالى تأمين المدخل الشمالى الغربى للهند الذى ينتهى اليه خط الغزو البرى لها عبر فارس وأفغانستان وأخيرا المحافظة على منابع البترول التى تستثمرها فيها .

وقد جرت السياسة الأنجليزية فى فارس على غير ماجرت عليه حيال الدولة العثمانية فلم يكن لديها ما يمنع تقسيم فارس بينها وبين روسيا بل راودتها هذه الفكرة بعد الحرب الفارسية الأفغانية عام ١٨٣٦ وتوتر العلاقات السياسية بينها وبين فارس بسبب هذه الحرب التى أوقد نارها « محمد شاه » الذين يدين بار تقائه عرش البلاد إلى عدائه للانجليز ، ولم تكن انجلترا تبغى من تحقيق هذه الفكرة إلا تأمين مصالحها وحمل روسيا على الأعتراف الضمنى بهذه المصالح إذا قبلت مبدأ التقسيم وفق الأسس التى تراها انجلترا واعترفت بنفوذها فى المنطقة التى تكون لها فلا تحاول التدخل فى شئونها أو كسب أى إمتيازات فيها وكان واضحا أن هذه المنطقة هى ماتحيط بالخليج الفارسى وحدود بلوخستان الإنجليزية وأفغانستان .

ولم يكن تقسيم فارس ليثير حربا بين الدول كالتى يثيرها ماينشب بينها من خلاف حول تقسيم الدولة العثمانية فلم تكن فارس لتهم غير انجلترا وروسيا فحسب .

وقد واتت الظروف المناسبة لتقسيم فارس إلى منطقتى نفوذ ، الشمالية منها لروسيا والجنوبية لإنجلترا على أن تكون هناك منطقة ثالثة فى الوسط تحتفظ بحيادها بين المنطقتين ، وذلك عندماخرجت روسيا من حربها مع اليابان عام ١٩٠٥ مغلوبة على أمرها مدحورة وجفت سياستها الأسيوية ، وقد تم هذا الأتفاق الودى بين انجلترا وروسيا سرا عام ١٩٠٧ وكسبت إنجلترا أعتراف روسيا بمصالحها فى جنوبى فارس وضمنت ابتعادها عن هده المنطقة وأصبحت المنطقة الوسطى حاجزا يكفل حياده أتفاق الدولتين وقدا كتسب هذا الأتفاق صفة دولية باعتراف ألمانيا به عام ١٩١١ .

وتتمثل أهمية موقع الشرق الأوسط كحاجز أقليمى ومنطقة فاصلة فى جانب آخر منه غير الجانب الفارسى ذلك هو الجانب الذى تحتل نطاقه الدولة العثمانية فما بين أرض الجزيرة شرقا وشبه جزيرة البلقان غربا ويضم المنفذ البحرى الهام بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط عبر البسفور والدردنيل وبحر مرمرة .

وقد ظل هذا النطاق الأرضى حا جزا منيعا يحول دون وصول روسيا إلى البحر

الأبيض المتوسط ومازالت تركيا الحاضرة تحول دون عبورها إلى العالم الخارجي بموقعها الذى كان ومازال يحتل أمنع مكان فى هذا الحاجز .

وقد ظلت انجلترا جريا على السياسة التى وضع قواعدها « وليم بت » تحول دون تقسيم الدولة العثمانية وتحافظ على سلامتها محافظة على سلامة هذا الحاجز وتأميناً للسلام العالمى الذى كانت تخشى أنهياره من جراء تكالب الدول على أقتسام الغنيمة فضلا عن صيانة التوازن الدولى فى أوربا وعدم الأخلال به ، وقد ظل البلقان إلى ماقبيل الحرب العالمية الأولى الشرارة التى توشك أن تلهب برميل البارود الأوربى.

ولم تكن انجلترا أمينة على سلامة الدولة العثمانية الا بقدر ما تحقق لها مصالحها الذاتية فاحتلت مصر وقبرص حين جفت هذه السياسة بعد أن يئست من شفاء الرجل المريض وعملت على أن تظفر بنصيب الأسد فى ميراثه وأبرمت الأتفاقات السرية مع حلفائها عشية إعلان الحرب لإقتسام الدولة العثمانية وخرجت من الغنيمة بأوفى نصيب فوطدت أقدامها فى العراق وشرق الأردن وفلسطين وأمنت القطاع الإستراتيجى بين الخليج الفارسى وقناة السويس .

وتبدو أهمية هذا الحاجز الإستراتيجى فى الوقت الحاضر أكثر من أى وقت مضى فأن انقسام العالم الى كتلتين هائلتين من الأرض والأجناس والموارد الإستراتجية والمذاهب السياسية والأجتماعية تتزعم إحداهما روسيا والأخرى الولايات المتحدة وانجلترا قد جعل من الشرق الأوسط ميدانا حساسا للنضال السياسى والحربى بين الكتلتين ولا سيما أن حدود روسيا الجنوبية الوسطى تمتد على طول نطاقه الأرضى مما يجعله ميدانا مؤكدا للصراع الحربى القادم فأن خطوط الأقتراب والغزو تخترق أرضه وتجتاز بقاعه إلى المقاتل الحساسة فى كيان الكتلتين .

وهناك ثلاث طرق للأقتراب والغزو فى الشرق الأوسط وهى تؤدى فى نهايتها الى تلك المقاتل الحساسة فى الكتلتين وهى :

١ — طريق البلقان البرى إلى بحر إيجه وتقع بلغاريا الموالية للكتلة الشرقيه ،

على رأس هذا الطريق من الشمال واليونان وكريت وجزر بحر إيجه على رأسه من الجنوب وهى موالية للكتلة الغربية ، ويؤدى هذا الطريق بروسيا إلى بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ومن ثم إلى إفريقيا فى أهم مكانين منها وهما مصر وليبيا ويفسر لنا ذلك اهتمام روسيا بمصير ليبيا بعد الحرب الثانية حينما كانت تعرض قضيتها على هيئة الأمم المتحدة .

ويمكن لقوات الكتلة الغربية الزاحفة من اليونان أن تجتاز هـــذا الطريق للسيطرة على الدانوب الأدنى والوصول الى بترول رومانيا ومحطات القوى الكهربائية على نهر الدنير وحماية الجناح الأيسر لتركيا بشل بلغاريا وتدمير قواعد الحشد والتموين فيها التى يمكن أن تبدأ منهـــا القوات الروسية زحفها على اليونان ومهاجمة تركيا .

٢ — الطريق البحرى عبر البواغيز وبحر مرمرة وهو طريق الأقتراب الطبيعى لروسيا بحرا إلى البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس والبحر الأحمر وتضمن الكتلة الغربية سيطرتها على هذا الطريق لتفوق قواتها البحرية وقوة دفاعات البواغيز وموقف تركيا الموالى لها . ويتيسر لها تبعا لذلك أن تهاجم شواطىء روسيا على البحر الأسود وتدمر استحكامات القرم وتنزل قواتها فى الوقت المناسب لغزوها واجتياح أراضيها فى ذلك المكان الحساس الذى يمكن منه شطر روسيا إلى نصفين ولو أن ذلك يستلزم تفوقا برنيا هائلا فى العدد والمعدات وإعدادا للحملة لا يقل عما أعده الحلفاء فى الحرب الثانية لأنزال قواتهم فى نورماندى وفتح الجبهة الثانية .

٣ — واخيراً الطريق البرى عبر القوقاز فى القطاع الذى يقع بين بحر قزوين والبحر الأسود ويؤدى الى إيران والخليج الفارسى من ناحيه وهضبة الأناضول وساحل اللفانت وقناة السويس من ناحية أخرى على شكل مروحة تنفرد شمال أرض الجزيرة وترتكز على قوس من الأرض بين جبال البرز فى إيران وبنطس فى تركيا ثم ينبعج ليضم إقليم الموصل وتتصل هذه المروحة فى أقصى امتدادها فما بين الخليج الفارسى وقناة السويس .

ومن الواضح أن هذا الطريق يصل إلى آبار البترول الغنية فى إيران كما يصل

إلى قناة السويس وبالاستيلاء عليهما يمكن لروسيا أن تقبض على مقتل حساس فى جسد الكتلة الغربية .

أما من الجانب الآخر فأنه يقود إلى آبار البترول فى القوقاز والى وادى الفولجا وجبال آورال التى تتركز فيهما أهم الصناعات الروسية والسيطرة على هذه المناطق هو بمثابه القبض على عنق روسيا ، وهى هدف يسير لقاذفات القنابل التى يمكن أن تغير عليها من مختلف القواعد التى تقع قريبا منها تحت سيطرة أو نفوذ الكتلة الغربية .

وهذا الحاجز جزء من المحيط الأرضى الذى يمتد حول روسيا بل هو أهم أجزائه جميعاً فهو يفصل قلب الأرض الرئيسى عن قلب الأرض الثانوى الذى لا يتيح لروسيا السيطرة على جزيرة العالم دون أن تسيطر عليه والذى يكون العمق الإستراتيجى للدفاع الغربى .

وتقوم الخطة الإستراتجية الشاملة للدفاع الغربى على أساس تطويق الكتلة الشرقية تطويقاً كاملا يحول بينها وبين التوسع والإمتداد أو محاولة اختراق المحيط الأرضى فى أى مكان منه ويمكننا أن نقول تبعاً لذلك أن الحلف المزمع تكوينه للدفاع عن الشرق الأوسط يكمل حلف الأطلنطى كما يكمل حلف الباسفيكى الذى تهدف الولايات المتحدة إلى تكوينه فى شرقى أسيا .

وتهتم انجلترا اهتماما خاصا بتكوين حلف للدفاع عن الشرق الأوسط بعيدا عن الارتباط بحلف الإطلنطى من الناحية السياسية حتى تنفرد بالنفوذ فيه دون الولايات المتحدة التى تسيطر على الحلفين الآخرين وجاءت معارضتها لضم تركيا واليونان لحلف الإطلنطى لأنها تعتبرهما جزءا من الشرق الأوسط ولا تحب أن تكونا بعيدتين عن نفوذها التقليدى فى هذه المنطقة رغم قبولها مبدأ المعونة الأمريكية لهما .

وقد يتبادر الى الذهن أن ارتباط الدفاع عن الشرق الأوسط بالكتلة الغربية ضرورة توجبها الاعتبارات السياسية والإستراتجية لسلامة هذه المنطقة من العدوان والحقيقة أن هذه الاعتبارات السياسيه والإستراتجية تقوم على تقدير الغرب لسلامته

الذاتية فحسب فأن ارتباط دول الشرق الأوسط بنظام الدفاع الغربى معناه أنها اختارت أن تنحاز إلى أحد المعسكرين ضد المعسكر الآخر وتكون فى صف أعدائه مما يدعوه إلى سرعة اجتياحها فى بداية الحرب حتى يؤمن كيانه ويحقق سلامته لاسيما وأنها تضم طرق الإقتراب الرئيسية إليه والأسلم أن يكون الشرق الأوسط منطقة فاصله تحترم الدول حيادها وتحول دون عدوان أى كتلة منهما على الأخرى فيه هذا إذا توافرت النوايا الطيبة ورغب العالم فى سلام حقيقى لا تعكره النوايا الخبيثة أو الرغبة فى العدوان .

ولو أجتمع لدول الشرق الأوسط من القوى الحقيقية والوحدة والإستقلال مالدول الغرب لاستطاعت أن تؤمن نفسها وتفرض حيادها وتكون كتلة ثالثة تحقق التوازن بين الكتلتين المتنازعتين وتؤمن سلام العالم .

ولكن يبدو أن محنة السلام العالمى هى فى أنهيار الثقة بين القوى الكبرى فى العالم هذا إذا افترضنا أن ليس لكل منها أطماع خاصة تحرك كوامن الشر والأثرة فيها جميعاً وهى أول مايثير الحرب ويزكى لهيبها .

فالحرب إذن ضرورة تثيرها الأطماع الخاصة فتكوى العالم بنارها ويمتد ضرامها فيلفح الشعوب الساكنة والأمم التى لا مصالح لها غير أنها تقع فى مجال التنافس العالمى للقوى الكبرى وتطاحنها .

ويقع الشرق الأوسط فى قلب هذا الضرام من المعترك العالمى والقوى المتنافسة على أرضه وهذا ما عبر عنه الأمريكيون فى كتاب « أمن الشرق الأوسط » بقولهم « لقد وقفت كل من الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى وجها لوجه فى الشرق الأوسط ولهذا الألتقاء مغزاه بالنسبة إلى صراع المصالح بين الدولتين والذى يمتد ، بدرجات متقاربة ، خلال العالم . ونتيجة لهذا لا يمكن فصل الأمن فى الشرق الأوسط عن مشكلة الأمن العالمية التى تواجه الولايات المتحدة ، ولكنه عنصر هام فى تلك المشكلة » .

وتوضح هذه العبارة سياسة الولايات المتحدة الإستراتجية فى الشرق الأوسط وأهتمامها به فهى ترى أن الدفاع عن الشرق الأوسط جزء ولايتجزأ من الدفاع عن عالمها وصيانة أمنه .

ويخيل الينا أنها لا تمانع فى قيام أى حلف دفاعى يربط بين دول الشرق الأوسط ويرتبط بحلف الأطلنطى ولا نغالى إذا قلنا أن أعتبارات الدفاع عن هذا الإقليم وسلامته تعلو على أى أعتبار آخر من وجهة النظر الأمريكية الخالصة ولكنها ترى أن الدفاع عن الشرق الأوسط يجب أن يرتبط بالعجلة البريطانيه ذات النفوذ التقليدى القديم فيه كما أن إنجلترا يهمها تماما أن تبقى على مظاهر هذا النفوذ وتحميه من الأنهيار وترى أنها أقدر من الولايات المتحدة على إقامة هذا النظام الدفاعى تحت إشرافها ونفوذها وتوجيهها وتخشى إذا ارتبط هذا النظام الدفاعى بالولايات المتحدة أرتباط حلف الإطلنطى بها أن يكون هذا نذيراً بانهيار نفوذها وسيادتها التقليدية فيه وتسليما منها بهذا النفوذ وتلك السيادة للولايات المتحدة ولا يخفى أن هناك صراعا خفياً بين كل من الانجليز والأمريكيين على السيادة والنفوذ لا يمكن أن يحجبه هذا الوفاق السياسى والحربى بين الدولتين فأن المصالح الأقتصادية وهى من الأهمية بمكان لدى رجال المال والأعمال فى الدولتين وعلى الأخص فى الولايات المتحدة هى التى توجه سياستهما الخارجية وهى التى يمكن أن تحمل أسباب الخلاف بين الحليفتين إن لم يكن فى الأزمة الحاضرة التى تتطلب تضافر جهودهما وتعاونهما ففى المستقبل القريب أو البعيد عندما يفرغا من العدو المشترك إذا قدر للأمبراطورية البريطانية أن تعيش إلى ذلك اليوم ولا تجد نفسها تستجدى الولايات المتحدة وتسلم لها بسيادتها على العالم .

ولكن الولايات المتحده ترى أن سلامة الكتلة الغربية تتوقف على اتفاق الدولتين الكبيرتين فيها، هى وإنجلترا، وتعاونهما التام فتراها تسلم لها بمناطق نفوذها ولا تعترض على سياستها فيها أن لم تؤيدها وتنصرها حرصا على المصلحة المشتركة والهدف الأكبر.

وقد أرتبطت إنجلترا فى فترة مابين الحربين بمعاهدة دفاعية مع كل من الدول التى ترتبط بها وتخضع لنفوذها كالعراق وشرق الأردن ومصر فضلا عن الحقوق التى

أكتسبتها قديما فى امارات الخليج الفارسى والساحل العمانى ونفوذها القديم فى إيران الذى يقوم على أمتيازات شركة البترول الأيرانية وحقوقها فى تلك البلاد .

ونجد أن هذه المعاهدات الثنائية فضلا عن الحقوق والإمتيازات التى كسبتها إنجلترا من ورائها كارتباط هذه البلاد معها فى تحالف دائم وتنسيق سياستها الخارجية بما يتفق ووجهة النظر البريطانية وحق إنجلترا فى استخدام مرافق كل منها ومواردها إذا ماأشتبكت فى حرب ، فأن هذه المعاهدات قدمنحتها حق احتلال قواعد استراتجية معينة ترى أنهـا ضرورية للدفاع عن مصالحها ونفوذها فيها .

ومن أهم هذه القواعد الإستراتجية التى حددتها هذه المعاهدات الثنائية قاعدة قناة السويس فى مصر وقاعدتا البصرة والحبانية فى العراق أما شرق الأردن فقد أعتبرتها إنجلترا قاعدة كبرى تحتفظ فيها بقوات مسلحة كما يمكن أن تنشىء وتنظم وتراقب فيها قوات مسلحة قد تكون فى رأيها ضرورية للدفاع عن البلاد ولتأييد أميرها فى صيانة السلام والنظام ، ومعنى هذا أن شرق الأردن قد أصبحت بمقتضى هذه المعاهدة أشبه ما تكون بمحمية بريطانية .

وقد كانت بريطانيا تلمس أهمية هذا الحاجز الإقليمى للشرق الأوسط بينها وبين روسيا من ناحية أو بينها وبين دولتى المحور من ناحية أخرى ، فنراها تحمل الدول التى لاتخضع لنفوذها المباشر وتشجعها على التكتل والتعاون وتبادل المشورة فى سياستها الخارجية وفى ظل هذا الإتجاه تم إبرام ميثاق « سعد اباد » عام ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وافغانستان وإيران ، وضمنت بريطانيا به استقرار اسيا فى البلاد التى تتاخم نفوذها فى الشمال وكفلت تكتلها أمام عدوان يقع عليها سواء من الشمال من ناحية روسيا أو من من الغرب من ناحية ايطاليا أو ألمانيا التى أخذت تقوى وتتوسع وتحطم قيود معاهدة فرساى . كما ضمنت أن يكون هذا الميثاق فى صالحها لارتباط دولة من دوله وهى العراق ارتباطا وثيقا بها كما ارتبطت بدولة أخرى وهى تركيا بمعاهدة أنقرة عام ١٩٣٩ بما لا يخرج عن أهداف ميثاق سعد آباد ، بل أن معاهدة أنقرة كانت أكثر صراحة فى ذكر التعاون المشترك فى حالة نشوب الحرب أو عمل عدوانى يؤدى إلى نشوبها فى منطقة البحر الأبيض المتوسط من ميثاق سعد أباد .

ولما بدا الخطر الروسى واضحا للعيان بعد الحرب العالمية الثانية والحرب دائرة الرحى وبوادر النصر الروسى على الألمان تلوح فى الأفق أدركت بريطانيا أن ثمن النصر هو خروج روسيا من عزلتها ومقاسمتها الظافرين مواطن السيادة والنفوذ فى العالم كما كانت تلمس تطور الوعى القومى والإنسانى فى العالم خلال الحرب وأخذت تدرك ادراكا واضحا أن مصائر الشعوب لم تعد رهن سيادة القوى بقدر ما أصبحت رهنا بأرادة الشعوب نفسها فأخرجت إلى الوجود فكرة الجامعة العربية متغاضية عن سياستها التقليدية فى الاستعمار سياسة التفرقة وإشاعة الخلافات العنصرية والمذهبية بين الشعوب وكانت ترمى من وراء اخراج فكرة الجامعة العربية إلى تكتل تلك المجموعة الكبرى من الشعوب الإسلامية العربية والتى تعتبر قلب العالم الإسلامى ومركز الجاذبية فيه فى صفها أمام الخطر الروسى البادى فى مطلع الأفق .

وقامت الجامعة العربية وأخلفت ظن بريطانيا فى أن تكون ستاراً لسياستها المرسومة فغضت الطرف عنها وضربتها باسرائيل ثم بالفرقه تشيعها بين دولها وحركت أطماعا قديمة من آمال بعض قادتها ولم يكن ايقاظ هذا الآمال فى هذا النطاق الاستراتيجى لنفوذها والولاء لها الامتفقامع سياسة بريطانيا ، تلك السياسية التى قاومتها فى أعقاب الحرب الأولى ولم تكن بوادر الحرب الثانية وأخطارها قد لاحت فى الأفق فقد كانت تؤمن بدوام سيادتها ونفوذها فى ظل السلام العالمى الذى أخطأت وضع قواعده وأسسه فى معاهدات الصلح التى خرجت منها بتقليم أظفار أعدائها وإذلالهم إذلالا لم تكن تظن أنهم قادرين على النهوض من آثاره والفكاك من قيوده .

ثم سعت من ناحية أخرى إلى دعم علاقاتها الجديدة بدول هذه المجموعة على ضوء التطور السياسى والاستراتيجى فى العالم بعد الحرب الثانية وذلك فى شكل اتفاقيات جديدة أو تعديل المعاهدات القديمة وكان هدفها من كل هذا تحقيق ما تسميه بالدفاع المشترك وهو ما يرمى إلى ربط هذة الدول سياسيا وعسكريا بعجلة بريطانيا فى السياسة والحرب .

وقد استقرت علاقة بريطانيا مع المملكة الأردنية الهاشمية من هذه الناحية وهى دائمة السعى إلى تحقيقها مع مصر والعراق ضمانا لاستقرار الأمور لها فى الشرق

العربى ، كما ترجو من تحقيق أحد مشروعى الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى أن تمد نفوذها إلى دولتى الشرق أيضا

ولم توفق بريطانيا فى سياستها الجديدة وستبقى هذه المنطقة مصدر قلق وازعاج لها مالم تستقر سياستها فيها على قواعد ترضاها شعوب هذا الجدار الضخم الذى يمتد من بحر مرمرة فى الغرب إلى جبال هندوكوش فى الشرق أمام الخطر الروسى الجاثم فى الشمال .

هذه هى أهمية الموقع الاستراتيجى للشرق الأوسط والعوامل السياسية التى تكتنفه وتحيط به بسبب هذه الأهمية ولكن أهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية لا تتمثل فى موقعه فحسب بل فى عامل جديد يتضح وينمو باستمرار وفيه من الأمكانيات ما يبشر بازدياد هذه الأهمية ونموها ويتمثل هذا العامل فى موارده الإستراتيجية ونقصد بالموارد الاستراتيجية كل ما تحتاجه الحرب من صناعات أو خامات أو قوى بشرية أو مواد غذائية ، وقد أصبح لكل منها اعتبارها فى الوقت الحاضر أكثر من أى وقت مضى فإن موارد الحرب الحديثة قد أصبحت تستنزف كل موارد الدولة وانتاجها ، وكلما عظمت مواردها كلما زاد جهدها فى الحرب .

أما الصناعات عامة بما فيها الصناعات الحربية فأن فقر هذه المنطقة فيها ملموس واضح وجهدها فيها ضئيل ، فليس هناك منها فى أى بلد من بلدانه ما يمكن أن يسد حاجة الحرب أو مطالبها العديدة فالصناعات الثقيلة فيها معدومة تماما والصناعات الصغيرة لا تحتل تلك الأهمية التى للصناعات الثقيلة فى مطالب الحرب ومع ذلك فإن الموجود منها لا يكفى حاجة الاستهلاك المحلى بله الجيوش الجرارة ومطالبها العديدة .

وقد نشأت أبان الحرب بعض صناعات استوجبتها ضروراتها ولوازمها وانقطاع ما يرد منها من الخارج ولكنها لم تبلغ من الجودة ما تبلغه مثيلاتها فى الصناعة الأوربية وكان هذا سببا فى اضمحلالها وزوالها بزوال الحرب .

وأهم الصناعات الاستراتيجية فى الشرق الأوسط هى الصناعات الزراعية والحيوانية وقد تكفى فى تموين الجيوش ببعض مهماتها وغذائها كالملابس والأغذية المحفوظة

وغيرها ، ولكن حتى هذه الصناعات البسيطة لا تكفى حاجة الجيوش الجرارة التى يمكن أن تحشد فى هذه المنطقة خلال الحرب .

وتتوفر المواد الغذائية فى هذه المنطقة نسبيا لجودة أراضيها وخصوبتها وصلاحية مناخها ووفرة مياه الرى فى بعضها ولكنها ما زالت تعتمد على وسائل الزراعة القديمة مما يتطلب كثيرا من الجهد ولا تجود فيها الحاصلات جودتها فى البلدان المتقدمة ، وقد أصبح هذا التخلف فى وسائل الزراعة والرى موضع عناية الدول التى يعنيها هذا الأمر ولاسيما الولايات المتحده التى تقدمت بمشروعات النقطة الرابعة للنهوض بالبلاد المتخلفة اقتصاديا واجتماعيا فأنها تضع فى اعتبارها مدى قدرة هذه المنطقة على تموين الجيوش بحاجتها الغذائية وقت الحرب كما تهدف المعونة الفنية لهيئة الأمم المتحدة إلى هذه الغاية ذاتها فكلما كانت المنطقة أوفر انتاجا وأوفى غلة كلما كانت قدرتها على الاستكفاء الذاتى وتموين القوات المحاربة أتم وأكمل فضلا عن رواج سوقها التجارى وزيادة قدرتها الاستهلاكية فى ميزان الاقتصاد العالمى .

وتجود فى هذه المنطقة زراعة القمح والشعير والذرة والأرز والفواكه كما أن الثروة الحيوانية فيها غير قليلة وهى قابلة للنمو إذا استخدمت الطرق الفنيه فى تربية الماشية وانتاجها .

وقد استطاعت هذه المنطقة أن تمون جيوش الحلفاء فى الحربين الماضيتين بأكثر مطالبها الغذائية ، واستطاعت قيادة الحلفاء أن تنسق عمليات الإمداد والتموين فى الشرق الأوسط بما يكفل حاجة القوات ، وطاقة المنطقة وقدرتها الإنتاجية بما لا يطغى على مطالب أهلها الغذائية ، وقد لجأت مصر إلى تحديد زراعتها القطنية أثناء الحرب الماضية لتزيد من زراعة الحبوب والبقول والخضر حتى تحقق كفايتها الذاتية من مطالب العيش الضرورية فى وقت عزت فيه وسائل الاستيراد الخارجى أثناء الحرب وتسد حاجة الجيوش التى تعسكر فيها .

ولا تتمثل هاتان الناحيتان من موارد الشرق الأوسط أى مظهر من مظاهر الأهمية الاستراتجية التى تؤثر فى سير الحرب ، أو تضفى أهميتها على منطقة ما ، وإنما تتمثل أهمية موارده الاستراتجية فى ذلك النبع الفياض من البترول الذى أخذت تفيض به أرضه منذ بداية القرن العشرين ، وتتدفق على إثره رؤوس الأموال الأجنبية

التى جعلت تتنافس على حق استغلاله وتدعم نفوذها فى مناطقه .

ولم يعد الشرق الأوسط بعد أن تدفق بتروله وفاض غزيراً ، منطقة عبور أو حاجزاً ضخماً فحسب ، بل أصبح مورداً هاما لأهم مادة استراتيجية تتحكم فى آلة الحرب وعملياتها المختلفة ونتائجها الأخيرة ، كما أصبح موطناً حافلا بالمغامرة والتنافس للاستثمارات المالية الأجنبية .

وقد آثرنا لأهمية بترول الشرق الأوسط من الناحيتين الاستراتجية والاقتصادية أن نفرد له فصلا خاصا نتناول فيه موضوعه بإسهاب .

ولم يكن الشرق الأوسط قبل أن يفيض بتروله مجدبا من المواد الاستراتجية ، فهناك القطن ، وتلعب مصر الدور الرئيسى فى هذه الناحية . فقد أخذت زراعته تجود فيها منذ عهد محمد على ، وأصبح المصدر الرئيسى للثروة المصرية والدعامة الكبرى للاقتصاد القومى فى البلاد ، ويتميز القطن المصرى بجودته وطول تيلته ، فليس له ضريب من نوعه فى العالم ، ويرجع ذلك إلى ملاءمة التربة المصرية لزراعته ، ويبلغ محصول الفدان منه فى مصر ثلاث أضعاف مثيله فى الولايات المتحدة ، وضعفا مثيله فى الاتحاد السوفيتى . وقد بلغت كمية الصادر من القطن المصرى عام ١٩٥٠ ، كتقرير مصلحة الجمارك المصرية ٣٨٦٫٤٠٨ طناً ، كان نصيب انجلترا منها ٩٣٫١٩١ طناً ، وفرنسا ٣٤٫١٠٧ طناً ، وإيطاليا ٣٧٫٥٤٦ طناً ، والولايات المتحدة ٣٧٫٢٠٣ طناً .

ويدخل القطن فى كثير من الصناعات الحربية كالمفرقعات وغيرها مما يجعله فى غاية الأهمية للبلدان التى لا تجود فيها زراعته ، كما يسد جانباً كبيراً من حاجة الجيوش إلى المهمات والملابس .

كما أن هناك كثيرا من المعادن التى تحتاجها الصناعات الحربية فى كثير من بلدانه كالكروم فى تركيا وهو أهم صادراتها ، والمغنسيوم والبوتاس فى فلسطين ، والفوسفات والمنجنيز والحديد فى مصر .

وهناك عامل آخر من عوامل الأهمية الاستراتيجية للشرق الأوسط لا نشير إليه

كثيرا ، وإن كان لايقل خطرا عما ذكرناه من العوامل السابقة ، بل أن خطره ليبدوقويا فى هذا الوقت أكثر منه فى أى وقت مضى ، وهو القوى البشرية فى الإقليم .
ويجب أن نشير إلى قلة السكان فى الشرق الأوسط بالنسبة لسعة مساحته وامتدادها التى تبلغ ضعف مساحة الهند تقريبا ، ولكنها لاتستوعب من السكان إلا سدس سكان الهند ، فإن سعة الصحارى وامتدادها حتى لتستوعب معظم مساحته قد طغت على مساحته المأهولة الصالحة للحياه . فالأراضى المزروعة فى مصر مثلاتبلغ ١٣٫٠٠٠ ميلا مربعا بينما تبلغ مساحتها العامة ٣٦٣٫٠٠٠ ميلا مربعا ، وهذه المساحة المزروعة من أرض مصر هى أكثر جهات الشرق الأوسط ازدحاما بالسكان ويقدر عددهم بمايقرب من عشرين مليونا (١٩٫٠٩٢٫٣٨٩ فى تعداد عام ١٩٤٧)، وهم يتكاثرون تكاثرا لايدانيه تكاثر من نوعه فى أى بلد من بلدان العالم ، ففى تعداد عام ١٩١٧ قدر عددهم بحوالى ثلاثة عشر مليونا (١٢٫٧٥٠٫٩١٨) أى أن الزيادة فى مدى ثلاثين عاما تقدر بما يقرب من سبعة ملايين نسمة ، بينما تجدب صحاريها من الحياة والسكان شأنها فى ذلك شأن كثير من جهات هذا الإقليم فليبيا التى تبلغ مساحتها ٤٢٦٫٠٠٠ ميلا مربعا لايزيد عدد سكانها عن ٨٢٥٫٠٠٠ من الوطنيين ، وحوالى ١٠٣٫٠٠٠ من الأجانب ، أكثرهم من الإيطاليين الذين زحوا لاستغلالها واستعمارها كما رسم لهم موسولينى زعيم إيطاليا الفاشستية . وشبه جزيرة العرب التى تقرب مساحتها من مساحة الهند لايقدر عدد سكانها بأكثر من سبعة ملايين نسمة .

ويبلغ عدد السكان فى الشرق الأوسط حوالى سبعين مليونا منهم فى إيران مايقرب من ١٧ مليونا وفى تركيا حوالى ١٩ مليونا وفى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين مايبلغ ١٠ مليون نسمة . ولا يمكن أن نعتبر هذه المنطقة بذلك مصدرا ضخما للقوى البشرية .

ولكن هذه القوى البشرية فى الشرق الأوسط على ضآلتها نسبيا تلعب دورا كبيرا فى أهمية الإقليم الاستراتيجية وخاصة فى الوقت الحاضر فإن امتداد الكتلتين المتنافستين تجاه بعضهما فى العالم القديم من المحيط الهادى إلى المحيط الإطلنطى يجعل من المحتمل أن تمتد شرارة الحرب إلى كل بقاع العالم القديم فى وقت واحد بمعنى

أنه لوقامت الحرب فإن رحاها ستدور فى ميدان أوربا فى الوقت الذى تدور فيه فى الشرقين الأقصى والأوسط وخاصة إذا ارتبطت بلادهما بالمواثيق والمحالفات العسكرية التى تسعى الكتلة الغربية إلى تحقيقها فيهما وعلى هذا يصبح على كل أقليم من هذه الأقاليم الكبرى أن يضطلع بعبء الدفاع عن نفسه أو يساهم فى مجهود الحرب حسب قدرته وطاقته ومعنى ذلك أن يجند كل أقليم موارده البشرية لجهود الحرب ، ولهذا يبدو لهذا العامل من الأهمية فى الوقت الحاضر مالم يكن له من أهمية فى أى وقت مضى ، فقد احتكرت الحربان الماضيتان ميدان غرب أوربا وميدانا ثانويا آخر فى الشرق الأوسط وكانت الامداد تصل إلى هذين الميدانين من الهند واستراليا ونيوزيلاندا وأفريقيا . أما فى الحرب القادمة فإن هذه البلاد إذا استثنينا افريقيا ستكون ميادين جديدة لن تستطيع بجانب الدفاع عن نفسها أن تمد الميادين الأخرى بما كانت تمدها به من جنود وفيرة مدربة .

وقد ساهم الشرق الأوسط فى الحربين الماضيتين بمجهوده البشرى وإن لم يشترك فى القتال إلا فى حالات قليلة فقد عبئت قواته للعمل فى المصانع والأدارات الحربية والخطوط الخلفية للجبهة وفى تعبيد الطرق ومد أنابيب المياه ولا تزال جهود فرقة العمال المصرية فى الحرب الأولى موضع تقدير الحلفاء وثنائهم ، ولا تزال تحضرنا ذكرى تلك الجهود الجبارة التى قام بها العمال والموظفون المصريون فى المعسكرات البريطانية وفى خدمة القوات المحاربة كما ساهمت القوات المصرية فى حماية خطوط المواصلات وفى بعض العمليات الحربية مساهمة أشار إليها الفيلد مارشال ويلسون بالثناء فى كتابه « ثمان سنوات فيما وراء البحار » الذى سجل فيه خدماته فى جيوش الأمبراطورية البريطانية ومشاهداته خلال الحرب العالمية الثانية .

ولكن هذه الجهود التى ساهمت بها القوى البشرية فى الشرق الأوسط فى الحربين العالميتين الماضيتين لم تعد من الكفاية ماتضفى هذه الأهمية الإستراتيجية التى نعينها لها فى الوقت الحاضر والتى تتلخص فى إمكان تجنيد قوة كبرى لاتقل عن سبعة ملايين محارب بالقياس إلى قوة الفيلق العربى فى شرق الأردن التى تتكون من أربعين ألف محارب بينما أن سكانه لايزيدون على ٤٠٠٠٠٠ نسمة .

ويفسر لنا هذا أهتمام الكتلة الغربية بربط هذه المنطقة بعجلتها الحربية واصرارها على فرض ماتسميه بالدفاع المشترك عليه سواء كان فى صورة معاهدات ثنائية أومعاهدة جماعية لاتنص على ما يمكن أن تقدمه هذه المنطقة من المعونه الحربية التى نصت عليها المعاهدات الثنائية التى إبرمت فى فترة مابين الحربين بين إنجلترا ومصر والعراق وشرق الأردن والتى لاتربط هذه البلاد بضرورة إعلان الحرب فحسب وإنما تنص على ضرورة إشتراكها إشتراكا فعليا فى الحرب إلى جانب الكتلة الغربية وتجعل تسليح هـذه المنطقة ومدها بالعتاد الحربى متوقفا على قبولها هـذا المبدأ وارتباطها بسياسة الغرب الإستراتجية وقد جاء فى البند الخامس من المذكرة التفسيريه للمقترحات الرباعية مايلى :

« ستكون المهمة الأساسية الأولى لقيادة الشرق الأوسط وضع الخطط اللازمة وتهيئة المساعدة لدول الشرق الأوسط — بناء على طلبها — وذلك بتقديم المشورة والتدريب العسكرى وستلبى طلبات الأسلحة والمعدات الحربية التي تتقدم بها دول الشرق الأوسط ، التى ترغب فى الدفاع عن المنطقة ، إلى الدول التى تبنت المشروع والتى يسمح مركزها بتقديم المساعدة فى هذا الصدد إلى الحد المستطاع بعد تنسيقها بواسطة قيادة الشرق الأسط » . كما جاء فى البند العاشر من المقترحات نفسها مايلى : «أن تفاصيل تنسيق النظام المتحالف للدفاع عن الشرق الأوسط وتحديد علاقته بنظام حلف الأطلنطى لا تزال تحتاج إلى الدرس بالمشاورة بين جميع الدول صاحبة الشأن ومن المقترح لهذا الغرض أن يفوض جميع الأعضاء المؤسسين للقيادة المتحالفة للشرق الأوسط ممثلين عسكريين إلى اجتماع يعقد عما قريب بقصد وضع اقتراحات مفصلة لرفعها بعدئذ إلى الحكومات صاحبة الشأن »

ومعنى ذلك أن يرتبط نظام الدفاع عن الشرق الأوسط بحلف الأطلنطى ومع هذا فأن الارتباط قائم ضمنا ولو لم ينص عليه لاشتراك الدول الكبرى فى حلف الأطلنطى كأعضاء مؤسسة فى القيادة المتحالفة للشرق الأوسط .

وإذا قارنا ما تضمنه البندان السابقان بما تضمنه التصريح الثلاثى المشترك لوزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ردا على مشروع الضمان الجماعى العربى

ترى أن الدول الثلاث لاتقبل نظاما دفاعيا مستقلا عنها فى الشرق الأوسط كما لاتقبل أن تتسلح هذه الدول أو تحتفظ بقوات مسلحة تزيد على مقتضيات الأمن الداخلى والدفاع عن هذه المنطقة فضلا عن الرغبة الواضحة فى حماية إسرائيل من أى عدوان يقع عليها من الدول العربية كمايعنيها ضمنا .

ثم تعود هذه الدول فتبدى استعدادها بعد ذلك فى المقترحات الرباعية لتلبية طلبات الأسلحة والمعدات الحربية التى تتقدم بها دول الشرق الأوسط مادامت تقبل الإشتراك فى الدفاع عن المنطقة بجانب الغرب .

ويفسر لنا هذا توقف الدول الغربية عن أمداد الدول العربية بحاجتها من السلاح قبل أن ترتبط بسياسة الغرب الإستراتجية .

ولم تقبل دول الكتلة الشرقية بدورها أن تمد الدول العربية بحاجتها من الأسلحة قبل أن تضمن حياد هذه الدول أوعدم اشتراكها فى عمل عدوانى يهدد سلامة الإتحاد السوفيتى وهى لاتضمن ذلك طالما تراها مكبلة بقيود السياسة الغربيه ، ويفسر لنا هذا موقفها السلبى الذى تقفه ودول الكتلة الشرقية من قضايا البلاد العربية ودول الشرق الأوسط .

وقد أبدى الإتحاد السوفيتى ارتيابه من النظام الغربى المقترح للدفاع عن الشرق الأوسط فى مذكرة رسمية قدمها إلى خمس من دوله أشار فيها إلى الروح العدوانى الذى تحمله هذه المقترحات كما تحمله أهداف حلف الاطلنطى .

ولا يرجع أهتمام الدول الغربية بربط دول الشرق الأوسط إلى عجلتها الحربية إلى قوة هذه البلاد الصناعية وقدرتها على الأنتاج الحربى أو إلى أهمية المواقع الإستراتجية التى ضمنتها المعاهدات الثنائية التى أبرمت فى فترة ما بين الحربين وإنما يرجع هذا الاهتمام الذى يتمثل فى ضرورة تعديل المعاهدات الثنائية بما يتفق ومقتضيات الحرب القادمة أو إبرام معاهدة جماعية مع دوله تنص على هذا التعاون الذى تنشده الدول

الغربية ويتفق وسياستها الإستراتجية ، يرجع إلى عاملين تضعهما الدول الغربية فى الأعتبار الأول لنجاح مشروعاتها الدفاعية فى هذه المنطقة وهما :

أولا : رغبة الدول الغربية فى الأطمئنان إلى استقرار الجبهة الدخلية والأمن الداخلى فيها فى حالة قيام الحرب استقرارا يكفل سلامة قواعدها وخطوط مواصلاتها ومواردها وإمداداتها لميدان القتال ، فلا تتعرض لثورات شعبية يمكن أن تهدد سلامتها تهديداً خطيراً يؤثر تأثيرا سيئاً على الجبهة الخارجية .

ثانياً : حاجة هذه الدول الشديده إلى إستخدام الموارد البشرية فى هذه المنطقة لا كما كانت تستخدمها فى الحربين الماضيتين ولكن فى القتال الفعلى الذى يمكن أن ينشب فى هذه المنطقة أو خارجها كما يلوح من الرغبة فى تنسيق الخطط الدفاعية بين حلف الشرق الأوسط المقترح وحلف الأطلنطى ، وتعود هذه الرغبة الشديدة كما تقدم إلى ما تحسه هذه الدول من امتداد الحرب القادمة إلى مناطق العالم كله وعجز الأمدادات البشرية التى كانت تأتيها من وراء البحار عن أن توافيها بحاجتها منها كما كانت توافيها فى الحربين الماضيتين وهى لاتستطيع أن تسد هذا النقص إلا بتجييش الموارد البشرية فى الشرق الأوسط لتكون وقودا للمدافع بدل ذلك الوقود الذى كان يرد من الهند واستراليا ونيوزيلندا وسيلان وغيرهامن البلدان التى كانت تخضع لسيادة بريطانيا ونفوذها والتى ستشغلها مطالب الدفاع فى ميدانها الخاص عن الأشتراك فى عمليات حربية خارج هذا الميدان وذلك فضلا عما جد على آلة الحرب وعملياتها من تطور يحبس جهد القوى البشرية على خدمتها وسد مطالبها ويحمل على وقف الموارد البشرية لحساب الحرب .

ومعنى ذلك أن تجند الموارد البشرية فى الشرق الأوسط لتعمل كقوات محاربة



فى صفوف الجيوش الغربية وأن تحبس موارد المنطقة الأخرى على سد مطالب الحرب وحاجاتها .

هذه هى الأهمية الأستراتجية للشرق الأوسط تتمثل فى موقعه المتوسط فى رقعة العالم وموارده البترولية والبشرية وهذه الأهمية الإستراتجية هى التى تكيف التيارات السياسية التى تنوشه وتتفاعل فى بقاعه وتجذب إليه أنتباه القوى الكبرى فى العالم .

وقد بدأت مناورات السياسة الدولية تتضح فى هذا الإقليم وترسم خطوطها التقليدية وتحيك شباكها المحبوكة فى أرضه منذ أن بدأت سياسه الأستعمار الأوربى للشرق تأخذ أوضاعها المرسومة فى التوسع والأمتداد وتحيل العالم إلى ميدان قتال من التنافس والأثره والجشع الذى ينتهى بتلك الحروب الدامية التى حاقت بالبشرية فأصلتها من حمى لظاها بما لم تصله من فتك الأوبئه والمجاعات والحروب التى شهدها العالم القديم .

الفصل الرابع

البترول
كعامل فى أهميه الشرق الأوسط

كانت الحرب إلى عهد قريب تعتمد على الدواب والحيوان فى تحركاتها الإستراتيجية والتكتيكية وشئونها الإدارية ، فكانت الخيل قوام عمليات الهجوم وكانت تتكون منها فرق الفرسان التى تتميز بخفة الحركة وسرعة المناورة والانقضاض المفاجىء على خطوط العدو وكان تموين القوات بحاجتها من الجنود والذخيرة والماء والطعام والمهمات الحربية يعتمد على حملات الدواب من بغال وجمال وحمر حتى إذا اخترعت القاطرة لم تستطع أن تمد القوات بما تحتاجه لأكثر من مدى معين ثم تقوم الدواب بنقلها إلى خطوط القتال الأمامية وكانت المدفعية تنقلها البغال إلى نقط الضرب .

وقد لعبت الآلة البخارية دوراً كبيراً فى عمليات الحشد ونقل القوات والذخائر والمهمات عند مامدت الخطوط الحديدية ولكنها لم تستطع أن تؤثر فى مرونة المعركة أو خفة الحركة التكتيكية فقد ظلت بعيدة عن أرض المعركة وبقيت مرونة الوحدات المحاربة وخفة حركتها التكتيكية مرتبطتان بمدى خفة جندى المشاة وسرعة الخيالة وقدرة الدواب على نقل المدفعية إلى نقط الضرب وكان هذا المدى محدودا بالجهد البدنى للانسان والحيوان .

ولكن القوات البحرية كانت أكثر إفادة من الآلة البخارية من القوات البرية فقد تحولت الأساطيل من السفن ذات الشراع إلى السفن البخارية وأصبحت بذلك أكثر قدرة على مقاومة العواصف والأنواء وأكثر أمناً وزادت سرعتها وعظمت مرونتها وخفة حركتها عما قبل .

وكان الفحم الحجرى مادة الوقود التى تستخدم فى إدارة الآلة البخارية فعظم التهافت على استغلال مناجمه واستخراجه وأضحت وفرته فى دولة من الدول أقوى عامل فى تقدمها الصناعى .

وأخذت انجلترا تقيم محطات الفحم فى طريق أسطولها لتموينه بحاجته منه كعدن وجبل طارق .

ولم تتأثر الاستراتيجية باختراع الآلة البخارية إلا فى ناحيتين :

أولا : سهولة المواصلات بعدمد الخطوط الحديدية وتيسير نقل القوات وحشدها وتوجيهها إلى أرض المعركة كما أصبح من الميسور نقل قوات كبيرة عبر البحار مع توفر عاملى الراحة والأمن أكثر من ذى قبل .

ثانيا : تقدمت صناعة الصلب وكان لهـذا أثره فى تقدم أسلحة القتال وخاصة المدفعية وصاحب هـذا تقدم فى صناعة القذائف فظهرت أنواع جديدة من المواد الملتهبة والقذائف والمواد الشديدة الانفجار واستخدمت أنواع أخرى من الخراطيش النحاسية ودانات الشرابنل والدخان وقنابل الغاز كما أخذ الاعتماد على المدفعية الثقيلة يعظم ويزداد وخاصة بعد أن عم استخدام المدافع المششخنة وتحسنت وسائل جرها فوق مختلف الأراضى وابتكار الأساليب التى تخفف من حمولتها لزيادة خفة حركتها قدر المستطاع .

وفى الوقت الذى كانت فيه صناعة المدفعية توالى تقدمها وتطورها كانت الأسلحة الصغيرة تتطور تطورا أعظم نحو التقدم من حيث سرعة الضرب وكمية النيران وبعد المرمى .

ولـكن رغم التقدم الذى شهدته صناعة الأسلحة فى أواخر القرن التاسع عشر بقيت الحملات الحيوانية هى الأساس الأول فى تنظيم الجيوش واستمر هـذا التنظيم سائدا فى الحرب العالمية الأولى رغم التقدم الملحوظ فى وسائل النقل الميكانيكية وظهور السيارة والطائرة بعد أن اخترعت آلة الاحتراق الداخلى .

ويعود الفضل فى هـذا التطور الخطير فى عالمى الصناعة والحرب إلى توفيق المهندس الألمانى جوتليب فى اختراع محرك سهل يدار بقوة البنزين ، وترتب على هـذا الاختراع واستخدام آلة الاحتراق الداخلى أن عظمت قيمة البترول الصناعية والاستراتجية فأخذ يحل رويدا محل الفحم فى إدارة المصانع والآلات ووسائل النقل المختلفة وتسيير السفن .

وكانت القوات البحرية أسبق فى الإفادة من هـذا التطور الجديد من القوات البرية فقد أخذت الأساطيل باستخدام آلة الأحتراق الداخلى قبل أن تأخذ الجيوش بوسائل النقل الميكانيكية وأفادت السفن الحربية من هـذا العامل الجديد فى زيادة قوتها وسرعتها .

ولـكن الحرب العـالميه الأولى طالعت أول نزول للدبابة فى الميدان وكان أول إشتباك لهـا فى معركة السوم وكان للنتائج المعنوية التى أحرزتها فى المعركة ما جعل التفـكير فى أستخدامها على نطاق أوسع شغل الحلفاء الشاغل لأنتاج عدد أوفر يمتاز بالتحسينات العديدة التى أدخلت عليها نتيجة لتجربتها الأولى فى معركة السوم .

كما طالعت هذه الحرب أيضاً منذ بدايتها استخدام الطائرة فى العمليات الحربية كسلاح معاون وكان قد سبق للأيطاليين إستخدامها فى حملتهم على طرابلس ، كما ظهرت من قبل فى مناورات الجيش البريطانى بالهند عام ١٩١١ .

وكانت هذه البوادر كلها توحى بماسيكون عليه تنظيم القوات المحاربة فى المستقبل فما أنتهت الحرب حتى أخذ التفـكير فى قلب التنظيم الى وسائل النقل الميكانيكية يشغل بال العسكريين فقد وضح لهم مدى ما يحققه ذلك من فائدة بزيادة السرعة فى العمليات الحربية إلى درجة لا يمـكن مقارنتها بالاعتماد على حملات الدواب .

وما وافت الحرب العالمية الثانية حتى أصبح تنظيم القوات المحاربة تنظيما ميكانيكيا تاما وحلت الآلة تماما محل الحملات الحيوانية وتطورت الأسلحة المقاتلة بدورها فحلت القوات المدرعة محل فرق الفرسان القديمة ولم تعد الطائرة سلاحا معاونا فحسب بل

أصبحت قوة حاسمة فى كسب النصر وصار التفوق الجوى غاية تحرص عليها الدول جميعاً .

ومن هذا تتضح أهمية البترول الإستراتجية فهو الوقود الذى يغذى آلة الحرب الضخمة بالحياة والحركة وبدونه تقف عن الحركة وتشل قدرتها وتتجرد من قوتها وصولتها .

وتقف وراء آلة الحرب وتفوقها قوة الدولة الصناعية وقدرتها على الأنتاج الصناعى الذى يتحول وقت الحرب أو الاعداد لها ، إلى سد مطالب الحرب وحاجياتها من عدة وعتاد ، والبترول عماد الصناعة الحديثة وحل بذلك محل الفحم فى الصناعة القديمة .

وكلما عظمت موارد الدولة من البترول كلما عظمت قدرتها الصناعية وقوتها على الصمود فى حرب طويلة وإذا تعرضت موارد الدولة من البترول للدمار أو التخريب وقت الحرب كان هذا إيذانا بهزيمتها فى ميادين القتال وخسارتها للحرب .

وقد عظمت حاجة الحلفاء فى الحرب الأولى إلى بترول أمريكا فكان نداء لويد چورج رئيس الحكومة البريطانية إلى الولايات المتحدة « أن قطرة من الزيت تساوى قطرة من الدماء » — هذا فى الوقت الذى لم تكن آلة الحرب قد تحولت بعد إلى آلة ميكانيكية تماما كما كانت فى الحرب الثانية .

وأصبح البترول بعد التطور الأخير فى تنظيم القوات المحاربة عصب الحروب الحديثة وعظمت أهميته الأستراتجية تبعا لذلك وأضحى هم الدول الكبرى أن تتحكم فى منابع البترول التى لا وجود لها فى بلادها وأصبحت تسعى وراء امتيازاته فى كل مكان وصار البترول عنصرا جديداً هاما من عناصر السياسة الدولية .

وقد دخل البترول كعامل جديد خطير فى تاريخ الشرق الأوسط وأهميته الحديثة بعدما تفجرت أرضه بفيضه الغزير ودلت الأبحاث على عظم ما تخبئه الأرض من احتياطيه المحقق والمضمون .

وقد عرف البترول منذ أقدم عصور التاريخ ولكن الأقدمون عرفوه على أنه ظاهرة طبيعية غريبة كالزلازل والبراكين ، ولم يتح لهم الوصول الى كنهها أو تعليلها أو الإفادة منها حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما استخدم فى الإضاءة بعد أن وفق المخترع الألمانى ستوڤاسر إلى صناعة مصباح يضىء باستخدام بعض مشتقات زيت البترول .

وقد كان لاستخدام البترول فى الإضاءة بعد أن عم استعمال المصباح الألمانى من الأثر مادفع الباحثين والمنقبين عن هذه المادة إلى محاولة الكشف عنها فى أغوار الأرض وأعماقها إذ لم يكن انتاج الآبار السطحية التى تتفجر دون جهد كبير ليكفى حاجة العالم من هذه المادة الجديدة ، وكان الأمريكى أدوين لورانس دريك أول من راد ميدان الكشف عن البترول فى أغوار الأرض وأعماقها البعيده ، ولم يكن نجاح دريك فى الكشف عن بئر بلدة تيتسفيل رغم ضآلته إلا بداية صراع محموم عنيف بين الباحثين والمنقبين عن الذهب الأسود فى البلاد الأمريكية .

وقد أوحى هـذا السباق المحموم والصراع العنيف بين المتنافسين والأرباح الطائلة التى يجنونها من وراء هذا الاحتراف الجديد إلى رجال المال أن يستثمروا أموالهم فى هذه االصناعة الرابحة .

وكانت شركة ستاندارد أويل التى أسسها الأخوان جون ووليم روكفلر وبعض رجال المال عام ١٨٧٠ برأس مالقدره مليوندولار ، أولى الشركاتالمساهمة للبترول فى العالم ، وقد اتخذت من البلاد الأمريكية مجالا لاستثمار نشاطها وجهودها فى بداية الأمر ثم أتسع نشاطها وامتد فيما بعد إلى بلاد أبعد من القارة الأمريكية .

ومضت عشرون عاما ظلت خلالها شركة ستانداردأويل تحتكر تجارة البترول فى العالم حتى تكونت شركة شل الهولندية الملكية فى لاهاى عام ١٨٩٠ لاستثمار بترول جزر الهند الهولندية وكان « بيتروتشيلد » المالى الإنجليزى الكبير يساهم فى رأس مال الشركة بأوفر نصيب وكان أهتمام الحكومة البريطانية بها كبيراً فقد كانت المورد الوحيد فى نطاق نفوذها الذى يمد الأمبراطورية بحاجتها من البترول دون الاعتماد على شركة ستاندارد أويل الأمريكية . وقد اتسع نطاق هذه الشركة

واستطاعت أن تظفر بامتيازات جديدة فى البلاد الأمريكية نفسها وأن تجذب رجال المال فى أمريكا إلى المساهمة فيها ولم تستطع شركة ستاندارد أويل رغم الحرب التى شنتها للقضاء عليها فى بداية تكوينها أن تقضى عليها أوحتى تحد من نشاطها أوتوقف توسعها . وفى عام ١٩٠٢ تكونت شركه بورما للزيت لاستغلال بترول بورما وأسام ولكنها كانت دون الشركتين السابقتين قوة واتساعا وانتاجا وأهمية .

وكانت هذه الشركات أول من راد ميدان الاستثمار البترولى فى العالم وعلى وتيرتها قامت الشركات الأخرى وامتدت فى بقاع العالم بحثا عن الذهب الأسود متفرعة منها أو مستقلة عنها تحميها حكوماتها وتمهد لها سبيل الظفر بالإمتيازات البترولية والفوز باستغلال منابعه .

وقد تأخر الكشف عن بترول الشرق الأوسط نسبيا ففى الوقت الذى كانت شركة ستاندارد أويل تستغل فيه منابع البترول فى أمريكا وكانت شركة شل الهولندية الملكية تستغل بترول جزر الهند الهولندية وشركة بورما للزيت تستغل بترول بورما وأسام لم يكن الكشف عن بترول الشرق الأوسط قد بدأ بعد .

وكانت محاولة وليم نوكس دارسى الاسترالى أول محاولة من نوعها فى بلاد الشرق الأوسط للكشف عن البترول وكانت بلاد فارس ميدان هذة المحاولة الأولى .

وقد استطاع دارسى أن يظفر من شاه فارس عام ١٩٠١ بامتياز الكشف عن البترول واستغلاله فى بلاد فارس كلها ما عدا الأقاليم الشمالية منها القريبة من حدود روسيا وهى اذربيجان وجيلان ومازنداران واستراباد وخراسان ، فكأن الامتياز من الناحية الجغرافية يشمل أربعة أخماس بلاد فارس .

وقد أخلفت المحاولات الأول ظن دارسى حتى دب اليأس الى نفسه ولكن ما أن تدفق الزيت بكميات وافرة فى مسجدى سليمان فى يونية عام ١٩٠٨ ، حتى

أحيا موات الأمل فى نفسه وكان هذا إيذانا بميلاد شركة البترول الإنجليزية الفارسية برأس مال قدره مليونان من الجنيهات

وهكذا قذفت الأقدار بعامل جديد أخذ يسطر خطوطا قوية عنيفة فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث وكان بداية اهتمام دولى من لون آخر جعل يضاعف من عناية الدول به فوق ما كان لها من عناية به واهتمام بموقعه وأصبح مسرحا عنيفا لتنازع القوى المتنافسة على أرضه أشد عنفا مما كان قبل ظهور هذا العامل الجديد وهو البترول .

وقد وافق ظهور البترول فى الشرق الأوسط بداية طور جديد لا فى تاريخ البترول وتطور أهميته فحسب ولكن فى تاريخ الحرب وتطور آلتها أيضاً فقد ظل استخدام البترول قاصراً على أغراض الأضاءة حتى تم اختراع محرك آلى يدار بقوة البنزين كان بداية استخدام آلة الأحتراق الداخلى فى الصناعة وفى وسائل النقل الميكانيكيه .

وقد ظهر اختراع المحرك الآلى بعد أن خيم يأس مفزع فى دوائر الاستثمار البترولى على أثر ظهور المصباح الكهربائى الذى اخترعه إديسن عام ١٨٨١ وانتشار استعماله انتشاراً أصبح يهدد المصباح البترولى بالزوال والفناء .

وكان اختراع المحرك الآلى الذى يدار بالبنزين بارقة أمل باسم فى دوائر الاستثمار البترولى سرعان ما تحول الى أمل براق حافل بالمستقبل الرائع الذى ينتظر البترول فى العالم الجديد عالم الصناعة والاقتصاد والتطور الآلى الرائع الذى شمل كل وسائل النقل .

وظهرت أهمية البترول الإستراتيجية بعدما أخذت آلة الحرب تتطور من استخدام الدواب إلى أستخدام آلات النقل الميكانيكية وتعتمد عليها اعتمادا أخذ يظهر ويتضح بتقدم مراحل الحرب العالمية الأولى وظهور الدبابة لأول مرة فى الميدان عام ١٩١٧ ودخول الطيران كعنصر ثالث من عناصر الحرب وما كان ينتظره من مستقبل باهر كشفت عنه أحداث الحرب العالمية الثانية واتساع عملياتها وشمولها وامتدادها .

وأصبح البترول بعد هذا التطور الحربى الذى شمل آلة الحرب عصب الحروب الحديثة وأضحى النصر قمين من يسيطر على منابعه ويمتلك أضخم كمياته .

وكان فيشر الضابط بالبحرية الانجليزية أول من تنبأ بأهمية البترول الإستراتجية عام ١٨٨٢ وعندما تولى رئاسة الاميرالية عام ١٩٠٤ كان هذا إيذانا ببحث أهمية هذا العامل الجديد للبحرية البريطانية فتألفت لجنة فى نفس العام للنظر فى حاجة البحرية البريطانية إلى البترول وتوفيره لها وتيسير حصولها عليه من مصادره المختلفة .

ولم تلق دعوة فيشر نجاحا ولم تلق اللجنة تأييدا فقد كان تحويل الأسطول من استخدام الفحم إلى استخدام البترول أمراً لا يجد تشجيعاً من جانب السياسة العليا للدولة فأن ما تستهلكه الإمبراطورية من البترول يرد من الولايات المتحدة ولا تستطيع مواردها فى بورما وأسام أن تمدها بأ كثر من ٥٪ من استهلاكها العام فى حين يتوفر الفحم لديها ويغنيها عن الاعتماد على مصادره الخارجية ولا يجوز للبحرية أن تضع نفسها تحت رحمة الامدادات الخارجية ولو كانت أكثر نفعا للأسطول وقوته وسرعة سفنه .

ولكن جد بعد ذلك ما يستوجب الاهتمام بمشروع فيشر ففى عام ١٩٠٨ تدفق البترول فى فارس وفى العام التالى تألفت شركة البترول الإنجليزية الفارسية وفى نفس العام أخذت المانيا تنفذ برنامجها البحرى وتبنى المدرعات الضخمة والطرادات الكبيرة مما يهدد سيادة بريطانيا وتفوقها البحرى فرأت أن الإحتفاظ بتفوقها فى البحار قمين بتحويل سفنها إلى استخدام البترول بدلا من الفحم فأن ذلك يزيد من قوة أسطولها بما يعادل الضعف .

وقد كانت بريطانيا تقيم محطات الفحم على طول الطرق التى يسلكها أسطولها لتزويده بحاجته منه كجبل طارق وعدن ، ورأت فى هذا الإتجاه الجديد أنها فى حاجة إلى مصدر ثابت من البترول وأن يكون هذا المصدر فى أقرب مكان إلى المستعمرات

البريطانية وإلى خطوط مواصلاتها يستطيع الأسطول أن يتزود منه بالبترول وكانت الموارد البترولية الجديدة فى فارس هى أقرب ما يمكن إلى وضع المستعمرات البريطانية وخطوط المواصلات التى يسلكها الأسطول لتموينه بحاجته من الزيت .

ووجدت الحكومة البريطانية فى هذه الأسباب ما يحملها عام ١٩١٤ على المساهمة فى شركة البترول الإنجليزية الفارسية بمقدار ٥٦ ٪ من رأس المال وبذلك ضمنت مصدرا ثابتا لتموين البحرية البريطانية بحاجتها من البترول لا يخضع لسيطرة شركة أجنبية أو إتجاهات لا تتفق وسياسة الحكومة فكأن الحكومة البريطانية قد ساهمت فى الشركة وهى تضع فى اعتبارها الأول مصلحة الأسطول وحاجة البحرية وسيادة بريطانيا على البحار .

وعظمت الأهمية الإستراتجية للخليج الفارسى وقواعده البحرية لدى بريطانيا ولم يعد الخليج الفارسى منفذا بحريا يطل على خطوطها البحرية إلى الهند ولم تعد قواعده معاقل استراتجية لحماية هذا الطريق فحسب وإنما أصبح الخليج المحط الرئيسى الذى يلجأ إليه الأسطول للراحة والتزود بالوقود كما أصبحت قواعده المرقب الذى يطل منه على منابع البترول واتفقت الحكومة البريطانية مع شيخ المحمرة عام ١٩١١ على أن يكون تحت حمايتها ووعدته بالمعونة سواء ضد شاة فارس اوحيال السلطان العثمانى وأغدقت الهبات على زعماء البختيارى فى جنوب فارس حتى تضمن معونة الأهالى فى منطقة الزيت كما جعلت الأسطول فى خدمة الشركة حتى قبل أن تساهم فيها وكان ذلك فى عام ١٩١٣ ، وكسبت الشركة بذلك تأييد الحكومة لها وحماية مصالحها .

ولم تعد فارس أيضا قنطرة يعبرها طريق الهند البرى أو حاجزاً يحول دون روسيا أو غيرها والنفوذ إلى مناطق السيادة البريطانية بل أصبحت موردا لأهم مادة استراتجية يتوقف عليها مصير الحرب ويعتمد عليها الأسطول البريطانى فى تصميمه الجديد وأصبح تفوق بريطانيا الحربى رهن بسيطرتها على بترول فارس وحيازتها له .

وقد كان لأعمال التنقيب والبحث عن البترول فى بلاد فارس من الأثر فى نفس

الخليفة العثمانى السلطان عبد الحميد الثانى ما دفعه إلى محاولة استغلال بترول العراق فمنح شركة خط حديد بغداد امتياز استغلال بترول أرض الجزيرة سنه ١٩٠٣ وشرع فى تكوين شركة تركية لاستغلال البترول فى الجزء الجنوبى منها .

وكانت نتيجة الجهود التى قامت بها حكومة السلطان أن تكونت شركة البترول التركية لاستغلال بترول العراق فى أكتوبر سنة ١٩١٣ وساهم فى رأس مالها البنك الألمانى بأسم شركة خط حديد بغداد بنسبة ٢٥ ٪ من رأس المال وشركة البترول الأنجليزية وتمثل شركتى رويال دتش وشل بنسبة ٢٢٫٥ ٪ وبنك تركيا الوطنى وكان مؤسسة مالية انجليزية بنسبة ٤٧٫٥ ٪ والمستر جلبنكان أحد الماليين الأرمن بنسبة ٥ ٪ من رأس المال .

وقد أوعزت الحكومة البريطانية إلى بنك تركيا الوطنى بنقل ماله من أسهم فى الشركة التركية إلى الشركة الأنجليزية الفارسية عندما لمست رغبة الحكومة التركية فى التخلص من أسهمها فيها عندما تعجلت الربح ولم تسعفها الرغبة بالانتظار وأصبح لرأس المال الإنجليزى بعد ذلك ما يوازى ٧٧٫٥ ٪ من رأس مال الشركة العام .

وأصبح الشرق الأوسط بعد أن دلت البوادر على وفرة بتروله ميدانا تتنافس الدول على استثمار موارده البترولية ، وتسعى لكسب امتيازات الاستغلال فى أرضه .

وقد بدأت أعمال البحث عن البترول فى القطر المصرى قبل قيام الحرب العالمية الأولى وتكونت شركة البترول الإنجليزية المصرية تضم الشركات التى كان لها امتياز البحث عن البترول فى منطقة جمسة وقد سمحت لها الحكومة المصرية بمد دائرة بحثها إلى مناطق أخرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٣ .

وقد أخذت الشركة فى استغلال منابع البترول فى جمسة حتى نفذت مواردها ولكنها كانت قد نجحت فى الكشف عن منابع هرجادة بالغردقه ثم منابع رأس غارب وهى من أوفر منابع البترول فى مصر انتاجا .

وما زالت أعمال البحث عن البترول فى البحر الأحمر وفى شبه جزيرة سيناء قائمة تبشر بالنجاح وبازدياد أهمية مصر كموطن لإنتاج البترول .

وقد نشطت أعمال البحث عن البترول فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى . وكان هذا النشاط الجديد من نصيب الأمريكيين فقد نالت شركة ستاندار اويل امتياز البحث عن البترول فى جزر البحرين سنة عام ١٩٣١ وتكونت شركة بترول البحرين لإستغلال هذا المورد الجديد ، كما حصلت عام ١٩٣٥ على امتياز البحث عن البترول فى الحسا على الخليج الفارسى ، والعسير والحجاز على البحر الأحمر من المملكة العربية السعودية بعد أن تنازلت الحكومة البريطانية عن امتيازاتها فى تلك المنطقة وقد نال الأمريكيون أيضا من الحكومة المصرية عام ١٩٣٧ امتيازات بترولية وذلك فى مساحة واسعة من الأرض تقع شرق قناة السويس .

وقد اتجهت تركيا فى عهدها الجديد إلى البحث عن البترول فى أراضيها عام ١٩٢٥ منذ بداية حكم مصطفى كمال وقد دلت أعمال البحث على توفر البترول فى الجزء الجنوبى الشرقى من الأناضول .

ولا تزال أعمال البحث والتنقيب جارية فى جهات أخرى من الشرق الأوسط للكشف عن موارد جديدة ولاسيما فى حضرموت وجزر فارازان على ساحل الخليج الفارسى ومنطقة فزان فى ليبيا .

وقد كشفت الحرب العالمية الأولى والتقدم الآلى فى الصناعة عما ينتظر مناطق البترول فى العالم من مستقبل حافل بألوان الصراع الدولى حول استغلالها والسيطرة على مواردها ولا سيما بلاد الشرق الأوسط التى لا تؤهلها قدرتها الصناعية والمالية لاستغلال مواردها بنفسها .

وقد بدأت بريطانيا جولتها الظافرة وسبقت غيرها من القوى الإستغلالية العالمية الأخرى إلى هذه المنطقة عندما ظفرت بامتياز استغلال البترول فى بلاد فارس ثم سيطرتها المالية على شركة البترول التركية فى العراق ولم تكن المانيا وهى صاحبة النفوذ الأكبر فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت بقادرة على أن تلاحقها فى ذلك السباق

الرابح حتى أقصيت عن ذلك الميدان كما أقصيت تركيا بعد هزيمتهما فى الحرب العالمية الأولى وتركتاه شاغرا إلا من بريطانيا التى أخذت توزع الفتات على حليفتها فرنسا التى قنعت بأن تستولى على ما كان لألمانيا من نصيب فى شركة البترول التركية .

ولكن الولايات المتحدة الأمريكية التى جفت مشاكل القارة الأوربية وتعالت على ما نزلت إليه الدول الأوربية الظافرة من تكالب على مائدة الأستعمار وتوطيد النفوذ والسيادة فى بلاد الشرق الأوسط قد رضيت أن تنزل إلى ميدان المنافسة البترولية وتطالب بتطبيق سياسة الباب المفتوح فى الحصول على الإمتيازات البترولية فى الشرق الأوسط وأكدت حقها فى الإشتراك فى أية مباحثات تدور حول استغلاله ولم تجد بريطانيا بدا من مداراة حليفتها الأمريكية فأوعزت إلى شركة البترول الإنجليزية الفارسية بتحويل مالها من أسهم فى شركة البترول التركية إلى شركة ستاندارد أويل الأمريكية .

ولم يكن هذا نهاية الصراع بين الدولتين الحليفتين فى ذلك الميدان الغنى بالبترول بل أخذ الصراع يشتد والتنافس يقوى ، يسند بريطانيا فيه ما لها من نفوذ سياسى فى تلك البلاد ، كما يسند أمريكا نشاط شركاتها ومواردها المالية الطائلة مما جعلها تمضى فى حلبة السباق مطمئنة إلى قوتها وتكاد تسبق بما نالته من امتيازات جديدة ناجحة فى شبه الجزيرة العربية ومصر وتركيا حليفتها القديمة القوية ذات النفوذ العتيد فى تلك البلاد .

وقد رأينا أن الشركات الأمريكية هى أول من راد ميدان الصناعة البترولية فى أول نشأتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك لوفرة منابع البترول فى القارة الأمريكية ، ثم قامت الشركات الأخرى التى ساهم الإنجليز بأكبر نصيب فى رؤوس أموالها تساهم فى ميدان الاستثمار البترولى . وتحتدم المنافسة بينها وبين الشركات الأمريكية فى ميادين الاستهلاك العالمى دون أن تلقى بالا إلى مناطق الإنتاج البعيدة التى تفيض بالنبع الأسود فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى وأوربا الشرقية ، ولعل وفرة الينابيع الأمريكية وغناها قد ألهياها فى بداية الأمر عن التطلع إلى ميدان الاستثمار الخارجى واكتفت بإضرام نار التنافس فى ميدان الاستهلاك العالمى ، حتى إذا

فشلت هذه المنافسة ، وطغى طوفان البترول فى البلاد البعيدة عن القارة الأمريكية ، وأوشك معين الآبار الأمريكية على النضوب ، اتجهت الشركات الأمريكية تسندها قوة الولايات المتحدة وثروتها ونفوذها الذى كسبته فى أعقاب الحربين الأخيرتين إلى البحث عن مناطق الاستثمار والاستغلال البترولى فى البلاد الخارجية بعيداً عن الوطن الأمريكى .

وقد كانت الشركات الإنجليزية والأمريكية تحتكر أكبر ميادين الاستثمار والاستغلال البترولى فى العالم ، حتى أن بيت روتشيلد المالى الإنجليزى كان يساهم بنصيب كبير فى استغلال آبار الزيت الروسية قبل أن تقوم الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ويعقبها ذلك الانقلاب الهائل الذى شمل كافة مظاهر الحياة فى روسيا ، ومن بينها البترول الذى أممت الحكومة صناعته ، وأخذت تشرف عليه إشرافا بالغاً وتعنى بإنتاجه واستغلاله على أحدث الأساليب العلمية .

وما زال استغلال مواطن الإنتاج البترولى فى العالم وقفاً على الشركات الأمريكية والإنجليزية ولكن المنافسة الأمريكية القوية فى الوقت الحاضر تسير بقدم وطيدة نحو أهدافها الرئيسية وهى دعم سيادتها على مناطق الإنتاج البترولى فى العالم ، وهذا جزء من سياستها الاقتصادية العامة التى ترمى من ورائها إلى بسط سيادتها الاقتصادية على العالم ، فليس الخوف إذن من نضوب معين الآبار الأمريكية هو الذى يدفعها إلى البحث عن موارده فى خارج القارة الأمريكية ولكنها تدرك ما ينتظر البترول من مستقبل حافل فى عالم الصناعة فإذا استطاعت أن تحتكر موارد انتاجه وتسيطر عليها أمكنها أن تسيطر على دعامة الصناعة القوية فى العالم وبذلك تضمن لنفسها تفوقا صناعياً لا تستطيع البلاد التى تفتقر إلى هذه المادة أن تجاريها فيها وتضمن لإنتاجها الصناعى تفوقا لا يجاريه إنتاج صناعى آخر .

وقد ظلت الصناعة الإنجليزية تحتفظ بتفوقها الهائل طالما كانت تسيطر على دعامتى الصناعة فى العالم — الفحم وصناعة الصلب — فقد كانت مواردها من الفحم أعظم الموارد العالمية حينذاك وكانت صناعة الصلب فيها تبذ مثيلاتها فى البلاد الأخرى حتى إذا أخذت

صناعة الصلب واستخدام آلة الاحتراق الداخلى تتقدمان فى البلاد الأخرى أخذت سيادة الصناعة الإنجليزية التى احتفظت بها طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتأثر وتتهاوى أمام التقدم الصناعى فى البلاد الأخرى ولاسيما فى ألمانيا والولايات المتحدة اللتين أخذتا تحرزان تفوقا كبيرا فى صناعة التعدين والقوى المحركة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وإن كانت الصناعة الإنجليزية قد ظلت تعتمد فى منافستها بعد هذين العاملين على سمعتها القديمة ومركزها الوطيد اللذين كسبتهما فى الماضى ، وأسواقها التجارية الواسعة .

وتأثر الفحم وهو العامل الأول فى إدارة القوى المحركة بظهور عاملين آخرين ، وهما استخدام مساقط المياه فى إدارة الآلات ، واختراع آلة الإحتراق الداخلى التى تدار بالبنزين وأضحى التفوق الصناعى قمين الدولة التى تحتكر مصادر الإنتاج البترولى وتسودها ومن هنا كان السباق الدولى عنيفا محموما للفوز بالإمتيازات البترولية واستغلالها . وهذا هو السبب الذى يمكن أن نفسر به اهتمام الولايات المتحدة فى السيطرة على مواطن إنتاج البترول فى العالم مع وفرة منابعها الأصلية فى بلادها وغناها رغم ما تدعيه من وشك نفاذ احتياطيها من البترول .

فالولايات المتحدة الأمريكية ترمى فى الواقع إلى ضمان مستقبلها الصناعى وتوطيده ودعمه وتفوقه وغزو أسواق الإستهلاك فى العالم بصناعاتها ولذلك نراها تنادى بسياسة الباب المفتوح فى أسواق العالم التجارية التى تصل إليها منتجاتها ومصنوعاتها . كما كانت إنجلترا تنادى من قبل بحرية التجارة معتمدة على جودة صناعاتها وتفوقها على غيرها .

وقد بلغ من اهتمام الولايات المتحدة بالبترول أن ألفت فى أواخر عام ١٩٤٣ هيئة أسمتها إدارة احتياطيات البترول « Corporation Petroleum Reserves » لها طابعها الرسمى بما تضم من أفراد لهم صفتهم الحكومية المسئولة ولها طابعها التجارى كشركة مساهمة رأس مالها مليون دولار مهمتها تسهيل حصول الولايات المتحدة على البترول من الخارج وتيسير أعمال الشركات الأمريكية خارج الوطن وتعضيدها سياسيا واقتصاديا والدفاع عن المصالح البترولية للولايات المتحدة أينما تكون وتأييدها حيثما تتحرك أو تهدف ،

وفى العام التالى لتكوين هذه الهيئه أذاع رئيسها مستر هارولد ايكس مشروعا يرمى إلى سيطرة الحكومة الأمريكية على موارد شركاتها البترولية فى الخارج وتيسير نقله وخزنه واحتكاره لصالح السياسة الخارجية للولايات المتحدة ومصالحها الإستراتيجية بناء على توصيات إدارتى الحرب والبحرية ورؤساء أركان الحرب للقوات الأمريكية وإدارة بترول الجيش والبحرية ونتيجة لهذا يكون من حقها أن تتفق مع الشركات الأمريكية للبترول فى المملكة العربية السعودية والخليج الفارسى على مد خطوط أنابيب لنقل البترول من منابعه الأصلية فيها إلى البحر الأبيض المتوسط حيث يقام معمل للتكرير وأن تحتفظ هذه الشركات بألف مليون برميل لحكومة الولايات المتحدة لها حق شرائها كلها أو بعضها لاستعمال قواتها المحاربة فى أى وقت تشاء خلال خمسين عاما من تاريخ الاتفاق وأن يكون لها الحق فضلا عن هذا فى شراء كل إنتاج الشركات عند ماتدعو الضرورة لذلك ، وأن لايباع شىء من انتاجها إلى أى بلد آخر إذا رأت الولايات المتحدة أن ذلك يتعارض وسياستها الخارجية وأمنها الإستراتيجى .

وقد أثار هذا المشروع من حذر بريطانيا وخوفها ماتردد صداه فى أروقة مجلس العموم والدوائر العسكرية فى بريطانيا ودعاها فى نفس العام إلى الاتصال بالملك عبد العزيز آل سعود الذى يملك حق الترخيص بمد خط الأنابيب ، وترضاها العاهل العربى بالموافقة على تعيين مستشار انجليزى لشئون البترول كما أذن لبنك باركليز بافتتاح فرع له فى المملكة العربية السعودية . وفى الوقت نفسه صدر تصريح متبادل فى كل من واشنطون ولندن بعزم الحكومتين الأمريكية والأنجليزية على القيام بمباحثات تدور حول المصالح البترولية التى تهم كلا من الدولتين ، وقد دارت المباحثات بين الدولتين وانتهت بتوقيع اتفاق فى ٨ أغسطس عام ١٩٤٤ يهدف إلى تنسيق استغلال وتجارة البترول والمساواة بين الدول المحبة للسلام فى الحصول عليه دون المساس بقواعد السلامة الإستراتيجية وإقرار مبدأ تكافؤ الفرص بينهما فى الحصول على الامتيازات البترولية واستثماره وتسويقه وأن يتألف مجلس دولى لشئون البترول يتكون من ممثلين لكل الدول التى توقع الاتفاق ولا يغنى هذا المجلس عن تكوين لجنة مشتركة من ثمانية أعضاء من الإنجليز والأمريكيين لبحث وتقدير السياسة العالمية للبترول بما يتفق والمبادىء التى يقوم عليها الاتفاق .

هذه صورة لصراع الحليفتين الكبيرتين فى هذه الناحية يسترها ويخفيها اتفاقهما فى سياسة المشاكل العالمية ووحدة أهدافها السياسية والاستراتيجية ، ولا يحمد الانجليز لحليفتهم نفوذها إلى مواطن كانت ولا زالت معاقل السيادة والنفوذ البريطانى ، ولاينظر الامريكيون بعين الارتياح إلى الوسائل الخفية التى تجرى عليهـا السياسة البريطانية فى بلاد تطالب فيها أمريكا بسياسة الباب المفتوح تسندها قوة الدولار وغلبة النشاط الأمريكى ويوقن الانجليز بأن المستقبل لأمريكا إذا لم ترع من نفسها مطالب حليفتهـا وامتيازاتها القديمة فأن التفوق الامريكى يكتسح أمامه كل نفوذ لبريطانيا فى العالم ولا تملك بريطانيا غـير أن تنزل على حكم الواقع وتقنع بالفتات الذى تتركه لهـا أمريكا فى قالب من التمويه والرعاية حتى لا يجرح كبرياء بريطانيا وهيبتها التقليدية .

وقد يأتى اليوم الذى تزول فيه المصالح المشتركة بين الحليفتين ولا يبقى غير التنافس والتناحر بينهما ، تناحراً سينتهى ولاريب بغلبة المنافسة الامريكية وتفوقها ، وقد يجر فى ذيوله كثيرا من المشاكل والإحن وإذا كان البترول أهم ميادين الاستثمار المالى فى الشرق الأوسط فى الوقت الحاضر فان مايكشف عنه الغد من ميادين الاستثمار الأخرى التى تبشر بمستقبل حافل زاخر بالاحتمالات تدعو إليه حاجة الإقليم وتقدمه الإقتصادى والعمرانى سيجعل الولايات المتحدة حريصة على الإستثمار بهذا الميدان البكر حرصها على الاستئثار بالبترول الذى فاتها بداية السباق فى مضماره فلم تدخل المضمار إلا والسباق قد بدأ يحتدم وإن كانت البوادر تدل على فوزها فى نهاية السباق إلا أنها ترجو أن تدخل ميادين الاستثمار الأخرى منفردة فلا يزاحمها سباق ينفس عليها الفوز وينشد عليها الغلب ، وهى أقدر من غيرها على استيعاب أوجه النشاط فى هذه الميادين من الشرق الأوسط الذى يقدر « بونيه » مايلزمه فى العشرين سنة القادمة بألف مليون جنيه زيادة على موارده المالية لتحقيق تقدمه الاقتصادى مما يضيف إلى الإهتمام الدولى بالشرق الأوسط عاملا جديداً سيكون له أكبر الأثر فى تاريخه ومستقبله السياسى ويتطلب من بنيه حذرا مشوبا بالدهاء السياسى وإصالة الرأى وبعد النظر ورعايا القصد وتضافر القوى لخيره العام ومستقبله المرموق .

وقد لعب بترول الشرق الأوسط دوره الرائع فى إحراز النصر للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية بعد أن حرم الحلفاء من بترول الشرق الأقصى مما دفعهم إلى زيادة انتاجهم منه حتى يسد حاجة الحرب وبفضل هذا المورد استطاعت القوات المتحالفة أن تصمد فى معركة الهند ومعركة شمال افريقيا وتنقلب من الدفاع إلى الهجوم الذى قادهم إلى النصر فى النهاية .

وقد أصبحت منابع البترول بعد تطور أهميته الاستراتجية هدفا استراتجيا جديرا بالتدمير أو الإستيلاء لايفوقه فى أهميته تلك الأغراض الإستراتجية الأخرى التى احتفظت بقوتها كعامل مؤثر فى إحراز النصر أو تدمير قوى العدو أو اضعاف روحه المعنوية كالمعاقل والحصون والمدن والقواعد الإستراتجية ومساحات الأرض ، فان حرمان العدو من موارده البترولية قمين بشل تحركاته الإستراتجية وتعطيل أداته الحربية .

ومن المعروف أن التحركات الإستراتجية ترمى فى الغالب إلى الوصول إلى مراكز التموين أو قواعد الحشد والإستيلاء عليها أو تدميرها ، ولما كانت منابع البترول هى أهم مصادر التموين لآلة الحرب فإن الإستيلاء عليها أو تدميرها يجب أن يكون هدف الإستراتجية قبلما تكون قواعد الحشد والمدن والقواعد العسكرية والإستراتجية هدفها .

وقد اتجهت خطوط الزحف الألمانى فى الحرب الثانية سواء فى روسيا أو الشرق الأوسط نحو منابع البترول ولو لم تقف ستالنجراد دون وصولها إلى بترول القوقاز والعلمين دون وصولها إلى بترول الشرق الأوسط لكان أملها فى النصر عظيما ، فأن موارد البترول فى ألمانيا أو فى البلاد التى سيطرت عليها بما فى ذلك البترول الطبيعى والصناعى لم تكن من الكفاية بحيث تغذى آلة الحرب الضخمة وجهدها الذى طال بحيث استنفد أغلب ما اختزنته ألمانيا من هذه المادة ، هذا فضلا عن أن جهود الحلفاء فى تدمير موارد البترول الصناعى والطبيعى فى ألمانيا كانت أعظم نجاحا من من محاولة الألمان تدمير موارد الحلفاء أو شلها أو الوصول إليها فقد ظلت أهم مواردهم البترولية فى الشرق الأوسط بعيدة عن نطاق الحرب لحيادها أو لبعدها عن نشاط

الطائرات الألمانية فاحتفظت بسلامتها وبإمدادها للحلفاء طوال مدة الحرب، فى الوقت الذى تعرضت فيه موارد أمريكا لخطر الغواصات والغارات الجوية خلال طريقها إلى الميدان، كما استولت اليابان على موارد الشرق الأقصى بعد اجتياحها له. وأصبح بترول الشرق الأوسط هو الذى يغذى آلة الحرب للحلفاء، وهو الذى قادهم إلى النصر، ولا يفوتنا أن نذكر أن نقص تموين رومل من البترول كان أهم عامل فى هزيمته فى معركة العلمين تلك المعركة التى قال عنها تشرشل أنها كانت مفتاح النصر للحلفاء.

وقد عظمت حاجة الكتلة الغربية إلى بترول الشرق الأوسط بعد الحرب فإن نجاح مشروع مارشال يتوقف إلى حد كبير كما يذكر كتاب «أمن الشرق الأوسط» على انتظام تدفق بتروله إلى أوربا الغربية.

وثمة عامل آخر له أهميته، فإن بترول الشرق الأوسط هو أقرب الموارد إلى تغذية آلة الحرب فى حلف الأطلنطى وغيره من الأحلاف العسكرية التى يمكن أن تقوم فى بلاده وسيقع عليه عبء تموين القوات المحاربة للكتلة الغربية عندما تشب الحرب بينها وبين الكتلة الشرقية، بل أن الولايات المتحدة نفسها ومواردها الهائلة من البترول لا تنكر، ترى أنها فى أشد الحاجة إلى بترول الشرق الأوسط إذا ما نشبت حرب عالمية ثالثة، كما عبر عن ذلك مستر «إيكس» رئيس إدارة احتياطيات البترول بقوله «يتعين علينا إذا ما نشبت حرب عالمية ثالثة أن نلجأ إلى استخدام البترول الذى يملكه الغير حتى يكون فى قدرتنا أن نواصل القتال، لأن الولايات المتحدة لن يتوافر لديها البترول الكافى فى ذلك الوقت».

ويهدينا هذا القول إلى سر تهالك الولايات المتحدة على اختزان البترول والسيطرة على موارده الخارجية، وتوجيه السياسة التجارية للشركات الأمريكية فى الخليج الفارسى وبلاد العرب إلى مصلحتها، والإهتمام بمد خطوط الأنابيب إلى البحر الأبيض المتوسط وإنشاء معامل التكرير، كما جاء فى المشروع الأمريكى الذى أذاعه مستر ايكس فى ٦ فبراير عام ١٩٤٤.

فالولايات المتحدة فضلا عن فوائد الاستثمار المالى للبترول وحاجتها منه لمطالبها

الصناعية والعمرانية تختزن البترول توقعاً لاحتمالات الحرب فى المستقبل القريب التى تكشف عنها التصريحات الأمريكية المتعددة التى تبرر احتفاظهـا بقوات كبيرة للمحافظة على السلام العالمى ، ورد العدوان أينما يكون ومن جانب أى دولة أو مجموعة دول تعمل على تعكير صفو السلام بإشعال الحرب أو السعى لها .

وبترول الشرق الأوسط هو المورد الوحيد الذى تتطلع إليه الولايات المتحدة خارج حدودها ، وهذا ما يعبر عنه مستر ايكس بقوله « إن عاصمة زيت البترول تتجه نحو الشرق الأوسط ، وخير للولايات المتحـدة أن تسرع بالدخول فى هذه الإمبراطورية ، وحتى يتسنى لها إدراك هذه الغاية يتعين عليها أن ترسم لنفسها سياسة بصدد مسائل الزيت » .

وعلى هذا المورد تعتمد آلة القتال فى أى حرب تثار ، ويكون ميدانها قارات العالم وليس للكتلة الغربية مورد غير هذا المورد فى الدنيا القديمة يستطيع أن يؤمن حاجتها ويكفيها ، فإن مواردها البترولية فى الشرق الأقصى من القلة بحيث لا يمكن أن تسد مطالبها الحربية الواسعة فضلا عن قلة احتياطيها من البترول وزيادة المنتج منه إلى احتياطيه عن المنتج من بترول الشرق الاوسط الى احتياطيه ، فهى فى الأولى ٨ر١ ٪ من المخزون ، وفى الثانية ٢ر١ ٪ من المخزون ، وقد ذكرت « مجلة الزيت والغاز » الأمريكية فى نهاية عام ١٩٤٧ أن الإنتاج اليومى للبترول فى الشرق الأوسط يبلغ ٨٦٠ ألف برميل يومياً ويبلغ فى الشرق الأقصى ٦٥ ألف برميل يومياً ويرينا ذلك عظم التفاوت فى الإنتاج بين الإقليمين وقدرة كل منهما على كفاية مطالب الحرب .

وفى الوقت الذى عظم فيه إنتاج البترول فى الشرق الأوسط حتى بلغ ٥ر١٤ ٪ من الإنتاج العالمى عام ١٩٤٩ نجد أن احتياطيه يبلغ من الوفرة ما لا يقل معه عن أعظم مناطق احتياطى البترول فى العالم ، كما يبدو فى البيان التالى مقدرا بملايين الأطنان :

الولايات المتحدة	٢و٧٠٠	مليون طن
سواحل البحر الكاريبى	٦و٠٢٦	مليون طن
الشرق الأوسط	٢و٢٠٠	مليون طن
الإتحاد السوفيتى	١و١٦٥	مليون طن

وقد يكشف الشرق الأوسط عما هو أعظم من هذا التقدير فإن أعمال البحث والتنقيب تكشف كل يوم عن جديد .

وهذا هو السر فى اهتمام الكتلة الغربية بتأمين موارد البترول فى الشرق الأوسط تلك الموارد التى أضفت عليه من الأهمية الإستراتيجية ما لا يقل عن أهمية موقعه ، وما يفوق أهمية أى إقليم آخر ، اهتمامها بسلامة خطوط الأنابيب ومعامل التكرير .

وقد تم مد خطين من الأنابيب لأول مرة فى الشرق الأوسط عام ١٩٣٥ لنقل بترول العراق إلى البحر الأبيض المتوسط من كركوك إلى حيفا وإلى طرابلس كما تم أخيراً مد أنبوبة أخرى إلى طرابلس ، ولم يتم بعد مد الأنبوبة الثانية إلى حيفا ، كما أن هناك مشروعا آخر لمد خط أنابيب إلى بانياس . وكان التفكير فى مد هذه الأنابيب الإضافية لتواجه زيادة إنتاج الشركة العراقية فى كركوك البعيدة عن البحر والتى لا تجد سبيلا أيسر لنقل إنتاجها من مد خطوط الأنابيب إلى البحر المتوسط ، حتى يكون قريباً من خطوط المواصلات إلى أسواقه العالمية ، وخاصة السوق الأوربى .

ولما فاض بترول شبه الجزيرة العربية فكرت الشركة العربية الأمريكية التى تستغله فى مد خط أنابيب من أبقيق إلى البحر الأبيض المتوسط وقد تم هذا الخط أخيراً ، وهو الذى يعرف باسم « تابلين » وتملكه شركة خطوط الأنابيب العربية وينتهى فى صيدا على ساحل لبنان .

وهناك تفكير فى مد خط أنابيب من الخليج الفارسى إلى البحر الأبيض المتوسط يغنى عن استخدام الناقلات وتكاليفها الباهظة لنقل بترول المنطقة إلى أقرب أسواقه فى أوربا التى تستهلك ٧٥ ٪ من إنتاجه .

أما معامل التكرير فقد كان هناك منها قبيل الحرب الأخيرة معملان مهمان ، أحدهما فى عبدان ، والآخر فى حيفا ، وفى خلال الحرب أنشىء معمل للتكرير فى رأس التنورة كما اتسع معمل التكرير فى البحرين ، ولكن هذه المعامل لا يمكن أن تسد حاجة الأسواق الاستهلاكية التي تعتمد على بترول الشرق الأوسط فى أوربا

وآسيا ، ويجب أن تساير قوة هذه المعامل واتساعها وعددها ، حاجة هذه الأسواق الاستهلاكية .

وستقع موارد البترول وأنابيبه ومعامل تكريره ضمن أهداف الغزو المحتمل لهذه المنطقة فى الحرب القادمة إذا اختارت بلادها أن تنحاز إلى المعسكر الغربى أو تكون ميداناً لعملياته الحربية ، وستتعرض هذه الموارد للضرب الجوى بقصد تعطيلها من جانب العدو أو للتدمير من جانب المنتفعين بها إذا أجبروا على التقهقر عنها حتى لا ينتفع بها العدو .

وسيلعب بترول الشرق الأوسط دوره الحاسم فى الحرب القادمة كما لعبه فى الحرب الثانية ولكنه لن يكون بنجوة من الخطر كما كان فى الحرب الماضية ، وستكون معركة البترول أشد عنفاً عما كانت عليه فى الحربين الماضيتين ، ولن نغالى إذا قلنا أن مصير الحرب القادمة يتوقف على مصير المعركة التى ستدور حول آباره عندما تورى الحرب نيرانها .

الفصل الخامس

نحو الشرق

قصة الاستعمار الأوربى

لا نستطيع أن نتفهم الأهمية السياسية والإستراتيجية للشرق الأوسط أو نلم بالتيارات السياسية التى تصب فى أرضه وتتفاعل فى بقاعه أو أن نعرف دوافعها وأسرارها دون أن ندرس الاستعمار الأوربى الحديث الذى اتخذ مجاله على أثر الكشوف الجغرافية بين المشرق والمغرب — فى بقاع آسيا ذات الحضارات القديمة وموطن الجنس البشرى الذى أخذ ينساب إلى بقاع العالم فى طوفان من الهجرات المتوالية على مراحل التاريخ وعصوره المختلفة تسلك المعابر والطرق التى مهدتها الطبيعة منذ أقدم الحقب التاريخية والتى لا تزال إلى يومنا هذا ممرات تمتد فيها الخطوط الحديدية وطرق السيارات كما كانت من قبل مسلك القوافل والتجارة ومعبر الهجرات والانتقالات البشرية فى العالم ، وفى بقاع الأمريكتين التى ظلت أبد الدهر مجهولة من العالم القديم حتى أصطدم بها كولمبس فى سيره نحو الغرب بحثا عن طريق بحرى الى الهند ثم مات دون أن يعرف أنه اكتشف عالما جديدا يفيض بالثروة والخير أكثر مما تفيض به بقاع آسيا ومرابعها الغنية ، فانثالت اليه الهجرات الأوربية التى يحركها الجوع والقلق والخوف تلك العوامل التى مازالت تسيطر على النفسية الأوربية وتدفعها بحثا عن الأمن والطمأنينة والشبع فلا تثير فيها إلا كوامن الجشع والأثرة فتقع المنافسات وتقوم الحروب حفاظا على الموارد التى تؤمنها من جوع وتطمئنها من خوف فلا يجنى العالم من ورائها إلا قلقاً وذعراً وخوفا وجوعا ودمارا يأتى على خير العالم ويحصد بنيه .

وتطالعنا قصة الاستعمار الأوربى للشرق بهذه العوامل التى تحرك الأوربى

وتدفعه للاستعمار ، عامل الولع والشوق والمغامرة التى دفعت بالمغامرين والجوابين منهم الى ارتياد مجاهله والكشف عن أسراره ، والعامل الدينى الذى دفع المبشرين إلى بقاعه لنشر المسيحيه ، ثم عامل الطمع الذى يحرك التجار إلى ارتياد بقاعه الغنية حباً فى الكسب ورغبة فى احتكار موارده وأخيراً ذلك العامل الذى يقود الإستعمار الحديث والذى نشأ بعد الثورة الصناعية فى أوربا تدفعه الرغبة إلى امتلاك مواطن الخامات والأسواق التجارية واحتكار المواطن الملائمة للاستثمارات المالية واستغلال رءوس الأموال ثم العمل على حماية هذ المواطن باحتلال الممرات التي تؤدى اليها والبلاد التى تقع فى طريقها وحشد الجيوش الجرارة للدفاع عنها ضد أى عدوان لمنافس يطمع فيها .

وقد بدأ الأهتمام الأوربى بالشرق محوطا بهالة من الخيال الساحر الذى أضفاه الأوربى على البلاد الشرقية فقدكان سحر الشرق ولا يزال منذ القدم نشوة المغامر الأوربى وكان بترفه وبذخ ملوكه وأمرائه حلم المترفين فى أوربا وكانت ثروته وخيراته وغناه أمل التجار وطلاب الثراء والغنى وكانت شعوبه البعيدة عبر النطاق الإسلامى من صينيين ومغول وتركمان هوى البابوية والمبشرين والداعين إلى اعتناق المسيحية حتى يكونوا لهم عونا على نضال المسلمين والقضاء على الدين الأسلامى . ففى عام ١٥٦٠ أقام البرتغاليون محاكم التفتيش فى « جوا » التى أصبحت عاصمة الهند البرتغالية عام ١٥٣٠ .

ولكن الشرق ظل منطويا على نفسه حفيظا على اسراره لم تفض حجبه إلا فى الأزمنة الحديثة فأن المغامرين أمثال ماركو بولو وطوائف المبشرين الذين طووا فيافيه إلى بلاد الصين والهند لم يزيدوا من علم الناس شيئا به وإن ألهبت قصصهم ومغامراتهم خيال الأوربيين وأذهانهم ، وكانت تجارة الشرق وقفا على طائفة معينة من العرب والهنود وأهالى جنوى والبندقية الذين احتفظوا بأسرار معاملاتهم ومسالكهم التجاريه خوف أن يزحمهم فى أرباحها مغامر أوجواب مما ضاعف من جهل الناس بخفايا هذا العالم البعيد .

وكانت مسالك التجارة ما بين أوربا والشرق البعيد تمر عبر بلاد العالم الإسلامى

بحرية كانت أو برية ، وقد كانت هذه البلاد قبل قيام الإسلام تقع فى نطاق دولتى الفرس والروم وكانت قبلهما خاضعة لمصر التى استمر سلطانها على هذه البلاد من القرن الثامن عشر إلى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد يوم أن أديل منها إلى سلطان روما القوى .

وكانت أهم المسالك التجارية فى تلك الأزمنة القديمة هى المسالك البحرية ، فقد سير المصريون سفنهم الى بلاد بنط عبر البحر الأحمر تحمل اليهم المر واللبان والبخور المقدس ، ويقال أن بلاد بنط هذه هى الصومال الحالية أو أن تجارة بنط كانت تطلق على كل ما يأتى من تلك البلاد بما فيها التجارة القادمة من الهند وساحل بلاد العرب الجنوبى حيث قامت ممالك قوية كمعين وسبأ وحمير حملت أعلام هذه التجارة فى البر والبحر وكانت أرباحها منها هى سر قوتها وازدهارها ونمائها كما كانت سر قوة جنوى والبندقية وثرائهما فى العصور الوسطى .

وكانت سفن الفينيقيين تجوب عباب البحر الأبيض المتوسط وتتخذ مراكز تجارية لها على ساحل المشرق وشمال إفريقيا .

وقد تحسنت الملاحة على إيدى الرومان حينما كشف أحد ملاحيهم عن مهاب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فأستعانوا بها فى تسيير سفائنهم .

وكانت موانىء غرب آسيا ومحطاتها التجارية هى قواعد التخرين لتجارة الشرق البعيد ما أتى منها بحراً أوما مر بها برا إلى أوربا .

وكانت طرق التجارة البحرية تسلك أحد طريقين :

١ — الطريق البحرى من ساحل الصين الجنوبى إلى جزائر الهند الشرقية فجزيرة سيلان فساحل ملبار إلى الخليج الفارسى فأرض الجزيرة عبر دجلة والفرات ومن ثم إلى البحر الأسود أو البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا

٢ — ويتحد الطريق الآخر مع الطريق الأول فى المسافة من سواحل الصين الجنوبية حتى سيلان حيث يعبر المحيط الهندى إلى موانىء البحر الأحمر ثم يعبر الصحراء الشرقية الى النيل فيجتازه صعدا الى حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد كانت هذه الطرق البحرية أكثر أمنا من الطرق البرية عبر آسيا الوسطى والغربية فقد كانت تختار طريقاً مأموناً يقوم على حراسته أفراد أقوياء ودول كانت تدين بتقدمها ورخائها لاستقرار هذه التجارة وأمنها ، أما الطرق البرية فقد كانت تسلك مفاوز خطرة وتجتاز صحارى قاحلة وترقى جبالا شاهقة وتتعرض لقطاع الطرق وغضب الجماعات المعادية وتتأثر بعوامل القلق والاستقرار فى تلك البقاع وكثيراً ما وقفت رواحلها دون المسير والانتظام لهذا السبب .

وكانت تجارة الحرير أكثر ما تسلك هذه الطريق البرية ، أما تجارة الخزف الصينى المشهور فكانت تنقل بحراً حتى لا تتعرض للكسر أو التلف إذا ما نقلت برا لما تتعرض له من ارتجاج واهتزاز متواصلين . وكذلك التوابل والبهارات لقرب مصادر انتاجها من الموانىء .

وكانت مدينة بخارى ملتقى الطرق البرية القادمة من شرقى آسيا ومنها تتفرع إلى ثلاثة طرق تقود فى النهاية إلى أوربا وهى :

١ — الطريق من بخارى إلى جنوب بحر قزوين ويمر بتبريز ثم يعبر آسيا الصغرى إلى البحر الأسود واستانبول .

٢ — الطريق من بخارى عبر فارس فأرض الجزيره (وادى نهرى دجلة والفرات) إلى سواحل البحر المتوسط فأوربا .

٣ — الطريق من بخارى إلى شمال بحر قزوين عبر وادى نهر الفولجا فسواحل البحر الأسود الشمالية .

وقد كانت هذه الطرق البرية فضلا عن أهميتها التجارية ، المعابر التى سلكتها الجماعات البشرية فى تنقلها وتقدمها نحو الغرب كجماعات الهون والسلاجقة والتتار والتركمان الذين اجتاحوا أوربا على فترات متفاوتة فى التاريخ كما كانت هذه الطرق الممر الرئيسى للحضارات والثقافات الإنسانية خلال عصور التاريخ كما سلكها المبشرون بالمسيحية ورسل البابا إلى بلاد الصين والمغول .

وقد ظلت هذه الطرق البرية والبحرية مسلك تجارة الشرق وموارده من التوابل والبهارات والحرير والخزف الصيني إلى أوربا ومعبر الحضارات والثقافات والأفكار .

وقد اختلط الشرق فى ذهن الأوربى بالهند وكانت الهند فى فهمه هى الشرق وكانت فى خيالة عالما لاينضب من كنوز الذهب واللالىء والأحجار الكريمة وأرضا لايغيض خيرها من غلات وثمار مما دفع الملاحين إلى ركوب الخضم بحثاً عن طريق بحرى إليها رأسا فلاتبهظ تجارتها تلك المكوس التى تضرب عليها عبر الدول التى تمر بها فى غربى أسيا ومصر وجنوى والبندقية ولا تفجعها مخاطر الطرق البرية ومتاعبها فى مالها وكان البحث عن طريق الهند هو السبب فى حركة الكشوف الجغرافية الباهرة التى حفل بها القرن الخامس عشر .

وكان البرتغاليون أول من وصل إلى الهند حيث وصل إليها الملاح البرتغالى فاسكو دى جاما وأرسى مراسيه فى ميناء قاليقوت عام ١٤٩٨ .

وتوالت رحلات البورتغاليين إلى الهند ونجح كبرال بعد مقاومة عنيفة فى إقامة عدد من القواعد على ساحل ملبار وكان قد طلب إليه فى حملته هذه التى قامت عام ١٥٠٠ أن يفرض سيادة البرتغال على هذه البلاد بالحسنى فأن لم تجد فالسيف أجدى وأن يعمل على نشر الدين المسيحى ، وفى عام ١٥٠٢ منح البابا اسكندر السادس ملك البرتغال لقب « سيد البحار والحاكم الأعظم والتاجر فى الحبشة وبلاد العرب وفارس والهند » . ومن هذا يتضح أن حركة الكشوف الجغرافية قد صحبتها رغبة قوية فى الاستعمار وبسط النفوذ السياسى وفرض الديانة المسيحية على المواطنين فقد أقام البرتغاليون محاكم التفتيش فى جوا التى أصبحت عام ١٥٣٠ عاصمة الهند البرتغالية ومن الطبيعى أنها لم تختلف فى أغراضها عن أغراض مثيلاتها فى أوربا .

وكان كولمبس قد نجح قبل ذلك عام ١٤٩٢ فى كشف جزر الهند الغربية لحساب أسبانيا وتوالت كشوفه بعد هذا حتى وصل إلى شواطىء أمريكا الوسطى وسار بحذائها حتى وصل إلى مصب نهر الأورينوكو فى رحلته الثالثة وكان قد كشف جزيرة ترينداد فى رحلته الثانية .

وكان لنزول البرتغال وأسبانيا ميدان الكشف الجغرافى فى وقت واحد ونجاح رجالهما فى تحقيق أهم الكشوف الجغرافية فى العالم أن قام بينهما التنافس فاحتكما إلى البابا الذى أصدر قراره المشهور عام ١٤٩٤ يقضى بتصور خط تقسيم من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى يمر بالمحيط الأطلنطى إلى الغرب من جزر الآزور مسافة ٣٧٠ فرسخا فكل ما يكشف شرق هذا الخط يكون من نصيب البرتغال وكل ما يكشف غربه يكون لأسبانيا .

وكان من نتائج قرار البابا أن اتجه نشاط الاستعمار الاسبانى إلى الامريكتين وأصبح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند حيث الغنى الوافر والثروة الطائلة محظورا عليهم

وقد وقعت البرازيل إلى الشرق من خط التقسيم البابوى وأصبحت ملكا للبرتغال التى ظلت تحكمها ثلاثة قرون .

والبرتغال هى أول من فتح الباب على مصراعيه لاستعمار الشرق ويمكننا أن نجمل أهداف البرتغال فى أمتلاك الارض وتبعيتها لملك البرتغال والاحتكار التجارى ثم نشر المسيحية وفرضها على الشعوب المستعمرة كلما أمكن ذلك .

وكان الإستعمار البرتغالى للبلاد الموسمية نتيجة محتومة لكشف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند مباشرة عبر البحار المفتوحة والمياه الحرة . وكانت النتيجة الثانية هى تحول هذه الطرق التجارية عن بلاد الشرق الأوسط ففقد بذلك مصدرا من الربح الوفير كان له أثره فى تأخر هذه المنطقة وركودها وبعدها عن تيارات السياسة الأوربية وعزلتها التى قطعت كل صلة لها بحضارة العصر وتقدمه مدى ثلاثة قرون طوال .

وقد نجح البرتغاليون فى احتكار تجارة الهند نحو قرن من الزمان فما بين سنة ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ حتى نفس عليهم الهولنديون ما أصابوه من ربح وكانو قد بدأوا نشاطهم الاستعمارى فوجدوا البرتغاليين يسدون أمامهم الطريق فى كل مكان فهاجموا عاصمتهم البرتغالية فى الهند وهى جوا عام ١٦٠٣ وفى عام ١٦٣٩ أيضا ، وما وافى النصف الثانى من القرن السابع عشر حتى انهارت مراكز التجارية البرتغالية

ولم يبق فى أيديهم غير جوا و دامان وديو شاهدات على ما وصلت إليه هذه التجارة فى الأقاليم الموسمية الجنوبية من تفوق .

وقد دخل الهولنديون كأترابهم الانجليز ميدان الكشوف الجغرافية متأخرين ونأوا مثلهم عن المغامرة فى البحار الجنوبية إلى الكشف فى ظلمات البحار الشمالية بحثا عن الهند وقد قادتهم هذه الرحلات إلى أمريكا الشمالية فكشف الأنجليز نيوفوندلاند وأسس الهولنديون قاعدة تجارية دعوها نيوامستردام وهى التى أصبحت نيويورك فيما بعد .

وقد لجأ الهولنديون إلى سياسة الاحتكار التجارى ينفذونها فى أعنف وأقسى صورة لها ولم يتورعوا عن استخدام أبلغ وسائل العنف وأقسى ضروب الأجرام فى سبيل احتكار تجارة الهند لأنفسهم ، كما عمدوا إلى توحيد شركات الاتجار مع الشرق فى شركة واحدة كبيرة عرفت بأسم « الشركة المتحدة الهولندية للهند الشرقية » سنة ١٦٠٢ .

وفى بضع سنين كان الهولنديون قد أقاموا قواعد لهم على سواحل الهند وسيلان وسومطرة والخليج الفارسى والبحر الأحمر كما نجحوا فى ضم جزائر ملقا إلى أملاكهم وكانوا قد احتلوا فرموزا من قبل وكذا جزر الهند الشرقية حيث أسسوا مدينة بتافيا فى جاوة لتكون قصبتهم فى تلك البلاد النائية كما أقاموا فى جنوب أفريقيا عددا من المحطات والقواعد الساحلية لتكون فى طريقهم إلى بلاد الشرق .

وطالع القرن السابع عشر أعظم قوة بحرية لهولندا كما شهد أقصى امتداد لامبراطوريتهم مما أثار البريطانيين وأوغر صدورهم عليهم فجعلوا يتعقبونهم ويسطون على سفائنهم أينما كانت سواء فى البحار الموسمية أو غيرها من البحار ولكن اتحاد العرشين الإنجليزى والهولندى سنة ١٦٨٩ تحت تاج وليم أورنج قد أوقف هذا النزاع إلى حين .

وكان البريطانيون قد شهدوا من قبل مصرع النفوذ البرتغالى فى البحار الموسمية وساهموا فى القضاء عليه عند ما هزموا البرتغاليين فى معركة سورات على مصب

نهر تبق سنة ١٦١٢ وكان هذا النصر كالقطر الذى يسبق الغيث فقد وضعوا بذلك أسس سيادتهم المنتظرة فى البلاد الموسمية الغنية . وقد جاء انتصارهم على البرتغاليين فى سورات بعد تأسيس شركة الهند الشرقية التجارية بأثنى عشر عاما فقد كان مولدها فى ٣٠ ديسمبر عام ١٦٠٠ وهى التى يرجع إليها الفضل فيما بعد فى ابتلاع الهند كلها وإخضاعها لبريطانيا حيث ظلت درتها التى تتألق بين درر التاج البريطانى فتكسفها جميعا حتى سقطت عنه بعد الحرب العالمية الأخيرة .

وكان أول صدام جدى بين البريطانيين والهولنديين فى شنسورا بالهند حيث فرض عليهم كليف البريطانى أن يسلموا دون قيد أو شرط . وأخذت مراكز الهولنديين تتساقط فى أيدى البريطانيين واحدة بعد الأخرى حتى لم يعد لهم فى الهند غير آثارهم تنم عليهم واقتطع البريطانيون ملقا وجاوه وسومطرة ولكنهم عادوا فأرجعوا جاوة وسومطرة إلى حوزة هولندا مقابل تنازلها عن حقوقها فى ملقا نهائيا .

ولم يكن السباق الأوربى نحو الهند قاصرا على هذه الدول الثلاث بل تعداهم إلى فرنسا التى أقامت مراكز لتجارتها على ساحل كرومندل ولم يبق أمام البريطانيين للفوز بالهند إلا القضاء على المراكز والقواعد التى احتلها الفرنسيون . وكان القتال بين الدولتين على أرض الهند هو نفسه صورة لنضالهما فى القارة وقد دارت الدائرة على الفرنسيين سواء فى الهند او فى القارة نفسها ولم تأت سنة ١٧٥١ حتى فقد الفرنسيون أكثر ما كانوا يملكونه فى الهند .

ولم تكن الهند وحدها حلم المستعمر الأوربى وإن كانت هى البؤرة التى تجمعت فيها كل أطماع الإستعمار الأوربى فقد كانت هناك الصين واليابان والجزر العديدة فى شرقى آسيا . وقد دفع التنافس بين الأنجليز والهولنديين فى اليابان باليابانيين إلى طرد جميع الأجانب من بلادهم سنة ١٦٢٤ .

ولم يكن نجاح الأوربيين فى الصين فى ذلك الوقت أعظم من نجاحهم فى اليابان وإن كان البرتغاليون قد نجحوا فى إنشاء قاعدة لهم فى مكاو على الساحل الجنوبى للصين سنة ١٥٥٠ إلا أن أساليبهم فى التجارة قد أثارت سخط الصينيين عليهم وقد صدر

أمر امبراطورى صينى سنة١٧٦٧ بقصر التجارة الأوربية على ميناء كنتون فحسب ، وكان من جراء تنافس الأرساليات الدينية الأوربية فى الصين أن صدر أمر آخر بطردهم جميعا من تلك البلاد .

هذه هى بوادر الاستعمار الأوربى للشرق سارت فى ركب الكشوف الجغرافية والحاجة إلى الثراء والاستغلال وقد أعطت أسبقية الكشف لصاحبها حق التملك ولكنه حق لابقاء له أمام رغبات الأقوياء . ويفسر لنا ارتباط الاستعمار بالكشوف الجغرافية سبق الدول البحرية فى ميدان الاستعمار فكانت البرتغال وأسبانيا وهولندا وانجلترا طلائع الاستعمار الأوربى الحديث وهى التى تملك ناصية البحار فى أوربا ، وكلما زادت قدرة الدولة على تملك البحار والسيطرة عليها كلما كان تفوقها الاستعمارى أعم وأشمل .

وقد عقد لواء التفوق البحرى لانجلترا بعد تحطيم الأرمادا سنة ١٥٨٨ وقد دفعهم هذا الفوز الباهر إلى مضاعفة جهودهم البحرية والرغبة فى الاحتفاظ بسلطان البحار

وقد كانت تجارة الشرق طوال تاريخها حتى بداية الانقلاب الصناعى تقوم على الكماليات كالبهار والتوابل والحرير والخزف وكان الحصول على هذه الأشياء من مظاهر الترف والثراء بالنسبة للرجل الأوربى . فبيعت هذه الأشياء بأغلى الأثمان وجمع تجارها والمشتغلون بها ثروة طائلة ، وقد كان من دوافع الاستعمار الرغبة فى احتكار هذه التجارة .

ثم فتح الانقلاب الصناعى وحلول الآلة فى الإنتاج محل العمل اليدوى آفاقا جديدة فى الاستعمار ، فلم يعد الإستعمار رغبة دينية تجيش فى صدور المتحمسين لفرض عقيدة من العقائد ولم يعد امتلاكا للأرض وفرض السلطان فحسب وإن ظل ميدانا للتفوق التجارى ولكن على أسس وقواعد جديدة فقد اتسع نطاق التجارة ولم تعد التوابل والبهارات والخزف والحرير هى مطلب التجارة الأوربية بل طغت عليها مطالب جديدة دعت إليها حاجة الإنقلاب الصناعى وتقدم الصناعة ووفرة الإنتاج .

فالصناعة تحتاج إلى خامات وكلما كان الأقليم غنيا فى خاماته كلما كان الأقبال على تملكه أقوى وأشد ثم كان من نتائج الإنقلاب الصناعى وفرة الإنتاج مما يحتاج بدوره إلى أسواق للتصريف وأحسن الأسواق لتصريف الإنتاج الصناعى هى ما كانت الصناعة فيها فقيرة ، وأصبحت المستعمرات نتيجة لهذا التطور أسواقا هامة لتصريف المنتجات الصناعية للدول التى تملكها .

وقد اتسع نطاق الاستعمار نتيجة لتحسن وسائل المواصلات وتقدمها وشق القنوات الصناعية لتقصير المسافات البحرية كقناة السويس وقناة بنما وقناة كيل .

وتطور الروح الإستعمارى بدوره فقد كان جل همه الاستغلال والكسب واستنزاف الثروة . ولم يكن هناك ما يربط بين المستعمر والمستعمرة إلا هذه الغاية ولكن التطور الجديد قد تناول أساليب الاستعمار القديمة فأصبحت العلاقة بين المستعمر والمستعمرة أشد ارتباطاً وأصبحت المستعمرة وحدة قائمة بذاتها لها كيانها السياسى والاقتصادى فى نطاق الدولة الحاكمة وانتظمت وسائل الاستغلال أساليب العلم وقواعد الاقتصاد المنظمة فاذا كانت المستعمرة موطنا للخامات الصناعية أو موردا للمواد الغذائية فان من الحكمة ترقية وسائل إنتاج الخامات ومضاعفتها وتحسين أساليب الزراعة لتوفير المواد الغذائية حتى يكون الربح أوفر والكسب أوفى .

وأصبحت المستعمرات فى هذا الطور الجديد أسواقا لتصريف الإنتاج الصناعى للدول المستعمرة ، وقد بلغ هـذا الإنتاج من الوفرة نتيجة لتقدم أساليب الصناعة ما احتاج معه إلى أسواق خارجية مضمونة ، ومن دعائم القوة الشرائية أن يكون المستوى الاقتصادى العام جيدا ، فلقيت المستعمرات بعض الرعاية فى هـذه الناحية وإن لم يكن هدفها صالح المستعمرة بقدر ما كان هدفها مصلحة المستعمر .

وازدادت الروابط الثقافية والجنسية بين المستعمرين والمستعمرات وأصبحت فى حياة المستعمرين أبلغ خطرا وأبعد نتيجة ، فقد فرضت الدول المستعمرة ثقافتها ولغتها وفى كثير من الأحيان نظمها وتقاليدها على البلاد المستعمرة وانثالت الهجرات نحو المستعمرات البكر تتوطنها وتحيا حياتها فى أرجائها بحثا عما ضنت عليهم بلادهم به من خير ،

وتنقل إلى هذه البلاد أفكارها وعاداتها ونظمها فكان هذا أول بادرة من بوادر تغلغل الحضارة الغربيه والثقافة الأوربية فى المستعمرات مما دعا فى النهاية إلى نمو الروح القومية وأطرادها فى المستعمرات نحو حياة أكمل ونظام أرقى .

وقد شجعت الدول هجرة أبنائها إلى هذه المستعمرات وقدمت إليهم الكثير من ألوان المساعدة ومهدت سبل الحياة فى وجوههم وقد كانت الرغبة فى الثراء تدفع الكثيرين للهجرة والتغرب ولم تكن الهجرة وقفا على أبناء الدولة صاحبة النفوذ أو الدول المستعمرة بل اندفعت جموع غفيرة من الأعداد الزائدة عن الحاجة فى الدول الأوربية المختلفة إلى النزوح عن الوطن واستيطان بلاد أخرى مما جعل هذه الدول التى ليست لها مستعمرات تشعر بهذه الخسارة التى تلحقها من رحيل فريق من خيرة أبنائها عنها إلى بلاد ليست لها بها رابطة فاندفعت بدورها تبحث عن مستعمرات تكون مهجرا لأبنائها النازحين عنها وتحقق لها من الفوائد ما تحققه المستعمرات للدول التى سبقتها فى هذا المضمار وقد كانت ألمانيا وأيطاليا من بين هذه الدول التى دخلت ميدان الأستعمار متأخرة . فضلا عن أن التنافس الحربى كان قد بلغ أشده فى القارة واندفعت الدول إلى تجييش القوات الضخمة مما جعل الدول تحرص على ربط أبنائها النازحين عنها برباط القومية المتين حتى تتوفر لها القوى البشرية اللازمة لتكوين جيوشها ولم يكن ليغيب عن بال هذه الدول قيمة القوى البشرية فى المستعمرات وتجييشها فى نطاق القوة العسكرية العامة للدولة . ولقد أفادت انجلترا وفرنسا من تجنيد الاهالى الوطنيين ضمن قواتهم العسكرية فى الحروب التى سبقت الحربين العالميتين وفى هاتين الحربين أيضاً .

ولهذا كان التنافس الاستعمارى بين الدول الاوربية على اشده فى القرن التاسع عشر وكان مثار احتكاكات وحروب ظلت دائرة وما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا ، فقد اندفعت هذه الدول وخاصة مافاتها منها ميدان السبق الأول فى الاستعمار نحو البلاد الجديدة التى لم تستعمر بعد .

وكان من جراء هذا التنافس الاستعمارى حرص الدول المستعمرة على حماية مستعمراتها وتأمين طرق الإتصال بهذه المستعمرات .

وحمل إنجلترا حرصها على الهند والخوف من ضياعها على تملك تلك السلسة الهامة من القواعد الإستراتجية فى الطريق إليها فكان استيلاؤها على جبل طارق ومالطة وقبرص وقناة السويس وعدن وبريم وكوريا موريا وسقوطرة تأمنيا لطريق البحر الأبيض المتوسط إلى الهند ، كما كان استيلاؤها على جزائر اسنشن وسنت هيلين ومستعمرة الكاب وموريشس وسيشل وسيلان تأميناً للطريق البحرى الآخر حول أفريقيا إلى الهند .

ويجب أن نشير إلى أن البحر الأبيض المتوسط قد بدأ يستعيد أهميته القديمة التى فقدها بسبب تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح بعد سنة ١٥١٢ م حينما أرسى دى جاما أسطوله فى مياه قاليقوت الهند وذلك بعد حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ وما بدا من نواياه فى اقتحام طريق الشرق الأوسط البرى للوصول إلى درة التاج البريطانى .

وقد استعاد البحر الأبيض المتوسط أهميته القديمة تماما وأصبح الطريق حول إفريقيا ثانويا بالنسبة له بعد شق قناة السويس واتصاله بالبحر الأحمر سنة ١٨٦٩ .

ولم تأفل شمس القرن التاسع عشر حتى كانت آسيا فيما عـدا اليابان تئن تحت نير الإستعمار الأوربى ، وكان لبريطانيا أوفى نصيب فى هذا الإستعمار فقد أضافت إلى كتلة الهند الهائلة أقاليم بلوخستان وبرما وسيلان وشبه جزيرة الملايو ثم أخذت تدعم نفوذها وتقيم سلطانها وتبسط سيطرتها على كثير من المراكز التجارية أو الحربية الهامة فاستولت على هونج كونج وواى هاى وى وسرواك فى شمال برنيو وأندمان ونيكو بار وسيشل وموريشس فى المحيط الهنـدى وجزائر البحرين فى الخليج الفارسى وسقوطرة وكوريا موريا فى البحر العربى وبريم وعدن فى مدخل البحر الأحمر عدا سلطانها على ساحل شبه جزيرة العرب الجنوبى .

ولم يبق لفرنسا فى هـذه الكتلة الهندية الضخمة التى شهدت طـلائع استعمارها الأول غير بندتشيرى وكاريكال وشندر ناجور وماهى وباتان ولـكنها نجحت فى الإستيلاء على الهند الصينية الفرنسية واحتفظت بعدد من الجزائر فى المحيط الهندى كمدغشقر ورئنيون والقمر وغيرها .

أما روسيا فقد أصبحت المساحات التى استولت عليها فى شرقى آسيا ووسطها جزءا من الوطن الروسى وكان توسعها هذا نتيجة للسياسة التى اتبعتها فى مد رقعة الوطن الروسى فى إتجاهه الطبيعى نحو الشرق فضمت سيبريا والتركستان الروسية ومدت خط حديد سيبريا إلى فلاديفستك فى المحيط الهادى لتربط أجزاء هذا الوطن المترامى ويسلك هذا الخط الحديدى نفس طريق الإنتقال البرى عبر آسيا فى العصور الوسطى وقد تفرع منه عدة طرق منها مايتجه نحوالتركستان الروسية وبهذا يقترت النفوذ الروسى من فارس وافغانستان خاصة والهند عامة ، وقد حاولت أن تعبر النطاق الجبلى فى التركستان لتبسط نفوذها على بعض مناطق الصين ولكنها لم توفق .

وكان من نتائج هذا التقدم الروسى نحو مناطق النفوذ الأنجليزى أن حاولت بريطانيا الاستيلاء على افغانستان حتى تؤمن المدخل الشمالى الغربى للهند وجردت عليها أكثر من حملة ولكنها لم تنجح وأكتفت فى النهاية بعقد المعاهدات التى تضمن لها الأمن والحماية فى هذه البقعة ، واشتركت فى تقسيم فارس إلى منطقتى نفوذ بينها وبين الروس على أن تكون المنطقة الوسطى بينهما منطقة حياد .

ويتجه فرع من سكة حديد سيبريا عبر منشوريا الشمالية والجنوبية إلى بورت آرثر على البحر الأصفر ويواجه بذلك اليابان الذى تتوجس خيفه من التوسع الروسى فى هذا الإتجاه ومافيه من خطر على كيانها القومى والسياسى ونهضتها الصناعيه والتجارية فتندفع وهى فى طور نهوضها إلى محاربة الروس والإنتصار عليهم وتبسط نفوذها على منشوريا الجنوبية والنصف الجنوبى من جزيرة سخالين الغنية بثروتها المعدنية ومياهها الوفيرة الأسماك ،

ويبقى أن نشير إلى اندفاع الولايات المتحدة الإمريكية رغم سياسة العزلة التى كانت تسير عليها إلى تأمين نطاقها الاستراتيجى والتجارى فى تلك الجهات فاستولت على الفيلبين وهاواى وبعض المراكز البحرية الأخرى وبذلك أصبحت وثيقة الصلة بمشاكل الشرق الأقصى وما يمور فيه من أحداث .

أما الصين فقد بقيت تعيش فى القرون الوسطى على خلاف ما حدث فى اليابان وظلت نهب الدول الكبرى فاقتطعت منها بريطانيا هونج كونج سنة ١٨٤٠ وشنت عليها بالإشتراك مع فرنسا حرباً فيما بين عامى ١٨٥٧ — ١٨٥٨ وهى الحرب التى أنتهت بمعاهدة فرضت على الصين فتح بلادها للتجار والمبشرين وقبول ممثلين سياسيين للدول الأجنبية فى بلاط بكين ، وأندفعت الدول الأجنبية تفيد من هذا الوضع الجديد رغم مقاومة الصين لها وانثال عليها الوف من التجار والمبشرين وأصبحت شنغهاى التى تضمهم مدينة لها طابعها الأوربى .

واشتد التنافس بين الدول المتكالبة على الصين أوربية كانت أو إمريكية أو يابانية ولكن هذا التنافس كانت له نتائجه الطيبة فى حفظ الصين من التقسيم والتقطيع وأن لم يمنع تدفق رؤوس الأموال الأجنبية اليها ، وأصبح لكل دولة مايشبه منطقة نفوذ اقتصادى فيها ، فكان النفوذ الروسى واضحا فى منشوريا الشمالية ومنغوليا والتركستان الصينية واليابانى بينا فى منشوريا الجنوبية وحوض الينج تسى والفرنسى فى جنوب الصين حيث تتاخم الهند الصينية الفرنسية . هذا خلاف عدد كبير من الدول الأوربية التى انتفعت بمزايا التجارة الحرة والموانىء المفتوحة .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد تمسكت بسياسة الباب المفتوح وفرضت وجوب بقائها سليمة لا تمس فقد كانت الصين أعظم أسواقها الاستهلاكية فى العالم.

وقد كانت الصين تقاسى ويلات الإنقسام الداخلى والثورات المحلية التى لا تنقطع وتصدع الأمن وتنافس الدول على إستغلالها إلا أنها بقيت سليمة من الاستعمار الأجنبى بمعناه الأصيل بفضل هذا التنافس الدولى ، ووقفت اليابان تتربص بها الدوائر والولايات المتحدة تتابع هذه الأطماع اليابانية وترقبها فقد كان الإخلال بالتوازن الدولى أو بالوضع الراهن فى الشرق الأقصى تهديدا خطيرا لمصالحها الحيوية فى تلك البلاد يعرض سلامتها ذاتها لتجربة قد تكون قاسية .

وظلت اليابان تنظر شذرا إلى تغلغل النفوذ الأوربى والأمريكى فى آسيا الشرقية

وتراه نفوذاً غير مشروع فى بلاد وأقاليم تقوم فى مجالها الحيوى فنادت بمبدأ آسيا للأسيويين ، ولما لم تجد صدى لندائها عمدت إلى العنف لتحقيق هذه السياسة ، فانضمت إلى محور برلين ـ روما ، وقامت بمغامرتها العسكرية الكبرى فى تلك الأقاليم ، تلك المغامرة التى انتهت بالفشل عقب تسليمها للحلفاء سنة ١٩٤٥ .

استعمار افريقيا :

لم تكن إفريقيا مثار الطمع الأوربى حتى عام ١٨٧٨ ، حين بدأت الدول الأوربية تتسابق نحوها وتتكالب عليها وتفض أسرارها وتكشف أستار ظلماتها وتقيم دعائم نفوذها فى ربوعها الغنية وأرضها الخام وغاباتها الوفيرة ، وبذلك جاءت حركة الاستعمار الأوربى لإفريقيا متأخرة عنها فى آسيا .

ويرجع تأخر استعمار إفريقيا إلى جدب شواطئها وجهامة غاباتها وامتداد صحاريها ووفرة الجنادل والشلالات التى تعوق سير الملاحة فى أنهارها ، فضلا عن انتشار الأمراض المتوطنة فى أرجائها الإستوائية وحذر شعوبها البدائية من الرجل الأبيض وشدة مراس محاربيها فى شعوبها المتحضرة .

ثم أن الاتجاه نحو الهند قد شغل المستعمرين الأوائل عن التطلع لغيرها ، وظلت أقاليم آسيا الغنية تجذبهم نحوها من القرن الخامس عشر حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، ثم كان السباق نحوها فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قويا عنيفاً لم يستغرق وقتاً طويلا حتى كانت القارة نهباً مقسما بين المستعمرين .

ولم يكن هناك قدم لأوربى مستعمر فى إفريقيا حتى سنة ١٨٧٨ إلا فى بعض القواعد والمحطات التجارية حول سواحل إفريقيا الغربية ، وفى مستعمرة الرأس وفى انجولا وموزمبيق وكان الفرنسيون قد احتلوا الجزائر عام ١٨٣٠ .

ويجب أن نشير إلى أن السباق الاستعمارى فى افريقيا كان على أشده بين الدول

القومية الحديثة التي فاتها شوط السباق نحو آسيا لتأخر وحدتها ، كألمانيا أو إيطاليا، أو الدول التي لم تصادف نجاحا يرضى أطماعها فى آسيا كفرنسا التي فرضت حمايتها على تونس التي تتصل بالجزائر اتصالا وثيقاً سنة ١٨٨١ . وقد أثار احتلال الفرنسيين لتونس الجفاء بينها وبين إيطاليا التي كانت ترنو ببصرها نحو هذا الإقليم الذى يضم جالية إيطالية كبيرة .

وقد كان نفوذ فرنسا فى مصر ، وهو النفوذ الذى كسبته منذ حملة نابليون ، يثير خوف انجلترا على سلامة مواصلاتها الإمبراطورية إلى الهند ، فجعلت تتعقب هذا النفوذ الفرنسى ، حتى قضت عليه باحتلالها مصر سنة ١٨٨٢ . وباعد هذا الاحتلال بينها وبين حليفتها الطبيعية انجلترا ، كما باعد احتلالها تونس بينها وبين إيطاليا .

وكانت فرنسا أوفر الدول نشاطاً فى إفريقيا الإستوائية فبينما كانت جنودها تتقدم من السنغال صوب أعالى النيجر ، مما يهدد المصالح البريطانية فى تلك الجهات ، كان المكتشف الفرنسى دى برازا يتوغل فى الكنغو التي جذبت بدورها أنظار ليوبولد ملك البلجيك الذى عهد إلى المكتشف ستانلى بتنظيم تلك البلاد لمصلحة بلجيكا ، وبذلك واجهت فرنسا بلجيكا فى تلك البلاد ، كما قامت البرتغال تدعى ملكيتها لها ، مما دعا إلى عقد مؤتمر برلين لتسوية المشاكل الأفريقية عام ١٨٨٤. وكانت فرنسا قد استطاعت عام ١٨٨٣ أن تبسط نفوذها على جزيرة مدغشقر .

وأسرعت إيطاليا لتظفر بنصيبها فى تلك المأدبة الأفريقية ، فنزلت على سواحل اريتريا عام ١٨٨٣ وبسطت نفوذها على تلك المنطقة ، بعد جلاء المصريين عنها عقب إخلاء السودان .

ونجحت ألمانيا بفضل التجار والمبشرين فى إقامة عدد من القواعد والمراكز التجارية فى جنوب غربى إفريقيا . وعقدت معاهدات سيادة مع توجولند فى خليج غانة والكمرون ، كما نجح كارل بيترس فى عقد سلسلة من الاتفاقيات مع زعماء القبائل جعلت السيادة الألمانية تمتد على مساحة ٦٠ ألف ميل مربع كانت أساس الإمبراطورية الألمانية فى شرقى إفريقيا .

وعقد مؤتمر برلين فى ديسمبر عام ١٨٨٤ لينظم منـاطق النفوذ بين الدول المتـكالبة على المائدة الإفريقية ، فقرر أن لا تعلن دولة حمايتها على منطقة دون إعلان هذه الحماية إلى الدول الأخرى ، وألا يعلن ضم منطقة ما من الأراضى إلا إذا كان هذا الضم مؤيداً باحتـلال فعلى ، كما قرر حرية الملاحة فى الـكنغو والنيجر وحرية التجارة فى وادى الـكونغو وما يجاوره من أقاليم ، وإلغاء تجارة الرقيق والعمل على مطاردتها والقضاء عليها ، ولم يشر المؤتمر إلى حقوق الوطنيين أو طريقة معاملتهم ، أو الاهتمام بأمرهم .

وهال بريطانيا تـكالب الدول على هذه المناطق العذراء واقترابهـا من مناطق نفوذها ، فجعلت غايتها أن تخرج من المـأدبة الإفريقية بأوفى نصيب كما خرجت من المأدبة الأسيوية بنصيب الظافرين من قبل .

وبسطت بريطانيا نفوذها على روديسيا وافريقيا الجنوبية الوسطى وبلاد الصومال وافريقيا الشرقية ونيجيريا فى الغرب .

وتطلعت ايطاليا إلى الحبشة التى تتاخم أملاكها فى اريتريا ولـكنها منيت أمامها بهزيمة عام ١٨٨٧ جعلتها تتريث فى تحقيق هذا الحلم حتى كان اندحارها الشائن أمام الأحباش فى عدوة عام ١٨٩٦ ، فاضطرت الى قبول الأمر الواقع ، والاعتراف باستقلال الحبشة ، وكانت تتطلع من ناحية أخرى الى الصومال ، وقد تمـكنت خلال هذه المدة من عام ١٨٨٩ أن تبسط نفوذها على بعض جهاته .

وانتهى تنافس الدول حول التهام القارة دون أن يثور بينها نضال تراق فيـه الدماء الا ما كاد يحدث فى فاشودة يوم أرادت فرنسا أن تمد نفوذها الذى وسع مساحات واسعة بين البحر الأبيض المتوسط وخليج غانة عبر القارة من الغرب الى الشرق حتى وادى النيل ، فسيرت مارشان فى حملة من وادى صوب النيل الأعلى الى فاشودة ورفع عليها العلم الفرنسى ، ولـكن كتشنر تصدى له ، وكان يقوم باستعادة السودان لحساب مصر وطلب اليه انزال العلم والانسحاب من أملاك خديو مصر ، وكادت العلاقات تتكدر بين الدولتين ، رغم قبول مارشان الانسحاب ولـكنهما سارعتا الى تسوية مشكلة الحدود بينهما عام ١٨٩٨ .

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت افريقيا كلها نهباً مقسما بين الدول فيما عدا طرابلس ومراكش والحبشة التى نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها ، وبذلك انتهى مصير القارة الى مناطق نفوذ تتقسمها الدول الاستعمارية ، وتبسط سيطرتها عليها كل وفق جهده فى نضال الظافرين ، وشهد العالم امبراطوريات لم تبلغ من الامتداد وسعة النفوذ فى التاريخ ما بلغته هذه الإمبراطوريات فى مطلع القرن العشرين .

وكانت الإمبراطورية البريطانية أوفى هذه الامبراطوريات سعة وامتداد نفوذ وبسطة سلطان ، ولم يشهد التاريخ امبراطورية بهذا الشأن من القوة وسعة الموارد ومرونة الحكم ما شهد الامبراطورية البريطانية ، ويغلب اليقين على الظن أن العالم لن يشهد قيام امبراطوريات بهذا الجاه والسلطان بعد ، فقد انقضى زمن القوة والجبروت وأصبحت الشعوب من الشعور بالكرامة والاعتزاز القومى ما لا يستقيم معه شعور المذلة وهوان الخضوع والتسليم للغاصب ، ولن يستقر السلام العالمى حتى تقوم العلاقات بين الشعوب على احترام الحقوق والتعاون لخير الانسانية وسعادة الأفراد .

وقد وسعت الامبراطورية البريطانية عالماً لاتغيب الشمس عنه تبلغ مساحته ١٢ مليون ميلا مربعاً ، منها شعوب الدومنيون ، وهى المستعمرات التى تطورت أنظمة الحكم فيها وعلاقاتها بالتاج البريطانى حتى أصبحت علاقة تضامن فى سبيل الصالح العام ، لا علاقة تبعية وخضوع ، وهذه المستعمرات تربطها ببريطانيا رابطة الجنس والثقافة واللغة ، وتنظر اليها نظرتها الى الأم التى يجتمع حولها الأبناء ، وهى كندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا ، ومنها الشعوب التى تتمتع بلون من الحكم الذاتى أو الشعوب التى تعتبر من أملاك التاج وتخضع خضوعاً مباشراً للحكم البريطانى. ويرجع تعدد هذه الأنظمة من الحكم فى المستعمرات البريطانية وتباين علاقتها ببريطانيا الى درجة تطورها ونموها العقلى والحضارى .

وتلى الروسيا فى مساحة أراضيها الامبراطورية البريطانية ، إذ تبلغ مساحتها ثمانية ملايين ونصف مليون ميل مربع ، ولكنها تتميز عن الامبراطورية البريطانية

بوحدة أراضيها وتجانس سكانها ، فمجموع هذه المساحة تكون فى الحقيقة الوطن الروسى ، وقد استمدت الروسيا قوتها من وحدة أراضيها وتجانس شعوبها واتساع مساحتها ووفرة مواردها ، ولكن سوء الإدارة ومساوىء الحكم القيصرى قدجعل الروسيا تتأخر كثيراً عن مثيلاتها فى أوربا ، وصار الأوربيون ينظرون إليها كدولة أسيوية شرقية متأخرة وكان حرمانها من الموانىء المفتوحة وسوء مواصلاتها قد أخرها عن مجاراة الأمم الأوربية فى التجارة والإنتاج ، وزاد الطين بلة أنها ظلت تحكم حكما استبداديا بلغ غايته من السوء والفوضى فى أخريات الحكم القيصرى حتى قضى عليه البلاشفة عام ١٩١٧ .

أما الامبراطورية التى تلى هاتين الامبراطوريتين فى الأهمية وسعه المساحة فهى الامبراطورية الفرنسية التى تبلغ مساحتها خمسة ملايين ميل مربع ، وتمتد هذه الامبراطورية فى افريقيا وآسيا كما أنها تملك جيانا الفرنسية فى أمريكا الجنوبية. وتبسط فرنسا نفوذها على شمالى افريقيا من المحيط الاطلنطى إلى وادى النيل ومن الجزائر الى الكونغو كما تضم جزيرة مدغشقر الغنية فى المحيط الهندى والهند الصينية الفرنسية فى آسيا وبعض جزر الهند الغربية فى المحيط الهادى .

ويختلف الحكم الفرنسى فى المستعمرات عن نظيره الانجليزى بجموده وتعصبه فهم يعتبرون المستعمرة جزءا من الوطن الأصلى تطبق عليها أنظمته وقوانينه وتجب عليها طاعته وتشرب ثقافته وتقاليده .

وقد دخلت ايطاليا وألمانيا ميدان الاستعمار متأخرتين فلم يصيبا غير فتات المائدة ولم تكن خيبتهما فى حكم المستعمرات وإدارتها بأقل من خيبتهما فى بسط النفوذ وتملك الأرض فإن الأملاك الايطالية لا تتعدى مائتى ميل مربع على ساحل البحر الأحمر فى بلاد مجدبة فقيرة ، وكانت أملاك ألمانيا فى افريقيا الشرقية عبئاً ثقيلا عليها لم تحسن ادارتها أو استغلالها حتى فقدتها بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وبذلك لم تعمر طويلا ولم يكن لها من التأثير فيها ما لبريطانيا أو فرنسا من التأثير فى أملاكهما .

وبهذا انتهى القرن التاسع عشر وقد شهد توسع النفوذ الاستعمارى الى أقصى مدى يمكن أن يبلغه أو يصل اليه ، وأهل القرن العشرين ليشهد صراع الدول الحاقدة ونهضة الشعوب المستعمرة ونضج الروح القومى فيها .

العالم الأسلامى فى نطاق الاستعمار :

قلنا أن الشرق الأوسط من حيث الأصطلاح السياسى والإستراتيجى الحديث يشمل نطاقا من الأرض يمتد من أفغانستان إلى شبه جزيرة البلقان

وقد عرفت بلاده الأسلامية بالشرق الأسلامى وترتبط بلاد الشمال الافريقى بهذا النطاق الأسلامى فى الشرق الأوسط بأواصر الدين واللغة والآثار الجنسية التى حملها الفاتحون العرب إلى هـذه البلاد عند أمتداد موجه الفتوح الأسلامية إليها وأتصل تاريخها بتاريخ الشرق الأسلامى من حيث الأدارة والحكم والتبعيه منذ بداية الفتح العربى. وعرفت هذه البلاد بولاية إفريقيا وكانت مدينة القيروان أول ما بنى العرب فى تلك البلاد وتعرف هذه البلاد أيضاً بأسم المغرب الاسلامى تمييزا لها عن المشرق الاسلامى ..

وتنقسم هذه البلاد سياسيا فى الوقت الحاضر إلى مراكش والجزائر وتونس وليبيا بأقسامها برقة وطرابلس وفزان وقد دخلت فى حوزة الحكم العثمانى ماعدا مراكش أيام السلطان سليمان القانونى عند ماضرب فى البحر الأبيض المتوسط جماعة من قواد البحر العثمانيين رفعوا أعلام آل عثمان فوق العباب تدفعهم المغامرة إلى القرصنة والبطولة القومية والدينية إلى خدمة الدولة مثلهم فى هذا لايختلف عن قراصنة البحر الإنجليز الذين رفعوا أعلام بريطانيا فوق البحار ومن ألمع هؤلاء القواد ذكرا خير الدين بربروس الذى أخضع الجزائر وبلاد تونس للدولة وطورغود الذى جعل من طرابلس ولاية عثمانية ، ولم تعد سيادة الدولة العثمانية على هـذه البلاد السيادة الأسمية .

وقد أصاب هذه البلاد ما أصاب الدولة العثمانية من تفكك وانحلال فى نهاية القرن الثامن عشر .

وفى الوقت الذى لم تلق تركيا فيه بالا الى احتلال الفرنسيين للجزائر عام ١٨٣٠ ولم تمد يد المساعدة إلى الزعيم عبد القادر الذى تزعم حركة مقاومة الفرنسيين فى

الجزائر تلك المقاومة التى استمرت قرابة عشرين عاما ، نجدها ترسل حملة بحرية عام ١٨٣٥ إلى طرابلس لدعم نفوذها فيها والقضاء على أسرة القرمنلى التى ظلت تحكم البلاد منذ عام ١٧١٤ ، وقد نجحت الحملة فيما قامت له وتولى الحكم وال من قبل تركيا وأصبحت البلاد تابعة لها رأساً .

وكانت الجزائر أول بلاد الأسلام التى تدخل فى حوزة الاستعمار الأوربى إذا إستثنينا تلك الأعداد الوفيرة من المسلمين فى الملايو والهند وجزر الهند الشرقية والتركستان التى خضعت فى نطاق بلادها الواسعة لحكم الإستعمار من قبل .

وبدأ القرن التاسع عشر وقد أحاط النفوذ الأوربى بالمسلمين فى كل مكان فقد كانت البلاد الأسلامية تابعة للدولة العثمانية التى ظلت تقاوم عوامل الأنهيار والضعف مدى قرنين من الزمان بفضل تنافس الدول الأوربية على إقتسامها وتحول دون الإحتلال الأوربى لها وأن لم تمنع تغلغل نفوذه فيها .

ولم ينجح الأستعمار فى بسط رواقه على البلاد الأسلامية خارج نطاق الدولة العثمانية كافغانستان وفارس فقد احتفظت أفغانستان باستقلالها رغم تنافس روسيا وبريطانيا على أمتلاكها ، وقد سيرت اليها بريطانيا حملتين لبسط نفوذها عليها مرة فى سنة ١٨٣٩ وأخرى فى سنة ١٨٧٩ ولكنها لم تنجح وبرهنت هاتان الحملتان على أن أى محاولة للأستيلاء على أفغانستان مقضى عليها بالفشل ، واكتفت بريطانيا بتأمين حدود الهند الغربية بالسيطرة على ممرى خيبر وكابل وضم بلوخستان وفرض نوع من السيادة على القبائل الضاربة على الحدود وأقامت قاعدة حربية فى كوتا وقد قبل أمراء الأفغانستان أن تخضع سياستهم الخارجية لإشراف حكومة الهند مقابل منحة مالية تقدمها لهم سنويا وأن لايكون لهم علاقات سياسية مع أى دولة أخرى ، ولكن الأفغانستان استكملت سيادتها الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى وأصبحت تتبادل التمثيل السياسى الخارجى وتبرم المعاهدات وقد عقدت معاهدات مع تركيا وإيران وروسيا كما اشتركت فى ميثاق سعد أباد عام ١٩٣٧

وأما فارس فقد كانت كأفغانستان متطلع الروسيا وبريطانيا ولكن هذا التنافس

بين الدولتين الكبيرتين قد أنقذها من براثن الاستعمار ولكن الدولتين الكبيرتين اتفقتا عام ١٩٠٧ على اقتسام مناطق النفوذ فيها وأصبح النفوذ الروسى قائماً فى شمال فارس أما النفوذ البريطانى فقبع فى الجنوب وظلت فارس الوسطى بعيدة عن نفوذ الدولتين الفعلى .

وقد تعرضت بلاد فارس للتقسيم خلال الحرب العالمية الأولية بين هاتين الدولتين كل منها فى منطقة نفوذها الأصلى ولكن قيام الثورة فى روسيا حملها على الانسحاب وبذلك أفسحت المجال لبريطانيا لبسط نفوذها على كل إيران، ولكن قيام الثورة الفارسية ضد النفوذ الأجنبى وعودة الروس إلى المنطقة الشمالية فى فارس وبداية التسابق بين الدولتين لاحتلالها قد عجل بجلاء قواتهما عنها وأبرام معاهدة مع كل منها وبدأت إيران تستقبل عهداً جديداً تحت حكم رضا شاه خان بهلوى الذى اعتلى العرش بعد خلع الشاه السابق

وقد حقق الشاه الجديدة لأيران سيادتها وأبطل الأمتيازات الأجنبية عام ١٩٢٧ وقام بأصلاحات عديدة وأصلح الجيش ونجت إيران من براثن السيادة والنفوذ الأجنبى الذى تعرضت له بلدان الشرق الأسلامى بعد الحرب العالمية الأولى .

أما بلاد الأسلام فى شمال إفريقيا وان جاءت فى ترتيب الاستعمار العام متأخرة إلا أنها سبقت فى تغلغل نفوذه اليها بلاد الأسلام فى غربى آسيا وهى البلاد التى كان نفوذ الدولة العثمانية وسيادتها فيها واضحة فقد كانت سيادة تركيا على الجزائر وتونس سيادة أسمية ولم تقوى سيادتها ويستتب الأمر والسلطان لها فى طرابلس إلا بعد عام ١٨٣٥ بعدما خلعت أسرة القرمنلى من الحكم ونصبت على البلاد والياً عثمانيا .

وقد كانت الجزائر أسبق هذه البلاد فى الخضوع لدولة أوربية هى فرنسا فقد ظلت الحملات الفرنسية تترى على الجزائر من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٤٧ حتى استقر لها الأمر فيها بعدما قضت على مقاومة الزعيم عبد القادر ، ولم تحس تركيا بفقد الجزائر لوهن ما كان بينها وبين الجزائر من صلات .

ومرت خمسون عاما على بداية هذه المحاولة قبل أن تحدث محاولة استعمارية

أخرى فى شمالى أفريقيا حتى كان عام ١٨٨١ وقامت فرنسا باحتلال تونس فكانت المحاولة الثانية فى تاريخ البلاد الاستعمارى . وقد احتلت فرنسا تونس بتشجيع بسمارك ليلهيها بها عن فقد الالزاس واللورين ويشغلها عن الثأر لهزيمتها فى الحرب السبعينية وغضبت أيطاليا التى كانت تتطلع بدورها للأستيلاء على تونس ولها فيها جالية ومصالح عديدة فانضمت فى العام التالى لاحتلال فرنسا تونس إلى الحلف الثنائى الذى أبرم عام ١٨٧٩ بين المانيا والنمسا وأصبح يعرف بالحلف الثلاثى . عام ١٨٨٢ بعد أنضمام أيطاليا إليه .

أما مراكش فقد بدأ النفوذ الفرنسى يتغلغل فيها وبدأت الأطماع الفرنسية نحوها تتضح فى نهاية القرن التاسع عشر عند ما استعان سلاطين مراكش بالضباط الفرنسيين فى أدخال الأنظمة الحديثة فى جيشهم .

ولما عقد الأتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا اعترفت انجلترا لها فيه بحرية العمل فى مراكش كما تركت لها فرنسا الحرية فى تنفيذ سياستها فى وادى النيل فاستقر نفوذ فرنسا فى مراكش وانتهى بأقرار حمايتها عليها عام ١٩١٢ وقد سبق هذا قيام أزمة بين المانيا وفرنسا إنتهت باعتراف ألمانيا بمركز فرنسا فى الجزائر .

ولكن انجلترا كانت حريصة على أن تترك الجزء الشمالى الغربى من مراكش وهو المواجه لجبل طارق فى حماية اسبانيا وإن تكون طنجة ميناء دوليا وقد أقرت كل من أسبانيا وفرنسا ذلك وقبلتاه .

وقد أرادت فرنسا أن تشغل إيطاليا عن أطماعها الاستعمارية فى شمال إفريقيا . فاتفقت معها سرا على أن تكون لها طرابلس مقابل اطلاق يدها فى مراكش والاعتراف بمركزها فيها ، وقد ظلت أيطاليا تتحين الفرصة للأنقضاض على طرابلس حتى اهتبلتها سنة ١٩١١ وأعلنت الحرب على تركيا واحتل أسطولها سواحل طرابلس ولم تستطع قواتها أن تتوغل فى الداخل لعنف ما وجدت من مقاومة ، ولكن رغبة تركيا فى مواجهة المشكلة البلقانية دفعتها إلى التنازل عن سيادتها على طرابلس لأيطاليا وجلاء القوات التركية عنها فى أكتوبر سنة ١٩١٢ بمقتضى اتفاقية أوشى لوزان .

وكانت إنجلترا قد أحتلت مصر عام ١٨٨٢ وفرضت نفوذها السياسى والعسكرى عليها وإن بقيت البلاد تابعة لتركيا من الناحية القانونية ، وقد ألغيت سيادة تركيا على مصر وفرضت الحمايه البريطانية عليها فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى مستهل الحرب العالمية الأولى .

وبهذا احتل النفوذ الأوربى شمال إفريقيا من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى ولم يعد فى إفريقيا كلها دولة مستقلة كاملة السيادة غير الحبشة التى أوقعت بإيطاليا هزيمة عدوة وانقذت استقلالها وسيادتها بذلك .

أما بلاد الأسلام فى غربى آسيا وهى بلاد العرب ودولتا المشرق وفلسطين والعراق فقد ظلت ولايات عثمانية تقاسى مايقاسيه العالم العثمانى من اضطراب وتعانى كثيراً من ألوان القلق والصراع الفكرى والنفسانى حتى قامت الحرب العالمية الأولى وخضعت للتسويات السياسية التى تمخضت عنها هذه الحرب وتقسمت مواطن النفوذ فيها كل من بريطانيا وفرنسا .

ولم ينج من هذا المصير غير اليمن التى أمتنعت على النفوذ الأجنبى والمملكة العربية السعودية التى أقام دعائمها الملك عبدالعزيز آل سعود على أنقاض النفوذ الهاشمى وتضم الحجاز ونجد والحسا ، أما الكويت والبحرين على الخليج الفارسى فقد تغلغل فيهما النفوذ البريطانى الذى مد رواقه أيضاً على الساحل الجنوبى لشبه جزيرة العرب من قبل .

الفصل السادس

بداية الضغط الاوربى

والمسالة الشرقية

قلنا أن بلاد الشرق الأوسط قد وقعت فى حوزة الدولة العثمانية التى بسطت نفوذها السياسى والروحى على العالم الاسلامى نتيجة لامتداد الفتوح العثمانية الى الشرق ، وجهود رجال البحرية العثمانية الذين بسطوا نفوذها على شمال افريقيا ، وانتقال الخلافة الأسلامية إلى السلطان العثمانى ، ولم يبق بعيداً عن سيطرة العثمانيين فى بلاد الشرق الأدنى وسيادتهم الروحية على العالم الاسلامى غير بلاد فارس التى قامت فيها دولة شيعية تحت حكم الأسرة الصفوية التى أسسها فى مستهل القرن السادس عشر وموجة الفتوح العثمانية فى عنفوانها ، الشاه إسماعيل الصفوى الذى يعود بنسبه إلى الإمام على رابع الخلفاء الراشدين .

وقد اتصلت الحروب بين العثمانيين والصفويين لفترة طويلة منذ عام ١٥١٤ ، عندما هزمت جيوش الشاه اسماعيل الصفوى أمام القوات العثمانية الغازية بقيادة السلطان سليم الأول فى معركة جالدران ، واحتل العثمانيون ولايات فارس الغربية التى ظلت ميدانا تتقاتل فيه قوات الدولتين حتى شغلتا عن متابعة النضال بمقاومة الضغط الأوربى الذى وقع عليهما فى وقت واحد تقريباً ، ولعبت روسيا فيه الدور الأول .

وقد امتدت موجة الفتوح العثمانية إلى الشرق كما امتدت إلى الغرب ، وطوت من بلاد الشرق الأدنى مصر والعراق والشام ، كما طوت كثيراً من بلاد العالم المسيحى

فى شرقى أوربا فوسعت المجر ورومانيا وبولندا وسواحل البحر الأسود الشمالية وشبه جزيرة البلقان وقرعت أسوار فينا لأكثر من مرة . واحتفظت الدولة العثمانية بهيبتها فى تلك البلاد ، طالما كانت تحتفظ بقوتها الحربية والإدارية سليمة من عوامل الضعف التى دبت فيها فيما بعد ، وأطمعت القوى الأوربية فى ضعفها فأخذت تسطو عليها وتقتص من أجزائها .

وقد أطلق الأوربيون على موجة المد العثمانى فى الشرق والغرب ثم انحسارها تحت الضغط الأوربى وبداية المشاكل التى نجمت عن التفكير فى اقتسام أملاك الدولة العثمانية بعد انهيارها اسم « المسألة الشرقية » .

وقد بدأت المسألة الشرقية فى دورها الأول وأوربا لاتفكر فى غير مقاومة الاجتياح العثمانى وتغلغله فى قلب أوربا فكانت المحالفات المقدسة التى اشتركت فيها البندقية والنمسا واسبانيا وأخيرا روسيا بزعامة البابا لاترمى إلا إلى إيقاف التوغل العثمانى فى أوربا وصده عن اجتياحها .

حتى إذا بدأت الدولة العثمانية تستقبل عهود ضعفها ويخيم عليها ذلك الركود القاتل الذى اتسمت به فى أخريات أيامها التى طالت ، بدأ الدور الثانى من المسألة الشرقية الذى يتسم بالضغط الأوربى المتزايد والتفكير فى مصير الدولة العثمانية واختلاف دول أوربا حول هذا المصير .

ولم يكن الضغط الأوربى العامل الوحيد الذى لعب دوره فى المسألة الشرقية بل تعرضت لعاملين آخرين كان لهما أكبر الأثر فى مصيرها والاتجاهات التى تعرضت لها ، وأول هذه العاملين هو الشعور بالقومية الذى بدأ يدب فى أعطاف الشعوب المسيحية التى خضعت للدولة العثمانية أبان توسعها فى أوربا ، وكانت هذه الشعوب أسبق فى الشعور بالقومية من الشعوب العربية والأسلامية التى خضعت لها بدورها فى مستهل القرن السادس عشر فقد كانت هناك رابطة الخلافة ورابطة الدين تجمعان بين هاته الشعوب الإسلامية والدولة العثمانية وكانت القومية الدينية التى عاشت الشعوب الاسلامية فى نطاقها قرابة أربعة عشر قرنا تطغى على القومية العنصرية وتواريها — أما العامل الثانى فقد نشأ عن

طموح بعض الولاة القادرين ورغبتهم فى سلخ ولاياتهم عن رباط السيادة العثمانية وإن لم تخف عليهم قوة الرابطة الدينية وسيادة الخليفة الروحية فى بلاد الإسلام ، فقد كان هذا العامل الثانى أكثر وضوحا فى بلدين اسلاميين هما مصر وألبانيا .

وقد بدأ الضغط الأوربى بالبلاد المسيحية ثم ثنى بالبلاد الاسلامية وكانت الحملة الفرنسية على مصر أول اقتحام أوربى للبلاد الاسلامية التابعة للدولة العثمانية ، وكانت محاولة جريئة لاقتحام الطريق البرى إلى الهند فلفتت أنظار الانجليز إلى أهمية مصر وأزاحت ستار العزلة الذى خيم عليها بعد تحول تجارة الشرق إلى الطريق البحرى حول افريقيا وأخذت أوربا ولاسيما بريطانيا توليها اهتمامها وبدأ مايعرف « بالمسألة المصرية » وهو تعبير أوربى أيضا كتعبير المسألة الشرقية ويدور حول مصير مصر مثلما يدور تعبير المسألة الشرقية حول مصير الدولة العثمانية ، كما اتخذت الدول من بلاد فارس مسرحا لتنافسها العتيد وكان هذا مظهر آخر للضغط الأوربى على البلاد الشرقية .

وقدواجه الأتراك أبان توسعهم وامتداد فتوحهم قوتين عظيمتين فى أوربا فى ذلك الوقت قوة البندقية فى البحر الأبيض المتوسط وكانت قد اتخذت فيه مراكز عديدة لتجارتها ونفوذها فى الجزر الآيونية والمورة وإيطاليا وقوة امبراطورية آل هابسبرج فى النمسا والمجر التى حملت عبء الكفاح الأكبر ضد العثمانيين فى القرن السادس عشر. وبالرغم مما كسبه العثمانيون من بلاد وأقاليم على حساب هاتين القوتين فى أوربا إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهما قضاء يكفيهم شرهما فيما بعد وظلت هاتان القوتان تثيران النزاع والحروب ضد العثمانيين ويشتد ضغطهما على الدولة العثمانية بعد ضعفها الذى أخذت ملامحه فى الظهور فى أواخر القرن السادس عشر ، وقد ختمت معاهدة كارلوفتز هذا الدور من النضال والقرن السابع عشر قد آذن بالأفول ، ولما ينته حتى دخلت قوة جديدة إلى ميدان المسألة الشرقية مالبثت أن لعبت الدور الأكبر فيها فيما بعد وهى الروسيا .

وقد ظلت الروسيا بنجوة من الميدان الأوربى دولة برية أسيوية تعيش وراء حواجز منيعة تحول بينها وبين التأثر بالحضارة الأوربية والأتصال بالعالم الفسيح المفتوح حتى اعتلى عرشها بطرس الأكبر فرسم لها سياسة التمدين والحضارة والأتصال بالعالم الفسيح وذلك بتحطيم الحواجز التى تحول بينها وبين الخروج من نطاقها المغلق ، وما لبثت هذه السياسة أن أصبحت دستور قياصرة الروسيا وهدفهم الأكبر .

أما هذه الحواجز التى كانت تحول دون اتصال روسيا بالعالم الخارجى فهى بولندا التى كانت تقف بينها وبين قلب أوربا والسويد التى كانت تسيطر على بحر البلطيق وتمنعها من الوصول اليه وأخيرا الدولة العثمانية التى جعلت من البحر الأسود بحيرة عثمانية ومن الشعوب الصقلبية توابع لها

وقد تحطم الحاجز البولندى بأقتسام بولندا بينها وبين بروسيا والنمسا كما تحطم الحاجز السويدى بانحسار سيادة السويد عن بحر البلطيق بعد أن ضعفت وأخذت روسيا تدفعها عن ولايات البلطيق كما أخذت بروسيا تدفعها عن بوميرانيا ، ولم يبق غير الحاجز العثمانى الذى جهدت روسيا فى اجتيازه دون جدوى وكان هو العامل الأساسى فى دخولها ميدان المسألة الشرقيه وقيامها بأكبر دور فيها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

ولكن روسيا كانت أكثر اهتماما بالحاجز العثمانى منها بالحاجزين البولندى والسويدى فقد كان هذا الحاجز يفصل بينها وبين البحار الدافئة ويبعدها عن المجال الحقيقى للنشاط الاستعمارى والنفوذ الإقليمى والسيادة العالمية ولم يكن لها حتى نهاية القرن السابع عشر قبلما تحتل آزوف ثغورا وشواطىء على البحر الأسود الذى ظل بحيرة عثمانية منذ أن امتدت الفتوح العثمانية إلى شواطئه الشمالية حتى انحسرت عنها شيئا فشيئا تحت ضغط الروس المستمر .

وقـد دخلت روسـيـا ميدان المسألة الشرقيـة فى ختـام القرن السابع عشر والتهمت آزوف فى صلح كارلوفتز الذى ختم حروب الحلف المقدس ضد تركيا .

وبدأ القرن الثامن عشر وقد قضى على الهيبة العثمانية فى نظر الدول الأوربية تماما ، إلا أن روح المقاومة العثمانية بقيت حية فى الدولة تدفعها إلى مقاومة الدول المتألبة عليها ولا تعدم أن تحرز ضدها بعض الانتصارات .

وبقيت القوى التى لعبت دورها فى المسألة الشرقية فى القرن السابع عشر تلعب دورها فى القرن الثامن عشر ولكن دخول روسيا إلى الميدان قد أبعدها جميعا عن مكان الصدارة فيه وأصبحت هى صاحبة الدور الرئيسى فى المسألة الشرقية وما وافى هذا القرن على نهايته حتى خرجت قوتان من هذا الميدان الذى حفل بصراع الدول وكان خروجهما مؤذنا بدخول قوى جديدة فيه لعبت دورها الحاسم فى تاريخ المسألة الشرقية فى القرنين التاسع عشر والعشرين حتى إبرام معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ التى ختمت هذا الصراع الحافل حول المسألة الشرقية .

أما هاتان القوتان اللتان خرجتا من تاريخ المسألة الشرقية فهما البندقية وبولندا ، وقد رأينا فى صلح كارلوفتز كيف استولت البندقية على الجزر الأيونية كما سلمت لها الدولة العثمانية باحتلال المورة ، واستمرت تحكمها مدة طويلة ضج فيها أهلوها من مظالمهم وسوء حكمهم حتى أصبحوا يترحمون على حكم العثمانيين ، ولكن سرعان ما استعاد العثمانيون هذه البلاد بعد ذلك بخمسة عشر عاماً عند ما اكتسحها الصدر الأعظم قومرچى على فى زحف سريع عام ١٧١٥ .

وكان هذا آخر جهد تبذله البندقية فى تاريخ المسألة الشرقية ، فسرعان ما انتابها الضعف والإنحلال حتى قضي عليها تماما عندما رأى نابليون أن يسوى أموره مع النمسا على حساب هذه الجمهورية فاقتسما أملاكها فى صلح كامبو فورميو عام ١٨٩٧ وظفر لفرنسا بالجزر الأيونية ، ولم يكن يجهل الاتجاه الذى ينبغى على فرنسا أن تتخذه والذى شغل تفكير ساستها قبله وهو الوصول إلى اللفانت والشرق الأدنى وإحياء الطريق البرى إلى الهند .

وقد حاق ببولندا ما حاق بالبندقية وسبقتها إلى هذا المصير ، وكان انهيار بولندا متأثراً إلى حد ما بظروف المسألة الشرقية فى ذلك الوقت الذى شغلت فيه أوربا بوراثة العرش البولندى ، وشغل فيه البولنديون بتعديل النظام الدستورى وتحويل الملكية

البولندية إلى ملكية وراثية حتى تقطع على الدول الأخرى سبيل التدخل كلما خلى عرش بولندا لنصرة مرشح على آخر ، وقد كان للروسيا أطماع فى بولندا وآزرت فرنسا بولندا ضد الأطماع الروسية وحملت تركيا على حربها حتى تحول بينها وبين تغلغل نفوذها فى بولندا ووجدت بروسيا أن بولندا تحول بينها وبين التوسع شرقا فحببت إلى الروسيا التهامها ودعا فردريك الأكبر كلا من روسيا والنمسا إلى مشاركته فى تقسيمها وتم تقسيم بولندا بين الدول الثلاث لأول مرة عام ١٧٧٢ ولم يعد لها شأن فى المسألة الشرقية إلى الأبد .

وأما القوى الجديدة التى دخلت ميدان المسألة الشرقية فأولها وأقدمها فرنسا ثم بروسيا فانجلترا بل أن فرنسا كانت أقدم فى أتصالها بالعثمانيين من أى دولة أوربية أخرى وكانت لها بها علاقات طيبة منذ عهد سليمان القانونى الذ حالف فرنسوا الأول وأبرم معه معاهدات الأمتيازات المعروفة وقد إستطاعت فرنسا عام ١٧٤٠ أن تجددها وأن تجعلها معاهدات دائمة بعد أن كان لا يرتبط بها غير السلاطين الذين منحوها وأرتفعت مكانة فرنسا فى الشرق الأدنى حتى أن كثيراً من التجار الأوربيين كانوا يفضلون رفع العلم الفرنسى على أعلام دولهم لما يسبغه عليهم من حماية ورعاية فى الموانىء العثمانية ، كما ظفرت فى هذه المعاهدات باعتراف الدولة العثمانية بحقها فى حماية الرهبان الكاثوليك فى الأراضى المقدسة وقد حمل هـذا الحق فيما بعد نابليون الثالث على التدخل فى جانب الرهبان الكاثوليك ضد الرهبان الأرثوذكس فى الخلاف بينهما حول مفاتيح كنيسة القيامة وحق حملها .

ووقفت فرنسا إلى جانب تركيا تؤيدها تأييداً سياسيا فى حروبها ضد الروسيا والنمسا فى القرن الثامن عشر فكانت أسبق الدول الأوربية فى إنتهاج سياسة المحافظة على الدولة العثمانية وحمايتها من العدوان الذى يعرضها للانهيار والدمار .

أما بروسيا فقد دخلت ميدان المسألة الشرقية لأول مرة بعد أن أثبتت وجودها فى المجتمع الأوربى وقفزت إلى الصف الأول بين دوله القوية على يد فردريك الأكبر ولكن الدور الذى لعبته فيها كان متأثرا إلى حد كبير بظروف السياسة الأوربية فلم تلمس المسألة الشرقيه إلا عن طريق غير مباشر فقد كانت ترى أن التوازن الدولى

فى شرقى أوربا يتأثر إلى حد بعيد ببقاء الدولة العثمانية أو زوالها وهى حريصة على استقرار التوازن الدولى ولا سيما تجاه الخطط التى تكشف عنها سياسة الدولتين الروسية والنمساوية ثم أنها لا تنظر بعين الارتياح إلى توسع النمسا فى البلقان كما أنها ترتبط بمحالفة مع الروسيا التى كانت تشتبك فى حرب مع الدولة العثمانية هددت سلامتها تهديداً خطيراً ، ورأى فردريك الأكبر أن تقسيم بولندا بينه وبين هاتين الدولتين قد يكون ثمناً كافياً للسلام ويحول بين روسيا وبين استمرار الحرب ضد تركيا ويرضى فى الوقت نفسه حليفته الروسيا ويخرج وقد وقف موقف الحكم بين المتنازعين مما يرفع من مكانة بروسيا الناشئة ويكسب أيضاً تلك الأراضى الواسعة التى ستؤول إليه من قسمة بولندا .

ولما وقعت الحرب بين الروسيا والدولة العثمانية عام ١٧٨٧ وكانت روسيا تحالف النمسا التى أعلنت بدورها الحرب فى العام التالى ضد العثمانيين ووقع الخطر على الدولة العثمانية ساهمت بروسيا وانجلترا فى الضغط على الدولتين لإنقاذها واضطرتاها لعقد الصلح الذى خضعت له الدولتان حرصاً على مصالحهما واستجابة لتطورات السياسة الأوربية فى ذلك الوقت فقد كانت الثورة الفرنسية تدق أبواب أوربا وتزعج النظم الملكية فيها مما حدا بروسيا والنمسا إلى التقارب لدفع هذا الخطر ووجدت روسيا فى عقد الصلح ماينقذها من توزيع قواتها بين جهتين فإنها كانت قداشتبكت فى حرب مع السويد اضطرتها إلى توجيه بعض قواتها إلى الميدان الشمالى كما وجدت أن انشغال الدولتين بالثورة الفرنسية سيفسح لها المجال لتحقيق أطماعها فى بولندا .

وهكذا استطاعت بروسيا أن تلعب دورها فى المسألة الشرقية فى القرن الثامن عشر دون أن تكون لها أهداف واضحة فيها وإنما كان دورها مرتبطاً بتيارات السياسة الأوربية ولم تكن أطماعها الاستعمارية قد بدت بعد .

وفى هذا الدور الأخير الذى لعبته بروسيا فى الضغط على روسيا والنمسا لمهادنة العثمانيين نرى انجلترا تظهر على مسرح المسألة الشرقية لأول مرة وكانت تحالف بروسيا بعد الانقلاب السياسى الذى أعقب حروب السنوات السبع .

ولم يكن لانجلترا مصالح بارزة فى بلاد الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت ولم تكن

تجارة اللفانت تهمها إلى الحد الذى يدعوها إلى العناية بتلك البلاد أو شغل نفسها بمشاكلها ولم تلمح الخطر الذى يهدد مصالحها باقتراب الروس من البحر الأبيض المتوسط أو السيطرة على منافذ الطريق البرى إلى الهند وكان « وليم بت » أول من لمح هـذا الخطر وأدرك ما يحمله اقتراب الروس من الطريق البرى الذى تقف دونه الدولة العثمانية وتحول بين القوى الأوربية والنفوذ إليه فأعلن سياسته التى ترمى إلى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية لوقوعها على طريق الهند وهى السياسة التى أخذت بها انجلترا فى القرن التاسع عشر وإن كانت لم تجد لها صدى فى ذلك الوقت لدى الرأى العام الإنجليزى الذى مافتىء ينظر إلى الدولة العثمانية نظرة صليبية وقام كثير من النواب يعارضون رأى وليم بت ويعضدون السياسة الروسية التى ترمى إلى القضاء على الدولة العثمانية ويرون فى القضاء عليها صلاحاً للمدنية الأوربية .

ولم يتسم القرن الثامن عشر فى تاريخ المسألة الشرقية إلا بذلك الدور البارز الذى لعبته روسيا فى ميدانها وخاصة بعد أن شهد هذا القرن ضعف البندقية وأطماع بروسيا والنمسا والروسيا فى بولندا تلك الأطماع التى قضت على كيان بولندا السياسى والأقليمى فلم تبرز فى ميدان المسألة الشرقية ما برزت فى القرن السابع عشر وإن كانت النمسا قد ظلت فى الميدان وهى التى حملت عبء الكفاح وكانت على رأس المحالفات المقدسة ضد العثمانيين حتى ذلك الوقت إلا أن دورها فى القرن الثامن عشر كان دون الدور الذى قامت به روسيا وإن كان يتلوه فى الأهمية .

وقد ختم صلح كارلوفتز جولة الصراع الأوربى حول المسألة الشرقية فى القرن الثامن عشر وقد برزت روسيا إلى الميدان تدفعها عقيدة بطرس الأكبر وتطبع سياستها بذلك الطابع الخالد الذى أضحى شعار قياصرة آل رومانوف فيما بعد .

وقد استولت روسيا فى صلح كارلوفتز على آزوف على أن العثمانيين ما لبثوا أن استعادوها فى صلح بروث عام ١٧١١ بعد أن أوقعوا بالروس هزيمة عند نهر بروث كادت تقضى على دولتهم وهى فى بادىء نهضتها وحملوهم على هدم ما أقاموه من حصون ومواقع دفاعية على ساحل البحر وتسليم ما فيها من مدفعية وذخيرة وإطلاق

سراح الأسرى المسلمين والتعهد بعدم إنزال قوة بحرية فى البحر الأسود أو التدخل فى شئون أوكرانيا وبولندا .

ولم يحرز العثمانيون من النصر حيال النمساويين ما أحرزوه من نصر حيال الروس واضطروا إلى عقد صلح بساروفيتش عام ١٧١٨ لم تخسر الدولة العثمانية فيه شيئاً ولم تكسب النمسا منه شيئاً كثيراً .

ومرت فترة من السلام أشبه ما تكون بالهدنة المسلحة فإن الدولتان لم تنسيا أبداً أطماعهما فى تقسيم الدولة العثمانية وعقدتا فى عام ١٧٢٦ محالفة دفاعية هجومية ضدها. ثم وقعت الحرب بين الروسيا وتركيا عام ١٧٣٦ عند ما انقض الروس على القرم وحاصروا آزوف وفى العام التالى جددت الدولتان تحالفهما القديم وغامرت النمسا بدورها فى الحرب مغامرة لم تلق نجاحاً وأخذت تفاوض العثمانيين سراً لعقد الصلح ورضيت الروسيا بالصلح بعد ما لقيته من مقاومة العثمانيين وما واجهته من مشاكل داخلية وخارجية جدت وقتذاك كان أهمها قيام بعض الفتن الداخلية فى بلادها وعزم السويد على حربها وأخيراً خروج النمسا من الميدان وإبرامها الصلح مع الباب العالى. وعقد صلح بلغراد عام ١٧٣٩ لم تكسب فيه روسيا غير آزوف على أن تهدم قلاعها كما قبلت أن تنقل تجارتها على سفن تركية بعد أن رضيت بأن لا تدخل سفنها البحر الأسود .

وقد صاحب هذا الدور من الحرب ظهور ما يعرف بالمشروع الشرقى وفحواه هذا الأدعاء الروسى بزعامة الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية وكانت قد أخذت فى فترة الأعداد للحرب والتهيؤ لها تبث دعايتها بين المسيحيين وتثيرهم ضد الدولة حتى أخذت روح التذمر والثورة تدب بينهم وأصبح المشروع الشرقى عنصراً جديداً فى السياسة الروسية حيال الدولة العثمانية .

ويعتبر صلح بلغراد آخر صلح رابح أبرمه العثمانيون مع الدول الأوربية ثم خيم سلام طال نوعاً ما فى تاريخ المسألة الشرقية حتى اعتلت كاترين الثانية عرش الروسيا عام ١٧٦٣ وتبنت عقيدة بطرس الأكبر وأخذت تحلم بخلق بيزنطة جديدة . فى موطن بيزنطة القديمة يعتلى عرشها أمير من آل رومانوف وأعدت حفيدها

ليكون امبراطور المستقبل فى بيزنطة الجديدة ، وكان الترك بدورهم قد أخذوا على الروسيا اتساع نفوذها فى بولندا وأحسوا بالخطر يهددهم من جراء ذلك وحمستهم فرنسا لحربها فقد كانت بدورها لا تستريح للنفوذ الروسى فى بولندا وتخشى من امتداد هذا النفوذ إلى البحر الأبيض المتوسط فيهدد طموحها الاستعمارى فيه . وأخيراً وقعت الحرب ، أعلنها الباب العالى فى أكتوبر عام ١٧٦٨ بحجة الدفاع عن حريات البولنديين ولكن الهزائم توالت على الدولة العثمانية ولازمها سوء الطالع واجتاح الروس الأفلاق والبغدان وبسارابيا والقرم وأخذ الخطر يقترب من الآستانة ويهدد البواغيز وكان الأسطول الروسى الذى تحرك من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط يجتاح سواحل الدولة ويتصل قائده البرنس أورلوف بالعناصر الثائرة على السلطان كعلى بك الكبير فى مصر وظاهر العمر فى عكا ، ولم ينقذ الدولة من الإنهيار إلا تطور المسألة البولندية وثورة القوزاق فى حوض نهر الدون وسعى بروسيا لإنهاء الحرب فلم تر الروسيا بدأ من قبول الصلح وأبرمت مع تركيا معاهدة كجوك كينارجى عام ١٧٧٤ التى أصبحت حدثاً هاماً فى تاريخ المسألة الشرقية وتطورها .

ولم تكن أهمية معاهدة كجوك كينارجى فيما كسبته روسيا من بلاد ومساحات فإنها لم تأخذ غير القرم ورضيت بسيادة الخليفة الروحية على مسلميها وجلت عن كل ما احتلته من بلاد أخرى . ولكن كانت أهميتها فى تلك الحقوق التى كسبتها روسيا واعترف لها السلطان بها وأهمها حرية الملاحة للسفن الروسية فى البحر الأسود ومنح التجار الروس أفضل معاملة يلقاها الأجانب فى العالم العثمانى وأن تمثل الروسيا بسفير لها فى الآستانة ويكون لها كنيسة فيها ثم نصت المعاهدة على رعاية حقوق المسيحيين وحريتهم الدينية وإنشاء كنائس جديدة وإصلاح ما كان قديماً منها . وكان هذا أهم نصوصها فقد أتاح للروسيا حق التدخل لحماية الرعاية المسيحيين فى الدولة العثمانية مما يمس سيادة الدولة على رعاياها ويشوب استقلالها بشائبة التدخل الأجنبى ، وكان لهذا النص أثره فى تطور المسألة الشرقية فقد جعلت الروسيا تتدخل فى شئون الدولة الداخلية بحجة حماية المسيحيين كلما حز بها الأمر للتدخل .

وساد الهدوء بعض الشيء ميدان المسألة الشرقية بعد معاهدة كجوك كينارجى ولكن كاترين الثانية لم تنس المشروع الشرقى فأخذت تدس للدولة فى أملاكها وتثير ولاياتها عليها حتى نفذ صبر السلطان فاعلن الحرب عليها عام ١٧٨٧ وأعلنت النمسا الحرب أيضاً إلى جانب روسيا فى العام التالى وكانت العلائق قد توطدت بين الدولتين بعدما أقتطعت النمسا مقاطعة بوكوفينا من الدولة العثمانية وضمتها اليها فى أعقاب الحرب وأبرمتا فيما بينهما تحالفا ضد الدولة العثمانية . وإن كانت النمسا لم تقم بدور بارز فى هذه الحرب واضطرت لقبول الصلح عام ١٧٩١ بعد أن شغلت بقيام الثورة الفرنسية التى أخذت تهدد بمبادئها حقوق الملكيات المستبدة مما دعاها الى توحيد جهودها مع بروسيا لمقاومتها وأخمادها — وبقيت الروسيا وحدها فى المعركة حتى العام التالى عندما اضطرت بدورها لعقد الصلح تحت ضغط انجلترا وكانت قد أخذت تشعر أيضاً بالخطر الذى يشتعل فى فرنسا فأبرمت معاهدة جاسى الذى أقرت نصوص معاهدة كجوك كينارجى كما أعترفت بضم القرم إلى روسيا وامتداد حدودها حتى نهر الدنيستر وأصبحت لها السيادة بذلك على سواحل البحر الأسود الشمالية .

وختم صلح جاسى تاريخ المسألة الشرقية فى القرن الثامن عشر وقد بدأ وروسيا تجاهد فى الوصول إلى البحر الأسود وختم وقد أصبحت تملك كل شواطئه الشمالية تقيم فيها القلاع والحصون وتمخر سفنها عبابه آمنه مطمئنة كما فرضت زعامتها الروحية على مسيحي البلقان ، ويبدأ القرن التاسع عشر ليشهد صراع الدول حول المسألة الشرقية ويطالع أهم أدوار تطورها .

المسألة الشرقية فى القرن التاسع عشر

وأهل القرن التاسع عشر ولما تبزغ شمسه حتى كانت المسألة الشرقية قد دخلت فى دور جديد هو أخطر أدوارها وأكثرها صلة بما نسميه الشرق الأوسط فى الوقت

الحاضر فقد بدأ الضغط الأوربى بعدأن كان واقعاً على البلاد المسيحية فى الدولة العثمانية ويتجه نحو البواغيز فحسب ، يتسع ليشمل بلاداً إسلامية عربية ويمتد إلى الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط بغية أحياء الطريق البرى واحتكار تجارة اللفانت والوصول إلى تجارة الهند وكان صاحب هذا الدور نابليون بونابرت بحملته على مصر عام ١٧٩٨ ومشروعه الكبير فى غزو الشرق وأقتحام الطريق البرى إلى الهند .

وقد فتح نابليون بحملته هذه بابا لم يغلق بعد وخلق فى تاريخ المسألة الشرقية مايعرف بالمسألة المصرية ودفع بدول أخرى إلى الميدان فقد كان الضغط يقع على الدولة العثمانية فى الغرب من جانب الروسيا والنمسا أما بعد الحملة الفرنسية على مصر فقد أخذت الدول تدخل تباعا فى هذا النطاق الشرقى من الدولة العثمانية فكانت فرنسا وانجلترا والمانيا أخيراً أكثر الدول أهتماما بهذا النطاق وإن كانت روسيا لم تنأ عنه أو تهمله فقد أخذت ترقب نشاط هذه الدول فى انحائة مع استمرارها والنمسا فى الضغط على النطاق الغربى .

وقد أصبحت مصر محور الأهتمام الدولى فى هذا النطاق الشرقى كما كانت البلقان والبواغيز محور الإهتمام الدولى فى النطاق الغربى ، وجرت الأحداث فى كل منهما متأثرة بعضها ببعض مرتبطة بالتيارات العامة للسياسة الأوربية وأتجاهاتها .

وكانت الحملة الفرنسية على مصر انقلابا خطيرا فى تاريخ العلاقات الفرنسية التركية التى استمرت وطيدة الأركان قوية الوشائج منذ أيام فرنسوا الأول ومعاهدات الأمتياز الأولى التى منحها السلطان سليمان القانونى للفرنسيين وذلك فى النصف الأول من القرن السادس عشر .

حقيقة أن فرنسا ظلت تحلم بفتح الطريق البرى القديم وتكوين أمبراطورية لها فى الشرق ولكنها لم تلجأ إلى العنف لتحقيق أغراضها مثلما لجأت روسيا عندما أخذت تحقق سياسة بطرس الأكبر ، ولكن حملة نابليون على مصر كانت فى الواقع عملا عنيفا قضى على علاقات المودة بين الدولتين . وكان له أثره فى تطور

الإهتمام الدولى بهذه المنطقة . فلم تكن انجلترا تجهل ما ينطوى عليه مشروع نابليون من أهداف لو تحققت لحطمت أمبراطوريتها فى الشرق وقضت على قوتها فى القارة الأوربية ولم تكن لتلقى بالا إلى هذه المنطقة من قبل حتى أنها اقل ذلك بسنوات قليلة أغلقت قنصليتها فى مصر وأقيل القنصل بلدوين من منصبه وكان هو صاحب الرأى القائل بأهمية مصر لسلامة الأمبراطورية البريطانية كحلقة من سلسلة الحلقات الهامة التى تربط انجلترا بالهند . ولكنها بعد هذه المغامرة العسكرية التى قام بها نابليون وانتهت باحتلال مصر أخذت تتنبه إلى الخطر الذى يحيق بها من وراء ذلك وكان أول ما قامت به أن حطمت أسطول نابليون فى أبو قير ومنعت أتصاله بفرنسا بحصار الشواطىء المصرية بحرا .

وقد ذعر الباب العالى من الحملة على مصر وخاف أن تكون هذه الحملة بداية مشروع أوربى عام لغزو أملاك الدولة والقضاء عليها ولكنه قر بالا بعدما قامت انجلترا تناجز فرنسا وتحول بينها وبين الاستقرار فى مصر أو البقاء فيها وضمن بها حليفا قويا يقف الى جانبه فأعلن الحرب على فرنسا .

وكان للحملة أثرها على العلاقات التركية الروسية بدورها فقد خشيت روسيا أن تنفرد فرنسا بتسوية المسألة الشرقية لحسابها فعرضت صداقتها على تركيا وهى ترمى الى مقاومة مشروعات التوسع الفرنسى أولا وفى الوقت نفسه يمكنها أن تبسط نفوذها على الباب العالى تحت ستار الصداقة الجديدة ، وقد رحب السلطان بالصداقة الجديدة ولكنه ما كان يأمن لها فقد كان الخوف والحذر من الروح الصليبية التى تسيطر على اتجاهات السياسة الأوربية يحولان بينه وبين الإطمئنان إلى صداقتها أو الثقة بها .

وفشلت الحملة الفرنسية على مصر فى تحقيق أهدافها وانتهى أمر الفرنسيين بالخروج من البلاد عام ١٨٠١ وفى معاهدة أميان التى أبرمت فى نفس العام اتفقت الدول على أن تعود مصر إلى الدولة العثمانية ، واشترط الفرنسيون جلاء القوات الإنجليزية عن البلاد وكانت قد بقيت بها بعد ان اشتركت مع العثمانيين فى حرب الفرنسيين ولكنها لم تجل عنها إلا بعد ذلك بعامين .

ولم يغفل الإنجليز أهمية هذا الموقع الذى تتمتع به مصر فظلوا يرقبون أحداثها السياسية ولم ينسوا مخاوفهم من عودة الفرنسيين إليها فأخذوا يتابعون تطور العلاقات الفرنسية التركية عن كثب واحتلوا جزيرة مالطة حتى يرقبوا منها تحركات الأسطول الفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط .

ولم ينس نابليون مشروعاته فى مصر والشرق وأن شغل عنها بميادين نشاطه العظيم فى القارة الأوربية تلك الميادين التى شهدت أروع انتصاراته ، كما كان يرمى إلى التقرب من الدولة العثمانية حتى يحيي نفوذ فرنسا التقليدى فى العالم العثمانى ، وأرسل لهذا الغرض سفيره القدير الجنرال سبستيانى إلى الآستانه ليبشر بصداقة فرنسا للباب العالى . وكان نابليون فى الصلح الذى عقده من النمسا بعد انتصاره عليها فى أوسترلتز قد انتزع منها مقاطعة دالماشيا على ساحل الأدرياتيك وأصبحت فرنسا تتاخم حدود الدولة العثمانية فى البلقان .

ورأى السلطان أن مصلحته تدعوه إلى محالفة هذه الدولة القوية وعاظ هذا الإتجاه منه كلا من روسيا وانجلترا فوقعت الحرب بينه وبينهما وكانت روسيا ترمى إلى الاستيلاء على ولايتى ملدافيا وولاشيا وكانتا تعرفان باسم الأفلاق والبغدان حتى تقترب من البلقان لتنشر دعايتها بين شعوبه وتؤلبها على الحكم العثمانى وكان هذا جزءا من سياسة روسيا السلافية .

ورأت انجلترا أن تؤيد حليفتها فحملت بأسطولها على البواغيز ولكنه قوبل بنيران حامية جعلته ينكص على اعقابه وكانت هذه أول محاولة لها لاختراق البواغيز وكانت المرة الثانية فى بداية الحرب العالمية الأولى وكان فشلها فيها كارثة لايقاس إلى جانبها فشلها فى المرة الأولى .

ورأت انجلترا أن تدارى فشلها أمام الدردنيل فحملت على مصر وأنزلت قواتها فى الإسكندرية عام ١٨٠٧ ولكن نصيبها من الفشل كان أعظم من نصيب حملتها على البواغيز .

ولكن الانقلاب السياسي الذى تم فى أوربا حينذاك وانتهى بتحالف روسيا وفرنسا فى اتفاقية « تلست » عام ١٨٠٧ ضد انجلترا قد جعلها تقلع عن سياسة العداء للدولة العثمانية لاسيما وأنها تؤمن بضرورة بقائها وسلامتها لصالحها ، وأعلنت تأييدها للباب العالى حيال المشروعات المحتملة لاتفاقية تلست وقد تناولت المسألة الشرقية من بين ما تناولته نصوصها وكانت الحرب مازالت قائمة بين تركيا وروسيا .

وقد ولدت اتفاقية تلست ميتة فما كان نابليون ليرضى بانهيار الدولة العثمانية أو أن تستولى روسيا على الآستانة والبواغيز وإمارات الدانوب وما كان القيصر ليقبل أن يحالف نابليون ويساعده على فرض الحصار البحرى على انجلترا والتجارة الإنجليزية دون أن يحقق من وراء هذا التحالف أطماع روسيا التقليدية .

وقد استطاع نابليون ايقاف الحرب بين روسيا وتركيا ونجح فى حملهما على عقد هدنة سلوبدزيا ولكن روسيا أخذت تساوم فى الجلاء عن الأفلاق والبغدان التى احتلتهما فى بداية الحرب على أن تحتل فرنسا البوسنة والبانيا فى مقابلهما وأخذ نابليون يماطل فى قبول ذلك العرض حتى يصل إلى صلح مع انجلترا وجعل يلوح لها باقتسام النفوذ لا فى الدولة العثمانية فحسب بل فى آسيا والهند أيضاً .

وفى المقابلة التى تمت بين نابليون والقيصر فى « ارفرت » عام ١٨٠٨ اتفق العاهلان على أن تضمن الروسيا حياد النمسا وبروسيا فى مقابل اعتراف فرنسا باستيلائها على فنلندا وولايتى الأفلاق والبغدان .

ولكن الموقف السياسى فى القارة كان قد تحرج بالنسبة لنابليون مما اضطره إلى توجيه قواته للدفاع عن مركزه فى أوربا ، وجعل روسيا تنفرد بتسوية المسألة الشرقية لحسابها فنقضت هدنة سلوبدزيا واستأنفت الحرب ضد تركيا وعبثا أستمرت الحرب ثلاث سنوات دون أن تتغلب على المقاومة العثمانية وترغم الباب العالى على عقد صلح تقتطع به جزءا من أملاكهم .

ولما أصبحت روسيا على وشك الاشتباك فى حرب ضد فرنسا أخذت تتعجل

الصلح مع تركيا ، وجعلت فرنسا تقاوم هذه الرغبة ولكن تركيا لم تقبل وقد أدركت ماترمى إليه فرنسا من أن تجعل منها وسيلة لتحقيق سياسة بعيدة عن مصالحها الحقيقية فعقدت صلح بوخارست عام ١٨١٢ استرجعت به الولايات الشمالية ما عدا بسارابيا التى بقيت وحدها فى يد الروس .

وفى مؤتمر فينا الذى عقد عام ١٨١٥ لتنظيم خريطة أوربا بعد الحروب النابليونية ودعم أسس السلام الأوربى الجديد وإخماد الثورات التى تقوم على السلطات الشرعية فى القارة الأوربية لم يشأ المؤتمر أن يبحث موضوع المسألة الشرقية ، فما كان الإسكندر الأول قيصر روسيا ليقبل أن يكون مصير الدولة العثمانية متعلقاً بإرادة الدول ، وما كانت تركيا لترضى أن تشترك فى مؤتمر يرتبط أعضاؤه برابطة الأخاء المسيحى ويتسمون بسمة المحالفة المقدسة ، لتفيد من قراراته وضماناته .

وبقيت تركيا بعيدة عن المؤتمر ، وبقيت المسألة الشرقية مصدر القلق والنزاع فى القرن التاسع عشر ، وجد من العوامل ما دفع بها إلى أعنف مرحلة فى تاريخها . وكان أهمها عاملان : أولهما يقظة الشعوب البلقانية ، وتطور الوعى القومى بين مسيحى البلقان ، وثانيهما طموح بعض الولاة للاستقلال بولاياتهم والخلاص من سيادة الدولة ، وكانت الثورة اليونانية أول البوادر التى نز بها العامل الأول ، كما كانت محاولة محمد على فى مصر أول محاولة للانفصال عن الدولة بين ولاياتها الإسلامية أثارت اهتمام أوربا ، وقد بدا العاملان فى وقت واحد تقريباً ، وكان كل منهما مجالا خصباً للمناورات السياسيه للدول التى تتنافس حول المسألة الشرقية ويهمها مصيرها .

ثورة اليونان

لم يكن اليونانيون تحت حكم الدولة العثمانية مستعبدين أو مظلومين أو مضطهدين فى عقيدتهم ودينهم بل كانوا أكرم عيشاً وأعز جانباً من غيرهم ممن كانوا يثنون تحت حكم القياصرة والأباطرة والملوك فى أوربا المسيحية . وكانت حقوقهم الدينية تحت رعاية بطاركتهم فى الآستانة الذين منحوا من الحقوق السياسية على أتباعهم فوق ما

كان لهم من حقوق دينية وكانوا بهذا سادة الشعوب المسيحية التى تعتنق المذهب الأرثوذكسى فى البلقان .

ولم تكن الثورة اليونانية نتيجة عسف وقع باليونانيين أوظلم أصابهم ، بقدرما كانت نتيجة للحرية والرخاء اللذين نعموا بهما ، وثمرة لانتشار الوعى القومى فى أوربا ، والتبشير بحقوق الإنسان التى جاءت بها الثورة الفرنسية .

وقامت الثورة اليونانية ترعاها أمجاد هوميروس ومدنية الإغريق القديمة التى حركت مشاعر الأوربيين بالعطف على سلالة الإغريق وورثة مفاخرهم العريقة ، وأوقع الثوار بالعثمانيين الهزائم تلو الهزائم وجرت المذابح بين الفريقين دامية متعصبة . واستنجد السلطان بمحمد على والى مصر على أن يضم إلى ولايته بلاد المورة وجزيرة كريت .

ووقفت الدول الأوربية ترقب تطور الثورة ونجاحها . ورأت روسيافيها وسيلة لتحقيق سياستها التقليدية وعطفت على الثوار فى بادىء الأمر ، غير أن قرار مؤتمر تروباو عام ١٨٢٠ لم يكن قد جف بعد . وكان يقضى بمقاومة الثورات التى تؤدى إلى تغيير السلطات الشرعية فى البلاد ، والتدخل السلمى والقهرى لصالح الحكومات الشرعية ، ولم تشترك انجلترا فى إصدار القرار وإن اشتركت فى المناقشات التى دارت حوله وشايعتها فرنسا فى هذا الإتجاه ، وكانت قد دعيت فى مؤتمر ا كس لاشابل عام ١٨١٨ إلى الاشتراك مع الدول فى ضمان السلم على أساس المعاهدات المبرمة ، ولم يوقع قرار تروباو غير النمسا وروسيا وبروسيا ، فلما رأت النمسا أن روسيا تميل إلى مساعدة الثوار أقنعتها بالتزام الحيدة التامة تنفيذاً للسياسة الرجعية التى تعاقدتا عليها حتى لايجر تدخلها إلى أزمة أوربية كبرى قد لاتقف عند حد .

ولم تلتزم انجلترا الحيدة التى التزمتها الدول الأوربية ، وخرجت على الوفاق الدولى واعترفت بحكومة الثوار فى مارس عام ١٨٢٣ ، وكانت انجلترا فضلاعما لقيته الثورة من عطف وتأييد لدى الرأى العام الإنجليزى ترى أن حماية التجارة الإنجليزية تستلزم الاعتراف بالحكومة ذات السيادة الفعلية على اليونان ، وكانت من قبل قد أخذت

توجه اهتمامها إلى هذه المنطقة ، فاحتلت مالطة بعد حملة نابليون على مصر واستولت على الجزر الأيونية كورفو وزنطة وكفالونيا فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥.

ورأت روسيا فى موقف انجلترا واعترافها بحكومة الثوار مايدعوها إلى التدخل ونبذ سياسة الحيدة ، وكان التدخل المصرى فى الثورة قد أثار كل عوامل السخط فى روسيا فدعى القيصر إلى مؤتمر يعقد فى بطرسبرج لحسم النزاع على أساس تقسيم اليونان إلى ثلاث ولايات تمنح الحكم الذاتى تحت سيادة السلطان ، ولكن الدعوة لم تلق قبولا من جانب الدول ، فقد رأت فيها النمسا مجالا لبسط نفوذ روسيا على الإمارات الجديدة ، أما انجلترا فقد خافت أن يكون المؤتمر الجديد وسيلة لإحياء قرار ترو باو وتطبيقه على اليونان ، وأعلنت تركيا أنها لاتتقيد بقرارات المؤتمر ، ولم يقبل الثوار المبدأ الذى نادى به القيصر فى دعوته لدول العصبة الأوربية .

ولما تبوأ القيصر نقولا الأول عرش روسيا عام ١٨٢٥ ، وخشيت انجلترا أن يعمل على تنفيذ سياسة روسيا التقليدية ويتخذ من الثورة اليونانية حجة لتمزيق أوصال الدولة فسعت لإقناع روسيا بالتوسط معها لإيقاف الحرب على أساس استقلال اليونان استقلالا ذاتيا وأقرت الدولتان مبدأ التدخل ولم تكتف انجلترا بذلك ، بل دعت الدول إلى الاشتراك معها حتى تغل يد الروسيا أكثر مما فعلت ولم تلق دعوتها تأييداً إلا من فرنسا . واتفقت الدول الثلاث فى معاهدة لندن عام ١٨٢٧ ، على استقلال اليونان الذاتى تحت سيادة السلطان وإجبار المتحاربين على عقد الهدنة ريثما يتم الاتفاق . ولكن الباب العالى رفض هذا التدخل السلمى مما أدى إلى التدخل المسلح وتحطيم الأسطول التركى المصرى فى نافارين فى أكتوبر سنة ١٨٢٧ وأثارت هذه النكبة غضب السلطان فأعلن الجهاد المقدس ضد الدول المسيحية ولاسيما الروسيا التى اتخذت من منشور الجهاد ذريعة لإعلان الحرب على تركيا فأسرعت كل من فرنسا وانجلترا إلى التدخل وأجبرتا محمد على على سحب قواته من المورة وأخذتا تتأهبان لعقد الصلح بين تركيا وروسيا ، وكانت انجلترا قد أخذت تنبذ سياسة الإرغام والعنف ضد تركيا حتى لايؤدى ذلك إلى إضعافها .

وقد استمرت الحرب بين تركيا وروسيا واستطاع الترك أن يصدوا الروس أمام فارنا وشملا ، ولكن القوات الروسية تمكنت من اختراق جبال البلقان والاستيلاء على أدرنة ، وكان الجهد قد بلغ بالمتحاربين مداه فقبلا الصلح ، وعقدت معاهدة أدرنة فى سبتمبر عام ١٨٢٩ على أن :

١ — تصبح ولايتا الأفلاق والبغدان متصلتين فى إدارتهما تحت حماية روسيا .

٢ — تتمتع الدول كلها بحرية التجارة داخل البحر الأسود ، وحرية المرور فى البواغيز .

٣ — يقبل السلطان استقلال اليونان استقلالا داخليا حسبما نصت عليه معاهدة لندن التى وقعتها الدول الثلاث على أن تمتد حدودها من خليج أرتا إلى خليج فولو .

غير أن الدول رأت فى استقلال اليونان على هذه الصورة وسيلة لتدخل الروسيا فى شئونها فقررت فى عام ١٨٣١ أن يكون استقلال اليونان تاما ، وأن تضمن هذا الاستقلال من تشاء من الدول ، وتمت بذلك مرحلة من مراحل الضغط الأوربى على الدولة العثمانية ، كانت فيها المصالح والأطماع الشخصية أعظم حافزاً من العواطف والانفعالات السادرة عن وحى الساعة تلك المصالح التى ما زالت تسيطر على اتجاهات السياسة الدولية حتى الوقت الحاضر .

محمد على والمسألة الشرقية

وقد فتح الخلاف بين محمد على والسطان والحروب التى جرت بينهما فى بقاع الشام ودنو الجيوش المصرية من الآستانة صفحة جديدة فى المسألة الشرقية ، ولكنها صفحة تختلف عما سبقها من صحائف فهنا تقف الدول جميعاً بما فيها الروسيا فى صف السلطان تنصرة وتؤيده على محمد على ، حتى فرنسا التى كانت تعطف عليه ما استطاعت أن تكون ذات نفع له بقدر ما غررت به وأطمعته فى عونها ومساعدتها .

ويختلف موقف الدول من محمد على عن موقفها من الثورة اليونانية وبقدر ما كانت انجلترا أكثر الدول تشيعا لنصرة الثوار وعونهم بقدر ما كانت أكثرها عداء وتحاملا على محمد على . فقد كانت ترى فى استقلال اليونان ما يبعد نفوذ روسيا عن الوصول إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وما يحد من نشاطها فى الجزء الجنوبى من البلقان وكانت قد استولت على الجزر الأيونية لتشرف منها على هذه المنطقة المليئة بالاحتمالات والنذر كما كانت تطمع من ناحية أخرى فى صداقة اليونان وقد استطاعت فيما بعد أن تقوى أواصر هذه الصداقة ولا سيما بعد أن أعتلى عرش اليونان ملك يمت بصلة المصاهرة إلى البيت المالك الانجليزى .

أما محمد على فلم تكن تطمئن اليه أو تستريح إلى تفوقه واتساعه وترى فى مشروعاته هدما لكيان الدولة العثمانيه كما ترى فيها تهديدا لنفوذها فى الخليج الفارسى وسواحل شبه جزيرة العرب وكانت قد بدأت تهتم بهذه المناطق التى تحوى أهم القواعد فى خطوط مواصلاتها البرية والبحرية ، ولم تكن تنظر من ناحيه أخرى بعين الارتياح إلى ما يربط فرنسا ومحمد على من صلات تمهد للنفوذ الفرنسى وتقويه فى الشرق .

ولا ريب أن روسيا ما كانت تود أن يصل نفوذ محمد على إلى الآستانة ويحل محل السلطان الضعيف ويجدد شباب الدولة وقوتها فيحول بينها وبين تحقيق سياستها التقليدية فى الآستانة والبواغيز فكانت أول من مد يد المساعدة إلى السلطان عندما حطمت الجيوش المصرية قوات العثمانيين فى عدة معارك وأخذت تدق أبواب الآستانة وتقترب من البوسفور .

ولم يجد السلطان بدا من قبول المساعدة الروسية بعد أن تقاعست انجلترا عنه فى بداية الأمر وكان قد طلب اليها أن تحالفه على أخضاع محمد على والحد من قوته فلم تقبل وأرسلت ترد فى لباقة بأنها ستتدخل مهددة لمحمد على وأنها لن تسكت عن أى عبث يهدد كيان الدولة العثمانية .

وأرسلت روسيا تنذر محمد على إذا لم يقبل شروط السلطان بينما كانت قواتها تصل

تباعا إلى الضفة الأسيوية للبسفور . وأزعج هذا التدخل الروسى انجلترا وفرنسا وكانت فرنسا رغم عطفها على محمد على لا تحب أن يكون للروسيا نفوذ فى تركيا وتتفق مع انجلترا فى ضرورة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية .

وتدخلت الدولتان وأجبرتا السلطان على قبول صلح كوتاهية عام ١٨٣٣ حتى لا يبقى هناك مبرر للقوات الروسية فى البقاء على ضفاف البسفور وفى قبالة الآستانة .

ولكن قبل أن تنسحب القوات الروسية من الأراضى العثمانية كانت روسيا وتركيا قد وقعتا معاهدة هنكيار سكلسى وكان أهم نصوصها ماجاء فيه من تعهد تركيا بأغلاق الدردنيل فى وجه السفن الحربية لجميع الدول الأخرى فى مقابل المساعدة التى يقدمها القيصر للسلطان إذا ما اعتدى عليه معتد أو سطا عليه مهاجم .

ولم يكن فى هـذا ما يخالف السياسة التى جرى عليها السلطان بشأن البواغيز وأغلاقها أمام السفن الحربية لكافة الدول على السواء ولكن النص على الدردنيل دون البسفور معناه أن تغلق البواغيز أمام السفن الحربية الأخرى بينما يظل البسفور مفتوحا أمام السفن الروسية .

وقد فسرت الدول معاهدة هنكيار سكلسى بأنها حماية روسية قبلتها تركيا مختارة ومحاولة روسية لابعاد الدول الأخرى عن الإشتراك فى المسألة الشرقية . وما كان قيصر روسيا يبغى غير ذلك .

وإذا كانت تركيا قد قبلت هذا الوضع فأن الدول لم تسلم به وأخذت تعمل على إلغاء المعاهدة والوقوف دون روسيا والإنفراد بحل المسالة الشرقية لحسابها وأبرمت النمسا معاهدة مع الروسيا ترمى إلى اشتراك الدولتين فى العمل معالحفظ كيان تركيا ومنع محمد على من مد نفوذه إلى الولايات الأوربية وأن تعملا معا على وضع النظام الجديد لتركيا إذا ماوقع انقلاب يودى بنظامها القائم ، أما انجلترا وفرنسا فقد اعلنتا أنهما تمنعان حدوث أى تغيير فى علاقات الدولة العثمانية بدولة أخرى تغييراً يمس سلامتها واستقلالها .

ولكن عودة النزاع بين محمد على والسلطان واندحار القوات التركية أمام القوات المصرية فى نصيبين ، ثم وفاة السلطان بعد ذلك وتسليم الإسطول العثمانى إلى محمد على فى مياه الأسكندرية وكان قائده قد تمرد على رجال القصر وأعلن أنضمامه إلى محمد على ووضع الأسطول فى خدمته ، وأصبح الخطر المصرى يهدد حقوق السلطان ويعرض النظام القائم فى تركيا للأنهيار ، وأخيراً خشيت الدول من انفراد روسيا بنجدة السلطان وكان كل ذلك داعيا لتدخل الدول ، وأعلنت روسيا رغبتها فى التعاون الدولى لإنقاذ تركيا ، ووقعت المذكرة المشتركة التى أعلنت فيها الدول رغبتها فى التدخل بين السلطان وتابعه فى يوليه عام ١٨٣٩ .

وزال خطر الروسيا وانفسح المجال لاختلاف الدول فيما بينها حول الشروط التى تحسم النزاع القائم بين التابع والمتبوع فقد كانت انجلترا ترغب فى أرجاع محمد على إلى حدود مصر ، وفرنسا لا تحب أن تحرمه من ثمار جهوده وكانت ترى فى صداقة العاهل المصرى وإتساع نفوذه فى الشرق سندا لسياستها الشرقية ، ووجدت روسيا فى الخلاف بين الدولتين ثغره يمكن أن تفيد منها لصالحها فأعلنت تأييدها لانجلترا واستعدادها لتنفيذ مشروعها بالقوة لا بصفتها الخاصة ولكن بصفتها نائبة عن الدول ، غير أن انجلترا ما كانت تقبل أن تنفرد روسيا بالتدخل ولو ممثلة لأرادة الدول وما كانت ترغب فى أن تتخلى عن صداقة فرنسا فنزلت عن بعض شروطها إرضاء لها وقبلت أن تضاف ولاية عكا إلى حكم محمد على ولم تقبل فرنسا هذا الحل الجديد وهددت بالتدخل لصالح محمد على فاتجهت انجلترا إلى روسيا على أن لا تنفرد بالعمل وكانت تؤمن أن نابليون الثالث لن يغامر بحرب قد تطيح بعرشه فعزمت على تنفيذ سياستها بالقوة وعقدت مع روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة لندن عام ١٨٤٠ لأرغام محمد على قبول حكم مصر وراثة فى أسرته وعكا طيلة حياته وأن يرتبط بتركيا ببعض القيود التى تقوم بين التابع والمتبوع .

ورفض محمد على شروط الدول كما رفضتها فرنسا ولجأت الدول إلى وسائلها العنيفة ضد عاهل مصر وتقهقرت القوات المصرية فى سوريا أمام القوات المتحالفة والثورة التى أو قد الإنجليز نارها فى البلاد ضد الحكم المصرى وعدلت فرنسا عن

المغامرة بدخول الحرب ضد الدول عند ما عرفت من انسحاب المصريين من بلاد الشام وأخذت تتقرب منها ، كما عدل محمد على عن موقفه وقبل شروط الدول التى أخذت بدورها تلح على الباب العالى بإرضائه وتسوية ما بينهما من خلاف ، وأخيراً صدر فرمان يونيه عام ١٨٤١ بأن يكون حكم مصر وراثيا فى أكبر أفراد أسرة محمد على ، عدا بعض ارتباطات أخرى نظمت العلاقة بين محمد على والسلطان .

وفى يوليه من نفس العام أصدرت الدول الخمس قراراً يقضى باحترام سلامة الدولة العثمانية وحق السلطان فى إقفال البواغيز فى وجه السفن الحربية لأى دولة من الدول ما دام الباب العالى فى حالة سلم فكان هذا أول اتفاق دولى خاص بالبواغيز وقضى على ما كسبته روسيا فى معاهدة هنكيار سكلسى من امتيازات خاصة وطويت صفحة المسألة الشرقية لفترة لم تطل ، وانقشع الخطر الذى أثار ذعر الدول الأوربية من سيادة قوة فتية فى بلاد الدولة العثمانية ، تستطيع أن تجدد شباب الدولة وتفرض سلطانها على الدول المتكالبة على الرجل المريض .

المسألة الشرقية فى دورها الأخير .

ولم تسكت روسيا عن تحقيق أطماعها فى الدولة العثمانية والبواغيز ، وأخذت تتحين الفرص لإثارة المسألة الشرقية من جديد رغم الإتفاق الدولى الذى وقعته مع الدول فى يوليه عام ١٨٤١ باحترام سلامة الدولة العثمانية ، فقدهالها أن يأخذ السلطان عبد المجيد بسياسة الإصلاح فى الدولة ، وخشيت أن تنتعش تركيا وتدفع شر الطامعين فيها والمغيرين عليها فأرادت أن تعجل بنهايتها واقترحت على انجلترا عام ١٨٥٣ أن تتعاونا على تصفية المسألة الشرقية وتقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الدول ، على أن تكون مصر من نصيب انجلترا فى تلك القسمة ، غير أن انجلترا ما كانت

تقبل أبداً أن تقترب روسيا من خطوط مواصلاتها أو مناطق نفوذها أو يكون لها شان فى سياسة الشرق الأدنى ، واتخذت من الدولة العثمانية سداً منيعا يحول بين روسيا أو غيرها من الدول الطامعة والإقتراب من المناطق الحساسة التى تؤثر على سلامة امبراطوريتها وأمنها الإستراتيجى .

ورفضت انجلترا الاقتراح الروسى ورجعت روسيا إلى سياستها القديمة ، سياسة التحرش بالدولة العثمانية ومحاولة الإنفراد بتصفية المسألة الشرقية لحسابها ، واتخذت من دعواها فى حماية الطوائف المسيحية الأرثوذكسية فى الدولة وسيلة للتحرش بتركيا وإثارة المسألة الشرقية من جديد .

١ — حرب القرم :

وقد ثار فى ذلك الوقت خلاف تافه بين الرهبان الكاثوليك والأرثوذكس فى بيت المقدس حول حمل مفاتيح الأماكن المقدسة ، وتطلع الرهبان الكاثوليك إلى فرنسا راعية الكاثوليكية كما تطلع الرهبان الأرثوذكس إلى روسيا التى ادعت حق حماية الأرثوذكس فى العالم العثمانى منذ معاهدة كجوك كينارجى ووقفت تركيا تحكم بين الطرفين وتسوى ما ثار بينهما من خلاف وأسرعت الروسيا تنذر تركيا وتهدد وتتوعد وتعترض على ما قررته من حق الرهبان الكاثوليك فى حمل مفاتيح الأماكن المقدسة وأرادت فرنسا أن تحسم النزاع فقبلت أن تنزل لروسيا عن بعض حقوقها ولكنها لم ترض إلا بأن تقر لها الدولة العثمانية بحقها فى حماية الرعايا الأرثوذكس فى العالم العثمانى أجمع ومعنى هذا أن تتنازل لها تركيا عن رعاية الشطر الأعظم من سكان الإمبراطورية العثمانية ولم تقبل تركيا هذا الوضع الذى يزرى بكرامتها ويهدد سيادتها على رعاياها وأجابت روسيا على هذا الرفض باحتلال الأفلاق والبغدان فى يوليه عام ١٨٥٣ .

وبينما كانت الدول تسعى جاهدة للخروج من المأزق وحسم النزاع الذى يوشك أن يثير حرباً عامة إذ بالأسطول الروسى فى البحر الأسود يوقع بأسطول عثمانى فى مياه سينوب ويقضى عليه وخشيت انجلترا وفرنسا أن يكون هذا العمل مقدمة لاحتلال البواغيز فأسرعتا بإرسال أسطوليهما إلى البحر الأسود لمراقبة الأسطول الروسى ومنعه من مغادرة موانيه ووجهت الدولتان بلاغاً إلى الروسيا باحترام سلامة

الدولة العثمانية وسحب قواتها من أراضيها والإعتراف بسيادة السلطان الكاملة على رعاياه المسيحيين وأبى القيصر أن يجيب على هـذا البلاغ فسارعتا إلى التحالف مع تركيا فى مارس عام ١٨٥٤ ، وما لبثت الحرب أن نشبت بين الفريقين ، ووقفت النمسا وبروسيا على الحياد فقد احتلت النمسا الأفلاق والبغدان بالاتفاق مع تركيا بعد جلاء الروس عنهما وتعهدت بالدفاع عنهما إذاعاد الروس إلى احتلالهما وكان الروس قد اختاروا الجلاء عنهما حتى لايثيروا غضب النمسا فتدخل الحرب إلى جانب الحلفاء كما كانوا يرمون إلى تقصير خطوط مواصلاتهم واستدراج الحلفاء إلى داخل بلادهم حيث يحل بهم ما حل بنابليون فى أصقاع بلادهم الواسعة ، ولم تجد النمسا ما يدعوها إلى دخول الحرب لا سيما وإن بروسيا والإمارات الألمانية كانت شديدة الرغبة فى خذلان فرنسا فشلت يد النمسا عن مساعدة الحلفاء ، ولم يجد الحلفاء مساعدة إلا من مملكة بيدمنت الإيطالية رغبة منها فى كسبهم إلى صفها فى حل المسألة الإيطالية لصالحها

واستمرت الحرب حتى أوائل عام ١٨٥٦ وكان حصن سباستبول قد سقط فى أيدى الحلفاء كما احتل الروس قارص فى صيف عام ١٨٥٥ ، وبدت الرغبة فى الصلح وعقد مؤتمر باريس فى فبراير عام ١٨٥٦ ووافق على القواعد الآتية التى رضيت بها الروسيا إذ لم تجد فائدة فى استمرار الحرب :

١ — احترام أملاك تركيا واستقلالها .

٢ — قبول مبدأ التحكيم الدولى إذا ما وقع خلاف بين تركيا وإحدى الدول .

٣ — تتعهد تركيا برعاية المسيحيين فى بلادها دون أن تتدخل دولة فى شئونها الداخلية .

٤ — إعلان حياد البحر الأسود وأن يكون لتركيا الحق فى إغلاق البواغيز فى وجه السفن الحربية كافة .

٥ — إقرار حرية الملاحة فى الدانوب وتعديل الحدود الروسية العثمانية على أن تبقى مصبات الدانوب فى حيازة تركيا .

٦ — رفع الحماية الروسية عن ولايتى الدانوب (الأفلاق والبغدان) وضمان

الدول للامتيازات التى حصلت عليها هاتان الولايتان والصرب من تركيا .

على أن الحيدة التى ضربها الحلفاء على البحر الأسود لم تدم أكثر من خمسة عشر عاماً فما كادت الحرب السبعينية تقع بين فرنسا وبروسيا حتى تخلصت روسيا من هذا القيد الذى فرضته معاهدة باريس ثمناً لبقائها على الحياد وأقرتها الدول على ذلك فى مؤتمر عقد بلندن سنة ١٨٧١ وكان بسمارك المستشار الألمانى صاحب الكلمة العليا إذ ذاك فى السياسة الأوربية .

ولكن الامتيازات التى كسبتها الصرب وولايتا الدانوب فى معاهدة باريس حركت آمال الشعوب البلقانية الأخرى كالبلغار وأهل الجبل الأسود والبوسنة والهرسك فأخذت تسعى إلى تحقيق قوميتها واستقلالها وتثير القلاقل والمتاعب ضد الحكم التركى حتى ظفرت باستقلالها فى النهاية .

وقد أتاحت معاهدة باريس للشعوب البلقانية فترة من الزمن لم تطل إلا أنها كانت كافية لاشتداد ساعدها واكتمال وعيها القومى ونضجها السياسى بعيداً عن سيطرة روسيا أو نفوذها ولو استطاعت روسيا أن تبسط سيادتها على هذه الشعوب قبل أن تستكمل وعيها القومى لمحت هـذه القوميات فى قوميتها ولأضحت خطراً يهدد أوربا بأسرها .

٢ — نشأة دول البلقان :

كانت الشعوب البلقانية آخر الشعوب الأوربية التى اجتاحتها موجة القومية الحديثة فقد كان خضوعها للحكم العثمانى عاملا قوياً فى تأخر تطورها القومى حتى إذا ضعف سلطان الأتراك أخذت هذه الشعوب تشعر بذاتها وتتشرب مبادىء القومية وتتطلع إلى التحرر من سيادة الأتراك .

وكانت هذه الشعوب رغم وحدة أصولها الجنسية والدينية تختلف فى مناهج الحياة والعادات والتقاليد ، وكان لكل منها لغته الخاصة وزيه القومى وقد دخلت جميعاً فى حوزة الحكم العثمانى منذ القرن الخامس عشر حتى أخذت تتخلص منه رويداً فى

القرن التاسع عشر وأصبح تحررها من السيادة العثمانية واستقلالها واتجاهها القومى وتعلقها بفكرة الدولة الحديثة وثورتها على الحكم العثمانى جزءا من المسألة الشرقية فى القرن التاسع عشر كما كانت هذه الشعوب مجالا خصباً للتنافس بين روسيا والنمسا فكل منهما تريد أن تبسط نفوذها وسلطانها عليها وترث الدولة العثمانية فيها مما أورى ضرام المشكلة البلقانية فلم تعد جزءاً من المسألة الشرقية فحسب بل أصبحت مشكلة من مشاكل السياسة الأوربية وعاملا من عوامل النزاع الدولى الذى يهدد السلام العام ويكدر صفو الأمن الأوربى .

وكانت الصرب أول من نزع إلى التحرر من سيادة العثمانيين بين الشعوب البلقانية وقامت ثورة قره جورج ضد الأتراك عام ١٨٠٤ وكان ذلك قبل أن تتكون جمعية الإخوان السرية فى أوديسا والتى انضم إليها كل ذى مقام وحيثية من اليونانيين وكانت تنادى بفكرة طرد العثمانيين من أوربا وإحياء الدولة الرومانية الشرقية واتخذت مجال نشاطها فى ولايتى الدانوب فلم تلق نجاحاً إلا عندما نقلت مركزها إلى المورة مهد اليونانيين الأصائل ونشرت دعوتها بينهم فكانت عاملا من عوامل قيام الثورة اليونانية فى المورة عام ١٨٢٢ .

ولم تلق ثورة قره جورج نجاحاً ولكنها كانت بداية الجهاد الطويل الذى قامت به الصرب فى سبيل تحررها حتى تقرر استقلالها عام ١٨٧٨ فى معاهدة برلين .

أما رومانيا الحديثة فتتكون من ولايتى الأفلاق والبغدان القديمتين وقد آلتا إلى سلطان العثمانيين فى نهاية القرن الخامس عشر وبقيتا تتمتعان باستقلال داخلى تحت حكم أمرائها فى مقابل الجزية السنوية حتى ولى عليهما أميران يونانيان عام ١٧١٦ فساء حكمهما ولم يعد لحاكميهما من هم إلا جمع الثروة ، فانتشرت الرشوة وعم الفساد .

وقد اقتطعت روسيا منهما مقاطعة بكوفينا عام ١٧٧٥ ثم بسارابيا عام ١٨١٢ وما انفكت تتدخل فى شئون الولايتين وتعمل على ضمهما إليها وكسبت الولايتان بفضل هذا التدخل كثيراً من الامتيازات ولكن الدول الأوربية الأخرى وخاصة

النمسا لم تبد ارتياحاً إلى هذا التدخل فقررت فى معاهدة باريس رفع الحماية الروسية عنها وضمان الامتيازات التى حصلتا عليهـا من تركيا . ثم قررت الدول عام ١٨٥٨ أن يكون لكل ولاية حاكم ينتخبه نواب الشعب ويوافق عليه السلطان ، فلما تمت الانتخابات أجمعت الولايتان على اختيار « اسكندر كوزا » فكان هذا الإختيار الخطوة الأولى نحو اتحاد الولايتين ولا ريب أن الوعى القومى كان أول العوامل فى مثل هذا الاتجاه ، ولما يمض عام ١٨٦١ حتى ضم المجلسان وسميت الإمارة الجديدة باسم رومانيا واتخذت بخارست عاصمة لها ووافقت الدول كما وافق السلطان على ما تم مع بقاء حقه فى السيادة والجزية . ثم ارتقى عرش البلاد أمير من آل هوهنزلرن عام ١٨٦٦ فنهض برومانيا نهضة حولتها من إياله عثمانية متأخرة إلى مملكة أوربية ذات بأس وقوة .

وأخيراً كانت ثورة بلغاريا والبوسنة والهرسك عام ١٨٧٥ سبباً فى تصفية المشكلة البلقانية وكانت السياسة الأوربية قد أخذت تخضع لمؤثرات جديدة جعلت توجهها وجهة غير التى بدأت بهـا فى القرن التاسع عشر حيال المسألة الشرقية ، فأنجلترا قد أخذت تنفض يدها من سياسة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية بعد أن أظهرت التجارب صعوبة الأصلاح فى تركيا وراحت تعتمد على وسائلها الخاصة فى حماية مصالحها الإمبراطورية فى الشرق الأدنى وأن كانت لاتتفق مع سياستها القديمة ولاسيما بعد أن تحولت التجارة إلى طريق القناة المارة فى الأراضى المصرية العثمانية .

أما النمسا فقد ولت وجهها شطر المشرق لتعوض من أملاك العثمانيين ماخسرته فى ألمانيا عام ١٨٦٦ ، ولكن التنافس الدولى حول المسألة الشرقية ظل يسود علاقات الدول كما كان من قبل وظل حرصها جميعاً ولاسيما انجلترا على إبعاد روسيا من النفوذ والتغلغل فى البلقان والإقتراب من البواغيز كما كان من قبل .

وكانت روسيا بدورها تعمل على هدم القيود التى كبلت بهـا الدول نشاطها فى البلقان فى معاهدة باريس ، فلما قامت الثورة فى البوسنة والهرسك عام ١٧٧٥ أخذت توالى جهودها فى إثارة الشعوب البلقانية ضد العثمانيين حتى أعلنت الحرب على تركيا بزعامة روسيا وعبر الحلفاء نهر الدانوب وحاصروا حصن بلفنا حتى سقط فى أيديهم بعد دفاع مجيد وتوغلوا فى الزحف حتى صاروا فى يناير عام ١٨٧٨

قاب قوسين أو أدنى من الآستانة وطلب السلطان الصلح وظهر الأسطول الانجليزى فى البواغيز منذرا الروس بإيقاف التقدم نحو الآستانة ثم عقدت معاهدة «سان استفانو» فى مارس سنة ١٨٧٨ وبها تقرر استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود وإن تمنح البوسنة والهرسك وبلغاريا استقلالا إداريا على أن تمتد حدود بلغاريا فتشمل الروملى ومقدونيا وأن تأخذ الروسيا باطوم وقارص وآرزن .

ولكن معاهدة سان استفانو لم تلق تأييداً لا من أغلب دول البلقان التى لم تقبل تفوق الشعوب السلافية ولا من الدول العظمى التى خشيت امتداد نفوذ روسيا وتهديدها لتركيا فألحت فى عرض المعاهدة على مؤتمر يعقد فى برلين .

وقد اجتمع مؤتمر برلين برئاسة بسمارك سنة ١٨٧٨ وقرر ما يأتى :

١ — تبقى معاهدة باريس سارية الأثر فيما يتعلق بدولية البواغيز ونهر الدانوب وقبول مبدأ التحكيم قبل الإلتجاء إلى القوة واحترام سلامة تركيا وسيادتها وتمتعها بكل إمتيازات القانون الأوربى العام الذى يتمتع به سواها .

٢ — الموافقة على استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود .

٣ — عودة مقدونيا إلى سيادة تركيا .

٤ — أن تكون بلغاريا الحقيقية إمارة مستقلة استقلالا داخليا تحت سيادة السلطان وتقوم بدفع الجزية ، أما الروملى الشرقى وهو الجزء الجنوبى من بلغاريا فيحكمه وال مسيحى يوافق السلطان على تعيينه .

٥ — تتولى النمسا إدارة البوسنة والهرسك وتحتل قواتها سنجق نوفى بازار ، وتسترد الروسيا مقاطعة بسارابيا من رومانيا ـ وكانت قد ضمت إلى ولايتى الدانوب فى معاهدة باريس قبل أن تتحدا تحت رئاسة كوزا ـ على أن تتنازل لها عن دبروجة ، كما تستولى الروسيا على قارص وباطوم .

أما انجلترا فقد تعهدت لتركيا بأن تحافظ على سلامة أملاكها فى آسيا على أن تحتل قبرص لهذا الغرض ، وأخيراً وعدت الدول اليونان بأن تكون لها تساليا وأبيروس ، وقد تم ضمهما إليها عام ١٨٨١ .

على أن مؤتمر برلين وأن حقق كثيراً من آمال الشعوب البلقانية إلا أنه لم يحقق هدف روسيا الأول الذى قامت عليه سياسة بطرس الأكبر كما أنه لم يحل المسألة الشرقية الحل الذى يرضى قضية السلام فبقيت مثار النزاع الدائم حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

ختام المسألة الشرقية

لم تفد تركيا من الضمانات الدولية التى كفلتها معاهدة باريس وقرارات مؤتمر برلين فى أصلاح شئونها والقضاء على الفساد الذى استشرى فى بلادها وبقيت نهب الفوضى تخضع لطابع من الجمود القاتل الذى وقف أمام كل حركة للتجديد والأصلاح حتى فقدت الدول التى ظلت تحميها وتسندها كل أمل لها فى الإبقاء على الرجل المريض وأخذت كل منها تتربص به الدوائر للفوز بأكبر نصيب فى تركته فقامت إنجلترا باحتلال مصر عام ١٨٨٢ كما عملت بلغاريا على ضم الروملى الشرقى اليها عام ١٨٨٥

وأخيراً فرضت الدول المراقبة المالية على تركيا عام ١٨٩٠ كما فرضت المراقبة الإدارية على مقدونيا عام ١٩٠٣ ، ثم أعلنت بلغاريا استقلالها العام عام ١٩٠٨ وضمت النمسا إليها فى نفس العام مقاطعتى البوسنة والهرسك كما أعلنت كريت انضمامها إلى اليونان ولم تملك تركيا غير الإعتراف بالأمر الواقع فقضت بذلك على ما كسبته فى مؤتمر برلين من ضمانات دولية .

وأصبحت الدول فى حل من تنفيذ رغباتها حيال تركيا ، وكانت أيطاليا أسبقهن إلى العمل فأنزلت قواتها فى سبتمبر سنة ١٩١١ على سواحل طرابلس الغرب وبدأت أعمالها الحربية للاستيلاء على هذه الولاية ونازلها الأتراك والعرب منازلة عدت مضرب الأمثال فى الثبات والشجاعة وقوة البأس ولكن نذر الحرب البلقانية كانت تلوح فى مطلع الأفق فلم تملك تركيا إلا أن تتنازل لها عن هذه الولاية فى معاهدة أوشى لوزان عام ١٩١٢ .

وما وافى خريف عام ١٩١٢ حتى كانت شعوب البلقان تتجمع فى حلف مقدس

وتتحد كلها لشن الحرب على تركيا التى فوجئت بالحرب ولما يكتمل تنظيم جيشها الحديث فمنيت بهزائم مريرة فى كل ميادين القتال .

واجتمعت الدول فى لندن لتسوية النزاع القائم فى البلقان وقررت أن تنزل تركيا عن الأراضى الواقعة غرب الخط الممتد من ميديا على البحر الأسود إلى إينوس على بحر إيجه بالرغم مما صرحت به انجلترا فى بداية الحرب — وكانت لا تتوقع هزيمة الأتراك — من أنها لن تسمح بتغيير خريطة البلقان .

غير أن الحلف المقدس بعد النصر قد دب اليه الشقاق فانقضت بلغاريا على الصرب والجبل الأسود واليونان وأعلنت رومانيا الحرب على بلغاريا بغية توسيع أملاكها وقامت تركيا تحارب المتحالفين عليها وتسترد شرفها المثلوم فتسترجع أراضيها فى شرقى ووسط تراقيا بما فيها أدرنة ، ثم نزل الجميع أخيراً على رغبة الصلح وأبرمت معاهدة بخارست فى أغسطس سنة ١٩١٣ وفيها استعادت تركيا شمال ووسط مقدونيا فأصبحت حدودها تتاخم حدود اليونان وتقرر أن تكون ألبانيا مملكة مستقلة وحالت بقيامها بين الصرب والوصول إلى بحر الأدرياتيك ولم تظفر بلغاريا بغير جزء صغير من مقدونيا وتخلت عن تراقيا الشرقية والوسطى لتركيا كما تخلت عن سلستريا فى دبروجه لرومانيا فكانت بذلك أقل ممالك البلقان حظا فى الغنيمة أما اليونان فقد وصلت حدودها شمالا إلى نهاية ابيروس وشرقا الى تراقيا بما فيها سلانيك وقوله .

ثم كان لتطور السياسة الدولية أثره فى المسألة الشرقية فإن النفوذ الألمانى قد بدأ يمتد فى تركيا منذ عام ١٨٨٨ وظفر الألمان بامتياز خط حديد بغداد عام ١٨٩٩ وكانت النمسا تتطلع إلى الوصول إلى بحر إيجه تعويضا لها عما فقدته فى ألمانيا من أملاك ولكنها كانت ترى فى قيام الصرب أمامها ما يحول بينها وبين السيطرة على البلقان ثم فازت بامتياز خط حديد نوفى بازار فأثارت غضب الروسيا وقلق إنجلترا وكان الخلاف قد تمكن بينها وبين الروسيا بعد مؤتمر برلين وقد أزعجتها حركة الوحدة السلافية التى ترعاها روسيا ، واختارت المانيا أن تمالىء النمسا على روسيا لتقارب مصالحهما ، أما إنجلترا فقد ساءت علاقاتها بتركيا منذ احتلت مصر فأخذت تنفض

يدها من الإهتمام بمصير تركيا إلا ما يمس مصالحها وان لم تبد ارتياحها لامتداد النفوذ الألمانى فى تركيا .

أما تركيا فقد رأت فى احتلال انجلترا لمصر وأطماع فرنسا فى اللفانت وروسيا فى الآستانة والبواغيز ما يدفعها نحو دولتى الوسط ألمانيا والنمسا ، على أن دخول تركيا الحرب بجانب ألمانيا والنمسا كان نذيراً بارتباط مصير المسألة الشرقية بمصير الحرب العالمية الدائرة وجرت الاتفاقات السرية بين الحلفاء على تقسيم الدولة العثمانيه بعد الحرب وكانت نهاية الحرب وهزيمة تركيا إيذاناً بتصفية المسألة الشرقية إلى الأبد والغريب أن الرجل المريض وهو فى دور الاحتضار قد استطاع أن يستعيد أنفاسه ويبقى على كيانه الأصيل ويذود عنه فتطلع إلى الوجود تركيا الحديثة وقد تخلصت من حملها الثقيل وتستقبل العالم وقد أدارت ظهرها إلى الشرق لتستقبل الغرب بحضارته وجهاده المادى والمعنوى الذى طبع العالم بطابعه العتيد .

فارس والضغط الأوربى

ظلت البلاد الإسلامية التى تقع شرق أرض الجزيرة بعيدة عن سيادة العثمانيين وإن لم تنج من محاولات الضغط الأوربى الذى أخذ دوره فى هذه المنطقة كما أخذ دوره فى الدولة العثمانية وفى كل بلاد الشرق عامة ، وقد دخل مسلموا الهند والملايو وجزر الهند الشرقية فى حوزة الاستعمار الأوربى فى طوره الأول وبقيت أفغانستان تذود المستعمر عن جنباتها وتصده عن أرضها وكانت تقع فى نقطة التقاء النفوذ الإنجليزى بالنفوذ الروسى فما استطاع الانجليز أوالروس أن ينالوا منها شيئاً واشتروا صداقتها وودها بالمال . أما فارس فقد أصبحت نهب الطامعين وخاصة انجلترا وروسيا وقد ظلتا ترقبان جهود بعضهما بعضا فى تلك المنطقة وتسعيان كل منهما للوقوف دون مطامع الأخرى .

وقداصطدمت الدولة العثمانية بدولة فارس عندماأخذت تتجه فى فتوحاتهانحو الشرق

منذ عهد السلطان سليم الأول عام ١٥١٤ وفقدت فارس بعض ولاياتها الغربية حتى إذا اعتلى عرش البلاد الشاه عباس الأول عاهل الأسرة الصفوية نفث فى البلاد قبساً من قوته فاستعادت ولاياتها الغربية التى كانت فى قبضة العثمانيين وبوفاته أخذ نجم الأسرة الصفوية فى الأفول وتعرضت فارس لغزو الأفغانيين وانتهب بطرس الأكبر قيصر روسيا فرصة ما حاق بالبلاد من ضعف فسلبها الولايات الشمالية وجيلان ومازندران وجورجيا وإن لم يستطع الاحتفاظ بها طويلا فقد استردها نادر شاه بعد ذلك بقليل وحمل القيصر على عقد معاهدة رشت عام ١٨٣٢ لمصلحة فارس ، وقاد الجيوش الفارسية إلى الهند واستولى على دلهى ونقل عرش الطاووس الشهير الخاص بملوك المغول إلى بلاده ثم توغل فى أواسط آسيا ففتح بخارى وخيوا وأخضع القبائل التركمانية التى كانت تهدد حدود فارس الشمالية وأوقع بالعثمانيين هزيمة ماحقة عند ديار بكر واضطرهم إلى عقد صلح عام ١٧٤٦ والتنازل نهائياً عن المطالبة بالولايات التى كانت فى أيديهم .

وبموت نادر شاه عمت الفوضى أنحاء البلاد واقتسم الحكم فيها أمراء أعلن كل منهم سيادته على الأقليم الذى يحكمه حتى استعادت البلاد وحدتها فى عهد الأسرة القاجارية.

وفى عهد اسرة قاجار تستقبل البلاد بوادر التغلغل الغربى والنفوذ الأوربى وكانت روسيا أول دولة تدخل هذا المضمار وفقا للسياسة التى وضع خطوطها بطرس الأكبر فى الوصول برقعة الوطن الروسى إلى البحار المفتوحة والاتصال بالعالم الخارجى اتصالا مباشرا ثم تابعتها فرنسا بقصد إحياء الطريق البرى إلى الهند والظفر بامتيازات تجارية فى بلاد فارس وانجلترا التى كانت ترمى جريا على سياستها التقليدية إلى المحافظة على سلامة الهند والحيلولة دون أى دولة قوية والإقتراب من مناطق نفوذها أو تهديد طرق مواصلاتها إليها ثم دخلت المانيا المضمار عندما بدأت سياستها نحو الشرق وقد ذكرنا كيف أن أطماع بطرس الأكبر قد قادته إلى الإستيلاء على الولايات الشمالية لبلاد فارس وكيف استرد الفرس هذه الولايات فى عهد نادر شاه .

وكان للانجليز علاقات تجارية بالفرس منذ استيلائهم على هرمز ولما احتل الفرنسيون مصر أراد الانجليز أن يقووا علاقاتهم السياسية والتجارية بفارس فبعثوا

بممثلهم « ملكولم » إلى طهران لعقد اتفاق تجارى مع الشاة وإبرام معاهدة يتعهد فيها الشاه بمديد المساعدة للدفاع عن الحدود الشمالية الغربية للهند فى مقابل أن تمده انجلترا بالعون والمساعدة إذا وقع عدوان على بلاد فارس .

ولما وقع النزاع بين روسيا وفارس بحث الشاة عن حلفائه الانجليز فلم يظفر بعونهم فأدار وجهه إلى الفرنسيين الذين شجعوه على حرب الروس الذين كانوا يحاربونهم بدورهم فى أوربا ولكن نابليون عقد صلح « تلست » مع القيصر عام ١٨٠٧ سمح فيه القيصر لنابليون أن يطلق يده فى أوروبا كما سمح له نابليون أن يطلق يده فى آسيا . ووجد الشاه نفسه وحيدا أمام تفرغ الجيوش الروسية له ، ولكن انجلترا توسطت بين الدولتين وعقد صلح « جلستان » عام ١٨١٣ بينها ، ومهد هذا للتقارب من جديد بين انجلترا وفارس وأبرمت الدولتان اتفاقا عسكريا عام ١٨١٤ تتعهد فيه فارس بمنع أى قوه أوربية من الأقتراب إلى الهند عن طريق أراضيها وأن لا ترتبط بأى اتفاق مع دولة أخرى يمكن أن يسىء إلى المصالح البريطانية أو يتعارض معها وأخذت انجلترا على عاتقها تنظيم الجيش الفارسى وتقوية مركز الشاه السياسى حيال جيرانه وأن تساهم فى الدفاع عن فارس ضد أى عدوان خارجى كما تعهدت بإعانة حكومة الشاه بمائة وخمسين ألفا من الجنيهات طالما لا تشترك أو تقوم بأى حرب عدوانية .

وقد أوقفت الحكومة الإنجليزية هذه المعونة المالية لفارس عندما أعلن الشاه الحرب على روسيا بغية استعادة اقليم جورجيا ووقفت انجلترا من هذه الحرب موقفا سلبيا وأصدر ممثلها فى طهران « سيرجون مكدونالد » أمره إلى الضباط الانجليز فى جيش الشاه بعدم الاشتراك فى الحرب ولعب دورا كبيرا فى الصلح بعد هزيمة الفرس واندحارهم أمام الروس . واضطر الشاه إلى ابرام معاهدة تركمانجاى عام ١٨٢٨ اعترف فيها للرعايا الروس فى فارس بامتيازات عديدة كان أهمها حق روسيا فى محاكمة رعاياها فى فارس دون أن يكون لرعايا فارس فى روسيا هذا الحق ، كما اعترف بتنازله عن اقليمى جورجيا وارمينيا لروسيا وخفض الضريبة التى تحصل على التجارة الروسية إلى ٥ ٪ من قيمتها الحقيقية .

وأصبحت الامتيازات التى نالها الروس فى معاهدة تركمانجاى حقا تطالب به الدول الأوربية الأخرى وحمل انجلترا على اعادة النظر فى معاهدة عام ١٨١٤ ، وبذلك توطد كيان الامتيازات الأجنبية فى فارس .

ودخلت العلاقات الروسية الفارسية بعد معاهدة تركمانجاى فى طور من الهدوء والاستقرار والتقارب استمر قرابة ربع قرن فى حين بدأت العلاقات الفارسية الانجليزية تتوتر فإن أطماع محمد شاه فى أفغانستان لم تكن موضع رضاء انجلترا وقد حمل الشاه على افغانستان واجتاحها ولكنها توسطت فى الصلح وحالت بين الشاه وتحقيق مطامعه فيها بل وحملته على تعيين الحدود بين بلاده وافغانستان .

ورأت انجلترا إزاء توتر العلاقات بينها وبين فارس أن تتقرب من الروسيا عسى أن تتفق معها على اقتسامها وتجتث بذور الشر التى تنبت فى أرض فارس وتثير فيها عوامل القلق والخوف على سلامة حدود الهند الشمالية الغربية وقواعد الخليج الفارسى من أن يهددها منافس يطأ أرض فارس ويقتحم عليها معاقل نفوذها الأصيل وكان هذا المغامر الذى تخشاه انجلترا هو روسيا فأرادت بالاتفاق معها أن تؤمن مصالحها وتحمل روسيا على الإعتراف الضمنى بهذه المصالح ، وعقدت معها اتفاقا دبلوماسيا أرسلت بعده روسيا سفيرا لها إلى أفغانستان كما أطلقت يد انجلترا فى فارس ولكن التفاهم عاد يسود علاقة فارس وانجلترا من جديد عام ١٨٤١ فقضى على هذا الإتجاه حتى تحقق عام ١٩٠٧ .

ولكن النفوذ الروسى فى فارس ظل متفوقا على صنوه الإنجليزى حتى ظفر فى النهاية بالقضاء على التفاهم الذى تم بين الدولتين ولم تكن فارس قد نسيت أطماعها فى أفغانستان فأخذت روسيا تثيرها عليها وتطلق يدها للتدخل فى شئونها وكان موقف انجلترا فى حرب القرم يدفع روسيا إلى نهج هذا السبيل كما حملت الشاه على إثارة القبائل الهندية وتحريضها للقيام ضد الأنجليز فى الوقت الذى تتقدم جيوشه عبر أفغانستان للاغارة على الهند .

وقد انهت حالة التوتر بين الدولتين بتوسط نابليون الثالث امبراطور فرنسا

بينها وعقد صلح باريس عام ١٨٦٧ — ولكن ثورة الهند لم تخمد إلا بعد ذلك بعامين — وشرعت الدولتان فى تخطيط الحدود بين افغانستان وفارس وبدأت بهذه المهمة بعثة جولد سمث ولم يتم التعيين النهائى للحدود إلا على أيدى بعثة ما كماهون فيما بين عامى ١٩٠٣ و ١٩٠٦ .

وكان ناصر الدين شاه الذى استمر يحكم حتى عام ١٨٩٦ قد أهمل شئون بلاده الخارجية لا نشغاله بمقاومة حركة البهائية التى أخذت تنتشر فى فارس فى ذلك الوقت فاستطاعت روسيا أن تقضى على كل نفوذ لفارس فى ولايات أواسط آسيا وتطردها منها نهائيا كما طالب الانجليز بتعيين الحدود بين بلوخستان الفارسية وبلوخستان الإنجليزية .

وقد فتح ناصر الدين شاه أبواب بلاده للحضارة الغربية والنفوذ الأجنبى وكان معجبا بأوربا وحضارتها أعجاب الرجل الشرقى الذى تبهره أضواؤها ومظاهرها دون أن ينفذ إلى لبها وأسرارها فاستدعى ضباطا أوربيين لتنظيم جيشه وشجع رؤوس الأموال الأجنبية على التدفق إلى بلاده فتأسس البنك الإنجليزى الامبراطورى لبلاد فارس عام ١٨٨٩ ثم بنك الخصم الروسى عام ١٨٩٠ وحصل الإنجليز على امتياز مد خطوط برقية فى فارس كما نال الروس امتياز صيد الأسماك فى بحر قزوين .

وتردت البلاد تحت أوضار الدين الأجنبى نتيجة لإسراف الشاة وساءت حالة البلاد المالية .

وقامت فى البلاد حركة للمطالبة بالدستور ولكنها لم تنجح فى البلاد مثلها فى ذلك مثل تلك الحركات المماثلة التى قامت فى مصر وتركيا فى ذلك الوقت .

واستمر التنافس بين انجلترا وروسيا قائما فى فارس حتى عقد الإتفاق الودى بينهما لتقسيم مناطق النفوذ فيها عام ١٩٠٧ ويقضى بأن تكون المناطق الجنوبية للانجليز والمناطق الشمالية للروس وأن تكون المنطقة الوسطى منطقة حياد لا تنال فيها أيهما امتياز ما .

وقد اعترفت الحكومة الألمانية بحقيقة هـذا الاتفاق عام ١٩١١ كما حملت الحكومتان الإنجليزية والروسية حكومة الشاة على الاعتراف به .

وانتهى هـذا الشوط من التنافس بين الإنجليز والروس فى فارس لعهد لم يطل فقد ظل المضمار مفتوحاً ليستقبل فرسى الرهان من جديد ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية .

الفصل السابع

المسألة المصرية

تمثل المسألة المصرية لونا من ألوان الضغط الأوربى على بلد من بلاد الدولة العثمانية كأثر من آثار الإهتمام الأوربى به ، فهى بذلك جزء من المسألة الشرقية وإن اتخذت إتجاها يخالف فى كثير من نواحيه ما كان يسيطر على تطورات المسألة الشرقية من إتجاهات ، كما كانت بداية طور جديد من أطوار الضغط الأوربى على الدولة العثمانية ، فقد ظلت المسألة الشرقية إلى نهاية القرن الثامن عشر تدور حول المشاكل الخاصة بولايات الدولة العثمانية فى أوربا ولا تتصل بولاياتها الشرقية الإسلامية وكان الخلاف الدينى بينها وبين الدولة كما كان الوعى القومى البادى فى شعوبها عاملين من أهم العوامل التى تسيطر على تطوراتها فقد كانت هذه الولايات العثمانية الأوربية تدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى ولم تكن تبعيتها للدولة تقوم على الولاء الروحى الذى يربط الولايات الأسلامية بدولة الخلافة وكانت أقرب إلى الغرب والإتجاه نحو الدول المسيحيه منها إلى الشرق والتعلق بوحدة الدولة العثمانية وقد أدركت روسيا أهمية هذا العامل فى سياستها الشرقية فاتخذت من حمايه الأرثوذكس وسيلة للتدخل فى شئون الدولة العثمانية كما أخذت تسعى إلى جمع الشعوب الصقلبية التى تعتنق المذهب الأرثوذكسى مثلها ، حولها وتحت زعامتها .

وثم كانت هذه الولايات العثمانية الأوربية أسبق إلى التطور القومى والشعور بالقومية من الولايات الأسلامية الشرقية وكانت الدول الأوربية أكثر تقديراً للتطور القومى فى الولايات المسيحية منها فى الولايات الأسلامية وكان موقفها من ثورة اليونان

غير موقفها من حركة محمد على ، فلم تر فى حركة محمد على غير محاولة لوال من وُلاة الدولة العثمانية يدفعه طموحه للأنفصال عنها أما ثورة اليونان فهى ثورة قومية للاستقلال والتحرر من سيادة العثمانيين .

حقيقة جاء التطور القومى فى الولايات الأسلامية متأخراً عنه فى الولايات المسيحية ولكن الرابطة الأسلامية العامة والالتفاف حول الخلافة وروح الأخوة التى طبع الإسلام المسلمين بطابعها قد غلبت على الشعور بالذاتية أو العنصرية بين الشعوب الإسلامية فطغت القومية الإسلامية العامة على القوميات المحلية وظل الولاء لسلطان الخليفة الروحى فى الشرق الإسلامى يطبع علاقة الولاة والحكام مهما علت قوتهم بمركز الخلافة وسيادتها الروحية ، حتى أن محمد على فى حربه للسلطان كان يؤكد دواما ولاءه له ، وينفى رغبته فى الانفصال عن الدولة ، ويعلن أنه ما قام بهذه الحرب إلا ليخلص الخلافة من عوامل الضعف والانهيار والجمود التى ألمت بها .

وعندما أخذت الروح القومية تتغلغل فى الولايات الإسلامية ، سارت وئيدة ولم تغذ فى السير إلا بعد أن فشلت محاولات الإصلاح فى الدولة ، وأهمل الأتراك مطالب القوميين من العرب فى الحكم الذاتى ، ومع ذلك لم يجرؤ القوميون العرب على الإنتقاض على سلطان الخليفة ووحدة بلاده ، وظلت محاولاتهم تدور حول الظفر بحقوق العرب فى الحكم الذاتى وإصلاح أداة الحكم فى الدولة العثمانية على أساس اللامركزية فى ظل الرابطة الكبرى التى تجمع المسلمين فى بقاع العالم الإسلامى ، رابطة الخلافة. والولاء للخليفة ، وقد ظل الضابط عزيز على المصرى . وهو من أقطاب الحركة القومية العربية ومؤسس الجمعية القحطانية وجمعية العهد يؤكد هذا المعنى فى أذهان أتباعه كما يؤكده زعماء العرب الآخرون .

هذا التباين الواضح سواء فى العقيدة الدينية أو فى التطور القومى بين ولايات الدولة الإسلامية وولاياتها المسيحية هو الذى طبع اتجاهات المسألة الشرقية فى الناحيتين كل منها بطابع خاص ، وثم كان موقف الدول الأوربية من المسألة المصرية يخالف إلى حد كبير موقفها من الولايات المسيحية العثمانية فى أوربا .

وقد اتسمت المسألة المصرية فضلا عن ذلك بسمة فريدة ميزتها عن كل ما يهم الدول الأوربية من مشاكل العالم العثمانى الأخرى ، فإن المسألة المصرية تدور فى الواقع حول اهتمام الدول بموقع مصر الجغرافى فى ملتقى المواصلات العالمية وسيطرتها على منافذ الطريق البرى إلى الهند وظلت هذه السمة تطبع المسألة المصرية بطابعها المتميز حتى الوقت الحاضر ، بعد أن أصبحت مصر أهم مركز لتجمع المواصلات العالمية من برية وبحرية وجوية .

وكانت المسألة المصرية بداية طور جديد من أطوار الضغط الأوربى على الدولة العثمانية ، فقد كان الضغط الأوربى حتى ذلك التاريخ واقعاً على الولايات العثمانية فى أوربا ثم أخذ يتجه نحو الشرق ويقع على ولايات الدولة الاسلامية ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر بداية هذا الطور فى المسألة الشرقية ، كما كانت بداية دخول عناصر جديدة أخذت تشارك فى الضغط على الدولة العثمانية وتعمل على اقتطاع أجزاء من أملاكها الواسعة بعد أن كانت تأخذ بمبدأ المحافظة على سلامتها وصونها من عوامل التفكك والانهيار ، وقد بدأت فرنسا هذا الطور وهى الدولة التى ظلت حريصة على صداقة السلطان ، والتى كان لها ولرعاياها من الإمتيازات فى العالم العثمانى مالم يكن لغيرها من الدول الأخرى ، ثم تبعتها إنجلترا فألمانيا وإيطاليا وكل منها تحدوها إلى أهدافها وسائل متباينة ، وإن لم يتباين الهدف أو تختلف الغاية .

ولقد عاشت مصر وبلدان الشرق الأدنى حتى قدوم الحملة الفرنسية بمنأى عن الاهتمام الأوربى فلم يكن هناك ما يجذب الدول الأوربية إلى الاهتمام بهذه البقاع منذ فقد الطريق البرى عبر الشرق الأدنى أهميته بتحول التجارة إلى الطريق البحرى الجديد حول أفريقيا ، ولم تكن المصالح الأوربية الحاضرة قد بدأت جولتها بعد فى تلك البلاد ، وما كانت الجاليات الأجنبية فيها ذات خطر أو شأن يذكر ، وكانت تعيش رغم ضآلة شأنها وقلة عددها تحت قيود ثقيلة فرضتها السلطات المحلية ، حتى إذا بدأ النصف الثانى من القرن الثامن عشر أخذ الأوربيون يوجهون بعض اهتمامهم إلى هذه البلاد وجاء هذا نتيجة لعوامل متعددة أهمها ما يأتى :

أولا : خرجت فرنسا من حروبها الإستعمارية والقـارية الطويلة الأمد فى عهد ملوكها العظام ، لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، وقد فقـدت الشطر الأكبر من مستعمراتها فى أمريكا والهنـد فى صلحى أوترخت عام ١٧١٣ وباريس عام ١٧٦٣ ، فأخذت تجد بحثاً عن مواطن جديدة للاستعمار تعوضها عما فقدته من مستعمرات ، وكان نداء « بيير بوافر » أحد فلاسفة الاستعمار الفرنسى فى القرن الثامن عشر يدعو إلى الاتجاه نحو الشرق فهو الميدان الجديد للاستعمار الفرنسى . ولم تلبث أنظار الفرنسيين أن اتجهت نحو الشرق نهائياً عندما تبين لهم فى السنوات القليلة التى سبقت إرسال الحملة إلى مصر ، أن مستعمراتهم فى جزر الهند الغربية تسير حثيثاً نحو الإنهيار التام .

كما كان الفرنسيون ينفسون على الإنجليز احتكارهم لتجارة الهنـد وسيطرتهم على الطريق البحرى حول افريقيا . فسعوا إلى امتلاك الطريق الآخر الذى كانت تمر به تجارة الشرق قبل ارتياد طريق رأس الرجاء الصالح وإحيائه لمنافسة التجارة الإنجليزية ، وهو طريق مصر والبحر الأحمر أو طريق الخليج الفارسى والفرات وسوريا ، وكانت مصر بموقعها الجغرافى الفريد تسيطر على طريق البحر الأحمر كما تطل من قريب على طريق الفرات ـ سوريا .

فاذا استطاعت فرنسا أن تمتلك مصر وأن تبعث الحيـاة الى الطريق البرى القديم بشق معبر مائى يصل مابين البحرين الأحمر والأبيض أمكنها أن تقضى على التفوق التجارى لإنجلترا وتهدد استعمارها للهند .

ثانياً : كانت الدول الأوربية ترقب انهيار الدولة الدولة العثمانيـة ، فقد ظهر بوضوح عقب معاهدة كجوك كينارجى شـدة الضعف الذى ألم بالعثمانيين فأخذت ترقب اليوم الذى تقتسم فيه أملاكهم وخشيت فرنسا أن تنفرد الروسيا والنمسا باقتسام أملاك الدولة العثمانية وتكون مصر من نصيب احداهما ، وكان مفهوما أن كلا منهما تتطلع الى مصر على اعتبار أنها الطريق الموصل الى

الهند ومفتاح السيطرة على تجارة الشرق ، ووقعت فرنسا تحت عاملين ، عامل الصداقة التقليدية التي تربطها بالدولة العثمانية منذ عهد ملكها فرنسوا الأول ، والمحافظة على أملاك السلطان وسلامة الدولة من الإنهيار ، وعامل الطمع في أن تنال نصيبها من التركة ، والخوف من انفراد الدولتين — الروسيا والنمسا — باقتسام أملاكها فيكون في ذلك القضاء على المشروعات الفرنسية في الشرق .

وقد اتجهت آراء الكونت دى سانت بريست السفير الفرنسي في الآستانة إلى بقاء فرنسا على سياستها التقليدية في المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، فإذا لم يكن هناك بد من انهيارها واقتسام أملاكها ، يكون على فرنسا في هذه الحالة أن تهتم بتعيين نصيبها من التركة ، وهو مصر نفسها « أخصب بقاع الأرض قاطبة » ،وكانت آراء « مور » القنصل الفرنسي في مصر تتفق مع آراء سانت بريست في امتلاك مصر وإحياء الملاحة التجارية في البحر الأحمر حتى تتحول تجارة الهند إليه ، ولا ريب أن الفرنسيين سيعملون وقتها على تذليل العقبات التي تحول دون عودة النشاط إليه واستخدامه لمصالحهم .

والواقع أن آراء بريست ومور لم تكن إلا صدى لتلك المشروعات الفرنسية العديدة التي ترمى إلى البحث عن مواطن جديدة للاستعمار الفرنسي في الشرق ، وكان مشروع استعمار مصر في مقدمة هذه المشروعات جميعاً ، وقد أشار إليه تاليران في البحث الذي ألقاه أمام هيئة المجمع العلمي الفرنسي في ٣ يوليو ١٧٩٨ قبل أن تصل الحملة الفرنسية إلى مصر بعد ذلك بعام واحد وهو الذي تقدم إلى حكومة الإدارة باقتراح تنفيذه عام ١٧٩٨ .

ثالثاً : وقد حفلت هذه الفترة في تاريخ الشرق الأدنى بظهور بعض الحكام الأقوياء الذين استطاعوا أن يستأثروا بالسلطة في بلادهم ، ولم تقو الدولة العثمانية على كبح جماحهم أو إخضاعهم ، كعلى بك الكبير وأبى الذهب في مصر والشيخ ظاهر العمر في عكا وأحمد باشا الجزار في سوريا ، وقد حرص

هؤلاء الحكام على تشجيع التجار الأجانب وعقد الصلات التجارية مع دول أوربا وعمل على بك الكبير على تأمين البحر الأحمر للملاحة وتيسير إبحار السفن التجارية فيه إلى شمال جدة ، وكان الإبحار فيها محظوراً على سفن المسيحيين ، كما فاوض البنادقة والروس حول التعاون الحربى ضد العثمانيين .

وقد اهتمت بعض الدول الأوربية بهؤلاء الحكام الأقوياء وأخذت تعقد معهم صلات المودة والصداقة ، فعقدت انجلترا اتفاقا تجاريا مع أبى الذهب عام ١٨٧٥ ، وقعه من قبلها حاكم البنغال « وارن هيستنجز » وكان قد اتصل بعلى بك الكبير من قبل ، وقد اهتمت فرنسا كما اهتمت البندقية بخبر هذا الإتفاق ، ووقفت تركيا تعارض فى تنفيذه بحجة أن الإحترام الواجب للحرمين الشريفين لا يبيح للسفن الإنجليزية الملاحة فى البحر الأحمر شمال جدة .

وقد فوضت الحكومة الفرنسية سفيرها فى الآستانة بالسعى لدى الباب العالى لفتح الطريق البرى عبر برزخ السويس للتجارة الفرنسية ، ثم أوفد السفير من يقوم بعقد اتفاق تجارى مع المماليك فى مصر ونجح فى إبرام ثلاث اتفاقيات عام ١٧٨٥ مع المماليك وملتزم الجمارك وأحد شيوخ العربان بقصد تسهيل التجارة الفرنسية وحمايتها عند مرورها فى مصر وتحديد الرسوم والضرائب التى تجبى عليها بنسب لا ترهقها .

ولم تلق مساعى الفرنسيين والجهود التى بذلوها فى سبيل إحياء الطريق البرى سواء لدى المماليك أو الباب العالى نجاحاً يضاهى هذه الجهود أو يتكافأ معها وذلك لحذر السلطان أولا من امتداد النفوذ الأجنبى إلى بلاده وتعسف المماليك مع التجار الأجانب والفوضى التى اتسم بها حكمهم وعجز السلطان عن ردعهم ثانياً ، وأخيراً مقاومة انجلترا لفكرة إحياء الطريق البرى فقد كانت ترى أن فتح طريق السويس سيعود بالخسارة على شركة الهند التجارية الشرقية ، ولم تنظر إلى الجهود الفردية التى يبذلها بعض الإنجليز أمثال بروس وبلدوين بعين الارتياح وإن شجعتها فى بداية الأمر إلا أنها كانت تعود وتقاومها وتحد منها ، فلم يمض على الاتفاق التجارى الذى

نجح بروس فى إبرامه بين حاكم البنغال من قبل الحكومة الإنجليزية وأبى الذهب فى مصر غير عامين حتى أصدرت الحكومة الإنجليزية وشركة الهند الشرقية التجارية عام ١٧٧٧ أمراً يمنع أى فرد من مستخدمى الشركة فى الهند أو المقيمين بها برخصة ممنوحة منها ، من التجارة مع أى ميناء من موانىء البحر الأحمر خارج مُخا وجدة على أن الشركة وافقت على أن يستمر استخدام هذا الطريق فى نقل البريد فقط .

وعند ما وفق بلدوين عام ١٧٩٤ فى عقد اتفاق تجارى مع المماليك لمصلحة التجارة الإنجليزية على نمط الاتفاق الذى أبرم بين الفرنسيين والمماليك عام ١٧٨٥ لم يلق هذا الإتفاق تشجيعاً من الحكومة الإنجليزية التى شغلت بالنضال الأوربى فى القارة وبالنزاع الذى نشب بينها وبين فرنسا منذ عام ١٧٩٣ وبما يتطلبه هذا النضال من جهود سياسية وعسكرية لحماية مصالحها فى الآستانة وعلى طول الطريق البحرى حول أفريقيا ومستعمرة الكاب الهولندية التى أصبحت مستعمرة انجليزية عام ١٧٩٥ ، وفى الهند ذاتها .

ومع كل هذه الجهود التى أمكنها أن تبعث نوعاً من النشاط فى تلك المنطقة من مناطق الدولة العثمانية إلا أن الركود الذى ضرب أطنابه عليها ظل هو الغالب وبقيت بعيدة عن تيارات السياسة الأوربية ونشاطها العارم حتى قدوم الحملة الفرنسية على مصر وبداية الاهتمام الأوربى الذى طبع هذا البلد بطابعه الفريد فى السياسة والاستراتجية والتطور الحضارى أو بالتالى بداية المسألة المصرية .

الحملة الفرنسية وظهور المسألة المصرية :

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر غير دور عنيف من أدوار السياسة الفرنسية فى الشرق الأدنى لتحقيق مشروعها القديم فى استعمار مصر والشرق وأحياء الطريق البرى للقضاء على التجارة الإنجليزية التى تحتكر الطريق البحرى حول أفريقيا وضرب النفوذ الإنجليزى فى الهند وبسط نفوذها عليها .

وقد قدرت انجلترا منذ اللحظة الأولى خطورة هذه الحملة وأخذت تعى منذ

ذلك التاريخ أهمية موقع مصر وخطره على مواصلاتها الإمبراطورية ولم تكن تلقى بالا إلى أهمية هـذه المنطقة من قبل ، وبينما كانت فرنسا تفكر فى احتلال مصر كانت انجترا قد نفضت يدها من الإهتمام بها وأغلقت قنصليتها فيها عام ١٧٩٣ .

ووقفت انجلترا من الحملة الفرنسية على مصر منذ بدايتها موقفاً يدل على إدراكها الـكامل للخطر الجديد الذى يتهددها من سيطرة فرنسا ذات المشروعات الاستعمارية الواسعة على تلك البلاد التى وضحت أهمية موقعها الاستراتيجى عن ذى قبل . فأخذت تعمل على فشلها وتضع العراقيل أمامها حتى يأتى الوقت المناسب لطرد الفرنسيين منها . وكان أول جهد لها فى سبيل ذلك ما قام به الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسن من تحطيم أسطول الحملة فى المياه المصرية ولما يمض شهر على نزول الفرنسيين بالبلاد.

واطمأنت إنجلترا إلى عواقب انتصارها فى معركة أبى قير البحرية أو معركة النيل كما يسميها الإنجليز واكتفت بحصار الشواطىء المصرية بحرا وتركت أمر إخراج الفرنسيين إلى الأتراك ولم تتقدم لعونهم إلا بعد أن فشلوا أكثر من مرة أمام الفرنسيين .

وكان من نتائج الحملة الفرنسية على مصر أن تعرضت العلاقات التركية الفرنسية التى أتسمت طوال العهود السابقة بالصداقة والود ، للانهيار ، وخشى السلطان أن تكون الحملة مقدمة لمشروع أوربى عام لغزو بلاد الدولة العثمانية ، ولـكن ما أن أعلنت انجلترا عداءها السافر للحملة وحطمت الأسـطول الفرنسى فى أبى قير حتى اطمأن إلى وجود حليف قوى بجانبه فأعلن الحرب على فرنسا .

وكانت الحملة سبباً فى اقتراب الروسيا من تركيا ومهادنتها لها بعد العداء الطويل الذى طبع علاقتهما فى الماضى فقد خافت روسيا أن تنفرد فرنسا بتصفية المسألة الشرقية لحسابها فعرضت صداقتهـا على الباب العالى وكانت ترمى إلى تحقيق هدفين لا يخرجان عن سياستها التقليدية حيال الدولة العثمانية فى الماضى ، أولهما أن تعمل على فشل مشروعات التوسع الفرنسى وثانيهما أنه يمكنها تحت ستار الصداقة الجديدة أن تبسط نفوذها الفعلى على سياسة الباب العالى وتحقق مشروعاتها القديمة بالوسائل السلمية ولـكن السلطان ما كان يطمئن أبداً إلى نوايا الروس فاكتفى بمحالفتهـم وأعلنت روسيا تأييدها للباب العالى واشترك الأسطول الروسى مع الأسطول الإنجليزى فى نشاطه البحرى ضد الفرنسيين .

وقد ظلت انجلترا على سياستها السلبية حيال الفرنسيين فى مصر واكتفت بحصار الشواطىء المصرية وتركت أمر قتالهم للعثمانيين والمماليك . وقد أعلن الباب العالى الحرب على الفرنسيين وأزمع إرسال حملتين إلى مصر إحداهما عن طريق الشام لغزو مصر من ناحية الشرق والثانية تقوم من رودس تعززها القوات البحرية الإنجليزية لغزو البلاد من الشمال ، فرأى نابليون أن يبادر بغزو الشام ليحطم القوة العثمانية التى تتكون بها قبل أن يتم إعدادها ، هذا إلى أن الدفاع الطبيعى عن مصر يكون فى بلاد الشام ، ثم أن استيلاء الفرنسيين على ساحل الشام يحرم الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض المتوسط من عدة قواعد تموينية هامة فيضعف حصاره للسواحل المصرية .

وقد اكتسح نابليون مدن الساحل حتى وقف أمام عكا التى صمدت أمام جبار الحروب ونالت شهرتها التاريخية بتلك الوقفة الرائعة التى وقفتها ولكن نابليون استطاع أن يوقع بالقوة العثمانية ويمزقها فى تل طابور ، ورأى وقد حقق هدفه الأول من حملته على الشام أن يعود إلى مصر ، وعاد فى الوقت المناسب ليحطم القوة العثمانية التى وصلت من رودس فى معركة أبى قير البرية .

ويجدر بنا أن نشير إلى ما دونه نابليون فى مذكراته وهو فى منفاه بجزيرة سنت هيلانة وصور فيها حملته على سوريا كمقدمة لمشروع ضخم هو فتح الهند وأنه لولا فشله أمام عكا لقرع أبواب الهند فى مارس عام ١٨٠٠ ، وقد قيل بصدد هذه الحملة أيضاً أن نابليون كان يرمى إلى اقتحام معابر الأناضول إلى الآستانة ثم يخترق شرق أوربا ووسطها حتى يصل إلى فرنسا ويكون قد قام بذلك بما لم يقم به جبار من جبابرة الحرب فى التاريخ ، ولكن مما لا ريب فيه أن حملة نابليون على الشام كانت تهدف قبل كل شىء إلى تأمين سلامة مصر وتوطيد الحكم الفرنسى فيها .

وقد رأى كليبر الذى تولى قيادة الحملة بعد عودة نابليون إلى فرنسا أن يفاوض العثمانيين للجلاء عن مصر وقد أذن له نابليون بذلك فى التعليمات التى تركها له كما أن كليبر كان يعتقد أن فرنسا فى حروبها القارية فى حاجة إلى سيوف أبنائها ، وقد استطاع أن يبرم معهم اتفاقية العريش وتقضى بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل عدتهم وعتادهم على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى البحر .

وشرع الفرنسيون فى الجلاء ولكن الحكومة الإنجليزية رفضت اتفاقية العريش أو يسلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب ، ولم تكن انجلترا فى ذلك الوقت من عام ١٨٠٠ تشجع جلاء القوات الفرنسية عن البلاد فإن وصولهم إلى فرنسا سيعزز دون شك قواتها التى تحارب فى القارة .

ولكن موقف انجلترا عام ١٨٠١ لم يعد كموقفها عام ١٨٠٠ عندما أبرمت اتفاقية العريش ، فقد أوشكت حرب القارة على نهايتها عندما انسحبت روسيا من الحرب واضطرت النمسا لعقد الصلح وبدا للعيان أن وجود القوات الفرنسية فى مصر سيكون ورقة رابحة تساوم بها فرنسا فى عقد الصلح النهائى ، وكان أن قبلت انجلترا خروج القوات الفرنسية وأذنت بإصدار جوازات لمرورها فى البحر المتوسط ورفض مينو الذى تولى قيادة الحملة بعد مقتل كليبر هذا العرض وكان من أنصار البقاء فى مصر .

ولم يعد أمام الإنجليز وقد رفض الفرنسيون الجلاء وفشل العثمانيون فى إخراجهم قوة وقهراً من قبل ، إلا أن يساهموا مساهمة حربية بالإشتراك مع العثمانيين فى إخراجهم من البلاد وانتهت هذه الحملة المشتركة التى رتبت الهجوم على مصر من نواح متعددة بهزيمة الفرنسيين الذين قبلوا الجلاء أخيراً بشروط اتفاقية العريش فى سبتمبر عام ١٨٠١ .

وغادر الفرنسيون مصر بعد أن أظهرت حملتهم عليها أهمية موقعها الجغرافى وكانت انجلترا أكثر الدول اهتماماً بذلك فعملت على أن تحول دون وقوعها فى يد دولة غربية أخرى وكان هذا بداية ما عرف فيما بعد باسم المسألة المصرية .

واتفقت الدول الأوربية فى معاهدة أميان عام ١٨٠١ على أن تعود مصر إلى الدولة العثمانية وكان قد نص على ذلك فى المعاهدتين التى أبرمتهما تركيا مع كل من روسيا وإنجلترا من قبل على أثر وصول الحملة الفرنسية إلى مصر ، وقد أصرت فرنسا فى معاهدة أميان على جلاء القوات الإنجليزية التى ما زالت تحتل بعض المراكز فى مصر وتباطأت انجلترا فى تنفيذ ذلك الشرط عامين آخرين فقد كانت ترى أن الموقف الدولى لم يستقر بعد كما كانت تخشى عودة الفرنسيين إلى احتلال مصر وليس

بها من وسائل الدفاع الكافية ما يستطيع الصمود حتى إلى أن تصل النجدات لها من القواعد الإنجليزية القريبة ولم تكن تثق فى قوة تركيا أو قدرتها على الدفاع عنها أو حتى حكمها حكما مستقراً وإن كانت ترى فى المماليك قوة قد تجدى إذا أحس تنظيمها وتدريبها ورفضت الجلاء عن مالطة حذراً من ذلك وخالفت بذلك شرطاً آخر من شروط معاهدة أميان مما كان سبباً فى تجدد الحرب بينها وبين فرنسا فيما بعد .

وقد غادر الإنجليز مصر عام ١٨٠٣ بعد إلحاح متواصل من الفرنسيين ولما يطمئنوا إلى استقرار أداة الحكم فيها والقوة التى تحميها من الغزو الأجنبى فلم يغفلوا الاهتمام بمصيرها لاسيما وإن مخاوفهم من عودة الفرنسيين كانت تثار من وقت لآخر .

أما الفرنسيون فلم يغفلوا مشروعاتهم الاستعمارية فى مصر والشرق وإن لم يدخلوا مصر فى نطاق تفكيرهم الجدى فى ذلك الوقت فقد شغل نابليون بميادين أعظم شأنا شهدت أروع انتصاراته التاريخية على بروسيا والنمسا كما كان يهدف إلى التقرب من تركيا وانتزاعها من براثن النفوذ الانجليزى فلم يفكر فى احتلال مصر حتى لا يغضب السلطان بل أنه على العكس كان يؤازر السلطان ضد المماليك كما كان يلح على الانجليز بالجلاء

محمد على والمسألة المصرية

وفى غمار الأحداث التى توالت على مصر عقب جلاء الفرنسيين استطاع محمد على أن يقفز إلى أريكة الديار المصرية وأن يوليه الشعب قبل أن يوليه السلطان ولم يكن جديدا على الدولة العثمانية أن يقوم وال طموح لينفرد بالسلطة ويفرض سلطانه القوى على الأحداث الجارية فى ولايته بعيدا عن توجيه السلطان أو إرشاده أو التأثر بنوع الحكم الذى يسوس الدولة ويسيرها فقد شهدت مصر كما شهدت بعض الولايات الأخرى ألوانا من هؤلاء الولاة الأقوياء الذين فرضوا سلطانهم على ولاياتهم بل وتطلعوا إلى الإنفصال عن الدولة والخروج على السلطان ، بل الجديد أن محمد على كان يختلف عن هؤلاء الولاة جميعا فقد قدر منذ اللحظة الأولى أهمية الولاية التى

ساقه القدر إلى حكمها وأدرك منذ اللحظة الاولى تلك القوى الكمينة فى أرضها وشعبها أكثر مما أدركها غيره من الولاة فعمل على بعثها والإفادة منها لدعم آماله وتحقيق أحلامه فيها . وقد امتدت آماله منذ البداية إلى تحقيق كيان خاص له ولأسرته فى مصر فأخذ يعمل فى سبيل ذلك سواء فى الداخل بجهوده المتصلة فى إصلاح البلاد ورفع مستواها وتنظيم ودعم القوة العسكرية التى تسنده وتخدم أعراضه ، أو فى الخارج بجهوده السلمية والسياسية لدى الدول الأوربية والسلطان نفسه أوجهوده الحربية التى قام بها لتحقيق أهدافه قبل أن يقوم بها تلبية لأوامر السلطان ولم يتوان على الإصطدام بالسلطان عندما وجد أن آماله لاتتحقق إلا إذا حمل السلطان على الاعتراف بها .

وكان هذا الكيان الخاص الذى ينشده محمد على له ولأسرته فى مصر أن يستقل عن الدولة العثمانية ويتابع جهوده الإقتصادية والإدارية والحربيه فى مصر غير مقيد بتبعيته للسلطان أو أداء الجزية له فإن لم تسمع الظروف بتحقيق هذا الاستقلال فلامعدى من الإعتراف بسيادة الدولة الاسميه على أملاكه على أن يمنحه الباب العالى الضمانات الكافية لبقاء حكمه وحكم أسرته من بعده والاستقلال بأدارتها .

وكان محمد على يقدر الظروف المحيطة به والعوائق التى تحول بينه وبين أهدافه كما كان يقدر فائدته من الأرتباط بالدولة العثمانية أو الانفصال عنها تقديراً تاما ولم يكن يجهل قوة الدول الأوربية وأطماعها السافرة فى الشرق القريب أو البعيد وقد وجهت الحملة الفرنسية أهتمام السياسة الأوربية إلى مصر وإن لم تنشأ بها بعد تلك المصالح الأوربية التى سيكون لها أقوى الأثر فى توجيه المسألة المصرية .

وقد استطاع محمد على أن يحقق سياسته الداخلية تحقيقا يرضى طموحه وأهدافه البعيدة فأصلح الإدارة ونهض بالتعليم والزراعة وتوسع فيهما وأنشأ المصانع الكبيرة وقام على تزويدها بالآلات والعمال والخامات وخلق قوة عسكرية على أحدث الأنظمة الأوربية وأغراه ضعف الدولة العثمانية بالتوسع خارج حدود مصر وفقا لسياسة رسمتها أهدافه البعيدة فقام بفتح السودان وضم إلى حكمه بلاد العرب وكريت وأخيراً بلاد الشام بعد حربه الأولى مع السلطان وإبرام صلح كوتاهية عام ١٨٣٣ . وكان

يرمى من وراء ذلك إلى تكوين وحدة اقتصادية من هذه البلاد تستطيع أن تفى بمطالبه العديدة وتقلل اعتماده على موارد مصر وحدها اقتصادية كانت أو بشرية .

ولكنه لم يصل بعد الى أقرار علاقته بالسلطان إقراراً نهائيا ولم يستطع أن يحقق كيانه السياسى بعد مع الدول الأوربية على أساس الإعتراف بالأمر الواقع ومعنى ذلك أن تعترف بقيام دولة جديدة فى ذلك الركن من الشرق الأوسط تتمتع بقوة برية مهيبة وتتسلط على منافذ الطرق التجارية القديمة .

ولكن الدول الأوربية لا ترضى بقيام هذه الدولة سواء منها مايدين بسلامة الدولة العثمانية أو يعمل على اقتسامها . وكل منها تحدوها اعتباراتها الخاصة ومصالحها الذاتية وإن كانت تتفق جميعاً فى مقاومة محمد على والحد من أطماعه .

وكانت إنجلترا أول الدول أهتماما بعلاقة محمد على بالسلطان والدولة العثمانية وامتداد التوسع المصرى إلى مناطق تراها حساسه بالنسبة لها .

أما من حيث علاقة محمد على بالسلطان والدولة العثمانية فإن إنجلترا لم تؤمن مطلقاً بمحمد على رغم مابذله من جهد فى التقرب إليها والدعاية لاعماله الإصلاحية فى مصر ونهوضه بها ولم تفقد الأمل بعد فى قوة الدولة العثمانية وقدرتها على النهوض فتركن إلى محمد على ودولته الناشئة وتتخلى عن تأييد الدولة العثمانية ولها ماضيها الطويل الحافل بالقوة والسلطان .

ثم أن محمد على بدلا من أن يكون أداة قوة للدولة العثمانية قد أصبح أداة ضعف لها وأخذ يقتص من أملاكها ويهددها بالإنهيار مما دفع بالسلطان الى أحضان الروس وقبول مساعدتهم كما اعترف بها فى معاهدة هنكيار سكلسى ، ومعنى هذا أن السلطان قد وضع الدولة العثمانية تحت حماية روسيا ومهد للنفوذ الروسى أن يتغلغل فيها ، كل ذلك بسبب محمد على ، كما كانت تحذر من علاقاته الودية بفرنسا ، واعتقد كثير من الإنجليز أن محمد على ليس إلا أداة طيعة فى يد النفوذ الفرنسى ، وأن على انجلترا أن تواجه ظروف الموقف فى الشرق الأدنى بما تراه هى نفسها ، وأن تعتمد على قوتها فحسب للمحافظة على مصالحها فى تلك المنطقة .

وأما من حيث امتداد التوسع المصرى الى مناطق تهمها وتعنيها ، فإن ذلك قد أثار مخاوفها وأيقظ مكامن الحذر منها فهى لا تطمئن الى طموح هذا العاهل الداهية الذى أصبح يسيطر على أهم الطرق البرية والبحرية بين الشرق والغرب ، فقد صار الى يده طريق الفرات — سوريا بعد أن امتلك البلاد الشامية كما أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية ، وإن كانت انجلترا ما زالت تعتمد فى مواصلاتها على الطريق البحرى حول افريقيا الا أنها ما كانت تغفل أبداً سلامة الطريق البرى القديم وأهميته الاستراتيجية كطريق اقتراب جيد الى الهند ، فإنها لم تحارب الفرنسيين فى مصر إلا لهذا الاعتبار فحسب ، ثم انها تخشى أن يدفع محمد على طموحه للاستيلاء على العراق الذى يطل على الخليج الفارسى ، ويقع على رأس أقرب الطرق البرية والبحرية إلى الهند .

ومن ناحية أخرى وصل التوسع المصرى إلى شواطىء شبه جزيرة العرب فى الشرق فى الوقت الذى أخذت تعقد فيه صلات الود مع سلاطين وشيوخ الإمارات العربية على الخليج الفارسى والساحل العمانى لمحاربة القرصنة ومقاومة تجارة الرقيق فلم تتوان عن أن تنذر محمد على بضرورة الإبتعاد عن هذه المناطق حينما علمت بالمفاوضات الدائرة بين خورشيد باشا الحاكم المصرى فى بلاد العرب وأمير البحرين للاعتراف بالسيادة المصرية وجاء هذا الانذار قبيل نهاية الحكم المصرى فى بلاد العرب عام ١٨٤٠ .

وفى الجنوب وصل التوسع المصرى إلى حدود اليمن ومدخل البحر الأحمر وعقد محمد على معاهدة مع أمام اليمن استولى بمقتضاها على ساحل اليمن ومينائيها الشهيرين مخا والحديدة وهال انجلترا هذا التوسع والإمتداد نحو العقد الهامة فى مواصلاتها الإمبراطورية فعملت على أن تسبقه فى هذا الاتجاه واحتلت عدن عام ١٨٣٩ وكانت قد احتلت بريم عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وعقدت صلات الود مع سلطان حضرموت واكتفت بذلك بعد خروج الفرنسيين من مصر ولكن اقتراب محمد على من هذه الأماكن قد أثار مخاوفها من جديد فأخذت تدس الدسائس للحكم المصرى وتثير القبائل عليه وأخيرا احتلت عدن ولم تجل عنها بعد زوال الحكم

المصرى من بلاد العرب ، وظلت تحرس منها مدخل البحر الأحمر وتطل على البحار الجنوبية وترقب الأحداث فى تلك المنطقة التى أصبحت تعج بالحوادث وتتري بالاحتمالات وجعلت منها أهم محط يأوى اليه أسطولها ويتزود بالفحم كما تفكر فى الوقت الحاضر أن تنشىء فيها معملا لتكرير البترول وخاصة بعد أن أخذت مصالحها البترولية فى ايران تتعرض للخطر .

وبنت انجلترا سياستها حيال محمد على على أساس المحافظة على سلامة الدولة العثمانية سواء فى الشرق أمام هذا العاهل أو فى الغرب أمام طمع الروس ، وأخذت تعمل على رده إلى حدود مصر وتقليم أظفاره حتى لا يكون له من القوة ما يهدد مصالحها التى أخذت تتضح وتبين فى تلك المنطقة من مناطق الشرق وترى فى الحد من سلطانه حدا لامتداد النفوذ الفرنسى إلى هذه المناطق الحساسة .

أما فرنسا ولها أطماعها القديمة فى الشرق فقد رأت فى قيام محمد على فى مصر ما يمهد لنفوذها إذا استطاعت أن تربط هذا العاهل برباط الصداقة الفرنسية وبادلهم محمد على ودا بود فأحسن استقبال الفرنسيين فى حكومته واستعان باللوائح والنظم الفرنسية فى التعليم والجيش وأوفد أكثر بعوثه العلمية إلى فرنسا ومده الفرنسيون بالفنيين من أطباء ومهندسين وضباط ومعلمين للنهوض بحركته الإصلاحية فى دولته الناشئة فقد كانوا يرون فيه شبيها بعاهلهم المحبوب نابليون بونابرت .

ولم تكن فرنسا حريصة كل الحرص على سلامة الدولة العثمانية رغم علاقات الود التى تربط بين الدولتين منذ عهد طويل إلا إذا كان من وراء ذلك ما يهدد مصالحها وأطماعها فى الشرق ويمهد لدولة أخرى أن تسبقها فى هـذا الميدان فقد تجاهلت هـذا المبدأ عندما أقدمت على احتلال مصر عام ١٧٩٨ وعندما احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ ولكن ما أن يبدأ الخطر الروسى يدق أبواب الآستانة ويقترب من البواغيز حتى تهب دفاعا عن سلامة الدولة العثمانية وانقاذها من الخطر وتحول بين الروسيا والإقتراب من مناطق نفوذها المرتقب .

وقد تأثرت سياستها حيال المسألة المصرية فى عهد محمد على بهذين العاملين عامل

الصداقة التى تربطها بعاهل مصر وأمانيها فى الشرق التى تأمل أن تحققها على يديه، وعامل الخوف من أن يهدد توسع محمد على السلم الأوربى ويتيح للروسيا فرصة السيطرة على الدولة العثمانية وكانت ترى للتوفيق بين هذين العاملين المتضاربين أن تترك للسلطان ومحمد على أن يصفيا مشاكلهما سويا دون الالتجاء إلى الدول أو تدخل أحداها بينهما .

وقد رأت روسيا فى الخلاف الذى نشب بين السلطان وتابعه فرصة للتقرب من السلطان وحمايته من عدوان تابعه فتحقق بذلك ما لم تحققه لها الحرب وتستطيع أن تبسط حمايتها وسيطرتها على الدولة العثمانية والبواغيز ما شاءت علاقات الود أن تبسط لها فى آمالها ، وعقدت معاهدة هنكيارسكلسى وهى تتوخى هذه الغاية وتنشد هذا السبيل .

ولكن انجلترا وفرنسا كانتا أكثر وعياً للخطر الجديد الذى يهدد الدولة العثمانية من السلطان نفسه ولم تكن روسيا تجهل موقف الدولتين من سياستها الشرقية وكانت تدرك أكثر من هذا رغبة فرنسا فى أن تسوى المسألة المصرية تسوية محلية بين السلطان وتابعه دون تدخل الدول وهى لا ترضى ذلك كما لا ترضاه انجترا أيضاً وهى تحب أن تفوت على فرنسا غايتها فتعلن رغبتها فى الإشتراك مع الدول فى تسوية النزاع بين محمد على والسلطان وعدم تمسكها بمعاهدة هنكيارسكلسى وأرتاحت إنجلترا إلى مسلك روسيا فأخذت توثق علاقاتها بالنمسا وبروسيا ولم تعد تأبه بموقف فرنسا فقد كانت تؤمن أن مشاكلها الداخلية تحول بينها وبين مساعدة محمد على مساعدة فعالة قد توقعها فى نزاع تتحاشاه مع الدول الأوربية .

وأخذت إنجلترا تتزعم مجمع الدول الأوربية وتوجهها إلى الغاية التى ترضاها من التدخل بين السلطان وتابعه حتى تضمن رد القوة المصرية التى أخذت تنتشر فى مناطق تهدد مصالحها ونفوذها فيها ، إلى داخل الحدود المصرية .

وأرسلت الدول المذكرة المشتركة عام ١٨٣٩ إلى الباب العالى لمنع الاتفاق بين محمد على والسلطان رأساً . وأعلنت معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وهى تقوم على مبدأ المحافظة

على سلامة الدولة العثمانية والإعتراف لمصر بمركز خاص داخل الكيان العام للدولة العثمانية .

وقد رأت الدول أن تكون مصر لمحمد على يحكمها وأسرته من بعده وأن يكون له حكم جنوب الشام مدى حياته فإذا لم يقبل ذلك خلال عشرة أيام نزعت منه الأراضى الشامية فاذا استمر فى الرفض لمدة عشرة أيام أخرى نزعت منه مصر وعملت الدول على إخضاعه لمشيئة السلطان .

ورفض محمد على ما عرضته الدول أملا فى مساعدة فرنسا وفشل التحالف الأوربي ولكن تقاعس فرنسا عن نصرته وتمسك الدول بنصوص معاهدة لندن حملتاه على الرضى والقبول وخاصة بعد ما لجأت الدول إلى القوة فى تنفيذ مطالبها وهاجمت شواطىء الشام وأنزلت قواتها فى سوريا .

وصدر فرمان فبراير عام ١٨٤١ بعد أن أكد محمد على خضوعه للسلطان ولكنه اعترض على بعض نصوصه واضطر الباب العالى تحت ضغط الدول الأوربية إلى تعديل الفرمان بما يرضى محمد على وفى ٢٢ مايو وافقت الدول على نص الفرمان المعدل وفى ١٠ يونية تلى الفرمان رسمياً فى قصر محمد على ، وحقق محمد على ما كان ينشده لمصر ولأسرته من كيان خاص وإن كان دون ما أمل بكثير .

وارتبطت مصر منذ ذلك الحين بالأساس العام للتسوية التى تمت بين محمد على والسلطان والتى فرضتها الدول فى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، وصدر بها الفرمان المعدل عام ١٨٤١ ، وظلت هذه التسوية أساساً لكيان مصر الدولى حتى انتهت فعلا بإعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤ وقانوناً بتنازل تركيا عن سيادتها على مصر فى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ .

ولا يفوتنا أن نستعرض أسس هذه التسوية ومظاهرها العامة لما لها من أهمية فى تاريخ المسألة المصريه خاصة وفى تاريخ مصر الحديث عامة .

وأول ما نراه أن هذه التسوية قد أكدت السيادة العثمانية على مصر فالسلطان هو الذى يصدر فرمان الولاية على مصر وإن قيد هذا الحق بما نص عليه فرمان ١٨٤١ من أن تكون الولاية لأرشد أبناء الأسرة العلوية كما حدد الفرمان مقدار



الجزية التى تدفعها مصر للباب العالى ولم تكن لها حدود من قبل وكثيراً ما امتنع المماليك عن أدائها متعللين بأعذار واهية وأصبحت قوة مصر العسكرية جزءا من القوات العثمانية ينجد بها الوالى السلطان كلما دعت الحاجة إلى معونتها وقد اشتركت القوات المصرية فيما بعد فى الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد روسيا كما اشتركت فى إخماد الثورة التى قامت فى كريت ضد الحكم العثمانى .

ومن آثار هـذه التسوية أن تمتعت مصر العثمانية لأول مرة بحكم مستقر تحت قيادة أسرة مالكة أمكنها أن تتابع جهودها الإصلاحية والعمرانية دون تدخل من الباب العالى .

وقدتمت هذ التسوية كما رأينا بعد تدخل الدول فى النزاع بين محمد على والسلطان ، وإن صدرت بها فرامانات سلطانية إلا أنها استمدت أصولها ونصوصها من معاهدة لندن فاكتسبت صفة دولية ولم تعد مسألة محلية لاتهم غير السلطان وتابعه وأصبح الكيان الذى كسبته مصر داخل الدولة العثمانية مرتبطا بقرارات دولية فلم تستطع الدولة العثمانية فيما بعد أن تنتقص من هـذا الكيان الخاص الذى كسبته مصر رغم محاولاتها العديدة .

وظلت الدول الأوربية ترقب تطور الأحداث فى تلك المنطقة وتوالى نشاطها ومشروعاتها التقليدية فيها حتى واتتها الفرصة للتدخل فى شئون البلاد عندما اضطربت ماليتها فى عهد اسماعيل ، ذلك التدخل الذى أخذيشتد ويعظم ويطبع المسألة المصرية بطابعه الخاص حتى انتهى بالاحتلال البريطانى للبلاد عام ١٨٨٢ .

من محمد على إلى الاحتلال :

اتسمت هذه الفترة من تاريخ المسألة المصرية بنوع من السكون لم يخل من فورات تهب لتعكر صفوهذا السكون وتثير عوامل القلق والخوف على مصير التسوية التى انتهت إليها المسألة المصرية بعد الأزمة التى ثارت بين السلطان وتابعه ودعت الدول الأوربية للتدخل .

ولم يدم هـذا السكون طويلا حتى جد من العوامل فى عهدى اسماعيل وتوفيق ما دفع الدول إلى النشاط والتدخل فى شئون مصر الداخلية ذلك التدخل الذى انتهى بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ .

وقد تأثرت المسـألة المصرية فى تلك الفترة التى أعقبت صدور الفرمان المعدل وموافقة الدول عليه ورضـاء محمد على به فى صيف عام ١٨٤١ ، بعدة عوامل كيفت اتجاهاتها ورسمت خطوطها منذ البداية وكان لها أوفى تقدير فى دراسة المسألة المصرية .

وأول ما نحسبه من هذه العوامل تقدير الـكيان الخاص الذى كسبته مصر فى فرمان عام ١٨٤١ ، فلم يعد هـذا الـكيان الخاص مرتبطا بإرادة السلطان ورغبة الحكومة العثمانية فحسب بل ارتبط بضمانات دولية لا يمكن الفكاك منها دون رضاء هذه الدول أو تأييدها ، وكثيراً ما تدخلت هذه الدول للمحافظة على هذا الـكيان الخاص وحمايته من تدخل الســلطان ورغبته فى إرجاع مصر إلى صف الولايات العثمانية الأخرى .

وثانيا حرص ولاة مصر على مامنحتهم تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ من حقوق إتفقوا جميعا فى تقديرها والمحافظة عليها وأن اتسمت طريقة كل منهم بمزاجه الخاص وأسلوبه السياسى ووجهة نظره فى علاج مشاكله الداخلية وطريقته فى الإصـلاح والنهوض بالبلاد وتناول علاقاته الخارجية سواء بالدولة العثمانية أو بالدول الأوربية .

وثالثا موقف الدول الأوربية من مصر والدولة العثمانية ، وقد عرفنا اهتمام هذه الدول قديماً بمصير الدولة العثمانية واهتمامها الجديد بمصر وعلاقة هـذين الاتجاهين بعضهما ببعض واتصالها بمصير المسألة المصرية فى النهاية وما أفادته مصر من اتصالها بالحضارة الأوربية والتمدين الغربى .

ورابع هذه العوامل وآخرها أثر الشعب نفسه فى كل ذلك وقد نمت قوة الشعب عن نفسها أبان الحملة الفرنسية على مصر ثم فى تولية محمد على وأخيراً فى عهد اسماعيل

حينما أخذ الوعى القومى يكشف عن نفسه مرتبطا بالنعرة الوطنية الجارفة التى بدت فى الثورة العرابية .

وترتبط هذه العوامل بعضها ببعض ولا يمكن دراستها منفصلة فقد عملت كلها فى رباط واحد من الأرض والزمن وتطور الحوادث .

وقد ظل السكون يخيم على جو المسألة المصرية فى تلك السنوات القلائل التى أعقبت تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ والتى شهدت آخر سنى محمد على وابنه وعضده القوى ابراهيم حتى ولاية عباس الذى أخذ على جده نزاعه مع السلطان ذلك النزاع الذى أفسح المجال لتدخل الدول الأوربية فعمل على توثيق روابط الود والصداقة مع الباب العالى والحد من النفوذ الأوربى .

ولكن الحوادث أخلفت مرمى عباس فما كان الباب العالى ليسلم بالمركز الممتاز الذى كسبته مصر فى تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ وعمل على النيل من تلك الامتيازات التى أصبحت لوالى مصر وإرجاع مصر إلى صف الولايات العثمانية الأخرى وما كان عباس ليقبل هذه الوضع الذى يريده له ولولايته الباب العالى وما كان ليتنازل حباً فى إرضاء السلطان عن حقوق سلم بها السلطان وأقرتها الدول .

وقد ثار النزاع بين عباس والسلطان حينما أراد السلطان تطبيق التنظيمات العثمانية على مصر وهى اللوائح والقوانين التى أصدرها السلطان عام ١٨٣٩ لإصلاح الإدارة وتحقيق العدل فى بلاده . ولم يقبل عباس تطبيقها إلا إذا عدلت بما يناسب المركز الممتاز لمصر على الولايات العثمانية الأخرى ، وفزع إلى السياسة الأوربية يستعديها على السلطان الذى يرمى إلى الإخلال بتسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ أو جانب منها دون موافقة الدول التى وقعت عليها وبعث بوزيره نوبار إلى إنجلترا يوثق علاقته بها لتكون له سنداً فيما يزمع الباب العالى من كيده وافتئات على حقوقه ، ومنح شركة انجليزية امتياز إنشاء أول خط حديدى بين الإسكندرية والقاهرة .

ولم تكن علاقة عباس بالسياسة الفرنسية على شىء من الود فقد أخذت تتوتر ويعروها الجفاء بعد أن استغنى عن الموظفين الفرنسيين فى خدمة الحكومة المصرية

وأخذ يقرب إليه الإنجليز ويوثق صلته بهم ويقرب قنصلهم مستر « مرى » منه وإن كانت جفوة عباس للأجانب عامة ، أعظم من أن تجعل لأحدهم مكانا لديه وإن كانت تجاربه قد حملته على التقرب من الإنجليز دون الفرنسيين عندما ثارت أزمة التنظيمات بينه وبين الباب العالى فلأنه كان يعتقد أن الفرنسيين لم يجلبوا على جده الكبير غير الخسران .

كما أن الفرنسيين كانوا يرون فى مشروع الخط الحديدى بين الإسكندرية والقاهرة وإصلاح طريق السويس تعطيلا لمشروعهم الذى يتبنونه ويفكرون فيه وهو شق قناة تصل ما بين البحرين الأحمر والمتوسط تحت إشرافهم جريا على سياستهم التقليدية فى إحياء الطرق التجارية القديمة عبر الشرق الأوسط لصالح التجارة الفرنسية والنفوذ الفرنسى .

ورأت فرنسا أن تتقرب من تركيا حتى تكيد لعباس وتحارب ماظنته مشروعات إنجليزية لبسط نفوذها على مصر ، وشهدت الآستانة معركة دبلوماسية بين سفراء فرنسا وروسيا والنمسا الذين وقفوا يؤيدون السلطان فى تطبيق التنظيمات على مصر وسفير إنجلترا التى تؤيد عباسا ضد تنفيذ التنظيمات بحذافيرها .

وماكان لفرنسا أن يستبد بها القلق على هذا النحو ويثور بها الخوف على سياستها الشرقية من أن تتعرض لخطر يهدد مراميها أو يحول دون تنفيذها فى النهاية فإن إنجلترا ماكانت تؤيد عباسا إلى حد الإنفصال عن الدولة العثمانية فما زالت سلامة الدولة العثمانية قاعدة أساسية لسياسة إنجلترا الشرقية وقد رفضت فى ذلك الوقت قبيل حرب القرم ما عرضه عليها قيصر روسيا من تصفية المسألة الشرقية وتقسيم أملاك الدولة العثمانية على أن تأخذ إنجلترا مصر وقبرص وكريت ، وأعلنت الحرب إلى جانب تركيا عند ما ثارت الحرب بينها وبين روسيا .

وأخذت تركيا ، وقد رأت جو المسألة الشرقية يثور ويتجهم ، تصفى خلافها مع عباس وتتقرب من إنجلترا التى أعلنت تمسكها بسياسة المحافظة على الدولة العثمانية وتوكيدها لفرنسا سلامة مراميها من تأييد عباس . وقبلت أخيراً بعد مفاوضات

جرت بين القاهرة والآستانة أن تنزل على رأى عباس وتطبق التنظيمات معدلة بما يرضى عباسا ويناسب المركز الذى نالته مصر فى فرمان ١٨٤١ ، وتلا ذلك أن أنجد عباس السلطان بخمسة عشر ألفاً من الجند وعدد من السفن وأثاب السلطان والى مصر على ذلك فأصدر أمراً فى عام ١٨٥٦ يجيز له أن يرفع عدد الجيش إلى ثلاثين ألفاً .

ولم يكن للشعب فى كل هذه الأحداث أثر يذكر وبدت شخصية عباس الجامدة المتشائمة المنطوية على نفسها واضحة فى سياسته الداخلية فأغضى عن جهود محمد على وإصلاحاته وقضى عليها فأغلقت دور العلم وأهملت حركة التأليف والترجمة واستغنى عن جهود العلماء من مصريين وأجانب وهم الذين ساهموا فى بناء دولة محمد على وبدا انطواؤه فيما بنى من قصور بعيدة نأى بها عن العمران حيث كان يطيب له أن يقضى وقته مع مماليكه وخيوله وكلابه .

ونشط جو المسألة المصرية فى عهد سعيد وإن لم يثر من النزاع الدولى ما أثاره الخلاف بين محمد على والسلطان أوما أثارته التنظيمات من أزمة بين عباس والباب العالى فقد جاء النشاط داخلياً يتعلق بسياسة الوالى وشخصيته ولا يتعرض لعلاقته بالسلطان ولا لتسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ التى أقرتها الدول ولا يهدد سلامة الدولة العثمانية بالخطر وإن رأت انجلترا فى هذا النشاط ما يمس مصالحها كما رأى الباب العالى فيه وسيلة لتوطيد نفوذه على مصر بمعارضة سعيد فى مشروعاته .

واتسم هذا النشاط بظاهرة غلبت عليه وكان لها أعظم الأثر فى تطور المسألة المصرية فقد فتح سعيد ذراعيه للأجانب دون ما روية أو يقظة أو سياسة مرسومة أو اتجاه واضح فى الوقت الذى جرت فيه اصلاحاته الداخلية مظهرية سطحية غير عميقة حتى اعتبرت سياسته الداخلية امتداداً لسياسة عباس الراكدة .

وأخذت وفود الأجانب من شذاذ الآفاق والمغامرين والباحثين عن الذهب تنثال على مصر « كما لو كانت مصر كالفورنيا جديدة » كما قال قنصل فرنسا العام فى ذلك الوقت ، يمد لهم سعيد من كرمه ورحابة صدره ولين عريكته ما أطمعهم فيه وشجعهم على

الاحتيال عليه والمطالبة بتعويضات مالية من الحكومة المصرية عن أضرار وهمية ابتكرتها مخيلتهم .

ولم يكن هذا أول عهد للأجانب بمصر فقد سبق محمد على فى الاستعانة بهم ولكنه كان قادراً عارفاً بحاجيات وطنه الجديد ملماً بطبائع الناس والحكم عليهم وتسييرهم حسبما يراه ويرتجيه فى الإفادة منهم وكان يطبعهم بطابع البلد الذى يخدمونه وينالون العيش فى رحابه .

وبدأ سعيد الاقتراض من البيوت المالية الأجنبية وتابعه فيه اسماعيل حتى تراكمت الديون على مصر وجرت عليها التدخل الأجنبى .

وكان منح امتياز قناة السويس لفرديناند دلسبس صورة واضحة المعالم لكرم سعيد ورحابة صدره نحو الأجانب ، وكان فرديناند رفيق صباه منذ كان يعمل مساعداً للقنصل الفرنسى فى مصر فى أخريات عهد محمد على كما كان أبوه قنصلا من قبل فكان فرديناند أولى الأجانب برعاية سعيد وبره وكرمه .

وعارضت انجلترا فى شق القناة وأخذت تسعى لدى الباب العالى لرفض الامتياز وكادت تنجح فى مسعاها وكان العمل فى القناة قد بدأ دون أن ينتظر سعيد موافقة الباب العالى على عقد الامتياز وصدر أمر الباب العالى بوقف أعمال الحفر فى برزخ السويس ولكن جهود دلسبس وتأييد نابليون الثالث للمشروع وتعضيد سعيد له سار به قدماً فى سبيل التنفيذ ، وشهد سعيد قبل أن توافيه منيته مياه البحر الأبيض المتوسط تتدفق إلى بحيرة التمساح فى نوفمبر عام ١٨٦٢ .

وتم تنفيذ المشروع فى عهد اسماعيل وافتتحت القناة للملاحة فى السابع عشر من نوفمبر عام ١٨٦٩ فى حفل شهده أقيال أوربا وملوكها وغطى فى بذخه على كل ماشهده العالم من ألوان البذخ والإسراف .

وبينما كان العمل يجرى فى حفر القناة كان اسماعيل يتابع جهوده العظيمة فى إقرار علاقته بالباب العالى وفى ميدان الإصلاح الداخلى والتوسع المصرى فى أفريقيا

بما يرضى أحلامه وطموحه كعاهل شرقى تعوزه إصالة التفكير الغربى ودقة التنظيم الأوربى كما يعوزه حذر جده الكبير وبعد مرماه ودقته ورقابته الواسعة على الحكم والإدارة التى شملت كل كبيرة وصغيرة فى ملكه الناشىء .

وكان اسماعيل يعتقد أن ما لم يحققه جده بالقوة وتجييش الجيوش وخوض المعارك يستطيع أن يحققه هو بالمال ولكنه لم يدرك تماماً إمكانياته وإمكانيات وطنه فى القيام بهذه النفقات الطائلة كما لم يستطع أن يقدر مدى نهم السلطان إلى أمواله وطمع البيوت المالية فى استغلال حاجته إلى المال ، فغامت إصلاحاته العظيمة وجهوده الجليلة مساوىء الدين والارتباك المالى الذى ألم به فى أخريات أيامه فى الحكم وعصف به فى النهاية ولم يقدر له السلطان كما لم تقدر له أوربا هذه الجهود العظيمة للحضارة والإنسانية سواء بشق قناة السويس أو النهوض ببلاده التى عادت بعد افتتاح القناة تستقبل الشرق والغرب على بساط أديمها المضياف وما يمكن أن يقدمه هذا البلد الذى يتوسط أهم بقعة من بقاع العالم أجمع ، للحضارة والإنسانية من خدمات .

لقد ابتاع اسماعيل كل شىء بالمال ، ابتاع تعديل عقد الامتياز الذى منحه سعيد لشركة القناة بالمال ، وابتاع عدة فرمانات من السلطان منحته بعض الامتيازات التى أتاحت له قسطاً أوفر من الحرية والاستقلال الداخلى فى مقابل زيادة الجزية خلاف الهدايا والرشاوى التى غمر بها السلطان وحاشيته ، وكان آخرها فرمان ٩ يونيو عام ١٨٧٣ ويعرف بالفرمان الشامل وقد انطوى على كل الامتيازات التى منحتها الفرمانات السابقة عدى بعض الحقوق الجديدة كحق الخديو فى وضع القوانين وحقه فى عقد اتفاقات تجارية مع الدول الأخرى وتنظيم علاقة الأجانب المقيمين فى مصر بالسلطات المحلية وحقه فى زيادة الجيش إلى العدد الذى يشاؤه ، وحقق اسماعيل لمصر استقلالا داخلياً تاماً وإن لم يستطع أن ينتقص من سيادة الدولة العثمانية على مصر تلك السيادة التى أقرتها ونظمتها تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ .

وكان لجهود اسماعيل وإصلاحاته أثرها فى إيقاظ الوعى القومى فى البلاد فقد نهضت حركة التعليم على يديه من جديد وكان النظام التعليمى الذى أنشأه محمد على قد غدا أنقاضاً على يدى عباس وسعيد وولى اسماعيل حكم مصر وليس بها سوى

مدرسة الطب والمدرسة الحربية بالقلعة السعيدية ، كما انتشرت الصحف وتعددت أغراضها وفنونها ، وبدأت أول محاولة لإصلاح الأزهر ، ثم هبط مصر مصلح الإسلام الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى فكان مدرسة زمانه فى الإصلاح الدينى والإجتماعى ورائد عصره فى الوعى القومى والسياسى .

وعملت هذه الأشياء كلها على إيقاظ الرأى العام وتنبه الوعى القومى الذى أخذ يشتد فى أخريات حكم إسماعيل وكان له أثره فى المشاركة فى الأحداث التى ألمت بمصر فى تلك الفترة وفى تطور المسألة المصرية حينذاك .

ورمى إسماعيل ببصره إلى السودان وتناولته همته البعيدة كما تناولته همة محمد على من قبل وكان قد أهمل فى عهدى عباس وسعيد . فعمل على توطيد الحكم المصرى فى ربوعه ، ومد الفتوح المصرية إلى بقاعه النائية وكشف منابع النيل ومحاربة الرقيق ولكنه اعتمد فى ذلك على الأجانب وعلى رجلين من الإنجليز على الأخص تقدما إلى خدمة الحكومة المصرية بتوصية انجليزية ، أولهما صمويل بيكر الذى كشف بحيرة البرت وبسط نفوذ مصر على جزء كبير من أفريقيا الوسطى ، وثانيهما غوردون وقد عينه الخديوى عام ١٨٧٤ حاكما على الأقاليم الإستوائية بعد بيكر ثم عين بعد ذلك حاكما عاماً على السودان وظل به حتى عام ١٨٧٩ ، ليعود إليه مرة ثانية لسحب الجيش المصرى منه وإخلائه ولكنه يلاقى حتفه على أيدى الدراويش فى الخرطوم فى ٢٦ يناير عام ١٨٨٥ .

وجاءت الأزمة المالية ورأى إسماعيل عمق الهاوية التى يتردى فيها وتلفت حواليه فلم يجد له سنداً لا من السلطان الذى غمره وغمر رجاله بالأموال والهدايا ولا من الدول الأوربية التى مد لرجالها أسباب النفوذ فى دولته ، أما الشعور القومى فلم يعد بعد أن يكون حدثاً يافعاً . ووقف إسماعيل يتلقى اللطمة وحده بلا معين أو نصير وانفسح المجال للتدخل الأوربى بأجلى مظاهره ولم يكن هذا حدثاً جديداً فى تاريخ البلاد فقد رأينا كيف تدخلت الدول الأوربية بين محمد على والسلطان وفرضت تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ على الطرفين ، وكيف كانت تتدخل فى كل ما ينشب بين الباب العالى وحكام مصر من خلاف ، ولكن هذا التدخل الذى تم فى عهد اسماعيل

قد بدأ يكشف عن اتجاهات جديدة فى السياسة الأوربية ، وإن كان هذا التدخل قد وصل إلى غايته بعزل اسماعيل عام ١٨٧٩ ، إلا أن مانم عليه من هذه الإتجاهات لم يبد واضحاً إلا عند ما احتلت القوات البريطانية مصر بعد ذلك بثلاث سنوات وتلا ذلك إصرار الحكومة الإنجليزية على إخلاء السودان وسحب القوات المصرية منه .

وقد حملت الأزمة المالية إسماعيل على بيع أسهم مصر فى شركة القناة وكانت انجلترا صاحبة هذه الصفقة الرابحة .

وبدأ التدخل الأوربى بعد ذلك عند ما أراد إسماعيل الإستعانة بخبير إنجليزى لإصلاح المالية المصرية وبدلا من أن تعاونه الحكومة الإنجليزية فى ذلك أرسلت مستر كيف لإجراء تحقيق دقيق وتقديم تقرير واف عن حالة المالية فى البلاد ، وتوالت الأحداث سريعة وأخذ التدخل الأجنبى يشتد ويعظم وعمد الخديو إلى توحيد الدين العام على الحكومة والدائرة السنية وإنشاء صندوق الدين يديره موظفون من الأجانب للاشراف على شئون الدين ، ثم جاءت لجنة جوشن وجوبير للتحقيق وقدمت تقريرها ويقضى بفصل دين الدائرة السنية وبعض القروض الأولى عن الدين الموحد وتقدير الدين الممتاز ، كما يقضى بتعيين مراقبين للمالية أحدهما انجليزى والآخر فرنسى يعاونهما موظفون من الأجانب ، ووافقت اللجنة على تكوين صندوق الدين ولكن الحال ما لبث أن ازداد سوءاً فتألفت لجنة دولية للتحقيق فى جميع شئون الحكومة المالية والإدارية ، واشتطت اللجنة فى تقدير حقوقها فاستقالت وزارة شريف بسبب ذلك وألفت وزارة نوبار وكان من أعضائها رفرس ولسون وزيراً للمالية ودبلنير وزيراً للأشغال وجاء تعيينهما سبباً فى إثارة الرأى العام وحملته على وزارة نوبار ثم كانت ثورة الضباط المسرحين من الخدمة واستقالت وزارة نوبار وتألفت وزارة الأمير توفيق واحتفظ فيها رفرس ولسون ودبلنير بوزارتيهما ولم يهدأ رفرس ولسون عن الكيد للخديو وإثارة المتاعب أمام رئيس الوزارة وأخذ يعد مشروعاً بإعلان إفلاس الحكومة المصرية .

وعلم الخديو بمشروع رفرس ولسون وتواتر الناس أخباره فثارت ثائرة الرأى

العام وطالب بوزارة مسئولة وعقد مجلس شورى النواب ، ودعا إسماعيل قناصل الدول وأنهى إليهم ما يشيع من سخط فى البلاد بسبب تدخل الأجانب وقدرة الحكومة على القيام بواجباتها المالية .

واستقالت وزارة توفيق وألفت وزارة شريف من أعضاء وطنيين كما جاء فى خطاب الخديو إلى شريف بتكليفه تشكيل الوزارة ، وأن تكون مسئولة أمام مجلس شورى النواب .

وعملت وزارة شريف على القيام بواجباتها حيال الدائنين مع المحافظة على حقوق الحكومة المصرية ولكن فرنسا وانجلترا احتجتا على ذلك وأخذتا تعارضان الخديو وأنذرهما بسمارك بالتدخل إذا لم يهما بحسم المسألة المصرية فما كان منهما إلا أن قررا عزل الخديو ، ورأى الباب العالى فى ذلك فرصة يؤكد فيها سيادته على مصر فأصدر أمره بعزل إسماعيل وتولية ابنه توفيق .

ونزح إسماعيل إلى إيطاليا فقد كان الأمر الصادر إليه إلا ينزل فى أى أرض عثمانية أو يقيم بها وكان يزمع الذهاب إلى الآستانة ، وبقى فى ضيافة البيت المالك فى إيطاليا حتى سمح له السلطان بالإقامة فى الآستانة فانتقل إليها حيث وافته منيته فى ٣ مارس سنة ١٨٩٥ ، ولكن جثمانه لم يحرم من ثرى مصر الحبيب فقد نقلت رفاته إليها ودفن بمسجد الرفاعى فى الثالث عشر من نفس الشهر .

وولى توفيق حكم مصر فى جو عاصف ، وقد شهد بعينيه تألب الدول الأوربية على أبيه وتنكر الباب العالى له ، وما كان يجهل أن تاريخ أسرته فى حكم البلاد قد ارتبط دائماً بهذين العاملين ، عامل العلاقة بين مصر والدولة العثمانية ، أو بين التابع ومتبوعه ، ونوع هذه العلاقة وشكلها وما لها من حقوق وما عليها من واجبات والتزامات ، ثم ضمانة الدول الأوربية لهذه العلاقة وإقرارها لها ، والعامل الثانى اهتمام الدول الأوربية وخاصة فرنسا وانجلترا بالمسألة المصرية وعلاقة كل منهما بحاكم مصر وتباين هذه العلاقة بتباين المصالح والظروف .

ثم جد عامل ثالث أخذ يكشف عن نفسه فى أخريات عهد إسماعيل ويبين عن

قوته فى عهد توفيق ويتدخل فى سير الحوادث ويطبعها بطابعه الخاص ، هذا العامل هو ظهور الوعى القومى وتطوره واشتداده فى عهد توفيق ، وتأثر المسألة المصرية بقوة هذا العامل أو ضعفه ، ولا سيما فى عهد الاحتلال البريطانى حتى الوقت الحاضر

وقد عرفنا كيف كان اتجاه الحوادث فى المسألة المصرية يتأثر إلى حد بعيد بشخصية الحاكم ، وطالعتنا هذه الشخصيات بألوانها العديدة المتباينة ، فهذا محمد على الطموح البعيد النظر الواسع الأفق والحذر الحريص وعباس المنطوى على نفسه القليل الثقة بالأحداث والرجال وسعيد اللين الكريم القصير النظر وإسماعيل العاهل الشرقى الطموح العظيم الثقة بنفسه وبالأحداث والرجال وإن كان يعوزه حسن الإدارة ودهاء العاهل ومكر الحاكم وصحة التقدير للظروف والاحتمالات ، وكانت هذه الألوان المتباينة من طبائعهم وشخصياتهم ترجع فيما أعتقد إلى ظروف المسألة المصرية وتأثرها بالعاملين الأوليين عامل الارتباط بالسيادة العثمانية من ناحية وعامل الاهتمام الأوربى بمصر من ناحية أخرى .

وكان على توفيق أن يواجه هذه الظروف مجتمعة ، كان عليه أن يواجه موقف الباب العالى الذى أراد أن يفيد من عزل إسماعيل وينتقص من الحقوق التى كسبتها مصر فى الفرمان الشامل عام ١٨٧٣ ، وكان عليه أن يواجه ماجرته الأزمة المالية من تدخل الأجانب فى شئون مصر الداخلية ، وكان عليه أخيراً أن يواجه تطور الوعى القومى وتيقظه وتطلع الشعب إلى الإشتراك فى مسئوليات الحكم وإدارته ، كان عليه أن يواجه كل ذلك ، وأن يعالج كلا منها فى حكمة وروية ، ولكن الظاهر أن توفيقاً الطيب لم يكن رجل الموقف ، وبدلا من أن يكيف الأحداث ويسوسها على هواه جرفته فى تيارها وساسته على هواها .

وأول ما واجهه توفيق من هذه المشاكل ، مسألة تثبيته فى الحكم فقد لبث مدة ينتظر صدور الفرمان الخاص بولايته وكان الباب العالى يتطلع إلى الانتقاص من الحقوق التى كسبتها مصر فى الفرمان الشامل خاصة بتنظيم وراثة العرش للابن

الأكبر وحق مصر فى عقد اتفاقيات تجارية مع الدول وعقد القروض المالية وزيادة عدد الجيش .

وقد اتفقت انجلترا وفرنسا على الاحتفاظ بتنظيم وراثة الحكم للابن الأكبر ، وأيدتا توفيقا على الأمير عبد الحليم أكبر أفراد الأسرة الخديوية والذى كان يسعى لتولى الحكم بعد إسماعيل ، وكان من مصلحتهما الإبقاء على حق الخديو فى عقد الاتفاقيات التجارية مع الدول ضمانا لحرية التجارة فى مصر ، وبفضل إلحاح فرنسا جاء الفرمان مؤيداً لهـذا الحق على أن تقوم مصر بتقديم صور الاتفاقيـات التى تعقدها مع الدول إلى الباب العالى قبل إعلانها للعلم ، وأن لاتتعارض هذه الاتفاقيات مع المعاهدات السياسية التى ترتبط بها الدولة العثمانية مع الدول الأخرى ، وقد رؤى الإبقاء على حق مصر فى عقد قروض مالية على أن تكون لتسوية الديون لا للاستهلاك والاتفاق مع الدائنين أو وكلائهم على ذلك قبل عقدها .

أما حق الخديو فى زيادة عدد الجيش فقد انتزع منه إلا فى حالة اشتباك تركيا فى حرب تستلزم معونة القوات المصرية وعاد هذا الحق إلى ما أقره فرمان ١٨٤١ خاصا بتحديد عدد الجيش المصرى . كما نص الفرمان الجديد على عدم جواز التنازل عن هذه الامتيازات أو بعضها أو جزء من الأراضى المصرية أو تركها إلى الغير ؛ وقد تم هذا التحفظ الجديد عما كان يساور البال العالى من قلق بخصوص الأراضى التى يحكمها الخديو فى مصر والسودان .

وصدر الفرمان الجديد بعد أن وافقت الدولتان على نصوصه وكانت تلاوته بالقلعة فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ .

أما مشكلة الديون فكانت أسهل حلا فى عهد توفيق منها فى عهد إسماعيل فقد سلم توفيق بالمراقبة الثنائية ، وأخذت الدول بدورها تبسط حل المشكلة ولا تثير العراقيل التى أثارتها فى عهد إسماعيل . وتكونت لجنة التصفية بقرار من الخديو برئاسة رفرس ولسون وعضوية مندوبى الدول الأربع فى صندوق الدين وضم إليها عضو فرنسى آخر حتى يكون لفرنسا عضوان أسوة بانجلترا ، وعضو ألمانى جديد

وبقى المراقبان بعيدين عن اللجنة يحضران لها العمل ويعاونان الحكومة المصرية إذا ما حاولت اللجنة أن تتشدد .

وبعد أن استعرضت اللجنة حقيقة الحال فى البلاد وضعت مقترحاتها وأخذت ضماناً من دولها بقبول قراراتها نهائياً على أن تصدر هذه القرارات فى صورة قانون توافق عليه المحكمة المختلطة بمصر . وفى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ أعلنت قرارات اللجنة وأصبحت الأساس القانونى لدائنى مصر وللميزانية المصرية ، وقدرت مجموع الدين بما قيمته ٩٨٬٧٤٨٬٩٣٠ جنيها منها :

الدين الموحد ٥٨٬٠٤٠٬٣٢٦ جنيها ، وتضمنه مصلحة الجمارك وضريبة الدخان وضرائب مديريات البحيرة والغربية والمنوفية وأسيوط بعد خصم ٧ ٪ للمصروفات والفائدة ٤ ٪ .

الدين الممتاز ٢٢٬٦٧٩٬٨٠٠ جنيها وتضمنه إيرادات السكة الحديد والتلغرافات وميناء الإسكندرية والفائدة ٥ ٪ .

دين الدائرة السنية والخاصة ٩٬٥١٨٬٨٠٤ جنيها والفائدة ٤ ٪ أو ٥ ٪ إن أمكن على أن يتولى إدارة شئونها مجلس إدارة .

قرض روتشلد ٨٬٥٠٠٬٨٠٠ جنيها .

وقررت اللجنة أن يقوم صندوق الدين بخدمة الدين الأول والثانى وجمع المال اللازم لهما ، ولا يجوز عقد أى قرض دون موافقة لجنة صندوق الدين كما قررت إلغاء دين المقابلة وتعويض أصحابه بمبلغ ١٥٠٬٠٠٠ جنيها تدفع سنويا لمدة خمسين عاما .

وكان لصدور هذه القرارات فى صورة قانون باسم الخديو أحسن الأثر لدى الدائنين كما كان له وقعه الطيب لدى المصريين فقد خفضت قيمة الفائدة على الديون وخصت الحكومة بجزء من الإيراد يصرف على شئون البلاد العامة . ولم تجز اللجنة أصحاب دين المقابلة من كبار الملاك وكان لهذا من سوء الأثر لديهم ما دفعهم إلى اتهام الخديو بالعجز إزاء تفوق النفوذ الأجنبى .

وهكذا توطد مركز الخديو حيال السلطان ثم حيال الدائنين من الأجانب ، ولكن بقى الوعى القومى الناشىء يتفاعل ويشتد ويكشف عن أواره ويعصف براحة الخديو واطمئنانه ، وزاد من حدته تدخل الأجانب المستمر فى شئون البلاد منذ أواخر عهد اسماعيل ، ثم أخذ توفيق يكشف عن نزعته الفردية فى الحكم ورفض مشروع الدستور الذى تقدمت به وزارة شريف وحملها على الاستقالة وجاءت وزارة رياض تساير الخديو فى نزعته فتلهب الشعور القومى وتغذى روح الثورة فى الجند وتتجمع العاصفة لتهب على أيدى العسكريين وقد رأينا قومتهم ضد وزارة نوبار فى أواخر حكم اسماعيل ، وتمهد هذه الظروف مجتمعة لظهور الثورة العرابية وفشلها أمام التدخل الأوربى واحتلال الإنجليز للبلاد عام ١٨٨٢ ولما يمض ثلاث سنوات على حكم توفيق .

وبدأت الحركة العرابية عسكرية فى مطالبها ومظهرها تدور حول الاحتجاج على قانون القرعة الجديد الذى صدر فى ٣١ يولية سنة ١٨٨٠ ورأى فيه الضباط والجنود المصريون اضطهادا لهم واستبداداً بحقوقهم ثم انقلبت حركة وطنية تدور حول المطالبة بالدستور وأن ظل العنصر العسكرى أبرز عناصرها وأقواها .

ولم يستطع توفيق أو وزيره رياض أن يسوى حركة العرابيين فى بدايتها وقبض على زعمائهم ، وحينئذ أخذت الحركة مظهرها العنيف ، وعزل عثمان رفقى وعين بدله محمود سامى البارودى الذى رضيه الثوار ناظراً للجهادية ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى استقال لاستحكام الخلاف بينه وبين الخديو .

واتصل العرابيون بالوطنيين وأخذت حركتهم تتجه اتجاها وطنياً يرمى إلى المطالبة بالدستور وإشراك الأمة فى الحكم وإبراز الشخصية المصرية فى إدارة البلاد وسياستها العامة، ولم تعد حركة عسكرية تدور حول مطالب رجال العسكرية المصرية وحقوقهم وأن ظلت قيادتها العامة فى أيدى هؤلاء العسكريين ، وقاموا بمظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ العسكرية لتأييد مطالب الأمة لدى الخديو وتتلخص فى عزل جميع الوزراء وتعيين وزارة جديدة ودعوة مجلس النواب للانعقاد وزيادة الجيش إلى ١٨ ألفاً .

وألف شريف الوزارة الجديدة وكان شخصية مهيبة محببة من المصريين والأجانب على السواء وكانت نوازعه الطيبة للاصلاح تدفعه للعمل السريع فاهتم بالتعليم والقضاء ورفع سمعة الحكم المصرى فى الخارج ، وأخذ يعد البلاد للحكم النيابى والتخلص من سيطرة العسكريين واستقبال عهد من الاستقرار والهدوء .

ولقى شريف نجاحا فى بداية الأمر فقد رضى زعماء الجيش بالابتعاد عن القاهرة وأعلنوا ثقتهم بالوزارة ، والتف حوله الوطنيون من رجال الأمة يعضدونه ويهيئون لانتخاب أعضاء المجلس النيابى ودعوته للانعقاد .

وتمت الانتخابات وافتتح مجلس النواب الجديد فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ بخطاب ألقاه الخديو على النواب وسر الخديو من روح الحكمة والاعتدال التى بدت فى كلمات النواب ، وعرض عليه مشروع الدستور لمناقشته وأخذ يباشر تنظيم شئونه وأعماله ، وخيل للناس أن البلاد تستقبل عهداً جديداً تسوده الحرية ويتسم بالهدوء والاستقرار .

ولكن الحلم الجميل ما لبث أن غامته سحابة من الخلاف الذى نشب بين الوزارة والنواب حول حق المجلس فى مناقشة الميزانية وما كان شريف ليحرم المجلس هذا الحق لولا خوفه من تدخل الدول الأجنبية ، وفعلا كان المراقبان من أشد المعارضين لمنح المجلس هذا الحق حتى لا يفقدان سلطانهما وتفوق رأيهما فى شئون البلاد المالية والإدارية .

وبينما كانت المفاوضات جارية بين الوزارة والمجلس وبينها وبين القناصل لتقريب وجهات النظر ، وصلت المذكرة المشتركة من حكومتى إنجلترا وفرنسا فى يناير عام ١٨٨٢ ، تعرض فيها الحكومتان تأييدهما للخديو وحكومته فى إقرار النظام القائم وإصرارهما على منع ما يمكن أن يهدده من أسباب داخلية أو خارجية .

وكشفت الدولتان بهذا التدخل ما تبيتانه لمصر وحركتها الوطنية من سوء وتفاقم الخلاف بين المجلس والوزارة واشتد التقارب بين العسكريين والوطنيين ، واستقالت وزارة شريف وخلفتها وزارة البارودى وعين فيها عرابى وزيراً للحربية وأخذ نفوذ

العسكريين يشتد ويعظم وتوترت العلاقات بينهم وبين الخديو وأصبحت تنذر بأعظم الأخطار ، وجاء الخطر من موقف الدول الأوربية والباب العالى من المسألة المصرية وتدخل إنجلترا وفرنسا أخيراً .

ولم يكن موقف الدول الأوربية من المسألة المصرية وليد الساعة أو الظروف التى أحاطت بمصر فى ذلك الوقت أو حماية مصالح الدائنين بل هو وليد ظروف أبعد من هذا وأعمق ، ظروف ترجع إلى تطور السياسة الأوربية وأثر هذا التطور فى المسألتين الشرقية والمصرية على السواء ثم تطور سياسة تركيا نحو البلاد الإسلامية وعلاقة ذلك بمصر .

أما السياسة الأوربية فأنها تطورت بظهور ألمانيا الجديدة بفضل سياسة بسمارك وجهوده الموفقة فى نجاح الاتحاد الألمانى ، وكان لبسمارك فى سياسة أوربا فى تلك الفترة من التأثير ما كان لمترنخ بعد مؤتمر فينا . وقد نجح بسمارك فى ربط الروسيا والنمسا إلى عجلة السياسة الألمانية وحقق اتحاد الأباطرة الثلاثة وشعرت انجلترا بانكماشها أمام اتحاد الدول الثلاث وعزلة فرنسا فسعت إلى مهادنتها وصداقتها وكان لهذا أثره فى تعاونهما معاً حيال المسألة المصرية على أساس النفوذ المتساوى للدولتين ولم تشأ انجلترا أن تغضب فرنسا باحتلال مصر عندما أشارت عليها ألمانيا وروسيا بذلك ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه حريصة جريا على سياستها القديمة ، على ألا تدع لأى دولة أجنبية أن تثبت أقدامها فى مصر أو يكون لها نفوذ فيها يهدد مصالحها بالخطر ، وكانت مصالحها السياسية والإستراتيجية والاقتصادية فى مصر قد أخذت تعظم وتتضخم منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر فالقطن المصرى عماد صناعة النسيج فى لنكشير وظلت إنجلترا منذ عهد محمد على أول مستورد له كما فازت الشركات الإنجليزية بامتياز مد الخط الحديدى الأول بين الإسكندرية والسويس فى عهد عباس، ثم أثار شق قناه السويس خوف الإنجليز وحذرهم فلم يطمئن لهم بال حتى ظفروا بشراء نصيب مصر فى أسهم شركة القناة عام ١٧٧٥ وزادت مصالحهم الحيوية فى مصر منذ ذلك التاريخ ولكنهم لم يفكروا فى احتلالها فى ذلك الوقت ولا فى تلك السنوات القلائل التى سبقت مؤتمر برلين رغبة فى صداقة الفرنسيين وتوطيد علاقتهم بهم .

وكان احتلالهم قبرص عام ١٨٧٨ بعد مؤتمر برلين أول بادرة توحى بتحولهم عن هذه السياسة ورغبتهم فى احتلال مصروزادت هذه الرغبة اشتعالا عندما احتل الفرنسيون تونس عام ١٨٨١ فأخذوا يفكرون ملياً فى احتلالها .

وكانت انجلترا فى ذلك الوقت قد جفت سياستها التقليدية القديمة فى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ، وإن ظلت حريصة على إبعاد النفوذ الروسى عنها ومنع أى خطر يهدد البواغيز ، ولم تعد تؤمن بقدرة الباب العالى على النهوض أو قوة الدولة العثمانية على البقاء وكانت وزارة جلادستون أشد ماتكون تحاملا على الأتراك وسياستهم فى الحكم والإدارة . وكان جلادستون نفسه يعدهم « نقمة على الحضارة والإنسانية » .

وقد تأثرت سياستها الخاصة نحو مصر بسياستها العامة نحو الدولة العثمانية وكانت سياستها منذ تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ ترمى إلى بقاء وادى النيل تحت السيادة العثمانية حتى تلاشى إيمانها بقدرة الدولة العثمانية على البقاء فبدأت ترى ضرورة الإشراف على مصر ذاتها لاسيما بعد فتح قناة السويس للملاحة عام ١٨٦٩. وإن لم تواتها الفرصة وقتذاك لتنفيذ هذه الرغبة .

ولم تكن فرنسا حريصة على ربط مصر بسيادة الدولة العثمانية وإن دفعتها الضرورات الدولية إلى الإعتراف بالتسويات والفرامانات التى نظمت علاقة مصر بالباب العالى ، وما كانت ترفض أن تستقل مصر وهى تضمن تفوق نفوذها السياسى فيها وقد نجحت فى التقرب من محمد على كما نجحت فى الفوز بامتياز القناة فى عهد سعيد وظلت تعمل على تفوق نفوذها فى مصر وأن لا يكون لدولة غيرها مركز خاص أو ممتاز فى وادى النيل وجاملتها إنجلترا فى عام ١٨٧٥ فلم تنفرد بالتدخل فى شئون مصر أو تعمل على تفوق نفوذها فيها ورضيت بأن يكون لفرنسا مالها من مركز فى مصر على قدم المساواة .

وأما الدولة العثمانية فقد دأبت منذ تسوية ١٨٤٠ – ١٨٤١ على انتقاص الحقوق التى كسبتها مصر فى هذه التسوية وبسط سيادتها الكاملة عليها وظلت حريصة على

تنفيذ هذه السياسة فى شتى المناسبات وأخذت هذه الرغبة تلح عليها وتدعوها للعمل بعد ما نادى السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية وذهب يدعو لها وينشرها بين المسلمين فإن مصر بموقعها وبما لها من مركز ممتاز وسط الشعوب الإسلامية أصلح مكان لبث هذه الدعوة ونشرها ، ووجد السلطان فى مظاهرة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ما يدعوه للعمل فأرسل وفداً عثمانياً على رأسه نظامى باشا ياوره الخاص للنظر فى الحوادث الأخيرة ، وأثار هذا العمل من جانب تركيا غضب فرنسا وإنجلترا فاحتجتا عليه وطلبتا ألا يمكث الوفد العثمانى فى مصر طويلا ثم عمدتا إلى التهديد وقررتا أن ترسل كل منهما بارجة حربية إلى مياه الإسكندرية ولا تبرحاها قبل أن يبرح الوفد العثمانى مصر وقد غادرتاها غداة رحيل الوفد العثمانى منها .

ولم يكن الباب العالى بقادر على مقاومة الدول الأوربية ولكنه كان يعتمد فى الاحتفاظ بسلامة مصر على تنافس المصالح الأجنبية وتنازعها فيها وتضارب الأطماع الفرنسية والإنجليزية حولها ، ولكن السياسة الدولية فى شتى تياراتها كانت تسير على غير ما يهوى السلطان فبسمارك يشجع التعاون الإنجليزى الفرنسى حتى يبعد فرنسا عن محالفة الروسيا كما كان يغرى فرنسا بالنشاط خارج القارة حتى يلهيها عن الثأر لهزيمتها الماضية ، وأيدها فى احتلال تونس كما أن فرنسا من ناحيتها كانت حريصة على ألا تثير ريب ألمانيا فاندفعت تحيى نشاطها الخارجى القديم فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت روسيا كعادتها تتعجل نهاية الدولة العثمانية حتى تحقق أطماعها التقليدية فى البواغيز ، ولم يكن التقارب الجديد الذى تم بعد مؤتمر برلين بين ألمانيا وتركيا من القوة فى فى ذلك الوقت ما يحمل بسمارك على التشيع للباب العالى وكان بسمارك نفسه يميل إلى حصر جهد ألمانيا فى داخل القارة وعدم الزج بها فى مشا كل خارجية .

ورأت إنجلترا ألا تقدم على عمل فى مصر يسىء إلى علاقتها بفرنسا وأخذت الدولتان تعملان مجتمعتين وعلى قدم المساواة فى ميدان المسألة المصرية ولم تحسبا حسابا لسيادة الباب العالى على مصر وحقوقه الشرعية التى أقرتاها من قبل ، واحتجتا على الوفد العثمانى وقرنتا الاحتجاج بالتهديد .

وقد كشفت المذكرة المشتركة التى أرسلتاها إلى مصر عن سياستهما المبيتة وكانت

فرنسا أشد الدولتين تحمسا للتدخل فى المسألة المصرية وأراد جمبتا رئيس وزرائها ووزير خارجيتها أن يتبع إرسال المذكرة المشتركة بالتدخل الحربى لولا أن ثبط من عزمه جرانفيل وزير الخارجية البريطانية ، ولم يكن للمذكرة المشتركة من نتائج إلا إثارة الهياج فى البلاد وإضعاف مركز الخديو أمام الوطنيين ورجال الجيش ، وعظم نفوذ هؤلاء وازدادوا تطرفا ودار فى خلدهم أنهم يستطيعون أن يفيدوا من اختلاف الدولتين على طريقة مواجهة الموقف فى مصر فاشتطوا فى سياستهم ولم يحسبوا حساباً للعدو الذى يتربص بهم الدوائر واتسعت هوة الخلاف بينهم وبين الخديو واقترح فريسينيه الذى خلف جمبتا أن ترسل الدولتان أسطوليهما إلى الإسكندرية لإرهاب المتطرفين ثم أوعزت الدولتان إلى قنصليهما بطلب إقالة الوزارة وإبعاد العسكريين وقبل الخديو مطالب الدولتين فاستقالت وزارة البارودى إحتجاجاً على ذلك واعتبرت « أن قبول تدخل الدول الأجنبية فى هذه القضية يمس بحقوق الحضرة السلطانية » ، ولكن الجيش يتمسك ببقاء عرابى فيبقى وتتابع الحوادث سريعة ، فتقع مذبحة الإسكندرية ويسافر الخديو فجأة إليها ثم تنفرد إنجلترا بالتدخل المسلح فى الوقت الذى اختلفت فيه الدول على مواجهة ظروف المسألة المصرية ومشكلتها القائمة .

وسارت الأمور لصالح إنجلترا فى النهاية ولعلها كانت تنتظر الوقت المناسب لتدخلها ريثما تضمن ألا يثير تدخلها معارضة قوية من جانب الدول قد تثير حرباً أوربية وقد واتاها هذا الوقت المناسب عند ما انصرف بسمارك عن تشجيع التعاون الفرنسى الانجليزى بعد عودة اتحاد الأباطرة الثلاثة وكان يخشى أن تنفصل روسيا عنه ، وأصبح يؤيد تدخل إنجلترا منفردة بتأييد من الباب العالى فقد كان يرى أن تدخل الدولتين معاً قد يكون خطراً على السلم الأوربى ولكن جرانفل لم يوافق على هذا الرأى وأيده فريسينيه فى ذلك وبعثت الدولتان بإسطوليهما إلى الإسكندرية وناهض فريسينيه فكرة تدخل تركيا لإقرار الحالة فى مصر واقترح عقد مؤتمر دولى فى الآستانة للنظر فى المسألة المصرية ولم ترق الفكرة للسلطان ورفض الاشتراك فى المؤتمر وأرسل المشير مصطفى درويش باشا على رأس وفد عثمانى إلى مصر لحل مشكلتها ولا ريب أن السلطان كان يرمى إلى إظهار سيادته على مصر وإنه هو

صاحب الحق الأول فى التدخل وليس هناك داع لعقد مؤتمر يضطلع بحل المسألة المصرية وقام وزير خارجية تركيا بإبلاغ قرار رفض المؤتمر إلى سفراء الدول الأوربية بالآستانة .

ولم تأبه الدول لرفض تركيا أو احتجاجها وعقد المؤتمر من سفراء إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والنمسا وإيطاليا وأبدى المؤتمر أسفه لرفض تركيا الاشتراك ، وقبل أن يبدأ فى مداولاته أبرم ميثاق النزاهة وقد صاغه فريسينيه ووافق عليه جرانفل ثم وقعه أعضاء المؤتمر جميعاً وهذا نصه :

« تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هـذا القرار بأنها فى كل اتفاق يتم بشأن تسوية المسألة المصرية ، لا ترمى إلى احتلال أى جزء من أراضى مصر أو الحصول على امتياز خاص بها أو نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يكون لرعايا الحكومات الأخرى » .

ثم اقترح سفير إيطاليا عدم التدخل أثناء انعقاد المؤتمر ووافقه المؤتمرون على ذلك ولكن لورد دوفرين سفير إنجلترا أبى إلا أن يضيف إلى هـذا التعهد عبارة « إلا فى حالة الضرورة القصوى » .

وقد قرر المؤتمر ضرورة التدخل لإقرار الحالة فى مصر وإخماد الثورة بها واقترح بسمارك أن يناط بتركيا القيام بذلك وكانت فرنسا تعتقد أن المؤتمر سيكل إليها هـذا الأمر بالاشتراك مع إنجلترا ولكن بسمارك تمسك بوجهة نظره ورفض إعطاء الدولتين هذا الحق معاً وقبلت تركيا أخيراً الإشتراك فى المؤتمر كما قبلت تنفيذ قراراته ولكنها تتلكأ كعادتها فى التنفيذ .

وبينما كان المؤتمر يبحث فى شروط التدخل قام الأسطول البريطانى منفرداً بضرب طوابى الإسكندرية ورفض الأسطول الفرنسى أن يشترك فى هـذا العمل بعد أن صدرت إليه أوامر فريسينيه بالانسحاب ، ولم يكن فريسينيه يتمتع بتأييد الرأى العام فى فرنسا ، فقد كان الاتجاه العام فيها يرمى إلى ادخار قوتها لحماية مصالحها

الحيوية فى أوربا والتأهب لما يمكن أن تتمخض عنه أحداث القارة السياسية من احتمالات وكان الشعب الفرنسى قد أخذ يستيقظ للثأر من ألمانيا واسترجاع الألزاس واللورين وراح دعاة الانتقام وعلى رأسهم كليمنصو يرددون أن اشتراك فرنسا فى حرب خارجية قبل استعادة الولايتين المفقودتين جريمة فى حق الوطن . ثم رفض البرلمان الاعتماد الذى طلبه فريسينيه لإعداد الحملة على مصر واستقال فريسينيه وضيعت فرنسا جهود قرن كامل من السعى لبسط نفوذها على مصر .

وكان مؤتمر الآستانة قد أثار مسألة حماية قناة السويس فلما رفضت فرنسا الاشتراك فى الحملة على مصر ووجدت إنجلترا أنها فى حل من المساعدة الفرنسية عرضت أن تشترك معها إيطاليا فى حماية القناة من خطر العرابيين ولكنها ترفض ويرى جلادستون وكان يتمتع بتأييد الرأى العام الإنجليزى أن الوقت المناسب الذى تنتظره إنجلترا للانفراد بالتدخل ومواجهة الدول بالأمر الواقع قد حان فلم يتوان مصحوباً بأمانى بسمارك الطيبة عن إرسال القوات الإنجليزية لاحتلال مصر وحماية القناة ووصلت الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ بقيادة الجنرال ولسلى وقد جاء فى كتاب تعيينه لقيادة الحملة أنه عين « لتوطيد نفوذ الخديو كما هو مقرر بالفرمانات التى منحها السلطان ، وبالاتفاقات الدولية ، ولقمع الفتنة العسكرية فى تلك البلاد » .

وتغلبت القوات الإنجليزية على مقاومة العرابيين فى التل الكبير واحتلت القناه وفر عرابى إلى القاهرة التى دخلها الإنجليز فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وانتقل الخديو إلى القاهرة ودخلها بين صفين من الجند الإنجليز وفى مركبته دون كنوت والجنرال ولسلى والسير ادوارد مالت قنصل إنجلترا العام وعزفت الموسيقى بالنشيدين الإنجليزى والمصرى فكان هذا إعلانا للناس ببداية عهد الاحتلال البريطانى لمصر .

من الاحتلال إلى الحماية :

دخلت المسألة المصرية باحتلال انجلترا للبلاد فى دور جديد يتميز بعنف الصراع بين انجلترا وفرنسا حول شرعية الاحتلال وحق انجلترا فى البقاء فى وادى النيل ومعارضة فرنسا لسياسة انجلترا فى البلاد ومحاولتها الإبقاء على نفوذها الثقافى وتفوقها الحضارى فى الشرق كما يتميز بالجفاء الذى أخذ يشتد ويسيطر على علاقات انجلترا بالدولة العثمانية ، وأخيراً بذلك الكفاح الوطنى المرير بين الوطنيين والدولة المحتلة .

وكان الإنجليز أنفسهم يشعرون بحرج مركزهم فى البلاد ، فما دخلوها فاتحين أو غزاة وما أقرت لهم الدول بحق الاحتلال أو البقاء ، وقد أعلنوا عند ما جردوا حملتهم على مصر أنهم ما دخلوها إلا لإقرار النظام وتوطيد سلطة الخديو كما أقرتها الفرمانات السلطانية والاتفاقات الدولية ، وقد استقرت الأمور وانتهت الثورة إلى مصيرها المقدر ، ولم يعد أمام انجلترا إلا أن تجلو عن البلاد وتتركها لأصحابها وللدولة صاحبة السيادة عليها ، ولكنها تسير فى الأمور إلى الغاية التى رسمتها لها أهدافها البعيدة ونواياها المرسومة وهى السيطرة على ذلك الموقع الاستراتيجى الممتاز الذى يطل على بحرين عظيمين وتتجمع فيه أهم مواصلات العالم البرية والبحرية ويشرف على أمم وشعوب تتطور فيها الأحداث إلى مستقبل حافل بالاحتمالات ويتوسط أقصر الطرق البرية والبحرية إلى الهند جوهرة التاج البريطانى فى ذلك الوقت ، ولا تنتظر انجلترا ما يسفر عنه احتلالها من أثر فى المحافل الدولية ، وتسرع بالعمل وتنفرد به وتهمل شأن فرنسا فتلغى المراقبة الثنائية « لأن حكومة جلالة الملكة ، كما قال لورد جرانفل ، لا تستطيع أن تشرك معها فرنسا فى ثمار حملة لم ترض أن تشترك فى أخطارها أو نفقاتها » . ثم تتحوط للأمر من الناحية الدولية فترسل إلى الدول مذكرة ٣ يناير سنة ١٨٨٣ توضح فيها خطتها السياسية وتبرر احتلالها الذى سمته احتلالا مؤقتاً فتقول : « إن حكومة جلالة الملكة بالرغم من وجود قوات بريطانية فى مصر مؤقتاً لترغب فى سحب هذه القوات بمجرد ما تسمح بذلك حالة البلاد وما تتطلبه من الوسائل التى تكفل توطيد سلطة الخديو ، وترى الحكومة أن واجبها الآن إزاء

الخديو يقضى عليها بوجوب إسداء النصيحة حتى تضمن بقاء الاصلاحات التى يراد وضعها وتطبيقها» . وكانت هذه النصيحة كما تعنيها بالنسبة لمصر لا تخرج عن المعنى الذى أرادته فى مذكرتها إلى معتمدها الجديد السير افلن بارنج بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٤ وهو: « يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو إدارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة ما دام الاحتلال المؤقت مستمراً وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح وإلا أقيلوا من وظائفهم . . » فكأن النصيحة بالنسبة للمصريين أمر يستوجب الطاعة وإن بدت للدول كأنها توجيه وإرشاد .

وقد اختلفت آراء الانجليز أنفسهم إزاء مسألة الاحتلال وكانت الحكومة البريطانية ذاتها فى حيرة من أمرها ولا تعرف إلى أى رأى تستجيب وإلى أى وجهة تتجه وإن كانت مصالحها الحقيقية هى التى أملت عليها مسلكها واتجاهها فى النهاية .

وراح فريق منهم يعلن ضرورة الجلاء مباشرة بعد أن تفى انجلترا بتعهداتها فى إخماد الثورة وتدعيم مركز الخديو ، وكان جلاد ستون نفسه من أنصار هذا الرأى ، وفريق ثان لا يؤمن بالجلاء قبل أن تتوطد مصالح انجلترا ونفوذها السياسى فى وادى النيل ، بينما ذهب فريق ثالث يطالب بفرض الحماية على مصر ، ولكن فرض الحماية يتطلب موافقة الدولة العثمانية كما يتطلب موافقة الدول التى وقعت معاهدتى باريس وبرلين ، وفريق رابع يرى ضم مصر إلى ممتلكات التاج ولا يتم هذا دون التعرض للتعهدات الدولية الخاصة بسلامة الدولة العثمانية . وفريق خامس يعتقد أن خير حل للمسألة المصرية هو أن تعلن مصر دولة محايدة كبلجيكا وسويسرا بعد موافقة الدول على هذا الوضع الجديد .

وما كان أى رأى من هذه الآراء ليروق وزارة جلاد ستون أو الوزارات التى خلفتها فى الحكم وإن اجتمعت كلها على ضرورة إيجاد حل للمسألة المصرية يضمن مصالح بريطانيا ولا تعارضه الدول الأوربية الكبرى ، وكانت السياسة الانجليزية بين هذين العاملين تجرى على توطيد المصالح البريطانية فى وادى النيل وفى الوقت نفسه تبحث عن مخرج لها من هذا الوضع الشاذ للقوات البريطانية فى البلاد ، فتعلن أن

احتلالها مؤقت بينما تحرص على تركيز السلطة فى أيدى معتمدها ومعاونيه من الموظفين الانجليز .

ولا ترفض الحكومات الانجليزية أن تدخل فى مفاوضات لحل المسألة المصرية وكانت أول مفاوضات من هذا النوع مع حكومة مصر وكان يرأسها شريف باشا ودارت فى أغسطس سنة ١٨٨٣ حول تخفيض قوات الاحتلال والجلاء عن القاهرة إلى الإسكندرية ، واستراحت الحكومة الإنجليزية لهذا الرأى ، ولكن حال دون تحقيقه فشل حملة هكس فى السودان وخوف الإنجليز من زحف المهدى على مصر من الجنوب .

أما المفاوضات الثانية التى جرت حول الجلاء فقد قامت بها فرنسا وكانت تدعو دائماً إلى جلاء القوات البريطانية عن مصر ، وتندد بمسلك انجلترا وسياستها فى البلاد ، واحتجت على إلغاء المراقبة الثنائية ، وواتتها الفرصة لتحقيق دعواها عند ما دعت انجلترا عام ١٨٨٤ الدول التى وافقت على قانون التصفية عام ١٨٨١ إلى مؤتمر يعقد فى لندن للنظر فى أمور المالية المصرية فاشترطت لقبول الدعوة بحث مسألة الجلاء ، وبعد مكاتبات دارت بين الحكومتين فى هذا الشأن وعدت الحكومة الإنجليزية بسحب قواتها من مصر فى أوائل عام ١٨٨٨ ، فإذا تم الجلاء فإنها تقترح على الدول وعلى الباب العالى حياد مصر، ومن ثم أعلن جول فرى رئيس الحكومة الفرنسية فى مجلس النواب «أن مصر بلد ذو صفة دولية أوربية واضحة ، فأوربا هى التى احتضنت المسألة المصرية وستبقى دائماً كما كانت مسألة أوربية أولا وأخيراً» .

ولكن فرنسا وقفت موقف المعارضة من الحكومة الإنجليزية عند ما اقترحت هذه تخفيض فائدة الدين العام بما قيمته نصف فى المائة ، وانفض المؤتمر دون نتيجة ولما عاد للانعقاد فى العام التالى أقرت الدول عقد قرض جديد وتخفيض فائدة الدين العام تفريجاً لأزمة مصر المالية ، وخسرت فرنسا المعركة إزاء تشبثها المادى الذى كان من نتيجته أن سحبت الحكومة الإنجليزية وعدها السابق للحكومة الفرنسية بتحديد موعد الجلاء عن مصر .

وأما المرة الثالثة التى جرت فيها مفاوضات بشأن الجلاء فجاءت من جانب الحكومة

الإنجليزية عند ما عرضت على الباب العالى عام ١٨٨٧ الدخول فى مفاوضات لتحديد تاريخ الجلاء عن مصر وشروطه وكانت حكومة المحافظين برئاسة سالسبرى التى خلفت حكومة الأحرار فى الحكم راغبة فى إزالة ما تركه الاحتلال البريطانى من توتر فى علاقات انجلترا بالدولة العثمانية وبفرنسا ، ولعلها كانت ترجو أن تصحح مركزها فى مصر وتضفى عليه صفة شرعية ولو ضحت باحتلالها للبلاد فأرسلت بعثة درمند ولف لمفاوضة الباب العالى فى هذا الشأن ، واتفق الطرفان بعد مفاوضات جرت فى القاهرة والآستانة فى مايو سنة ١٨٨٧ على جلاء القوات البريطانية عن مصر بعد ثلاث سنوات من تاريخ توقيع الإتفاق ، على أن تؤجل هـذا الجلاء إذا ما ظهر خطر داخلى أوخارجى يهدد أمن البلاد وسلامتها ، ونص الإتفاق على حق كل من الدولتين فى احتلال البلاد إذا ما دهمها أى خطر على أن تجلو بعد زواله كما نص على أن يطلب إلى باقى الدول بعد إقرار الحكومتين للاتفاق ، أن تنضم إليه مع ضمان حيدة الأراضى المصرية وسلامتها .

وما أن وصل الاتفاق إلى علم الدول حتى عارضته كل من روسيا وفرنسا واحتجتا لدى الباب العالى وأكد السفير الروسى اعتراضه بأن الإتفاق تضحية بحقوق السلطان والنزول عنها دون مقابل لانجلترا ورأت فرنسا أن الاتفاق يكسب انجلترا من الحقوق الشرعية فى البلاد ما تصبح بها شريكة لتركيا فى مصر ، وجعلت الدولتان تشددان الضغط على السلطان حتى رفض الإتفاق بعد أن أقره مندوبه .

ووجدت انجلترا أن مجال العمل المستقل يجب أن ينفسح أمامها فى وادى النيل ، فالسلطان قد رفض الإتفاق بعد أن قبله مندوبوه بإيعاز فرنسا وروسيا ولا يستطيع إلا أن يكظم غيظه ويترك الأمور لأقدارها وقد تعود امتهان الدول الكبرى وسطوها على أملاكه ، ولم يكن للدول الأوربية إذا استثنينا فرنسا وإيطاليا مصالح حقيقية فى وادى النيل فقد كان بسمارك مشغولا بدعم قوة الاتحاد الألمانى الذى أقامه على أسنة الرماح وصرح قبيل سنى الإحتلال بأنه لايعنيه من أمر الدولة العثمانية شىء ماوليست له أطماع فى ممتلكاتها أومصالح تربطه بها ولا يهمه أمر مسيحيها أو مسلميها على السواء وإن كان قد أيد الإحتلال البريطانى لمصر تأييداً لا تشوبه شائبة ولم يبد ارتياحاً

للمحاولات الواهنة التى قامت بها إيطاليا والروسيا لمناوأة السياسة الانجليزية فى مصر فلأنه كان حريصاً على السلم الأوربى ولا يحب أن تثور المشاكل بين دول أوربا فتجر إلى حرب أوربية قد تهدد وحدة ألمانيا بالانهيار وجعل كل همه أن يوجه نشاط السياسة الأوربية وأطماعها إلى خارج أوربا .

وحينما أخذت ألمانيا توجه اهتمامها إلى الشرق كان اهتمامها مركزاً فى آسيا الصغرى والعراق ، وظلت انجلترا تؤيدها حتى رأت ما فى هـذا الاتجاه من تهديد لمصالحها ومناطق نفوذها أخيراً ، كما أيدت سياستها الأفريقية عندما رأت أن معارضتها ستدفع ألمانيا إلى إقامة العراقيل أمامها فى مصر ومعارضة سياستها فى وادى النيل عام ١٨٨٤ ولذا تنتهى معارضة ألمانيا حالما تعترف لها انجلترا بحقها فى التوسع خارج أوربا وتكوين امبراطورية ألمانية فى أفريقيا .

أما الروسيا فكانت تتجه بأطماعها إلى مناطق آسيا الوسطى والشرق الأقصى والبلقان وكانت هذه المناطق هى مواطن النزاع الذى يدور بينها وبين انجلترا على حدود الهند وفى طريقها ولم يقترب هذا النزاع قط من مصر كما كانت النمسا مشغولة بمصالحها السياسة والاقتصادية فى البلقان .

وكانت إيطاليا رغم ما تكنه من اهتمام بأفريقيا والبحر الأبيض المتوسط ، وعدم ارتياحها لبقاء القوات البريطانية فى مصر ، إلا أنها وجدت من عطف انجلترا على سياستها الأفريقيه عندما تنازلت لها عن مصوع ومكنت لها فى إرتريا ماجعلها تطوى معارضتها للاحتلال وترضى بالأمر الواقع كما كان موقفها من فرنسا وماشاب علاقتهما من كدر بسبب احتلال الفرنسيين تونس يدفعها إلى إهمال المسألة المصرية .

وبقيت فرنسا وحدها تناوئ الاحتلال البريطانى مناوأة جدية وتثير العراقيل فى وجه الإدارة البريطانية وتدس لانجلترا فى الأوساط الدولية وتشنع بها وبأساليبها السياسية الماكرة الخداعة وتمالئ سياسة روسيا الاستعمارية فى آسيا الوسطى ، ولا تمتنع حتى عن تأييد التوسع الألمانى فى أفريقيا كيداً لانجلترا وإثارة للمتاعب فى وجهها ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تعمل أكثر من هذا ، فقد كانت تخشى أن تزج بنفسها

فى حرب خارجية تشغلها عن أمانيها القومية فى استعادة الألزاس واللورين والثأر لهزيمتها الماضية وقد رأت حمى التسلح تجتاح أوربا استعداداً للمعركة القادمة ، وكانت إنجلترا تدرك حقيقة موقف فرنسا وتعرف أنها لن تستطيع أن تغامر بحرب فى سبيل المسألة المصرية ، ثم تكشف الأيام هذه الحقيقة عندما بات العالم يتوقع قيام الحرب بين الدولتين بسبب حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ، فإن فرنسا تتراجع وتصدر أمرها إلى مارشان بالإنسحاب وتقبل الصفعة التى جلبتها على نفسها .

وتجد فرنسا فى تشجيع الحركة الوطنية فى مصر وتأييدها ما يقوى معارضتها للسياسة البريطانية فى وادى النيل ، فتمد يدها للأحرار والوطنيين المصريين وتصبح مؤئل الدعوة الوطنية المصرية حتى تنفض يدها منها بعد التقارب الذى تم بينها وبين إنجلترا عام ١٩٠٤ وانتهى بعقد اتفاقية لانسدون دلكاسيه وهى التى عرفت بالاتفاق الودى وكان خاتمة النزاع الذى ثار بين الدولتين حول المسألة المصرية .

ولم تجد إنجلترا وقد رأت رفض السلطان لاتفاق ١٨٨٧ بتأثير فرنسا وروسيا وعجز الباب العالى عن إثارة المسألة المصرية ولمست موقف الدول من احتلالها مصر وسياستها فى وادى النيل ، إلا أن تهمل موضوع الجلاء وتسير فى سياستها التى تمليها عليها مصالحها الأمبراطورية وخاصة بعد أن ولى روزبرى وكان من عتاة الاستعماريين الإنجليز ، وزارة الخارجية البريطانية وهو الذى ثنى جلادستون عن فكرته فى الجلاء عن مصر ،

وقد واجهت إنجلترا فى أوائل عهد الاحتلال مسألتان : أولاهما وضع قناة السويس وحرية المرور فى القناة ، وثانيتهما مسألة السودان . وقد انتهت من المسألة الأولى بإبرام معاهدة الآستانة عام ١٨٨٨ ، وانتهت من المسألة الثانية بإبرام اتفاقيتى ١٨٩٩ وقيام الحكم الثنائى فى السودان . ثم تفرغت لسياسة البلاد الداخلية حسبما ترى وتعنى مصالحها ، ولم يكن يقض مضجعها إلامعارضة فرنسا التى ضعفت بعد حادث فاشودة وانتهت بإبرام الإتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، ثم اشتداد الحركة الوطنية التى

رعاها الخديو عباس الثانى منذ بداية حكمه حتى قيام سياسة الوفاق بينه وبين المعتمد البريطانى الدون جورست الذى عين بعد عزل كرومر. ثم تخلى عنها لتشتد وتقوى وتعرف وسائلها ومراميها وأهدافها الحقيقية بعيداً عن القصر فيما بعد .

ولم يثر الباب العالى المسألة المصرية إلا عندماتولى الخديو عباس الثانى عام١٨٩٢ وأراد الباب العالىأن ينزع من حكم الخديو شبه جزيرة سيناء ، ويصدر فرمان التولية وقد نص على أن تكون نهاية حدود مصر الشرقية خط يمتد بين السويس ورفح وثارت إنجلترا وتراجع الباب العالى وصدر الفرمان بأن تكون سيناء داخل الحدود المصرية وتضم العقبة إلى ولاية الحجاز ، ثم احتلت قوات تركية طابا عام ١٩٠٥ وسارعت إنجلترا بالاحتجاج فسحبت قواتها ثم تكونت لجنة مشتركة لتسوية مسألة الحدود الشرقية نهائياً وتم الاتفاق علىالحدود الحالية فى أكتوبر عام١٩٠٦ .

واستمرت مصر فى ذلك الوضع الشاذ تسوسها قوى الاحتلال بينما هى تابعة لتركيا وتعترف الدول بسيادتها عليها حتى قيام الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية البريطانية علىالبلاد فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤. ولم تعترف أكثر الدول بهذا الوضع الجديد حتى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعترف بالحماية البريطانية على مصر إلابعد انتهاء الحرب ، ولم يكن للحماية البريطانية على مصر سند من القانون الدولى فالدولة صاحبة السيادة لا تعترف بها بل تنكرها وأصحاب البلاد أنفسهم لا يرضونها والدول الأخرى لا تقرها .

واستمرت الحماية البريطانية على مصر قائمة طوال سنى الحرب وما بعدها حتى اضطرت إنجلتر إلى سحبها فى فبراير سنة ١٩٢١ بعد تقرير ملنر ، ثم ألغيت عند ما صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ باستقلال مصر مقيداً بتحفظات معينة ، ومن ثم تدخل البلاد فى مرحلة طويلة من المفاوضات مع الدولة المحتلة لاستكمال سيادتها واستقلالها ولما تنته بعد .

الفصل الثامن

أصول المسألة المصرية

لم تعد المسألة المصرية بعد الأحتلال البريطانى للبلاد مسألة قائمة بذاتها فى حدود الأهتمام الأوربى بمصر وازدياد مصالح الأجانب فيها بل أخذت تتشعب وترتبط ارتباطا وثيقا بمسائل لم تكن موضع اهتمام أوربا أو اعتبارها قبيل عهد الاحتلال البريطانى لمصر وإن جاءت نتيجة لازدياد المصالح الأوربية فى البلاد أو خارجها فى المناطق القريبة منها أو التى ترتبط بها وحرص إنجلترا على الاستئثار بالغنم الأكبر فيها لنفسها .

وكانت حرية الملاحة فى قناة السويس وحيدتها أول ماواجه انجلترا بعد احتلالها مصر فإن هذا الاحتلال قد أثار مخاوف الدول أن يشل حرية الملاحة فى القناة لاسيما وإن اهتمام انجلترا بالقناة لم يكن وليد الاعتبارات التجارية فحسب كباقى الدول التى لم يكن يعنيها من القناة إلا أنها طريق عالمى للتجاره يجب أن تكفل فيه حرية الملاحة للدول على السواء وأن يصان حيادها ، بل كان وليد اعتبارات استراتيجية أعمق وأبعد مدى من اهتمامها بالقناة كمعبر لتجارتها ، فالقناة هى طريق الإقتراب الرئيسى إلى أمبرطوريتها فى آسيا واستراليا والمحيط الهادى وأصبح تأمين القناة وحمايتها قاعدة من قواعد الاستراتجية البريطانية .

وقد خشيت الدول أن تتأثر حرية الملاحة فى القناة بالاحتلال البريطانى ولكن انجلترا تسارع بطمأنتها فتعلن فى مذكرة لها إلى الدول ، ولما تمض بضعة أشهر على الاحتلال ، ضرورة ضمان حرية الملاحة فى القناة وحيادها ، وتبقى مسألة القناة معلقة من الناحية الدولية حتى تبرم بشأنها معاهدة الآستانة عام ١٨٨٨ ، ولكنها تبقى

معلقة فيما بينهما وبين مصر وتصبح جزءا لايتجزأ من المسألة المصرية عند مناقشة حلولها فيما بينهما .

أما المسألة الثانية التى عنيت بها انجلترا بعد الاحتلال ولم تكن موضع انتباه الدول أو اهتمام السلطان قبل ذلك فهى مسألة السودان فإن قيام الحكم الثنائى فى السودان قد جعل منه مسألة تتعلق بطبيعة العلاقات بين مصر وانجلترا وتتأزم عندها حلول المسألة المصرية عندما أصبحت المسألة المصرية موضوعا للمفاوضات بين إنجلترا ومصر . ولم يكن للسودان من الاعتبار الدولى ما كان لقناة السويس فانحصرت مشكلته فيما بين الدولتين القائمتين بالحكم الثنائى وارتبطت هذه المشكلة بالمسألة المصرية فى حلولها ومناقشاتها منذ ذلك التاريخ .

ويرجع اهتمام انجلترا بالسودان إلى بداية النشاط الإستعمارى فى أفريقيا وكانت انجلترا كعادتها صاحبة النصيب الأوفى فى المأدبة الأفريقية وأرادت أن تستوفى نصيبها من المأدبة بالتهام السودان حتى تتصل مناطق نفوذها واستعمارها فيما بين الشمال والجنوب على طول امتداد القارة ، فالسودان فى الواقع وحقيقة الأمر هو رأس الأمبراطورية البريطانية الأفريقية وهو الحاجز الذى يحول بين فرنسا والوصول إلى شواطىء المحيط الهندى والبحر الأحمر وهو المكان الذى تستطيع أن ترقب منه تطور الأحداث فى مصر إذا قدر لها أن تجلو عنها فى وقت قريب كما تستطيع منه أن توالى ضغطها على مصر إذا ما جلت عنها فتضمن بقاءها فى دائرة النفوذ البريطانى .

وكانت انجلترا حريصة على إقرار حقوق لها فى السودان برضاء مصر وهى صاحبة الحق الشرعى فيه فتبرم معها اتفاقية ١٨٩٩ وتكسب من الحقوق فيه مايفوق حقوق الدولة التى منحتها هذه الحقوق وكان حرصها على ذلك يفوق حرصها على إقرار علاقتها بمصر ذاتها ونسيت أنه ليس لخديو مصر حق التنازل عن أملاكه أو جزء منها للغير كما جرى بذلك فرمان تولية الخديو توفيق عام ١٨٧٩ .

ولكن حق المصريين فى الاستقلال والجلاء قد شمل السودان أيضا على اعتبار أنه جزء من الأراضى المصرية وأصبحت مسألة السودان جزءا من المسألة المصرية

وصخرة تتحطم عندها المفاوضات المصرية البريطانية لحل المسألة المصريه حلا يرضى الطرفين .

وارتبطت المسألة المصرية بمسألتين أخرتين لم يكن لهما من الأهمية ما للمسألة السودان أو لمسألة قناة السويس وقامت كل منهما فى وقتها ولم تدم طويلا فانتهت كما بدأت عند النزول على رأى إنجلترا ومطالبها ، ووقفت إنجلترا فى أحداهما تدفع عن حق مصر وفى الأخرى تجب من حقها وتحملها على التنازل عن بعض أملاكها لدولة أخرى إرضاء لها ، وفى كلا الحالين لم تغفل مصالحها الخاصة وإن صدق حدسها فى المسألة الأولى وشط تقديرها فى المسألة الثانية .

ويعنينا من هاتين المسألتين أهميتهما الإستراتيجية لمصر وارتباطهما بالمسألة المصرية فى الوقت الذى ثارتا فيه ، وأول هاتين المسألتين مادار من خلاف حول الحدود الشرقية لمصر بين السلطان وانجلترا عند تولية الخديو عباس الثانى وثانيتهما مسألة جغبوب وتعديل الحدود الغربية لصالح أيطاليا فى ليبيا عام ١٩٢٤ وإن لم يقر البرلمان هذا التعديل حتى وقتنا هذا على حد تعليق الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية » .

وسنعرض لكل من هذه المسائل فيما يلى :

١ — مسألة السودان

يرتبط موضوع السودان ووحدة وادى النيل بالمسألة المصرية أشد الارتباط وإن ظل بعيداً عن المجال الدولى واهتمام أوربا وعناية السلطان واهتمامه بأمره ، إلا أنه أرتبط بمصر ارتباطا وثيقا منذ فتح محمد على لربوعه وقيام الحكم المصرى فيه ، ولم يكن محمد على أول من رمى ببصره فى التاريخ من حكام مصر وملوكها إلى ماوراء صحراء النوبة فقد أمتد اليه سلطان الفراعين والتاريخ يخط سطوره الأولى على أرض مصر .

ووصلت حدود مصر الجنوبية فى عهد الأسرة الثامنة عشره إلى الشلال الخامس وكان لحاكم السودان مكانة مرموقة فى بلاط فرعون ، ولو كان للفراعنة من وسائل

المواصلات ويسرها ما أصبح لمحمد على واسماعيل لطوى التوسع الفرعونى فى السودان كل بقاعه ، فإن الامتداد الطبيعى للتوسع الفرعونى كان يتجه نحو الجنوب صعداً مع مجرى النهر وبدأ فى وقت مبكر لم يكن الفراعنة فيه قد رموا بأبصارهم إلى خارج حدود بلادهم ، فالتوسع الفرعونى فى الجنوب كان أعمق اتجاها وأبعد مرمى من مجرد الفتح والاستعمار أو التوسع الذى تدفع إليه القوة والتفوق الحربى ومرامى السيادة والنفوذ والاستغلال ، ولم يكن توسعاً بما تعنيه هذه الـكلمة من معنى بل كان امتداداً طبيعياً للوصول إلى الحدود الطبيعية للوطن فى نطاق الحيز الأرضى الذى يشغله ، فان صحراء النوبة لم تـكن فى يوم من الأيام حاجزاً طبيعياً يقف دون تسرب العقائد والعادات والطبائع أو يحول دون اختلاط الأجناس وامتزاجها أو انتقال الهجرات البشرية ، أو تبادل التجارة شمالا وجنوباً حتى تشـابهت الأصول الجنسـية والثقافية فى مصر والسودان الشمالى سواء فى العهد الفرعونى أو الإسلامى ، وقد كانت صحراء النوبة كما كانت سواحل البحر الأحمر معبراً لنفوذ الدعوة الإسـلامية والهجرات العربية وانتقال التجارة إلى ربوع السودان .

وقد ضعف ارتباط مصر بالسودان فى العصر الإسلامى كما ضعفت صلات السودان بعضه ببعض ، حتى دخلته قوات محمد على وحكمه مشاع بين ملوك وسـلاطين وقبائل يتزعمها شيوخ محاربون أقوياء وكل منهم مستقل داخل حدوده ، ولم يكن للسودان كيان سياسى أو قومى معروف وكانت أجزاؤه الجنوبية تعيش فى بداوة كباقى جهات أفريقيا فقضى محمد على على هذه العصبيات المحلية والقبلية ووحد السـودان وربطه بمصر وأصبح كيانه السياسى والقومى مرتبطاً بالـكيان السياسى والقومى لمصر منذ ذلك التاريخ .

وما كانت الدوافع التى دفعت محمد على للامتداد جنوباً لتختلف عما دفع الفراعنة جنوباً مع مجرى النهر ، فقد كان الإيمان العميق بحاجات الوطن هو الذى يدفع كلا من الفراعنة ومحمد على للاهتمام بالسودان وما كانت الحدود الوهمية التى تفصل بين مصر والسودان لتحول دون هذا الإمتداد والتوسع جنوباً بل كان هذا الامتداد طبيعياً يسير مع سهولة المواصلات وقدرة السلطة المركزية على النفوذ إلى أقصى ما تستطيع

نحو الجنوب وقد ظل النفوذ المصرى فى السودان مرتبطاً بقدرة السلطة المركزية على الامتداد والسيطرة جنوباً ، حتى إذا ضعفت السلطة المركزية وهن النفوذ المصرى وعجزت هذه السلطة عن السيطرة والاستقرار ، كما حدث فى عهود الإقطاع الفرعونى قديما وفى حكم توفيق حديثاً .

وقد أدرك محمد على قبل غيره مقومات الوطن المصرى وحاجاته ، فلم ينشد من وراء فتح السودان غنما عارضاً لا يتعدى البحث عن الذهب وتأمين التجارة وتجنيد السودانيين فى جيشه والتخلص من بقية جنده المتمردين من الأرناؤود والقضاء على المماليك الذين فروا إلى دنقله ، أو مجرد التوسع والاستعمار كما جرت بذلك أكثر مدونات المؤرخين ، وإنما كان يهدف إلى ما هو أبعد من هذا ، إلى تحقيق وحدة الوطن الحقيقية تلك الوحدة التى تستمد أصولها من وحدة النهر وارتباط المصالح وتشابكها على ضفافه بين الشمال والجنوب وقد دفعت وحدة النهر إسماعيل إلى كشف منابعه والوصول إليها وتوطيد دعائم الحكم المركزى فيها .

كان الفراعنة يؤمنون بأن حدود الوطن المصرى تمتد جنوباً مع مجرى النهر إلى أقصى ماتستطيع جهودهم أن تصل إليه وكان محمد على رائد هذه العقيدة فى العصر الحديث فحققها إلى أبعد حد ووصل اسماعيل إلى منابع النيل وتحققت وحدة الوطن الكبرى فى أتم معانيها وأكمل صورها .

ويعز زمانذهب إليه من رأى أن اهتمام محمد على بالسودان لم ينقصه فشل الأغراض العاجلة التى كان يرمى إليها من وراء فتحه وبدا هذا الإهتمام واضحاً فى زيارته للسودان وتفقد ربوعه عام ١٨٣٩ ، كما كان حكمه للسودان حكم من ينشد البقاء والاستمرار فاتصلت إدارته بالإدارة المصرية فى القاهرة وإن كان لحاكم السودان من السلطات الإدارية ما يبررها بعد الشقة وصعوبة الاتصال بالحكومة المركزيه فإنه كان لايصدر إلا عنها فى كل مراميه واتجاهاته ، وطبع هـذا الحكم بطابع الأبوة الذى اتسم به حكمه فى مصر ، واهتم بتعمير السـودان وتمدينه وتوطيد الأمن فى ربوعه وكانت إصلاحاته فيه تتسم بالعمق والإصالة اللتين طبعتا إصلاحاته فى مصر ، فابتنى

المدن كالخرطوم التى أقامها فى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض لتكون حاضرة البلاد وكسلا حاضرة السودان الشرقى وفا مكة على النيل الأزرق فى إقليم سنار لتكون حاضرة مديرية فازوغلى، وسمح له السلطان بضم سواكن ومصوع وكانتا من أملاكه مقابل خمسة آلاف كيس تدفع سنوياً ، وهما منفذا السودان على البحر الأحمر ، وعبد الطرق وأمن سير القوافل ونظم البريد وعنى بالزراعة وعمل على كشف منابع النيل وسير الحملات بقيادة سليم قبطان فى النيل الأبيض لهذا الغرض حتى وصلت إلى جزيرة جونكر التى تبعد عن الخرطوم جنوباً قرابة ألف وثمانين ميلا ، وقد مهدت جهود سليم قبطان فى ريادة مجرى النيل الأبيض لتلك الجهود العظيمة التى رعاها اسماعيل وانتهت بكشف منابع النيل فى عهده كما أصدر أمره بإلغاء تجارة الرقيق لما رآه من قسوة النخاسة عند زيارته للسودان فكان هذا الاتجاه بداية الجهد العظيم الذى بذله حفيده اسماعيل للقضاء على هذه التجارة المقيتة .

ولم يكن هذا الاهتمام الذى أولاه محمد على للسودان وربطه بمصر والعمل على الوصول إلى منابع النيل إلا دليلا على عمق الأهداف التى دفعته لفتح السودان فالشعور بوحدة الوطن الكبرى التى تستمد أصولها من وحدة النهر والجنس والثقافة والدين والروابط الإقتصادية هى التى كانت تسيطر عليه وتسوقه إلى تحقيقها ولم تكن العوامل الأخرى التى تناولها المؤرخون كأسباب أصيلة لتسيير حملته على السودان إلا عوامل عارضة كانت تهمه فى بداية حكمه ولكنها لا تطغى على هدفه الأصيل الذى تناولته همته وهو تحقيق وحدة النهر تحت حكم واحد وهو ما كانت تؤيده أعماله وجهوده فى السودان وما لا يمكن أن نستبعده على طموح محمد على وبعد آفاقه ومراميه .

وقد أيدت تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ بقاء السودان تابعاً لمصر تحت حكم أسرة محمد على وأصدر السلطان أمره الآتى إلى محمد على « إن سدتنا الملوكية كما توضح فى فرماننا السلطانى السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط وحدود معينة ، وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر مقاطعات النوبة والدارفور وكوردفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ، فبقوه الإختيار والحكمة التى

امتزتم بها تقومون بإدارة هاته المقاطعات وترتيب شئونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين وترسلون فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها . . . الخ .

وهكذا حقق محمد على وحدة النهر تحقيقاً عملياً وربط الشمال بالجنوب فى رباط واحد من المصالح والأهداف المشتركة واعترف الباب العالى بهذه الوحدة اعترافا ضمنيا فى فرمان توليته حكم السودان وأيدت الدول هـذا الاعتراف بموافقتها على التسوية النهاية للمسألة المصرية وأصبح السودان من الناحية الدولية جزءاً من الوطن المصرى تسرى عليه قوانينه وتشريعاته تحت حكم الأسرة العلوية وفى ظل السيادة التى قررتها معاهدة لندن عام ١٨٤٠ .

وامتد التوسع جنوبا وشرقا فى عهد اسماعيل حتى وسع مديرية فاشودة ومملكتى أونيورو وأوغنده وإقليمى بحر الغزال وخط الاستواء وسلطنة دارفور وكانت تحتفظ باستقلالها الفعلى رغم أن السلطان قد أدمجها ضمن حدود السودان فى فرمان تولية محمد على كما وسعت سنهيت وزيلع وبربرة وهرر وسواحل الصومال الشمالية وبوغوص كما وافق السلطان على ضم سواكن ومصوع إليه نهائياً . وتمت وحدة النهر وجرى النيل دفاقا فى أرض مصرية وأصبحت أملاك الخديو تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منطقة البحيرات الاستوائية جنوبا ومن سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى حتى رأس حفون شرقا إلى حدود وادای غربا .

وانتظم السودان فى كيانه الجديد مديريات الخرطوم ، وسنار وفازوغلى وتضمهما مديرية واحدة ، وبربر ، ودنقلة ، وكسلا ، وفاشودة ، وكردفان ، ودارفور ، وبحر الغزال ، وخط الإستواء . ومحافظات سواكن ، ومصوع ، وزيلع ، وبربرة ثم حكمدارية هرر .

وقام اسماعيل بأعظم عمل تمجده الإنسانية وتذكره وإن جحدته أساليب السياسة وقسوة مرونتها فقد حارب تجارة الرقيق وقضى على وصمة النخاسة فى أرجاء السودان وإن أغضب تجار الرقيق وكانوا فيه سادته وأقوى بنيه مما كان له أكبر الأثر

فى غضب الكثيرين منهم وتبرمهم بالحكم المصرى إلا أنه أرضى الإنسانية وصان كرامة الإنسان وأقدس حقوقه ، وإن لم يكن لإسماعيل إلا هذا الفضل لكفاه فى الخالدين مجداً وذكرا .

ولقى السودان من رعاية البيت العلوى ما لقيته مصر وإن طبعت هذه الرعاية بطابع الشخصية الفردية لكل حاكم ، ولا يجوز أن ننظر إلى الحكم المصرى فى السودان تلك النظرة القاتمة التى عناها المؤرخون الأجانب حين راحوا يكتبون عن مساوىء الحكم المصرى السودان ويتهمونه بكل سوء وجور فهذا طابعهم فى الكتابة حين يكتبون عن الشرق وتاريخه وحكامه ، فضلا عن أن هذه الكتابة قد تأثرت بدعاية الإنجليز عن مساوىء الحكم المصرى فى السودان حتى يبرروا للعالم الأوربى اشتراكهم فى حكمه ، كما كانوا يدعون أنهم خلصوا المصريين من الفساد والرشوة والسخرة التى ناء بها كاهلهم من ظلم حكامهم وقسوتهم وسوء إدارتهم ، وإن كنا لا ننصف الشرق وحكامه من سوء الإدارة فإن الشعوب فى نهضتها كثيراً ما تتعرض لهزات عنيفة من الشطط والجور ، وقد تيقظ الشرق على ضجيج الحضارة والتمدين الأوربى وتغلغل النفوذ الغربى فى ربوعه فكانت يقظة عنيفة شطت بجهود بنيه وحكامه وجارت بهم عن سواء القصد ، ولم يكن فى قدرة بنيه وقد طبعهم الماضى بأوضاره وجهالته أن يتبينوا سبيلهم الحق فى الحياة ، ولم يكن فى استطاعة حكامه وقد مارسوا جبروت الفرد المستبد أن ينزلوا عن بعض حقوقهم للشعب ولم تكن القلة المستنيرة فى البلاد لتستطيع أن تقود السفينة إلى بر الأمان ، وما كان هذا الجور والشطط وسوء الإدارة إلا نتاج هذه العوامل مجتمعة ، وإن كان الغرب قد أصدر حكمه على الشرق فى هذه الآونة ، فأنه لم يدرك ما كانت عليه طبائع الحياة والحكم فى مجتمعاته الغربية فى بدء نهوضها وتيقظها .

ولم يكن الحكم المصرى فى وادى النيل سواء فى الشمال أو فى الجنوب ليسلم من هذا الشطط فإن مناهج الحياة وأوضاعها لم تكن قد عرفت سبيلها إلى الغاية المرسومة وبهر الغرب بنهضته ألباب الحاكمين والمحكومين فأحسنوا الظن برواد الغرب ومدوا لهم فى ساحهم ولم يحمل هؤلاء رسالة التمدين والحضارة كريمة خالصة إلا على هدى

مصالحهم وأهوائهم فكانوا سبب ما أحاط بالبلاد من سوء الإدارة وجور عن القصد بعد بها عن الغاية .

ولا يمكن أن تقول أن روح الاصلاح والنهوض قد فقدت عناصرها فى حكام مصر بعد محمد على كما لا يمكن أن نجارى بعض المؤرخين فى دعواهم حين راحوا يظهرون إصلاحات محمد على بمظهر الوقتية والحاجات الطارئة التى كانت تدفعه إلى العمل والنشاط وإن كان لهذه الحاجات الطارئة بعض التقدير العميق لظروف الوطن والعوامل التى أحاطت به وأحاطت بمحمد على والجهد السريع الذى كان يدفعه إليه طموحه فى تحقيق الكيان الذى يرجوه لوطنه الجديد ، فإذا كانت جهوده قد هدأت بعد تسوية ١٨٤٠-١٨٤١ فإن هذه الحاجات الطارئة قد انتهت ولم تعد تدفعه كما كانت تدفعه من قبل وأخذت جهوده تهدأ ولكنها لم تفتر فإن العمل للسلم غير العمل للحرب وإن كانت شيخوخة الرجل والجهد الذى بذله فى ماضيه وقصر الفترة التى عاشها بعد ذلك ، لا تدع لناسبيلا إلى حكم واضح على حقيقة نواياه واتجاهاته فى تلك الفترة الأخيرة من حكمه ولكن مما لاريب فيه أن العربة التى أغذت فى السير لم تقف عن سيرها وإن أبطأت بعض الشىء ولا أدل على ذلك من تلك العبارة التى أوردها محمد رفعت « بك » أحد مؤرخى مصر الحديثة فى كتابه « تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة » على لسان محمد على يخاطب بها أحد المندوبين الإنجليز عام ١٨٣٨ وهى :

« أن بلادكم لم تصل إلى ما وصلت إليه من الرقى الحالى إلا بجهود أجيال كثيرة مضت وأن الطفرة محال فى رقى الأمم وتقدمها ، ولكن يمكننى أن أقول إنى قد قمت ببعض الشىء لمصر وأصبحت الآن تمتاز على ممالك كثيرة لا فى الشرق فحسب ، بل فى الغرب أيضا ، نعم يعوزنى شىء كثير لازلت أجهله كذلك يعوز شعبى شىء كثير ولذلك ترانى مرسلا إلى بلادكم أدهم بك ومعه خمسة عشر شابا ليتعلموا ماتعلمه بلادكم ، فعليهم أن ينظروا إلى الأشياء بأنفسهم وعليهم أن يمرنوا على العمل بأيديهم وأن يخبروا مصنوعاتكم جيداً ليعلموا وليكشفوا أسباب سبقكم ورقيكم وإذا مامضوا زمنا كافياً بين أهل بلادكم عادوا إلى بلادهم وعلموا الشعب » .

وهذا دليل على أن محمد على كان يعمل للمستقبل الذى يرجوه لوطنه الجديد

وأسرته الحاكمة ولم يكن كل ما يبغيه أن يحقق لوطنه ولأسرته هـذا الـكيان الذى حققه فى أخريات أيامه بل كان يعمل للمستقبل وللابقاء على هذا الـكيان سليما بعده، ولم يقم هـذا العاهل البعيد النظر بنيانه على الرمال كما قال بلمرستون عندما أبدى شكه فى بقاء هذا البناء سليما بعد موت محمد على .

ولقد بدا حقيقة بعد موت محمد على وابراهيم أن الميدان قد خلا من فرسانه، ولـكن أبناء محمد على كانوا جديرين بشرف الإنتسـاب إليه ، فاستمر البناء قائماً وأخذت مصر على أيديهم توطد أسـباب نهوضها وتقدمها الحديث وإن تأثرت جهودهم بدوافعهم الشخصية واتجاهاتهم الفردية وأخيراً باتجاه الأوربيين إلى هـذه البقاع واهتمامهم بتنمية مصالحهم فى مصر فـكان هـذا عاملا قويا من العوامل التى تأثرت بها نهضة مصر الحديثة .

وإذا كان الشطط والجور قد ألما ببعض نواحى هـذا البناء سواء فى عهد محمد على أو فى عهود أبنائه ولم يكن للشعب نصيب كبير من فوائد هذا البناء كما يدعى كثرة المؤرخين الأجانب فلا يجب أن يغيب عن أذهاننا ما كان عليه حال الشعب قبل عهد محمد على أوعهود أبنائه كما يجب أن تـكون أحكامنا مترابطة بالبيئة والعصر الذى جرت فيهما حوادث التاريخ .

ولم تكن مساوىء الحـكم المصرى التى عناها بعض المؤرخين فى السودان لتختلف عما كانت عليه هذه المساوىء فى مصر وترجع فى أغلبها إلى جهل الحـكام المحليين واستبدادهم بعيداً عن رقابة السـلطة المركزية وإن كانت محاربة النخاسة فى ربوع السودان قد جرت على المصريين غضب سادته وتجاره من القائمين على هذه التجارة إلا أن القسوة التى تبذر الخير هى الرحمة بعينها ، ولاننسى أن القائمين على شئون السودان فى تلك الفترة كانوا من الأجانب ومن الانجليز بالذات الذين اعتمد عليهم الخديو اسماعيل فى إدارة شئونه ومحاربة تجارة الرقيق فيه ومد الحدود المصرية إلى أقصى الجنوب عند منابع النهر الذى عناه أمر الـكشف عنها فأضاف إلى ذخيرة الـكشوف الجغرافية ذخيرة ما كان فى قدرة غيره أن يقوم بها كما قام بها إسماعيل أو يبذل فى سبيلها من الجهد مابذله هذا العاهل الشرقى الذى بهرته حضارة أوربا فأراد أن ينقلها إلى مجاهل أفريقيا

ويكفينا رداً على غلاة المؤرخين ما شهد به هؤلاء الثقاة من المصريين والأجانب ممن شهدوا جهود مصر فى السودان ولمسوا آثارها عن قرب نقلا عن مدونات عبد الرحمن الرافعى بك فى تاريخه للحركة القومية . ففى كتابه « عصر محمد على » نقلا عن المسيو ديهيران يقول « إن ما قام به محمد على من بسط رواق الأمن فى مصر هو من أجل أعماله كما يرى المستر بورنج فى تقريره عن مصر ، وهذا الرأى يجب تعميمه ليشمل كل بلد حكمها محمد على ، فحيثما بسط نفوذه وحكمه نهض بالأمن ووطد دعائمه وصانه بعين رعايته ، وعلى العكس إذا تقلص نفوذه عادت البلاد إلى الفوضى واختل ميزان الأمن فيها ، خذ لذلك مثلا أنه لما انسحبت قواته من الحجاز سنة ١٨٤١ واستردها سلطان تركيا شعر التجار بأنهم لم يعودوا آمنين على متاجرهم هناك ، وكذلك لما جلا ابراهيم باشا عن سوريا اضطرب فيها حبل الأمن وعادت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين ، أما البلاد التى يسود فيها حكم محمد على فإن الإنسان يأمن على نفسه أن يذهب إلى أى ناحية بها » . ويقول الكونت بنديتى قنصل فرنسا فى مصر « إن الأهالى والأجانب على السواء يستطيعون أن يذهبوا أينما شاءوا فى البلاد التى يحكمها محمد على سواء فى وادى النيل إلى أقصى حدود السودان أو فى سوريا وجزيرة العرب ، فأن صرامة العدل الذى أقام ميزانه فى كل ناحية لا تقبل هوادة ولا ضعفا ... الخ » .

ويقول الكولونل ستوارت شاهداً على أعمال التعمير التى قام بها المصريون فى السودان ، « أن المصرى مزارع بطبعه ففى أى مكان يحل فيه الجنود المصريون ، لا يمضى على إقامتهم ستة أشهر حتى يكون من المحقق أن ينبت فيه الزرع والخضر » .

وفى الحكم المصرى للسودان على عهد اسماعيل يقول صمويل بيكر ما معناه أن مصر وحدها هى التى تستطيع أن تنقل الحضارة والتمدين إلى مجاهل أفريقيا وهى القادرة دون غيرها على نشر الأمن والنظام فى ربوع السودان . ويقول المسيو سوزارا قنصل النمسا فى مصر « إذا علمنا ما كانت عليه الشعوب فى تلك الأقطار الهمجية وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديو تدرجا نحو التقدم فإن هذه الشعوب أخذت تألف الإدارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام ، ومن

جهة أخرى فإن الأقطار السودانية التى كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات مما مهد السبيل لدخول الحضارة إليها » .

ويقول سلاطين باشا مشيراً الى أهمية السودان لمصر ووحدة بلاد النهر : « أرى واجباً على أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر ، وأبدى الرأى الذى ثبت فى قرارة نفسى فأقول . أن الأسباب التى دعت محمد على منذ خمس وسبعين سنة الى امتلاك السودان لا تزال قائمة الى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه الى صيانة وادى النيل من أية غارة أجنبية ، فإن كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار » .

وقد حدا بى إلى الاسهاب فى هذه الناحية مما قد يبدو فى غير موضعه ما رأيته من تأثر بعض المؤرخين المصريين بكتابات مؤرخى الغرب تأثراً قد يسوقهم إلى الشطط فى أحكامهم إن لم تكن دقة المعنى قد خانتهم فى التعبير الصحيح ، ففى أحد الكتب التى تدرس فى الجامعة ، والذى قام على إعداده وكتابته بعض أساتذتها ، ورد هذا القول حاسماً جازما فى شأن الحكم المصرى فى السودان بهذا النص :

« حكمت مصر امبراطورية شاسعة الأرجاء فى وسط أفريقية تمتد من وادى حلفا إلى خط الاستواء ، وتم بناء هذه الامبراطورية وتثبيت أركانها فى عهدى محمد على وإسماعيل ، ولكن لم يكن الحكم المصرى فى هذه الأقطار سديدا ولا مستنيرا ، فسوء الادارة ووجود نظام الاحتكار ومنع تجارة الرقيق والعسف فى جمع الضرائب كل هذه لم تجعل الحكم المصرى محببا إلى قلوب السودانيين ، ومهدت السبيل إلى نجاح دعاية الجامعة الاسلامية . ولم يكن الحكم المصرى حكما مستبدا فحسب ، بل كان حكما ضعيفا ، فما كان للجنود المصرية فى السودان دربة على القتال ، وما كان لضباطهم معرفة بأمور الحرب ، وما كانت الحكومة المصرية لتعنى بدفع رواتبهم أو بحسن تغذيتهم أو بتموينهم بالسلاح الكافى . وكانت السودان تعانى أشد المصائب من سوء الحالة المالية ومن فوضى نظام الحكم » .

ولا أجدنى فى حاجة الى الرد على هذه المغالاة إلا ماذكرته عن الحكم المصرى فى السودان وتقدمه فى ظل الادارة المصرية واستتباب الأمن فى ربوعه «والقوة والمهابة» اللتين كانتا لهذا الحكم كما يقول محمد رفعت بك فى تأريخه لمصر الحديثه ، وكانت الروح المحركة للادارة المصرية فى جميع أرجاء الوادى وملحقاته روح إصلاح وتعمير وهى أبعد ما تكون عن الروح الاستعمارية وأساليبها ، كما يقول الدكتور محمد صبرى فى كتابه «الامبراطورية السودانية» .

وظل الحكم المصرى فى السودان ثابت البناء وطيد الأركان حتى قامت الثورة العرابية وشغلت مصر بها وبالتدخل الأجنبى الذى أخذ يمتد كالأخطبوط فى كل مرافق البلاد فأغفلت الحكومة المصرية ما يجيش به قلب السودان من ثورة توشك أن تنفجر كما انفجرت الثورة العرابية فى مصر . فقد أخذ السودانيون يلتفون حول داعية دينى لا يختلف عن أمثاله من الدعاة فى التاريخ الإسلامى الذين امتشقوا الحسام دفاعا عن دعواتهم وعقائدهم ، وكان داعية السودان الجديد هو محمد أحمد المهدى الذى أعلن الثورة فى السودان وقاد أتباعه إلى الغاية التى ينشدها من ثورته .

ولم تكن ثورة المهدى ثورة استقلالية أو انفصالية ، بل كانت أكثر عمقاً وأبعد مدى من ذلك ، كانت مظهراً من مظاهر اليقظة الإسلامية العامة التى أخذت تعم أرجاء العالم الإسلامى وتغمره وتدفعه إلى النهوض والتيقظ على هدى من تعاليم الدين وسنن السلف الصالح ، وكانت دعوة المهدى فى السودان ، ودعوة السنوسى فى برقة كما كانت الدعوة إلى الجامعة الاسلامية مظاهر متعددة لهذه اليقظة الاسلامية الكبرى وقد سبقها جميعاً إلى الظهور دعوة الوهابية فى نجد ، وإن اختلفت هذه الدعوات فى أساليبها فقد اتفقت فى اتجاهاتها ، وكانت كلها ترمى إلى إحياء عرامة الاسلام الأولى فى الدين والدنيا عندما تفتحت أنظار المسلمين فى أوائل القرن التاسع عشر على تقهقرهم وضعفهم وتغلغل النفوذ الغربى فى بلادهم .

وسارت دعوة الإحياء الدينى جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى توحيد العالم الإسلامى على هدى من عقائد الدعاة واتجاهاتهم ، ولم يكن امتشاق الحسام دفاعا عن

العقيدة وتوطيد أركانها غريباً على المسلمين ولم يكن ارتباط الدين بالدولة غريبا على العالم الإسلامى . وقامت هذه الدعوات الدينية وهى تهدف فى اتجاهاتها إلى إقامة دولة تسير على هدى من عقيدتهاوتشريعها للحياة ، ولم تخطىء أى من هذه الدعوات هدفها فى النهاية ، فقامت دولة الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بعد النكسة الأولى التى أصابتها على يد محمد على قبل ذلك بقرن من الزمان ، وأصبح للبيت السنوسى ملك ليبيا أخيراً بعد قرن من النضال الذى استغرق جهود بنيه فى نشر عقيدتهم والدفاع عنها ، وانتهت حركة الادريسى بإقامة ملك فى عسير فى نهاية العقد الأول من القرن العشرين ولم ينته الا بانهيار البيت الادريسى وضم عسير الى الحجاز عام ١٩٣٠ .

ولم يكن هدف الدعاة الأوائل من ربط دعوتهم بقوة الدولة اقامة ملك محدود الجوانب يحصر دعوتهم فى نطاقه ، بل كانوا يرمون إلى الامتداد والتوسع وغزو العالم الاسلامى بدعوتهم وقوتهم لينهضوا به ويعيدوا الى الاسلام نقاءه ومجده وعرامته الأولى ، حتى يستطيع أن يقف أمام الضغط الأجنبى الذى ينوش بلاده من كل جانب .

وما كانت حركة المهدى فى السودان الا دعوة دين ودولة استمدت قوتها من شخصية محمد أحمد نفسه ، وكان رجلا صالحا ورعا صادقا فى دعواه أمينا عليها يهتدى بسيرة النبى « صلى الله عليه وسلم » ويسير على منواله ، وإن كانت تعوزه إصالة رجل الدولة وقدرته والإلمام بروح العصر واتجاهاته ، وقد استمد أسلوبه فى نشر دعوته من الأسلوب الذى جرى عليه النبى فى نشر الدين الاسلامى ، وقد يكون حقا أن محمد أحمد كان يؤمن إيمانا صادقا بأنه المهدى المنتظر ليخلص الاسلام وبنيه مما ألم بهم من ضعف ويوحد صفوفهم ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما فإن الإيحاء الذاتى بفكرة كثيرا ما يحمل على تصديقها واعتناقها والايمان بها .

فحركة المهدى إذن حركة اسلامية عامة وليست حركة قومية محلية ، ولم يفكر المهدى فى الإنفصال بالسودان عن مصر ، ولكنه فكر فى ضم مصر إليه ، فأرسل

إلى خديو مصر ، بعد أن دان له السودان يدعوه إلى طاعته وينذره إن لم يقبل باجتياح أراضيه واستهل كتابه إليه كما كان يستهل النبى صلى الله عليه وسلم كتبه إلى الملوك والأقيال بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله إلى والى مصر . . . » كما فكر فى الحملة على الأقطار المجاورة ونشر دعوته فى ربوعها وإخضاع العالم الإسلامى لزعامته .

ولا يمكن أن نتخذ من حركة المهدى دليلا على رغبة السودانيين فى الإنفصال عن مصر وجفوتهم للحكم المصرى وتذمرهم منه وإن لقيت الحركة تأييداً من الناقمين على الحكم المصرى والخارجين عليه من تجار الرقيق والمتبرمين بنظام الضرائب والموتورين من قسوة الحكام ومظالمهم ، ولم يكن هؤلاء جميعاً سبباً فى قيام حركة المهدى وإن كانوا عاملا فى اشتدادها وشد أزرها زيادة عما وصلت إليه السلطة المركزية من ضعف فى السودان بسبب الارتباك المالى فى مصر وقيام الثورة العرابية فيها .

كما لا يمكن أن نربط بين حركة المهدى وحركة الجامعة الاسلامية فقد كانت الحركتان نتيجة لعامل واحد هو اليقظة الاسلامية الكبرى التى عمت بلاد الاسلام منذ بداية القرن التاسع عشر وإن كانتا تهدفان فى النهاية إلى إحياء العقيدة الاسلامية وتوحيد العالم الإسلامى لمقاومة النفوذ الأوربى الذى يجتاح بلاده إلا أنهما يفترقان فى أسلوبهما وطريقتهما ، وقامت كل منهما بعيدة عن الأخرى غير متأثرتين كليهما ببعضهما .

وقد نجح المهدى فى نشر دعوته الدينية وأصبح للمهدوية أتباع وأنصار فى السودان يكونون طائفة من أقوى طوائفه الدينية حتى الوقت الحاضر ولكنه لم ينجح فى أقامة الدولة التى ينشدها إلا نجاحا محدوداً لا يرجع فى حقيقته الى قوة التنظيم الحربى والإدارى للمهدوية قدر ما يرجع الى الظروف الخارجية التى كانت أكبر عامل فى نجاحها وسيادتها على السودان ، ولو قامت حركة المهدى فى غير وقتها أو سبقت وقتها بقليل لكان من المتعذر نجاحها ، ولكنها قامت فى وقت وصلت فيه قوة الحكومة المركزية فى السودان إلى أقصى حالات الضعف بسبب الإرتباك المالى

وقيام الثورة العرابية فى مصر ثم إصرار الحكومة الإنجليزية أخيراً على إخلاء السودان وسحب القوات المصرية منه بعد أن أحرز المهدى جملة انتصارات على قوات الحكومة المصرية وفتك بحملة هكس فتكا مروعا .

وعارضت الحكومة المصرية وكان على رأسها شريف باشا فى إخلاء السودان يؤيده فى ذلك الرأى العام فى مصر ، وهدد شريف بطلب النجدة من السلطان إذا لم تعنه الحكومة الانجليزية فى القضاء على حركة المهدى والعمل على استتباب الحكم المصرى فى السودان فقد كان شريف يؤمن بوحدة النهر وأهمية السودان لمصر وكان يرى من العار أن تتخلى مصر عن بلاد طالما ضحت فى سبيلها بالأموال والأرواح وأن تتقهقر قواتها أمام قوات من الدراويش .

ولكن الحكومة الإنجليزية كانت قد بيتت نيتها على إخلاء السودان وسحب القوات المصرية من ربوعه فأوعزت إلى معتمدها فى مصر بنصح شريف بإخلاء السودان إلى أسوان أو وادى حلفا فأن معونة إنجلترا غير ممكنه كما أن استدعاء قوات عثمانية ليس من مصلحة مصر .

ولما لم تجد النصيحة لجأت إلى التهديد وأرسل جرانفل خطابه المشهور فى يناير سنة ١٨٨٤ إلى المعتمد البريطانى فى مصر يقول فيه أنه « مادام الأحتلال المؤقت قائماً فأن عليكم أن تتأكدوا من تنفيذ النصائح التى تقدموها قياما بواجبكم إلى جناب الخديو ، وإن على النظار والمديرين أتباع نصائح حكومة جلالة الملكة وإلا اقيلوا من مناصبهم فأن حكومة جلالتها ملزمة ، مادامت المسئولية تقع على عاتق إنجلترا ، أن تكون على يقين من تنفيذ السياسة المرسومة » .

ولم يسع شريف سوى الإستقالة محتجا على التدخل البريطانى ، وخلفه نوبار الذى قبل سحب القوات المصرية من السودان وإخلائه .

وهكذا لعبت إنجلترا أول دور لها فى السودان وكان دورا مبيتا تنم عنه الأحداث الماضية وما كانت تبديه من اهتمام بهذه المناطق الأفريقية منذ أوائل عهد إسماعيل

عنـدما مهدت لرجليها بيكر وغوردن سبيـل الألتحاق بخدمة حكومة الخـديو في السودان .

وما أن تم إخلاء السودان حتى أخذت الدول المتكالبة على المائدة الأفريقية تتسابق نحوه علها تجد فيه لقمة سهلة الإزدراد ، ووقفت انجلترا تحجز أطايب المائدة لنفسها وتساوم على فتاتهـا الطامعين فيهـا مقابل غنم سياسى تنشده وتبغيه فألقمت إيطاليا مصوع سنة ١٨٨٥ حتى تلهيها بها عن معارضة احتلالها مصر وأخذت إيطاليا تتوسع على الساحل حتى كونت مستعمرة أرتريا وضمت إليها بوغوص بالإتفاق مع الحبشة عام ١٨٨٩ ولما أحتل الانجليز ساحل الصومال المواجه لعدن ، رمت ايطاليا ببصرها إلى احتلال بقية الساحل . وتـكونت مستعمرة الصومال الايطالى وأعترفت انجلترا بحدودها فى معاهدتى ١٨٩١ و ١٨٩٤ وكانت ضمن أملاك مصر قبل أخلاء السودان ورضيت للحبشة أن تستولى على أقليم بوغوص عام سنة ١٨٨٤ ثمنا لتسهيل مرور الحاميات المصرية المحاصرة فى السودان داخل أراضيها كما تركتها تضم هرر عام ١٨٨٧ .

أما بربره وزيلع فقد احتفظت انجلترا بهما لنفسها لموقعها الاستراتيجى الممتاز على خليج عـدن واحتلتهما عام ١٨٨٤ وكانت فرنسا قـد أتصلت بشيوخ تاجورة منذ سنة ١٨٦٢ وكسبت بعض الحقوق على هذا الساحل من رأس دميرة فى الشمال إلى رأس على فى الجنوب لم تعترف بها مصر التى أ كدت حقوقها فى تلك المنطقة ورفعت رايتها عليها عام ١٨٨١ . فما أن أخذت مصر فى إخـلاء السودان حتى بسطت فرنسا حمـايتها عليها عام ١٨٨٥ ثم استولت على جيبوتى عام ١٨٨٨ واستطاعت أن تتسلل إلى الساحل فيما بين زيلع وبربرة وتحتل دونجاريتا وقد دفع هذا انجلترا إلى الاعتراف بمنطقة النفوذ الفرنسى الجديدة مقابل الجلاء عن دونجاريتا وتركها ، وفى مايو سنة ١٨٩٦ صدر مرسوم فرنسى بتظيم المستعمرة الجديدة التى أصبحت تعرف باسم الصومال الفرنسى واختارت أن تـكون جيبوتى عاصمتها بدلا من أوبوك وذلك لصلاحية مينائها وموقعها الممتاز على رأس طرق الاقتراب الميسورة إلى الداخل .

ولما تم إخلاء مديريات خط الاستواء عام ١٨٨٩ بسطت انجلترا حمايتها على أوغنده وأونيورو عام ١٨٩٣ وسمحت لبلجيكا بضم لادو وجزء من أقليم بحر الغزال واتفقت مع المانيا على تقسيم مناطق النفوذ فى إفريقيا الشرقية ، واستطاعت فرنسا أن تمد حدودها من ناحية السودان الغربى دون أن يحس بها أحد .

وبرغم هذه الأقاليم التى اقتطعت من مساحة السودان التى أمتدت إليها السيادة المصرية فى عهد إسماعيل عندما وصلت إلى أقصى إتساعها فى الجنوب بقيت مساحته الحالية بعد إتفاقية عام ١٨٩٩ تزيد على ثلث مساحة أوربا وتعادل ضعف مساحتى ألمانيا وفرنسا معاً وتبلغ ٣٫٤٣٧٫٠٠٠ كم .

ولم تكن انجلترا لتسكت عن استعادة السودان فقد حققت سياستها فى حوض النيل الأعلى واقتطعت ما اقتطعت من أقاليم السودان حتى لا تدع لمصر حقاً عليها عند استعادته ووطدت استعمارها فى أواسط وشرق إفريقيا ، ونضجت الفكرة عندما أبدت القوات المصرية تفوقها على قوات الدراويش التى كانت تهدد حدود مصر الجنوبية فى موقعة «جنس» عام ١٨٨٥ وعندما أوقعت بهم فى معركة «توشكى» عام ١٨٨٩ وكانوا يقصدون غزو مصر بقيادة عبد الرحمن ولد النجومى أبرع قوادهم. وحدث فى سنة ١٨٩٦ ما استوجب الأسراع فى استعادة السودان فقد تحالف الأحباش مع الدراويش وأوقعو بالأيطاليين فى عدوة وخشيت انجلترا أن يسفر هذا التحالف عن أخطار جديدة كما تواترت إليها الأنباء بعزم فرنسا على أرسال حملة لاحتلال حوض النيل الأعلى عبر الكنغو الفرنسى ، فعجلت بإعداد الحملة ، التى أخذت سيرها جنوباً بقيادة كتشنر فى مارس ١٨٩٦ وطوت فى سبيلها كل مقاومة للدراويش حتى دخلت الخرطوم ورفرف عليها العلمان المصرى والإنجليزى فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ونبش الإنجليز قبر المهدى وفصلوا رأسه عن جثته فارتكبوا عار الأبد ولوثوا نقاء الإنسانية التى يدعونها فى أربعة أركان الأرض .

وكانت فرنسا قد سبقت إلى حوض النيل الأعلى ووصلت الحملة الفرنسية بقيادة مارشان الى فاشودة ورفرف العلم الفرنسى عليها فى ١١ يولية سنة ١٨٩٨ ، وصدرت

الأوامر من حكومة لندن إلى كتشنر بالتقدم فى النيل الأبيض ومنع فرنسا من كسب أى حق لهـا فى أعالى النيل ، ولم تقصـد فرنسا من وراء ذلك احتلال أعالى النيل فحسب بل كانت تقصـد إثارة المسـألة المصرية وحمل انجلترا على الجلاء عن مصر .

ولـكن المناورة التى قامت بها فرنسا انتهت كمثيلاتها بالفشل فقد رضيت فرنسا بالانسحاب بعد أن احتج عليها كتشـنر باسم الخديو ، وقد توترت العلاقات بين الدولتين وكادت تنذر بحرب لم تلمس فرنسـا من الدول ما يشجعها على خوض غمارها ، حتى من جانب روسيا حليفتها التى نصحتها بتسوية الحادث بسلام ، وكانت هذه آخر محاولة جدية لفرنسا فى إثارة المسـألة المصرية وأخذت توجه اهتمامها إلى مناطق اسـتعمارها فى أفريقيا الشماليه الغربية وتجفو اهتمامها بوادى النيل حتى عقد الإتفاق الودى بينها وبين انجلترا عام ١٩٠٤ واعترفت كل منهما بنفوذ الأخرى فى مناطق احتلالها .

ودخلت انجلترا السودان فى ركاب فى مصر ولـكنها كانت تقود الركب وتحدوه واعتبرت استعادة السودان فتحا جديداً لها فيه ما لمصر من حق الفتح فأبرمت اتفاقية الحـكم الثنائى على هذا الأساس فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، وكان الإهتمام الدولى بالمسألة المصرية قد فتر ولم تكن تركيا بقادرة على أن تعمـل عملا جديا لمقاومة الإحتلال البريطانى وانتهت معارضة فرنسا بعد حادث فاشودة ، فسارت نحو أهدافها فى السودان وفق سياستها المرسومة ، فهى لا تحب أن تنفرد مصر بحكم السودان حتى لا تـكون هذه المساحة من وادى النهر حاجزاً قوياً بين امبراطوريتها الاستعمارية الجديدة فى جنوب وشرق أفريقيا وبين مراكز نفوذها وخطوط مواصلاتها فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر كما ترمى فى الوقت ذاته الى ضمان نفوذها فى مصر إذا اضطرتها الظروف الدولية وتطور الوعي القومى فى مصر يوما ما إلى الجلاء عنها ، فإنها تسـتطيع أن تضمن نفـوذها فى وادى النيل بله فى مصر حيث تطل عليها من السودان ما دامت حقوقها فى السودان تكفلها وتضمنها اتفاقيـة الحكم الثنائى بينها وبين مصر فأغضت فى هـذا الإتفاق عن الإشارة إلى حقوق السيادة العثمانية على وادى النيل على اعتبار أن استعادة السودان فتح جديد يجب حقوق السيادة العثمانية

والحكم المصرى القديمة ، وحرصت على الغاء الأمتيازات التى كانت للدول فى أملاك الباب العالى فى السودان والغاء التمثيل القنصلى والسياسى فيه ما لم توافق حكومة لندن على ذلك ، ولم ترض أن تنفرد بحكم السودان لا احتراما لحق مصر الشرعى فى حكمه ولكن حرصاً على مصلحتها الخاصة فأن نفقات جيش الأحتلال يجب أن تقوم بها الحكومة المصرية مادامت استعادة السودان قد تمت باسم الخديو كما يجب أن تقوم مصر أيضاً بسد العجز الناتج عن زيادة المنصرف على الدخل فى ميزانية السودان وكان من الواضح احتمال هذا العجز فى بلاد قضت الثورة فيها على مشروعات الإصلاح والعمران وعليها أن تبدأ من جديد على حساب مصر .

وما أرادت انجلترا من عقد اتفاقية الحكم الثنائى أن تضفى على سياستها فى السودان مظهراً قانونيا ولو من الناحية الشكلية ، فماكان بها حاجة إلى كسب حق تملكه فعلا ، ولا يمكنها أن تتجاهل مدى حقوق الخديو فى عقد الاتفاقات السياسية فما كانت معاهدة لندن أو الفرمانات السلطانية التى وافقت عليها الدول ومن بينها انجلترا تعطيه هذا الحق فضلا عن التصرف فى أملاكه أو التنازل عن الإمتيازات التى منحت له من السلطان أو بعضها للغير فقد منعه السلطان هذا الحق فى فرمان تولية الخديو توفيق عام ١٨٧٩ كما لايمكنها أن تتناسى المواثيق الدولية التى أبرمت لضمان سلامة الدولة العثمانية أو ميثاق ترابيا المعروف بميثاق النزاهة الذى أبرمه أعضاء مؤتمر الآستانة وتعهدوا فيه بأن لايكون لاى دولة امتياز أقليمى أو تجارى لا يكون للدول الأخرى فى أملاك الخديو ، ووقعت انجلترا هذه المواثيق كما وقعتها الدول الأخرى ثم أن انجلترا تعرف تماما أن أركان التكافؤ الدولى بين المتعاقدين فى إتفاقية الحكم الثنائى غير قائمة فعلا ، فما كان الجانب المصرى ليرفض الإتفاق وهو يذكر أن التبليغ البريطانى فى يناير عام ١٨٨٤ يجعل من نصائح المعتمد البريطانى فى مصر ، أمراً واجب التنفيذ يقال من لايقبلها أو ينفذها ، هذا فضلا عن سلطة الاحتلال القائمة فعلا .

لم تكن انجلترا تجهل كل هذا أو تتناساه أو تتغابى عنه ، ولكنها كانت تهدف من وراء هذا الاتفاق إلى غاية أبعد من أن تضفى على سياستها فى السودان مظهراً قانونيا ، وهى أن تجعل من مسألة السودان مسألة خاصة بينها وبين مصر فلم تشر إلى

حقوق السيادة العثمانية فى وادى النيل والغت التمثيل السياسى والقنصلى فى السودان إلا ببراءة من الحكومة الانجليزية كما الغت الامتيازات الأجنبية فيه ، أما حق مصر فى عقد الاتفاق أو حقوق السيادة العثمانية أو المواثيق الدولية التى أبرمت قبل ذلك فلا تعدو أن تكون موضوعا يطول حوله الجدل الفقهى والمناقشة القانونية إذا أثيرت هذه الاعتراضات بعد ذلك .

وقد أعدت انجلترا أتفاقية الحكم الثنائى ووقعها الجانب المصرى دون أن يناقشها أو يبدى فيها رأيا أو يعرف الرأى العام فى وادى النيل عنها شيئا قبل توقيعها وأمضاها كرومر المعتمد البريطانى فى مصر نيابة عن حكومته كما وقعها بطرس غالى وزير الخارجية المصرية نيابة عن الحكومة المصرية وذلك فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

ونورد فيما يلى نص الإتفاقية لأهميتها فى دراسة المسألة السودانية :

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الإنجليز وحكومة الجناب العالى خديو مصر بشأن إدارة السودان فى المستقبل

« حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمه الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالإتحاد حكومتا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالى الخديو .

« وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة .

« وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الإدارى والقانونى الآنف ذكره وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل .

« وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن إداريا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لهما .

« فلذلك قد صار الإتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بمالهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو .

المادة الأولى : تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

أولا : الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، أو

ثانيا : الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومه المصرية بالأتحاد ، أو .

ثالثاً : الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً .

المادة الثانية : يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط

المادة الثالثة : تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى يصدر برضا الحكومة البريطانية .

المادة الرابعة : القانون وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنهـا تحسين إدارة حكومـة السودان أو تقرير حقوق

الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام ، وهذه القوانين والأوامر واللوائح ، يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أوعلى جزء معلوم منه ويجوز أن يترتب عليها صراحة أوضمنا تحوير أونسخ أىقانون أوأيةلائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة ، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرهامن هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومةالبريطانية بالقاهرةوإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى .

المادة الخامسة : لايسرى على السودان أوعلى جزء منه شىء مامن القوانين أوالأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

المادة السادسة : المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوربيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرةأوالسكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدودهلايشملامتيازاتخصوصية لرعايا أية دولة أو دول .

المادة السابعة : لاتدفع رسومالواردات على البضائع الآتية منالأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية ، إلا أنه فى حالة ماإذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أواية ميناء أخرى من موانىء ساحل البحر الأحمر لايجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب مايقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن .

المادة الثامنة : فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها بوجه من الوجوه .

المادة التاسعة : يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

المادة العاشرة : لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء أو مأمورى قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

المادة الحادية عشرة : ممنوع منعاً مطلقا إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

المادة الثانية عشرة : قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يولية سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها .

تحريراً بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

الإمضاءات

كرومر   بطرس غالى

ثم صدر ملحق للاتفاقية فى ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ وذلك فى مادة واحدة بهذا النص :

« تعتبر ملغاة من الآن النصوص الواردة فى وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التى كانت بموجبها مدينة سواكن مستثناة من أحكام النظام الذى تقرر فى ذلك الوفاق لإدارة السودان فى المستقبل » .

وكسبت إنجلترا بهذه الإتفاقية كل غنم يمكن أن تطمح إليه فى السودان ولم تترك لمصر غير الغرم ، فقد تحملت المالية المصرية أكثر نفقات الحملة ولم تدفع إنجلترا مادفعته إلا مضطرة عندما ألزمت الدول مصر بدفع القرض الذى سحبته لحساب الحملة من صندوق الدين بعد أن أصدرت المحكمة المختلطة حكمها بذلك ، فتقدمت الحكومة الإنجليزية بالمبلغ ثم نزلت عنه لمصر بعد النصر . والتزمت مصر بسد العجز فى ميزانية السودان وكثيراً ما اعتمدت عليها إنجلترا فى تمويل مشروعات الإصلاح فيه .

واستأثرت الحكومة الإنجليزية بالوظائف الكبرى فى السودان للانجليز ولم تترك للمصريين غير الوظائف الصغرى وأخذت فى سياسة فصـــل السودان عن مصر والاستئثار به لنفسها وجرت إصلاحاتها فيه وفق هذه الغاية .

على أن المشاكل التى يمكن أن تعترض سبيل إنجلترا فى الســودان لم تنشأ إلا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بينما تضاعفت أهمية الســودان بالنسبة لها ، فأصبحت مسألة السودان عقبة تعترض المفاوض المصرى فى حل المسألة المصرية عندما أصبحت هذه المســألة ثنائية بين مصر وإنجلترا بعد انهيار الدولة العثمانية وتنازل تركيا عن سيادتها على البلاد التى كانت لها قبل الحرب ونمو المصالح البريطانية فى السودان .

٢ — قناة السويس والمسألة المصرية :

تضفى قناة السويس على المسألة المصرية أهمية لم تكن لها قبل شق القناة وإن لم تفقد مصر طوال تاريخها عناصر هـذه الأهمية لتوسط موقعها الجغرافى بين قارات العالم القديم واحتلالها فى ملتقى المواصلات العالمية موقعا فريداً يجعل لها السيادة على تجارة المرور بين الشرق والغرب ، ولم تفقد مصر هذه الأهمية إلا لفترة قصيرة إذا قيست إلى ما كان لها من أهمية طوال تاريخها المديد يوم تحولت تجارة الشرق إلى الطريق البحرى الطويل حول أفريقيا إثر الكشوف الجغرافية التى دفعت إليها حاجة الغرب إلى تجارة الهند والتخلص من سيطرة مصر على هـذه التجارة بالبحث عن طريق بحرى آخر لا يمر بمصر أو بمناطق نفوذها فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ولا يتعرض لمخاطر الطريق البرى ومكوسه العالية وتعنت الحكام والأمراء فى فرضها وجبايتها فضلا عن فتك اللصوص وغزو قطاع الطرق والضرب فى مفاوز لا يعرفها غير حداتها وأربابها من أهل البلاد وسادة الطرق ودلال القوافل .

وكان لاهتمام فرنسا بإحياء الطريق البرى القديم ما يبشر بعودة النشاط إلى هذه المناطق من جديد ، ولكن النشاط لم ينحرف إليه إلا بعد شق قناة الســويس وإن كان هذا الاهتمام الفرنسى بالطريق البرى ، ذلك الاهتمام الذى أظهرته حملتهم على مصر ودخلت به فى طور التنفيذ الفعلى للمشروعات الفرنســية فى الشرق ، قد أثار

كوامن الحذر والخوف من الدولة التى تهتم باتجاهات هذه المشروعات الفرنسية وخطرها على مستعمراتها وتجارتها وهى انجلترا ، فأخذت تتيقظ لأهمية مصر التى تسيطر على الطريق البرى وتشرف على منافذه وكان هذا الاهتمام بداية المسألة المصرية . ثم كان شق قناة السويس وتحول تجارة الشرق والغرب إليها ما ضاعف من أهمية مصر واهتمام الدول بها حتى أصبحت المسألة المصرية ترتبط أشد الارتباط بهذا الشريان المائى وحمايته وحرية الملاحة فيه .

ولم تكن فكرة شق قناة تصل البحرين وتربط بينهما وليدة التفكير الفرنسى ، فقد سبقهم إليها الفراعنة والعرب وكانت لهم فى هذا السبيل مشروعات أخذت طور التنفيذ العملى فوصلوا النيل بالبحر الأحمر وعبرت السفن بين البحرين على لجج من مياه النيل الطامية حتى إذا قلت العناية بالقناة النيلية ، كانت الصحراء من الجانبين تسفى عليها رمالها كما كان النيل يرسب طميه فى قاعها ما يعجل بردمها وزوالها .

وشغل علماء الحملة الفرنسية بالفكرة وكانت موضع اهتمامهم تنفيذاً لسياسة فرنسا الاستعمارية فى الشرق ، ولكن ضل حسابهم تقدير مستويات المياه فى البحرين حتى أصلح الخطأ فى أخريات عهد محمد على على يد لجنة هندسية دولية قدمت إلى مصر واستمرت فى دراسة الفكرة حتى عهد عباس وتبينت أن فرق مستوى البحرين ليس بذى بال ، ولكن محمد على البعيد النظر الخبير بمطامع السياسة الأوربية ومشروعاتها الاستعمارية لم يأبه للمشروع ولم يشجعه واكتفى بتمهيد طريق السويس الإسكندرية وتعبيده وتأمينه للتجارة فلم يكن يحب أن تقوم فى مصر مشكلة كمشكلة البواغيز تجر عليها ألواناً من المتاعب هى فى غنى عنها ، ولم يكن عباس أقل من جده جفوة للمشروع فقد كان حذره الأصيل من الأجانب وحبه للانطواء والعزلة يقعدان به عن كل سبيل للاصلاح أو الثقة فى أصحاب المشروعات الأوربية وأهدافهم البعيدة . أما سعيد فكان كريماً مضيافا ، وقع تحت تأثير صديقه فرديناند ديلسبس وإغرائه بما ينتظره من خلود الذكر وثناء العالم وتمجيده إذا قدر لمشروع القناة أن يظهر على يديه ، فاستجاب إليه ومنحه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر

قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ عاما ابتداء من تاريخ افتتاح القناة للملاحة ، وعرف العقد الذى وقعه سعيد وديلسبس فى ذلك التاريخ بعقد الامتياز الأول تمييزاً له عن عقد الامتياز الثانى المؤرخ فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ .

وتكونت شركة قناة السويس باسم « الشركة العالمية لقناة السويس البحرية » عام ١٨٥٨ بعد أن أتمت لجنة من كبار مهندسى العالم دراسة المشروع على الطبيعة وكان ديلسبس قد استعان بها ليطمئن الناس على نجاح مشروعه فيقبلون على المساهمة فى الشركة ، ووقع بعد ذلك عقد الامتياز الثانى مع سعيد ثم طرحت أسهم الشركة للاكتتاب العام فى أسواق العالم المالية وكان الفرنسيون أكثر الناس إقبالا على الاكتتاب ، ويأتى اكتتاب والى مصر فى المرتبة الثانية بعد اكتتاب الفرنسيين ثم يلى ذلك اكتتاب الأسبان فالإيطاليين فالهولنديين ، ووقفت دول كثيرة تحجم عن الاكتتاب فى رأس المال رغم الجهود التى قام بها ديلسبس فى الدعاية للمشروع ومن بينها إنجلترا أول الدول التى أفادت من القناة فقد وقفت تعارض المشروع وتعمل على فشله حتى أن بالمرستون راح يصف المشروع بالخيال ويتهم القائمين به بالتغرير بأصحاب رءوس الأموال ، ولكنه لم ينس أن يشير فى بداية هذا التصريح الذى أدلى به مجلس العموم فى يونية سنة ١٨٥٧ ، إلى الجهود التى بذلتها حكومة جلالة الملكة لدى الباب العالى طوال خمسة عشر عاما لتمنع تنفيذ هذا المشروع .

وسار سعيد قدما فى تنفيذ المشروع لا يثنيه توقف السلطان عن إقرار عقد الامتياز أو معارضة إنجلترا للمشروع أو ما كان فى عقدى الامتياز من إجحاف بحقوق مصر وسيادتها على أراضيها ، ودق ديلسبس أول معول فى حفر القناة فى ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ معتمداً على تأييد سعيد ومعونته .

وقدرت انجلترا من أول الأمر خطر هذا الشريان المائى وسيطرة فرنسا عليه ، على تجارتها ومواصلاتها الإمبراطورية ومستعمراتها ومصالحها العديدة فى الشرق ، فأخذت تعارض فى تنفيذ المشروع وهالها أن يبدأ العمل فى حفر القناة فسعت لوقف العمل لدى الباب العالى وكادت تنجح فى مسعاها عندما اشتبكت فرنسا والنمسا فى الحرب عام ١٨٥٩ ، وتراخت فى تأييد المشروع حتى لا تتسع هوة الخلاف بينها وبين

إنجلترا فى الوقت الذى تشتبك فيه فى حرب خارجية ، ودبرت بالاتفاق مع الباب العالى خلع سعيد وقام أسطولها بمظاهرة بحرية فى المياه المصرية ولكن التدبير لم يتم وإن كان الخوف قد لعب ببال سعيد فطلب إلى شريف وزير الخارجية أن يبعث إلى ديلسبس بوقف العمل فى حفر القناة ، على أن الصلح ما لبث أن عقد بين فرنسا والنمسا فعادت فرنسا إلى تأييد المشروع ، غير أن إنجلترا استمرت فى سعيها لدى الباب العالى الذى أرسل رسولا إلى سعيد يطلب إليه وقف أعمال الحفر فى برزخ السويس ، وتدخل نابليون الثالث يبذل نفوذه لدى الباب العالى لإبطال هذا الأمر .

وهكذا شهدت الآستانة معركة ديبلوماسية عنيفة بين فرنسا وإنجلترا حول مشروع حفر القناة ، ودلت البوادر على ما يمكن أن يكون لهذا الشريان المائى من أثر فى مستقبل المسألة المصرية . ولا نغالى إذا قلنا أن المسألة المصرية قد ارتبطت منذ ذلك الحين بقناة السويس فأصبحت أهم عنصر فيها .

ورأت إنجلترا أن سياستها الشرقية يجب أن تتطور تبعاً لهذا العامل الجديد فقد تم حفر القناة وافتتحت للملاحة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ بعد خمسة عشر عاما من توقيع عقد الامتياز الأول وارتبط الشرق والغرب بأقصر طريق يجتاز الأراضى المصرية فى عهد خديو مصر إسماعيل .

وكان ظفر إنجلترا بشراء نصيب مصر من أسهم القناة عام ١٨٧٥ أول بادرة توحى بتطور سياسة إنجلترا الشرقية ولمس العالم فى هذا العمل ماتكنه إنجلترا من اهتمام بالقناة ولم ير فيه غير عمل سياسى بحت ينم عن أهداف السياسة البريطانية المقبله ، فى هذه المناطق فقد أصبحت إنجلترا بهذه الصفقة أول دولة بعد فرنسا تساهم فى رأس مال الشركة ، وتتفوق على فرنسا بعظم مصالحها فى القناة مما أثار الريب والظنون حول مستقبل هذا الشريان المائى ، وأيقظ حذر الدول الأخرى على مصالحها من طغيان النفوذ البريطانى الجديد . ثم احتلت قبرص عام ١٨٧٨ فأصبح الظن يقينا بتطور الاهتمام البريطانى بهذه المناطق تطوراً أخذ يكشف عن حقيقة اتجاهاته ومراميه ولم يمض غير خمس سنوات على احتلال قبرص حتى احتلت مصر عام ١٨٨٢

وظهرت نواياها على حقيقتها سافرة دون تمويه ، عندما انفردت دون فرنسا بالعمل فى وادى النيل وألغت المراقبة الثنائية وأصدر جرانفل تصريحه المعروف تعليقاً على ذلك « بأن حكومة جلالة الملكة لا تستطيع أن تشرك معها فرنسا فى ثمار حملة لم ترض أن تشترك فى نفقاتها أو أخطارها » .

واعتدت إنجلترا لأول مرة فى تاريخ القناة على حيادها الذى كفلته المادتان (١٤ ، ١٥) من عقد امتياز الشركة بأن جعلت من منطقة القناة ميدانا لعملياتها الحربية ضد العرابيين فى الوقت الذى وثق فيه عرابى بحيدة القناة فلم يلجأ إلى عمل يعطل تقدم القوات الإنجليزية خلالها .

وتبرر إنجلترا عدوانها بأن المادتين (١٤ ، ١٥) من عقد الامتياز الثانى لا تضمنان حياد القناة من الناحية القانونية فأن هذا الحياد لا بد أن تقره الدول ولا يصدر من طرف واحد ، وقد أدرك ديلسبس هذه الحقيقة عندما سعى إلى مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ يطالب أعضاء المؤتمر بالموافقة على حياد القناة ، وحال دون نجاحه معارضة المندوب الإنجليزى لورد كلارندن فى عرض هذا الطلب ، ولعله كان لا يرمى إلى أكثر من معارضة مشروع القناة الذى تتبناه فرنسا وتعارض إنجلترا تنفيذه ، واقترح



قناة السويس

مترنخ أن يدعو والى مصر الدول إلى مؤتمر يعقد فى الآستانة لتقرير حياد القناة ، ومن الطبيعى أن يرفض سعيد هذا الاقتراح فإن فيه افتياتا على حقوقه ، ولم يكن الباب العالى نفسه راضياً عن تنفيذ المشروع .

ولم يغفل ديلسبس عن إثارة هذا الموضوع ، فقد عاد بعد ثمان سنوات يدعو الدول إلى اتفاق دولى لإقرار حياد القناة وحرية الملاحة فيها دون جدوى ، ثم أثارت فرنسا موضوع حيدة القناة عام ١٨٦٩ ، كما أثاره مؤتمر التجارة الدولى الذى عقد فى القاهرة فى ذلك الوقت ، وآمنت الأميرالية البريطانية عندما وقعت الحرب بين فرنسا وألمانيا عام ١٨٧٠ بضرورة عقد اتفاق دولى يضمن حياد القناة فقد خشيت أن يلجأ الأسطول الفرنسى إلى موانىء القناة .

وفى مؤتمر تحديد حمولة السفن الذى عقد فى أخريات عام ١٨٧٣ اعترف المؤتمر بحق السفن الحربية فى استخدام القناة ، وإن ظل هذا الاعتراف بعيداً عن المعنى الحقيق للحياد وحرية الملاحة فى القناة ، ولم تبحث الدول ما يمكن أن يحدث للسفن التجارية فى حالة ما إذا اشتبكت تركيا فى حرب مع دولة أخرى .

وعندما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧ وخشيت انجلترا عدوان روسيا على القناة باعتبارها أرضاً عثمانية ، أعلنت أن عملا من هذا القبيل لا يتفق وتأييد انجلترا الضمنى لحياد القناة ، واعترفت روسيا بوجهة النظر البريطانية ، ووقف الموضوع عند هذا الحد حتى عقد مؤتمر القانون الدولى فى العامين التاليين فحتم أن تكون حرية الملاحة فى القناة عملا دولياً بعيداً عن الإتجاهات العدائية للدول أثناء الحرب ، ولم يتم شىء من هذا القبيل .

ثم أن عدوانها على القناة — كما تدعى وكما يذكر ويلسون فى كتابه عن قناة السويس — يبرره اعتراف الخديو توفيق فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ باحتلال القوات البريطانية للبلاد لتوطيد النظام وإقرار الأمن فى ربوعها .

ولكن ، ألا يمكننا أن نقول أن اعتراف انجلترا وغيرها من الدول المساهمة بقانون الشركة القائم على الحقوق التى نص عليها عقد الإمتياز ، هو اعتراف

ضمنى بما نص عليه عقد الإمتياز من حيدة القناة ، وحرية الملاحة فيها ؟

وكأنما أحست انجلترا بخطر هذا العدوان وأثره ، فأبلغت الدول الكبرى التى يهمها الأمر فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ بأنها ترى ضرورة حياد القناة وحرية المرور فيها لكل الدول على السواء واقترحت عليها النظر فى البنود الآتية التى يمكن أن يقوم عليها الاتفاق :

١ — يجب أن تكون القناة حرة للملاحة لكل السفن وفى كل الظروف .

٢ — يجب أن تحدد — فى حالة الحرب — المدة التى تمكثها السفن الحربية المحاربة فى مياه القناة ، وألا تزاول عملية إنزال قوات أو تفريغ ذخائر حربية فى القناة .

٣ — يجب ألا تقوم الدول بأعمال عدائية فى القناة أو قريباً منها أو فى أى منطقة من مناطق المياه الإقليمية المصرية ، حتى ولو كانت إحدى هذه الدول هى تركيا .

٤ — لا يسرى البندان السابقان (٢ ، ٣) فى حالة الوسائل الضرورية للدفاع عن مصر .

٥ — على أى دولة تلحق سفنها ضرراً بالقناة أن تتحمل النفقات التى يتطلبها إصلاحها العاجل .

٦ — لمصر الحق فى حدود قواها أن تتخذ كافة الوسائل لتنفيذ الشروط المفروضة على السفن المحاربة المارة فى القناة أثناء الحرب .

٧ — لا تقام أية تحصينات على جانبى القناة أو فى المناطق المجاورة لها .

٨ — ليس فى هذا الاتفاق ما يفترض التعرض لحقوق مصر على أراضيها ، أو يؤثر عليها أكثر مما نص عليه الاتفاق .

ونلاحظ فى هذه المقترحات أن انجلترا قد أهملت الإشارة إلى حقوق السيادة العثمانية على مصر وربطت حق الدفاع عن القناة بمصر وحدها .

واكتفت انجلترا من هذه المقترحات بإبلاغ وجهة نظرها هذه إلى الدول ولم تقم بأى مجهود لإقرارها أو دعوة الدول لمناقشتها حتى أثارت فرنسا الموضوع من جديد عام ١٨٨٥ واقترحت عقد مؤتمر من الدول الكبرى ومعها أسبانيا وهولندا لمناقشة حياد القناة ، وعقد المؤتمر واستمر منعقداً قرابة شهرين ونصف وظهرت فكرة تدويل القناة لأول مرة عندما طلبت فرنسا وشايعتها كل من روسيا وألمانيا أن يعهد بحماية القناة إلى هيئة دولية ، بينما أبدت انجلترا تمسكها بوجهة النظر التى أبدتها فى بلاغها العام إلى الدول عام ١٨٨٣ ، وأن لا تقيد نصوص الاتفاق من حرية العمل لحكومة جلالة الملكة فى مصر ما دام الاحتلال البريطانى المؤقت قائماً ، وأخيراً انفض المؤتمر دون أن يصل إلى اتفاق يرضى به الجميع ، حتى عادت الفكرة تشغل الأذهان من جديد أثناء المفاوضات التى جرت بين انجلترا والباب العالى عام ١٨٨٧ لتحديد تاريخ الجلاء البريطانى عن مصر وشروطه ، فقد أثار درمندولف رئيس الوفد البريطانى موضوع حرية الملاحة فى القناة ، ووضع مشروع اتفاق يتضمن وجهة النظر البريطانية ، التى بينتها من قبل ، لم توافق عليه الدول ولم يقره السلطان بإيعاز من فرنسا وروسيا .

وبعد مفاوضات طويلة بين الحكومة البريطانية برئاسة سالسبرى وحكومات الدول التى يهمها الأمر أبرمت معاهدة الآستانة ووقعتها كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولندا وإيطاليا وأسبانيا وروسيا وتركيا والنمسا فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ ، وقيدت انجلترا موافقتها على المعاهدة بتحفظ ينم عن أهدافها المقبلة فى مصر ولا يخرج عما أبدته من قبل فى تصريح يناير سنة ١٨٨٣ وفى مؤتمر باريس سنة ١٨٨٥ ، هذا نصه :

« يرى مندوبو بريطانيا ، وهم يقدمون نصوص هذه المعاهدة كاتفاق نهائى لضمان حرية استخدام قناة السويس ، أن من واجبهم تقديم تحفظ عام حول تطبيقها فيما إذا تعارضت مع الحالة المؤقتة والاستثنائية القائمة فى مصر ، أو احتملت أن تعرقل حرية العمل لحكومة جلالة الملكة أثناء احتلال مصر بقوات جلالتها البريطانية » .

ولم تنص معاهدة الآستانة صراحة على حيدة القناة أو دوليتها وإن تضمنت بنودها حرية الملاحة للدول على السواء فى الحرب والسلم ، وحرمت القيام بعمليات حربية فى مياهها أو قريبا منها أو تحصين سواحلهـــا ، وخولت الحكومة المصرية أمر المحافظة على تنفيذها والاستعانة بالحكومة العثمانية إذا أعوزتها الوسائل إلى ذلك ، كما ضمنت حقوق السلطان وحقوق الخديو التى خولتهـــا له الفرمانات المختلفة ، ولم يرد فيها ما يشير إلى أى حق لبريطانيا فى مصر أو فى القناة يميزها على غيرها من الدول وكانت بريطانيا حريصة بسبب ذلك على تقديم تحفظها السابق على أنها عادت فسحبت هذا التحفظ بعد أن أبرمت الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٤ .

وقد ورد فى المادة الثامنة ما يشير إلى احتمال إشراف دولى على القناة ،ولكن التحفظ البريطانى قد ألغى مفعول هذه المادة وبقى هذا التحفظ ساريا بشأنها حسب بعد سحبه عقب إبرام الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ، وحال دون تحقيق هذا الإشراف الدولى .

ولم يقع فى القناة أو عليهـــا بعد هذه المعاهدة ما يخل بشروطها وبقيت حيدتها سليمة فى الحرب والسلم على السواء إلا عندما هاجمتها القوات التركيـــة سنة ١٩١٥ وعندما فرضت عليها بريطانيا الحصار البحرى فى الحربين العالميتين الماضيتين .

وأخذت السفن الحربية تسلكها منذ ذلك الوقت دون أن تتعرض لسلامة القناة أو تخل بشروط المعاهدة فقد اجتازتها السفن الحربية الأسبانية عام ١٨٩٨ للدفاع عن الفلبين كما اجتازتها سفن الأسطول الروسى عام ١٩٠٥ لحرب اليابان وفى الحرب التركية الإيطالية سنة ١٩١١ احتفظت القناة بحيدتها وظلت مفتوحة تجتازها سفن المتحاربين على السواء ولم تفد تركيا من سيادتها الشرعية على مصر وكان هذا وفقاً لنص المادة الرابعة من معاهدة الآستانه التى تحظر على الدول القيام بأعمال حربية فى القناة أو على شاطئيها أو قريبا منها من شأنها أن تعرقل حرية الملاحة حتى ولو كانت السلطنة العثمانية هى إحدى الدول المتحاربة .

معاهدة الآستانة ، ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨

المادة ١ — تكون الملاحة حرة فى قناة السويس البحرية وتباح الملاحة فيها وقت الحرب ووقت السلم على السواء لجميع السفن التجارية أو الحربية دون تمييز بين الدول ولهذا فأن الدول المتعاقدة تتعهد بأن لا تعرقل بأية طريقة حرية استعمال القناة فى وقت الحرب أو فى وقت السلم .

ولا تخضع القناة مطلقاً للحصر البحرى .

المادة ٢ — تعترف الدول المتعاقدة بأهمية ترعة المياه العذبة للقناة البحرية . ومن ثم تقر تعهدات الجناب الخديو مع شركة قناة السويس العمومية فيما يختص بترعة المياه العذبة ، تلك التعهدات المنصوص عليها فى الاتفاق المؤرخ فى ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ والتى تتكون من مقدمة وأربع مواد .

وتتعهد الدول أن لا تمس سلامة هذه الترعة أوأحد فروعها بحيث تبقى فى مأمن من أى شروع فى ردمها .

المادة ٣ — تتعهد الدول المتعاقدة أيضاً بأن لا تتعرض بسوء للمهمات أو المبانى أو المنشئات أو سائر متعلقات القناة البحرية أو ترعة المياه العذبة .

المادة ٤ — بما أن القناة تبقى مفتوحة وقت الحرب ، وتباح حرية الملاحة فيها حق للبوارج الحربية التابعة للدول المحاربة ، حسب نص المادة الأولى من هذه المعاهدة فان الدول المتعاقدة تتعهد بعدم استعمال أى حق للحرب وعدم القيام بأى عمل عدائى أو أى عمل من شأنه أن يعوق حرية الملاحة فى القناة أو فى أحد موانئها وفى منطقة ثلاثة أميال بحرية من هذه الموانىء حق ولوكانت السلطنة العثمانية هى إحدى الدول المحاربة .

وليس للبوارج الحربية التابعة للدول المحاربة أن تمتاز فى القناة أو فى أحد موانئها إلا فى حدود ما تقتضيه الضرورة ، وعليها أن تجتاز

القناة بأسرع ما يمكن بحسب اللوائح المعمول بها دون أن تقف بها إلا بما تقتضيه ضرورات خدمة السفينة ، ويجب أن لا تتعدى مدة إقامتها ببور سعيد أو فى ميناء السويس مدة أربع وعشرين ساعة إلا فى الأحوال القهرية وفى مثل هذه الحالة يجب أن تقلع هذه السفينة فى أول وقت ممكن . ويجب فى حالة مرور عدة سفن حربية معادية فى القناة أن تمر أربع وعشرون ساعة بين خروج إحدى هذه السفن من الميناء وبين إقلاع سفينة معادية لها من نفس الميناء .

المادة ٥ — لا يجوز فى وقت الحرب للدول المحاربة أن تنزل فى القناة وموانئها أو تنقل منها جنوداً أو ذخائر أو مهمات حربية ولكن عندما تعترض السفن عوائق مفاجئة فى القناة تعوق سيرها فأنه يمكن إنزال أو نقل جماعات مجزأة من الجند فى القناة وموانئها بشرط أن لا تزيد كل جماعة منها على ١٠٠٠ رجل مع ما يناسب هذا العدد من مهمات الحرب .

المادة ٦ — تخضع غنائم الحرب للنظام المتبع فى هذا الصدد بالنسبة للسفن الحربية للدول المحاربة .

المادة ٧ — لا يجوز للدول أن تبقى أية بارجة حربية فى مياه القناة ويدخل فيها بحيرة التمساح والبحيرات المرة .

ومع ذلك فأن الدول تستطيع أن تبقى فى مينائى بورسعيد والسويس بوارج بشرط أن لا يزيد عددها عن اثنين لكل دولة ولا تخول هذا الحق للدول المحاربة .

المادة ٨ — يعهد لممثلى الدول الموقعة على هذه المعاهدة فى مصر ملاحظة تنفيذ أحكامها وفى كل الأحوال التى تصبح فيها سلامة القناة أو حرية الملاحة فيها مهددة يجتمع هؤلاء الممثلون بناء على دعوة ثلاثة منهم وتحت رئاسة عميدهم لاتخاذ الملاحظات والمعاينات اللازمة وعليهم أن يحيطوا الحكومة

المصرية علما بالخطر الذى لاحظوه لـكى تتخذ هى الوسائل التى تكفل حماية القناة وضمان حرية الملاحة فيها .

وعلى كل حال فعليهم أن يعقدوا اجتماعا مرة فى كل سنة ليتأكدوا من حسن تنفيذ هذه المعاهدة وتعقد هذه الاجتماعات السنوية برئاسة مندوب خاص تعينه لهذا الغرض حكومة السلطنة العثمانية ويمكن أن يحضر هذه الاجتماعات مندوب من قبل الخديو وله أن يرأسها فى حالة غياب المندوب العثمانى .

ويحق لهؤلاء الممثلين أن يطلبوا إزالة أى بناء أو تفريق أى حشد على إحدى ضفتى القناة يكون الغرض منه أو تـكون نتيجته عرقلة حرية الملاحة وسلامتها فى القناة .

المادة ٩ — تتخذ الحـكومة المصرية الوسائل الـكفيلة باحترام تنفيذ هذه المعاهدة وذلك فى حدود سلطتها المخولة لها بموجب الفرمانات وعلى النحو المقرر فى هذه المعاهدة .

وفى حالة ما إذا لم يكن لدى الحـكومة المصرية الوسائل الـكافية لذلك فعليها أن تطلب معاونة الحـكومة العثمانية التى عليها أن تتخذ الوسائل لتلبية هذا الطلب وتخبر بذلك الدول الموقعة على تصريح لندن المعقود فى ١٧ مارس سنة ١٨٨٥ وتبادل الرأى معها عند اللزوم فى هذا الموضوع .

ولا تمنع نصوص المواد ٤ و٥ و٧ و٨ من الإجراءات التى يمكن اتخاذها تنفيذا لهذه المادة .

المادة ١٠ — وكذلك فان نصـوص المواد ٤ و٥ و٧ و٨ لا تمنع من اتخاذ الوسائل التى يرى جلالة السـلطان وسمو الخديو فى حدود الفرمانات المخولة له ضرورة اتخاذها لضمان الدفاع بقواتهما الذاتية عن مصر أو حفظ النظام العام فيها .

وفى هذه الحالة تحيط الحكومة العثمانية الدول الموقعة على تصريح لندن علماً بذلك ، ومن المتفق عليه أيضاً أن نصوص المواد الأربع سالفة الذكر لا تمنع بحال ما الوسائل التى تراها الحكومة العثمانية ضرورية لتأمين الدفاع بقواتها الذاتية عن ممتلكاتها الواقعة على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر .

المادة ١١ — إن الوسائل التى تتخذ بمقتضى نصوص المادتين ٩ و ١٠ من هذه المعاهدة يجب أن لا تعرقل حرية الملاحة فى هذه القناة .

وفى هذه الأحوال فإنه يبقى محظوراً إقامة الحصون الدائمة التى تقام على خلاف نص المادة الثامنة من هذه المعاهدة .

المادة ١٢ — تتعهد الدول المتعاقدة بأنها تطبيقاً لمبدأ المساواة فى حرية الملاحة فى القناة الذى يعتبر ركناً هاما من أركان هذه المعاهدة بأن لا تسعى إحداها للحصول على منافع إقليمية أو تجارية أو امتيازات فى الاتفاقات الدولية التى قد تعقد فيما بعد خاصة بالقناة مع الاحتفاظ للدولة العثمانية بحقوقها الإقليمية .

المادة ١٣ — فيما عدا الالتزامات الموضحة صراحة فى نصوص هذه المعاهدة فلا تمس حقوق جلالة السلطان ولا الحقوق والحصانات والضمانات التى لسمو الخديو بمقتضى الفرمانات .

المادة ١٤ — تتفق الدول المتعاقدة على أن التعهدات المنصوص عليها فى هذه المعاهدة لا تكون موقوتة بالمدة المقررة لامتياز شركة قناة السويس .

المادة ١٥ — شروط هذه المعاهدة لا تمنع من اتخاذ الوسائل الصحية المعمول بها فى القطر المصرى .

المادة ١٦ — تتعهد الدول المتعاقدة بأن تحيط الدول التى لم توقع على هذه المعاهدة علماً بأحكامها وأن تسعى لديها للموافقة عليها .

المادة ١٧ — يحصل التصديق على هذه وتتبادل التصديقات فى الآستانة فى مدة شهر أو أقل من ذلك إن أمكن .

مصر والقناة :

لم تكن قناة السويس كسباً لمصر ، بل كانت غرما عليها من أول الأمر ، فقد تضمن عقدا الامتياز اللذان وقعهما سعيد أفدح الشروط على مصر مما حمل إسماعيل على السعى للحد من فداحة هذه الشروط بما يتفق ومصلحة البلاد ، وقال كلمته المشهورة « أريد القناة لمصر لا مصر للقناة » واتفق مع الشركة فى مارس سنة ١٨٦٣ على أن تقوم بإنشاء الترعة العذبة من النيل حتى وادى الطميلات حيث تتصل بجزئها الآخر الذى حفرته الشركة ، ويمتد من ترعة الوادى إلى القناة ، كى يحول دون نزع ملكية أراضى الأفراد .

وما لبث الخلاف أن دب بين إسماعيل والشركة حول مطالب جديدة تقدم بها إليها ، ولا تخرج عما كان يرمى إليه من التخفيف من الإلتزامات التى كان على مصر أن تتحملها بمقتضى عقد الامتياز السارى ، واحتكم الطرفان إلى الإمبراطور نابليون الثالث ، فأصدر حكمه فى النزاع فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ ، وقد حقق لإسماعيل كثيراً مما كان يرمى إليه ، ولكن الثمن كان فادحا ، فقد ألزم الحكم مصر بدفع تعويضات باهظة للشركة ، بلغت فى مجموعها ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه ، وذلك مقابل تنازل الشركة عن حقها فى مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، وحقها فى ترعة المياه العذبة ، وفى بعض الأراضى التى كانت مملوكة لها بمقتضى عقد الامتياز .

ثم عقد إسماعيل اتفاقا آخر مع الشركة بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ ، يقضى بما يأتى :

١ — تحديد مواعيد الأقساط المقدرة لأداء قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة

٢ — استعمال الأراضى المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحة .

٣ — التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضى والمبانى والأعمال الفنية التابعة لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المبانى .

٤ — بيع أراضى تفتيش الوادى للحكومة بثمن قدره عشرة ملايين فرنك . (لم تدخل هذه الأراضى فى التحكيم لأنها كانت ملكا خاصاً للشركة ابتاعتها من تركة إلهامى باشا بثمن قدره ٥٨٫٠٠٠ جنيهاوتبلغ مساحتها ٢٣٫٧٨٠ فداناً) .

٥ — حق الحكومة فى احتلال أى جهة فى الأراضى المعتبرة حرما للقناة وأى موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد ، على شرط أن لايكون ذلك الاحتلال عائقاً للملاحة .

٦ — شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضى بمبان تنشئها لمصلحتها كالبريد والثكنات والجمارك وغيرها ، على شرط أن تراعى كل ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة وأن تدفع للشركة المبالغ التى تكون قد صرفتها على تلك الأمكنة .

وأخيراً أبرم مع الشركة اتفاقا شاملا فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ يتضمن شروط الامتياز الأصلى والتعديلات التى أدخلت عليها وهو الإتفاق الذى أقره السلطان ، ووافق عليه فى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ .

وكان آخر اتفاق لإسماعيل مع الشركة ما أبرمه معها فى ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ وألغى فيه الشرط الذى ورد فى عقد الامتياز خاصاً بإعفاء واردات الشركة من الرسوم الجمركية ، مقابل تعويض قدره عشرون مليون فرنك . وفيه تنازلت الشركة أيضا للحكومة عن المبانى والمستشفيات التى كانت لها مقابل عشرة ملايين فرنك .

وهكذا دفع إسماعيل الثمن غاليا ، وكانت الخسارة التى لا تقدر يوم باع أسهم مصر فى شركة القناة وحصتها فى أرباح الشركة .

وتوضح الإحصائية التالية قيمة ما تكبدته مصر من خسائر مالية بسبب القناة

جنيه	
٣٫٤٣٦٫٠٠٠	قيمة أسهم مصر فى القناة
٣٫٣٦٠٫٠٠٠	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة
٤٠٠٫٠٠٠	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١٫٢٠٠٫٠٠٠	تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩
١٫٢٠٠٫٠٠٠	نفقات الترعة العذبة
١٫٤٠٠٫٠٠٠	نفقات حفلات القناة
٥٫٨١٤٫٠٠٠	فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم وما إلى ذلك
١٦٫٨٩٠٫٠٠٠	المجموع بالجنيهات

فإذا علمنا أن نفقات إنشاء القناة بلغت فى جملتها ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيهاً ، حسب إحصاء الشركة نفسها ، لأدركنا أن مصر وحدها هى التى تحملت العبء الأكبر فى نفقاتها وقد يهون ذلك بجانب الخسارة التى تحملتها ببيع أسهمها بثمن بخس أربعة ملايين من الجنيهات الإنجليزية فقد بلغ ثمنها ٣٢ مليونا من الجنيهات عام ١٩١٠ ،وتضاعف الثمن عام ١٩٢٩ حتى بلغ ٧٢ مليونا من الجنيهات بينما نيفت جملة أرباحها حتى ذلك العام على ٣٨٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيها كسبتها الخزانة البريطانية ، واستطاعت الشركة التى بيعت لها حصة مصر فى أرباح القناة وقدرها ١٥ ٪ بثمن بلغ ٨٨٠٫٠٠٠ جنيها ، أن تغل من استثمارها ٨٦٩٫٠٠٠ جنيهاً فى السنة بينما بلغت قيمة هذه الحصة حوالى عشرين مليوناً من الجنيهات عام ١٩٢٩ .

وكان ختام المأساة أن فقدت مصر استقلالها بسببها ، فقد كان شق القناة عاملا هاماً فى تطور السياسة البريطانية حيال مصر ، وفى تلك المنطقة الهامة من مناطق الشرق الأوسط وارتبطت المسألة المصرية منذ ذلك الوقت بالطريقة التى تكيف بها بريطانيا مصالحها فى قناة السويس كأخطر شريان فى مواصلاتها الإمبراطورية .

٣ — العقبة والحدود الشرقية :

وشغلت المسألة المصرية فى تلك الفترة التى سبقت قيام الحرب العالمية الأولى بمشكلة جاءت عرضاً فى تاريخها ولم يكن لها من التأثير فى تطوراتها ما يمس أصولها واتجاهاتها أو يتناول صميمها ولكنها كانت تتصل بسلامة الاستراتيجية البريطانية فى تلك المنطقة وتأمين حدود مصر الشرقية ، أو بالأحرى تأمين قناة السويس ، كما كانت تتصل باقتطاع جزء من الأراضى المصرية لم يكن موضع اهتمام مصر ، كما كان موضع اهتمام بريطانيا ، فإن الأيام لم تكن قد كشفت بعد عن أهميته فى نظر المصريين فضلا عن اتجاه عواطفهم نحو تركيا غضباً من الإحتلال البريطانى لبلادهم ، وإن كانت بريطانيا قد قدرت منذ البداية أهمية هذا الجزء الذى تتطلع تركيا لاقتطاعه من مصر ، لا حباً فيها ، ولكن حرصاً على مصالحها فى مصر ، وفى قناة السويس .

وقد جدت هذه المشكلة عند تولية الخديو عباس الثانى ، عند ما أرادت تركيا أن تنص فى فرمان توليته على ما يجعل سيناء خارج الحدود الشرقية لمصر على اعتبار أنها تابعة لولاية الحجاز ، مما يعرض قناة السويس لخطر اقتراب النفوذ التركى ، فضلا عما تضفيه صحراء سيناء من حماية طبيعية على القناة تضعف إذا كانت سيناء خارج حدود مصر .

وقد بدأت أهمية سيناء وميناء العقبة فى الظهور من جديد بعد ظهور إسرائيل وأطماعها فى العقبة وسيناء من ناحية ، وتطلع بريطانيا لها لتكون قاعدة حربية ترتكز عليها نفوذها فى الشرق الأوسط ، إذا جلت عن ضفتى القناة من ناحية أخرى . وقد آثرنا لأهمية سيناء وموقع العقبة الإستراتيجى أن ندرسهما ضمن ما ثار وما يثور من مشاكل المسألة المصرية .

ولم تكن سيناء فى فترات التاريخ التى سبقت حفر القناة حاجزاً يعوق تقدم الغزاة الذين كانوا يسلكون الطريق الساحلى شمال سيناء للتقدم إلى بيلوز حيث يلاقون أول مقاومة من القوات التى تدافع عن مصر ، ولكن سلامة القناة كانت تستلزم أن تبعد خطوط الدفاع عن مصر شرقا إلى نهاية الحدود الشرقية لسيناء حيث

ترتكز على نهاية خليج العقبة ، حتى لاتتعرض القناة إذا ما دارت رحى الحرب على ضفافها لما يعطل سير الملاحة فيها وإن غابت هذه الحقيقة عن بعض العسكريين الإنجليز فى بداية الحرب الأولى الذين كانوا يستبعدون غزو مصر عبر صحراء سيناء حتى وقع الغزو فعلا وانتصر أصحاب الرأى الآخر الذى ينادى بإقامة خطوط الدفاع عن القناة بعيداً عنها فى نهاية الحدود الشرقية لسيناء حيث يقع ميناء العقبة على رأس الخليج المسمى باسمها والذى كان يثير اهتمام بريطانيا وتطلعها منذ أن احتلت مصر عام ١٨٨٢ وإن لم تضمها إلى مناطق نفوذها إلا فى أعقاب الحرب الأولى فقد كانت جد حريصة على أن تظفر بها لشرق الأردن ودفعت الأمير عبد الله الذى نصبته أميراً على تلك الإمارة التى اقتطعتها من سوريا الجنوبية والتى تقع شرق نهر الأردن إلى مطالبة أبيه بضم ميناء العقبة إلى إمارته لتكون فى منطقة الإنتداب البريطانى وتحت نفوذه ثم حملت الملك عبد العزيز آل سعود على إقرار هذا الوضع فى معاهدة جدة التى أبرمتها معه عام ١٩٢٧ وإن لم يتنازل عنها رسميا .

ويرجع اهتمام بريطانيا بالعقبة إلى أهميتها الاستراتيجية كمركز يؤثر تأثيراً مباشرا على سلامة الطريق البرى إلى الخليج الفارسى فالهند كما أنها تتحكم فى الطرق البرية إلى الحجاز وفلسطين وسوريا وتطل على صحراء سيناء ويستند إليها خط الدفاع الأول عن قناة السويس الذى يمتد من غزة إلى بير سبع فالعقبة وهو الخط الدفاعى الذى أشار إليه «سيرارشيبالد مورى» بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩١٦ فى خطابه إلى القيادة العليا البريطانية وقد بين رأيه صراحة فيما نصه «من الواضح أن تأمين سلامة مصر ضد أى هجوم من الشرق لا يكون مضمونا بإقامة خط دفاع قوى على ضفة القناة .. ومن الأفضل كثيراً لتحقيق هذا الغرض أن يكون ذلك عبر سيناء فى نهاية الحدود المصرية » وقد سبق للورد كتشنر أن أشار إلى مثل هذا الرأى أيام كان معتمدا لحكومته فى مصر فقد طالب بالإستيلاء على فلسطين أو جزء منها لتأمين سلامة القناة والدفاع عن مصر .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة « جارفس بك » محافظ سيناء السابق فى مقدمة

كتابة عن سيناء بقوله « إن سيناء بحكم موقعها الجغرافى كواسطة للاتصال بين آسيا وأفريقيا كانت وستكون ذات أهمية كبرى وليس ثمة إقليم فى العالم بما فى ذلك بلجيكا نفسها كان ميداناً للقتال ومعبراً للجيوش الغازية أو المتقهقرة ما كانت سيناء » .

ومن الواضح أن سلامة المرور فى القناة وقت الحرب تتطلب أن يكون ميدان القتال بعيداً عنها ويبدو هذا الأمر فى غاية الأهمية بالنسبة لبريطانيا التى تكفل لها مواردها العظيمة فى الشرق الأقصى والتى تجتاز القناة إلى ميادين القتال أن ترجح كفتها فى أى حرب تشتبك فيها إذا ضمنت سلامة مواصلاتها .

ولم يكن هذا الرأى واضحاً لدى القيادة البريطانية فى بداية الحرب الأولى فاتخذت قاعدتها الدفاعية عن مصر على طول القناة فى بداية الحرب اعتمادا على قوة سيناء كمانع طبيعى حتى إذا نجحت الحملة التركية فى عبورها والوصول إلى قناة السويس كان هذا سبباً فى قلب قواعد الاستراتيجية البريطانية للدفاع عن هذه المنطقة . وقد جاء فى الجزء الأول من التاريخ الرسمى للحرب العظمى ما يشير إلى ذلك بما نصه « ففى ديسمبر سنة ١٩١٥ أغفلت تماماً نظرية الدفاع عن قناة السويس باتخاذها قاعدة لذلك وأصبح من المقرر كما ورد فى السجلات الرسمية أن يبعد خط الدفاع عنها إلى الشرق بعداً كافياً حتى لا تتعرض لنيران العدو . »

ولم تكن استراتيجية الدفاع البريطانية عن هذه المنطقة من المرونة بحيث تتبين هذه الحقيقة التى أشار إليها كتشنر مبكراً قبل أن يهب ريح الحرب والتى أكدها أرشيبالد مورى وأخذت بها القيادة البريطانية أخيراً بعد أن نجحت القوات التركية فى عبور سيناء والهجوم الفاشل على القناة ، فقد استندت القيادة البريطانية على القواعد الاستراتيجية التقليدية التى سادت قبل افتتاح القناة والتى كانت تتخذ من برزخ السويس خط دفاعها الأول عن مصر فلم تكن الجيوش الغازية قبل ذلك التاريخ تواجه أى مقاومة تذكر قبل أن تصل إلى مدينة بيلوز التى عرفت بإسم الفرما فى العصر الإسلامى والتى تقع إلى شرق بحيرة المنزلة بقليل قريباً من بورسعيد

الحالية وكان يمكن لهـذه الجيوش الغازية أن تقفز إلى مديرية الشرقية فى سهولة إذا قضت على قوة الفرما وكان مركز المقاومة التالى فى بلبيس فالقاهرة .

وقد استند عرابى فى دفاعه ضد الإنجليز إلى هذا الخط فلم يترك انهياره فرصـة له لتنظيم قواته من جديد وأصبح سقوط القاهرة أمراً مسـلماً به فإن سرعة تقدم القوات الزاحفة وقرب المسافة لا يتركان وقتاً للقوات المدافعة لتنظيم مقاومتها وهذا هو ما حدث عند فتح العرب لمصر بقيادة عمرو بن العاص .

وكان لتقدم آلة الحرب وضرورة سـلامة القناة كمعبر للموارد الحربية ما هدم أسس الاستراتيجية القديمة فى الدفاع عن مصر ووضحت أهمية سيناء كقاعدة ترتكز عليها القوات المدافعة .

وليست العقبة قاعدة أساسية للدفاع عن قناة السـويس ولـكنها تطل على طرق الإقتراب الرئيسية فى شبه جزيرة سيناء إلى القناة كما يمكن أن تـكون نقطة قوية يرتـكز عليها خط الدفاع الأول عن القناة هذا الخط الذى يستند إلى بير سبع وغزة ويمتد جناحه الأيمن إلى العقبة وقد قامت العقبة بعملها من هـذه الناحية خير قيام فى الحملة المصرية على فلسطين فقد أمن استيلاء القوات العربية عليها بقيادة فيصل ولورنس فى صيف سـنة ١٩١٧ ميمنة قوات اللنبى الزاحفة على فلسطين وأصبحت مركزاً للعمليات الحربية فى شرق الأردن وسوريا الجنوبية .

ويتيح موقع العقبة لها سيطرة كاملة على الطرق الرئيسية فى شبه جزيرة سـيناء فإن توسط موقعها على الحافة الشرقية لها يجعلها تطل على رءوس الطرق التى تسلـكها فإذا عرفنا أن المسافة من العقبة إلى غزة تقرب إلى حد ما من المسافة منها إلى السويس أى أنها تقع على رأس مثلث متساوى الأضلاع تمتد قاعدته من غزة إلى السويس استطعنا أن ندرك سيطرتها المباشرة على طرق الإقتراب الرئيسية فى شبه الجزيرة وخاصة طريق الحج كما تسيطر على الطرق المؤدية إلى الشام خلال منخفض العرابة والبحر الميت ووادى الأردن وتطل على الطريق الذى ينحدر جنوبا إلى بلاد العرب .

وقد كان للعقبة من الأهمية التجارية والاستراتيجية خلال عصور التاريخ المختلفة مالا يقل عن أهميتها التجارية والاستراتيجية فى الوقت الحاضر وخاصة فى عصور التاريخ التى سبقت قيام الإمبراطورية الرومانية وامتداد سيادتها على تلك البقاع ثم فى عصور التاريخ الإسلامى أيام الأيوبيين والمماليك كموقع استراتيجى اشتد الصراع عليه بين صلاح الدين الأيوبى والصليبيين ومعبر يمر به طريق الحج الذى يسلك صحراء سيناء من السويس إليها ثم إلى بلاد العرب وهو الطريق الذى أخذ الحجاج من مصر وشمال أفريقيا يسلكونه منذ حجت به الملكة المصرية شجرة الدر فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد .

وقد نزل فى البلاد التى تمتد من رأس خليج العقبة جنوباً إلى حدود فلسطين الجنوبية شمالا ومن وادى عربة فى الغرب إلى أطراف بادية الشام فى الشرق وهى البلاد التى تقوم فيها المملكة الأردنية الهاشمية على وجه التقريب فى الوقت الحاضر ، نزل فى هذه البلاد فى وقت غير معروف فى التاريخ القديم قوم عرفوا بالأدوميين وسميت البلاد باسمهم فعرفت « ببلاد أدوم » اشتغلوا بالتجارة وإرشاد القوافل التجارية القادمة من الجنوب والشرق إلى ساحل البحر المتوسط ووادى النيل .

وقد ظل الأدوميون أصحاب السيادة والسلطان فى بلادهم حتى هاجمهم الإسرائيليون فى عهد ملكهم داود الذى أقام حاميات من جنده فى بلادهم واستطاع بنو اسرائيل أن ينفذوا إلى البحر الأحمر عن طريق بلاد أدوم فأنشأ ملكهم سليمان ثغر « عصيون جابر » على رأس خليج العقبة فى مكان العقبة الحالية أو قريباً منها هو الذى عرف فيما بعد بثغر « أيلة » ثم أضيف إليه إسم العقبة فعرف « بعقبة أيلة » ثم غلبت التسمية الجديدة على الإسم القديم وأصبحت وحدها مسمى الثغر وإليه نسب الخليج فصار يعرف باسم خليج العقبة .

وقد أزدهر ثغر عصيون جابر أيام سليمان فكانت سفنه تمخر عباب البحر الأحمر تحمل الذهب من بلاد « أوفير » التى ورد اسمها فى التوراه ويقال أنها اليمن أو الهند أو ظفار العمانية .

ولما أديل من ملك سليمان وضعف شأن اسرائيل من بعده أتيح للأدوميين أن يستعيدوا سيادتهم على بلادهم واستقلالهم وكانوا عوناً للبابليين الذين هاجموا بنى إسرائيل بقيادة ملكهم « نبو خذ نصر » الذى عرف باسم بختنصر ومالأوه على هدم أورشليم وتخريبها فرضى لهم أن يوسعوا ملكهم على حساب أعدائه الإسرائيليين

وظل الأدوميون سادة ديارهم حتى قفز عليهم الأنباط وملكوا بلادهم وأصبح لهم من السيادة والسلطان فيها ما كان للأدوميين من قبل . واشتغل الأنباط بالتجارة وبلغوا فيها شأوا بعيداً وعظم شأنهم كما عظم شأن « بطراً » عاصمتهم التى أصبحت محطاً للقوافل تتزود منها بالماء والزاد وتستبدل فيها بالجمال والحداة جمالا وحداة آخرين منها وعجت أسواقها بتجارة اليمن والخليج الفارسى حتى ضنوا بوقتهم أن يشغل بغير التجارة وبالماء أن يبذل لغير سقياهم وتزويد القوافل به فحرموا على أنفسهم الزراعة والغرس .

وعاش الأنباط سادة فى بلادهم يسيطرون على تجارة الشرق والغرب فى ذلك المكان الذى أتاح له موقعه الفريد أن يكون ملتقى الرواحل بين الشرق والغرب وقد أضفت عليهم الصحراء حمايتها وكشفت لهم عن أسرارها فما حاول فاتح أن أن يستذلهم إلا وجدوا فيها رداءاً لهم وما توغل وراءهم مغير إلا لفحته بسعيرها وقضى عليه قيظها وهجيرها .

وإتسع ملك الأنباط حتى امتد من دمشق شمالا إلى أعالى الحجاز جنوباً وشمل من المدن الكبرى بطراً وبصرى وأذرح وعمان وجرش والكرك والشوبك وأيلة والحجر — وهى المعروفة بمدائن صالح — فإذا عدونا الأيام والسنين إلى الوقت الحاضر رأينا صورتها خالدة فى المملكة الأردنية الهاشمية وإذا كانت مملكة الأنباط قد سادت تجارة العالم القديم فان موقع المملكة الهاشمية الأردنية يفوق فى أهميته الاستراتيجية كمحط لخطوط المواصلات البرية والجوية كل ماجاوره من مواقع أخرى .

ولم يقض على الأنباط إلا عند ما بارت تجارتهم بعد أن عبد الرومان طريق قفط — القصير فتحولت إليه تجارة بطراً وزاد من ضعفهم إعادة حفر خليج

« سيزوستريس » بين النيل والبحر الأحمر فى عهد الإمبراطور تراجان الذى انتهز فرصة ضعفهم فجرد عليهم حملة استولت على بلادهم وأصبحت ولاية رومانيه تعرف باسم Provincia Arabia أى المديرية العربية .

ثم تحولت تجارة العراق إلى تدمر كما تحولت تجارة اليمن إلى معان فسلكت الطريق الذى أصبح ممراً للحاج فى العصر الإسلامى ، ثم أنشىء على امتداده خط حديد الحجاز فى أوائل هذا القرن .

وقد فرض الرومان ضرائب فادحه على التجارة التى تمر بيطرا بغية تحويلها إلى طريق البحر الأحمر ومصر فالبحر الأبيض المتوسط فكان هذا سببا آخر فى القضاء عليها .

واستعادت هذه المنطقة بعض أهميتها القديمة عندما تحول إليها طريق الحاج فى العصر الإسلامى منذ أيام الأيوبيين إلى عهد محمد على عندما أخذ الطريق البحرى بين السويس وجدة يغطى عليه ويحتل أهميته وأصبحت العقبة وهى الميناء الذى عرف قديماً باسم أيلة ملتقى قوافل الحاج القادمين من سوريا ومصر وشمال أفريقيا حتى إذا شقت قناة السويس وتقدمت وسائل الملاحة تحول الحاج إلى الطريق البحرى الجديد ففقدت ما استعادت من أهمية .

ثم عادت العقبة تحتل أهميتها القديمة بعد ما شرعت الحكومة العثمانية فى مد خط حديد الحجاز سنة ١٩٠٠ من دمشق إلى المدينة ماراً بدرعا وعمان ومعان وقد وصلت نهايته إلى المدينة عام ١٩٠٨ ووافق الشروع فى مد خط حديد الحجاز تغلغل النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية وكان ربط بلاد الدولة العثمانية بشبكة من الخطوط الحديدية جزءاً من سياسة عبد الحميد وجد هوى من السياسة الألمانية وكانت ألمانيا قد ظفرت قبل ذلك بقليل بعد زيارة الأمبراطور ولهلم الثانى للآستانة سنة ١٨٩٨ بامتياز مد خط حديد بغداد .

وكان هذان الخطان الرئيسيان لربط الأناضول بباقى بلاد الدولة العثمانية أساسا لعدة خطوط فرعيه تخرج منهما كخط الإسكندرونة الذى يصل الميناء بخط حديد بغداد

وخط درعا مزريب وادى اليرموك عفولة الذى يتفرع من خط حديد الحجاز ، وخط العقبة الذى يتصل بها عند معان وكان تفكير الحكومة العثمانية فى مد هذا الخط الفرعى الأخير من معان إلى العقبة سبباً فى الأزمة التى جرت بين الحكومة البريطانية التى تحتل مصر والباب العالى سنة ١٩٠٦ .

وكان تفكير الحكومة العثمانية فى مد خط حديد الحجاز قد دفعها إلى التفكير فى الإستيلاء على شبه جزيرة سيناء أو على الأقل إحتلال المراكز الاستراتيجية فى شرقها التى تهدد سلامه الخط الحديدى إلى الحجاز وكانت العقبة أهم هذه المراكز الاستراتيجية التى يتطلع إليها الباب العالى فهى فضلا عن أهميتها البرية قاعدة بحرية ممتازة تتيح للدولة العثمانية أن تدعم سيطرتها البحرية على شواطىء البحر الأحمر والإتصال بقواعدها البحرية فى غرب شبه الجزيرة العربية .

وقد وجد الباب العالى فى تولية الخديو عباس حلمى الثانى على مصر سنة ١٨٩٢ فرصة لاقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر وضمها إلى مناطق السياده العثمانية الخالصة فى سوريا والحجاز وكانت ميول الخديو الشاب تتجه إلى تركيا وكان هذا تشجيعاً كافيا للباب العالى لتحقيق خطته ولم يلق هذا الإتجاه معارضة من الخديو الجديد وكانت حجة تركيا فى ذلك تقوم على أن هذه المنطقة كانت فى الأصل تابعة لولاية الحجاز ثم أعارتها تركيا للخديو اسماعيل بقصد وضع حاميات من الجند فى الوجه والمويلح وضبا والعقبة وسيناء لتأمين قوافل الحج التى تسلك الطريق البرى إلى الحجاز ثم استعادت الوجه وضبا والمويلح وتريد أن تستعيد ما بقى من الأقليم لولاية الحجاز .

وقد تأخر إصدار الفرمان بسبب المفاوضات التى جرت فى هذا الشأن بين الخديو والباب العالى ثم صدر الفرمان بهذا الوضع الجديد ولم يكن السفير البريطانى فى الآستانة قد علم بفحواه فلما علم به أبرق بمضمونه إلى اللورد سالسبرى رئيس الوزارة البريطانية وأبرق هذا بدوره إلى المعتمد البريطانى فى مصر يطلب إليه تأخير تلاوة الفرمان حتى يصدر عن السلطان ما يؤكد ترك إدارة شبه جزيرة سيناء لمصر .

وقد أرسل السير افلن بارنج (لورد كرومر فيما بعد) المعتمد البريطانى فى مصر إلى تيجران باشا وزير الخارجية المصرية يبلغه صورة الفرمان وينهى إليه أنه يختلف عن فرمان تولية الخديو توفيق فى أنه يخرج شبه جزيرة سيناء من إدارة الخديوية المصرية ويطلب تفسيراً لذلك من الباب العالى حسب الأوامر الصادرة إليه من وزارة الخارجية البريطانية .

وقد تراجعت تركيا عن موقفها لما رأت من تشدد الحكومة البريطانية فى المحافظة على الوضع القائم بالنسبة لسيناء وأرسل الصدر الأعظم برقية إلى وزير الخارجية المصرية يبلغه فيها صدور الإرادة السلطانية بترك شبه جزيرة سيناء إلى الإدارة الخديوية المصرية كما كانت من قبل وبناء عليه تبقى شبه جزيرة سيناء كما يحدها الخط المستقيم الذى يمتد شرق العريش إلى رأس خليج العقبة تحت إدارة مصر على أن تكون طابية العقبة الواقعة شرق الخط المذكور من ملحقات ولاية الحجاز .

وقد اعتبرت الحكومة البريطانية البرقية الأخيرة ملحقا للفرمان وجزءاً منه وأعلنت موافقتها على ذلك وتلى الفرمان على هذا الأساس الذى انتهى اليه الطرفان فى ١٤ ابريل سنة ١٨٩٢ وانتهت الأزمة التى ثارت حول تبعية تلك المنطقة فى ذلك الوقت .

غير أن تركيا لم تنزع عن التفكير فى تحقيق أهدافها القديمة فى سيناء ، وقد رأت من تطور الأحوال الدولية فى ذلك الوقت مايعزز تفكيرها القديم ، فإن أوربا كانت قد بدأت تنقسم إلى معسكرين كبيرين يستعد كل منهما لامتشاق الحسام فى وجه الآخر ، وكانت صداقة تركيا بألمانيا تربطها بمعسكرها الذى يضم دول الوسط أول دول التحالف الثلاثى التى أضحت سياستها وسياسة دول الوفاق الثلاثى الذى تتزعمه بريطانيا على طرفى نقيض .

ثم أن تركيا مازالت تنزع إلى تأمين سلامة خط حديد الحجاز والاستيلاء على على بعض القواعد الاستراتيجية فى شرقى سيناء تشرف منها على شبه الجزيرة وتتحكم فى طرق الإقتراب الرئيسية إلى دلتا النيل حيث تستطيع أن تهدد القوات البريطانية فيها وتؤثر تأثيراً قويا على سلامة القناة .

وكانت سكة حديد معان — العقبة التى تربط العقبة بسكة حديد الحجاز جزءاً من هذه السياسة الاستراتجية الجديدة ، وكانت قد شرعت فى مدها سنة ١٩٠٦ مما دعا بريطانيا إلى الاهتمام بحماية حدود مصر الشرقية ، ودراسة مشروع استراتيجى للدفاع عنها يقوم على وضع قوات عسكرية على طول الخط من العريش إلى نهاية الحدود المصرية على خليج العقبة . ولكن القوات التركية سارعت باحتلال «طابا» إلى الغرب من العقبة بثمانية أميال على امتداد الخليج ، وقد أثار هـذا العمل ثائرة بريطانيا ، ودفعها إلى الاحتجاج على تركيا ، ولكن تركيا كانت تهدف من وراء هذا العمل إلى فتح باب المسألة المصرية وإحراج بريطانيا أمام الرأى العام الدولى وحملها على الجلاء وفاءاً بعهودها التى قطعتها فى هذا السبيل مراراً كما كانت ترمى إلى الاستيلاء على بعض المراكز التى تشرف على خطوط الاقتراب الرئيسية فى سيناء احتياطا للمستقبل ، ولكن تطور الأحوال الدولية لم يكن فى صالح تركيا ، فقد كانت فرنسا قد ارتبطت بالاتفاق الودى مع بريطانيا وراح سفيرها فى الآستانة ينصح الباب العالى بالإذعان لمطالب بريطانيا ووقفت روسيا موقفاً مشابها ولزمت ألمانيا موقف الحياد فى هذا الخلاف مما حمل تركيا على التراجع فسحبت قواتها من طابا فى مايو سنة ١٩٠٦ .

وقد تكونت لجنة مصرية تركية بعد حادثة طابا لتسوية مسألة الحدود حسب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وملحق الفرمان الذى صدر بتولية الخديو عباس الثانى خاصا بإدارة شبه جزيرة سيناء سنة ١٨٩٢ ، وانتهت اللجنة من عملها فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ وتم الاتفاق على أن تمتد حدود مصر الشرقية من رفح على البحر الأبيض المتوسط إلى نقطة تقع غرب العقبة بثلاثة أميال وبقيت طابا ضمن أملاك مصر والعقبة من أملاك تركيا .

ولعبت العقبة دوراً بارزا فى العمليات الحربية التى جرت فى المنطقة خلال الحرب الأولى فاحتلتها القوات العربية فى صيف عام ١٩١٧ وجعلتها قاعده لعملياتها فى شرق الأردن وسوريا الجنوبية وأمنت بهذا الاحتلال ميمنة قوات اللنبى الزاحفة على فلسطين كما قضت على إمكان وجود أوكار للغواصات فى مياه الخليج أو على سواحل الحجاز.

وأصبحت العقبة بعد تحريرها من الأتراك تابعة لملك الحجاز أى أنها احتفظت

بتبعيتها القديمة كجزء من ولاية الحجاز العثمانية . وكان الفارق الوحيد أن العقبة أصبحت باعتراف الدول بالحسين ملكا مستقلا على الحجاز تدخل فى سيادة ملك مستقل تكون جزءا من مملكته أما فى الوضع القديم فهى تتبع ولاية الحجاز التابعة للعثمانيين .

ولم يكن هذا الوضع الذى انتهت إليه العقبة موضع رضاء بريطانيا التى تدرك أهميتها الاستراتيجية واتصالها بخطوط مواصلاتها الأمبراطورية البرية والبحرية وما ينتظرها من مستقبل فريد يعيد إلى الأذهان ماضيها المجيد فى غمار هذا التطور الذى يعم هذه المنطقة من العالم بعد ما نزعت عنها ثوب العزلة التى ضربتها الدولة العثمانية حولها خلال أربعة قرون طوال .

وكانت تبعية العقبة لمملكة الحجاز المستقلة يجعلها بعيدة عن دائرة النفوذ البريطانى فأرادت أن تظفر بها عن طريق آخر ولجأت فى ذلك إلى الأمير عبدالله الذى نصبته أميرا على الإمارة الجديدة التى أقامتها فى شرق الأردن ودفعته للسعى لدى أبيه ملك الحجاز ليسمح له بضم مقاطعة معان وثغر العقبة إلى إمارته الجديدة وقد نجح الأمير عبد الله فى سعيه عند أبيه على أن الملك حسين قد اشترط أن يكون التنازل شخصياً ولما ارتقى الملك على عرش الحجاز بعد تنازل أبيه جدد الأمير عبد الله سعيه لدى أخيه ليكون التنازل عن معان والعقبة نهائيا وتم له ما أراد وأبرمت اتفاقية التنازل بين المملكة الهاشمية وإمارة شرق الأردن فى ٥ يونيو سنة ١٩٢٥ وفى ٤ يوليو من السنة نفسها أصدر الملك عبد الله إلى رئيس حكومته البلاغ الرسمى الآتى :

« نظرا لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية الملك على المعظم ، ملك البلاد المقدسة الحجازية ، أيده الله وأدام نصره ، ضم ولاية معان والعقبة إلى إمارتنا اقتضى إصدار إرادتنا الملكية إليكم إعلانا بذلك مع الشكر الدائم » وفى ١٦ يوليو احتفل رسمياً فى معان بضمها والعقبة إلى إمارة شرق الأردن .

ولما استولى الملك عبد العزيز آل سعود على الحجاز واعترفت به الدول ملكا عليه لم يقر تنازل الملك على عن معان والعقبة لأخيه لأنهما من أملاك الحجاز الأصلية وفى هذه الحالة كان على بريطانيا أن تتناول الموضوع بنفسها فلم تكن علاقات السعوديين

بأمير شرق الأدرن تسمح بقيام مفاوضات بينهما . ونجحت الحكومة البريطانية فى معاهدة جدة التى أبرمت بينهم وبين السعوديين فى أن تحملهم على إقرار الوضع القائم فى معان والعقبة من حيث تبعيتهما لشرق الأردن شكلا دون أن تتنازل عنهما فعلا وذلك فى ملحق خاص الحق بالمعاهدة المذكورة ، وكان عبد العزيز آل سعود رجلا بعيد الأفق فلم يحاول أن يثير مشكلة العقبة وقد لمس أطماع حليفته بريطانيا فيها . وأصبح ضم معان والعقبة إلى شرق الأردن أمراً مسلماً به من ناحية الحكومة . السعودية بعد أن أبرمت معاهدة صداقة مع شرق الأردن عام ١٩٣٣ .

ويمر ربع قرن ليضفى قيام إسرائيل على العقبة وسيناء لونا جديداً من الأهمية سنعرض له فى حينه .

* * *

هذه هى الأصول الحقيقية للمسألة الحقيقة المصرية كما تهم بريطانيا وهى التى لعبت أكبر دور فيها والتى تمسك بها فى الوقت الحاضر تساوم عليها فى سبيل فرض الدفاع المشترك على البلاد .

أما ما ادعته من حماية الأقليات وامتيازات الأجانب فلم يكن إلا ستاراً تخفى وراءه مصالحها الحقيقية وتبرر به احتلالها للبلاد يوم دخلتها لإقرار النظام وحماية المصالح الأوربية فى ظاهر الأمر وتحقيق مصالحها الحقيقية فى باطنه .

وقد تنازلت بريطانيا عما ادعته من حماية الأقليات فى معاهدة ١٩٣٦ كما ألغيت الإمتيازات الأجنبية فى أعقابها ولم يبق إلا مشكلة السودان وحماية قناة السويس عقبتان ترتطم بهما المسألة المصرية فى حلها بما يرضى آمال مصر وحقوقها الشرعية .

ويبدو أنها تتطلع إلى سيناء لتستعيض بها عن قواعدها التى فقدتها فى فلسطين وعما يمكن أن تفقده من قواعد فى مصر إذا انتهى أمرها بالجلاء عنها وإن لم تكشف عن حقيقة هذه النوايا بعد .

وسنتناول هذه المسائل فى حينها .

الفصل التاسع

اليقظة الاسلامية

والبعث القومى الحديث

تأثرت البلاد الإسلامية فى الشرق الأوسط أيما تأثر بالضغط الأوربى الذى أخذ يقع عليها منذ بداية القرن التاسع عشر وكان قد فرغ من اجتياح الشعوب الإسلامية فى شرقى آسيا ، وأصبحت تشعر بثقل هذا الضغط بعد ما أخذ يتغلغل ويمد شباكه القوية على بلاد الشرق الإسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كما تأثرت بالظروف العامة التى أحاطت بالدولة العثمانية سواءكانت هذه الظروف تنبع من داخل الوطن متأثرة بنظام الدولة وشكل الحكم والحالة الاقتصادية والإجتماعية والعلمية ونمو الوعى القومى أو ركوده ، أو تلم بها من الخارج متأثرة بحركة الامتداد الأوربى نحو الشرق والمشاكل التى تثيرها أوربا حول المسألة الشرقية .

وجاءت اليقظة الإسلامية متأثرة بظروف البلاد الداخلية تنبع من الماضى وتستوحى أهدافها للمستقبل من تراثه وأمجاده وجاء الوعى القومى متأثرا بالإمتداد الأوربى واتصال حضارة أوربا بالبلاد الشرقية وبين هذين العاملين وقف دعاة الإصلاح فى الشرق بعضهم يرنوا إلى الشرق وتراثه المجيد وبعضهم يتطلع إلى الغرب وقوته وغلبته لا يرضى بغير الحضارة الغربية سبيلا للنهوض والإرتقاء وبين هؤلاء وأولئك وقف جماعة وسطا بين النقيضين فلاهم بالماضى يعجبون ولاهم بحضارة الغرب يهيمون بل اتخذوا سبيل الإرتقاء وسطا بين السبيلين .

وكانت اليقظة الإسلامية أسبق فى الظهور من الوعى القومى فقد جاءت فكرة

القومية بمعناها الحديث مع امتداد الحضارة والفكر الأوربى إلى البلاد الشرقية وقد جاء التغلغل الأوربى متأخراً فلم تبد آثاره واضحة إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بعد أن أخذ الناس يدركون القيم الحقيقية للحضارة الغربية وغلبة هذه الحضارة على غيرها والقوى الباهرة التى تكمن وراء هذه الحضارة وتسندها سواء فى شكل الدولة ونظامها وتطور الوعى القومى بين الشعوب وقيام الدولة القومية الحديثة أو فى غلبة العلم على كل مظاهر الحياة اقتصادية كانت أو اجتماعية أو فلسفية فكانت الثورة الصناعية كما كانت الفلسفة المادية بعض نتاج هذا التقدم العلمى الباهر ، أما اليقظة الإسلامية فقد جاءت متقدمة لأنها تستوحى عاملين قائمين ومحسوسين وملموسين فعلا فى ذلك الوقت أولهما الضعف والانهيار الذى ألم بالعالم الإسلامى وما تركه هذا الإنهيار فى القوى الإسلامية من آثار مريرة فى نفوس بعض الأذكياء من المسلمين دفعتهم إلى العمل على إحياء تراث الإسلام وقواه الباهرة الماضية ، وثانيهما ما كان للاسلام والمسلمين من قوة عارمة سادت فى الماضى وكانت لهامن القوه والغلب والتفوق على غيرها ما دفع هؤلاء الأذكياء إلى تقدير العوامل التى أدت إلى انهيار المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة ومن ثم السعى لإحياء مجد الإسلام القديم .

وسارت كل من هاتين الحركتين مستقلة عن الأخرى بعيدة عنها حتى اجتمعتا فى النهاية على هدف واحد فكانت اليقظة الإسلامية عاملا من عوامل اشتداد الوعى القومى وتأصله وإن ظلت تدعو إلى القومية فى ثوبها الإسلامى الفضفاض الواسع وكان الوعى القومى فى بدايته عاما لا يخرج عن نطاق التفكير الإسلامى فى شكل الدولة الإسلامية العامة التى تجمع المسلمين فى رباط واحد من الصلات والأهداف والاتجاهات وإن كانت لا تنكر أن تأخذ بمظاهر الدولة الحديثة فى الحكم والإدارة وعلاقة الحاكمين بالمحكومين وظهور شخصية الفرد ونموها الذى يكيف مظهر الدولة القومية الحديثة فى أوربا ثم تطور هذا الشعور الجماعى بالقومية إلى شعور عنصرى تكيفه اتجاهات الشعوب وأهدافها ومصالحها الخاصة وإن ظلت ترعى فى تطورها هذا سلامة الرابطة الإسلامية العامة وقوتها .

وظهر هذا الشعور العنصرى واضحا قويا فى حركتين كان لهما أكبر الأثر

فى تسكييف مستقبل الإمبراطورية العثمانية ، أولاهما حركة القومية العربية وبدت فى صورة جماعية بين الشعوب العربية التى أخذت تتطلع إلى إحياء مجد العرب وسيادتهم القديمة بعد أن طغى عليها الترك ، وقد وجدت هذه الحركة فى أهداف محمد على فى تكوين إمبراطورية عربية إحياء لبعض عناصرها الخافتة الضعيفة ولا سيما بين الطوائف المسيحية كما يقول جورج أنطونيوس فى كتابه «يقظة العرب» ، وإن كانت فكرة محمد على فى إنشاء إمبراطورية تجمع الشعوب العربية لا تقوم فى حقيقتها على دافع قومى بقدر ما تقوم على أهداف فرد دفعه طموحه إليها قبل أن تدفعه رغبة الشعوب نفسها إلا أنها قد أبرزت فى النهاية فكرة الدولة العربية تلك الفكرة التى كشفت عن قوتها فيما بعد عندما قام الشريف حسين بالثورة العربية فى بطاح مكة وتحرك رسله إلى الشام ينشرون الدعوة للثورة وتأييدها بين دعاة القومية العربية الذين حفلت بجهودهم الجمعيات السرية والعلنية فى تلك البلاد وفى البلاد المجاورة قبيل الحرب العالمية الأولى ، وكانت كلها ترمى إلى تحرير العرب من ربقة الترك ، أما ثانيتهما فتلك الحركة التى قام بها بعض غلاة الترك فى الدعوة إلى الجامعة الطورانيه التى تدعو إلى وحدة الشعوب التركية وإن لم يكن لها من القوة ما كان للحركة القومية العربية إلا أنها كشفت عن بعض آثارها فيما بعد ولو بطريق غير مباشر فى اتجاه تركيا الكمالية إلى الابتعاد عن مشاكل العالم العربى وجفوة العرب والاتجاه نحو الوطن التركى الصميم وإحياء عناصر القومية التركية الأصيله داخل حدود الوطن التركى .

وتأثر هذان العاملان — اليقظة الإسلامية والوعى القومى — فى تطورها ونموها باتجاهات السياسة الأوربية نحو هذه البلاد تلك الاتجاهات التى كانت تأخذ أشكالا عديدة من الضغط العسكرى والسياسى والاقتصادى والتغلغل التجارى والثقافى ، وإن كان هذا الامتداد السياسى فى البلاد الشرقية قد سبقه امتداد ثقافى قام به جماعة المبشرين والأرساليات الدينية وأخذت آثاره فى النفوذ والبروز عندما أخذ الضغط الأوربى يشتد فى هذه البلاد ولا سيما فى لبنان وسوريا ومصر .

كما تأثرت اتجاهات التيارات السياسية فى الشرق الأوسط بهذين العاملين ، قوة الوعى القومى فى بلاده من ناحية واليقظة الإسلامية من ناحية أخرى ، فكانت الأصداء التى

تتجاوب بها بلد من بلدانه ترددها البلدان الأخرى فى قوة وعنف لايفل منه مافرضه المستعمر على هذه البلاد من حدود وقيود ، بل كانت هذه القيود عاملا من عوامل التآخى والتآلف بين شعوبها كما كانت وقودا لاشتعال الثورات القومية فيها .

وقد جاءت اليقظة الإسلامية كما جاء الوعى القومى فى أعقاب ذلك الضعف الشديد والركود الشامل الذى غشى بلاد الشرق الأوسط سواء منها ما كان فى نطاق الدولة العثمانية أو خارجا عنها وكان الضعف والركود اللذين ألما بالعالم الإسلامى صورة لما كان يعتمل فى قلب العالم العثمانى من خمول وانحطاط ففى الوقت الذى نهضت فيه أوربا نهضتها العارمة كانت عوامل الضعف والانحلال تعتمل فى كيان الشرق الإسلامى أو ما نعنيه بالشرق الأوسط فى الوقت الحاضر وتقضى على دعائم حضارته العريقة .

وترجع عوامل الضعف فى الشرق الأوسط إلى بدء سيادة الترك فقد دخل هؤلاء القوم فى الإسلام حديثا فلم يدركوا مدى بساطته ومرونته ولم يعرفوا مافيه من سماحة ويسر وإن لم يكن تعصبهم للدين شراً مطلقاً ، فهم الذين حموا ذماره وحملوا رسالته يوم أن عجزت الخلافة العباسية عن حمل هذه الرسالة وحمايتها ولكن غلب عليهم طابعهم الحربى أكثر مما غلبت مواهبهم العقلية فقد كانوا محاربين من أبدع طراز وكانوا فرسانا لهم على الحرب جلد وصبر ولهم فى إدارتها حنكة ودربة وقد فاقت مواهبهم الحربية مواهبهم العقلية فلم يبلغوا حد الإبتكار أو التجديد فكان هذا الجمود الذى ران على العقلية الإسلامية فى أيامهم ، والظاهر أن مجد الحرب قد طغى على مجد العلم وأضحت الدنيا للمحاربين أكثر مما صارت للعلماء واستنفد مجد الحرب جهد الأذكياء فيهم وتفوق الموهوبين منهم حتى أضحت صناعة العلم وقفاً على الخاملين والضعاف وأصبحت سمة العالم وقار متكلف وتؤدة مصنوعة أكثر منها حيوية دافقة ونشاط موفور .

وكان من عناية الأتراك بالدين ما دفع هؤلاء العلماء إلى الاهتمام بعلوم الدين أكثر من اهتمامهم بعلوم الدنيا وكان باب الاجتهاد الدينى قد أقفل من زمن وأضحى

تراث الماضى من القداسة والإكبار مالا يقبل معه إجتهاد أو ابتكار فاتسمت هذه الناحية التى أولوها رعايتهم بالجمود ووقفت العقلية الإسلامية دون الابتكار والتفتح والبحث ، وأن كبر إجلال هذه الطائفة الدينية عند الحكام والسلاطين ونالوا من التوقير والإكبار ما دفعهم إلى مجاراة السلطان والحرص فى دنياهم على مانالوه من حظوة ونفوذ .

وكان من جراء هذا الاتجاه الجديد أن خملت علوم الدنيا وجمدت علوم الدين ووقف ركب الحضارة عن سباق الزمن فى وقت كانت فيه أوربا تنفض غبار الماضى وتفتش فى حواشيه وتقبل على التجديد والابتكار فكانت حركات الأصلاح الدينى والدنيوى تسير جنبا إلى جنب وكان كشف المجهول والبحث عن الحقيقة رائد هذه النهضة الجديدة .

وكانت ولاية الحكم وتوارثه عاملا من عوامل الضعف التى ألمت بحكم الاتراك فقد كانت الدولة التى يحكمها الأب وتتجمع له يتوارثها الأبناء قسمة فيما بينهم وكان هذا من دواعى انهيار دولة الأتراك السلاجقة أما فى دولة بنى عثمان فكان تنازع الأخوة والأبناء حول تولى الخلافة مصدر كثير من المتاعب فى بيت الحكم فلم يكن هناك مبدأ أو قاعدة يمكن أن تكون موضع توقير أو احترام هؤلاء المتنافسين حتى وصلت شهوة الحكم بهم إلى قتل بعضهم بعضا بل وصل الأمر بالخليفة إلى قتل أخوته أو أبنائه خوفا من أن يغتالوه وحرصا على بقائه فوق أريكة السلطان .

ثم كانت مركزية الحكم القوية وجمع السلطة وتركيزها فى شخص الخليفة قد أضعف اشرافه على الدولة فانتشرت الرشوة بين الولاة وكان همهم جمع الثروة بل وصلت الرشوة إلى شخص الخليفة ذاته كما أصبح كثير من ولايات الدولة المتطرفة بعيداً عن سيادة الدولة الفعليه وأضحت سيادتها فيها سيادة اسمية .

وقد عانت أوربا فى بدء نهضتها من هذه الأوتوقراطية الحاكمة ما عانت ولكن تقرير حقوق الانسان وانتشار مبادىء الثورة الفرنسية قضى عليها إلى حدما ولكنها ظلت قوية جاثمة على قلب العالم العثمانى حتى بداية القرن العشرين يوم أرغم

السلطان عبد الحميد على منح الدستور سنة ١٩٠٨ بعـــد أن جاهد الأتراك فى سبيله طويلا .

وثمة عوامل أخرى كانت من أسباب ضعف العالم الإسلامى وتأخره وركود الحياة والحضارة فى بلاد الشرق الأوسط فقد كان لتحول التجارة إلى مسالـكها الجديدة طوافا حول أفريقيا إثر كشف طريق رأس الرجاء الصالح أن فقد الدخل القومى فى تلك البلاد مصدراً هاما من مصادر ثروته وأزدهاره فعم الفقر وقل الإصلاح ثم كان الفتح العثمانى لبلاد الشام ومصر عام ١٥١٧ وتجريدُ هذه البلاد من مصادر ثروتها الفنية والصناعية بعد ما نقل السلطان سليم الأول أربابها إلى استانبول ماضاعف من فقرها وقضى على دعائم انتاجها .

وكان لتحول التجارة عن مسالـكها القديمة عبر بلاد الشرق الأوسط إلى الطريق البحرى الجديد ما أضعف الصلات بين هذه المنطقة التى دبت اليها عوامل الضعف والانحلال وبين أوربا المتوثبة للنهوض والإرتقاء فـلم تتأثر بالنهضة الأوربية الحديثة ثم كان لسياسة العزلة التى جرت عليها الدولة العثمانية فى بلادها ما ضاعف من وهن الصلات بين بلادالشرق الأوسط وأوربا حتى أضحت هذه البلاد بعد حين أمام الرجل الأوربى عالما مجهولا تـكتنفه الأسرار والألغاز من كل نواحيه .

ولـكن هؤلاء الأتراك رغم هذا كله قد بسطوا حوزة الإسلام على بلاد لم يكن قد وصل إليها ورفعوا أعلامه على بطاح ظلت منيعة عليه فـلم تخفق علها بنوده حتى اجتاحتها جحافلهم ولم يمنعهم من التهام أوربا إلا ارتدادهم عن أسوار فينا عام ١٦٨٣ .

ثم أن الدولة العثمانية قد وقفت سورا منيعا يحول دون امتداد موجة الاستعمار الأوربى إلى بلاد الشرق الأوسط مدى قرنين من الزمان حتى فى أيام ضعفها وانحلالها وتكالب الدول الأوربية على اغتصاب مناطق النفوذ فيها فقد كان لهذا التنافس الدولى أثره فى المحافظة على كيان الدولة العثمانية وسلامة أراضيها فظل الرجل

المريض حيا يعانى سورة الألم والضعف حتى قضى عليه فى الحرب العالميـة الأولى وتقسمت بريطانيا وفرنسا مواطن النفوذ فى أملاكه .

تـكاتفت هـذه العوامل جميعاً على إضعاف العالم العثمانى فعم الجهل وانتشرت الخرافة وفسدت تعاليم الدين وانحطت العسكرية العثمانية وهى التى قامت على اكتافها سيادة الدولة ومجد العثمانيين وانهار بانحطاطها آخر رمز للتفوق والقوة والنفوذ .

وكان لهذا التدهور صداه فى نفوس الأذكياء والمصلحين وشهد الشرق الأوسط هبات قوية من الدعوة للأصلاح كهذه الهبات التى شهدتها أوربا فى بداية نهضتها وصحبت حركة الإصلاح الدينى حركة الإصلاح المادى وجاءت فى أعقابها ولم يكن هذا جديدا على الحضارة وتطور الوجود الإنسانى فقد قامت النهضة الأوربية على اصلاح تعاليم الـكنيسة وتنقية المسيحية من الشوائب التى كدرت صفاءها وكان الاصلاح المادى وليد هـذا الاصلاح الدينى فقد انبسطت سيادة العقل وانبسط سلطان التفـكير الحر واتجه المفـكرون إلى البحث والتنقيب فيما سبق من آثار التفـكير الأغريقى والرومانى فـكان بناء النهضة الأوربية وليد التحرر العقلى والاتجاه إلى آثار الماضى العريق فيما خلف الأغريق من فلسفات وعلوم وفنون وانطلاق فى عالم الفـكر لا يحده قيد ولا يقف أمامه إيمان جاهل .

وقد حفز هذه الهبات الاصلاحية فى الشرق ما انحدر اليه من جمود وانحطاط وتدهور غشى كل وجوده الروحى والمادى وهو الأصيل فى حضارته العريق فى وجوده وهو موطن الأديان والفلسفات التى غمرت العالم بنورها وبهائها وفى ماضيه مايحفز دعاة الإصلاح للدعوة والنهوض .

وكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب أول مظهر لليقظة الإسلامية الحديثة وهى دعوة دينية خالصة قصد بها تنقية الدين مما تردى فيه من ضلال الشرك وشوائب البدع وروح الجهالة والرجوع بالإسلام إلى بساطته الأولى ووحدانيته الخالصة ،

وقد أصبحت الوهابية دعوة دين ودولة فقد لزم لحمايتها ونشرها أن يمتشق

فى سبيلها الحسام فسارت الدعوة الدينية فى حماية الدولة التى تسندها وتفرض سلطانها على النفوس ومهدت الدعوة الدينية للدولة قيامها واستكمال عناصر وجودها .

وقدنشأ محمدبن عبدالوهاب فى العيينة إحدى قرى نجد وشب على دراسة المذهب الحنبلى ووجد فى تعاليم « ابن تيمية » منهلا عذبا لأفكاره ومنحاه الروحى واتجاهه العقلى ، وكان ابن تيمية عالما كبيرا حر التفكير عاش فى القرن السابع الهجرى فى زمن السلطان الناصر واقتفى أثر الإمام ابن حنبل فى دراسته وتفكيره وتأثر به واتخذ من الكتاب والسنة مرجعا لاجتهاده ونادى بفتح باب الاجتهاد ولو خالف قول الأئمة ما دامت حجة الكتاب والسنة واضحة لاريب فيها ولم يتوان ابن تيمية عن مخالفة أمامه ابن حنبل ما أداه اجتهاده إلى ذلك وكان منحاه فى العقيدة وحدانية خالصة لاشرك فيها فحمل على الفقهاء والمتصوفة وهاجم البدع والضلالات والتوسل بالأولياء والمشايخ والأضرحة وقد تركت تعاليم ابن تيمية فى نفس محمد بن عبد الوهاب صدى زاد من رجعه ماشاهده فى طوافه فى بعض بلاد العالم الاسلامى من شيوع الضلالة وانتشار البدع وجفوة الوحدانية فقد اتخذ الناس من الأولياء والأضرحة زلفى إلى الله بل طغت الضلالة على النفوس حتى أصبحت الزلفى إلى الرسل والمشايخ والأولياء من دون الله .

وقامت الدعوة الوهابية على أصلاح ما تردى فيه الدين من فساد وتنقيه التعاليم الدينية مما شابها من ضلال وشرك وكان لب الدعوة الرجوع بالدين إلى الوحدانية التى نادى بها سيدالمرسلين صلى الله عليه وسلم ووحدةالتشريع فلامصدر إلا الكتاب ولا حكم إلا السنة .

وبدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته التى قدر لها أن تشغل العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وضاقت بدعوته العيينة ولفظته فخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود ووجد من أميرها محمد ابن سعود قبولا لدعوته فاعتنقها وهنا تعاهد رجل الدولة ورجل الدين وأصبحت

الدعوة دعوة دين ودولة وتـكاتف الرجلان على نشرها بالحجة والبرهان فإن لم تجد فالسيف أجدى .

وانتشرت تعاليم الوهابية فى شبه الجزيرة العربية واحتضن تعاليمها بعد موت الرجلين ابناؤهما حتى دانت لهم مكة والمدينة موطن النبوة ومقر الحرمين الشريفين وشعرت الخلافة العثمانية بالخطر الذى يهدد زعامتها الدينية فى العالم الإسلامى وقد كان من القاب الخليفة لقب « حامى الحرمين » .

وقامت الخلافة تناهض هـذه الدعوة الجريئه التى انتشرت فى شعاب الجزيرة العربية وتدفع عن زعامتها وهيبتها هذا الخطر الوليد أمام العالم الإسلاى بفقد الحرمين الشريفين ، وقام الأئمة والفقهاء يرمون الوهابية بالـكفر والإلحاد ، ولما عجزت جيوش الخلافة عن كسر شوكتهم واخضاعهم رماهم الخليفة بعاهل مصر محمد على الذى سير اليهم حملة بقيادة ابنه طوسون لم تحرز نصرا حاسما فسير اليهم الأمداد والجيوش المصرية بقيادة ابنه ابراهيم الذى أوقع بهم هزائم عديدة وخرب الدرعية حاضرتهم وانـكمشت الوهابية فى قلب نجد وتأخر قيام الدولة قرابة مائة عام إلى مابعد الحرب العالمية الأولى حيث نجح عبد العزيز آل سعود فى إقامة مملـكة سعودية وهابية فى نجد والحجاز .

ولـكن الدعوة الدينية قد وجدت صداها فى انحاء العالم الإسلامى وقام مريدوها ودعاتها يتخذون مناهجهم الخاصة فى الإصلاح الدينى والدنيوى وكان موسم الحج ميدانا صالحا لنشر الدعوة بين أقطار العالم الإسلامى تحملها طوائف الحجيج والدعاة الذين عادوا إلى بلادهم بعد أداء الفريضة والزيارة .

فـكانت دعوة السيد أحمد فى الهند دعوة وهابية خالصة ، أخذ يدعوها فى البنجاب ، وكان قد أدى فريضة الحج سنة ١٨٢٢ وتشرب مبادى الدعوة الوهابية ، وأقام فيها شبه دولة وهابية وشن حربا عوانا على البدع والخرافات وأعلن الهند دار حرب وجهاد ولقيت الحـكومة الانجليزية الأمرين من هذه الدعوة فأعلنت عليها حربا لاهوادة فيها حتى استطاعت اخضاع دعاتها .

وفى زنجبار قامت طائفة كبيرة من المسلمين تنحو منحى الوهابية فتحارب البدع والتضرع إلى الأولياء وزيارة القبور والتبرك بالأضرحة والمشايخ .

وفى اليمن سار الشوكانى أمام الأئمة فيها على نهج ابن عبد الوهاب فى دعوته واجتهاده وأصبح له فى اليمن تلاميذ ومريدون .

وقد تأثرت السنوسية بروح الوهابيه وأن تميزت بطريقتها الفذة فى الدعوة والإنتشار ومنهجها الفريد فى التعليم والبحث ، وكان نجاح السنوسية فى شمال وغرب أفريقيا لايضاهيه إلانجاح الوهابية فى إيقاظ الروح الإسلامى الصحيح والتمهيد لليقظة الإسلامية الكبرى فى بلاد الإسلام .

وقد أدى السيد محمد بن على السنوسى منشىء الدعوة السنوسية ومؤسسها فريضة الحج وأقام بمكة زمنا فى طلب العلم وأنشأ بها أولى زواياه سنة ١٨٤١ والغريب أن يبدأ السيد السنوسى الكبير دعوته فى بلاد الحجاز وفى مكة بالذات موطن النبوة ومقر البعث المحمدى فينشىء بها زواية « أبى قبيس » ثم يختار برقة لتكون مقر دعوته وإمارته وتنتشر الدعوة السنوسية فى ليبيا وشمال أفريقيا وتنفذ إلى المجاهل الصحراوية البعيدة والسودان الفرنسى داعية إلى الاسلام فلا تدع لمبشرى المسيحية مجالا للتبشير فى تلك البلاد بين الوثنيين من الزنوج وغيرهم .

وقد نجحت السنوسية فى أن تقيم فى ليبيا مذهب دين ودعائم أمارة وكانت دعوتها سلمية فلم تحتكم إلى سيف ولم تلجأ إلى قتال وإنما كانت تنفذ إلى الناس تحدوها الحجة ويدفعها البرهان فقد كانت زواياها مدارس علم ومواطن عبادة ومجالس شورى وقضاء ، وملاجىء يعتصم فيها المريدون والأتباع وكانت تقام فى أمكنة يسهل الدفاع عنها ويسهل اتصالها بغيرها من الزوايا وكانت الزاوية البيضاء وهى أول زوايا السنوسية فى شمال أفريقيا تحتل موقعا استراتيجيا ممتازا لا تتيسر مهاجمته ويتيسر الدفاع عنه بحفنة قليلة من المدافعين وقد أقيمت الزوايا الأخرى على البحر كل منها على مسيرة ستة أميال من الأخرى وعلى امتدادها فى الصحراء ولنفس المسافة أقيمت الزوايا الداخلية حتى يسهل الأنسحاب إليها إذا ما هوجمت الزوايا الأماميه وكأنما السيد السنوسى يطالع ما يخبئه المستقبل فى ثنايا الغيب من طمع الدول الإستعمارية الأوربية فى بلاد الدولة العثمانية وما ينتظر هذه الزوايا من جهاد المغير وقتال الغاصب .

هذه هى حركة الأحياء الدينى فى الشرق الاسلامى فى القرن الثامن عشر أول حركة قامت لنفض غبار الماضى والرجوع بالاسلام إلى روحه الأصيلة وبساطته الأولى ومجده الغابر وكانت تقوم على نبش تراث الماضى المجيد وفتح باب الاجتهاد وكانت تنبع فى أصولها مما وصل إليه الاسلام من ركود وتأخر وانحطاط ، وكانت حركة عامة فكانت الوهابية وتعاليمها فى الشرق الاسلامى وكانت السنوسية وزاياها ومناهجها فى الغرب الاسلامى .

وكانت حركة الأحياء الدينى فى القرن الثامن عشر خير تمهيد لليقظة الاسلامية الرائعة فى القرن التاسع عشر . وتمثلت اليقظة الإسلامية فى ناحيتين نهضة دينية ونهضة دنيوية وقد تمثل الناحيتين حكيم الاسلام وفيلسوفه الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، ولد فى الأفغان من أصل شريف منسب ينتهى إلى الحسن بن على وشب فيها وساح فى أقطار العالم الاسلامى من الهند إلى الأستانة وحج إلى الحرمين وجاور منازل النبوة ومهبط الوحى وتفقه فى الدين والفلسفة والتصوف وشارك فى أحداث بلاده السياسية وحمل على أعمال الانجليز فى الهند ونزح إلى مصر فكان نبته فيها أزكى نبت فى بلد من بلاد الإسلام وكان من مريديه وتلاميذه محمد عبده وسعد زغلول وعبدالكريم سلمان واللقانى وابراهيم الهلباوى وكان لهؤلاء جميعا أثر مبارك فى النهضة المصرية الحديثة الدينية والدنيوية .

وقد طلع القرن التاسع عشر على تكالب أوربا وتنافسها على التهام بلاد الاسلام وكان نفوذها يتغلغل فى جنباته ويلتهم أطرافه البعيدة فكانت اليقظة الاسلامية أثراً من آثار طمع الغرب فى الشرق وما طلع به الغرب على الشرق من تفوق وقوة وجبروت وجد الشرق نفسه أمامها عاجزا لا يستطيع لمناهضتها سبيلا إلا سبيله فى التفوق والقوة والجبروت . فاذا كانت حركة الإحياء الدينى قد قامت نتيجة لانهيار روح الاسلام وجموده وشيوع البدع والضلالات فى تعاليمه وإذا كانت النهضة الدينية والإصلاح الدينى لا يكفى لمجابهة الغرب المتحفز بقواه المادية والعقلية فإن الاقبال على العلم الاوربى والحضارة الغربية يجب أن يكون ديدن كل مصلح فى الشرق ويجب أن تكون حركة الاصلاح الدينى مشوبة بدعائم الاصلاح المادى والدنيوى . وعلى هذه

الدعائم قامت اليقظة الاسلامية وكان دعاتها دعاة دين ودعاة دنيا وكان تطور حركة الإحياء الدينى إلى حركة إصلاح دينى ودنيوى ، وكان دعاة اليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر رجال دين ودنيا .

الجامعة الإسلامية :

وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية أول استجابة طبيعية لليقظة الاسلامية تلك اليقظة التى كانت رجع الصدى لحركة الإحياء الدينى التى قام بها محمد بن عبدالوهاب وحملها مريدوه وأتباعه إلى كل صقع من أصقاع العالم الاسلامى كما كانت أثرا من آثار طغيان الغربَ وتفوق حضارته .

وحفز حركة الإحياء الدينى ماشاع فى العالم الاسلامى من بدع وضلالات وجهل بتعاليم الدين الصحيحة استرعى إهتمام الأذكياء والمصلحين من دعاتها فهى تنبع فى أصولها من أعماق الوطن الاسلامى الكبير ، أما الإصلاح الدنيوى فقد حفزه ماحاق بالأمم الإسلامية من ضعف وانحطاط وتأخر إزاء طغيان الغرب وتفوق حضارته فهو ينبع فى أصوله من عوامل خارجية هى نتيجة الإحتكاك الجديد بين الغرب والشرق وسار الحافزان معا تتألفهما غاية واحدة وإن اختلفت المناهج وتباينت السبل .

وقد عرفنا مدى استجابة العالم الإسلامى لتعاليم الوهابية وانتشار زوايا السنوسية فى كل صقع من أصقاع أفريقيا الشمالية والغربية وتغلغلها إلى المناطق المجهولة فى تلك النواحى ومزاحمتها دعوة التبشير المسيحى بين الزنوج وشمول كل من الدعوتين على مناهج الدولة وأسس قيامها ولا يرجع هذا إلى جوهر كل منهما بقدر ما يعود إلى جوهر الاسلام العام فإن الإسلام لم يفرق بين الدين والدولة وإن لم يربط بينهما ، فلم يرد نص صريح فى السنة أو الكتاب يشير إلى إمامة أو خلافة أو ينص على نظام معين من الحكم فى الإسلام ، وجاءت الخلافة بعد النبى (صلعم) استجابة طبيعية لحاجة الدوله الإسلامية الناشئة إلى الوحدة والارتباط لنشر الدعوة ودفع حركة الامتداد الاسلامى إلى العالم الخارجى ثم أصبحت سمة للدولة الاسلامية الكبرى تطبعها بطابعها وتربطها فى نطاقها العام .

ولكن الإسلام وإن لم يشر إلى نظام معين فى الحكم أو ينص على الإمامة أو الخلافة إلا أنه بين من مناهج الحياة وتشريع الحكم ما يصح أن يكون أساسا لحكومة إسلاميه تستوحيه حاجات الحكم فى الدوله ومقوماتها العامة ، فبين هو يفصل سن أمور الدين وأسس الوحدانية والعبادة ومناسك الحج وفريضة الزكاة إذا به يسهب فى تحديد الروابط الاجتماعية وحقوق الفرد وعلاقته بالجماعه وحق الجماعة على الفرد وعقاب القاتل والزانى والسارق كما يشير إلى نوع من الإدارة المالية لا يجفو التطور والاقتباس اللذان تتطلبهما حاجات الدولة ، وقد مارس النبى (صلعم) فى حياته لونا من الحكم يقوم على الشورى والشريعة الغراء وتطبيق قانونها وإقامة الحدود وتنظيم الجيوش وتسييرها للغزو والفتح وسن الضرائب وتبيان أنواعها إلى كل ما يلزم لقيام الدولة على أسس ثابتة وطيدة الأركان ، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه حتى يوائم بين التطور وحاجات الدولة وبين مناهج الشريعة وقواعد الدين .

فالإسلام لم يربط بين الدين والدولة وإن وآم بينهما وساير منهجهما وإذا كان قد تناول صفات الحاكم وحقوق المحكوم وسنن الحكومات ومناهجها فى شكل عام فإنه لم يقل بقيام دولة من نوع خاص ولم يضع لها نظاما معينا بل أن الرسول قد انتقل إلى الرفيق الأعلى دون أن يوصى بمن يخلفه أو يترك قاعدة يسير عليها المسلمون فى حكمهم بل ترك لهم أن يسوسوا دنياهم فى حدود الشريعة الغراء . ولكن روح التشريع فى الدين الإسلامى وما جرت عليه الخلافة الإسلامية بعد ذلك قد ربط بين الدين والدولة برباط وثيق فضلا عما يشعر به المسلم حيال المسلم أيا كان وطنهما من أخوة وتعاون هما من قواعد المجتمع الإسلامى وروحه العامة ، ومن هنا ارتبطت الدعوة الوهابية بقيام دولة وهابية وحرصت السنوسية على دعم نفوذها بين أتباعها ومريديها حتى تحققت فكرة الدولة وتوج السنوسى ملكا على ليبيا فى أوائل عام ١٩٥٢ وكانت دعوة المهدى فى السودان دعوة دينية حققت فكرة الدولة فى نظامها الدينى على النهج الإسلامى فأصبح محمد أحمد المهدى رائد الدعوة ومنشئها خليفة يتطلع فى بعض آماله إلى بسط نفوذه على العالم الإسلامى .

ولهذا تطورت حركة الأحياء الدينى إلى حركة إصلاح عامة تتناول أمور الدين

وأمور الدنيا على يد جمال الدين الأفغانى وقامت فى البلاد الإسلامية المختلفة اتجاهات إصلاحية تنحو منحى قوميا خالصا ومن هذا النوع كان جهاد السيد أحمد خان فى الهند الإسلامية ومحمد عبده فى مصر وجهاد مدحت باشا الدستورى فى تركيا وخير الدين باشا التونسى فى تونس . وكانت كلها اتجاهات تقوم على تفكير واضح وعقيدة متنورة تحتفظ بروح الإسلام القوية الخالدة وتتجه إلى الغرب فى إيمان بمقومات الحضارة والنهوض الغربى فى الحكم والتعليم والعمران .

ولم تكن هذه الاتجاهات الإصلاحيه القومية تنبع من روح الشرق العامة بقدر ما كانت تنبع من روح الوطن وكانت حافزا على وضوح المعالم القومية فى أوطان الشرق الأوسط ، فكان جهاد السيد أحمد خان جهادا قوميا هنديا يتجه إلى النهوض بالهنود والوطن الهندى وكان محمد عبده ينحو منحى مصريا خالصا فى الإصلاح والتجديد وكان مدحت باشا يحس احساسا عميقا بحاجة الدولة العثمانية إلى الحرية وإصلاح أداة الحكم والأخذ بالنظام الدستورى فهو يعبر تعبيراً صادقا عن نواحى الاصلاح فى الدولة التى تولى أرفع مناصبها وهو منصب الصدر الأعظم ، وعلى غرار جهاد مدحت الدستورى كان جهاد عبد الرحمن الكواكبى ، وهو من أبناء سوريا ، فى الدعوة إلى الاصلاح الاجتماعى والسياسى وعلى هدى هذه الغاية سار خير الدين باشا التونسى فى تونس ، فهو ينشد إصلاحا داخليا يشعر بحاجة تونس الماسة إليه للنهوض و لإرتقاء ، وإصلاحا فى سياسة تونس الخارجية يقيها شر الأطماع الأوربية المتحفزة للانقضاض عليها ويدعم من علاقتها بالدولة العثمانية ، حتى تفيد من الحماية التى أضفتها الدول الأوربية على الدولة العثمانية وأملاكها الواسعة .

وكانت هذه الاتجاهات القومية والعامة فى الإصلاح تعبر إلى حد ما عن التطور القومى فى بلاد الإسلام التى تقع فى نطاق الشرق الأوسط أو قريبا منه ، وظل هذا التطور حتى فى أبان قوته محافظا على الروح الإسلامى العام من حيث ارتباط المسلمين بعضهم ببعض فى المجموعة الإسلامية الكبرى ، وهو بعض ملامح الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، واتجاهها العام ، فلم تطغ دعوة الجامعة الإسلامية على تلك النزعات القومية التى بدأت تثور فى أعماق العالم الاسلامى وشعوبه وبلدانه أوتفل من

حدتها ، وإنما كانت تسير معها وتتألفها حتى إذا فشلت الدعوة إلى الجامعة الاسلامية خلى الميدان لظهور النزعات القومية واتجاهاتها الفردية ، فقد سارتا تنشدان غاية واحدة وتعملان على التحرر من طغيان الغرب ونفوذه الاستعمارى والقضاء على الاستبداد الحكومى وقيام أنظمة رشيدة عادلة للحكم والإدارة والسير بعجلة الاصلاح فى كافة دروبها سواء كان إصلاحا دينيا أو سياسيا أو اجتماعيا أو خلقياً أو فكريا .

كانت الجامعة الاسلامية غاية الأفغانى وجل مبتغاه ولكنها لم تشغله بالدعوة إليها عن تعاليمه فى الإصلاح والتقدم فكانت مجالسه وندواته مجالس علم وندوات بحث وما من جهة حل فيها إلا وترك من بذور غرسه ما أنبت خير نبات فى دوحة الوطنية والقومية والاصلاح السياسى والاجتماعى ، وقد عاصر الأفغانى بدء اليقظة الاسلامية ونمو الوعى القومى فى الشعوب فكان أنغم صدى يرجع نداء النهضة الإسلامية الحديثة ولم ينشد من مؤازرة الدعوة إلى الجامعة الاسلامية إلا أن تقوم فى الشرق أمم ناهضة قوية تستمد قوتها من مقوماتها القومية وترتبط جميعاً فى نطاق الوحدة الاسلامية صفاً كأنه البنيان المرصوص أمام طمع الغرب وتغلغل نفوذه وتفوق حضارته ويقول فى هذا الشأن « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحداً فإن هذا ربما يكون عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم » .

وكان نداء الأفغانى فى مصر هو نداءه فى فارس كما هو نداءه فى الهند وفى تركيا لايرهب فى ندائه قوة غاصب أوسلطان مستعمر أو عسف مستبد، ففى مصر كما يقول أحمد أمين بك فى كتابه «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث» — «يريد فى درسه النظامى توسيع عقول الطلبة ، وتفتيح آفاق جديدة فى فهم العالم ،وتعليم الحرية فى البحث ، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم ، خالفت النص أو وافقته ، خالفت المعروف المألوف أو وافقته .

ويريد فى درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم

من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم ، كل يعرف حدوده ويؤدى واجبه ، ثم يقول ، ويريد فى السياسة أن يقتنع الشعب بحقه فى الحكم فإذا فهم ذلك — وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه ـ طالب بالمجلس النيابى ، فيعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته لاعلى أنه منحة تمنحله ، فإذا أعطيه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه ، وأحرص عليه حرصه على دمه ، فاستقر وثبت ، ولم تستطع سلطة ما أن تلغيه أو تهمله » .

وقد غذت دعوة الأفغانى وتعاليمه فى مصر تربة الوطنية وبعثت الشرارة الأولى فى الثورة العرابية وفى فارس التف حوله دعاة الاصلاح فسعى هو ومن التف حوله إلى وضع المشروعات لإصلاح الادارة وإقامة العدل وتقنين القوانين وتنظيم الحكم النيابى للبلاد ، حتى زعج الشاه فحمله قسرا على مغادرة بلاده ، ولكنه ترك من آثاره فى فارس ما حمل بعض أتباعه ومريديه من المطالبين بالدستور على أغتيال الشاه عام ١٨٩٦ قبل وفاة الأفغانى بعام واحد ، واضطر خليفته أن ينزل على إرادة الأمة ويمنحها الدستور عام ١٩٠٦ .

واتصل الأفغانى برجال تركيا الفتاة فى باريس وبارك خطتهم وأهدافهم وسمى جمعيتهم « الجمعيه الصالحه » وهم الذين قاموا بثورتهم الدستوريه عام ١٩٠٨ فى تركيا ثم خلعوا السلطان عبد الحميد الثانى بعد ذلك بعام .

كانت تعاليم الأفغانى كما رأينا غذاء الحركات القومية فى بلاد الشرق الأوسط وليس فى تعاليمه ما يتعارض ودعوته إلى الجامعة الإسلاميه ، فالجامعه الإسلاميه كما يراها ليست حلفا بين دول وشعوب ضعيفه قد خضعت لنير المستعمر وقتلها الإستبداد وسوء الادارة وفساد الحكم وتأخرها الاجتماعي والثقافى والسياسى فكان لابد لحركة الاصلاح التى ينادى بها أن تتناول هذه النواحى جميعا ثم يتوجها بعد أن تتحقق لها أسباب النهوض والارتقاء تلك الوحدة الاسلاميه التى ينشدها وينادى بها لتقف قوية أمام الضغط الأوربى واجتياحه لبلادها .

وقد استمدت دعوة الجامعه الاسلاميه قوتها من حركة الإحياء الدينى واليقظة الاسلاميه التى أعقبتها ، وعندما تطورت حركة الإحياء الدينى إلى حركة إصلاح عامه

كان السيد جمال الدين الأفغانى إمام هذا التطور الجديد ورائده . فهو الذى فلسف تعاليم الوهابيـة وركزها على أسس اجتماعية وسياسية يحدوه ما يراه فى الغرب من روح التعصب المسيحى حيال الشرق الإسلامى وما يرمى إليه من النهوض بالبلاد الإسلامية وإصلاح حالها .

وقد لخص ستودارد فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » تعاليم الأفغانى بقوله : « إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور كما كانت فى قلب بطرس الناسك ولم يزل التعصب كامناً فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للاصلاح والنهضة » .

« ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه وليستطيع الذود عن كيانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته » .

ونرى فى هذا أن هناك عاملا جديداً يحدو الأفغـانى فى تعاليمه لم يكن له أثر فى اتجاه محمد بن عبد الوهاب أو منهجه الإصلاحى أو فى تعاليم السنوسية فى دورها الأول وإن كان كل منهما دعوة دين ودولة إلا أنهما كانا ينحوان منحى إسلامياً خالصاً دون اتجاه للغرب وتعاليمه ، فقد كان الغرب الأوربى جديداً على الشرق الإسلامى ، ولم تكن أطماعه قد اتجهت إليه بعد .

وكان هذا العامل الجديد كما يقول ستودارد هو طمع الغرب فى الشرق الإسلامى ، هذا الطمع الذى يحمل فى ثناياه روح التعصب الصليبى فى وقت بدا الشرق فيه وهو عاجز عن رد العدوان الأوربى .

وكانت حركة الأفغانى حركة شرقية إسلامية فيها اتجاه للغرب ، ولـكن فى إيمان بالشرق وتراثه ووحدة شعوبه وتقاليده فاتجه بتعاليم الوهابية والسنوسية الدينية اتجاهاً دنيويا فيه معنى الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، فالتعليم والخلق دعامتا المجتمع الناهض والشورى مظهر الحكم السليم والوحدة السياسية عنوان القوة فى العالم الإسلامى .

وكان هذا الاتجاه فى حركة الأفغانى رغم تعصبه وعنف دعوته وما أوتيه من شجاعة بلغت حد التهور تمهيداً طيباً لحركة المصلحين المعتدلين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أمثال محمد عبده فى مصر والسيد أحمد خان فى الهند .

وإذا كانت دعوة ابن عبد الوهاب هى الشرارة الأولى التى أذكت لهيب اليقظة الإسلامية ، فإن دعوة الأفغانى للوحدة الإسلامية كانت بداية الدعوة للجامعة الإسلامية التى رعاها السلطان عبد الحميد ، وكان الأفغانى رائدها وداعيتها .

وكانت الجامعة الإسلامية عقيدة وأملا لدى الأفغانى ، وكانت وسيلة نفوذ ودعامة سياسة لدى السلطان عبد الحميد ، وتلاقت أهداف الرجلين حول الفكرة كل وما يحدوه من أمل أو اتجاه .

وليست الجامعة الإسلامية فكرة خاصة أو دعوة فردية وإن تلاقت على أهدافها آمال أفراد ، فقد كان السلطان عبد الحميد يحب أن يجمع العالم الإسلامى حول زعامته حتى يجابه الغرب الأوربى الطامع فى أملاكه بقوة تسنده وتدعم نفوذه ، وكان جمال الدين الأفغانى يؤمن إيماناً ما بعده إيمان بقوة هذه الوحدة الإسلامية الكبرى إذا اجتمعت لها عوامل النهوض والإرتقاء تحت زعامة سياسية رشيدة قوية ، وإنما كانت فكرة الجامعة الإسلامية صدى قوياً لليقظة الإسلامية فى القرن التاسع عشر كما كانت ثمرة الأحداث السياسية فى الشرق الإسلامى والأطماع الأوربية التى كانت تنوشه من كل جانب ، وخضوع بعض بلاد الإسلام لنفوذ أوربا المسيحية واشتداد الضغط الأوربى على الدولة العثمانية .

وكان لها جانبان جانب سياسى وآخر اجتماعى . أما الجانب السياسى فكان هدفه مقاومة الأطماع الأوربية فى الشرق الإسلامى والقضاء عليها والتخلص منها ، ولا سبيل إلى ذلك غير تكتل البلاد الإسلامية فى سبيل هذا الهدف المشترك وإحياء الوحدة الإسلامية الكبرى التى تتمثل خير تمثيل فى الروح الإسلامى العام والمبادىء الإسلامية الخالدة ، فالمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، والمسلمون أخوة أينما كانوا ومازال الحج مؤتمراً سنويا يجتمع فيه المسلمون حول منازل النبوة فى مكة والمدينة وفى

ساحة الكعبة الشريفة يتعارفون ويبث بعضهم بعضاً آمالهم وآلامهم ويجددون العهد لله والميثاق لخير الإسلام والمسلمين وكانت الخلافة حكما جامعا له مظهره الدينى وسلطانه الروحى حتى خال الأوربيون الخليفة كالبابا فى روما ، كما كان له سلطانه الزمنى على الأمم الإسلامية التى تخضع للخلافة .

وكان هدف دعاة الجامعة الإسلامية وعلى رأسهم رائدها الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى هو جمع المسلمين فى كافة بقاع العالم الإسلامى حول سلطان الخليفة الروحى بما فيهم طوائف الشيعة التى لم تعترف بالخلافة فى غير السلالة الطاهرة من أولاد على فهم الأئمة وهم الخلفاء فى الأرض ، وقد عمل دعاة الجامعة الإسلامية على حمل شيعة فارس والعراق والطائفة الإسماعيلية فى الهند على الاعتراف بزعامة الخليفة الروحية عليهم فتبدو وحدة العالم الإسلامى قوية غير مفككة .

وقد احتضن السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية ، وجاهد فى سبيل تحقيقها حتى يبدو أمام الدول الأوربية بمظهر الخليفة القوى الذى تجتمع حول زعامته طوائف المسلمين فى بقاع العالم الإسلامى حتى فى البلاد التى لاتخضع لسيادته كالهند والصين .

أما الجانب الاجتماعى فى فكرة الجامعة الإسلامية فيبدو واضحاً فى إحياء تعاليم الإسلام الحقة والإقبال على العلم الأوربى والإفادة من الحضارة الغربية مع الاحتفاظ بروح الشرق الخالدة . وفى هذا الجانب تلاقت دعوة المصلحين الأحرار ودعاة الجامعة الإسلامية كما تلاقت من قبل فى مقاومة النفوذ الغربى وتغلغله فى بلاد العالم الإسلامى .

ولم تنجح فكرة الجامعة الإسلامية النجاح الذى كان يرتجيه لها دعاتها وزعماؤها وإن نجحت فى إثارة القلق الأوربى من الدعوة إليها وإمكان تحقيقها ، وإن ظلت الروح الإسلامية الجامعة قوية بين المسلمين إلى وقتنا هذا كما كانت فى أبهى عصورها وأقواها دعامة الإسلام الخالدة ، فلم تكن شخصية السلطان عبد الحميد الداهية المستبد بالشخصية التى يمكن أن تجذب إليها الأحرار من المسلمين ، وكانت مقاومته

للأحرار وبطشه بهم وتعطيل الدستور قد نفر منه دعاة الإصلاح فى العالم العثمانى .

ولم تشتبك تركيا منذ سنة ١٨٧٨ حتى سنة ١٩١١ فى حرب مع أى دولة من دول أوربا المسيحيه يمكن أن تمتحن معها قوة الجامعة الإسلامية فى إعلان الجهاد المقدس ، كما أن خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ قد أوقف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية كقوة تسند الخلافة فى نزاعها مع الغرب الأوربى وإن لم يقض على فكرة الجامعة الإسلامية كقوة روحية تجمع المسلمين فى العالم الإسلامى نحو غاية واحدة وهدف مشترك وهى القوة التى ظلت عنصراً من عناصر التفوق والانتشار الإسلامى فى العالم . وقد بدت هذه القوة كعهدها فى جهاد المسلمين فى طرابلس الغرب لإيطاليا واعتدائها على البلاد ، هذا الجهاد الذى غدا مضرب الأمثال فى الشجاعة والقوة والبأس والثبات من جانب العرب والترك فى مقاومة الغزو الإيطالى كما بدت فى معاونة العالم الإسلامى للأتراك فى الحرب البلقانيـة سنة ١٩١٢ تلك الحرب التى واجهت تركيا فيها حلفاً مقدساً من الدول البلقانية قد أعلن الحرب عليها فى نزعة صليبية متعصبة .

وقد بدت الجامعة الإسلامية والتفاف المسلمين حول الخليفة ذات مظهرين مختلفين فى بلاد الإسلام فقد غذت أمل المسلمين فى البلاد التى خضعت للنفوذ الأجنبى كالهند ومصر ، وسرت فاترة سقيمة فى بلاد العالم العثمانى الأخرى كبلاد العرب والشام لما عانوه من حيف الأتراك واستبدادهم وجور السلطان وظلمه ، وكان لسقوط الخلافة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى صدى عنيفاً بين المسلمين فى الهند وأفغانستان ومصر ، فبكاها المسلمون فى تلك البلاد وغضبوا لها ، بل دفع الغضب بعض مسلمى الهند إلى الاتصال بالأفغانيين الساخطين على بريطانيا وحثهم على غزو بلادهم ، وتوالت احتجاجات المسلمين فى الصين ومصر وجاوة على ما قام به الكماليون فى تركيا من إلغاء الخلافة . أما العرب فقد ثاروا على الخلافة بزعامة الشريف حسين وأولاده فى مكة واتصلت ثورتهم بحركة القوميين والأحرار فى سوريا والعراق ، ووجد الملك حسين فى سقوط الخلافة هوى راود آماله فقد كان يرجو أن تكون له الخلافة بعد

العثمانيين ، أما الوطنيون فى سوريا والعراق فقد وجدوا فى انهيار الدولة العثمانية فرصة للتحرر وتحقيق آمالهم القومية .

ويعود هذا التباين فى الحزن على الخلافة إلى اختلاف الأوضاع التى كانت عليها الأمم الإسلامية حينذاك ، فإن الأمم التى خضعت للاستعمار كالهند ومصر قد آلمها سقوط الخلافة ، فقد كانت الموئل الذى يلوذون به ويرجون التحرر على يديه من ربقة الاستعمار من ناحية ، ومن ناحية ثانية كرهاً لبريطانيا التى تستعمر بلادهم وهى السبب فى انهيار الدولة العثمانية وهزيمتها فى الحرب ، أما الأمم التى ظلت خاضعة للعثمانيين كالعراق والشام والحجاز فقد عانت من مظالم العثمانيين واستبدادهم ما حملهم على الثورة عليهم وإن لم يفرحوا قط بسقوط الخلافة كما لم يرحب أكثر الوطنيين فى الشام والعراق بمؤازرة الشريف حسين فى ثورته قبل أن يتأكدوا من حقيقة الوعود التى بذلها الإنجليز له باستقلال البلاد العربية وتحررها .

وقضى سقوط الخلافة على فكرة الجامعة الإسلامية العامة فقد كانت الخلافة آخر مظهر حقيقى لوحدة الأمم الإسلامية ، وإن كانت الدعوة إلى الجامعة الاسلامية التى عناها الأفغانى وسعى السلطان عبد الحميد لتحقيقها ، قد قضى عليها بنجاح ثورة جمعية الاتحاد والترقى وعزل السلطان عبد الحميد واشتداد حركة الجامعة الطورانية التى تأثر بها رجال الثورة وإن لم يعتنقوا مبادئها فقد كانت غايتهم المحافظة على الوحدة العثمانية مما يتعارض وما ينادى به الداعون إلى فكرة الجامعة الطورانية ، وإن جمع بين الفريقين التعصب الواضح للعناصر التركية رغم ما ساهم به العرب من جهد بين فى نجاح حركة جمعية الاتحاد والترقى وثورتها ، كما أن تطور الوعى القومى ونموه واشتداده قد أثر بدوره إلى حد بعيد فى إضعاف فكرة الجامعة الاسلامية والدعوة إليها ولا سيما بعد أن لمس العرب بأنفسهم نمو العنصرية التركيه واشتدادها كما بدت فى اتجاه رجال جمعيه الاتحاد والترقى أو كما بدت فى الدعوة إلى الجامعة الطورانية التى ترمى إلى وحدة الشعوب التى تنحدر من الأصل الطورانى الذى ينحدر منه الأتراك بدورهم ، فاتسعت هوة الخلاف بين الترك والعرب واشتدت نزعة القومية العربية بين العرب الخاضعين للدولة العثمانية كما شغلت الشعوب الاسلامية التى خضعت

للاستعمار بمقاومته ، وبدا وكأن الشعوب قد شغلتها آمالها وأهدافها الخاصة عن التفكير فى الوحدة الاسلامية أو الدعوة إلى الجامعة الاسلامية .

محمد على والبعث القومى :

وإذا كان لنا أن نذكر فى هذا الصدد دعوة الأحياء الدينى التى نادى بها محمد بن عبد الوهاب فى نجد والتى سرعان ماتحولت إلى حركة إحياء عامة حمل شعلتها إلى كافة أنحاء العالم الإسلامى اتباعه ومريدوه ومن ساروا على نهجه ، وكانت الشرارة الأولى التى أضرمت لهيب اليقظة الإسلامية ، فلا ننس جهود عاهل جاء بعده بقليل وعاصر جيله واشتداد حركته التى حملها إلى مشارف الشام والعراق أبطال نجد يقودهم سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد آل سعود الذى صاهر محمد بن عبد الوهاب وتبنى دعوته حتى حملها من بعدهما أولادهما هؤلاء وظلوا يحملونها حتى دهمتهم جيوش هذا العاهل الذى استنجده السلطان لانقاذ منازل النبوة من خطرهم ، وكان هذا العاهل هو محمد على الذى قضى على حركة الوهابيين وإن لم يقض على دعوتهم فقد قبعت فى قلب نجد حتى اجتاحت شبه الجزيرة العربية مرة أخرى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وبسطت سلطانها عليها .

وقد ارتبط ظهور محمد على بحدث خطير كان له أكبر الأثر فى مستقبل الدولة العثمانية عامة ومصر والبلاد العربية خاصة ، ألا وهو حملة بونابرت على مصر ، فقد جاءت حملته الفرنسية فحطمت نطاق العزلة التى ضربتها الدولة العثمانية حو أملاكها الشرقية وأظهرت لأول مرة تفوق الحضارة الأوربية تفوقا بدا الشرق أمامه عاجزاً مذهولا ، وأدت فى النهاية إلى ظهور تلك الشخصية الباهرة التى كان لها أكبر الأثر فى سير التاريخ المصرى ، والتى سطرت بجهودها الخطوط الأولى فى التطور القومى الحديث فى مصر وفى البلاد العربية التى حكمها وإن كان أثره فى مصر قد غلب على آثاره فى البلاد الأخرى التى حكمها . فقد أدرك محمد على لأول وهلة مافى الشعب المصرى من قوى كمينة ومافى مصر ذاتها من مقومات بناء الدولة التى يمكن أن تعمل عملها القوى فى النهوض والإرتقاء فوطد العزم على أن يقيم فى مصر دعائم ملكه

ويشيد دولة ترتبط بحكمه وحكم أبنائه من بعده بالكشف عن هذه القوى الكمينة فى الطبيعة المصرية وبعثها ثم دفعها نحو الغاية التى يرمى إليها والهدف الذى ينشده واتجه بالإصلاح اتجاها يقوم على توجيهه الخاص وعلى كاهل السواعد المصرية بعيداً عن توجيه الخليفة وسلطان الدولة العثمانية وسار بالدولة التى أقامها فى مصر فى اتجاه قومى يحمل كثيرا من السمات التى تتصف بها الدولة القومية الحديثة فى أوربا ، ثم امتدت به آماله ودعته الظروف إلى الامتداد والتوسع خارج حدوده ورأى نفسه بعد فترة لم تطل كثيراً وقد بسط سلطانه على مساحات واسعة من الأراضى تتسم بعدة سمات تميزها على غيرها من أملاك الدولة العثمانية الأخرى فشعوبها تتكلم لغة واحدة هى اللغة العربية وتكاد تربطها وحدة اقتصادية كانت بعض ماينشده محمد على من مقوماتها وتكون إقليما استراتجيا يسهل الدفاع عنه كلا واحدا أكثر مما تسهل حمايته مجزأ فقد كان يرى أن خطوط الدفاع عن مصر تقوم عند جبال طوروس فى الشمال ويستند العمق الإستراتيجى لهذا الدفاع على مساحة السودان الواسعة .

وحدثته نفسه أن يقيم فى هذا النطاق الأقليمى امبراطورية عربية تخضع لسلطانه بعيداً عن سلطان الباب العالى وإن اعترفت بسيادة الخليفة الدينية ، هى ما كان يدعوها على حد تعبيره « عربستان » أو مجموعة البلاد العربية ، تقوم على وحدة الجنس واللغة والدين ولا تقيم وزنا للفروق الجغرافية بين بلادها فإنها لن تكون عاملا فى ضعفها بل ستكون من عوامل قوتها الإقتصادية والاستراتيجية فإن حاجة كل منها إلى الأخرى تستوفيها فى حدود الوحدة التى تربط بينها جميعاً سهلة ميسورة أكثر مما لو كانت مجزأة متفرقة .

وكان محمد على يدرك إدراكا صحيحاً عجز الخلافة العثمانية عن المحافظة على التراث العثمانى الضخم الذى شمل دولة الإسلام وملك بيزنطة وما ينوء بها كاهلها فى حمل لواء الإسلام ، كما كان يدرك تماما عجز الدولة العثمانية عن مجابهة الأطماع الأوربية التى جعلت تنوشها من كل جانب والتى يمكن أن تكون سببا فى القضاء عليها فيما لو اتحدت الدول الأوربية المتنافسة على التهامها ، فلو قدر له أن يدعم كيان هذه الإمبراطورية باصطناع سياسة الحديد والمال التى اصطنعها فى مصر لاستطاع أن يواجه الدول الأوروبية الطامعة ويحمى ذمار الإسلام فى تلك البقعة من الأرض .

ولم يكن محمد على يصدر فى تلك الاتجاهات عن إيمان بالقومية المصرية بل كان يصدر عن طموح شخصى فى أن تكون له امبراطورية يتوراثها أبناؤه من بعده كما كان يصدر عن هـذا الطموح الشخصى عندما دفع بالقوى الكمينة فى أرض مصر وفى شعبها إلى تحقيق أهداف هـذا الطموح ولكن ممالاريب فيه أن الطريق الذى اختطه محمد على كان يقود حتما إلى خلق الوعى القومى فى تلك البلاد فما كان يغنيه اعتماده على سواعد أتباعه من الأتراك والألبانيين عن الاعتماد على نوايا العرب والمصريين الطيبة حياله وتأييدهم الفعلى له ، وكان إبراهيم أكثر إيمانا بهذا الاتجاه القومى من أبيه فقد خبر العرب عن قرب فى تلك السنوات التى احتك بهم خلالها وهو يقود جيوش أبيه المظفرة فى وهادالجزيرة العربية وفى مجاهل السودان وبطاح الشام وروابيه ، وعرف مافيهم من فضائل ونقائص وفى هذا يقول جورج انطونيوس فى كتابه يقظة العرب « لقد حرك العرب خياله وأيقظوا اهتمامه بهم حتى بات يعتقد أن الأسس التى ترتكز عليها المملكة التى يحلم بها أبوه تزداد قوة وثباتا إذا قامت فى الأصل على بعث العرب بعثا قوميا » .

ويفسر جورج انطونيوس هذا الاختلاف بين الوالد وولده إلى التباين بينهما « فى الفكر والمزاج فإن عبقرية محمد على على حد قول أحد معاصريه ، كانت من النوع الذى يخلق الممالك بينما كان ابراهيم يتحلى بالحكمة التى تحتفظ بتلك الممـالك » .

وكانت جهود ابراهيم فى تلك السنوات القليلة التى حكمها فى الشام كما كانت جهود أبيه فى مصر رغم صدورها عن طموح شخصى إلا أنها وضعت البذور الأولى للوعى القومى فى تلك البلاد ، ذلك الوعى القومى الذى ظهر فى مصر رائعاً عنيفاً فى حركة الوطنيين فى أخريات عهد اسماعيل وفى الثورة العرابية فى عهد توفيق كما ظهر فى البلاد العربية فى تلك الثورة التى أوقد نارها الشريف حسن فى الحجاز وحمل شعلتها إلى البلاد العربية الأخرى لتتصل بدعاة القومية والحرية فى الشام والعراق .

ولا نستطيع أن نقول أن فكرة الدولة القومية كما عرفتها أوربا يمكن أن تتفق وقيام العربستان أو الدولة العربية الموحدة وإن كانت تقوم على عناصر كثيرة من

من مقومات الدولة القومية إلا أن فروق البيئة والطباع والتقاليد فضلا عن الفروق الجغرافية الواضحة لا تكفل لهذه الدولة عوامل النجاح والاستقرار فى عالم لم يعد الدين فيه أو الجنس أو اللغة أهم عناصر القومية الحديثة التى تستمد كيانها من وحدة الوطن ووحدة الأهداف والمصالح وارتباط الدولة بمجموع أفرادها فى نظام من العمل والتعاون المشترك بين الحكام والمحكومين ، والحقوق والواجبات التى يرتبط بها كل منهما .

ولكن هذه الإمبراطورية العربية التى دانت لحكم محمد على لفترة لم تطل كانت بذرا صالحاً لنمو آمال العرب وشعورهم بذاتيتهم وسيادتهم وتفوقهم وتميزهم على العناصر التركية الدخيلة وإن بقى الشعور بالرابطة الإسلامية العامة وبالولاء الإسلامى للخلافة يطغى على كل شعور سواه ، فلم يطمع العرب حتى فى فورة وعيهم القومى الذى أخذ يكشف عن عرامته فى أخريات القرن التاسع عشر ، إلا فى لون من الحكم الذاتى ونوع من المساواة فى الحكم ووظائف الدولة بالعناصر التركية كما كانوا يهدفون إلى إصلاح أداة الحكم العثمانى على أساس دستورى يرعى حقوق الشعوب المحكومة علهم يجدون فى الإصلاح الجديد تحقيقا لكيانهم الذى ينشدونه فى الدولة .

ولم يكن شعور العرب بذاتيتهم يحملهم على السعى للانفصال عن الدولة العثمانية والخروج على رابطة الخلافة بقدر ما كان يحملهم على المطالبة بحقوقهم والسعى لإحياء تراث العرب الحضارى الباهر فى اللغة والأدب والثقافة ولم يبد هذا السعى قويا واضح المعالم إلا فى الشام وامتدت بعض آثاره إلى العراق أما مصر فكانت قد حققت لنفسها نوعا من الكيان الذاتى فى داخل الدولة العثمانيه يحقق لها نوعا من الاستقلال ويجعلها أقل شعورا بوطأة الحكم العثمانى . ولم تكن السيطرة العثمانية على شبه جزيرة العرب قوية إلا فى الحجاز أما باقى أجزاء شبه الجزيرة فقد ظلت تخضع لسلطان أمرائها الأقوياء لا تربطهم بالدولة العثمانية إلا رابطة التبعية القديمة لسلطان الخلافة كما أن آثار الوهابية قد تركت جذورها العميقة فى كثير من جهاتها ولاسيما فى نجد مقر الوهابيين الأصيل ، ولم تتح لبلادها وحدة حقيقية إلا فى ظل الحكم المصرى لم تستمر طويلا وزالت بزوال هذا الحكم وتقلصه وعادت شبه الجزيرة إلى سيادة أمرائها القدامى الذين كانوا أشبه بملوك متوجين فى إماراتهم القاصية .

لقد افتتح محمد على بولايته على وادى النيل وبحكمه القصير فى بلاد العرب والشام فصلا جديداً فى تاريخ الشرق العربى ومن الإنصاف أن نشيد بجهود هـذا العاهل وما ترتب عليها من آثار ظلت تلعب دورها على مسرح الحوادث فى تلك الفترة وما بعدها فى تلك البلاد وان كانت أهدافه البينة الواضحة وطموحة الشخصى وآماله العراض هى التى رسمت الخطوط السريعة لجهوده المتوالية المتباينة ذات الغرض الواحد والهدف المحدد . وإن كانت هذه الجهود قد تعثرت فى أخريات حكمة وفى حكم خلفائه إلاأن أثارها بقيت حية وأضحت نبراسا لـكل إصلاح مادى فى مصرأوفى البلاد العربية وكانت أوضح ماتـكون فى تطور الوعى القومى ونموه وتقدمه والإتجاه نحو الغرب بثقافته وعلومه وحضارته .

وكان نظامه فى الحـكم وإن تميز بأتوقراطيته البينة ومركزيته الشديدة التى اتسم بها إلا أنه كان خير معوان له فى السير بجهوده لتحقيق تلك الأهداف الرائعة التى رسمها طموحه الوثاب فلم يكن فى بطانته التركية أو فى أهل البلاد نفسها من يستطيع أن يضطلع بالعبء الثقيل الذى حمله كله على عاتقه وما كان يتوانى عن الاستعانة بأ كفاء الرجال عندما تهديه فراسته إليهم ، كما أن هذه الفترة التى عاصرها محمد على من التاريخ كانت فترة عظماء التاريخ وأفذاذه ممن يبنون الممالك وينهضون بالأمم ولم تـكن عظمة الشعوب فيها إلا بقدر استجابتها لهؤلاء العظماء فى تاريخها ، وقد ظل هذا الدور سائدا حتى نهاية القرن التاسع عشر فلم يـكن نابليون أومترنخ أوبسمارك إلا رجالا من هذا الطراز الذى ينهض بالممالك ويقيم دعائمها ، وليس من الإنصاف أن نأخذ على محمد على دون رجال عصره هـذه الأوتوقراطية مادامت تبدع وتخلق وتعى مناهج الإصلاح والتقدم .

وأيا كان حكم محمد على فى مصر أوفى غيرهامن البلاد التى امتدإليها سلطانه فقد أوجد إدارة حازمة وقضى على مظالم العهد القديم ونظم جباية الضرائب ونشر الأمن والاستقرار فى البلاد وأقام نظاما تعليميا وصناعيا وعسكريا فريدا لاينقص من قدره أنه قام بدافع الحاجة والضرورة لتحقيق مطالب عاجلة ثم أدركه البوار عندما ندت الحاجة عنه أو تنـكبت سبيله فقد بقيت العجله التى أغذت فى سيرها تسير وإن أبطأت فى السير

وبقى هذا الطراز من الحكم الذى يختلف فى كثير من نواحيه عما سار عليه الولاة العثمانيون فى الحكم من قبل وعما كان عليه الحكم فى دار السلطنة العثمانية ذاتها ، يغذى شعور أهل البلاد بذاتيتهم ويبعث فيهم وعيا طفيفا بالقومية سرعان ما تحول إلى وعى كامل عندما أكتمل النبت الذى وضع محمد على بذوره الأولى .

وجاء البعث القومى نتيجة طبيعية للنظام التعليمى الذى أوجده محمد على فى مصر وأقام إبراهيم قواعده فى بلاد الشام ، فقد كان التعليم إلى ماقبل عهد محمد على يقوم على دراسة علوم الدين ويدور فى دائرة ضيقة من متونه القديمة والمهتمين بها والعاكفين عليها حتى جاء محمد على فأخرج التعليم من هذه الدائرة الضيقة وإن لم يتعرض للتعليم الدينى ونظمه التى سار عليها والناس الذين يهتمون به أو يعكفون عليه ووجه جهوده إلى ميدان آخر لايمس هذا المحيط المحافظ أو يتناوله ، فأقام مدارس التعليم الحديث وجند له من أبناء الشعب تلامذته وطلابه يوجه كلامنهم إلى الناحية التى يبرز فيها والتى تتفق ومواهبه وحاجته من المتعلمين والفنيين لبناء الدولة ، وأرسل البعوث إلى أوربا فكان هذا أول إتجاه لعاهل شرقى نحو الغرب والأخذ بحضارته وعلومه وفنونه ، وكان هؤلاء المبعوثون الرعيل الأول الذى حمل لواء النهضة الفكرية والقومية فيما بعد .

واهتم محمد على بالطباعة ونشر الكتب فأنشأ مطبعة بولاق عام ١٨٢٢ وهى نواة المطبعة الأميرية الحالية كما أنشأ جريدة الوقائع ، وقد ساعدت الطباعة على تداول الكتب ونشرها بين أكبر عدد ممكن كما أصبحت الصحافة فيما بعد صدى للرأى العام وعمل الإثنان معا فى بعث الوعى القومى وتقدم الحركة الفكرية فى مصر .

ولم يكن للنظام التعليمى الذى أقامه إبراهيم فى الشام على غرار ما أقامه أبوه فى مصر من الأثر ماكان لضريبه فى مصر فإن قصر الفترة التى استمر فيها الحكم المصرى قائما فى بلاد الشام قد حالت دون ذلك ، ولكن هذا النظام التعليمى فى تلك البلاد كما يقول مؤلف « يقظة العرب » قد أثار أهل البلاد وحرك مخاوفهم « بتجنيده أبناءهم للتدرب على الجندية وحركت هذه المخاوف نشاطهم فأخذوا يفتحون

المدارس لمنافسة مدارس ابراهيم ولكى يتيحوا لأولادهم الفرصة للفرار من الانخراط فى السلك العسكرى الذى كانوا ينظرون إليه بفزع شديد . وقد ولد هذا العامل الفعال اهتماما حقيقيا بالتعليم العام وبقى الاهتمام حيا بعد ذهاب إبراهيم» ولم تزده الأيام بعد ذلك إلا قوة .

وكما كان لنظام التعليم المصرى فى الشام من الأثر فى بعث الاهتمام الأهلى بالتعليم وبقاء هذا الاهتمام قويا حتى بعد زوال الحكم المصرى ، فقد كان للحكم المصرى السمح فى تلك البلاد من الأثر فى نشاط الجمعيات التبشيرية الأوربية والأمريكية ما كان له أعظم النتائج فى بعث القومية العربية فقد عملت هاته الجمعيات فى ميدان التعليم واستعانت بفتح المدارس على أداء رسالتها التبشيرية وكان التنافس بين هاته الجمعيات ذات المذاهب المتعددة كسبا كبيرا لانتشار التعليم الغربى وإن كان مطبوعا بالطابع الدينى بين أهل البلاد وخاصة المسيحيين كما أدى إلى بعث اللغة العربية ونوع من الوعى الفكرى سرعان ما انتقل إلى ميدان السياسة ، فإلى هؤلاء المبشرين يعود الفضل فى إدخال الطباعة العربية إلى بلاد الشام وما كان لها أثر فى نقل الأفكار وتداولها بلغة تتميز عن تلك اللهجات المحلية التى انتشرت فى تلك البلاد نتيجة لانعدام الصلات الفكرية بين أهلها أثناء الحكم العثمانى كما أعطوا المقام الأول فى التعليم للغة العربية وأخذوا يبذلون جهودا جبارة لإيجاد الكتب اللازمة لذلك . وحفزت جهود المبشرين أبناء البلاد من المسلمين إلى الاهتمام بافتتاح المدارس ونشر التعليم وإن بذت جهود المبشرين جهودهم فى هذه الناحية .

وقد عاصر ناصيف اليازجى وبطرس البستانى هذه الفترة من تاريخ البلاد الشامية وكان لجهودهما الأدبية والثقافية أعظم الأثر فى أحياء اللغة العربية وتراثها الباهر فى الأدب والثقافة كما كانت دعوتهما إلى الإحياء ونبذ التعصب الدينى وإحياء مجد العرب ذات أثر بين فى بعث العرب القومى وكانت « الجمعية العلمية السورية » التى تأسست عام ١٨٥٧ من المسلمين والمسيحيين بعض آثار سعيهما وكانت أول جمعية من هذا الطراز تجتمع فيها الطائفتان وتهتم بخدمة العلم فكانت أول ظاهرة للوعى القومى المشترك ، ومنها صدر أول نداء ليقظة العرب فى شكل قصيدة القاها إبراهيم اليازجى

ابن ناصيف اليازجى على أعضاء الجمعية وتناقلها الناس سرا لما تحمل من معانى التمرد والخيانة والخروج على التبعية العثمانية ، وكانت أكثر انتشارا بين طوائف الطلبة ، وبقيت تلهم الوعى القومى الذى أخذ يرسم خطوطه الأولى فى تلك البلاد ويتأثر بظروفها كما يتأثر بامتداد الموجة الغربية إليها .

وهكذا وضع محمد على دون قصد بذور البعث القومى الحديث فى مصر والشام أما شبه الجزيرة العربيـة التى دانت لحكمة أطول مما دانت له بلاد الشام فلم يكن لها من المقومات ما يبعث فيها شعور القومية فقد كانت تعتز بالصحراء ولم يكن شعورها بوطأة الحكم العثمانى ثقيلا كما كان يغلب على معظم جهاتها ذلك الطابع القبلى الذى تميزت به عشائرها وعادت بتقلص الحكم المصرى عنها إلى طبيعتها الأولى واعتز أمراؤها بسلطانهم وكان الحجاز وهو الموطن الذى تمتد إليه سلطة الدولة العثمانية الفعلية ويستأثر باهتمامها أكثر إفادة من ارتباطه بالدولة مما لو انفصل عنها ومع ذلك فقد شاء القدر لأميره الهاشمى أن يقود ثورة العرب القومية فيما بعد وأن تخرج الثورة من وهاده الجرداء وصحاريه الحافلة بسير التاريخ .

الحركات القومية الحديثة :

وقد تطور الوعى وأخذ يشتد ويكشف عن نفسه نتيجة لانتشار التعليم وتقدم الحركة الفكرية والاتصال بالحضارة الغربية وشعور الأهالى بمظالم الحكم الذى يخضعون له فى بلاد العالم العثمانى وفساده وسوء إدارته من ناحية والضغط الأوربى الذى يجتاح بلادهم ويتغلغل فيها ويكسب كثيراً من الامتيازات من ناحية أخرى .

وقد أخذ الضغط الأوربى شكلا بارزا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وجعل يشتد ويقوى ويتحول من ضغط إلى نفوذ فعلى أو احتلال مقيم فاحتل الفرنسيون تونس والانجليز قبرص ومصر وأضحى النفوذ الأوربى يحيط بقلب العالم الاسلامى . والدولة العثمانية تسير من سىء إلى أسوأ فى عهد الاستبداد الحميدى

ويطارد الأحرار فى كل مكان ويلقى بهم فى غيابات السجون فتتحول دعواتهم إلى دعوات سرية سرعان ماتطبع الحركات القومية بطابعها الثورى العنيف .

أما فارس فلم تكن أحسن حالا من الدولة العثمانية فحكم الشاه لا يقل سوءا عن حكم السلطان وأطماع الدول الأوربية فيها لا تقل عن أطماعها فى أملاكه وتعانى من وطأة الامتيازات الأجنبية ماتعانيه الدولة العثمانية، وتغذى هذه المساوىء حركات الأحرار والمصلحين ودعوتهم إلى الأصلاح ومطالبتهم بالدستور ماتغذى حركات الأحرار والمصلحين فى أنحاء الدول العثمانية ، وتأثرت بدعوة الأفغانى وآثاره الفكرية والسياسية ماتأثرت بلاد العالم الاسلامى التى امتدت إليها دعوة هذا المصلح الكبير .

وسارت الحركات القومية فى تلك البلاد متأثرة بهذه العوامل المختلفة ، بامتداد الحضارة والفكر الأوربى إليها ، والضغط الأوربى الذى ينوشها ويقع عليها من ناحية ، وسوء الحكم وفساده واستبداده من ناحية أخرى .

وتميزت هذه الحركات القومية فى بعض البلاد عنها فى بعضها الآخر ، باختلاف قوة هذه العوامل بعضها إلى بعض فإن البلاد التى خضعت للنفوذ الأجنبى قد تأثرت بشدة ضغطه وعنفه أكثر مما تأثرت بالحكم العثمانى ، أما البلاد التى بقيت خاضعة للباب العالى فكان تأثرها بمساوىء حكمه أقوى من تأثرها بأى عامل آخر ، وبين هذين العاملين بقيت آثار الموجة الغربية تتراوح بين القوة والضعف فى بعض البلاد عنها فى البلاد الأخرى وتؤثر فيها بنسبة امتدادها إليها وقوتها فيها ، وكانت مصر وشعوب اللفانت أسبق البلاد تأثراً بامتداد هذه الموجة الغربية التى وصلت إليها مبكرة قبل غيرها ، بينما لم تصل إلى العراق وفارس إلا بعد أن مرت فى مصافى موسكو والآستانة وبومباى فقضت على حيويتها وقللت من قوتها وأثرها ، ولم تكن الجمعيات التبشيرية ذات أثر واضح إلا بين الأقليات المسيحية ، وكان نشاط التجار والرحالة والفنيين الأوربيين أقوى من غيره وأشد تأثيراً فى تلك البلاد وكان هذا هو

المظهر الواضح لامتداد الموجة الغربية إليها وإن كان لا يفوق فى آثاره ماتركته هذه الموجة من آثار فى مصر واللفانت .

ويبدو الاختلاف واضحا بين قوة هـذه العوامل بعضها إلى بعض وتأثر الحركات القومية بها من دراستنا لتطور الحركات القومية فى كل بلد على حدة .

١ — تركيا :

تأثرت الحركة القومية فى تركيا بعاملين قويين أولهما ذلك الركود الذى ألم بالدولة العثمانية وأخذ يتغلغل فى كل أجزائها ويطبعها بطابع الجمود والتأخر ، وثانيهما ماوقع عليها من ضغط خارجى ناءت به وجعل يقتص من أطرافها البعيدة ويتسرب إلى أجزائها القريبة ويقبع فيها ، وقد استطاعت تركيا أن تقاوم هذا الضغط الأوربى عليها قرابة قرنين من الزمان بسبب اختلاف الدول الأوربية على إقتسامها وتمسك دول الغرب بعقيدة المحافظة على سلامتها عداما كانت تكسبه من بعض الانتصارات فى ميادين القتال المختلفة فما زالت العسكرية العثمانية رغم سوء إدارتها وضعف تنظيمها تحتفظ بسماتها الأصيلة التى عرف بها الجندى التركى .

وقامت دعوة الإصلاح فى الدولة وهى تنبع هذين العاملين وتتأثر بهما وكان هدفها إصلاح الادارة العثمانية بما يلائم روح العصر وتطوره وربط أجزاء الدولة فى رباط من الوحدة والمساواة حتى تقوى وتستطيع أن تصمد للضغط الخارجى الواقع عليها ويعظم كيانها الدولى العام فى مجمع الدول الكبرى فاتخذت من المطالبة بالدستور وتحقيق الحكم النيابى مظهرا لدعوتها العامة .

ومن التجاوز أن نجمل تلك الحركة التى قامت فى تركيا فى عداد الحركات القومية فهى أقرب إلى الحركات الدستورية منها إلى الحركات القومية وإن كانت تحمل بعض سماتها العامة من تحقيق الأساس الإدارى والتشريعى ما تقوم عليه الدولة القومية الحديثة كما ينشده دعاة الاصلاح فى تركيا، فما زالت فكرة الامبراطورية تسيطر على أذهان

دعاة الاصلاح فى تركيا وما زالت نزعة القومية الاسلامية العامة عند كثير من شعوبها تطغى على نزعة القوميات المحلية واتجاهها الإقليمى والجنسى .

وقد اهتمت دول الغرب بإصلاح الإدارة العثمانية حتى تقوى فتحد من أطماع روسيا فيها وتستطيع أن تقف أمامها دون معونة باهظة منها وكانت انجلترا أكثر الدول اهتماما بذلك ، وظلت حتى أخريات القرن التاسع عشر تؤمن بحيوية الدولة العثمانية وقدرتها على النهوض والتقدم ، واستجاب الباب العالى لرغبة هذه الدول فأصدر عدة مراسيم فى أوقات متفاوتة لإصلاح الإدارة فى الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة كان أولها وأبرزها ما عرف بالخط الشريف أو كولخانة عام ١٨٣٩ والخط الهمايونى الذى صدر عام ١٨٥٦ بعد حرب القرم واعترف بالمساواة التامة بين جميع طوائف الدولة العثمانية ، ولكن هذه المراسيم لم تجد شيئاً فى سبيل إنهاض الدولة أو بعث روح القوة فيها وبقيت الرجعية تغلب على ماعداها من سنن الإصلاح والتقدم وتطبع الدولة بطابع الركود والخمول وتشيع أسباب الفرقة والانقسام بين طوائفها وشعوبها وولاياتها المختلفة فالسلاطين لا يحبون أن يحد إرادتهم قانون أو دستور ورجال الدين يرون فى التشريعات المدنية نوعا من المروق الدينى وبعض الدول الأجنبية تخشى أن تنهض الدولة فتحول دون تحقيق أهدافهم .

وقامت أول حركة جدية للمطالبة بالإصلاح والدستور فى تلك الفترة التى شهدت مساوىء السلطان عبد العزيز وإسرافه كما شهدت عنف الضغط الأوربى على الدولة وكان «مدحت» رائد هذه الحركة الدستورية التى انتهت بخلع السلطان عبد العزيز فى مارس عام ١٨٧٦ وتولية ابن أخيه السلطان مراد الخامس ولكنه لم يمكث على العرش سوى بضعة شهور حتى خلع لمرضه واعتلى العرش أخوه الأصغر السلطان عبد الحميد الثانى فى أغسطس من نفس العام .

وبدأ السلطان عبد الحميد حكمه بإعلان الدستور وقد برهن بذلك على مايتصف به من دهاء ومكر ، فما كان يؤمن بالدستور ولكنه رأى فى هذا الانتصار الذى أحرزه مدحت ورجاله ما يحمله على التسليم بالأمر الواقع ولو إلى حين حتى تواتيه الفرصة للقضاء عليه وعلى رجاله ، كما رأى من إلحاح الدول الأوربية عليه بضرورة

قيامه بالإصلاحات الضرورية فى بلاده ما يدفعه إلى سرعة إعلان الدستور حتى يسبق بإعلانه مقترحات الدول الأوربية بإصلاح الإدارة العثمانية ، وأعلن الدستور فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، فى ذلك اليوم الذى كانت فيه الدول الكبرى تجتمع فى مؤتمر لبحث المقترحات التى تراها لإصلاح الإدارة والحكم فى الإمبراطورية العثمانية ، ورأى الأتراك كما رأت الدول الأوربية فى عمله هذا اتجاها صادقا للاصلاح وبرهاناً عملياً على نواياه الطيبة للنهوض والتقدم .

ولم يعش الدستور طويلا فما أن استتب الأمر للسلطان عبد الحميد حتى أخذ يقلم أظفاره وما لبث أن عطله عام ١٨٧٨ بحجة اشتباك تركيا فى حرب مع روسيا بعد أن عزل مدحت ونفاه إلى أوربا ، وظل الدستور معطلا إحدى وثلاثين سنة ، استطاع فى أثنائها أن يقضى على مدحت ورجاله وكان قد أذن له بالعودة إلى بلاده ، فلفق لهم تهمة الاشتراك فى اغتيال السلطان عبد العزيز وأشاع أنه لم ينتحر وإنما مات مقتولا بإيعاز من مدحت ورجاله ، وقضى عليهم الحكم الذى صدر بإدانتهم بالإعدام ثم استبدل بالنفى بعد توسط الدول لدى عبد الحميد ، ونفوا إلى الطائف بالحجاز حيث قاسوا فى سجنهم شر ما يقاسيه مسجون من تعذيب واضطهاد ثم أوعز بخنق مدحت فخنق ، وتنفس عبد الحميد الصعداء ، وران على البلاد كابوس استبداده المقيت .

ولكن الحركة الدستورية لم تمت بالقضاء على مدحت ، فقد اعتنق مبادئه رجال من أنصاره تفرقوا فى أنحاء أوربا فراراً من الاضطهاد الحميدى ، ثم أخذوا يقتربون بعضهم من بعض حتى تلاقوا فى جنيف عام ١٨٩١ ووضعوا النواة الأولى لجمعية الاتحاد والترقى التى حملت لواء الثورة فيما بعد ضد السلطان عبد الحميد ، ولم تكن جمعية الاتحاد والترقى إلا من صنع رجال تركيا الفتاة ، وهى الجمعية التى أنشأها فؤاد باشا ، وعالى باشا ، ومدحت باشا ، عام ١٨٦٢ فى عهد السلطان عبد العزيز وضمت كثيراً من أحرار تركيا ومفكريها وهى التى نظمت انقلاب ٢٦ مايو سنة ١٨٧٦ الذى انتهى بخلع السلطان عبد العزيز وإعلان الدستور فى أوائل حكم عبد الحميد ،

ثم تفرق رجالها فى أنحاء أوربا فراراً من بطشه بعد ما ألغى الدستور ، وامتدت يده للتنكيل بهم .

وأخذت جمعية الاتحاد والترقى تبث دعوتها وتنشرها بين الأحرار والمفكرين فى بلاد العالم العثمانى ، فانضم إليها كثير من العرب والأرمن واليهود والألبانيين ، وجعلت من جنيف مقراً لها فى بادئ الأمر ثم نقلت مركز الدعوة إلى باريس ولندن واتخذت سالونيك مركزاً رئيسياً لبث الدعوة داخل بلاد السلطنة لبعدها عن رقابة الآستانة وجواسيس عبد الحميد ، واعتنق كثير من الضباط ولاسيما فى مقدونيا دعوة الجمعية ، وراحوا يؤلبون الحاميات العثمانية على عبد الحميد وحكمه ، حتى إذا كان عام ١٩٠٧ اجتمع رجال جمعية الإتحاد والترقى فى باريس على هيئة مؤتمر وقرروا خلع عبد الحميد وإقامة حكومة دستورية تساوى بين شعوب الدولة العثمانية وتضمن العدالة لأفرادها على السواء مهما اختلفت أديانهم أو جنسياتهم وتحتفظ بوحدة الدولة وسلامتها على أساس ديموقراطى سليم .

وفى العام التالى أعلن الضابط نيازى الثورة فى مقدونيا ، وكان من أقطاب حركة الاتحاديين ، وانضمت إليه القوات التى سيرتها الدولة لمحاربته ، ولم يجد عبد الحميد بداً من إعلان الدستور فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٨ بعد أن ظل معطلا قرابة إحدى وثلاثين عاماً ، وما لبث رجال العهد الجديد أن بطشوا بأعداء الثورة ، وخاصة رجال الدين الذين ثاروا ضد التشريعات الجديدة ، ثم ثنوا بخلع عبد الحميد فى ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ ونادوا بمحمد الخامس سلطاناً على الدولة العثمانية وخليفة للمسلمين واستتب لهم الحكم والسلطان فى الآستانة .

واستقبل الناس فى العالم العثمانى عودة الدستور بفرح شديد وعمت مظاهر الابتهاج كل بلاد الدولة الإسلامية ورأى فيها المسلمون والنصارى أن تباشير عهد جديد من الحرية والمساواة على وشك البزوغ يتآخى فى كنفه العرب مع الترك وتزول الفوارق فى ظلاله بين الملل والنحل والمذاهب المختلفة فى الدولة ، ولكن هزة الفرح ما لبثت أن قضت عليها حقيقة الواقع فالخلاف بين أهداف الترك وآمال العرب

القومية كان بعيداً فإن الدستور الجديد قد سار على غرار دستور مدحت القديم فى إدماج العناصر والأجناس المختلفة فى الدولة فى قومية واحدة يسودها الجنس التركى ولم يراع تطور الوعى القومى ونموه بين هذه العناصر والأجناس المختلفة كما لم يراع رجال الثورة ممن انتهى إليهم حكم الدولة العثمانية هذا التطور الجديد وغلبت عليهم نزعة التعصب للجنس التركى وبرزت هذه النزعة واضحه فى الطريقة التى ساسوا بها انتخابات البرلمان الجديد فقد عملوا على ترجيح الأغلبية للعناصر التركية سواء فى المجلس المنتخب أو المجلس المعين كما عملوا على تقوية الحكم المركزى ودعمه .

ولم يكتف رجال جمعية الإتحاد والترقى بذلك بل عمدوا إلى إلغاء الجمعيات التى أسستها عناصر من غير الترك ، وكان من بينها جمعية الإخاء العربى العثمانى التى باركوا مولدها من قبل .

ورغم ما نص عليه الدستور من العدالة والمساواة بين طوائف الدولة وأجناسها المختلفة وهى الفكرة التى سعى إليها مدحت من قبل حتى يؤلف هاته الطوائف والأجناس على عاطفة الولاء للدولة ، إلا أن التطبيق العملى للنصوص جاء مخالفاً لروحها ، وطغت روح العنصرية على حكام تركيا الجدد فعملوا لمصلحة العنصر التركى أكثر مما عملوا لمصلحة إخوانهم العثمانيين ، وحكموا الإمبراطورية بروح عنصرية باعدت بينهم وبين العناصر الأخرى ، ولا سيما العرب الذين لم يتطلعوا إلى الإنفصال عن الدولة كما تطلعت إليه ولاياتها الأوربية ولم ينشدوا غير تحقيق نوع من الحكم الذاتى فى ولاياتهم لا يتحقق إلا إذا قام الحكم فى الدولة على أساس لا مركزى .

ومن الواضح أن رجال جمعية الإتحاد والترقى لم يتأثروا بفكرة الجامعة الطورانية التى أخذت تظهر وتشتد فى ذلك الوقت والتى كانت ترمى إلى جمع الشعوب التى تنحدر من الأصل الطورانى الذى ينحدر منه الأتراك فى وحدة سياسية ، فقد كانت أكثرية هذه الشعوب فى أواسط آسيا تحت الحكم الروسى ولم يكن من الممكن تنفيذ هذه الفكرة من الناحية العملية ، إلا أنهم كانوا يعملون بروح طورانية تختلف إلى حد بعيد عن روح الوحدة العثمانية ، فإن الأولى تقوم على تمجيد العنصر التركى بينما

الثانية تهدف إلى إدماج العناصر العثمانية فى نطاق من الوحدة والمساواة بين الجميع .

ولم يكن هذا الاتجاه الطورانى بين الأتراك إلا اتجاهاً يكشف فى كثير من نواحيه عن وعى قومى قد غمرته دعوة عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية وطابع الدولة الإمبراطورية التي يصر الأتراك على الاحتفاظ بوحدة عناصرها وأجناسها ، ولم ينم عنه إلا الاتجاه نحو الوحدة الطورانية التى ما كانت تنبع فى الحقيقة إلا من وعى قومى لم تبن معالمه فبدا قلقاً حائراً بين فكرة الإمبراطورية وفكرة الدولة الحديثة وظهرت آثاره فى اتجاه جمعية الاتحاد والترقى إلى دعم سيادة العنصر التركى والمحافظة فى الوقت نفسه على وحدة الدولة وسلامتها وتقوية الحكم المركزى فيها .

وظل هذا الوعى القومى حائراً بين هذه الاتجاهات المتباينة حتى سلك نهجه البين بقيام تركيا الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى على أساس قومى واضح بفضل السياسة التى اختطها كمال أتاتورك ، وسارت عليها تركيا الحاضرة .

٢ — البلاد العربية :

نقصد بالبلاد العربية تلك البلاد التى تنطق باللسان العربى ، وتمتد من حدود فارس الغربية إلى سواحل الإطلنطى فى شمال إفريقيا وقد ظلت سيطرة الدولة العثمانية على هذا النطاق العربى من أملاكها فى إفريقيا الغربية طالما كانت تحتفظ بقوتها وهيبتها وسيادتها البحرية فى البحر الأبيض المتوسط تلك السيادة التى حمل لواءها أمراء البحر العظام أمثال بربروس وطورغود ، ثم أخذت سيطرتها على تلك الأجزاء البعيدة تضعف وتتهاوى ، وعلاقاتها بها تقل ولم يعد يربطها بها غير التبعية الإسمية حتى أنها لم تحس بفقد الجزائر عندما نزلت إليها القوات الفرنسية عام ١٨٣٠ ، واقتطعتها لفرنسا ثم احتلت تونس عام ١٨٨١ وتسربت إلى مراكش والقرن التاسع عشر على وشك أفوله ، إلى أن أطلقت يدها فيها بعد الاتفاق الودى الذى أبرمته مع انجلترا عام ١٩٠٤ ، ثم أعلنت حمايتها عليها عام ١٩١٢ ، وكانت انجلترا قد احتلت مصر عام ١٨٨٢ فى العام التالى لاحتلال فرنسا تونس .

وفى الوقت الذى لم تلق فيه تركيا بالا إلى هذه البلاد نراها تهتم بطرابلس فترسل إليها حملة عام ١٨٣٥ تقضى على سلطان أسرة القرمنلى التى كانت تحكمها وتنفرد فيها بالأمر والسلطان ، وتعود طرابلس إلى التبعية المباشرة للسلطة العثمانية تحكمها رأساً وتعين لها الولاة الذين يحكمونها حتى انقضت عليها إيطاليا عام ١٩١١ وتنازلت لها تركيا عن سيادتها عليها فى معاهدة أوشى لوزان عام ١٩١٢ .

وظلت هذه البلاد التى يطلق عليها المسلمون اسم المغرب الإسلامى بعيدة عن الاتصال بالبلاد العربية فى الشرق الإسلامى لا تحس بما يدور فيه من أحداث وما يعتمل فى قلبه من اتجاهات ، واحتفظت هذه البلاد بطابعها البدوى وباعتصامها بمنعة الصحراء وتقاليدها وعزلتها ، وبدت أقل تأثرا من البلاد العربية فى الشرق بتيارات الحضارة الأوربية وتأثيرها الفكرى والاجتماعى رغم ما بذلته فرنسا من جهود فى هضم شعوبها وصبغها بالصبغة الفرنسية الخالصة .

ولكن سلطان الدوله العثمانية بقى قوياً سائدا فى البلاد العربية فى آسيا وهى الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية وظل محتفظاً بقوته فيها حتى انهارت الإمبراطورية العثمانية وقضى عليها فى ختام الحرب العالمية الأولى .

ولم يضعف سلطان الدولة عليها إلا فى تلك الفترة التى استطاع فيها محمد على أن يبسط سلطانه عليها ، ويمد حكمه فيشمل أغلب بلادها ، ولم يبق بعيداً عن سلطانه وحكمه غير العراق ، كما تعرض سلطان الدولة للانهيار فى شبه جزيرة العرب عندما قام الوهابيون يبسطون سلطانهم وسيادتهم عليها حتى قضى على قوتهم عاهل مصر محمد على .

وكانت مصر أقوى اتصالا بهذه البلاد العربية منها بالبلاد العربية فى شمال أفريقيا رغم ما قد يبدو لأول وهلة من أنها بحكم كونها دولة أفريقية يجب أن تكون أقوى اتصالا بالبلاد العربية فى أفريقيا منها بالبلاد العربية فى آسيا ، ولكن مصر فى الحقيقة أقرب إلى البلاد العربية فى آسيا منها إلى البلاد العربية فى أفريقيا وكانت صلاتها التاريخية حتى قبل امتداد موجة الفتح الإسلامى والهجرات العربية إلى تلك البلاد

تقوم دائما مع بلاد غرب آسيا ، ولم يحدث أن كانت مصر على اتصال ببلاد أفريقيا الشمالية الغربية إلا عندما أصبحت قاعدة للزحف الإسلامى على أفريقيا وعندما قام الفاطميون من بلاد المغرب بغزوها ، وحتى بعد غزو الفاطميين لها واستقرارهم فيها أخذ اهتمامهم يقل ببلاد المغرب الإفريقى بينما هو يزداد ويقوى ببلاد آسيا الغربية .

وظل التبادل الفكرى والثقافى والاجتماعى قويا متصلا بين مصر والبلاد العربية فى آسيا طوال عهود التاريخ الإسلامى كما كان من قبل طوال عصور التاريخ القديم حتى أتيح لهذه البلاد فى العصر الحديث أن تخضع جميعاً إذا استثنينا العراق ولفترة قصيرة للحكم المصرى فى عهد محمد على وكان التأثير المصرى واتصال مصر بتلك البلاد أقوى ما يكون ببلاد الشام والحجاز منه بالعراق والأجزاء الشرقية والجنوبية البعيدة فى شبه جزيرة العرب ، وكانت مصر وبلاد الشام أول ما استقبل من تلك البلاد امتداد الموجة الغربية وتأثر بها وأول ما تعرض منها للضغط الأوربى ، وسارت بوادر الوعى القومى فيها متسقة متجاوبة تخضع لمؤثرات واحدة وزاد من اتساقها وتجاوبها أنها جاءت نتيجة عوامل مشتركة هى فى حقيقتها من صنع محمد على ونظامه التعليمى والإدارى فى تلك البلاد كما هى من صنع الثقافة الغربية التى بدأت تنتشر ولاسيما بين المسيحيين على يد المبشرين والإرساليات الدينية التى نشطت فى بلاد الشام أثناء الحكم المصرى واستمرت فى نشاطها بعد زواله أما مصر فقد استقبلت ثقافتها الغربية لا عن طريق الإرساليات والمبشرين كما كان الحال فى الشام وإنما عن طريق المعلمين والفنيين الأوربيين الذين استقدمهم محمد على للاستعانة بهم فى مدارسه ومصانعه فى بادىء الأمر ثم عن طريق مبعوثيه إلى أوربا الذين عادوا إلى بلادهم بأفكار وثقافات وعلوم وأنظمة جديدة جعلت تتبلور فى أذهانهم لترسم خطوطها فى الحياة المصرية عندما وجدت التربة صالحة فى عهد إسماعيل .

ولئن قامت الإرساليات الدينية والمبشرون بنشر الثقافة الغربية فى بلاد الشام واستهدفت جهودهم فى بعض الأحيان العمل على إحياء اللغة العربية وتراثها الأدبى

الضخم فأدخلوا الطباعة العربية إلى البلاد واستعانوا بعلمين من أعلام النهضة العربية هما ناصيف اليازجى وبطرس البستانى فى وضع المناهج الدراسية التى تعينهم على إداء رسالتهم باللغة العربية وقاموا بطبعها فى مطبعتهم ونشروها فى طول البلاد وعرضها وكان فى إقبال الناس عليها ما أثبت حاجتهم إلى هذا النوع من التعليم فأنشأوا دارا للمعلمين فى قرية عبيه اللبنانية لإعداد المعلمين المدربين اللازمين لهذا النوع من التعليم وكانت درة أعمالهم كما يقول جورج أنطونيوس تأسيس الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت عام ١٨٦٦ ، والتى قدر لها أن تلعب دوراً رئيسياً فى حياة البلاد العلمية والثقافية المستقبلة وما زال أثرها ينمو ويتسع بعد أن تحولت إلى جامعة بالمعنى الصحيح هى التى تعرف اليوم بجامعة بيروت الأمريكية .

ويعود الفضل فى تلك الجهود إلى المبشرين الأمريكيين من البروتستانت أما المبشرون الفرنسيون من الكاثوليك فكانت مواردهم المالية أقل من منافسيهم الأمريكيين ، إلا أنهم لم يكونوا أقل أثرا فى الحقل التعليمى منهم وإن كانوا لا يدانونهم فى جهودهم الأدبية التى استهدفت إحياء اللغة العربية وآدابها القديمة ، فقاموا بتأسيس مطبعة لهم احتلت مكان الصدارة بما أصدرته من النصوص القديمة وغيرها من الكتب العلمية وما اتصفت به من عناية بمطبوعاتها كما قاموا بنقل مدرسة غزير إلى بيروت عام ١٨٧٥ وحولوها إلى كلية عرفت باسم كلية القديس يوسف وكان لها كما كان لشقيقتها الأمريكية أثر فعال فى تكوين النشء الجديد .

ولكن هذا النشاط الذى قام به المبشرون على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم لم يكن موضع الرضاء من المسلمين وظلوا بنجوة عن هذا النشاط حتى تكونت الجمعية العلمية السورية واشترط المسلمون للاشتراك فيها أن لا يكون للمبشرين أى علاقة بها ، وكانت دعوة اليازجى إلى العرب بالإتحاد لخدمة لغتهم كما كانت دعوة البستانى إليهم بهدم جميع الحواجز التى تفصل بين طوائفهم أول ما أنار سبيلهم فى بلاد الشام إلى التآلف والتآخى وزوال حدة التعصب وعنفه بين الطوائف على اختلاف ألوانها مسيحية كانت أو إسلامية .

وبينما كانت هذه الجهود العلمية سائرة فى طريقها الطبيعى كان الخلاف الطائفى مازال على عنفه يثير الإحن والاضطرابات وعلى الأخص فى لبنان التى كانت تعانى عنف هذه الخلافات الطائفية ووقعت بها حوادث عامى ١٨٤١ و ١٨٤٥ ووجدت الدول الأوربية فيها وسيلة للتدخل فانحاز الفرنسيون إلى الموارنة وهم أكثرية السكان النصارى فى لبنان وانحاز الإنجليز إلى الدروز حفظا للتوازن فى تلك المنطقة حتى لا يطغى عليها النفوذ الفرنسى الذى يقف وراء الموارنة يحميهم ليكونوا أداة لتغلغهم وتسربهم إلى البلاد . ثم وقعت اضطرابات عام ١٨٦٠ واتسمت بالعنف والشمول فامتدت إلى بلاد كثيرة فى أنحاء سوريا ولبنان حتى حملت الدول الكبرى على التدخل وسيرت أساطيلها إلى شواطىء الشام وأنزل الفرنسيون قوة عسكرية احتلت بيروت .

وقد كشفت حوادث عام ١٨٦٠ عن اتجاهات جديدة للدول الأوربية ولا سيما فرنسا تكمن وراء إرسالياتها الدينية والتعليمية فى تلك البلاد وما تهدف إليه من دعم نفوذها السياسى فيها ، كما فتحت أعين العرب على الهوة التى يترددون فيها بخلافاتهم الطائفية فأخذوا يبذلون جهودهم مجتمعة لتحطيم هذه الحواجز التى تفرق بينهم واتجه فريق من صفوة مفكريهم إلى العمل على تحرير وطنهم من الحكم التركى .

ثم ظهرت أوضار التعليم الغربى ومراميه البعيدة عندما اتجهت الدول إلى تسخير مرسليها وجمعياتها لتحقيق أطماع سياسية وأخذت وفود جديدة من الإرساليات والمبشرين تنثال على البلاد من روسيا وألمانيا وإيطاليا وكل منها يهدف إلى تحقيق أغراض خاصة ، فالفرنسيون يصبغون مدارسهم بالصبغة الفرنسية الخالصة بغية توجيه الأفكار والأذهان إلى الولاء الفكرى والسياسى لفرنسا ويتحالفون مع الموارنة والنصارى الملكانيين لهذا الغرض ، ويهدف الروس إلى نفس الغاية ويتصلون بالأرثوذكس ويضفون حمايتهم على بطريركى بيت المقدس وانطاكية ووقف الإنجليز وراء الدروز يؤيدونهم للمحافظة على توازن القوى بين الموارنة والكاثوليك من ناحية والأرثوذكس من ناحيه أخرى ، ووقفت الإرساليات الأمريكية وإن لم تسع إلى تحقيق أهداف سياسية إلا أنها كانت سبباً فى اتساع هوة الخلافات الطائفية فقد

كانت تعمل فى ميدان يختلف تماما عن الميدانين التى تعمل فيهما فرنسا وروسيا ، وقد ساهمت المدارس الألمانيه والإيطالية فى تنمية هذا التباين وإن ظلت جهودها ضئيلة بالنسبة إلى غيرها .

واتضحت أوضار هـذا التعليم الغربى فى ميدان آخر لا علاقه له بذلك الميدان الطائفى ، فقد أخذ يهمل اللغة العربية وهو الذى عمل على إحيائها فى بداية الأمر وذلك نتيجة لعاملين ، أولهما أن الجمعيات التى كانت تهدف إلى تحقيق غرض سياسى أعطت المقام الأول للغتها الأصلية ، وثانيهما أن حركة الترجمة لم تستطع أن تساير انتشار التعليم وبقيت حاجته ماسة إلى الكتب العلمية ولا يستطيع أن يرودها إلا فى مصادرها الأصلية ، واضطر الأمريكيون وهم الذين ظلوا إلى هذا العهد يقودون حركة إحياء اللغة العربية ، إلى إلقاء دروسهم باللغة الإنجليزية فى كلية بيروت حوالى عام ١٨٨٠ تفاديا لهذه الصعوبة ، وتم كل ذلك على حساب اللغة العربية وأدى فى النهاية إلى انتقال قيادة الحركة القومية من المسيحيين إلى المسلمين فأن أكثرية طلاب المدارس الأجنبية كانت من المسيحيين بينما ظل المسلمون يفضلون إرسال أبنائهم إلى المدارس الإسلامية الأهلية والحكومية فاحتفظوا بطابعهم العربى الإسلامى وتحولت إليهم قيادة حركة العرب القومية بعد أن عجز الجيل الجديد من المسيحيين الذى نشأ فى أحضان المدارس الأجنبية التى أهملت اللغة العربية وآدابها فى اتجاهها الجديد عن الاحتفاظ بها وظهرت زعامة حركة القومية العربية بعد زوال العهد الحميدى وهى زعامة إسلامية تماما .

وفى ذلك الوقت الذى شهد أنصهار عوامل البعث القومى وتفاعلها فى داخل الوطن اصطدمت هذه العوامل باتجاهات جديدة أمكنها أن تساير بعضها ولم تستطع أن تساير البعض الآخر وكانت محكا لقوتها ثم أورت نارها فى النهاية أوأبرزتها فى ذلك المظهر العنيف الذى انتهت اليه الثورة العربية أخيراً ، ومازالت نيرانها تتأجج فى الوقت الحاضر حيث لم تحقق الثورة العربية هدفها الأصيل .

ففى تلك الفترة قام رجال تركيا الفتاة بانقلابهم الأول الذى أدى إلى خلع السلطان

عبدالعزيز وتولية السلطان مراد الخامس الذى لم يلبث على العرش طويلا حتى اعتزل لمرضه وارتقى عرش عثمان داهية لم يشهد تاريخ بنى عثمان له ضريباً ولم يمر فى تاريخ الدولة العثمانية عهد يتسم بالمكر والخداع وسوء الطوية والاستبداد ما اتسم ذلك العهد ، وكان السلطان عبد الحميد الثانى هو ذلك الداهية ، استهل عهده بإعلان الدستور ثم انقلب عليه وغدر بأصحابه ومد رواق ظلمه واستبداده على الناس والبلاد وتتبع الأحرار والمفكرين فى كل مكان يأخذهم غيلة إن لم يأخذهم غصبا ويعد لهم من رضائه وجاهه فإن لم يستنيموا لرضائه أو جاهه سلط عليهم بطشه وصب عليهم جام غضبه فكان عهده كبتا للشعور القومى الوليد فى البلاد التى مد سلطانه عليها فسار وئيداً وإن لم يخب أواره وجعل يتلمس الوسائل السرية يعلن بها عن يقظته واستمراره فتكونت فى بيروت جمعية سرية وأخذت تغمر البلاد بمنشوراتها الثورية فى الحملة عليه وعلى مفاسد عهده وتهاجم الحكم التركى وطغيانه على حقوق العرب ومحاولاته القضاء على اللغة العربية ثم تصدر فى إحدى نشراتها أول برنامج سياسى عربى مدون ينفذ بحد السيف إذا أعوزته القوة لتنفيذه ويستهدف الأغراض الآتية كما ذكرها مؤلف كتاب يقظة العرب :

١ — منح الاستقلال لسوريا متحدة مع لبنان .

٢ — الاعتراف بالعربية كلغة رسمية .

٣ — الغاء الرقابة والقيود الأخرى التى تحول دون حرية الرأى وانتشار العلم .

٤ — منع استخدام القوات العسكرية المجندة من أهل البلاد إلا داخل حدود بلادهم .

حتى إذا اشتدت وطأة الاستبداد الحميدى رأى أعضاء جمعية بيروت السرية أن دواعى السلامة تقضى عليهم بإيقاف نشاطها وتفرقوا فى البلاد حتى لا ينالهم كيد عبد الحميد وكانت مصر مهجرهم الأول .

ولم تكن جمعية بيروت السرية ذات أثر بارز فى تطور الوعى القومى أو توجيهه

ولكنها كانت تعبيرا بصورة ما عما يجيش فى صدور العرب من أمان وأمال حول مستقبل بلادهم وقد ظلت هذه الآمال مبهمة غير واضحة فى أذهان العرب حتى كشفت منشورات جمعية بيروت السرية عن أول برنامج سياسى مدون يمكن أن تتجمع فيه آمال العرب القومية ، فإذا قلنا أن قصيدة ابراهيم اليازجى كانت أنغم صدى لوعى العرب القومى فإن برنامج جمعية بيروت السرية كان أبرع تعبير عما تهدف إليه حركة العرب القوميـة ودل على فهم عميق لحاجات الوطن وأهداف الحركة القومية .

وأصيبت الحركة القومية بنوع من الركود بعد أن أوقف أعضاء جمعية بيروت السرية نشاطهم وتفرقوا فى البلاد فإن العوامل التى قضت على نشاط الجمعيه أوكانت سبباً فى القضاء على نشاطها هى نفسها العوامل التى أصابت الحركة القومية بذلك الركود الذى استمر طوال عهد عبد الحميد وإن كان تعصب رجال تركيا الفتاة لا يقل فى آثاره عما تركه استبداد عبد الحميد من آثار ظهرت واضحة فى تلك الوسائل السرية التى لجأ اليها أقطاب الحركة العربية فى العهدين على السواء . ولكنها فى عهد عبد الحميد قد تأثرت بعوامل أخرى غير استبداده حالت دون نشاطها وكانت سبباً من أسباب ركودها وكانت هـذه العوامل جزءا من سياسة عبد الحميد نفسه كما كانت تعبيراً صادقا عن طبيعته ومزاجه فى الحكم والإدارة لم يتأثر بها رجال تركيا الفتاة ولم يولوها اهتمامهم بل ساروا على نقيضها فى غير روية أو حذر فقد كان ينقصهم دهاء عبد الحميد ومكره .

وقد رأى عبد الحميد عندما اعتلى عرش الدولة العثمانية مايقع على الدولة من ضغط أوربى أخذ يطبع المسألة الشرقية فى دورها الأخير بذلك الطابع العنيف الذى عرفت به وأدرك عجز الدولة عن مقاومة هذا الضغط الأوربى وخروج ولاياتها الأوربية عن سيادتها واحدة بعد الأخرى فاتجه بسياسته وجهة شرقية إسلامية علّه يجد من التفاف العالم الإسلامى حول زعامته الدينية مايرهب الطامعين فى ملكه واحتضن فكرة الجامعة الإسلامية يسخرها لخدمة هذا الهدف البعيد ، وظهر بمظهر الخليفة الورع الذى يحرص على فرائضه الدينية ، ولم يكن هذا المظهر ليكسبه ولاء

العرب فى مملكته فحسب بل يحمل المسلمين أيضا فى بقاع العالم الإسلامى ممن لا يخضعون لسلطانه على إجلاله والولاء لزعامته الدينية ، وفى سبيل هذه الغاية أحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين ، وبعث بعدد وافر منهم ليذيعوا على العالم الإسلامى أحاديث تقاه وورعه وغمر المعاهد الدينية بالهبات والعطايا وحمل شريف مكة على الإشادة به والدعوة إلى الجامعة الإسلامية بين الحجيج .

وقد شغلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية أذهان المسلمين فى تلك الفترة التى امتد فيها حكم عبد الحميد وكان جمال الدين الأفغانى رائد الدعوة وفارسها وكان يصدر فيها عن إيمان عميق بجليل خطرها وأثرها فى العالم الإسلامى واستطاع أن يهز بدعوته أعطاف المسلمين فى كل البلاد التى وصلت إليها دعوته وعمل عبدالحميد على تسخير هذه الدعوة لأغراضه السياسية فاحتضن فكرة الجامعة الإسلامية وأخذ يحورها لتتلاءم مع أغراضه وأهدافه وتحمس لها كثير من المسلمين . وكانت فى الحقيقة إذا جردناها من تأثير عبد الحميد الشرارة التى ظلت تورى لهيب اليقظة الإسلامية ونصهر عوامل البعث القومى ليسفر عن قوته وعرامته فيما بعد

فإذا كانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية كما أرادها عبد الحميد ترمى فى النهاية إلى دعم سلطته الزمنية والدينية وتحول دون نمو الوعى القومى ، فإن أسلوب الأفغانى فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية وأفكاره التى بشر بها قد ظلت تغذى لهيب الأفكار الحرة وتعمل على ابقاء شعلة الوعى القومى متقدة فى الوقت الذى تعرضت فيه لعنف عبد الحميد واستبداده وإصراره على إطفاء جذوتها .

وجاء الكواكبى ليصدر عما أثاره الأفغانى من أفكار وانفعالات فى البلاد العربية فهو لا ينكر الوحدة الاسلامية العامة التى بشر بها الأفغانى ولكنه يفرق مابين العرب والعناصر الإسلامية الأخرى ، وكان عبد الرحمن الكواكبى وهو سورى النشأة إسلامى الثقافة أول من تبلورت فى ذهنه أفكار الأفغانى وأراؤه فصدر عنها فى اتجاه عربى خالص يعتز بالعنصر العربى وبوحدة الإسلام الكبرى ، وأول من رفع رأسه بين العرب غير آبه لاستبداد عبدالحميد ليعلن أفكاره وأراءه الجريئة وليعلم الناس أن الوعى القومى الوليد لم يقض عليه استبداد عبد الحميد أوسياسته الماكرة .

وكان الاتجاه الثانى لسياسة عبد الحميد يتناول البلاد العربية وهى آخر مابقى تحت سيادته وسلطانه من ملكه الواسع فأراد أن يقوى من نفوذه فيها وقد رأى تفتح الوعى القومى فى تلك البلاد وخطره على سيادته فأخذ يبذل من وده للعرب ويغمر مؤسساتهم العلمية والدينية بالهبات والعطايا ويغدق على أمرائهم وأعيانهم المناصب والألقاب ويجود بالأموال الطائلة لإصلاح المساجد فى مكة والمدينة وبيت المقدس وضم بعض رجالهم إلى حاشيته فى القصر وإستعان بهم على تتبع الإتجاهات الوطنية والقضاء عليها ، كما شكل من الجند العرب فرقة مختارة ضمها إلى حرسه الخاص ، ولم يتوان عن إشاعة الفرقة والإنقسام بينهم ليجد له منفذا لتقوية سلطانه ونفوذه عليهم كما لم يتورع عن الإغتيال إذا خانته تلك الوسائل فى جذب من يهمه منهم إلى صفه وإبتدع وسيلة مثلى للتخلص ممن لا يستطيع التخلص منهم غيلة أو أو ممن لا يستهويهم ما يبذل من مال وجاه ، هى أن يدعوهم إلى الأقامة بالآستانة ثم يحول دون خروجهم منها ليكونوا تحت رقابته ورقابه جواسيسه ومن هؤلاء كان داعية الإسلام الأكبر جمال الدين الأفغانى والحسين بن على سليل البيت الهاشمى أعرق بيت فى العرب وكان منه شرفاء مكة لأجيال خلت .

وعمل من ناحية ثانية على ربط أجزاء بلاده العربية بعضها ببعض بوسائل المواصلات السريعة حتى يعظم إشرافه عليها وتسهل سيطرته على جهاتها البعيدة فوضع مشروع خط حديد الحجاز وقام لتنفيذه بدعوة العالم الإسلامى إلى المساهمة فى نفقاته كما شجع مد خط حديد بغداد . ولكن هاته الخطوط الحديدية التى تبنى مشروعاتها عبد الحميد ليزيد من سيطرته وسلطانه على البلاد العربية كانت ذات أثر لعله لم يخطر على بال عبد الحميد فى تنمية الوعى القومى وإنتشاره فقد يسرت سرعة المواصلات سريان الأفكار وإنتقالها إلى البلاد العربية البعيدة عن مركز الحركة ما كان له أعظم النتائج فى تطور الحركة القومية ووحدة أهدافها فى البلاد العربية عندما أخذت تكشف عن نفسها فى ثورة علنية أخذت تزحف من الحجاز فى الجنوب فيستقبلها روادها الأوائل فى بلاد الشام فى الشمال .

وكان أكثر اهتمام عبد الحميد موجها إلى بلاد الشام فهى أكثر بلاده تقدما وأشدها اتصالا بالثقافة الغربية وأحفلها بدواعى الوعى القومى وهى مفتاح امبراطوريته

إلى الشرق يعبر فوقها إلى العراق وشبه جزيرة العرب حيث منازل النبوة فى مكة والمدينة وكان نصيبها من سياسته الماكرة وإتجاهاته المرسومة ووقر استبداده أكثر من نصيب أى بلد آخر .

وقد أثرت هذه العوامل مجتمعة فى قوة الحركة القومية وشلت نشاطها طوال حكم عبد الحميد حتى إذا بدأ الناس يدركون مرامى سياسته البعيدة ودواعيها الماكرة وأساليبها البارعة ويجأرون بالشكوى من مظالمه واستبداده كان الكواكبى قدأخذ يبشر بدعوته الجديدة التى تبلورت فيها أفكار الجامعة الإسلامية وأفكار العرب القومية لترسم خطوط زعامة عربية إسلامية بينة الحدود والأهداف والمقاصد فعاد النشاط من جديد يدب فى كيان الحركة ويدفعها نحو هدفها المقصود ، ووجدالعرب فى ثورة جمعية الإتحاد والترقى وخلع عبد الحميدتنفيسا عن عواطفهم المكبوتة وهزتهم النشوة فأخذوايعلنون بين مظاهر السرور والفرح إنتصار الحرية فى كل مكان وكانت مظاهر الإبتهاج التى حفلت بها البلاد العربية خير تعبير عن تطلع العالم العربى إلى معانى الحرية والمساواة وديمقراطية الحكم .

ولم يكن هناك ارتباط فعلى بين ثورة جمعية الإتحاد والترقى وجهود القوميين العرب فبينما كانت جهود رجال تركيا الفتاة تتبلورلتخرج بجمعيه الإتحاد والترقى ذات الخطط الواضحة والأهداف المرسومة كانت المظاهر العملية لحركة العرب القومية لم تخلق بعد وبقيت الحركة فى حدود الأفكار والنظريات التى بدت فى كثير من الأحيان مبهمة غير واضحة لا تتفق على هدف واحد ولا تسلك طريقا معينا غير الشكوى والتذمر من الحكم العثمانى وأن تميزت بعنصر الإبداع النظرى فى نقد الأوضاع القائمة وإخراج مناهج مختلفة للاصلاح كانت لتعددها وتباينها عاملا من عوامل ضعفها وتشتتها فبين هى حركة فردية يقوم بها بعض المتنورين ورجال الفكر من المسيحيين إذا بها حركة جماعيه إسلامية تدعو إلى فكرة معينة وبين هى تدعو إلى الإنفصال والإستقلال عن الدولة العثمانية كما ظهر فى منهج جمعية بيروت السرية إذا بها فى بعض عناصرها وإتجاهاتها تدعو إلى تحقيق استقلال ذاتى للبلاد العربية فى نطاق الوحدة العثمانية العامة .

ولم يشترك رجال العرب ممن كانوا يقيمون فى الخارج فرارا من استبداد عبد الحميد فى تنظيمات جمعية الإتحاد والترقى إلا بصفتهم رعايا عثمانيين وقد ضمت الجمعية أشتاتا من العناصر المختلفة كان أبرزها العنصر العسكرى وإن كان يضم بعض الضباط من العرب إلا أنهم كانوا رعية عثمانية يخدمون فى جيش السلطان ، وقد تآلفوا جميعا على كراهية استبداد عبد الحميد وسياسته .

ولكن كان لنجاح رجال الإتحاد والترقى فى ثورتهم وعودة الدستور صداه الرائع فى أوساط العرب لا فيما إنتابهم من فرح واستبشار وإنما فى ناحية أخرى فقد ضرب لهم مثلا قويا ملموسا فى نجاح الحركات التى تعتمد على التنظيم العملى للخطط والأساليب وتحديد الأهداف والمناهج والدعوة إليها والعمل على تنفيذها فأخذت حركة العرب القومية تسير على منوال ما سارت عليه حركة تركيا الفتاة وتتلمس الأساليب العملية للوصول إلى أغراضها وتحقيقها وقد أيقظ نجاح الثورة هجوع القومية العربية فأحيت نشاطها بعد أن طال سباته وركوده طوال حكم عبد الحميد .

وقد تعرضت الثورة بعد أن نجحت فى حمل السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ ، لحادث مفاجىء كاد يقضى عليها وكانت محاولة من عبد الحميد نفسه للتخلص من جمعية الإتحاد والترقى ، ففى شهر أبريل أعلنت حامية الآستانة العصيان وحملت على دار البرلمان وقتلت بعض حراسها ونائبا عربيا وأحد الوزراء ، ولما تواترت أخبار هذه الفتنة إلى حامية سالونيك تقدمت إلى العاصمة بقيادة محمود شوكت باشا وهو ضابط عربى أرتقى فى الجيش العثمانى حتى وصل إلى مراكز القيادة ، واستطاعت أن تعيد الأمور إلى نصابها وتوطد سلطة جمعية الإتحاد والترقى وكان هذا الحادث الذى دبره عبد الحميد سببا فى خلعه وتولية أخيه الأمير رشاد سلطانا بإسم محمد الخامس وكان من ضعف الجانب ولين العريكة بحيث ترك لرجال الثورة أن يسوسوا الدولة على هواهم .

ولقيت الثورة فى بدايتها من تعضيد العرب ما حملهم على تكوين جمعية الإخاء العربى العثمانى إشادة بالصداقة الجديدة بين العرب والترك وأنشأت فروعا لها فى

مختلف البلاد العربية وأصدرت صحيفة لبث دعوتها ونشر أفكارها وكانت تتلخص في حماية الدستور وتوحيد جميع العناصر العثمانية في ولائها للسلطان والعمل على مساواة العرب والترك في الحقوق والواجبات وجعل اللغة العربية لغة رسمية وإحياء تراث العرب والمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم .

وخيل للناس أن عهداً جديداً من المساواة والحرية يوشك أن ينشر ظلاله على كافة العناصر والأجناس في الدولة العثمانية ولكن ما أن استتب الأمر لرجال الثورة من الترك حتى كشفوا عن حقيقة أغراضهم وبدأوا بالغاء جمعية الإخاء العربي العثماني ولما يمض ثمانية أشهر على إفتتاحها الذي شهد حماس العرب والترك لهذا التقارب الجديد بين العنصرين ، وقاموا بمحاربة كل نزعة ترمى إلى ظهور عناصر غير تركية في ميدان العمل العام وسيطروا على الانتخابات العامة وسيروها وفق أهوائهم التي كانت ترمى إلى إقصاء العرب عن النيابة العامة حتى عملوا على فوز مرشحين من الترك في ولايات عربيه خالصة .

وصدمت هذه الاتجاهات الجديدة آمال العرب وأخذو يشعرون بوقر هذه السياسة البادية وكان رجال جمعية الإتحاد والترقي قد أخذوا يبسطون من سيطرتهم الإستبدادية ما يفوق سيطرة عبد الحميد واستبداده وإن لم يكن لهم مكره ودهاءه فقد حرص عبدالحميد على استمالة كثير من أمراء العرب وأعيانهم إلى صفه وغمرهم بجاهه وألقابه كما نشر عيونه وجواسيسه يرقبون حركاتهم واتجاهاتهم العامة فأثار بين صفوفهم غريزتي الخوف والطمع وكان هذا عاملا قويا في ركود حركتهم القومية ، أما رجال الإتحاد والترقي فقد بسطوا ظل استبدادهم دون أن يكسبوا إلى صفهم من العرب ماحرص على كسبهم عبد الحميد إلى صفه وأثاروا فيهم روح التحدي والنضال وبدا حكمهم في أعين العرب مقيتا مكروها فنشطت جهودهم القومية لتحقيق آمالهم وأهدافهم واتخذوا من جهود رجال تركيا الفتاة وتنظيماتهم مثالا لجهودهم وتنظيماتهم الجديدة فتكونت الجمعيات السرية في داخل الوطن بينما راح رجالهم في الخارج يكونون الجمعيات العلنية وكانت كلها ذات أهداف

محددة واضحة عملت على تنفيذها بذلك الطابع العملى الذى اتخذه رجال تركيا الفتاة من قبل .

وكان « المنتدى الأدبى » أول هيئة تتكون عام ١٩٠٩ بعد إلغاء جمعية الإخاء العربى العثمانى ولم يكن هيئة سياسية تعمل على تحقيق أهداف معينة أوخطة مرسومة بل كان أشبه ما يكون بندوة تضم جماعة من الموظفين والطلاب والمبعوثين والكتاب العرب ممن يقيمون فى الآستانة حيث يتحدثون ويتناقشون فى جو ملىء بالحرية لايشجعهم عليها إلاشعورهم بأنهم فى بيوتهم بعيدين عن كل رقابة أوتدخل كما افتتحوا له فروعا عديدة فى الشام والعراق .

وقد خلق المنتدى الأدبى جوا من التقارب والتفاهم فى أوساط العرب المختلفة ممن ينتسبون إليه أو يترددون على مركزه الرئيسى فى الآستانة أو على فروعه فى الشام والعراق وكان داعية اجتماعياً لحركة العرب القومية لم يتبن فكرة معينة وإنما كانت تناقش فى اجتماعاته كل الأفكار وكل الاتجاهات لتصدر منها مدروسة وقد دضحت معالمها وحدودها فكان مصفاة للأفكار لا مصنعا لها يتلقاها لتصدر عنه وقد عرفت اتجاهاتها ومراميها .

وفى أواخر عام ١٩٠٩ بعد قيام المنتدى الأورى بقليل تكونت الجمعية القحطانية وهى أول جمعية سرية تتكون بعد قيام الاتحاديين فى الحكم وتميزت بأن لها برنامجا معينا وأهدافا واضحة تسعى إلى تحقيقها كما تميزت بإقدام مؤسسيها وجرأتهم وبأنها تضم عدداً كبيراً من الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، وقد اختلفت الأقوال حول شخصية مؤسسها ويورد الأستاذ أمين سعيد مؤلف « الثورة العربية الكبرى » الأسماء التى يدور حولها الخلاف وهى عبد الكريم الخليل وخليل باشا حمادة الذى كان وزيراً للأوقاف وأسسها بالإتفاق مع السيد عبد الحميد الزهراوى ثم سليم الجزائرى وكان ضابطا عربياً فى الجيش العثمانى ، ويسند مؤلف يقظة العرب زعامتها وتأسيسها إلى عزيز على المصرى أحد الضباط المصريين الشبان فى الجيش العثمانى بالإشتراك مع سليم الجزائرى وقد رجعت فى ذلك إلى الفريق عزيز باشا المصرى وهو يعيش فى عزلته الآن بضاحية القبة من ضواحى القاهرة بعد أن خرج من خدمة الجيش

المصرى الذى وصل فيه إلى رتبة الفريق فقال لى أن الجمعية القحطانية كانت فكرة ومشروعا أكثر منها حقيقة نفذت وصاحبها هو صديقه الضابط سليم الجزائرى والقصد منها إظهار العنصرية العربية وإبرازها ولم يكن للجمعية وجود حقيق كما لم يكن لها برنامج موضوع أو هدف معين على غير ما ذكر جورج أنطونيوس وغيره ممن أرخوا للحركة القومية العربية حيث يقولون أن أهداف الجمعية القحطانية كانت تتسم بالجرأة والجدة والإبداع فقد وضعت مشروعا يرمى إلى تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى إمبراطورية ذات تاج مزدوج كامبراطورية النمسا والمجر تكون البلاد العربية فيها وحدة لها تاجها وبرلمانها وإدارتها المحلية المستقلة وأن تكون العربية لغتها الرسمية ويحمل السلطان العثمانى فى الآستانة تاجها بالإضافة إلى تاجه التركى وبهذا تنسق سياسة الإمبراطورية العثمانية فى أملاكها وتكون وحدة حقيقية جديرة بالبقاء والرضاء من جانب العنصرين الغالبين فى الدولة العرب والترك. كما يقولون أن الجمعية نشطت فى أول سنيها فى الدعوة إلى هذا المشروع إلا أن نشاطها قل لارتياب أعضائها فى تسرب الخيانة إلى صفوفهم وقضى عليه لانصرافهم عن السير فيه وبينهم خائن وطوت الجمعية صفحتها فلم يعد لها أثر فى قيادة الحركة القومية وتوجيهها .

أما الجمعية السرية الثانية التى لعبت أبرع دور فى تاريخ الحركة القومية فهى جمعية «العربية الفتاة» وقد تكونت فى باريس عام ١٩١١، كونها سبعة من الطلاب العرب ممن يتابعون دراستهم العالية فى العاصمة الفرنسية واتسم أسلوبها بالدقة والحذر والسرية التامة فى اختيار أعضائها فلم يتسرب إلى صفوفها خائن وظل أمرها مجهولا حتى تحررت البلاد العربية من الحكم التركى فعرف عنها الكثير . وظلت باريس مقر الجمعية الرئيسى حتى انتقل إلى بيروت عام ١٩١٣ عند ما أتم أعضاؤها دراستهم فى فرنسا وعادوا إلى أوطانهم ثم انتقل إلى دمشق فى خلال الحرب .

وفى عام ١٩١٢ وهو العام التالى لقيام العربية الفتاة تكون « حزب اللامركزية

العثمانى » فى القاهرة من بعض السوريين البارزين فى مصر وجعل أهدافه الدعوة إلى حكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية فى جميع ولايات الدولة العثمانية كما نصت على ذلك المادة الأولى من لائحته التأسيسية .

وكان حزب اللامركزية العثمانى علنياً يباح لكل عثمانى بلغ العشرين من عمره ويتمتع بجميع الحقوق المدنية أن ينتسب إليه . وقد أفاد الحزب من قيامه بالقاهرة بعيداً عن استبداد الاتحاديين فى حرية الدعوة لمبادئه كما استطاع أن يقيم صلات وثيقة بينه وبين الهيئات السياسية العربية فى الشام والعراق وأتاحت له حرية الدعوة أن ينطق بلسان العرب ويعرب عن أمانيهم ولما يمض عام على قيامه .

وعلى غرار حزب اللامركزية العثمانى قامت « جمعية الإصلاح » فى بيروت متأثرة بنفس الدوافع التى أدت إلى قيام حزب اللامركزية العثمانى وتهدف إلى نفس الأغراض التى يهدف إليها وهى المطالبة بحكم لامركزى فى الدولة العثمانية . وأعلنت الجمعية برنامجها فى شهر فبراير سنة ١٩١٣ وقوبل بالترحاب والاستحسان فى أوساط العرب المختلفة فى الشام والعراق وانهالت البرقيات على الآستانة تطالب بتحقيقه ولما كان الإتحاديون لايؤيدون فكرة اللامركزية فقد قاوموا هذه النزعة وحاربوها منذ اضطلاعهم بالحكم فى الدولة العثمانية فلم يمض شهران حتى صدر أمرهم بحل الجمعية وإغلاق دارها .

ووجدت الحركة صداها فى العراق فتكونت فى البصرة جمعية تحمل اسم جمعية بيروت وكان مؤسسها السيد طالب النقيب نائب البصرة فى مجلس النواب العثمانى رجلا ذا صولة وجاه لم يستطع الاتحاديون أن يمارسو معه أساليبهم العنيفة فعملوا على مسالمته بعد أن اغتال حاكم البصرة التركى قبل أن يغتاله كما كان مكلفا بذلك من قبل الاتحاديين ، وأنشىء النادى الوطنى العلمى فى بغداد على أثر إنشاء حزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة ليكون فرعاً له برئاسة مزاحم الباجهجى الذى فر إلى البصرة بعد أن أصدر الاتحاديون أمرهم بالقبض عليه ودخل فى حمى السيد طالب .

وبلغت الدعوة القومية ذروتها عندما عقد مؤتمر باريس بدعوة من شباب العرب فيها ممن تربطهم صلات وثيقة برجال جمعية العربية الفتاة إلى جميع العرب فى بلاد الدولة العثمانية وخارجها ووجهت الدعوة إلى حزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة ليتبنى الدعوة ويرأس المؤتمر على اعتبار أن أهدافه هى التى يتوق العرب إلى تحقيقها فى مختلف الولايات العربية فى الدولة العثمانية كما وجهت الدعوة إلى الهيئات والجمعيات العربية الأخرى لحضور المؤتمر كالمنتدى الأدبى وجمعية الإصلاح وجاء فى ذكر الأسباب التى أدت إلى التفكير فى عقد المؤتمر ما جره تجاهل مطالب الإصلاح فى البلاد العربية من إشاعة الفوضى فيها وتعريضها للتدخل الأجنبى .

ولبت هذه الهيئات دعوة المؤتمر كما لباها ممثلون للبلاد العربية المختلفة ولعرب المهجر فى الأمريكتين وعقد المؤتمر فى ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ ودارت مناقشاته حول المطالبة بحقوق العرب السياسية والقومية فى نطاق الحكم اللامركزى .

ولما لم تنجح دعاية الاتحاديين ضد المؤتمر وفشلوا فى إشاعة الخلاف بين القائمين عليه لجأوا إلى مهادنته وأرسلوا مندوبيهم إلى باريس لمفاوضة أقطابه فى مطالبهم وانتهت المفاوضات بنجاح ظاهرى للعرب فقد نزل الاتحاديون دون أن تكون لديهم النية الصادقة فى التنفيذ ، على بعض مطالبهم كتقرير العربية لغة رسمية وإبقاء الخدمة العسكرية ضمن حدود الأقليم وتحقيق إدارة لامركزية فى البلاد العربية وتعيين بعض الموظفين فى وظائف الدولة العامة من العرب .

وابتهج العرب بتحقيق مطالبهم وعادت علاقات المودة تربط بينهم وبين الترك كما كانت عند إعلان الدستور عام ١٩٠٨ ، ولكن الاتحاديين جعلوا يسوفون فى تنفيذ ما اتفقوا عليه مع العرب وعندما ظهرت الإرادة السنية فى ١٨ أغسطس لإعطاء قرارات باريس شكلها القانونى مسخت هذه الحقوق التى اعترف بها الأتراك وصدرت مشوهة وبدا للعرب أن اللعبة التى ترمى إلى قتل الحماس الذى خلقه المؤتمر قد استوفت مراميها وفاتت عليهم ، عاد الفزع يغزو دوائرهم من جديد بينما رجع الاتحاديون رغبة فى القضاء على الحركة العربية إلى سياسة عبد الحميد القديمة فى إغراء العرب بالمناصب ونشر الفرقة بين صفوفهم .

ثم ارتكب الإتحاديون عملا يدل على الحماقة والطيش ويتسم بالعنف البغيض عندما ألقوا القبض على الضابط عزيز على المصرى وكان قد وصل إلى رتبة البكباشى فى الجيش العثمانى وحاكموه بتهمة الخيانة العظمى وأصدروا حكمهم عليه بالإعدام . ولم يكن عزيز على المصرى ضابطاً عاديا بل كان منذ تخرجه عام ١٩٠٤ من مدرسة أركان الحرب ضابطا مرموقا لكفاءته وشجاعته واشترك عام ١٩٠٨ فى الإنقلاب العسكرى الذى قامت به جمعية الإتحاد والترقى وكان من أقطابه وقد سمعت منه وأنا أرجع إليه فى تأريخ هذه الفترة أنه أرسل برقية إلى السلطان عبد الحميد يقول له فيها : «أن أسرتكم هى التى كونت الدولة العثمانية وهى التى وصلت بها إلى قمة المجد بما وضعته من قوانين رشيدة ، ونحن جميعاً نشعر بأننا لسنا ضباطاً فى جيشك فحسب فما نحن إلا أبناؤك الحقيقيون وما فينا من يتصور الإعتداء عليك ، ولكن نظمنا قد أصبحت بالية والعالم الأوربى متحفز لطردنا من أوربا ، استرحم جلالتكم التكرم بمنحنا دستوراً يجعلنا فى صف العالم المتمدين» وكان لهذه البرقية كما يروى أثرها فى إعلان الدستور ، بجانب مالمسه السلطان من تحفز الثوار للزحف على الآستانة وكانوا قد أوقعوا بالقوات التى أرسلت لإخضاعهم .

كما اشترك فى الزحف على الآستانة فى العام التالى لما قام السلطان بتحريض حامية الآستانة على الثورة والفتك برجال الإتحاد والترقى برفقة شوكت باشا قائد حامية سالونيك وكان إيمانه بالمثل العليا فى الإصلاح العثمانى هى التى تدفعه إلى مناصرة حركة الإتحاديين حتى إذا انقلبوا على مثلهم العليا وهووا إلى ماهوى إليه حكم عبد الحميد من سوء واستبداد أخذ يعمل فى ميدانه الخاص لنصرة مبادئه وقام بتأسيس «جمعية العهد» فى أوائل عام ١٩١٤ وقصر عضويتها على العسكريين العرب وكانت غالبيتهم من العراقيين ولم يشترك فيها من المدنيين أحد كما أخبرنى بذلك نفسه بخلاف ما رواه جورج أنطونيوس من أنه ضم اليها مدنيان سوريان أحدهما الأمير أمين أرسلان وكان القصد كما يقول من تكوين جمعية العهد هو العمل على إحياء مجد الدولة العثمانية وقوتها بإصلاح نظام الحكم فيها سواء فى ولاياتها المسيحية أو الإسلامية بقيام حكومة فيدراليه تحقق للولايات العثمانية حكما ذاتيا تحت التاج العثمانى وكان يسمى مشروعه هذا بمشروع الإمبراطورية الشرقية ولا ريب أن ذلك أبعد

مدى مما كان من أهداف الدعوة الطورانية أو الدعوات العربية الأخرى التى حصرت مجهودها فى الحقل العنصرى .

وقد ثار العالم العربى للقبض على عزيز على المصرى وتوالت الاحتجاجات من كل البلاد العربية ومن مصر مسقط رأسه على الآستانة ، ولعل الإتحاديين كانوا يرتابون فى وجود جمعية العهد وزعامته لها عندما أصدروا أمرهم بالقبض عليه وإن لم يستطيعوا أن يمسكوا بدليل واحد ضده وجرت محاكمته لأمور نسبوها إليه أدرك العالم العربى مدى مافيها من مين وافتراء حتى راح رفقاؤه من العسكريين يقسمون أغلظ الإيمان على أن يثأروا لدمه إذا نفذ حكم إعدامه .

واستمرت هذه القضية تهز الرأى العالم العربى حتى أحتجت مصر مسقط رأسه على الحكم فصدر قرار العفو عنه وسافر اليها حيث استقبل بحماس بالغ ، ولم يحدث أن اهتز العالم العربى لقضية كما اهتز لقضية عزيز على المصرى فى أبانها وبقى صداها يرن فى آذان العرب ويدفعهم إلى الكفاح الدائب فى سبيل حريتهم وأمانيهم القومية ولم تكن الهزة قاصرة على جماعة المتنورين بل امتدت إلى صفوف الجماهير فأخذت تحركها مدفوعة بالإعجاب الفطرى ببطولة هذا الضابط الشاب ، وبينما المتنورون يعقدون اجتماعاتهم ويوالون احتجاجاتهم كانت صفوف الجماهير تذرع الشوارع فى شكل مظاهرات شعبية تعرب عن غضبها للقبض عليه وانطلقت ألسنة الشعر تنوه بذكره وفضله على الترك .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أمر أجمعت عليه كل هذه الهيئات المختلفة التى أبرزت قوة الحركة القومية فى البلاد العربية سرية كانت أو علنية ولم يكن ليختلف عما يمور به الرأى العام فيها من أفكار وهو حرصها على الإبقاء على الروابط التى تربط البلاد العربية بالخلافة العثمانية فإن هذه الرابطة العامة ظلت قوية فى نفوس العرب وغير العرب من المسلمين الذين كانوا يرون فيها سنداً روحياً لوحدة الإسلام الكبرى ودارت حولها مناقشات عديدة واختلفت فيها الآراء حتى سيطرت مجريات الأمور على مصير الدولة العثمانية فانتهت كما انتهت مثيلاتها من الإمبراطوريات التى قضت عليها الحرب الأولى وجاء الكماليون ليقضوا على آخر رابطة تربط تركيا بالبلاد العربية والإسلامية

عنـد ما ألغوا الخلافة بعـد إلغاء السـلطنة فقضوا بذلك على الرابطة بين بلاد الدولة العثمانية فاختطت كل منها تحت ظروف مرسـومة وطارئة حياتها القومية الحاضرة .

٣ — مصر :

تتميز مصر منذ أقدم عصور التاريخ بعراقة أصـولها القومية فقد عرفت الوطن والأمة واللغة الموحدة والطبائع المتجانسة والحكم الواحد والإدارة المنظمة قبل أن تعرفها غيرها من الأمم والشـعوب التى كانت وما زالت تدرج فى طور طفولتها . وعرف المصرى القديم بتعصبه لوطنه وتراثه وتقاليده وأنظمة حكمه ودياناته واستمر طابع القومية المصرية الذى يستمد أصوله من هذه المقومات مجتمعة غلابا طوال عصور تاريخها القديم حتى استعربت بعد الفتح العربى وصارت العربية لغتها وتمثلت العناصر العربية النازحة إليها ودانت للاسلام فبدأت طوراً جديداً فى تاريخها القومى اتسم بغلبة الطابع الإسلامى عليها وارتباطها بالقومية الإسلامية العامة التى طبعها الإسلام بطابعه كما جمعتها الخلافة فى رباطها .

وظلت مصر متأثرة بهذا الطابع الإسلامى العام حتى فى تلك الأوقات التى استقل بها ولاة أقوياء وقامت فيها دول قوية كالدولة الطولونية والأخشـيديه والفاطمية والأيوبية والمملوكية وغلبة حكمها على ماجاورها من البقاع إلى أن ولى أمورها محمد على رأس الأسرة العلوية الحاضرة فبذر فى شعبها أول بذور التطور القومى الحديث وإن ظلت علاقته بالخلافة العثمانية كعلاقة من سبقه من الولاة والحكام الأقوياء بالخلافة العباسية أوالعثمانية إلا أنه يتميز عليهم جميعاً بأنه أخذ يتجه إلى الشعب المصرى ويستوحى جهوده فى بناء دولته كما يستوحى مقومات البيئة المصرية كل عناصرها القوية فى هذا البناء على أساس أوربى حديث فى التعلم والصناعة والتنظيم العسكرى والإدارى وإن طبعها بطابعه الخاص وشخصيته الغلابة .

وتميزت شخصية مصر فى عهده واكتسبت كيانا خاصا فى الدولة العثمانية باعتراف

الدول الأوربية والباب العالى فى تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ وإن كان دون ما أمل محمد على إلا أنه ميز مصر على ولايات الدولة العثمانية الأخرى كما ميز أسرة محمد على على الولاة الآخرين وكانت هذه الخطوة التى قام بها محمد على أول بادرة فى انفصال مصر عن الكيان العام للدولة العثمانية فاختطت لنفسها سياسة خاصة تأثرت إلى حد بعيد بشخصية حكامها واتجاهاتهم قبل أن تتأثر بسياسة الباب العالى واتجاهاته على أن الوعى القومى فى الشعب لم يكن قد ظهر بعد وبقى التعلق بالوحدة الإسلامية العامة عند الشعب يغلب على ماعداه من اتجاهات قومية كان يمكن أن تبرز لوكان لها قوة عندما أخذ محمد على يختط سياسته الجديدة فى مصر ولكن أثر الشعب بقى ضئيلا ولم يتجاوب مع اتجاهات محمد على وخططه إلا بقدر ما فرض عليه من خططه واتجاهاته .

ولم يبد أثر الشعب واضحا إلا فى عصر اسماعيل عندما أخذت البذور التى غرسها محمد على تزهر وتؤتى ثمارها وعندما تضاعف الاحتكاك الأوربى بمصر وعظمت مصالح الأجانب فيها وكان لهذا من الأثر فى تطور الوعى القومى عند الشعب ماكان لاتجاهات محمد على وخططه التى بدت أعظم ما تكون آثارها القومية فى ميدان التعليم ففى هذا الميدان تكونت الفكرة القومية عند الفرد فإن اتجاه محمد على إلى أنظمة التعليم الغربية وإنشاء المدرسة المصرية على نمط أوربى فى مناهجها وأنظمتها واستخدام خبرة المدرسين الأوربيين الذين استقدمهم لهذا الغرض قد حمل فى طياته معالم القومية الحديثة التى يقوم عليها فى الأصل ، كما كان اتجاهه إلى أرسال البعوث العلمية إلى مختلف البلدان الأوربية وتأثر أفرادها بالحضارة الغربية فى وقت كانت هذه الحضارة قد كشفت عن أصولها القومية الرائعة فى الفن والأدب والسياسة وأنظمة الحكم وأساليب الحياة فعادوا بعد ذلك وقد تشربوا أصول هذه الحضارة ومقوماتها ليحملوا رايتها وينشروا مبادئها فى مصر ويبثوا أصولها فى الحياة المصرية .

وفى ذلك الوقت كانت وفود الأجانب تترى على مصر ومصالحهم فيها تعظم وتزداد كنتيجة من نتائج الاهتمام الأوربى الحديث بها كما انثالت عليها رؤوس الأموال الأجنبية

فى شكل قروض أو امتيازات تجارية أو مشروعات انشائية استغلالية ، وعرف الناس طبائع الحياة الأوربية فوقفوا منها مستنكرين فى أغلب الأحيان ماعدا قلة منهم أخذت تقبل عليها متأثرة بثقافتها الغربية ولكن فى تحفظ يدفعهم إليه حرص البيئة وقوة تقاليدها ثم أحسوا وطأة التدخل الأجنبى عندما أخذ يسفر عن مطامعه فى أخريات حكم اسماعيل فأيقظ فيهم نعرة الجنس والتعصب لمصالح الجماعة .

وجاءت اصلاحات اسماعيل فى القضاء والإدارة والتعليم إيقاظاً لهمة الشعب بعد فترة الركود التى طوت عهدى عباس وسعيد وكانت الحركة الفكرية قد أخذت تكشف عن قوتها بعودة المبعوثين وظهور الرعيل الأول من خريجى المدارس الحديثة ونشاط الصحافة وبداية الحركة الأزهرية المستنيرة التى نفث فيها الأفغانى من روحه وتعاليمه ما نفث فى نواحى الحياة المصرية جمعاء وتفاعلت هذه اليقظة الفكرية مع اصلاحات اسماعيل وكانت الحركة الدستورية نتاج هذا التفاعل وكان قبول اسماعيل لمبدأ المسئولية الوزارية أول بادرة فى هذا الاتجاه .

وكان اسماعيل جريا على سياسته فى تمدين مصر وخلقها خلقا حديثا وتأثره بالحضارة والأنظمة الأوربية فى هذا الاتجاه قد منحها عام ١٨٦٦ مجلسا نيابيا أسماه مجلس شورى النواب على غرار مجلس المشورة الذى كونه محمد على وإن ظل يتمتع بحده بكل مزايا الحكم المطلق ولم يكن لمجلس شورى النواب تأثير فعلى فى سياسة الحكومة إلا أنه كان بداية طيبة لما يمكن أن يسفر عنه هذا الاتجاه من تقارب بين الأمة والطبقة الحاكمة ولم يظهر أثر هذا المجلس إلا فى أخريات حكم اسماعيل عندما اشتدت الأزمة المالية وبدا التدخل الأجنبى سافراً وكانت الحركة الفكرية التى أشرنا إليها قد كشفت عن أوارها فبدت روح المعارضة لأول مرة بين صفوف النواب فى دورته التى بدأت عام ١٨٧٦ وأخذوا يناقشون سياسة الحكومة .

وجد عامل جديد ألهب شعور الرأى العام وهو اشتراك الأجانب فى وزارة نوبار وهى أول وزارة مسئولة تتألف بعد تقرير مبدأ المسئولية الوزارية ، واستبداد الوزيرين الأجنبيين فيها بالسلطة ، وحدثت فى أثناء قيامها بالحكم مظاهرة الضباط

وإن قامت احتجاجا على إحالة عدد كبير منهم إلى الاستيداع بسبب الأزمة المالية إلا أنها كشفت عن استياء الرأى العام من التدخل الأجنبى ووجود الأجانب فى الوزارة وكان لهذا الإستياء الذى ظهر أول ماظهر فى مظاهرة الضباط صداه العنيف فى مجلس شورى النواب فعمل أعضاؤه على التخلص من النفوذ الأجنبى فى الوزارة كما عملت الوزارة على فض الدورة النيابية والتخلص من مجلس شورى النواب وبدأ الاحتكاك بين الوزارة والمجلس .

وأخذ النواب يجتمعون بعد فض الدورة النيابية وانضم اليهم كثير من العلماء والأعيان والتجار على هيئة جمعية وطنية كما دعتها صحافة ذلك العهد وظهرت نواة الحزب الوطنى وهو الإسم الذى أطلقته الصحافة أيضاً على أولئك الوطنيين الذين وضعوا نصب أعينهم وضع نظام دستورى صالح لحكم البلاد وقد تقدموا بمطالبهم إلى الخديو فى ٢ ابريل سنة ١٨٧٩ فى صورة لائحة وطنية تتضمن مشروع تسوية مالية للبلاد يخالف المشروع الذى تقدمت به الوزارة كما تتضمن تعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله كافة الحقوق التى لأمثاله فى أوربا .

واستجاب الخديو إلى مطالب الوطنيين وكلف شريف باشا تأليف الوزارة الجديدة وبدأت وزارة شريف أعمالها بوضع لائحة الدستور وتقدمت به إلى مجلس شورى النواب وفى هذه الأثناء عزل اسماعيل واعتلى توفيق أريكة الخديوية المصرية ولم يلبث أن ظهرت ميوله الاستبدادية فرفض مشروع االدستور ودعا رياض إلى تأليف الوزارة بعد استقالة شريف وكان يشايع توفيق فى ميوله الاستبدادية فعطل مشروع الدستور ولم يدع مجلس شورى النواب إلى الاجتماع وفى عهده صدر قانون القرعة سنة ١٨٨٠ وثارت ثائرة الضباط المصريين فى الجيش على هذا القانون كما ثاروا لتميز عثمان رفقى وزير الحربية للضباط الأتراك فطالبوا بعزله وظهرت الحركة العرابية فى بدايتها لنصرة قضية الضباط الوطنيين ثم انقلبت حركة وطنية للمطالبة بحقوق الأمة عندما اتصلت الحركتان الوطنية والعسكرية وسار عرابى على رأس جنده إلى ميدان عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ يطلب عزل رياض ودعوة مجلس النواب للانعقاد فاستقالت وزارة رياض وألف شريف وزارته الثالثة وتمت انتخابات

مجلس شورى النواب الجديد ودعى للاجتماع فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ وافتتح فى ٢٦ ديسمبر وفى يناير سنة ١٨٨٢ تقدم إليه شريف بمشروع القانون الأساسى أو الدستور واعترض المراقبان الأجنبيان على ماجاء فى المشروع من حق المجلس فى مناقشة الميزانية وأراد شريف أن يفوت هذه الأزمة ولكن تدخل انجلترا وفرنسا وتقديمها المذكرة المشتركة التى تتضمن تأييد سلطة الخديو جعل الأمر يفلت من يديه فاستقالت وزارته وألف البارودى الوزارة الجديدة ثم تتابعت الأحداث سريعة واستقالت وزارة البارودى وألف راغب باشا الوزارة وفى فترة حكمها ضرب الأسطول البريطانى طوابى الأسكندرية وآذنت النذر بالاحتلال البريطانى وبداية عهد جديد .

وقضى فشل الثورة العرابية على كل جهد قام به الوطنيون فى سبيل الدستور وكانت صدمة أصابت المصريين واهتز لها كيانهم القومى والسياسى وألهاهم هول الفاجعة الجديدة عن أمانيهم القومية كما ربطهم الاحتلال بوضع بريطانيا السياسى والاستراتيجى فى الشرق الأوسط وبدا المستقبل مظلما لا تبين فيه غلالة من نور أو بريق من أمل ولكن بقى المقت للاحتلال البريطانى يكبر وينمو فى نفوس المصريين ويوجه حركتهم القومية حتى كشف عن آثاره فى ذلك الجهاد الرائع الذى بدأه الزعيم الشاب مصطفى كامل فى سبيل مصر وأمانيها القومية والوطنية .

وشهدت السنوات التالية للاحتلال البريطانى لونا من الاستخذاء والاستسلام والخضوع كان فشل الثورة أول أسبابه وكانت سياسة الإحتلال سببه الثانى فقد خلق فشل الثورة نوعا من اليأس فى نفوس المصريين أخذ يخيم على الصفوة الممتازة منهم وينشر ظلاله الكئيبة عليهم وقد سعى شريف باشا عندما تولى الوزارة للمرة الرابعة فى أعقاب الثورة للابقاء على بعض ما كسبه المصريون فى جهادهم الدستورى فلم يلق غير الفشل فالخديو توفيق يميل إلى مهادنة الاحتلال وبريطانيا تسوف فى الجلاء وتعمل من جهتها على توطيد إحتلالها للبلاد وتلجأ إلى سياسة الإملاء والتهديد فى تنفيذ مآربها فى وادى النيل فتكره المصريين على اخلاء السودان وتطلب إليهم أن يستجيبوا إلى نصائح المعتمد البريطانى كأوامر واجبة التنفيذ ولم يجد شريف بدا من الإستقالة ويسجل فى استقالته

استحالة التعاون مع القوى الحقيقية التى تسيطر على سياسة البلاد فيذكر فيها ما يأتى :

«ولا يخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ التى نص فيها على أن الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار فبناء على ذلك نضطر هنا أن نطلب من مقامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية» .

وكانت وقفة شريف آخر وقفة قوية يقفها مصرى من الاحتلال لعشر سنوات تالية وأمتدت يد الإنجليز إلى كل الإدارات الحكومية فساسوا البلاد على هواهم لا يجدون معارضة لا من الخديو ولا من رجال حكومته المصريين ولا من الصفوة المستنيرة فى البلاد بمن صرعهم فشل الثورة وقضى على حماسهم تشريد قادتها والفتك برجالها وجرى كرومر المعتمد البريطانى فى مصر على سياسة التقرب من الفلاحين والتحبب إليهم علّه يجد منهم سنداً له فى دعم سياسة الاحتلال ولكن أبناء الأرض الطيبة رغم أنهم ساروا مع التيار الغالب إلا أنهم ما انفكوا ينظرون إلى المحتل نظرتهم إلى غريب يغتصب الديار من أبنائها فكانوا أول من استجاب إلى نداء مصطفى كامل وكان منهم وقود الثورة التى شب أوارها عام ١٩١٩ والتى ظل رجال الحزب الوطنى يهيئون لها قبل ذلك بسنوات حتى كشفت عن عرامتها فى أبانها .

وجرت سياسة المحتل من ناحية أخرى على التفريق بين عنصرى الأمة وقد أفلحت سياسته فى هذه الناحية كما أفلحت فى التقرب من الفلاحين ولكن ما أن انقضت الغمة التى رانت على البلاد فى أوليات احتلالهم حتى انقلبت الأمة يداً واحدة تنافح ضد المستعمر وتكافح فى سبيل حريتها واستقلالها .

وامتدت يد الإحتلال إلى التعليم فصبغته بالصبغة الإنجليزية وأصبحت الدروس تلقى بلغته وكان هذا كفيلا بإضعاف اللغة القومية إلا أن النهضة الفكرية والأدبية التى كشفت عن قوتها فى عهد إسماعيل والتى اتخذت من الصحافة منبراً لها حفظت على لغة البلاد جدتها وقوتها ولعبت الطباعة دورها التقليدى فى نشر ثمرات المؤلفين والكتاب ، ونشطت حركة الترجمة والنقل والاقتباس من الآداب الأوربية تبعاً لازدياد

الصلات الفكرية بين مصر وأوربا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ولم يكن هذا فى الحقيقة إلا استمراراً لذلك النشاط الأدبى الذى ند عن قوته فى عهد إسماعيل .

ولم يقتصر جرم الإحتلال على إهمال اللغة العربية فى المدارس فحسب بل تناول نوع التعليم نفسه فأصبح غثاً رخيصاً لا غناء فيه للثقافة أو التقدم الفكرى أو العلمى أو التربية الصحيحة التى تهدف إلى تنمية شخصية الفرد أو تكوين المواطن الصالح وقصر على إخراج طائفة الموظفين الذين تحتاجهم الإدارات الحكومية والوظائف الصغيرة وأوقف الإحتلال إرسال البعوث إلى أوربا وهبط مستوى التعليم فى المدارس العليا وحدت وسائلها وامكانياتها فقد كانت أغلب وظائف الدولة الكبرى وقفاً على الإنجليز وألغى مجانية التعليم ما عدا التعليم الأولى وخلق هذا نوعا من مركب النقص عند المصريين ارتبط فى أذهانهم بالقدرة المالية وأصبح للتعليم مستويات ترتبط بهذا المعنى فى نفوسهم وكان هذا بدوره داعياً لخلق مستويات غير متجانسة فى الثقافة والميول والاتجاهات الوطنية والقومية .

أما الحركة الدستورية التى نشطت فى أواخر حكم إسماعيل وأوائل حكم توفيق فكان من الطبيعى وقد ارتبطت بالثورة العرابية أن تتأثر بفشلها وإخفاقها وقد حاول شريف عندما ألف وزارته الرابعة فى أغسطس سنة ١٨٨٢ وقد لاحت بوادر فشل العرابيين أن يبقى على ما كسبته البلاد فى جهادها الدستورى عام ١٨٨١ وأشار إلى ذلك فى كتاب تأليف الوزارة الذى رفعه إلى الخديو ولكنه لم يجد تشجيعاً منه وجاء الاحتلال فقضى على كل آماله فإن الحكومة البريطانية أخذت باقتراحات « لورد دوفرين » سفيرها فى الآستانة وكانت قد كلفته بوضع نظام للبلاد فى عهدها الجديد ، وقد أشار بإلغاء مجلس شورى النواب على أن يحل محله مجلسان الأول وهو مجلس شورى القوانين ويتكون من ثلاثين عضوا تعين الحكومة منهم أربعة عشر عضوا بما فيهم الرئيس وينتخب الباقون عن البلاد والثانى ويعرف بالجمعية العمومية وتتكون من أعضاء مجلس شورى القوانين وأعضاء الوزارة وست وأربعين عضواً آخرين عن المديريات والمحافظات وتجتمع مرة كل عامين ، وكان رأى هذين المجلسين

استشاريا لايلزم الحكومة ولا يربطها بقراراته ، كما أشار بإنشاء مجالس للمديريات على أن لا تكون قراراتها نافذة إلا بموافقة وزير الداخلية ، وصدرت المراسيم بهذه المقترحات الجديدة فى مايو سنة ١٨٨٣ وإن كان تنفيذ قانون مجالس المديريات قد تأخر إلى عام ١٩٠٨ .

وليس هناك وجه للمقارنة بين دستور سنة ١٨٨١ وهذه الأشكال الدستورية الباهتة والظاهر أن بريطانيا لم ترد القضاء بتاتا على ما وصلت إليه البلاد فى جهادها الدستورى حتى لا تتهم بمقاومة النزعات الحرة والعدوان على إرادة الأمة فأرادت أن تأخذ بالشكل دون الجوهر متعللة بأن البلاد لم تبلغ بعد من التقدم الاجتماعى والسياسى والفكرى مايؤهلها لممارسة حقوقها الدستورية كاملة وهى فى الحقيقة لاتخشى إلاأن تعرقل الهيئات النيابية الحرة سياستها المرسومة فى البلاد كما أشارت مقترحات لورد دوفرين إلى ذلك فى أنها هيئات نيابية تتمثل فيها رغبة الأمة ولكنها لا تعرقل سير الإدارة الحكومية .

واحتل الإنجليز الوظائف الهامة فى الجيش الجديد وأشرفوا على تكوينه بعد أن سرحوا الجيش القديم ونكلوا بضباطه عقب فشل الحركة العرابية ولم يهتموا بثقافته العسكرية أو تدريبه الفنى وحطموا روحه المعنوية فأضحى شكلا مجرداً لا يعنى بغير المظهر والعرض دون الحقيقة والجوهر وحدوا من قوته وتسليحه وعدده فلم يعد رمزاً لهيبة الدولة وقوتها وفرضوا البدل العسكرى للاعفاء من الخدمة العسكرية فلطخوا شرف الجندية بوصمة الفقر والذل الذى ارتبط بالقدرة على أداء البدل العسكرى وظل مرتبطاً فى أذهان المصريين بهذا المعنى الذليل ما ظلت آثاره باقية إلى عهد قريب وبقى كامنا إلى الآن فى نفوس كثير من المصريين كما نظموا الشرطه على نمط جديد واحتفظوا فيها أيضاً بالمناصب الكبرى وجهدوا فى أن يصبغوها بالصبغة التى يريدونها فأضحت رمزاً للعسف والإرهاب فى أذهان المصريين فبعد عن فهمهم هذا المعنى الكريم الذى تقوم عليه الشرطه فى الأصل .

وقد عنى الإنجليز عناية حقيقية بالمشروعات الإنتاجية فى مصر واختصوا بعنايتهم

مشروعات الرى والزراعة ومد الطرق البرية وتعبيدها ولكنهم لم يقصدوا غير منفعتهم الذاتية ومصلحتهم الخاصة ، فالرخاء المادى فى البلاد يكفل رواج تجارتهم ومنتجاتهم المستوردة . كما أن وفرة الإنتاج الزراعى للخامات التى تحتاجها مصانعهم يكفل لهذه المصانع حاجتها من هذه الخامات ، وكان اهتمامهم لهذا السبب بزراعه القطن يفوق اهتمامهم بأى نوع آخر من الزراعة وهو الخامة التى تحتاجها مصانع العزل والنسيج فى لنكشير فإن القطن المصرى هو عماد تفوق هذه الصناعة فى بريطانيا وما زالت انجلترا حتى هذا الوقت أكبر مستورد للقطن المصرى ، وقد أرادت أخيراً أن تجد عنه بديلا بقطن الجزيرة فى السودان ، ولكن النتيجة كانت على غير ما تحب ، فإن القطن المصرى ظل محتفظاً بسبقه وتفوقه ولم يكن قطن الجزيرة ليضاهيه فى جودته وميزاته .

وكانت سياسة الاحتلال ترمى إلى القضاء على الروح الوطنية أو الحد منها ، وقد سلكت فى سبيل ذلك ما سلكته من القضاء على القيم المعنوية فى الشعب بإفقار التعليم والقضاء على اللغة العربية فى المدارس وقتل الروح العسكرى فى الشعب وإشاعة الفرقة بين طبقاته ، وأخيراً فى التشكيك فى قدرة المصرى على القيام بالإدارة والوظائف العامة .

ومع ما اتسمت به الإدارة المصرية من دقة ونظام على أيديهم إلا أنها كانت تقوم على الشك فى أمانة الموظف المصرى وقدرته مما أدى إلى نوع من المركزية الإدارية طبع إدارات الحكومية بذلك الطابع البطىء ، وقضى على ثقة الموظف المصرى بنفسه وقدرته على الاضطلاع بالمسئولية الإدارية ، وبان أثر ذلك عندما استقل بالادارة الحكومية ، فإن الأنظمة التى خلفها الموظفون الإنجليز وراءهم ظلت باقية بعد رواحهم .

ولكن الاحتلال البريطانى وقع فى وقت كان جهاد المصريين فيه رائعاً لاستكمال حقوقهم الدستورية ، وكان إسماعل قد خطا خطوات واسعة فى الاستقلال عن الباب العالى ، ونمى الوعى القومى نموا رائعاً كانت مصر فيه أسبق من غيرها من بلاد

الدولة العثمانية بله بلدان الشرق جميعاً وتقدمت الحركة الفكرية تقدما ظهرت آثاره فى الصحافة والتعليم والكتب المؤلفة والمترجمة فلم يكن فى قدرة الاحتلال أن يقضى على قوة هذه العوامل وآثارها فى الشعب وإن استطاع أن يكبتها إلى حين ويحد من قوتها إلى أمد معين لم يدم طويلا فما انقضت آثار الغمة التى رانت على البلاد بعد فشل الثورة العرابية حتى أخذت تكشف عن عزامتها وقوتها وتتجه اتجاها جديدا كل غايته إجلاء القوات البريطانية عن البلاد وتحقيق استقلالها ووحدة أراضيها فى وادى النيل .

وبدأ الخديو عباس حلمى الثانى هذا الاتجاه الجديد بمقاومة سلطة المعتمد البريطانى وقد ارتقى أريكة الخديوية المصرية بعد وفاة أبيه توفيق فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، ولما يزل حدثاً يافعاً لم يعد الثامنة عشرة من عمره تدفعه فورة الشباب إلى التمسك بحقوقه الشرعية فى الحكم تلك الحقوق التى يستأثر بها من دونه المعتمد البريطانى لورد كرومر .

وقوبل هذا الاتجاه من جانب الخديو بكل تأييد وحماس من الشعب ولا سيما شبابه الذى رأى فى سياسة الخديو الشاب أملا يراود أحلامه وأمانيه . وقد بدت مشاعر الشباب قوية جياشة عبر عنها يوم أقال الخديو وزارة مصطفى فهمى وتمسك بحقه يوم ثار كرومر لذلك وثارت من ورائه دولته وتنبه الشعب لهذا الموقف الأبى فأقبلت وفوده على قصر عابدين تعلن ولاءها وتأييدها لحاكم البلاد الشرعى .

والتف الشعب حول الخديو ورأى فيه رمزا لأمانيه الوطنية يبدى له تأييده ، ويتحمس له فى كل مناسبة والتقت رغبة الخديو فى ممارسة سلطاته الشرعية ومعارضة سياسة المعتمد البريطانى برغبة زعيم شاب كرس جهوده وحياته لخدمة بلاده وكان له أكبر الأثر فى إثارة الشعور الوطنى وتوجيه الحركة القومية تلك الوجهة الوطنية التى تأثرت بها فى تلك الفترة من حياة البلاد السياسية وظل أثرها باديا فى جهاد الشعب المصرى لتحقيق أمانيه الوطنية والقومية حتى الوقت الحاضر ، وكان هذا الزعيم الشاب مصطفى كامل رائد النهضة الوطنيه فى تاريخ مصر المعاصرة .

ولقى مصطفى كامل من تأييد الخديو وتشجيعه ما كان له أكبر الأثر فى قوة الحركة الوطنية فى بدايتها ، وإن كان الخديو قد تخلى عن تأييد الوطنيين عندما ساد الوفاق بينه وبين المعتمد البريطانى الجديد «سير الدن جورست» إلا أن تأييده للحركة الوطنية وتشجيعه لها فى بدايتها كان عاملا فعالا فى قوتها واستقرارها وثباتها فيما بعد .

واتسمت دعوة مصطفى كامل الوطنية بالمحافظة على الرابطة الإسلامية العامة والولاء للخلافة ، ولعله كان متأثراً فى ذلك بدعوة الجامعة الإسلامية أو لعله كان يرمى إلى الإفادة من الحق الشرعى للدولة العثمانية فى مصر ، ذلك الحق الشرعى الذى كفلته معاهدة لندن عام ١٨٤٠ فى حمل الإنجليز على الجلاء أو لعله كان يرمى إلى كسب تركيا إلى صفه فى المطالبة بجلاء القوات البريطانية وحملها على المطالبة بحقوقها الشرعية ، ولكن مما لاريب فيه أن دعوة مصطفى كامل الوطنية كانت عنصراً هاما من عناصر الحركة القومية الحديثة فى مصر فهى التى وجهتها وجهتها الصحيحة وهى التى حددت أهدافها ومرامها وحدودها فى تعريف المصريين بمعنى الوطن وحقوق وواجبات المواطن وإيقاظ معانى الوطنية فى النفوس وهى مقومات القومية الحديثة وعواملها الرئيسية .

ولم تكن دعوة مصطفى كامل لربط مصر بالخلافة العثمانية إلا نوعاً من الولاء للرابطة الإسلامية العامة كان يسود العالم الإسلامى فى ذلك الوقت وظل قويا حتى فى إبان اشتداد الوعى القومى فى البلاد الإسلامية فقد ظلت الاتجاهات القومية فيها لاتنكر الولاء للخلافة وكل ما تتطلع إليه أن تحقق لنفسها نوعا من الكيان الذاتى فى داخل الدولة العثمانية ولم تكشف النزعة الانفصالية فيها عن نفسها إلا عندما جاءت كنتيجة طبيعية لانهيار الدولة العثمانية وسقوط الخلافة .

وقد كتب مصطفى كامل فى صحيفة الطان الفرنسية فى سبتمبر سنة ١٩٠٦ رداً على مقال نشرته عن الجامعة الإسلامية بين فيه حقيقة أغراضها ومرامها من حيث أنها رابطة تعاون وإخاء بين الشعوب الاسلامية هى فى أصولها بعض ما يهدف إليه العالم الإسلامى وما تحققه الأخوة التى طبع بها الإسلام شعوبه وأممه .

وحمل مصطفى كامل لواء الجهاد الوطنى فى الداخل وفى الخارج فبينا هو يدعو المصريين فى صحفه التى يصدرها فى مصر باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية وبخطبه التى يلقيها عليهم بين آونة وأخرى إلى المطالبة بحقوقهم ويحمل على سياسة الإنجليز فى وادى النيل فيلهب الشعور ويحيي موات الأمل فى النفوس إذا به يثير الدول على سياسة الاحتلال وعدوان انجلترا على البلاد وانتهاك الحقوق الشرعية التى كفلتها الدول لمصر فى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ تارة بأحاديثه إلى الصحف الأوربية الكبرى وتارة بخطبه فى الإجتماعات العامة التى يعقدها لهذا الغرض فى عواصم أوربا ، وكانت باريس أحفلها بدعايته ونشاطه فإن فرنسا كانت أكثر الدول الأوربية اهتماماً بالمسألة المصرية وأشدها غضباً للاحتلال البريطانى لمصر وظلت تستقبل دعاة الوطنية المصرية وروادها وتمهد لهم سبل الدعاية فى بلادها حتى أبرمت الإتفاق الودى مع انجلترا عام ١٩٠٤ فأغضت عن تشجيع الوطنيين ، وصدم هذا آمالهم فى صدق دفاعها عن حقوق مصر وإن لم يقض على نشاطهم ودعايتهم فيها وفى غيرها من البلاد الأوربية الأخرى .

وبلغ الشعور الوطنى فى مصر أوجه عندما وقع حادث دنشواى عام ١٩٠٧ وأصدرت المحكمة المخصوصة التى صدر قانونها عام ١٨٩٥ لمحاكمة من يتهم من الأهالى بالاعتداء على ضباط وجنود جيش الاحتلال أحكامها القاسية التى أثارت الرأى العام المحلى وامتد صداها إلى العالم الخارجى بالحملة التى شنها مصطفى كامل فى المحافل الدولية على جور الحكم البريطانى وقسوته فأثارت ثائرة الأحرار فى أوربا وفى غيرها على تلك الوسائل البربرية التى لجأت إليها بريطانيا ولم تجد الحكومة البريطانية بدآ من أن يعتزل كرومر منصبه حتى تدرأ عن نفسها تهمة الجور والقسوة التى لصقت بها وبحكمها فى مصر ، وكانت استقالة كرومر انتصاراً لمصطفى كامل .

ومالت سياسة المعتمد البريطانى الجديد الدن جورست إلى التقرب من الخديو حتى يفل من قوة الحركة الوطنية التى مالأها الخديو وعضدها ، ولكن الحركة الوطنية كانت قد اشتدت وبلغ الشعور الوطنى مداه وأعلن عن نفسه فى جنازة مصطفى كامل وسجل هذا الشعور قاسم أمين فى العبارة الآتية :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق والمرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى » .

وكان على الحركة الوطنية بعد قيام سياسة الوفاق وإبرام الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا أن تلجأ إلى وسائل جديدة غير وسائلها القديمة ، فإن المساعدات التى كانت تلقاها سواء من الخديو أو من الحكومة الفرنسية قد أصبح مشكوكا فيها بل أن البوادر أخذت تدل على مجافاة كل من الخديو وفرنسا للحركة الوطنية ، ودعوة الوطنيين .

وكان مصطفى كامل قد أخذ يؤمن بضرورة استقلال الحركة الوطنية عن الخديو وازداد إيمانه بذلك بعد أن قامت سياسة الوفاق ، كما ضعف إيمانه بمساعدة فرنسا ومعونتها بعد إبرام الإتفاق الودى وإقرار كل من ألمانيا والنمسا له ، وكانت تركيا قد شغلت بمشاكلها الخاصة ولم تعد تلقى بالا إلى مصر بعد فشلها الذريع فى طابا وتراجعها المزرى أمام بريطانيا ، ولكنه وإن كان قد عمل على إيقاظ الوطنية المصرية وإحياء همة الشعب المصرى بالإقبال على التعليم وضروب الإصلاح المختلفة معتمداً على نفسه دون معونة من الحكومة وأنشأ لهذا الغرض مدرسة مصطفى كامل ودعا المصريين إلى إنشاء المدارس الأهلية فنجح فى ذلك أبعد نجاح فى فترة قصيرة من الزمن إلا أن خطته الخارجية التى اعتمد فيها على العدالة الدولية والضمير العالمى قد انتهت بخيبة مريرة ولم تواته الفرصة لتغيير خطته والاتجاه بالكفاح الوطنى وجهة يرتضيها طموحه فقد وافته المنية بعد شهور قلائل من قيام سياسة الوفاق وميل الخديو ميلا تاما إلى مهادنة الاحتلال ، فى فبراير عام ١٩٠٨ .

ولكن الحركة الوطنية بعد وفاة مصطفى كامل اختطت نفس الأساليب التى جرى عليها فى حياته فسار محمد فريد على نفس أسلوب مصطفى كامل فى الدعاية للقضية الوطنية فى الخارج وإثارة الرأى العام وإذكاء الحماس الوطنى ضد الاحتلال فى الداخل ، فى وقت كانت أواصر الصداقة والتقارب قد اشتدت بين فرنسا وانجلترا ،

وكانت تركيا قد جفت الاهتمام بالمسألة المصرية وخاصة بعد أن انصرف الاتحاديون عن فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إليها كما بدت نزعة الخديو الاستبدادية على حقيقتها فلم يعد يبد ارتياحا للدعوة الوطنية واشتدادها .

ولقيت الحركة الوطنية من عسف الحكومة واضطهادها ما قلل من نشاطها بعض الشيء وإن لم ينل من قوتها واشتدادها فإن صحوة الشعب كانت قد اكتملت ولم يعد يجدى معه وعيد أو إرهاب وإن لقى دعاة الوطنية من ألوان الضيم والعسف ما حملهم على الهجرة فانتقل محمد فريد الذى تزعم الحركة الوطنية بعد مصطفى كامل إلى أوربا وأخذ يتابع نشاطه فيها لخدمة القضية المصرية بعد أن تكرر اعتقاله وسجنه ، وظهر أن الرغبة من سجنه واعتقاله هى القضاء على نشاطه والحد من دعوته .

ولما اشتدت حركة الصحافة الوطنية وبلغت من العنف فى مهاجمة الاحتلال والسياسة البريطانية فى مصر حداً لم يعد من الممكن السكوت عليه ، طلب جورست بعث قانون الصحافة الذى سن فى عام ١٨٨٢ مبيحاً للادارة حق إنذار الصحف وتعطيلها كما طلب سن قانون النفى الإدارى وصدر القانونان عام ١٩٠٩ فكان لصدورهما دوى ترك آثاره البعيدة فى البلاد فوقفت الصحافة ووقف الرأى العام يندبان الحريات المضاعة وزادت حدة الشعور الوطنى وغضب الرأى العام غضباً كان من شدته أن أقدم أحد الشباب المتحمس على اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى فى فبراير عام ١٩١٠ وهو الذى أصدر هذه القوانين ، وكان قد وقع من قبل اتفاقية السودان ، ورأس المحكمة المخصوصة التى أصدرت أحكامها القاسية على أهالى دنشواى ، فتجسمت فى شخصه كل أوضار الاحتلال كما يراها الشباب المتحمس .

ولجأت سياسة الاحتلال إلى إحدى وسائلها التقليدية فى حرب الحركة الوطنية فأثارت الفرقه بين المسلمين والأقباط وتهاجى الفريقان بالسباب والمقت وعقد المؤتمر القبطى عام ١٩١١ فى أسيوط ثم المؤتمر المصرى فى مصر الجديدة ردا عليه وكادت تكون فتنة تلفح وحدة الوطن بنيران الفرقة والإنقسام .

ثم أصيبت سياسة الوفاق بصدع قضى عليها بعد وفاة جورست وتعيين كتشنر معتمداً لبلاده فى مصر فقد سار كتشنر على سياسة كرومر القديمة فى الحد من سلطة الخديو وكانت بينهما جفوة قديمة تعود إلى أيام أن كان كتشنر سردارا للجيش المصرى وجرت حادثة الحدود وفيها أبدى الخديو نقده لبعض وحدات الجيش المصرى وغضب كتشنر لهذا واضطر الخديو للأعتذار عن نقده . ولم يجد الخديو فى موقفه الجديد نصيراً من الوطنيين بعد مواقفه القديمة منهم وهكذا انقلب الغاصب على من اتخذه وسيلة لتحقيق مآربه .

ولم يكن كتشنر يؤمن بقيمة النظم الديمقراطية الغربية فى الحكم للشعوب الشرقية وكان يراها بالنسبة لهم « كمسكر قوى يتناوله رجل بدائى من أواسط أفريقيا » ولكنه أمام ضغط الرأى العام واشتداد الحركة الدستورية فى البلاد رأى أن يعدل من النظام النيابى القديم فوضع مشروع الجمعية التشريعية وصدر بهذا التعديل القانون النظامى رقم ٢٩ لسنة ١٩١٣ بادماج المجلسين القديمين فى الجمعية الجديدة ومنحها حق اقتراح القوانين وسؤال الوزراء واقرار قوانين الضرائب المباشرة وجعل جلساتها علنية وكان رأيها استشاريا وتتكون من أعضاء منتخبين انتخابا عاما على درجتين وعددهم ٦٦ عضوا وسبعة عشر عضوا آخرين تعينهم الحكومة .

ورغم مالقيته الحركة الوطنية من مقاومة ولقيه دعاتها وأبطالها من اضطهاد فإن ثمارها التى أينعت كشفت عن عراقة أصولها وطيب رياها وزكاء غرسها فى اتجاهاتها التى بدت فى تلك الفترة الحرجة التى اجتازتها وهى أشد ما تكون إيمانا بمقاصدها وحقيقة أغراضها فسارت وهى تعتمد فى سيرها على قوة الشعب ويقظته وجهوده الخاصة بعيداً عن معونة الحكومة وتدخلها فقامت الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصرية ولم يمر عام ١٩٠٨ حتى فتحت أبوابها لرواد الثقافة والفكر الحر وحمل قاسم أمين لواء الدفاع عن حرية المرأة وحقوقها فوضع بذلك أول حجر فى ناحية من أهم نواحى النهضة الاجتماعية الحاضرة وعمد الشعب إلى إنشاء المدارس الأهلية حتى يسد النقص الذى يلقاه من قلة المدارس الحكومية وساهمت مجالس المديريات التى نفذ قانونها عام ١٩٠٩ فى نشر التعليم الإبتدائى ، وعندما أعلن الدستور فى تركيا عام ١٩٠٨ نشطت الحركة الدستورية فى البلاد وأخذ الشعب يطالب بالدستور حتى دفع الحكومة

إلى الاهتمام بتنفيذ قانون مجالس المديريات وجعل جلسات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية علنية وتقرير حق سؤال الوزراء فى مجلس شورى القوانين حتى تقنع الشعب بقيمته وجدواه ولـكن هذا التحايل لم يفت عليه واشتدت الحركة الدستورية عن ذى قبل ، وبدت قوة الوعى القومى وشدة حساسيته حين قاوم الشعب فـكرة مد أجل امتياز قناة السويس وعمل على فشلها .

وفى تلك السنوات القلائل التى سبقت الحرب العالمية الأولى وفى آخريات عام ١٩٠٧ بالتحديد ظهر حزب الأمة ولسان حاله «الجريدة» التى قام على تحريرها لطفى السيد أحد رواد الحركة الفـكرية والسياسية الحديثة فى مصر ونادى حزب الأمة بفـكرة بدت خافتة فى وقتها ولـكنها كشفت عن تطور خطير فى إدراك المعانى القومية على حقيقتها وكانت هـذه الفـكرة تدور حول تلك العبارة التى رددتها الجريدة مرارا وهى «مصر للمصريين» فقد قامت دعوة حزب الأمة على ضرورة توجيه الوعى السياسى والقومى فى مصر وجهة مصرية خالصة لا ارتباط بينها وبين دولة الخلافة فمصر التى سبقت شعوب الدولة العثمانية فى تحقيق كيان قومى خاص بها يكاد ينفصل تماما عن دولة الخلافة أجدر ما تـكون فى يومها هذا بتحقيق كيان قومى كامل لها لا يرتبط بدولة أخرى ولو كانت دولة الخلافة .

هكذا بدأت دعوة حزب الأمة فى وقت ضاقت فيه شعوب الدولة العثمانية التى ظلت خاضعة لها بركود حركة الإصلاح فيها كما ضاقت بمركزية الحـكم الصارمة التى سار عليها الاتحاديون فى تركيا وتعصبهم للعناصر التركية على العناصر العربية ، ولم يكن هناك بد من أن يقوم فى مصر بعض المفـكرين الأحرار ممن ينظرون إلى الأمور نظرة واقعية بالدعوة إلى فصل الحركة القومية فى مصر عن الارتباط بدولة الخلافة أو الاعتماد عليها بعد ما بدا من عجزها حيال المسألة المصرية والوقوف أمام انجلترا ومقاومة سياستها وأطماعها فى وادى النيل موقف المستسلم الراضى .

وبدت الحركة الوطنية فى مصر فى تلك السنوات القلائل التى سبقت الحرب العالمية الأولى وقد كشفت عن اتجاهاتها القومية الأصيلة ولم تـكن عواطفها من ناحية

الخلافة والدولة العثمانية إلا بعض تلك العواطف التى ربطت المسلمين فى بقاع الأرض بدولة الخلافة وبعض مايثور فى قلب المصريين من بغض وكراهية للاحتلال والدولة المحتلة جعلتهم يلتمسون الراحة فيمن يعاديها ويسير على هواهم فى كراهيتها وكانت تركيا فى ذلك الوقت قد ارتبطت بسياسة المانيا الشرقية ارتباطا بدافيه أنها قد انحازت تماما إلى دول الوسط ضد بريطانيا وحلفائها، وازداد تبعاً لذلك حب الألمان فى قلوب المصريين ماداموا يجتمعون معهم على كرهية الإنجليز .

ووافت الحرب وقد تجمع فى قلوب المصريين من بغض الإنجليز ماكان كفيلا باضرام ثورة جائحة تعرقل خططهم الحربية لولا أن بريطانيا سارعت بإعلان حمايتها على البلاد وفرضت عليها الأحكام العرفية ثم ملأتها أجنادا لاعداد لها أتت من وراء البحار لتدافع عن الامبراطورية البريطانية فى ميادين القتال التى تخوض رحاها ويقول ستودارد فى هذا أن نفوس المصريين كانت تعج بالثورة لولا أن ملأت بريطانيا وادى النيل من الجند ما لم يكن للمصريين قبل بها .

ومانتهت الحرب حتى قامت مصر بثورتها الخالدة دفاعا عن حقوقها تلك الثورة التى ظهر فيها الشعور الوطنى جياشاً جائحا يبين عن تلك القوى التى لعبت دورها الرائع فى بعثه وتقويمه وتوجيهه وجهته الصحيحة التى ظهرت فى إجماع المصريين على المطالبة بحقوقهم يدا واحدة لا فرق فيها بين مسلم وقبطى أو مثقف وجاهل أو غنى وفقير .

٤ ـ فارس :

خضعت فارس لنفس العوامل التى خضعت لها الدولة العثمانية وأدت فى النهاية إلى ظهور الوعى القومى الحديث ونشأة الحركة الدستورية فيها فقد ظلت تخضع طويلا كـكل بلدان الشرق الأوسط للأفكار والأنظمة والتقاليد التى سادت فى العصور الوسطى ولما بدأت تخرج من ظلام الماضى وتستقبل طلائع العصر الحديث كان الضغط الأوربى

قد أخذ يقع عليها وينوش أطرافها ويتغلغل فيها حتى يصل إلى طهران العاصمة وتصبح حكومة الشاه وقد غلب عليها النفوذ الأجنبى فكسبت روسيا من الإمتيازات والحقوق لرعاياها وتجارتها فى معاهدة تركمانجاى ما أصبح حقا تطالب به الدول الأوربية الأخرى .

وقد دخلت فارس فى نطاق الاهتمام الأوربى منذ وضع بطرس الأكبر قيصر روسيا قواعد السياسة الروسية فى التوسع والامتداد والوصول إلى البحار المفتوحة والمياه الدفيئة وأصبحت هذه القواعد عقيدة سياسية اعتنقها قياصرة روسيا من بعده وأضحت قاعدة أساسية فى سياسة روسيا الخارجية . وأخذ الروس منذ ذلك الوقت يتوسعون فى قلب آسيا ويقتصون من أطراف فارس الشمالية إلى الغرب من نهر آراس ويحاولون التسرب عبر أراضيها إلى مياه الخليج الفارسى .

وكانت فارس موضع اهتمام فرنسا كحلقة من حلقات الطريق البرى إلى الشرق البعيد ومنطقة تدخل فى نطاق مشروعاتها الإستعمارية فى الشرق تلك المشروعات التى شغلت بال فلاسفة الإستعمار الفرنسى وساسة فرنسا منذ القرن الثامن عشر بعد أن فقدت مستعمراتها فى الهند وأمريكا . ولما دخلت المشروعات الفرنسية فى طور التنفيذ بحملة نابليون على مصر ثم بحملته على سوريا كان من الواضح أن الخطوة التالية لاقتحام طريق الهند تقع فى فارس وحمل هذا انجلترا على الاهتمام بها فأرسلت إليها كابتن ملكولم لمفاوضة الشاة فى عقد معاهدة سياسية بينها وبين فارس .

ولم تبدا انجلترا اهتماما حقيقيا بفارس حتى ذلك الوقت رغم ما كان بينهما من علاقات تجارية قديمة ترجع إلى أوائل القرن السابع عشر . ثم تطور هذا الاهتمام بعد حملة نابليون على مصر وتهديدها المباشر لطريق الهند البرى وكان التوغل الروسى فى أواسط آسيا يثير قلقها على سلامه الهند وبدت أهمية فارس كحاجز ضخم يقف دون الوصول إليها واقتحام منافذها الشمالية الغربية وهى المنافذ التى تنتهى بها طرق الإقتراب الرئيسية إلى الهند من هاته الجهات ، وغلبت أهمية فارس الإستراتجية على أهميتها التجارية منذ ذلك الوقت وشغلت نزعة السيطرة عليها كلا

من الدولتين المتنافستين على أرضها وهما انجلترا وروسيا فلم يكن لغيرهما اهتمام حقيقى بها الا فى فترات قصيرة عندما كان يدخل عامل جديد فى سياسة الشرق الأوسط يمسها ويدخلها فى نطاق مشروعاته السياسية والاستراتجية وظهر هذا لفترة قصيرة عندما قام نابليون بحملته على مصر ثم مرة ثانية عندما شرعت المانيا فى تنفيذ سياستها نحو الشرق .

وسارت سياسة فارس وهى تتأثر بتنافس كل من الدولتين فى بلادها فطورا تميل إلى السياسة الانجليزية وتهادنها وطورا تميل إلى جانب روسيا وتشايعها وفى كل حالة كانت سيادة فارس على أراضيها تتهاوى تحت وطأة نفوذ كل منهما ، وضاق الشعب بوطأة هذا النفوذ الأجنبى وإن كان ضيقه أعظم بحكومته التى تركته يتسرب ويتوغل فى أراضيها ويكسب من الحقوق والامتيازات ما يعطل نهضة فارس وتقدمها فاتجهت الحركة الشعبية فيها إلى إصلاح أداة الحكم وتخليص البلاد من ربقة النفوذ الأجنبى وامتيازاته العديده .

وجاء هذا الإتجاه الشعبى فى النهاية كنتيجة للحالة السيئة التى وصلت اليها البلاد تحت حكم الشاه المطلق وبدت مساوىء هذا الحكم المطلق واضحة فى عهد ناصر الدين شاه الذى حكم فارس مابين عامى ١٨٤٨و١٨٩٦ ، ولم يكن ناصر الدين أسوأ من سابقيه حكما ولا أشدهم استبدادا بل كان فيه نزعة إلى الإصلاح وميل إلى التجديد واتجاه الى الحضارة الأوربية فى شىء من القصور والتردد هما بعض طبيعة العاهل المستبد وما يحيط به من بطانة السوء فبينا هو يدعو جمال الدين الأفغانى الى بلاده ويعده بالاصلاح المنشود إذا به يحمله قسرا مطرودا من بلاده فى قسوة بالغة وبينا هو يسوح فى بلدان أوربا ويطالع مظاهر الحضارة الغربية إذا به لا يشجع أبناء شعبه على النزوح اليها أو الالتحاق بجامعاتها وبينا هو ينشىء دار الفنون عام ١٨٥٢ ويستدعى إليها المدرسين الأوربيين إذا به لا يهتم بها الا من حيث إعداد ضباط للجيش ، ولكن الظروف الداخلية والخارجية التى أحاطت بحكمه ونمت فى عهده أبدت من مساوئه أكثر مما بدا من مساوىء غيره ، فقد اتسم حكمه بزيادة

الضغط الإنجليزى الروسى على البلاد وتغلغل النفوذ الأجنبى والانهيار المالى الذى أصاب ميزانية الدولة نتيجة لإسرافه والقروض العديدة التى عقدها مع البيوتات المالية فى كل من روسيا وانجلترا وما يتبعها من تغلغل نفوذ الدولتين فى مرافق البلاد الداخلية والاضطرابات التى حدثت فى عهده نتيجة لقيام الدعوة البهائية ومقاومة الشاه لها ومطاردته لأصحابها .

وكان حريا بهذا الضعف الذى أصاب فارس فى عهده أن يفقدها استقلالها ولكن تنافس الدولتين عليها قد حفظه لها وان لم يمنع تغلغل نفوذهما فيها وقد ظهر واضحا فيما كسبتاه من امتيازات اقتصادية فى البلاد فقد نال الانجليز امتياز مد خطوط برقية أهمها الخط البرقى من بغداد الى بوشير مارا بكرمنشاه وهمدان كما نال الروس امتياز صيد الأسماك فى مياه بحر قزوين الفارسية وأنشىء البنك الإنجليزى الأمبراطورى فى طهران عام ١٨٨٩ كما أنشىء بنك الخصم الروسى فى العام التالى لإنشاء البنك الإنجليزى ، وتوطد نفوذ البنكين وثبتت دعائمها فى فارس بتلك القروض التى عقدها الشاه فى كل من الدولتين بضمانتهما .

وجاء عامل آخر كان سببا فى قوة الحركة الشعبية وعرامتها ووضوح مناهجها وغاياتها وهو قدوم الأفغانى إلى فارس وكان ناصر الدين قد قابله فى ميونخ عام ١٨٨٩ ودعاه إلى صحبته إذ ألمت به نزعته للاصلاح أن ينتفع بعلمه وتجاريبه ، وأقام الأفغانى فى طهران يدعو لمبادئه ويبشر بدعوته فالتف حوله دعاة الاصلاح كما كانوا يلتفون به فى كل بلد ينزل فيه وأفسح له الشاه من نفسه ومن بلاده ولكن ما أن ألمت به نزعة الخوف على سلطانه حتى أمر بهفنفى من البلاد عام ١٨٩١ وكان قد أعتصم بمقام شاه عبد العظيم عندما أحس جفوة ناصر الدين وتنكره له ، ووافاه اليه جمع من أتباعه ومريديه ، ومن تقاليد فارس أن من اعتصم بهذا المقام فهو آمن فكان لانتهاك الشاه حرمة المقام المقدس وقع أليم فى أنحاء البلاد زاد من حدة السخط عليه كما زادها أوارا ما ألم بمريديه من ألم ظل حبيسا حتى نفس عن مكنونه باغتيال الشاه عام ١٨٩٦ على يد أحد اتباع الزعيم الديمقراطى كمال الدين وكان يقود الحركة الدستورية فى فارس واتصل بالأفغانى وحضر عليه واضطهده ناصر الدين ونفاه من البلاد بدوره .

وظل الأفغانى بعد نفيه يحمل على حكومة الشاه ويعدد مساوئها فى صحيفة أصدرها فى لندن ويدعو الفرس لخلعه ويتصل بزعماء البلاد وعلمائها ودعاة الاصلاح فيها حتى إذا منح الشاه امتياز احتكار التبغ فى فارس لبعض الممولين الأجانب أخذ يندد بخطر هذا الامتياز على اقتصاديات البلاد ويهيب بالفرس أن يقاوموه وكتب إلى زعيم فارس الدينى وكبير مجتهديها السيد ميرزا محمد حسن الشيرازى يحضه على مقاومة هذا الامتياز وكان أن تزعم كبير المجتهدين الدعوة إلى الغائه وأفتى بحرمة التدخين مالم يلغ الإمتياز ونزل الشاه على إجماع الشعب الرائع فى مقاطعة التدخين ومقاومة الإمتياز فأبطله مقابل تعويض قدره نصف مليون من الجنيهات وهكذا ظهر إجماع الشعب لأول مرة ضد رغبات الشاه ونزعته الفردية وبدا رائعا فى عهد مظفر الدين شاه الذى اعتلى العرش بعد اغتيال ناصر الدين شاه واضطره الى إعلان الدستور فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ ، ودعى المجلس للاجتماع فى أكتوبر من نفس السنة وقد مثلت فيه طوائف الأمراء ورجال الدين والتجار والأعيان ورجال الأعمال وكبار الملاك ولم يلبث الشاه طويلا حتى مات ولما يمض ثلاثة شهور على افتتاح المجلس وارتقى العرش بعده محمد على شاه ولم يكن فى قرارة نفسه يؤمن بالنظم الدستورية فبيت النية على تعطيل المجلس وإلغاء الدستور ولم يرده عن تنفيذ عزمه عام ١٩٠٧ إلا قوة الرأى العام الذى أخذ يتمثل فى الأحزاب السياسية التى نشأت بعد اعلان الدستور والصحف التى انتشرت فى البلاد تغذى الرأى العام وتنميه وكان أهمها صحيفتى «المجلس» و «صور اسرافيل» ثم عطف رجال الدين ولهم بين الفرس مكانة مرموقة على الحركة الدستورية وتشيعهم لها .

وظل الشاه على عزمه الـكمين فى القضاء على الدستور والتخلص من المجلس فاختار من القوزاق كتائب حرسه الخاص بعد أن عهد بتدريبها وقيادتها إلى ضباط من الروس لتكون له درعا يحميه من ثورة الشعب ، واتخذ من محاولة اغتياله عام ١٩٠٨ وسيلة لحل المجلس وكان قد ترك العاصمة وانتقل إلى مقره الصيفى فسير حرسه القوزاقى إلى طهران للقبض على زعماء المجلس وهدم بنائه واقترح عليه الروس تعيين مجلس من أربعين عضوا بدل المجلس المنتخب .

وقامت الثورة ضد الشاه فى تبريز متأثرة بنجاح الاتحاديين فى ثورتهم ضد السلطان عبد الحميد فى تركيا ، فسير اليها جنوده القوزاقية التى احتلت المدينة فى أبريل سنة ١٩٠٩ ولكن الثورة مالبثت أن وجدت عونا لها فى قبائل البختيارى الذين دخلوا طهران فى ١٣ يوليو سنة ١٩٠٩ بعد أن تغلبوا على مقاومة جنود الحرس القوزاقى ولم يجد الشاه حماية إلا فى التجائه إلى السفارة الروسية ، فعزله الوطنيون وأقاموا بدلا منه ابنه الصغير تحت وصاية أسد الملك كبير أسرة قاجار ونزح الشاه المخلوع إلى أوربا ولم تنقطع محاولاته لاستعادة عرشه اعتمادا على مؤازرة الروس له ولكن دون جدوى .

ولكن هذا الميراث الثقيل من سيئات العهد القديم لم يتح لفارس فرصة لاستعادة انفاسها فظلت تلهث تحت وطأة النفوذ الأجنبى الذى تحالف عليها بعد أن أبرم الاتفاق الودى عام ١٩٠٧ بين بريطانيا وروسيا لتقسيم مناطق النفوذ فى أرضها ، وساءت الحالة المالية فى البلاد ولم تفلح بعثة مورجان شوستر الأمريكية التى استدعتها الحكومة الجديدة لتنظيم مالية الدولة فى إعادة الثقة إلى النفوس .

وهكذا خضعت الحركة الدستورية فى فارس لنفس العوامل التى خضعت لها فى فى تركيا وأهمها عنف الضغط الأجنبى الذى وقع على الدولتين فى وقت واحد ثم تغلغل النفوذ الأوربى فيهما واستبداد الشاه والسلطان وحكمهما المطلق كل فى ملكه ، وكانت هذه الحركة الدستورية فى كل من تركيا وفارس مظهرا لتطور الفكرة القومية فى الدولة ولكنها فى تركيا كانت تختلف عنها فى فارس فإن تركيا تخضع تحت سلطانها شعوبا وأجناسا مختلفة لا تربطها قومية واحدة فاتجهت الحركة القومية فيها وهى متأثرة برغبة الإبقاء على وحدة الدولة العثمانية فأنكرت ما بدا عند بعض الأتراك من نزعة طورانية وإن بقى التعصب للعنصر التركى بينا فى اتجاه زعماء الإنقلاب الدستورى وظهر تمجيد الأتراك لأصولهم الأولى ومقومات جنسهم التركى عند هؤلاء البعض من الأتراك الذين بهرتهم الدعوة الطورانية حتى كشفت النزعة القوميه عند الأتراك عن قوتها بعد ما لم يعد هناك مايحول دون ظهورها عقب انهيار الدولة العثمانية فأخذوا يتجهون اتجاها قوميا يستمد أصوله من تاريخ الترك القديم وتمجيد العنصر التركى واللغة التركية وعادات الأتراك

وتقاليدهم الأولى . أما فارس فكان لها من من سمات الدولة القومية ما لم يكن للدولة العثمانية فإنها لم تتوسع ما توسعت الدولة العثمانية ولم تبسط سلطانها على شعوب تختلف عنها فى الجنس واللغة والدين ما بسطت الدولة العثمانية سلطانها على شعوب وأجناس عديدة لها سماتها وتقاليدها القومية ، وكانت سبباً فى ضعفها عندما تهاوى سلطان الدولة عليها فى سنيها الأخيرة ، وظلت تحتفظ بوحدة أراضيها وشعبها وتعتز بتقاليدها ولغتها وثقافتها ومذهبها الدينى مايعتبر أساسا للدولة القومية وإن ظلت تخضع لتقاليد العصور الوسطى فى الحكم والدولة ونظام المجتمع ما يبعد بينها وبين روح القوميات الحديثة ، التى تميزت بالقضاء على معالم النظام الإقطاعى الذى مهد بأفوله لظهور الطبقة البورجوازية وسيادتها ، كما تميزت بتقرير علاقة الفرد بالدولة تلك العلاقة التى تستمد أصولها من وثيقة حقوق الإنسان فى الثورة الفرنسية عام ١٨٧٢ ، ورابطة الدولة بالوطن وسيادتها على أراضيه .

وظلت فارس تعيش فى تقاليد العصور الوسطى ونظمها حتى بدأ الوعى القومى فيها يكشف عن اتجاهاته الدستورية فكان هذا إيذانا بخروجها من العصور الوسطى واستقبالها طلائع العصور الحديثة ، ولكن فارس ظلت رغم هذا بعيدة عن الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية ، ويقول كيرك مؤلف « مختصر تاريخ الشرق الأوسط » :

« أن الموجة الغربية وصلت فارس بعد أن مرت بمصافى استانبول وموسكو وبومباى فأضعف هذا من تأثيرها » ويقصد كيرك بذلك أن تأثير الحضارة الغربية فى فارس تم عن طريق اتصالها بالإنجليز فى الهند وبالروس والأتراك على حدودها الشمالية والغربية فكان فيها أضعف منه فى بلدان الشرق الأوسط الأخرى فلم يكن لفارس من الاتصال الفكرى المباشر بأوربا ما كان لمصر والشام مثلا .

وجاء تأثير الحضارة الغربية فى فارس عن طريق التجار والمهندسين والفنيين والرحالة الأوربيين الذين كانوا يقيمون فيها لرعاية مصالحهم التجارية أو البحث عن آثارها القديمة أو لخدمة الحكومة الفارسية التى استدعتهم للعمل فى وظائفها أو يمرون فيها بقصد التجوال والرحلة والمشاهدة فكانت آثارهم الفكرية ضعيفة إلى جانب ما تركته الإرساليات التعليمية والتبشيرية فى الشام أو ما تركه الاحتكاك الأوربى المباشر

بمصر من آثار وجدت تشجيعا من حكامها ما لم تجده فى فارس ، ففى الوقت الذى كانت بعوث محمد على وإسماعيل التعليمية تترى على أوربا كان ناصر الدين شاه مثلا وهومعاصر لإسماعيل ، لايشجع أبناءشعبه على الارتحال أوالالتحاق بالجامعات الأوربية وجرت سياسته العامة على الحد من إرسال البعوث العلمية إلى الخارج أو الالتحاق بالجامعات الأوربية ، حتى لمن تمكنهم مواردهم المالية من الالتحاق بها على نفقتهم وفى الوقت الذى انتشرت فيه الصحافة فى مصر وتركت آثارها العميقة فى توجيه الرأى العام وقيادته لم تكن هناك صحافة قط فى بلاد فارس يمكن أن نعتبرها صحافة شعبية ولم ينشط هذا النوع من الصحافة فيها إلا بعد إعلان الدستور عام ١٩٠٦ ، ومن المعروف أن أول دورية صدرت فى فارس كانت عام ١٨٥١ أصدرها الشاه ناصر الدين لنشر قوانين الحكومة ومنشوراتها .

ورغم إعلان الدستور وقيام الحياة النيابية فى فارس فإنها بقيت نهب الفوضى والارتباك لتغلغل نفوذ الدولتين المتنافستين عليها واتفاقهما على اقتسام مناطق النفوذ فيها عام ١٩٠٧ وفشل شوستر فى إصلاح ماليتها حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى أعلن الشاه حياد بلاده ولكنها لم تسلم من أوضار الحرب وآثارها المقيتة ثم قيض الله لها أحد أبنائها محمد رضا بهلوى ، فاستطاع أن ينهض بها ويسترجع سيادتها على أراضيها ويقضى على كثير من ألوان النفوذ الأجنبى والإمتيازات الأوربية ويحقق لفارس كيانها القومى الصحيح تحت مسماها الجديد إيران .

الفصل العاشر

الحرب العالمية الأولى

والشرق الأوسط

شهدت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تفوق الحضارة الأوروبية وسيادتها ، وتقدم الوعى الإنسانى ، وغلبته ، وتقرير حقوق الإنسان وحرياته ، فتم القضاء على الرق ، وكفلت الدساتير وشرائع الحكم فى الدول حريات الفرد فأصبحت حرية العقيدة ، وحرية العبادة ، وحرية الرأى والخطابة ، والنشر والاجتماع قواعد مقررة فى كل الدساتير حتى فى أشد الدول رجعية واستبدادا ، وتطورت الأنظمة الديمقراطية حتى بلغت درجة من الكمال حققت للأمم سيادتها التامة على كل شئونها واتجاهات سياستها الداخلية والخارجية . وانتشر التعليم حتى أصبح حقا لكل مواطن تكفله له الدولة وترعاه ، وحفلت دور العلم بروادها ، وازداد الإقبال على القراءة ، فعمت دور الكتب ، وانتشرت الصحف ، وأضحت للصحافة مكانتها الرفيعة فى الأمم التى تدين بحرية الرأى والدفاع عن حرياته وحقوقه واتجاهاته فغدت سلطة رابعة إلى جانب سلطات الدولة الثلاثة .

وفى غمار الإتجاه القومى للأمم والشعوب ، واحتدام الفكرة القومية ، وقيام الدولة القومية الحديثة تقدمت الفكرة الدولية ، وظهرت حاجة المجتمع الدولى إلى الترابط والتآخى والتعاون فكانت المؤتمرات الدولية لتبادل المعونة ، ودعم أواصر الوحدة العالمية والحد من المنازعات الدولية ، ومنع الحروب ، وتحقيق رفاهية بنى الإنسان .

وفى تيار هذه النزعة العالمية للتعاون والتآخى بقيت النزعة القومية سائدة ومصلحة الدولة تقضى على كل ماعداها من مصالح مشتركة ، فأقيمت الحواجز الجمركية الصارمة ، وأخذت الحكومات تتدخل فى إدارة الأعمال التجارية والصناعية دفاعا عن مصلحة الدولة ومصلحة الأفراد ، فاحتدم التنافس الاقتصادى بين الدول وأضحى فى حقيقته مثار كل نزاع بينها ، ومحكا تحتدم عنده الخصومة والإحن الدولية ، وصخرة يتحطم عليها كل جهد يبذله رواد الخير والسلام للحد من مرارتها ، وما يمكن أن تجلبه من شر على العالم .

وكان للانقلاب الصناعى أثره العميق فى احتدام التنافس العالمى حول مواطن الخامات ، ومصادر الإنتاج ، وأسواق الاستهلاك ، فنشطت قوى الاستعمار وكانت مثار الأزمات السياسية التى عج بها العالم والحروب الدامية التى اكتوى بنارها ، وتمت غلبة الرجل الأبيض فى كل صقع من أصقاع العالم ، فكانت هذه الثورات الدامية للشعوب التى تكافح للتخلص من نيره والفكاك من استعباده واستغلاله مواردها وخيراتها . وكانت شعوب الشرق الأوسط من بين هذه الشعوب التى عانت أوضار الاستعمار ومساوئه ، والتى تكافح للفوز باستقلالها وسيادتها وحرياتها .

وجد عامل جديد بنزول ألمانيا وإيطاليا إلى ميدان الاستعمار ، وكانتا قد فاتهما شوطه لتأخر وحدتهما ، فجعلتا تلهبان سياط الاستعمار ، وتنفسان على القوى الاستعمارية الكبرى سبقها فى هذا الميدان مما أورى لهيب التنافس الاستعمارى وزاد من حدته واشتعاله .

وكان هناك عامل آخر ارتبط بظهور ألمانيا وتحقيق وحدتها على يد جماعة من أساطين العسكرية البروسية تحت زعامة بسمارك ، وترك من الآثار البعيدة فى تطور السياسة الدولية ما يفوق آثار نزولها إلى ميدان الاستعمار ، وما جره من احتدام التناقس الاستعمارى بينها وبين القوى الاستعمارية الكبرى ، فقد كانت

الحرب ضد فرنسا عام ١٨٧٠ آخر حرب سعى إليها بسمارك لتحقيق اتحاد ألمانيا وصحب انتصاره عليها إذلال لفرنسا ظل يدفع الفرنسيين للثأر والإنتقام ويملأ نفوسهم من الضغائن والأحقاد ما سيطر على نفسية الشعبين المتجاورين طوال الفترة التالية من تاريخها الحديث ، ولم يكن تتويج الملك ولهلم امبراطوراً فى صاله المرايا بقصر فرساى فى ١٦ إبريل سنة ١٨٧١ هو ما حز فى نفوس الفرنسيين بل كان فرض معاهـدة فرنكفورت على فرنسا بعد سقوط باريس فى ١٠ مايو هو ماجرح كبرياءها وحز فى نفوس أبنائها فقد فرضت المـانيا أن تستولى من فرنسا على متز واستراسبورج فضلا عن الألزاس واللورين وأن تدفع فرنسا غرامة حربية باهظه ويبقى جزء من أراضيها محتلا حتى تنفذ شروط المعاهدة .

ولم يفت بسمارك أن فرنسا ستهب إن عاجلا أو آجلا للثأر من ألمانيا واستعادة الولايتين المفقودتين ، فسار فى سياسته الخارجية وهو يقدر تماما هذا الاعتبار وكان يعلم أن فرنسا لن تقدر على ألمانيا إلا إذا تحالفت ضدها مع الدول الأخرى كما كان يدرك تماماقيمة هذا التحالف الدولى ضدألمانيا على نحو ما كان ضد شارل الخامس ولويس الرابع عشر ونابليون فعمل جهده على عزل فرنسا والارتباط بالقوى الكبرى التى يمكن أن تتحالف معها كما جفا سياسة الاستعمار حتى لا يثير ثائره القوى الاستعمارية عليه وكان يعتقد فى قرارة نفسه أن مجال ألمانيا الحيوى هو فى أوربا وإن المستعمرات لألمانيا ليست على حد قوله إلا « كتلك المسوح الحريرية التى يرتديها النبيل البولندى وليس تحتها ما يغطى جسمه » وإن ألمانيا الناشئة يجب أن لا يلهيها عن العناية بمرافقها الداخلية نشاط استعمارى من أى نوع كان ، وسار فى سياسته الداخلية على دعم قوة ألمانيا الحربية وتفوقها العسكرى خوفا من أن تفجأها فرنسا بالحرب وهى غير مستعدة لها ، ونشأت بذلك حالة خطيرة فى المجتمع الأوربى أخذت تسيطر على اتجاهات السياسة الدولية وتسوق أوربا سريعا نحو المجزرة القادمة التى لم يعد هناك بد من أن تقع فى يوم ما وزاد من خطورتها اتجاه ألمانيا بعد اعتزال بسمارك نحو الاستعمار مما أورى لهيب التنافس الاستعمارى وزاد من حدة النزاع وأبعد هوة الخلاف بين المتنازعين ، واندفعت الدول إلى تسليح نفسها ودعم قواتها الحربية وساد مبدأ القوة وأصبح يسيطر على اتجاهات السياسة الدولية فقامت المحالفات وأبرمت المعاهدات العلنية والسرية بين

الدول لتأمين كيانها من فجاءات الحرب وشرها البادى فى المستقبل القريب ، واتسمت الفترة التى تلت معاهدة فرنكفورت بتلك المحالفات الدولية التى أفضت إلى انقسام أوربا إلى معسكرين كبيرين متنازعين يجدان فى سباقهما الجنونى نحو التسلح ودعم قواتهما الحربية حتى عرفت تلك الفترة التى سبقت الحرب بفترة السلم المسلح وآذنت الحرب القادمة بإمتداد أوارها إلى كافة أنحاء العالم القريب والبعيد وبداية ما يعرف فى تاريخ الحروب بالحرب الشاملة .

المحالفات الدولية

التحالف الثلاثى :

عمل بسمارك بعد معاهدة فرنكفورت على تنفيذ سياسته فى عزل فرنسا فتقرب من النمسا التى جاملها مجاملة عظيمة غداة انتصاره عليها فى «سادوا» كما تقرب من الروسيا التى كان لحيادها فى الحروب التى خاضتها بروسيا أعظم الأثر فى نجاح الاتحاد الألمانى وتكوين الدولة الألمانية الجديدة وتم اتحاد الأباطرة الثلاثة Dreikaiser Bund عام ١٨٧٢ .
وأعلن بسمارك أن الدولة الألمانية الجديده هى دعامة السلم فى أوربا ، على أن إرتباط قيصر روسيا باتحاد الأباطرة الثلاثة لم يكن مقدرا له أن يستمر طويلا فإن سياسة النمسا وأطماعها فى البلقان ما كان يمكن أن تتجاوب مع سياسة روسيا حيال الدولة العثمانية ورغبتها فى السيطرة على الشعوب السلافية وكان على بسمارك أن يختار بينهما فاختار النمسا فقد كان يخشى خطر التوسع الروسى على ألمانيا كما كان يخشى إخلال الروسيا بتوازن القوى فى شرق أوربا إذا ما ترك لها أن تنفذ سياستها فى البلقان أو تعمل على انهيار امبراطوية النمسا والمجر وأعلن بسمارك رأيه إلى قيصر روسيا عندما استوضحه موقف ألمانيا إذا ما نشبت الحرب بين الروسيا والنمسا عام ١٨٧٦ بإنها لن ترض بأن تفقد إحدى الدولتين استقلالها أو بمعنى آخر لا تسمح ألمانيا بأن تفقد امبراطورية النمسا والمجر كيانها الدولى .

وظهرت نوايا بسمارك الحقيقية حيال مصالح روسيا وأطماعها فى البلقان وفى الدولة العثمانية فى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ غداة انتصارها على تركيا فقد حملها على قبول مشيئة الدول وتضحية مصالحها فى البواغيز وبين الشعوب السلافية فى البلقان بينما عزز مطالب النمسا وأيد مصالحها فى البلقان وأصبح من المنتظر أن تنسحب

روسيا من التحالف الودى وينهار اتحاد الأباطرة الثلاثة ولاسيما بعد أن علمت روسيا بأمر المحالفة الثنائية التى عقدت بين ألمانيا والنمسا عام ١٨٧٩ ، وكان أهم ما نصت عليه أن تنجد كل منهما الأخرى إذا وقع على أى منهما عدوان من جانب روسيا وأن تلتزم كل منهما الحياد المشرب بالعطف إذا كان العدوان من جانب دولة أخرى ، أما إذا انضمت روسيا إلى هذه الدولة ، فإن على كل منهما أن تنجد الأخرى فى هذه الحالة .

ولكن بسمارك استطاع بدهائه أن يؤخر هذه النتيجة المحتومة وعمل على تضليل روسيا عن مصالحها الحقيقية ونجح فى تجديد اتحاد الأباطرة الثلاثة باتفاق أبرم فى برلين عام ١٨٨١ وجدد مرة أخرى عام ١٨٨٤ ، على أساس تبادل الضمان فيما بينها واحتفاظ كل منها بالحياد المشرب بالود إذا اشتبكت إحداها فى حرب مع دولة أخرى على أنه إذا كانت تركيا هى هذه الدولة فإن على الدول الثلاث أن تتفق على النتائج قبل امتشاق الحسام ، ولم ينقض تجدد اتحاد الأباطرة الثلاثة ما نصت عليه معاهدة التحالف الثنائى بين النمسا والمانيا عام ١٨٧٩ .

وأوشك اتحاد الأباطرة الثلاثة أن ينهار عندما لمست روسيا تأييد المانيا لمطامع النمسا فى البلقان ، فلجأ بسمارك إلى آخر قوس فى جعبته ليحول بين روسيا والتحالف مع فرنسا ، فعقد معها اتفاقا ثنائيا على أساس تبادل الضمان عام ١٨٨٧ ويدور حول احتفاظ كل منهما بالحياد الودى فى حالة حرب بين إحداهما ودولة أخرى ، واعترفت المانيا فيه بنفوذ روسيا فى البلقان ، وأن يسرى فى هذا الاتفاق ما تضمنه اتفاق الأباطرة الثلاثة خاصا بإرغام تركيا على إغلاق البواغيز فى وجه السفن الحربية .

ولكن بسمارك لم ينزع عن تأييد سياسة النمسا فى البلقان وكشف النقاب عن حقيقة مراميه عندما ثارت مسألة بلغاريا عام ١٨٨٧ فأعلن تأييده صراحة للنمسا ، وانهارت معاهدة الضمان بين المانيا والروسيا وأخذت روسيا تولى وجهها نحو فرنسا ، وجاء سقوط بسمارك عام ١٨٩٠ ليعجل بهذه النهاية .

وقد أصبح التحالف الثنائى الذى أبرم بين النمسا والمانيا عام ١٨٧٩ ثلاثيا بانضمام إيطاليا إليه عام ١٨٨٢ غضبا من احتلال فرنسا لتونس التى كانت ترنو إليها هى الأخرى وللتخلص

من متاعبها المالية التى ألمت بهـا بعد الوحدة فقد كانت ترى فى ارتباطهـا بالتحالف الثلاثى تفريجا لأزمتها الاقتصادية ، غيرأن العوامل التىأدت إلى انهيار اتحاد الأباطرة الثلاثة هى بعينها التىأدت إلى ضعف التحالف الثلاثى فإن أطماع إيطاليا فى البلقان وفى شرقى البحر الأبيض المتوسط كانت تقف دونها أطماع النمسا ومصالحها فيهما ، فضلا عن أن الأحقاد القديمة التى تخلفت عن حروب الوحدة الإيطالية مازالت باقية تثور بينهما . وزاد من ضعف موقف إيطاليا فى التحالف الثلاثى ما بذلته المانيا من معونة لتركيا فى حربها مع إيطاليا عام ١٩١١ .

الوفاق الثلاثي :

عمل بسمارك طوال حياته السياسية على عزل فرنسا ونجح إلى أبعـد مدى فى الإبقاء على روسيا فى نطاق التحالف الودى بعيدة عن فرنسا حتى نهاية حياته السياسية رغم وضوح السياسة الألمانية فى وقوفها أمام الجامعة السلافية والانتصار لمصالح النمسا فى البلقان . ولـكن سقوط بسمارك عام ١٨٩٠ ساعد على تقارب روسيا وفرنسا ، يدفع روسيا تعرض مصالحها للخطر وحاجتها الشديدة للمال لتنمية صناعاتهـا الناشئة ويدفع فرنسا شعورها بالعزلة الدولية وحاجتها إلى المعونة الخارجية أمام قوة التحالف الثلاثى ، وقد رحبت فرنسا بالبعثة التى أوفدها قيصر روسيا إليها عام ١٨٨٨ لتوطيد أواصر الصداقة بين البلدين ، وسارعت بتغطية القرض الذى طلبته روسيا . ثم عقدت الدولتان اتفاقا سـياسياً عام ١٨٩١ ما لبثت أن ردت عليه المانيـا بتجديد التحالف الثلاثى فى نفس العام وفى عام ١٨٩٣ عقدت الدولتان اتفاقا حربيـاً أساسه تبـادل المعونة الحربية ضد المانيا وحلفائها .

ولما تولى ديلـكاسيه قيادة السياسية الفرنسية عام ١٨٩٨ وجهها توجيهاً صريحا نحو تطويق المانيا والعمل على إعادة التوازن الدولى فى أوربا وأجابت المانيا على ذلك بتجديد التحالف الثلاثى عام ١٩٠٢ والعمل على ربط دول أوربا الوسطى فى اتحاد

اقتصادى سياسى يطابق نظام الزولفرين على أن يمتد هذا الاتحاد من البلجيك وهولندا إلى بلاد البلقان .

وقد ازداد موقف فرنسا منعة بعد التقارب الذى تم بين السياستين الإنجليزية والفرنسية فقد باعد التنافس الاستعمارى بين الدولتين فيما مضى وكان تضارب مصالحهما فى وادى النيل ومقاومة انجلترا لأطماع فرنسا الاستعمارية فى الشرق الأوسط يزيد من هوة هـذا التباعد حتى شغلت فرنسا بشئونها الداخلية وبالخطر الجاثم على حدودها الشرقية عن التورط فى مشاكل خارجية تلهيها عن قضيتها الوطنية وكان حادث فاشودة عام ١٨٩٨ آخر احتكاك يقع بين الدولتين فانصرفت فرنسا إلى الاهتمام بمشاكل القارة السياسية وما تقوم به ألمانيا من سعى لعزلتها وتطويقها وسارت بفضل سياسة ديلكاسيه إلى التقرب من انجلترا وكانت انجلترا بدورها قد أخذت تشعر بأوضار العزلة السياسية التى وضع قواعدها السياسى الشهير كاننج ، فى عالم يموج بالمحالفات والارتباطات السياسية والحربيـة وحمى التسلح والتأهب للحرب كما أخذت تشعر بعنف الأطماع الألمانية ونزعة ألمانيا الجديدة إلى الفتح والاستعمار والسيطرة الاقتصادية على أسواق العالم فأسرعت إلى التقرب من فرنسا وأبرمت الدولتان الاتفاق الودى فى أبريل عام ١٩٠٤ وهو المعروف باتفاق لانسدون ـ ديلكاسيه وبقيت بعض نصوصه الخاصة بمصر ومراكش سرية حتى عرفت عام ١٩١٤ .

ويدور الاتفاق الودى حول تسوية المشاكل المختلف عليها بين الدولتين فى نيوفوندلاند وسيام ومدغشقر وكان أهم مايتناوله مسألتى مصر ومراكش وانطوت شروطه السرية على أطلاق يد انجلترا فى مصر مقابل أطلاق يد فرنسا فى مراكش كما انطوت على تفصيلات دقيقة عما تتمتع به كل منهما من حقوق وامتيازات وضمانات فى منطقة نفوذ الأخرى كحرية التجارة وحرية المرور فى قناة السويس وحقهما فى فى الغاء الامتيازات متى أرادتا ذلك وحق فرنسا فى بسط نفوذها على مراكش متى زال حكم السلطان عنها عدا شقة ضيقة تترك لأسبانيا وإن حرصت انجلترا على النص فى الإتفاق بمنع إقامة تحصينات أمام جبل طارق .

وكان ديلكاسيه قد نجح فى خلخلة التحالف الثلاثى بالعمل على اخراج إيطاليا منه بالتلويح لها بتحقيق أطماعها فى طرابلس واستطاع أن يحملها على توقيع وثيقة الحياد وسبقها اعلان ايطاليا أنها لاتقصد من اتفاقها مع ألمانيا والنمسا التألب على فرنسا فكان لإعلانها هذا صدى أليما فى نفوس الألمان والنمسويين على أن المانيا وجدت فى تركيا حليفا يحل محل ايطاليا إذا ما حملتها أطماعها على الانسحاب من التحالف الثلاثى .

وعزز من المحالفة الفرنسية الروسية والإتفاق الودى التقارب الجديد الذى تم بين انجلترا وروسيا بعد أن ظل التنافس بينهما محتدما قبل ذلك ، فقد كانت أطماعهما الاستعمارية تتقابل وتتصادم فى الشرق فإن روسيا كانت تتوسع فى آسيا وأغارت على المناطق المجاورة لأرمينيا وتسربت إلى بلاد فارس وأخذت توطد نفوذها فيها وجعلت تتقدم فى التركستان وتبسط نفوذها بطريق خط حديد سيبريا فى الصين وتقترب بذلك من مناطق النفوذ الإنجليزى فى مواطن عديدة مما كان ينذر فى كثير من الأحيان بأزمات تصعب على الحلول إلا أن يمتشق فى سبيل حلها الحسام .

ولكن هزيمة الروسيا أمام اليابان عام ١٩٠٥ وانصرافها عن آسيا إلى البلقان قد خفف من حدة التوتر بينها وبين انجلترا ، وجاء اتفاقهما على اقتسام مناطق النفوذ فى فارس عام ١٩٠٧ قاضيا على كل خلاف بينهما ، فأخذتا تتقاربان تحت ضغط الظروف الدولية فى أوربا وقام الارتباط بين الدول الثلاث وعرف بالوفاق الثلاثى وأصبح يوازن التحالف الثلاثى وبات من المؤكد أن الحرب واقعة بين المعسكرين عندما تلهب الشرارة برميل البارود .

السياسة الإلمانية نحو الشرق : Drang Nach Osten

لم تكن لألمانيا حتى عام ١٨٧٠ أطماع أو مصالح فى الشرق الأوسط تدفعها نحوه ولم يكن لها من الأثر فى ربوعه إلا ما كان لإرسالياتها الدينية من نشاط فى منطقة اللفانت ، وظلت جريا على سياسة بسمارك بعيدة عن كل نشاط استعمارى يمكن أن يثير عليها قوى الاستعمار الكبرى أو يؤلبها عليها فيعرقل قوتها الناشئة أو يحول

دون تحقيق سياستها فى عزل فرنسا ، ولكن سقوط بسمارك واستئثار الإمبراطور الشاب ولهلم الثانى بالحكم فى ألمانيا كشف عن أطماع ألمانيا الجديدة ونزعتها الإستعمارية فأقامت قواعد سياستها الشرقية على هذا الأساس واتخذت من الدولة العثمانية قنطرة تعبر عليها إلى مناطق السيادة والنفوذ فى العالم ، فقد كان تفوق انجلترا البحرى يحول بينها وبين ولوج البحار والطرق البحرية فاتخذت من الطرق البرية معبراً لتجارتها ونفوذها وأطماعها الاستعمارية .

وبدأت تركيا تتجه إلى الاستعانة بالفنيين والخبراء الألمان أثر بروز هذه الدولة الناشئة بقوتها الفتية وسطوتها العسكرية فى أوربا فاستعانت بمهندس ألمانى عام ١٨٧٢ فى إنشاء شبكة الخطوط الحديدية فى البلقان وكانت صداقة كل من دولتى الغرب فرنسا وانجلترا بالدولة العثمانية قد أخذت تتهاوى تحت ضغط الدولتين وأطماعهما البادية فى أملاكها فإن فرنسا كانت تتطلع إلى منطقة اللفانت وتثير القلاقل فى ربوعها بغية توطيد نفوذها فيها والسيطرة عليها ، وكانت انجلترا تقتص من أطراف الدولة وتوطد نفوذها فى الخليج الفارسى وعلى شواطىء شبه الجزيرة العربية ثم احتلت قبرص عام ١٨٧٨ ومصر عام ١٨٨٢ ، ولم يجد السفير الألمانى فى الآستانة صعوبة فى إقناع السلطان عبد الحميد عام ١٨٨٣ بالاستعانة بالضباط الألمان فى تنظيم وتدريب الجيش العثمانى .

ولما قاربت خطوط حديد البلقان على تمامها عام ١٨٨٦ وكانت رغبة السلطان تتجه نحو مدها إلى الأناضول وعرض المشروع على المموّلين الأمريكيين والإنجليز رفضوه ولم يقبله غير الألمان ، وإن اكتتب فيه الإنجليز بأكثر من ربع رأس المال ، وتكونت شركة حديد الأناضول عام ١٨٨٨ وأخذت على عاتقها مد الخط الحديدى إلى أنقرة .

وهكذا مهدت سياسة دولتى الغرب نحو تركيا إلى التقارب بينها وبين ألمانيا حتى إذا بدأت ألمانيا تنزل إلى ميدان الاستعمار وجدت الطريق معبداً أمامها فى الآستانة وجاءت زيارة القيصر ولهلم الثانى للسلطان فى الآستانة عام ١٨٨٩ وهو العام التالى لاعتلائه العرش مؤذنة بزيادة النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانيـة وارتباط الدولتين

بعضهما ببعض ارتباطا وثيقاً ، وفى زيارة القيصر تم الاتفاق على مشروع الخط الملاحى بين موانىء اللفانت وبحر الشمال . وفى العام التالى أبرم اتفاق تجـارى بين البلدين ، ولم يكن من رأى السياسى العجوز بسمارك التوسع فى أمثال هذه الإتفاقيات بين المانيا والدولة العثمانية حتى لا تثير قلق روسيا وعداوتها ، وهى التى عمل جهده على ربطها بدول التحالف الثلاثى ضماناً لعزلة فرنسا التى كانت تجد فيها حليفا طبيعيا فى شرق أوربا يكفل لها توازن قواها بقوى المانيا فى القارة .

ولـكن التقدم الصناعى فى المانيا وزيادة سكانها ونموهم المطرد ، وتوسعها الاقتصادى وحاجتها إلى أسواق خارجية وضعف أسطولها التجارى قد جعلها تبحث عن مجال لتصريف منتجاتها عبر الطرق البرية بدلا من الطرق البحرية ، ولم تعد سياسة بسمارك تجد لها صدى عند الألمـان أو عند القيصر الذى يتمثل فى طموحه طموح المانيا ونهضتها الجديدة ، ولم يعد أمام السياسى العجوز إلا أن يترك قياد المانيا للقيصر الشاب ، وينزل على إرادته فى اعتزال الحكم عام ١٨٩٠ .

خط حديد بغداد :

وبدأ الشروع فى مد الخط الحديدى إلى بغداد عام ١٨٩٣ ، وكان خط حديد الأناضول قد وصل إلى أنقرة ليكشف عن اتجاهات المانيا الجديدة ، وقد لقيت هوى فى نفس عبد الحميد فإن المانيا جعلت من إحياء الطرق البرية قاعدة أساسية فى سياستها التجارية والاستراتيجية حتى تستغنى بها عن البحار حيث السيادة والتفوق لإنجلترا ، أما عبد الحميد فإنه كان يرى فى ربط أجزاء مملـكته بالخطوط الحديدية ما يقوى من سيطرته وسلطانه وإشرافه عليها ، وسـار القيصر والسلطان فى تشجيع المشروع ورعايته ما وجدا فيه وسيلة لتحقيق أغراضهما الاستراتيجية والسياسية والتجارية .

ولقى المشروع معـارضة قوية من روسـيا ، فقد رأت مرور الخط الحديدى بسيواس وديار بكر كما وضع فى الأصل تهديداً استراتيجيا لحـدودها فى القوقاز ، ولم تملك الشركة إلا أن تحول امتداد الخط إلى قونيه ـ حلب فالموصل إلى بغداد ، ورضيت فرنسا عن المشروع بعد أن فازت بحصة مماثلة فى الإتفاق .

ولم يجد المشروع من معارضة انجلترا ما وجده من معارضة روسيا وفرنسا فإن الأطماع الألمانية لم تكن قد اتضحت بعد فى الشرق الأوسط بينما كانت المنافسة على أشدها بين انجلترا وفرنسا وروسيا فى تلك المناطق حتى أن انجلترا كانت تبارك هذا التوسع الألمانى وامتداده ، وعمل السفير البريطانى فى برلين عام ١٨٩٢ على تشجيع التجارة الألمانية فى الخليج الفارسى لتكون قوة جديدة أمام الروس الذين يتطلعون إلى تلك المناطق وينشرون فيها شباك نفوذهم .

ولم يكن موقف انجلترا حتى ذلك الوقت إلا تأييداً للمشروع وظهر إجماع الدوائر الحكومية والرأى العام فى تأييده عام ١٨٩٨ فقد رحب لورد سالسبرى فى تقرير له باقتراب المصالح الألمانية من المصالح البريطانية فى الخليج الفارسى ، وأشارت صحيفة التيمس إلى تفضيل الألمان على غيرهم فى القيام بالمشروع ما دام الإنجليز لايقومون به بأنفسهم ، وكتبت المورننج بوست تقول إن « فى قيام الألمان بالمشروع ما يحملهم على مقاومة أى عدوان يقع على تركيا من الشمال » حتى غلاة الاستعماريين أمثال جوزيف تشمبرلن وسيسل رودس قد باركوا المشروع بدورهم ، ولم يأت التحذير إلا من جانب وزارة المستعمرات التى أبدت ما يشير إلى ضرورة المحافظة على الوضع القائم فى الخليج الفارسى وصيانة المصالح البريطانية فية .

ثم كان عام ١٩٠٠ ، وفيه حاولت الشركة أن تصل إلى اتفاق مع أمير الكويت ليكون ميناء الكويت نهاية الخط الحديدى ولما استعدت عليه السلطان لم ينقذه من الرضوخ إلا ظهور بعض قطع الأسطول البريطانى فى مياه الخليج تجاه الكويت ، ولما كان الخليج الفارسى هو النهاية الطبيعية لخط حديد بغداد فإن الألمان عبثاً حاولوا الوصول إلى مكان آخر على الخليج الفارسى لايقوم فيه النفوذ الإنجليزى حائلا دونهم ، وبدأ الإنجليز يوجسون خيفة من المشروع وأصبحوا يرون فيه تهديداً لمصالحهم لا يقل خطراً عما كان من تهديد الروس لنفوذهم فيه ، ولما أرادت الشركة عام ١٩٠٣ أن تسترضيهم بما أرضت به الفرنسيين من قبل بإعطائهم حصة مماثلة لما لهم وما للفرنسيين فى رأس مال الشركة ورحب بلفور رئيس مجلس الوزراء بهذا العرض لم يجد ترحيبه

صدى من التأييد بين زملائه الوزراء فإن كيرزون مثلا كان يرى أكثر من زملائه ضرورة سيطرة نفوذ بريطانيا المطلق فى تلك المنطقة حتى بغداد ذاتها وهوجمت الفكرة هجوماً عنيفاً من الصحافة وذوى المصالح الاستعمارية من رجال الأعمال الذين هاجموا بدورهم منافسة الألمان لهم فى أسواقهم الخارجية التى ظلت وقفاً عليهم ومحاولتهم السيطرة عليها وانتزاعها من أيديهم . كما أثاروا أمام الرأى العام موقف الألمان منهم فى حرب البوير ، وانتهت هذه الحملة برفض العرض بعد أن أشار لورد لانسدون وزير الخارجية إلى سياسة بريطانيا فى الخليج الفارسى بقوله « إن هدف بريطانيا أن تحافظ على تجارتها وتنميها دون التعرض لحرية الآخرين ، ولكن أى محاولة من دولة أخرى لإقامة قاعدة بحرية أو تحصينات على الخليج هو خطر محقق تقدره بريطانيا وستعمل على مقاومته بكل ما فى وسعها من قوة » .

وفى الوقت الذى أخذت فيه هوة الخلاف تتسع بين ألمانيا وانجلترا والعداء يسلك طريقه الذى عبده تناقض سياستهما وتضارب مصالحهما كانت هوة الخلاف تضيق مابين انجلترا وفرنسا بفضل وزيرها ديلكاسيه الذى عمل على توجيه قوى فرنسا ضد المانيا وإعادة توازن القوى الدولية فى أوربا ونجح فى عقد الإتفاق الودى معها عام ١٩٠٤ ، وما وافى عام ١٩٠٧ حتى تقاربت كل من روسيا وإنجلترا بدورهما وعقدتا اتفاقا أشبه ما يكون فى روحه بالإتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا ، واتفقتا فيه على اقتسام مناطق النفوذ فى فارس وقبلت روسيا أن تكون الأفغان فى نطاق النفوذ الإنجليزى على أن لا تثير الأفغان ما يهدد روسيا على حدودها كما اعترفت بالنفوذ الإنجليزى ومصالح بريطانيا فى الخليج الفارسى ولم يعد هناك ما يقف ضد المصالح البريطانية ويناوئها غير المانيا وجاء التهديد لبريطانيا ومصالحها فى مناطق نفوذها وخطوط مواصلاتها وأسواقها التجارية من هذه الدولة الناشئة عبر الأناضول والعراق وعلى أكتاف الدولة العثمانية التى أصبحت تخضع تماما للنفوذ الألمانى وإغراء الصداقة الألمانية .

وقد بدت الفرصة للتقرب من جديد بين دولتى الغرب وتركيا عند قيام الإتحاديين بثورتهم الدستورية فقد وجدوا فى انجلترا وفرنسا الديموقراطيتين مايوافق ميولهم الدستورية أكثر مما تستهويهم نزعة ألمانيا الأتوقراطية ، ولكنهما لم تبديا ما يشجع الاتحاديين على التقرب منهما فقد رفضتا أن تمنحا تركيا القرض الذى طلبته كما راحت صحافتهما تحمل على أعمال العنف التى قام بها الأتراك ضد الأرمن بينما لبت ألمانيا طلب القرض وسكتت صحافتها عن اضطهاد الأرمن ، وغدا نفوذ ألمانيا فى الدولة العثمانية يعظم وصداقتها بتركيا تقوى كلما تقدمت الأيام .

ولما ظفر الأحرار بالحكم فى بريطانيا عام ١٩٠٧ أعلنت حكومتهم أن معارضة بريطانيا لخط حديد بغداد ستقف إذا ترك الألمان إتمام الخط جنوب بغداد للشركات الإنجليزية ، وبعد مفاوضات استمرت حتى بداية عام ١٩١٤ مابين كل من انجلترا وتركيا وألمانيا قدمت بريطانيا شروط اتفاق يقوم على الأسس الآتية .

١ — أن تكون نهاية الخط الحديدى عند البصرة ، وتبقى الحالة فى الكويت على ما هى عليه ، وأن لاتحاول ألمانيا أن تقيم قاعدة بحرية أو محطا للخطوط الحديدية على الخليج الفارسى وألا تشجع غيرها على إقامتها .

٢ — أن يكون لبريطانيا ممثلان فى إدارة الشركة .

٣ — أن يكون لشركة خط حديد بغداد ولتركيا من الحصص فى شركة الملاحة النهرية العثمانية التى لها كافة الحقوق الملاحية فى أنهار العراق وشركة الموانىء العثمانية لبناء مينائى البصرة وبغداد ما لبريطانيا فيها من حصص .

٤ — تعترف ألمانيا بحق شركة البترول الإنجليزية الفارسية المطلق فى استنباط واستغلال بترول جنوب فارس وولاية البصرة ، أما استخراج البترول فى ولايتى بغداد والموصل فمن حق شركة البترول التركية على أن يكون للانجليز من حصصها ثلاثة أرباعها وللألمان الربع .

ولكن الألمان كانوا يعتبرون خط حديد بغداد من الأهمية بقدر مايعتبر الإنجليز

مصالحهم فى الخليج الفارسى ولم تكن ألمانيا إلا ناقمة على تأصل النفوذ الإنجليزى فى خليج فارس ، واستمر التنافس على أشده حتى قيام الحرب فى أواسط عام ١٩١٤ .

وقامت الحرب قبل أن يصل خط حديد بغداد إلى الخليج الفارسى أو يكتمل امتداده بينما اكتمل خط حديد الحجاز الذى رعاه السلطان عبد الحميد ودعا العالم الإسلامى إلى المساهمة فى نفقات إنشائه وأشرف على تنفيذه مهندسون من الألمان وافتتح للركاب عام ١٩٠٨ ، ولم يكن هـذا الخط ليقل فى أهميته من وجهة النظر الألمانية أو الاعتبارات الشخصية للسلطان عبد الحميد عن خط حديد بغداد ، بل أن خط حديد الحجاز فى اعتبار عبد الحميد كان يفوق فى أهميته أهمية خط حديد بغداد . لاتصاله بالأماكن المقدسة وكان لهذين الخطين أهميتهما الاستراتيجية البالغة فقد ربطا أجزاء الدولة العثمانية برباط محكم من المواصلات السريعة كما ربطا أملاك السلطان الأسيوية بأملاكه الأوربية ومن ثم بأوربا وبالأخص المانيا التى كان يهمها أن يكون اتصالها بحلفائها سريعاً ميسورا .

واتجهت ألمانيا تنفيذاً لسياستها نحو الشرق إلى بلاد فارس وعملت على أن تفيد من كراهية الفرس لاتفاق عام ١٩٠٧ وقامت بتوثيق صلاتها التجارية بها ، فغمرت أسواقها بتجارتها ومدت جامعة طهران بالأساتذة والهبات ، وتغلغل النفوذ الألمانى فى الجيش والبوليس ولم تغفل الحكومة البريطانية عن هذه الاتجاهات الألمانية الخطيرة أو تهمل أمرها فأخذت تحتاط للمستقبل الملىء بالنذر والاحتمالات المريبة ففى عام ١٩١٢ قامت بعثة عسكرية من الهند بزيارة رأس الخليج الفارسى ووضعت مشروعا لاحتلال البصرة إذا قامت الحرب وقررت الأميرالية البريطانية وضع الأسطول فى خدمة شركة البترول الإنجليزية الفارسية وكانت قد أتمت حفر مائتى بئر ومدت أنابيبها إلى عبدان وتحالفت مع شيخ المحمرة ، وهو أمير عربى يتبع حكومة فارس على حمايته من السلطان العثمانى وحكومة بلاده حتى تضمن سلامة وتأمين منطقة عبدان التى يسيطر عليها ، وكانت قد أبرمت اتفاقا مماثلا مع أمير البحرين عام ١٩١١ وتعهد لها بأن لا يرتبط بأى اتفاق مع دولة أخرى دون موافقة حكومة الملك بالهند ، وكانت البحرين قاعدة بحرية ممتازة وموطناً من مواطن البحث عن البترول .

ودخلت مصر فى دائرة الاستراتيجية الألمانية واشتدت الدعاية الألمانية فيها فى

تلك السنوات القلائل التى سبقت الحرب وعملت على أن تفيد من كراهية المصريين للاحتلال البريطانى ومن موقف كتشنر العدائى من الخديو حتى تهيء المصريين للثورة على الإحتلال فى الوقت الذى تتقدم فيه القوات الألمانية لضرب البريطانيين فى مصر ويقول سير رونالد ستورس فى كتابه «مشرقيات» أن الدعاية الألمانية اشتدت فى الفترة التى سبقت الحرب وزاد اتصال الألمان بالوطنيين المصريين ، كما عملوا أيضاً على استمالة الخديو إلى جانبهم ، وكان موقف كتشنر منه قد أخذ يجمع الشعب على حبه مرة أخرى بعد تلك الجفوة التى ثارت بينه وبين الوطنيين عندما مال إلى سياسة الوفاق التى رعاها الدن جورست .

نذر الحرب :

وحفلت السنوات القلائل التى سبقت الحرب بالأزمات السياسية التى اتخذت طابعاً عنيفاً كاد يلهب شرارة الحرب ويدفع العالم إلى الكارثة المنتظرة فإن الاتجاهات الدولية وتشعب المصالح والأهداف وحمى التسلح التى شملت كل الدول الكبرى كانت تؤذن بما ستكون عليه الحرب القادمة من شمول واتساع وفتك مروع وعنف حركته الاحقاد القديمة والترات الماضية .

وانقسمت أوربا إلى معسكرين يتأهبان للساعة الرهيبة بإعداد أسلحة الدمار والهلاك وأخفقت كل دعوة للسلام وباء مؤتمر لاهاى الذى عقد عام ١٩٠٧ لتحديد السلاح أو نزعه وقبول مبدأ التحكيم الجبرى بفشل ذريع وإن أبدت روحا طيبة فى قبول مبدأ التحكيم إلا أنها قصرته على الخلاف الذى يقع بين دولتين أو أكثر فى تفسير المعاهدات ، واندفعت الدول فى سباق مروع لإعداد الشعوب للحرب بغرس الأحقاد والإحن فى نفوسها أو إيقاظ مطامعها وطموحها مما كان سبباً فى إثارة الخلاف بينها ، فهناك فقد الألزاس واللورين يدمى قلب كل فرنسى والتنافس بين ألمانيا وفرنسا فى شمال أفريقيا يبعث كوامن الحقد فى نفوس الشعبين وأطماع النمسا فى البلقان تثير شعوبها السلافية عليها وتضرى حمى التنافس بينها وبين روسيا فى السيطرة على البلقان ،

وتطلع ألمانيا إلى السيادة البحرية يثير غضب إنجلترا كما يثيرها ماتلقاه من عنف منافسة التجارة الألمانية لتجارتها فى أسواقها التقليدية ، وكانت هذه الأزمات السياسية التى سبقت الحرب مظهراً للعداء الكامن والذى أخذ يشتد بين المعسكرين .

وقادت ألمانيا هذه الأزمات السياسية وبعثها من ركودها ثم أزكت ضرامها لتخرج منها أمام تألب الدول عليها دون أن تحقق من أهدافها ما رمت إليه ثم تنتابها حمى التسلح لتدارى به فشلها فتدفع العالم فى نفس الطريق ويكون هذا السباق الرهيب فى إعداد وسائل الهول والدمار .

وكانت مراكش مثار هذه الأزمات السياسية العنيفة فإن ألمانيا وقد ترامت إليها أخبار الإتفاق الودى وإطلاق يد فرنسا فى مراكش لم تسكت عليه علها تنال من عرقلته والحملة عليه بعض مغانم فى مراكش أوتعويضاً عنها فى مناطق أخرى فطالبت بسياسة «الباب المفتوح» فى مراكش والمحافظة على الوضع القائم فيها وانتهز القيصر فرصة الهزيمة التى حاقت بروسيا حليفة فرنسا فى حربها مع اليابان وقام بزيارة طنجة فى مارس عام ١٩٠٥ وأعلن فيها أن حكومته لن توافق على أى تغيير فى هذه البلاد دون رضاها وعزز استقلال سلطانها وسيادته على بلاده وطلب إليه أن يحافظ على سياسة الباب المفتوح فى بلاده فلا يكون لدولة فيها امتياز على غيرها ، وبهذا أنكر القيصر كل حق يمكن أن يكون لفرنسا فى الاتفاق الودى وكان سريا ولم يعترف به، غير أن الحرب الروسية اليابانية قاربت نهايتها وعقد صلح بورتسموث فى ديسمبر عام ١٩٠٥ ووقفت إنجلترا إلى جانب صديقتها فرنسا فلم يجد القيصر بداً من أن ينزل عن صخبه وتهديده وطلب عقد مؤتمر لتسوية المسألة المراكشية وعارضت فرنسا فى بادىء الأمر وأشارت من طرف خفى إلى المعاهدة السرية بينها وبين إنجلترا ولكن روزفلت رئيس الولايات المتحدة حملها على القبول .

وعقد مؤتمر الجزيرة فى ابريل عام ١٩٠٦ وحضره ممثلو اثنى عشرة دولة وقف أكثرها إلى جانب فرنسا وانفض بعد أن أعلن احترام استقلال مراكش وعهد إلى فرنسا وأسبانيا بالمحافظه على النظام فى البلاد وتنظيم القوة البوليسية فيها على أن

تكون تحت إشراف رئيس سويسرى ضمانا لحياده كما قرر تأسيس مصرف تشرف عليه كل من فرنسا وإنجلترا والمانيا واسبانيا وأن يعهد بإدارة الجمارك إلى فرنسا على ن تشرف أسبانيا على ما كان واقعاً منها فى حدود إقليم الريف .

وخرجت المانيا من المؤتمر ثائرة ووجدت فى القلاقل التى ثارت بسبب خلع سلطان مراكش ونجدة فرنسا للسلطان الجديد بحملة سيرتها لإخضاع القبائل الثائرة ، ما يحملها على التدخل فاحتجت وأعلنت انتهاك فرنسا لقرارات مؤتمر الجزيرة وانحازت أسبانيا إلى صفها ولكن إنجلترا عملت على نصرة صديقتها والوقوف إلى جانبها .

وعززت المانيا احتجاجها بإرسال الطراد « بانثر » إلى مياه أغادير فى يولية عام ١٩١١ لصيانة مصالح الألمان وأعلنت بطلان قرارات مؤتمر الجزيرة لخروج فرنسا عليها ثم راحت تساوم بإطلاق يد فرنسا فى مراكش على جزء من الكنغو الفرنسيه وعقد مؤتمر الجزيرة الثانى فى نوفمبر عام ١٩١١ وقررت الدول أن تكون مراكش تحت نفوذ فرنسا ماعدا طنجة والمنطقة الأسبانية على أن تحافظ فرنسا بالنسبة للمصالح الألمانية على سياسة الباب المفتوح وأن تتنازل لها عن جزء من الكنغو الفرنسية إرضاءا لتسامحها فى مسألة مراكش .

وانتهزت ايطاليا أزمة اغادير وشرعت فى تحقيق أطماعها فى طرابلس فأعلنت الحرب على تركيا وأنزلت قواتها فى طرابلس وبدأ الصراع الدامى بينها وبين أهل البلاد رغم تنازل تركيا لها عن طرابلس فى معاهدة اوشى لوزان عام ١٩١٢ .

ورأت روسيا فى التقارب الجديد بينها وبين انجلترا وفرنسا مايساعدها على تحقيق أهدافها التقليدية فى طهران والآستانة ولكن هذه الصداقة الجديدة لم تصرف انجلترا عن تقدير مصالحها الحقيقية أو الإخلال بقواعد سياستها التقليدية فلم تسلم لروسيا بتحقيق اهدافها ونصحت فرنسا حليفتها روسيا بالاعتدال ، وكان لهذا الطمع البادى من جانب روسيا فى البواغيز ماحمل الباب العالى على توطيد علاقته المانيا ، وكان خليقا بهذه السياسة الروسية أن تقرب إنجلترا من المانيا ولكن السياسة التى جرت عليها

المانيا فى دعم قوتها البحرية ومحاولتها السيطرة والتفوق فى البحار باعدت مابين الدولتين .

وعمل المعسكران المتنازعان فى السنتين الأخيرتين اللتين سبقتا قيام الحرب على تنسيق سياستهما الاستراتيجية فاتفقت انجلترا وفرنسا عام ١٩١٢ على أن يكون الدفاع عن بحر الشمال لانجلترا والدفاع عن البحر الأبيض المتوسط لفرنسا ، واختير الجنرال « جوفر » الفرنسى عام ١٩١٢ لتنظيم وتدريب الجيش الروسى وبعثت المانيا بالجنرال « ليمان فون ساندرس » لتدريب الجيش التركى وزودته بعدد وافر من الضباط الألمان ، وفى مارس سنة ١٩١٤ بحث الأتراك والألمان تنسيق وربط المواصلات الحديدية بين البلدين استعدادا لاحتمالات الحرب القريبة ، ثم ضاعفت هذه الدول المتنازعة أعباءها الحربية ولجأت إلى تلك الإجراءات التى تسبق اعلان التعبئة العامة ففى مارس عام ١٩١٣ وافق الرشستاغ الألمانى على اعتماد اضافى للجيش خمسين مليونا من الجنيهات وضم إلى الجيش العامل فى وقت السلم مائة وعشرون الف جندى ، وقابلت فرنسا هذا العمل بإطالة مدة الخدمة العسكرية ورفع سن التجنيد للرجال الصالحين للجيش وتقديم سن الافتراع العسكرى للمجندين الجدد أما روسيا فزادت من قوة جيشها العامل وأطالت مدة الخدمة العسكرية بدورها .

الموقف الاستراتيجى

وبدا أن الحرب القادمة ستدور وجيوش التحالف الثلاثى تعمل على خطوط داخلية وكان عليها أن تدخل فى تقديرها الاستراتيجى عاملى الزمن والسرعة وأن تقوم خطتها الاستراتيجية على عزل وتطويق القوات المعادية وعلى هذا الأساس وضعت « خطة شليفن » لمهاجمة فرنسا باجتياح بلجيكا والالتفاف حول الجناح الأيسر للجيش الفرنسى بغية تطويقه وعزله وتحطيم خطوط مواصلاته التى تنفرج للخارج بعكس مواصلات الجيش الألمانى التى تقفل للداخل وكانت سيطرة الأسطول البريطانى على بحر الشمالى تحمى خط تقهقر الجيش الفرنسى لو دفعه الألمان نحو البحر وكان البحر

مانعاً يحول دون تقهقره ويعرضه لفتك القوات المهاجمة على أن تعتمد هذه الخطة فى نجاحها على دقة تنفيذها وتتسم بسرعة المناورة حتى لا تترك فرصـة لصمود القوات الفرنسية والاحتفاظ بسلامة مؤخرتها وخطوط مواصلاتها .

أما جيوش الحلفاء أودول الوفاق فقد كان من الواضح أنها ستعمل على خطوط مواصلات خارجية ولها بذلك ميزة الاعتماد على طول الوقت فى استنزاف موارد العدد وإجهاده ما دامت تستند إلى عمق استراتيجى كاف وخطوط مواصلات جيدة وموارد وافرة من الرجال والعتاد تمـكنها من أن تهاجم فى مواضع متعددة أوتعمل على طول الجبهة بأكملها .

وكان من الواضح أيضاً أن امتـــداد جبهة القتال لدول الوسط ستكون مليئة بالنتوءات والفجوات وإن أجنـابها لا ترتـكز على موانع طبيعية أو دفاعات قوية ولا سيما امتدادها فى بلاد الدولة العثمانية ففى استطاعة قوات الحلفاء أن تعمل ضد هذا الجنب دون أن يلحق مواصلاتها خطر وإن كانت القوات البريطانية فى مصر وقناة السويس يمكن أن تتعرض بدورها لخطر الدوران حول الجنب إذا نجحت القوات التركية فى السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر بالإسـتيلاء على عدن وإنزال عدد من الغواصات لقطع مواصلات البريطانيين فيه ولـكنها فى الوقت نفسه يمكن أن تكون شوكة فى جنب الأتراك تهدده بخطر الإختراق وإمكان فتح الثغرات ، ثم أن وجود روسيا ضمن دول الوفاق الثلاثى يحمل ألمانيا على توزيع قواتها والحرب فى جبهتين مما يشتت قواها ويحرمها ميزة الحشد والتركيز والإقتصاد فى القوات .

وامتاز الموقف الاستراتيجى للحلفاء بميزتين واضحتين هما فى الحقيقة أهم عاملين فى التفوق الإستراتيجى وكسب النصر ، أولاهما تفوقهم البحرى الساحق الذى يمكنهم من قطع مواصلات ألمـانيا بمستعمراتها وفرض الحصار البحرى عليها ومنع اتصالها بالخارج واحتاط الألمـان لها بدعم قوتهم البحرية ولـكن إنجلترا وهى تعرف أن سلامتها هى فى ضمان سيطرتها على البحار ظلت حريصه على السبق فى هذا الميدان ،

واعتمدت ألمانيا على الغواصات فى فل السيادة البريطانيه على البحار فاهتمت بها وأ كثرت من عددها ثم نثرتها فى أنحاء البحار للسيطرة على معابرها وممراتها ، وثانيتهما سيطرتهم على أهم المواد الاستراتيجية فى العالم وتفوقهم العددى الهائل على دول التحالف الثلاثى فإن خامات الحرب الهامة كالبترول والمطاط والقطن والمعادن والمواد الكيماوية يقع معظمها فى حوزة الحلفاء كما أنهم يسيطرون على قوات بشرية هائلة فى الهند والشرق الأقصى وأفريقيا يمكنهم أن يجندوا منها قدر ماتحتاجه المدافع من وقود دون أن يفيض هذا المنبع البشرى الزاخر أو يتأثر .

وختام هذا التقدير الاستراتيجى أن دول الوسط أن لم تحرز نصراً سريعاً حاسما يحمل حلفاء الغرب على التسليم والخضوع فانهم خاسرون الحرب لا محالة رغم الانتصارات الخاطفة التى يحرزونها فى البداية فإذا طالت الحرب وفاتهم هذا النصر السريع فإن ذلك سيكون فى صالح الحلفاء رغم ما هو معروف من تفوق العسكرية الألمانية وشدة مراسها وحزم قوادها واستعدادهم الحربى البالغ .

الحرب :

وجاءت الساعة الرهيبة التى نفخت فيها آلهة الحرب فى بوقها الرهيب واتقدت الشرارة التى ألهبت مستودع البارود الذى رقصت آلهة الحرب حواليه قرابة نصف قرن دون أن ينفجر أو تتطاير شظاياه ففى الثامن والعشرين من يونيه عام ١٩١٤ اغتيل ولى عهد النمسا وزوجته فى سيراجيفو بيد طالبين صربيين وكانت الصرب على خلاف مع النمسا ، فلم يمر شهر على هذا الحادث حتى زحفت جيوش النمسا نحو بلغراد وهبت الروسيا تدافع عن الصرب وتحمى مصالحها فى البلقان وقامت ألمانيا لنجدة حليفتها النمسا ووقفت فرنسا إلى جانب الروسيا واخترقت الجيوش الألمانية الأراضى البلجيكية لمهاجمة فرنسا وأعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا دفاعا عن حياد البلجيك وهى فى الحقيقة تدافع عن مصالحها وتدب عنها وبهذا اشتبكت دول الوسط أو دول التحالف الثلاثى مع دول الوفاق الثلاثى وقد وقفت إيطاليا على الحياد فى بداية الحرب ولكنها أعلنتها

على حلفائها من قبل بعدما وعدتها دول الوفاق بتحقيق أحلامها فى الترنتينو والتيرول وكان ذلك فى ٥ مايو سنة ١٩١٥ وكانت تركيا قد دخلت الحرب قبل ذلك إلى جانب دول الوسط دفاعا عن كيانها المهدد من دول الوفاق .

وامتدت الحرب إلى أبعد من هذا واشتركت فيها دول عديدة وشهد العالم لأول مرة فى تاريخه حربا عامة تصطلى البشرية جمعاء بنارها .

وبدأت العمليات الحربية ضد تركيا بمحاولة الأسطول الإنجليزى اختراق البواغيز للاتصال بالروسيا ولكن المحاولة لم تنجح ثم أنزلت قوات برية هائلة من الجنود الأسترالية والنيوزيلندية فى غاليبولى ولكنها واجهت مقاومة عنيفة من الأتراك جعلتهم ينسحبون مثخنين بالجراح واكتفوا بترك قوات فى سالونيك لمراقبة الحالة فى البلقان غير أن الروس بقيادة الأرشيدون نقولا عولوا على الإتصال بالحلفاء بطريق الشرق فاخترقوا القوقاز إلى أرمينيا فى فبراير سنة ١٩١٦ واستولوا على المواقع الحصينة فى أرضروم وطرابزون ولكنهم سرعان ما ارتدوا عنها دون غايتهم لوعورة الأرض وصعوبة التموين .

واتجه الحلفاء إلى فتح أملاك الدولة العثمانية فى الشرق ففى خريف عام ١٩١٥ قامت حملة بريطانية من الهند بقيادة الجنرال تونشند وأخذت طريقها على الدجلة واحتلت كوت العمارة وتقدمت نحو بغداد ولكن هجوم الأتراك المضاد ردهم على أعقابهم إلى كوت التى سقطت فى يد الأتراك فى ابريل سنة ١٩١٦ .

ولم يكتمل العام حتى جهز البريطانيون حملة ثانية بقيادة « سيرستانلى مود » للاستيلاء على العراق واستعادة الهيبة البريطانية التى قضى عليها فشل تونشند فى كوت ، وتقدمت الحملة على الطريق القديم واحتلت كوت العمارة وسارت نحو بغداد التى سلمت فى مارس سنة ١٩١٧ ، واستمرت فى تقدمها صوب سامرآ على مبعدة ثمانين ميلا من بغداد ودخلتها فى ٢٣ أبريل من السنة نفسها .

وصحب التقدم البريطانى فى العراق تقدم روسى فى فارس الغربية فاحتلوا كرمنشاه فى ١٢ مارس سنة ١٩١٧ وخانقين فى ٤ ابريل ولكن قيام الثورة البولشفية فى روسيا أوقف عملياتها الحربية فى الميادين المختلفة وسحبت جيوشها من فارس فى يوليه من العام نفسه فاحتلتها القوات البريطانية .

وفى فلسطين تقدمت القوات التركية نحو قناة السويس ولكنها ردت دون غايتها ومبتغاها فى أغسطس سنة ١٩١٦ وتحول البريطانيون من الدفاع إلى الهجوم ، وكانوا قد جهزوا العرب للثورة التى أعلنها الشريف حسين فى الحجاز فى ٥ يونيه سنة ١٩١٦ وما مر يومان على إعلانها حتى سلمت الحامية التركية فى مكة وفى التاسع والعشرين من أكتوبر أعلن الشريف حسين نفسه ملكا على العرب ودعا إلى حرب الأتراك واستقلال البلاد العربية وفى منتصف ديسمبر من العام نفسه اعترفت الحكومة البريطانية به ملكا على الحجاز .

وما أن انتهى البريطانيون من مد الخط الحديدى وأنابيب المياه فى سيناء حتى بدأوا عملياتهم الهجومية باحتلال العريش والمغضبة ورفح فى يناير سنة ١٩١٧ وتقدموا نحو غزة وفشلت عمليتهم الأولى فى حصارها ومنوا بخسارة فادحة فى عمليتهم الثانية حيالها ، وفى ٢٨ يناير سنة ١٩١٧ تولى « سير أدموند اللنبى » القيادة بدلا من «سير ارشيبالد مورى» . وفى العام نفسه كانت عمليات العرب الحربية بقيادة لورنس وفيصل قد نجحت فى احتلال العقبة وتأمين خط حديد الحجاز وحماية الجناح الأيمن للقوات البريطانية فى فلسطين .

وبدأ اللنبى عملياته الهجومية فى اكتوبر سنة ١٩١٧ وبعد قتال مرير ما بين غزة وبير سبع لمدة شهر انتهى بطرد الأتراك منهما فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، نجح فى احتلال يافا فى ١٦ نوفمبر من نفس الشهر وبيت المقدس فى ٧ ديسمبر من العام نفسه . وعند دخول بيت المقدس قال اللنبى كلمته المأثورة « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

وفى العام التالى تأخرت العمليات البريطانية بعض الوقت بسبب الموقف فى الميدان الغربى وقيام الألمان بهجومهم الأخير فى فرنسا سنة ١٩١٨ كما أهمل الأتراك بدورهم الميدان الجنوبى فى فلسطين وسوريا ووجهوا اهتمامهم إلى الموقف فى القوقاز ، واستأنف البريطانيون هجومهم الكبير فى فلسطين وسوريا وانتهت وقائع المجيد بتحطيم الجيشين التركيين السابع والثامن وتقهقرت فلولهما عبر الأردن إلى دمشق خلف واستمر البريطانيون فى أعقابهم ودخل العرب بقيادة فيصل ولورنس مدينة دمشق عروس المدن الشامية ثم تقدموا إلى حلب واحتلوها ، وكانت قوات الأسطول الفرنسى قد احتلت بيروت .

وانتهى الموقف فى الشام بطلب الأتراك للهدنة بعد أن انهارت المقاومة التركية فى الميادين المختلفة وفتحت البواغيز أمام أساطيل الحلفاء التى ألقت مراسيها تجاه الآستانة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وسلمت الدولة العثمانية وقضى الرجل المريض نحبه بعد أن ظل طوال ثلاثة قرون شغل السياسة الأوربية وأفلت شمس المسألة الشرقية إلى غير طلوع وطوى التاريخ صفحة من أمجد صفحاته ليفتح صفحة جديدة حفلت بألوان من النضال واليقظة والتطلع إلى المجد المرموق يوم تعود الشمس إلى البزوغ من مشرق الأرض ويحمل الشرق الأوسط رسالته الخالدة إلى بقاع المعمورة كلما عصفت بالإنسانية عواصف المادية والجحود العقلى لقوى الروح الخالدة .

الثورة العربية :

أعلن الشريف حسين أمير مكة ثورته على الترك فى ٥ يونيه سنة ١٩١٦ ودعا العرب لحربهم وكان موقف الشريف حسين عاملا له أهميته فى كسب الحلفاء للحرب وانتصار البريطانيين فى الميدان الشرقى ما أيده اللورد ويفل فى تعليقه عنها بما يأتى : « كانت قيمتها عظيمة للقيادة البريطانية فقد قطعت خط الرجعة على القوات التركية

فى الحجاز وفى جنوب بلاد العرب كما أمنت الجناح الأيمن للقوات البريطانية الزاحفة فى فلسطين وقضت على الدعاية الألمانية السارية فى الجنوب الغربى لبلاد العرب ولم تمكن للغواصات الألمانية من اتخاذ أوكار لها فى البحر الأحمر » .

ولكن هل كانت ثورة الشريف حسين فى الحجاز صدى لعواطف الملايين من العرب فى الشرق الأوسط وهل كانت أملا تحيطه نفوسهم بالترحاب والإكبار وهل كان الشريف حسين الرجل الذى تتعلق به عواطف العرب فى بلاد الشرق الأوسط وآمال المسلمين فى العالم الإسلامى ، وأخيراً هل حققت الثورة العربية أهدافها القومية وهل كان وفاء الحلفاء لحسن صنيعها يضاهى مابذله العرب من تضحيات وبذل فى سبيل كسب الحلفاء للحرب ؟ .

أما أن تكون ثورة الشريف حسين صدى لعواطف العرب وآمالهم فحقيقة يعوزها الألمام بحواشيها وماأحاط بالثورة من ملابسات حتى نستطيع أن نتبين إلى أى حد كانت قيامة شريف مكة تعبيراً صادقا عما يكمن فى أعماق الملايين من العرب .

ولقد رأينا أن نمو الروح القومى فى بلاد الدولة العثمانية الإسلامية سواء فى مصر أوفى الشام والعراق لم يكن يصحبه لون من العداء السافر للرابطة الإسلامية الكبرى أو مانسميه بالقومية الإسلامية العامة بقدر ما كان يصحبه نوع من السخط المكبوت على الرجعية العثمانية ولون الحكم التركى فى تلك البلاد ولو نجحت الدولة العثمانية فى أن تقيم حكما مستقراً عادلا يراعى الاتجاهات القومية فى البلاد المحكومة ويشجع الحكم الذاتى فيها ويقيم المساواة بين العرب والترك لما تطلعت إلى الإنفصال عن الدولة ، ولو استطاعت الدولة العثمانية أن تقيم بين شعوبها نوعاً من الرابطة كالتى أقامتها بريطانيا بينها وبين دول الكومنولث لما تطلع العرب إلى الثورة على تركيا ، ولو أخذ الأتراك بتحقيق أهداف جمعية الأخاء العربى العثمانى ورعاية أغراضها لما دفعت الوطنيين فى سوريا والعراق إلى السعى وراء الانفصال عن الدوله العثمانية .

وإذا كانت هذه القوميات الوليدة قد تطلعت إلى الإنفصال عن الدولة العثمانية فإن هذا لا يعد ضموراً للروح الإسلامية العامة التى تربط بين هذه الشعوب برباط الدين والأخاء الإسلامى هذا الرباط الذى استطاع أن يقاوم تيار المنصرية بين هذه الشعوب فى أطار من الوحدة الإسلامية القوية زهاء ثلاثة عشر قرناً حتى سادت القومية الإسلامية العامة بينها وامحت حيالها القوميات المحلية والتيارات العنصرية طوال هذا الزمن .

وإذا كانت القوميات المحلية قد غلبت حيال ضعف الدولة وفساد حكمها فليس معنى ذلك أن تتطلع إلى معونة أجنبية تمكنها من الانفصال عن الدولة العثمانية على حساب سيادتها واستقلالها ، وإنما هى اتجاهات وطنية نبعت من داخل الوطن وترك أمر تحقيقها للمواطنين أنفسهم على غرار ما فعلت جمعية الاتحاد والترقى فى تركيا فى استعادة الدستور واجبار السلطان عبد الحميد على اعلانه .

ولذا وقفت هذه الجمعيات الوطنية فى سوريا والعراق موقف الريبة من عروض البريطانيين على الشريف حسين للثوره ضد تركيا . وقررت الهيئة العليا لجمعية العرب الفتاة « بأن يقف العرب إلى جانب تركيا ضد أى محاوله أجنبية أيا كان لونها يمكن أن تكون وسيلة لبسط النفوذ الأجنبى على البلاد » ، وبالتالى أصدر عزيز على المصرى تعليماته إلى رجال جمعية العهد « بأن لا يكونوا أداة للقيام بأى عمل عدائى ضد الدولة العثمانية وإذا كان دخولها الحرب يعرض البلاد العربية للغزو الأوربى فعليهم أن يقفوا إلى جانب تركيا حتى يحصلوا على كافة الضمانات القوية حيال الأهداف الأوربية فى تلك البلاد » هذا ، بينما كانت المفاوضات جارية منذ فبراير سنة ١٩١٤ بين الشريف حسين ولورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ولما تعلن الحرب وإن آذنت النذر بقرب نشوبها ، وقد أفاد البريطانيون من روح العداء التى كان يكنها الشريف حسين لرجال تركيا الفتاة والوالى العثمانى فى الحجاز ولم يكن إبناه عبد الله وفيصل براضيين تمام الرضاء عن اتجاه أبيهما الجديد نحو الأجانب وكانا ينشدان مفاوضة الأتراك فى مطالب العرب ، ولكن فكرة قيام دولة عربية تحت حكم الهاشميين كانت قد بدأت تشغل تفكيرهم واتخذوا من معونتهم للبريطانيين وسيلة لتحقيقها .

وفى ناحية أخرى كانت المفاوضات جارية بين البريطانيين فى مصر وبعض رجالات العرب وعلى رأسهم عزيز على المصرى للقيام بثورة عربية ولكن أصرار هؤلاء الوطنيين على ضرورة اعلان استقلال البلاد العربية كخطوة أولى للقيام بالثورة جعل المفاوضات بين الطرفين لاتتعدى هذه البداية ولم يدع رجال الجمعية العربية الفتاة فى سوريا هذه الفرصة المواتية تمر دون الاتصال بالشريف حسين لتنسيق جهود العرب فى سبيل الاستقلال إذا لم يكن هناك سبيل سواها .

ولكن الشريف حسين كان يغلب الإعتبار الشخصى فى تناول موضوع الثورة ولم يرض أن يرتبط بأى من الطرفين المتنازعين قبل أن تبدوله الكفة الراجحة وبعث بفيصل إلى استانبول ليرى أى اللقمتين أسهل ازدرادا وفى أوبة فيصل اتصل برجال جمعيتى العهد والعرب الفتاة فى دمشق وكانتا قد أصدرتا ميثاقا مشتركا لتحقيق استقلال البلاد العربية فى الحجاز ونجد وسوريا والعراق وفلسطين وحمل فيصل الميثاق إلى أبيه فى مكة الذى أبلغه بدوره إلى السير هنرى مكماهون فى مصر مطالبا بقيام دولة عربية فى تلك البلاد ، وقد ظن البريطانيون أنها الرغبة الشخصية للشريف حسين ولم يكن المكتب البريطانى للشئون العربية فى القاهرة قد تأكد تماما من وجود جمعيتى العهد والعرب الفتاة .

وفى هذه المفاوضات بين الشريف حسين ومكماهون أبدى البريطانيون بعض التحفظات بشأن البلاد التى تقع على ساحل اللفانت إلى الغرب من دمشق وحمص وحماه وحلب كما أشاروا إلى مصالحهم الحيوية فى جنوب العراق ، ولكن الشريف حسين رأى أن تترك هذه التحفظات إلى مابعد الحرب .

وقد ذعر الشريف حسين لوصول قوة تركية إلى المدينة أرسلت لتعزيز حامية اليمن وكانت قد هاجمت البريطانيين فى عدن ، وساورته الظنون أن يكون الأتراك قد علموا باتصاله بالبريطانيين وأرسلوا هذه القوة لتأديبه فأعلن الثورة وعجلت أخبار المذابح التى قام بها جمال باشا فى سوريا بعد فشل الحملة التركية على قناة السويس بإعلانها .

هذه هى الظروف التى أحاطت بقيام الثورة العربية أو ثورة الشريف حسين فى الحجاز وهى لم تكن أملا يراود العرب للانتقاض على الدولة العثمانية ولم تكن صورة لما يجيش فى نفوس المسلمين فى تلك البلاد من التطلع للاستقلال وقيام دولة عربية تضم شمل العرب وإنما كانت ثورة لعبت فيها الأطماع والعوامل الشخصية بقدر مادفعها الذهب البريطانى والتحريض وبذل الوعود التى أملتهاضرورات الحرب .

ولم يكن الشريف حسين نفسه على ثقة منوعود البريطانيين فطالت المفاوضات بينه وبينهم فى الوقت الذى كان ولده فيصل يتحسس نوايا الأتراك فىالآستانة ويتصل برجال جمعية العرب الفتاة فى سوريا بينما كان البريطانيون يفاوضون بعض أقطاب العرب الآخرين لتجهيز الثورة كالضابط عزيز المصرى وغيره من البارزين فى البلاد وذوى النفوذ فيها ولكنهم كانوا يقفون أمام صلابة هؤلاء الرجال لتحقيق آمال العرب وأهدافهم فى أقامة دولة عربية موحدة مستقلة قبل الإرتباط بعمل إيجابى مع البريطانيين ضد الاتراك ولم تكن الضمانات البريطانية لتحقيق وعودهم التى بذلولها وأسرفوا فى بذلها للعرب بكافية لدعاة القومية العربية الذين ينشدون وحدة عربية كاملة واستقلالاوطيدا .

ثم أن الشريف حين لم يكن بالشخصية المرموقة فى البلاد العربية أو فى شبه الجزيرة نفسها ولم يكن له أو لأبنائه أثر فى التيارات القومية الجديدة فى البلاد العربية وما كان غير حاكم دينى للحرمين الشريفين يتبع الوالى العثمانى فى الحجاز ويسير فى حكمه على طرائق العصور الوسطى التى كانت غالبة فىالولايات العثمانيةوكان حكمة للحرمين وراثيا يقوم على نسبته إلى البيت النبوى الكريم . ولعل اختيار البريطانيين له بالذات يرجع إلى هذا النسب الطاهر ومكانته الرفيعة فىالعالم الأسلامى وما يمكن أن يكون له من أثر فى مقاومة دعوة الجهاد الدينى الذى يمكن أن يلجأ إليها الخليفة العثمانى لإثارة العالم الإسلامى ضدالعدوان الأوربى علىالبلاد الأسلامية فى الدولة العثمانية وما ينجم عن هذه الدعوة من آثار غير طيبة فى الهند الإسلامية التى تخضع للبريطانيين وتساهم مساهمة فعالة فى مجهود الحلفاء الحربى وبين المسلمين فى الممتلكات البريطانية والفرنسية فى شرق آسيا .

ولكن تقدير البريطانيين لمكانة الشريف حسين الدينية ونسبه الكريم كان ولا ريب لا يقل عن تقدير الألمان لدعوة الخليفة للجهاد الدينى وأثرها بين المسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى فقد كان البريطانيون يأملون أن يهب العرب عن بكرة أبيهم يلبون داعى الثورة التى أعلنها الهاشميون فى الحجاز كما كان الألمان يقدرون أن يقوم العالم الإسلامى لنصرة الخليفة فى هذه الحرب قومته للجهاد فى حرب البلقان سنة ١٩١٢ أو قومة المسلمين لنصرة طرابلس فى جهادها ضد العدوان الأيطالى .

ولكن تقدير الطرفين كان فوق العوامل النفسية للعرب والمسلمين كما كان يفوق أثر الأحداث الجارية فى الشرق الإسلامى فإن اشتراك تركيا فى الحرب العامة لم يكن موضع رضاء كثير من المسلمين الذين كانوا يحبون ألا تغامر تركيا فى حرب أيقظتها الأطماع الأوروبية والتناحر الدولى على مناطق النفوذ واقتسام الأسلاب فقد كانت البلاد الشرقية عامة تند بالحقد والضغينة لعدوان الغرب عليها وما فى حناياه من تعصب مسيحى مذموم وكان الغرب فى اعتبار الشرق غرباً لافرق فيه بين ألمانى أو بريطانى أو روسى فكلهم فى العدوان والتعصب سواء وما كانت عواطف المسلمين تتجه نحو الألمان إلا بقدر ماعانوا من عسف البريطانيين واعتدائهم .

وعلى الرغم مما عاناه العرب والمسلمون من مظالم الأتراك فقد كانت عواطفهم تتجه نحو تركيا فى محنتها وفى هذا الصدد يقول ستودارد « يجب ألا نعتبر أن دعوة السلطان للجهاد المقدس كانت صرخة فى واد أو نفخة فى رماد كما حملت أنباء الحلفاء الغرب على هذا الإعتقاد وقتذاك ، فقدكان الأمر فى الواقع على نقيض ماشاع فإن الإضطراب كان على أشده فى كل بلد اسلامية فى حكم الحلفاء ونحن ذاكرون بعضا من هذه البلاد : فمصر باتت تغلى فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة ولولم تملأ بريطانيا بلاد النيل أجنادا لاعداد لهاحدثت فى مصر الأهوال ، وثارت طرابلس ثورة هوجاء ردت بها الايطاليين على أعقابهم حتى

ساحل البحر وكانت ايران على وشك الإتحاد مع تركيا لو لم يحل دون ذلك تدخل بريطانيا وروسيا وهيضهما جناحها ، وغدت الهند الشمالية الغربية ميدان قتال عنيف لم تقف رحاه حتى ساقت بريطانيا اليه مئتين وخمسين ألفا من الجنود البريطانية الهندية ، وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافا رسميا بأن جميع البلاد فى حكم الحلفاء فى آسيا وأفريقيا كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة والبركان الهائل قيد خطوة » ويؤيد شكيب أرسلان ماقاله ستودارد ويزيد عليه أن ثورة دارفور التى قتل فيها على بن دينار سلطان دارفور وثورة الصومال كانتا من أثر اعلان الجهاد الدينى.

هذه هى العوامل النفسية التى كانت تضطرم فى أعماق المسلمين فى العالم الاسلامى وقتذاك فإن الأمم الاسلامية التى خضعت للنفوذ الغربى قبل ذاك وعانت قسوته كانت تتجه بعواطفها ولا ريب يم تركيا ولكن حال دون قيامها كما يقول ستودارد قوة جيوش الإحتلال فى أرضها ولم تكن قد استوفت عناصر أهبتها المادية لمقاومة الإحتلال وإعلان الثورة فضلا عن انقسام الرأى الإسلامى حيال حيدة تركيا أو اضطلاعها فى حرب لم تجد تركيا نفسها بدا من الاضطلاع فيها خشية أن ينقلب عليها الفريقان بعد الحرب ولأن حيادها لم يكن مأمون العواقب فى حرب تتاخمها وتدور على حدودها .

أما البلاد التى مازالت تابعة للدولة العثمانية فقد كانت قريبة العهد بمظالم الأتراك وإن كانت روح الولاء للرابطة الإسلامية مازالت على أشدها وإن وهنت صلات الود بينهم وبين الأتراك ، فأصبحت فى بداية الحرب قبلة الدسائس والمؤمرات البريطانية التى أجاد الإنجليز حبكها سرا حتى عن فرنسا حليفتهم الكبرى ، وهيأت هذه الدسائس التى نثر فيها الذهب وبذلت الوعود لثورة الشريف حسين الذى اتجهت اليه العيون البريطانية تحرك طموحه وتشيد بنسبه وحقه الموروث فى الخلافة التى اغتصبها الأتراك من آخر سلالات العباسيين فرع الدوحة الهاشمية المباركة .

ولم يكن اضطلاع الشريف حسين فى مؤامراته مع البريطانيين للخروج على

الخلافة كاضطلاع الخليفة مع الألمان فى الحرب العامة إن لم يكن أشد ، موضع رضاء المسلمين الذين ينظرون بحذر إلى اتجاهات الدول الغربية فى الشرق الإسلامى أو يتفق والعاطفة الإسلامية العامة فى ارتباط المسلمين وتآخيهم وتضافرهم مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم حيال العدوان الغريب .

وقد أمل البريطانيون أن يلبى العرب نداء الشريف حسين للثورة ضد الترك ، ولكن الذهب البريطانى كان أشد سحراً فى بدوشبه الجزيرة من نداء العصبية الجنسية التى دعا إليها شريف مكة ، فلم يقم العرب ضد الأتراك فى سوريا أو العراق بل كان موقفهم من الفريقين سلبياً ولم يكن هذا الموقف السلبى فى سوريا وفلسطين كما يقول سير رونالد ستورس حيال الأتراك ذا قيمة حيوية للقوات البريطانية ، ولكن القائد الألمانى ليمان فون ساندرس يذكر أن البريطانيين بعد معركة غزة الثالثة كانوا يتقدمون نحو بيت المقدس وكأنهم بين أصدقائهم ، بينما واجه الأتراك موجة من العداء السافر ، ولكن إلى أى حد يمكن أن يعود هذا إلى أثر الثورة العربية بقدر ما يعود إلى رغبة الأهالى فى أن يكونوا فى صف المنتصر ، ما دامت نظرتهم إلى الفريقين سواء .

وسواء كان موقف الأهالى سلبياً أو إيجابيا حيال البريطانيين أو الأتراك فإن دعوة الشريف حسين للثورة العربية وقيامه وجل أتباعه بنصرة البريطانيين والتعاون المشترك معهم فى مجهود الحرب كان عاملا حاسماً فى النصر البريطانى أدركه قواد الحملة وسجله مؤرخوها .

ولم يكن وفاء البريطانيين للعرب أو لقادة الثورة قرين الوعود التى بذلوها ، وأسرفوا فى بذلها فلم يحققوا للعرب استقلالهم أو وحدتهم المنشودة ، وماكان جزاء الرجل الذى قاد الثورة ووقف إلى جانب البريطانيين فى محنتهم إلا جزاء سنمار فقد ختم حياته فى المنفى بعيدا عن الأهل والوطن .

ولم يكن بين الإنجليز من هو أشد لوعة لهذا المصير المؤلم الذى انتهت إليه القضية العربية من « الكولونيل لورنس » الذى مجده البريطانيون إذ قاد الثورة ونفخ فى سعيرها وسخر من حب العرب للحرية أداة للنصر البريطانى كما يقول فى

كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » ولم ينكر عليه قومه جهوده وأعماله كما أنكروها على العرب وقادتهم ، وكان لهذا الجحود البريطانى للعرب أثره فى نفس الرجل الذى عاش بين ظهرانيهم ، ولمس مثلهم العليا وأحلامهم البعيدة ، فلم يرض بتكريم قومه وتمجيدهم له ، وانزوى بعيدا عن أوضار السياسة ، يقضى حياته كما يقضيها فيلسوف معتزل .

ولم تكن الوعود البريطانية غير سراب فى مهمه فسيح ، خدع العرب فانساقوا إليه يحدوهم أمل الظامىء إلى الحرية والمجد الموعود ، فقد كانت الإتفافات السرية والوعود الهوجاء تبذل على حساب العرب والبلاد العربيه بغير حساب فقد اقتسم الحلفاء ميراث الدولة العثمانية قبل أن يلفظ الرجل المريض آخر أنفاسه .

وكان أول اتفاق من هذا النوع اتفاق فرنسا وروسيا فى مارس سنة ١٩١٥ وقد وعدت فيه الروسيا بالآستانة ، وفى ابريل سنة ١٩١٦ عقدت الروسيا وفرنسا اتفاقا آخر خاصاً بتخطيط الحدود بين نصيبيهما فى آسيا ثم كان اتفاق « سيكس ـ بيكو » فى مايو من نفس العام بين انجلترا وفرنسا واشتركث فيه الروسيا . وفى سبيل جذب إيطاليا إلى صف الحلفاء وعدت فى معاهدة لندن فى ابريل سنة ١٩١٥ وقبل أن تعلن الحرب بشهر واحد بإقليم أضاليا من تركيا عدا تحقيق أطماعها فى التيرول والترنتينو على حساب النمسا ، وفى سنة ١٩١٧ وعدت بأزمير وبعض المناطق الأخرى ثم كان وعد بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين أول نذير بالشر فى تلك البقعة من بقاع الشرق الأوسط .

وكان اتفاق « سيكس ـ بيكو » أهم ما أبرمه الحلفاء فيما بينهم لتقسيم أملاك الدولة العثمانية . وكان عبارة عن مذكرات تبادلتها دول الوفاق الثلاثى انجلترا وفرنسا والروسيا فيما بينها خاصا بنصيب كل منها فى أملاك الدولة العثمانية إذا ما انتهت الحرب فى صالحهم وقد جرت المحادثات المبدئية الخاصة بفرنسا وانجلترا فى لندن فى ربيع سنة ١٩١٦ بين سير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية والمسيو بول كامبون السفير الفرنسى واستؤنفت المحادثات التكميلية فى القاهرة بين مسيو جورج بيكو وسير مارك

سيكس واشترك فيها قنصل روسيا ووقع الإتفاق ، وأهم ما نص عليه تحديد نصيب كل من انجلترا وفرنسا فى البلاد العربية فيكون لفرنسا الجزء الأكبر من سوريا وجانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق ، ويكون لانجلترا البلاد الواقعة بين الخليج الفارسى والمنطقة الفرنسية ثم حيفا وعكا وقسمت كل من منطقتى النفوذ البريطانى والفرنسى إلى منطقتين ، منطقة نفوذ مطلق ، ومنطقة تشرف عليها الدولة صاحبة النفوذ على أن تتمتع بلون من الحكم الذاتى وأشير إلى منطقة النفوذ المطلق لانجلترا فى مصور الاتفاق باللون الأحمر والحرف « ب » للمنطقة التى تشرف عليها ولفرنسا باللون الأزرق فى منطقة النفوذ المطلق والحرف « ا » فى منطقة الإشراف .

اتفاق "سيكس - بيكو" سنة ١٩١٦



كما نص الاتفاق على إنشاء إدارة دولية فى فلسطين لا يتقرر شكلها النهائى إلا بعد استشارة الروسيا والاتفاق مع سائر الحلفاء وممثلى شريف مكة وأشير إليها فى مصور الإتفاق باللون البنى .

وقد أبرم اتفاق سيكس ـ بيكو بعدأن تم الاتفاق مع الشريف حسين على استقلال البلاد العربية وقبل وعد بلفور بعام ونصف . ورغم أن اتفاق بريطانيا والشريف حسين كان قائماً إلا أن بريطانيا لمتطلع حليفها العربى على نصوص الإتفاق حتى فضحته الروسيا بعد ثورتها الكبرى وقامت تركيا بأبلاغ نصوصه إليه علـه ينقلب على حليفته كما انقلب عليها من قبل ولكن الشريف حسين كان قد أوغل فى التورط مع حلفائه ولم يشأ أن ينكص على عقبيه فى رهان خاسر بدت كفة الحلفاء فيه راجحة متفوقة .

وكما أخفت بريطانيا خبر اتفاق سيكس ـ بيكو عن حليفها العربى فقد أخفت اتفاقها معه عن حليفتها فرنسا ما كان له أثره فى كراهية فرنسا للعرب ومقاومتها آمال البيت الهاشمى فى الوحدة العربية والملك المأمول .

وكانت هذا الأسلوب البهلوانى فى سياسة بريطانيا نذيراً بهزل الوعود التى بذلتها والمعاهدات التى أبرمتها فى غمار أطماعها الخاصة وأهدافها الأصيلة المرسومة التى اتسمت بالحذق والمهارة والعمق السياسى والأثرة البعيدة فى تحقيق المطامع والأهداف

الحماية البريطانية على مصر :

وبإعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا فرضت على مصر من تبعاتها ما يجعلها فى صف البلدان التابعة لها فأصدر مجلس الوزراء فى ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ قرارا بمنع التعامل مع ألمانيا ورعاياها والأشخاص المقيمين فيها أو اتصال السفن المصرية بأى ثغر ألمانى وحظر التصدير إليها وتخويل القوات البريطانية البرية والبحرية حقوق الحرب فى الأراضى والموانىء المصرية واعتبار السفن الألمانية الراسية فى الثغور المصرية سفنا

معادية وحجزها فى تلك الثغور . وفى ١٣ أغسطس طبق هذا القرار على النمسا والمجر ثم وضعت الرقابة على البرقيات والخطابات بين مصر والخارج وبينها وبين السودان ، وفى أكتوبر صدر قانون التجمهر وفى أوائل نوفمبر أصدر الجنرال مكسويل قائد قوات الاحتلال فى مصر القرار الآتى بإعلان الأحكام العرفية :

« ليكن معلوما أنى أمرت من حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بأن أخذ على مراقبة القطر المصرى العسكرية لكى يتضمن حماؤه ، فبناء على ذلك قد صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى من تاريخه » .

وأبلغ قرار إعلان الأحكام العرفية إلى حسين رشدى باشا رئيس مجلس الوزراء وبإعلانها وضعت الصحف والمطبوعات تحت الرقابة ، وما مرت ثلاثة أيام عليها حتى دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا فى ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ فأصدر الجنرال مكسويل منشوراً فى ٧ نوفمبر بتطبيق قرار مجلس الوزراء الصادر فى ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ خاصاً بحظر التعامل مع ألمانيا أو رعاياها على الدولة العثمانية وفيما يختص بالسفن التجارية العثمانية التى تكون داخل الموانىء المصرية أو داخلة إليها فلا يسمح لها بمبارحة الميناء الموجودة فيه .

واتخذت بريطانيا من دخول تركيا الحرب سبباً فى إعلان حمايتها على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ والغاء سيادة تركيا عليها ، ونشر إعلان الحماية فى « الوقائع المصرية » بهذا النص :

إعلان بوضع بلاد مصر تحت حماية بريطانيا العظمى

« يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته ، وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية » .

« وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها » .

وفى اليوم التالى لإعلان الحماية أعلنت بريطانيا خلع الخديو عباس وكان فى زيارة للآستانة وبقى بها حتى إعلان الحرب ، وتولية الأمير حسين كامل سلطانا على البلاد وصدرت الوقائع المصرية فى ١٩ ديسمبر وقد نشرت إعلان خلعه بهذا النص :

« إعلان بخلع سمو عباس حلمى باشا عن منصب الخديوية »

« وارتقاء صاحب العظمة السلطان حسين كامل على عرش السلطنة المصرية »

« يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمى باشا خديو مصر السابق على الإنضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هـذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على ، فقبله » .

ولقى فرض الحماية البريطانية وعزل الخديو من المصريين غضباً مكبوتا لم يمنع من انفجاره إلا صولة الأحكام العرفية وامتلاء مصر بالجند من كافة بقاع الإمبراطورية للدفاع عن بريطانيا العظمى ، ونفث الغضب المكبوت عن عرامته وقوته كما ينفث فى مثل تلك المحن وبين ألوان الضغط والشدة بالمؤامرة والإغتيال فوقع الإعتداء على السلطان حسين كامل مرة فى ٨ ابريل سنة ١٩١٥ ثم ثانية فى ٩ يوليه من نفس السنة كما وقع الإعتداء أيضا على وزير الأوقاف فى ٤ سبتمبر ، وبقى الغضب المكبوت يثور فى نفوس المصريين يضاعف من أواره ما فرضته السلطة البريطانية من التزامات وقيود حتى انفجر مروعا فى ثورة سنة ١٩١٩ فقد جند العمال والفلاحون كرها للعمل فى ميادين القتال حتى نيف عددهم فى نهايه الحرب على مليون ونصف لقى كثير منهم حتفهم تحت وقد الهاجرة فى سيناء وفلسطين والعراق بل وفى زمهرير الشتاء فى فرنسا والبلقان .

واغتيلت أقواتهم لتموين القوات المحاربة وصودرت دوابهم من جمال وحمر لخدمتهم فى الميدان ، وحدت مساحة الزراعة القطنية لزيادة انتاج الحبوب ووضعت الخطوط الحديدية فى خدمة القوات المحاربة فأرهقت آلاتها وعرباتها إرهاقا بانت آثاره خلال الحرب وفى أعقابها ، كما جمع رديف الجيش لمعاونة القوات البريطانية فى عملياتها الحربية فى المؤخرة .

وأصبحت مصر قاعدة للعمليات الحربية فى البحر الأبيض المتوسط وفلسطين واشتركت بعض بطاريات المدفعية المصرية فى الدفاع عن قناة السويس ضد الغزو التركى وكان لإحداها فضل مفاجأة الأتراك فى عبورهم للقناة ليلة الثالث من فبراير سنة ١٩١٥ وكان هذا نقضاً لما تعهدت به بريطانيا فى منشور الجنرال مكسويل فى الوقائع المصرية فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ من « أنها أخذت على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة » .

وفشل الهجوم التركى الثانى على القناة ومنى الأتراك بهزيمة ساحقة فى « رمانة » واستعد الإنجليز للزحف على فلسطين وكان لجهود فرقة العمال المصرية فى تعبيد الطرق وحفر الآبار ومد الخطوط الحديدية والتليفونية وأنابيب المياه ما كان له أكبر الأثر فى نجاح حملة فلسطين وأشار إليه «ملنر» فى تقريره بقوله « تحمل المصريون التكاليف والقيود التى اقتضتها تلك الحرب بالرضا والصبر ، وإن الخدمات التى أدتها فرقة العمال المصرية لا تقوم بثمن ولم يكن عنها غنى لحملة فلسطين » .

وامتدت آثار الحرب إلى حدود مصر الغربية كما امتدت إلى السودان ، فعلى الحدود الغربية قام السنوسيون بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء باقتحام الحدود المصرية واحتلوا السلوم وسيدى برانى على الساحل وسيوه والواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة على امتداد الحدود فى الصحراء بينما شق على بن دينار سلطان دافور عصا الطاعة على حكومة السودان وقيل أن للحركتين صلة ببعضهما ويرجع أخفاقهما إلى ضعف تجهيزاتهما والتجاء السنوسيين إلى أساليب الحرب النظامية ، وقد قضت عليهما دون مجهود كبير القوات البريطانية بالإشتراك مع بعض القوات المصرية فاستردت المواقع التى احتلها السنوسيون كما قضى على ثورة دارفور .

وسار تيار الأحداث في مصر كما أراده الإنجليز وقامت مصر بما فرضوه عليها من أعباء غير أن جفوة ثارت بين السلطان حسين والمندوب السامى البريطانى السير هنرى مكماهون حملت حكومته على سحبه وتعيين السير رجنلد ونجت سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان فى منصبه فى نوفمبر سنة ١٩١٦ علاوة على منصبيه السابقين وظل يشغلهما إلى جانب منصبه الجديد حتى عام ١٩١٩ عند ماشغلتا بتعيين السير لى ستاك باشا فيهما ، وفى ٩ أكتوبر اعتلى السلطان أحمد فؤاد عرش مصر يوم وفاة السلطان حسين بعد أن اعتذر الأمير كمال الدين حسين لأبيه قبل وفاته عن قبول العرش .

وخضعت مصر لأوضار الحرب حتى عقدت الهدنة فأخذت تتطلع لتحقيق أمانيها فى ظل ما نادى به الرئيس ويلسون من مبدأ تقرير المصير .

الحرب فى فارس :

أعلن الشاه حياد بلاده ولكنها لم تسلم من أوضار الحرب وامتدادها إليها ، وغدت ميدانا للقتال ومسرحا عنيفا لمؤامرات المتحاربين ، فقد سارع الإنجليز فى بداية الحرب بانزال قواتهم فى بوشير والمحمرة واحتلال المناطق الجنوبية من فارس التى نص اتفاق عام ١٩٠٧ أن تكون منطقة نفوذهم كما سارع الروس باحتلال المناطق الشمالية وحاولوا التقدم إلى طهران العاصمة متجاوزين حدود نفوذهم الذى أباحه اتفاق ١٩٠٧ ، واجتاز الأتراك حدود فارس بعد انتصارهم فى كوت العمارة ميممين صوب العاصمة وجل هدفهم أن يحولوا دون اتصال القوات الروسية فى الشمال بالقوات الإنجليزية فى الجنوب فلا تكون فارس معبراً لنجدة روسيا وإمدادها بالمعونة الحربية كما كانوا يرمون إلى تشجيع العناصر الناقمة على النفوذ الإنجليزى والروسى معا على الثورة وكانت دعوة الخليفة للجهاد الدينى قد وجدت لها صدى بين الأكراد الضاربين على حدود فارس الشمالية الغربية وبين بعض رجال الدين ورجال السياسة الذين نزحوا إلى مدينة « كوم » وكونوا فيها « جماعة اجتهادى إسلام » بزعامة « سلمان مرزا » وكانت المفوضيتان الألمانية والنمساوية قد نزحتا إليها قبلهم خوفا من اجتياح الروس للعاصمة

وأصبحت كوم مقراً لمؤامرات الألمان والمتشيعين لهم والناقمين على الإنجليز والروس من الفرس .

وقام الأتراك بحملة أخرى على القوقاز مخترقة أذربيجان فى اتجاه آبار الزيت الروسية لم تحقق أغراضها الإستراتيجية أوالسياسية كما نزل الأكراد على تبريز فى يناير سنة ١٩١٥ ولكنهم ردوا عنها مدحورين أمام نيران الروس الحامية .

وبينما كان الأتراك يقومون بنشاطهم الحربى فى مناطق فارس الشمالية كان الألمان يتابعون نشاطهم السرى بين رجال القبائل فى الجنوب ويحيكون المؤامرات لحمل الفرس على الثورة ضد الحلفاء والإنحياز إلى جانبهم وكانوا قد بدأوا هذا النشاط فى تلك السنوات القلائل التى سبقت الحرب وجل همهم أن يضمنوا فارس إلى جانبهم كما ضمنوا تركيا فقد كانت مثلها تدخل فى نطاق سياستهم واستراتيجيتهم العامة ويقول جورج لنكزوسكى مؤلف « روسيا والغرب فى إيران : ١٩١٨-١٩٤٨ » مامعناه أن الألمان لو نجحوا فيما كانوا يهدفون إليه من ربط خط حديد بغداد بالخطوط الحديدية فى فارس لكان هذا نصرا استراتيجيا لا يعدله نصر آخر لألمانيا فى الشرق .

وعمل الألمان فى سبيل غايتهم وبيراعة لاتنقصها الحبكة أوالجرأة أوروعة العرض على استغلال عواطف الشعوب وإثارتها وخاصة فى فارس ضد حلفاء الغرب وصادفوا فى هذا المضمار نجاحا عظيما وما كان تشيع الناس والوطنيين فى بلدان الشرق الأوسط لألمانيا إلا بغضا لسياسة الغرب الإستعمارية ونفوذه الجاثم فيها لاحبا فى ألمانيا ولاميلا لها وعلى ترداد هذا النغم نفخت ألمانيا فى أبواق دعايتها وادعى الإمبراطور ولهلم الثانى حماية الإسلام والمسلمين والأخذ بناصرهم فوجد ادعاؤه آذانا صاغية لا بين الدهماء والعامة فحسب بل فى أوساط المثقفين والمتميزين وإن كانت هذه الدعاية على براعتها لم يصادفها التوفيق فلأنها لم تستطع أن تتغلب على حكم القوة الذى يبسط يده العنيفة على هذه الشعوب ويسوسها قهرا لتنفيذ أغراضه ومراميه فإن إجراءات حالة الحرب من شأنها أن تحول دون نجاح أى تنظيم ثورى أو حتى ظهوره وإعلانه .

ونجح الألمان فى كسب أقوى الأحزاب السياسية فى فارس إلى جانبهم وهو الحزب الديمقراطى الذى ظفر بأغلبية المقاعد فى انتخابات «المجلس» التى جرت عام ١٩١٥، وكان للدعاية الألمانية أثرها الباهر فى فوزه بأغلبيته البرلمانية، وتطايرت الشائعات بإبرام معاهدة سرية بين فارس وألمانيا، وكان لجهود البرنس فون روس أول وزير مفوض لألمانيا فى فارس أعظم الفضل فى نجاح الدعاية الألمانية فى تلك البلاد.

وطغت الأهداف الاستراتيجية للدعاية الألمانية على كل هدف آخر كما هو الشأن خلال الحروب عندما تطغى مطالب الحرب وغاية النصر على كل مطلب آخر، فقد كانت ألمانيا ترمى إلى عرقلة مجهود الحلفاء الحربى فى فارس بإثارة القبائل الفارسية على الإنجليز والروس حتى يشغلوا بهذا الميدان فيتأثر مجهودهم الحربى فى الميادين الأخرى وكانت ترجوا أن تمتد هذه الحركة الثورية فى فارس إلى الأفغان وحدود الهند الشمالية الغربية لنفس الغاية ولنفس الغرض، كما كانت ترمى إلى تدمير آبار البترول حتى تحرم الأسطول البريطانى من موارد تموينه الرئيسية وعملت فى سبيل هذا الغرض على استمالة زعماء البختيارى سادة إقليم خوزستان التى تتركز فيها أهم موارد البترول الفارسية وكانوا موالين للانجليز لهم عليهم ضريبة سنوية إبقاء على ولائهم، ونجحت فى استمالة قبيلة قشجاى فى جنوب فارس التى تأثرت بدعايتها أكثر مما تأثرت قبائل البختيارى حتى ثارت على الإنجليز وحاربتهم أكثر من مرة.

ولما رأت الحكومة الإنجليزية فى الهند وكانت فارس تدخل فى منطقة اختصاصها، عنف الدعاية الألمانية وشدتها وتبينت أهدافها وغاياتها وبرز الخطر يهدد أهم مراكزها الإستراتيجية الحساسة أرسلت سير برسى كوكس وكان من أعظم الإنجليز خبرة بشئون فارس ليسوس الأمور فيها وفق سياسة بلاده الاستراتيجية ومصالحها العامة، وليكون قوة من متطوعى الفرس بقيادة ضباط منهم ومن الإنجليز ليسيطر بها على النظام فى المناطق الجنوبية عرفت بقوة البنادق الفارسية الجنوبية، ولجأت من ناحية أخرى بالإتفاق مع الروس إلى إقامة سلسلة قوية من نقط الحراسة

على طول الحدود الشرقية لفارس حتى تمنع تسرب الألمان إلى أفغان والهند ولما خرجت روسيا من الحرب على أثر الثورة البولشفية وسحبوا قواتهم من فارس أسرع الإنجليز باحتلال نقط الحراسة التى كان يحتلها الروس على الحدود الشرقية فى الشمال ومدوها إلى مشدومرف على خط حديد قزوين كما سيروا حملة من بغداد فى اتجاه باكو لتحول بين الأتراك والألمان والوصول إلى مواردها البترولية ونجحت الحملة فى الوصول إلى باكو ولكنها اضطرت تحت ظروف قاسية للجلاء عنها والإنسحاب إلى فارس وكان الإنجليز قد احتلوا مناطقها الشمالية بعد جلاء الروس عنها عام ١٩١٧ وفى انسحابهم جعلوا يثيرون الأشوريين والأرمن حول بحيرة أورميا على الأتراك وقبل أن يصل إليهم السلاح والعتاد الذى وعدهم به الإنجليز أوقع بهم الأتراك مذبحة مروعة وحملوهم على الهجرة إلى شمال الجزيرة فى العراق وظلوا عالة على الإنجليز خلال الحرب حتى نزح الأرمن إلى جمهورية إرمينيا السوفيتية وبقى الأشوريون فى العراق مشكلة من مشاكلها الحاضرة .

وهكذا اصطلت فارس بنيران الحرب دون أن يكون لها دخل فى إثارتها أو تنحاز إلى أحد المتحاربين ولكن الحرب فى حقيقتها لا تدور إلا حيث تتصادم مصالح المتحاربين فى حيز من الأرض هو مصدر النزاع وساحة الصدام بما تضفى عليه الطبيعة من أهمية خاصة .

ولم يبق بعد ذلك بلد من بلدان الشرق الأوسط لم تمتد إليه الحرب أو يتأثر بها أو يدخل فى نطاق الإستراتجية العامة للدول المتحاربة حتى برقة وطرابلس وكانتا مشتبكتين فى نضال رائع مع الإيطاليين المغيرين منذ عام ١٩١١ وقامت الحرب ولا يزال هذا الصراع بين المعتدين والمدافعين عن ذمارهم وحماهم على أشده ثم تخلت إيطاليا عن حلفائها الأقدمين وانقلبت عليهم وأعلنت الحرب ضدهم مما كان سبباً فى تحريض الأتراك للسيد أحمد السنوسى ولمجاهدى طرابلس على غزو مصر تلك الغزوة التى ردت على أعقابها وانتهت بالفشل ووقفت القوات البريطانية عند طردهم من الأراضى المصرية واستمر النضال مريراً قاسياً بين هؤلاء المجاهدين والإيطاليين طوال سنى الحرب حتى وضعت أوزارها ولم يسلم هؤلاء الأبطال لإيطاليا بل تمكنوا

من دفعهم إلى ساحل البحر ولم ينته هذا النضال حتى بعد أن ظفرت إيطاليا بالمجاهدين وظهرت عليهم فظلت ليبيا فى فترة ما بين الحربين مسرحاً دامياً لجهاد الأبطال فى حرب المعتدين على بلادهم .

ثم انتهت الحرب العامة وقرت السيوف فى أغمادها ، وكانت الهدنة وأشرق صبح السلام يطالع فى تباشير مبادىء ويلسون فى تنظيم عالم ما بعد الحرب وكان حق تقرير المصير الذى نادى به الرئيس الأمريكى بين مبادئه الأربعة عشر فرجاً للشعوب المهضومة التى انتظرت يوم الخلاص يحدوها الأمل فى صبح السلام الرائع بين هتافها للحلم المنشود من مبادىء ويلسون وضجيج الظافرين للنصر الكبير .

الفصل الحادى عشر

فى أعقاب الحرب

النتائج العامة للحرب فى الشرق الأوسط

تمخضت الحرب عن آثار لم تكن فى ذاتها وليدة الآلام التى خلفتها الحرب أو المحنة التى مر بها العالم خلال أربع سنوات وإنما ترجع فى أصولها إلى تلك القوى التى لعبت دورها على المسرح العالمى قبل نشوب الحرب وكانت أهم أسبابها فالإنقلاب الصناعى ونمو التجارة وإقامة الحواجز الجمركية والتنافس الإستعمارى بين القوى الكبرى ونمو الوعى القوى وتقدمه فى الشعوب التى خضعت لنظام الامبراطورية ووحدتها التى قامت على أساس مركزى شديد الأوتقراطية إذا استثنينا الإمبراطورية البريطانية ذات النظام المرن ، ثم نمو الروح العسكرية نموا أصبح يهدد السلام بالاحتكام إلى القوة وغلبة السلاح وأخيراً تطور الوعى السياسى وظهور مذاهب جديدة فى الحكم والإقتصاد ونظام المجتمع فقد جاءت الماركسية لتخلق مجتمعاً جديداً فى شعب من أعرق الشعوب أوتقراطية وأوسعها مساحة وعدد سكان وتثير أفكاراً جديدة نمت بذورها فى المجتمع الأوربى فى فترة ماقبل الحرب وكانت هاديا لأفكار وأنظمة جديدة ندت عنهاوقامت على هديها وإن اتخذت طابعا احتفظ بأصوله البورجوازية العتيقة فى قالب من الديكتاتورية العسكرية الصارمة كان له أعظم الأثر فى اتجاهات السياسية الأوربية والعالمية فى الفترة التى سبقت الحرب الثانية .

وبدت هذه القوى وقد كشفت عن نفسها قبيل الحرب وكانت سبباً هاماً فى اشتعال نيرانها وتوقد لظاها واحتدام صراعها وانتهت الحرب لتكشف عن عرامتها فتخلق هذا العديد من المشاكل التى كان على مؤتمر الصلح أن يواجهها ويجد لها

الحلول الملائمة ولكنه سار على هداها فى التسويات التى جرت بها معاهدات الصلح ، فإن هذه القوى هى التى حددت شكل التسوية العام كما يقول رمزى ميور فى كتابه « النتائج السياسية للحرب العظمى » فلم يكن فى استطاعة أولئك الساسة المسؤولين أن يضعوا شروطاً أحسن مما اشتملت عليه معاهدات الصلح فإن أقصى ما كان يستطيعونه هوأن يوجهوا آثار هذه القوى أو أن يعدلوا قليلا من سيرها أما القوى نفسها فكانت خارجة عن سلطانهم وكان لابد لهم أن يقعوا تحت تأثيرها .

وانعقد مؤتمر الصلح فى باريس فى شهر يناير عام ١٩١٩ ليواجه هذه المشاكل التى خلفتها الحرب والتى تنبع فى أصولها من ذلك الماضى البعيد الذى سبق قيام الحرب وامتد إلى بداية ظهور الإنقلاب الصناعى واحتدام التنافس الاستعمارى ونمو الروح القومية وتأصل النزعة العسكرية والسباق الجنونى نحو التسلح والإعداد للحرب وفى هذا المؤتمر مثلت أغلب شعوب العالم تمثيلا لم يسبق له مثيل فى أى مؤتمر آخر عقد من قبل وإن لم يكن فى حقيقته إلا مجمعا للدول الغالبة فإن الدول المغلوبة لم تمثل فيه إلا حينما دعيت لتسمع الحكم عليها ولم تشترك فيه الدول المحايدة ، وأقصيت عنه الروسيا التى خرجت على المجتمع الدولى بنظام لم يكن موضع رضاء الدول الغالبة .

وقد مثل فى المؤتمر كثير من الدول التى لمست رجحان كفة الحلفاء فى أخريات المعركة العالمية فأعلنت الحرب إلى جانبهم فغص المؤتمر بممثلين للصين وسيام وجمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية وللشعوب التى ثارت على تبعيتها للدولة العثمانية كالعرب ولشعوب أمبراطورية النمسا والمجر وألمانيا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ودول البلطيق وللصهيونيين الذين وعدوا بوطن قومى فى فلسطين فقد عدها الحلفاء شعوبا محاربة وإن خضعت التسويات الأخيرة لاتجاه الثلاثة الكبار الذين سيطروا على جو المؤتمر وهم انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة فإن المؤتمر قد وضع السلطة فى يد عشرة من المندوبين يمثل كل اثنين منهم دولة من الدول الخمس الكبرى وهى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان على أن تصدر القرارات الرئيسية من المندوبين الأول لهذه الدول الخمس .

ولم تلبث اليابان أن انسحبت من المؤتمر لأن مسائل القارة الأوربية لا تعنيها كثيراً ولم يجد مندوب ايطاليا السنيور أورلندو من عناية شركائه ما يشجعه على إظهار شخصيته فى المؤتمر أو أن يكون له رأى فى اتجاهاته وبذلك أصبحت الكلمة العليا فى سياسة العالم لممثلى الدول الثلاثة الأول وهم جورج كليمنصو ممثل فرنسا ورئيس وزارتها وكانت له رئاسة المؤتمر ولويد جورج ممثل انجلترا ورئيس وزارتها ورئيس الولايات المتحدة وودرو ويلسون وغلبت على هذا الأخير روحه الفلسفية فأتيح لزميلية الآخرين أن يسوسا مصير العالم على هواهما .

وطغت على اتجاهات المؤتمر روح الانتقام التى كانت تتأجج فى صدر كليمنصو التى جاراها لويد جورج لعهود ارتبط بها أمام ناخبيه من الإنجليز وإن كان فى قرارة نفسه لا يرضى تحطيم ألمانيا تحطيما يجعل من فرنسا أعظم قوة حربية فى أوربا ، أما ويلسون فكان يحدوه أمله فى خلق مجتمع دولى يعمل للسلام العام ويحد من شرة الحرب إن لم يجتث أصولها بإقامة تعاون منظم بين دول حرة لتسوية المنازعات ومنع الحروب وبفضل إصراره على هذه الفكرة تضمنت كل معاهدة من معاهدات الصلح ميثاق عصبة الأمم ، وبلغ من إيمانه بهذه الفكرة أنه لم يحاول أن يكسب الرأى العام فى بلاده إلى صفه فكانت خيبته مريرة عندما رفضت أمريكا الإعتراف بمعاهدة الصلح أو ميثاق العصبة .

وصاغ الثلاثة الكبار أصول المعاهدات الجديدة التى فرض فيها أن تنتظم قواعد النظام الجديد الذى وضعوه للعالم وفرضوه على الدول المغلوبة وكانت معاهدة فرساى التى فرضت على ألمانيا أولى هذه المعاهدات وأبرمت فى ٣ يونيه سنة ١٩١٩ ، ثم معاهدة سان جرمين مع النمسا وأمضيت فى ١٠ سبتمبر ومعاهدة نويللى مع بلغاريا فى ٢٧ نوفمبر ومعاهدة تريانون مع المجر فى ٤ يونيه سنة ١٩٢٠ وأخيرا معاهدة سيفر مع تركيا فى أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وقبلت الدول هذه المعاهدات مغلوبة على أمرها ما عدا تركيا التى رفضت معاهدة سيفر وتأخر عقد الصلح معها إلى عام ١٩٢٣ حين أبرمت معاهدة لوزان .

وكانت عصبة الأمم أعظم نتائج الحرب على الإطلاق وإن بدت فى تكوينها ناقصة مبتورة إلا أنها كانت خطوة عملية دلت على اتجاه عام لتنظيم العالم تنظيما جديدا فى ظل السلام ولم تكن العصبة قوة تكبر قوى الدول أو توجهها وجهتها المنشودة بل كانت قوة تقوم على التراضى والتواصى والتعاون العام ، وإن بدا واضحا أن المصالح المتضاربة للدول تحول دون بقاء هذا التعاون فى نطاقه السليم واتجاهه الصحيح الذى نص عليه ميثاق العصبة وقد ظهر تضارب هذه المصالح الدولية منذ اللحظة الأولى التى عقد فيها مؤتمر الصلح وصيغت معاهدات الصلح على هوى الدول العظمى وفى اتجاه مصالحها الخاصة فكانت نكبة السلام فى عهده الجديد فإن القوى التى سيطرت على العالم قبيل الحرب بقيت مؤثرة وازدادت قوة وظلت معالمها واضحة تؤثر فى اتجاهات السياسه العامة للدول وتسوقها فى نفس الطريق الذى سارت فيه قبل الحرب فضلا عن ظهور قوى جديدة زادت من حدة الخلاف فإن انتصار البولشفية فى الروسيا قد انتزع من المجتمع الدولى قوة دولية كبرى تعتنق مذهبا فى الحكم والسياسة والاقتصاد ونظام المجتمع يسير على طرفى نقيض ومعتقدات العالم ونظمه وتقاليده ثم ظهرت مذاهب سياسية جديدة كالنازية والفاشية وأن جاءت متأخرة فى ظهورها عن البولشفية إلا أنها كانت نتيجة طبيعية للحرب بما قضت عليه من الأنظمه القديمة وكان لابد من أن تحل محلها أنظمة جديدة وتركت هذه الأنظمة الجديدة من آثارها العميقة فى أفكار الشعوب وأنظمة الأمم وتقاليدها ما كان له أعظم الأثر بما خلفته من آثار عميقة فى مجتمعاتها خاصة وفى المجتمع الدولى عامة فى فترة ما بين الحربين . وخيل للعالم أن الأنظمة الديمقراطية تتهاوى تحت ثقل هذه القوى المذهبية التى سيطرت فى خلال فترة ما بين الحربين وأن العالم يتطور إلى شكل جديد فى نظمه وعقائده وأفكاره وأن هذا الصراع القائم بين الأنظمة والمذاهب الإجتماعية والسياسية ليس إلا مرحلة من مراحل تطور المجتمع ليستقر بعدها على نظام يرتضيه ويقضى على تباين هذه المذاهب وصراعها بعد أن تنصهر وتتبلور فى شكلها الجديد .

ولعل أهم آثار العصبة أنها اعترفت للدول الصغرى بصوت مسموع بجانب الدول الكبرى وإن ظلت سيطرة الدول الكبرى أبعد من أن تتأثر باتجاهات الدول الصغرى أو مطالبها ، فإذا كان الميثاق ينص على وجود خمسة أعضاء دائمين فى المجلس

التنفيذى للعصبة يمثلون الدول العظمى وأربعة غير دائمين زيدوا فيما بعد إلى تسعة فأصبحت لهم الأغلبية فى المجلس بعد أن كانت للدول العظمى وان كانت قرارته لا تصدر إلا بإجماع الآراء إلا أن تيارات السياسة العالمية ظلت تسلك مجاريها دون أن تتأثر بنظام العصبة ومراميها وكان ذلك أول عامل فى انهيارها وفشل نظامها .

ولم يكن للعصبة أثر بين بلدان الشرق الأوسط إلا أنها أقرت عليه أنظمة جديدة تأثرت إلى حد بعيد بأطماع الدول الغالبة ومصالحها وعلى الأخص انجلترا وفرنسا فجرت سياسة هاتين الدولتين تحدوها رغبة الانتقام من تركيا كما تحدوها مصالحها الخاصة وتشابك هاته المصالح واضطرابها وسط الأجواء القومية وأنوائها فى شعوب هذه المنطقة وعلاقات انجلترا القديمة ببعض هاته الشعوب ومصالحها فيها ووعودها التى ارتبطت بها لبعضها الآخر فى خلال الحرب فكانت المشكلة حتى بين هاتين الدولتين الحليفتين أبعد من أن تسير هينة سهلة وفق هذه العوامل المتضاربة .

وقد أدت رغبة الانتقام من تركيا إلى فرض معاهدة سيفر عليها كما أدى تضارب المصالح لكل من انجلترا وفرنسا إلى تلك التسويات التى أرضت إلى حد ما أطماع كل منهما واستطاعت انجلترا من ناحيتها أن توفق بين مصالحها ووعودها لأمراء البيت الهاشمى ويجب أن نفرق هنا بين وعودها لعميد البيت الهاشمى ووعودها للعرب فقد أحبت أن تعتبر اتفاقها مع الحسين بن على اتفاقا شخصيا يكفيها للوفاء به أن تحقق له أطماعه فى الملك والسيادة دون ما نظر أو رعاية للوعى القومى فى الشعوب العربية وقد اعتبرها الحسين قاعدة لاتفاقه مع البريطانيين فلم يرض إلا بتحقيق ما جرى به الاتفاق كاملا غير منقوص .

واستقبلت الفترة التى تلت الحرب هذا التنظيم الجديد لشعوب الدولة العثمانية التى انسلخت عنها بفرض الانتداب على بعضها واستقلال بعضها الآخر كما استقبلت ظهور تركيا الجديدة بثورتها على معاهدة سيفر وثورة المصريين على الحماية والإحتلال وقيامة الفرس ضد القيود التى أرادت بريطانيا أن تكبلهم بها وبداية عهد جديد فى تاريخهم وشهدت هذا الصراع العنيف بين النفوذ الأجنبى وطموح الشعوب التى ظلت خاضعة

للنفوذ الأجنبي للتخلص من كل ما يربطها به وحرص النفوذ الأجنبي على دعم قواعده وإن نزل على انتهاج أساليب جديده تساير روح العصر وتجارى رغبات الشعوب إلا أنها فى حقيقتها لا تخرج عن هدفها الأصيل لتوطيد نفوذها ودعمه فيها .

وكانت مشكلة الدولة العثمانية والنظام الذى فرضه الحلفاء عليها وعلى الشعوب التى انسلخت منها أول ماواجه مؤتمر الصلح وشغل القوى الكبرى التى خرجت ظافرة من الحرب وكان هـذا أهم ما نعتبره من النتائج العامة للحرب فى الشرق الأوسط لعظم ما انطوت عليه من آثار .

تركيا ومعاهدة سيفر :

عقدت الهدنة بين تركيا والحلفاء فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ ووقع عليها ممثلوا الطرفين فى جزيرة « مدروس » على مقربة من الدردنيل وكانت مبادىء ويلسون تراود أحلام المغلوبين فى صلح عادل لاتنزوا فيه عوامل الشر والحقد على عوامل الخير والسلام وكان حق تقرير المصير للشعوب المغلوبة يتناول بالذات مستقبل المستعمرات الألمانية وشعوب الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية .

ولكن الترات القديمة والإحن الموروثة والأطماع السافرة غلبت على روح الخير التى لاحت فى تباشير مبادىء ويلسون وولج الحلفاء أبواب مؤتمر الصلح وهم يبيتون نواياهم على الخروج بنصيب الظافرين فى ميراث المغلوبين .

وقد بيت الحلفاء أمرهم بليل على اقتسام الميراث منذ بداية الحرب وقبل أن تضع أوزارها بزمن طويل وكانت الاتفاقات السرية تتناقض والوعود المبذولة للشعوب التى ضمتها الدولة العثمانية فى نطاقها طوال سبعة قرون ، بل عول الحلفاء على فض المسألة الشرقية بالقضاء على الدولة العثمانية وتقسيم أملاكها وامتلاك الآستانة والسيطرة على البواغيز ، ففى خلال بضعة أيام من توقيع الهدنة اجتازت أساطيل الحلفاء بحر مرمرة بعـد أن احتلت قواتهم حصون الدردنيل نحو الآستانة حيث أنزلت

ممثلى الحلفاء العسكريين واحتلت قلاع البوسفور وأضحت لهم السيطرة كاملة على الآستانة .

ولم يرع الحلفاء شروط الهدنة ودفعوا اليونان لاحتلال أزمير وكان احتلال أزمير فضلا عن اشتداد صولة الحلفاء فى الآستانة قد أشعل الحركة الوطنية فهب الأتراك عن بكرة أبيهم يكتبون صفحه رائعة من صفحات تاريخهم الحربى المجيد .

وقد ظل الحلفاء مترددين فى البت فى مصير تركيا حتى أوائل سنة ١٩٢٠ فقد اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى لندن فى فبراير من تلك السنة لتقرير مستقبل تركيا واتسعت هوة الخلاف بين الإنجليز من ناحية والفرنسيين والإيطاليين من ناحية أخرى حول تقرير مصير الآستانة فقد كانت انجلترا تريد نزع الآستانة من يد الأتراك بينما لم توافقها فرنسا وإيطاليا وقد سلمت انجلترا بوجهة نظرهما نتيجة لقيام موجة من الإستياء فى أنحاء العالم الإسلامى لهيض جناح الدولة العثمانية وانتهاك حرمة الآستانة مقر الزعامة الروحية للمسلمين فى العالم وكانت موجة الإستياء على أشدها فى الهند الإسلامية التى كان يمثلها فى لندن الوفد الهندى وقرر المجلس الأعلى للحلفاء فى ١٤ فبراير سنة ١٩٢٠ بقاء الآستانة فى يد الأتراك وحرية المرور فى البواغيز وإيجاد الضمانات الكافية لذلك ، على أن الحلفاء مع تسليمهم بهذا لم يكن فى نيتهم أنصاف تركيا أو معاملتها معاملة طيبة ولا سيما انجلترا التى لم تكن تحبذ قرارات الحلفاء بشأن الاستانة وسرعان ما أرسلت أسطولها ليرابط فى مياهها فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢٠ .

وفى غضون ذلك اجتمع مجلس المبعوثان لمناقشة ما يجب عمله للوطن فى محنته فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠ وأصدر « الميثاق الوطنى » متضمنا القواعد التى جعلها الأتراك أساساً للصلح وأصبح هـذا الميثاق البرنامج السياسى لتركيا الجديدة وقد نص على :

١ — أن تنزل الدولة عن البلاد العربية على أن يقرر مصيرها وفقا لأرادة شعوبها وأن يبقى الوطن التركى الذى يضم القومية التركية وحدته السياسية التامة .

٢ — أن يعين مستقبل تراقيا الغربية بعد استفتاء أهلها .

٣ — أن تقبل تركيا القواعد الخاصة بحقوق الأقليات على أن يكون للأقليات الإسلامية فى الدول المجاورة نفس الحقوق .

٤ — أن تكفل الدول أمان الأستانة وبحرمرمرة وصيانتها من كل سوء وفتح البواغيز بشرط المحافظة على هذه القاعدة ، لحرية التجارة والمواصلات الدولية .

٥ — استفتاء السكان فى قارس وأردهان وباطون وهى المناطق التى يدور حولها الخلاف مع أرمينيا .

٦ — الإعتراف بالاستقلال التام للدولة وحريتها التامة لترتقى حركتها الوطنية والإقتصادية حتى تتمكن من تأسيس إدارة ملائمة للحياة العصرية .

وكانت الآستانة على إتصال دائم بالحركة فى الأناضول عن طريق زعماء مجلس المبعوثان وكانت إنجلترا لا زالت تتنمر للأتراك وتطمع فى احتلال الآستانة احتلالا عسكريا للقضاء على الحركة الوطنية فى الأناضول وقطع الصلات بينها وبين الآستانة واتفق الحلفاء على أن يكون الإحتلال مشتركا وتم إحتلالها فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ وكان للحلفاء فيها قوة عسكرية من قبل تحت قيادة فرنسية وأراد الإنجليز بهذا الاحتلال الأخير الذى كان تفوقهم فيه واضحا أن تكون السيطرة على البواغيز والآستانة فى أيديهم وامتد الإحتلال إلى النواحى الإدارية والمدنية وأصبحت لهم السلطة فى مدينة الخلفاء وألقوا القبض على زعماء الحركة وقوادها فى الآستانة ونفوهم إلى مالطه .

وعلى أثر ذلك تألفت وزارة الداماد فريد وقامت بمفاوضة الحلفاء الذين وضعوا فى مؤتمر سان ريمو فى أبريل سنة ١٩٢٠ قواعد الصلح مع تركيا وطلبوا إلى الداماد فريد أرسال الوفد العثمانى إلى مؤتمر الصلح الذى ينعقد فى باريس فى ١٠ مايو .

وصدم الوفد العثمانى بشروط الصلح التى عرضها الحلفاء وكان من العبث أن يرضى بها الوطنيون فى تركيا ولم يقرر مؤتمر سان ريمو الطريقة التى يكره بها الحلفاء

الأتراك على قبول القواعد التى وضعوها وعرض فنزيلوس على الحلفاء أن تقوم اليونان بأخماد الحركة الوطنية فى الأناضول وكان البريطانيون يشجعون اليونانيين على ذلك للقضاء على تركيا قضاء لا تقوم لها قيامة من بعده .

واحتل اليونان باليكروبندرمه وبروصه وحالوا بين القوات الوطنية وبين الضغط على الحامية البريطانية فى أزميد كما حالوا بينهم وبين تهديد الملاحة بين بحر مرمرة والبحر الأبيض المتوسط ، ولم تفلح وزارة الداماد فريد فى تخفيف شروط الصلح وانتهى الرأى بها إلى قبولها وأبرمت معاهدة سيفر فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ .

وكانت معاهدة سيفر أشد وقعا على الأتراك مما كانت معاهدة فرساى على الألمان فقد كانت تحمل فى نصوصها روح التعصب الغربى المقيت حيال الشرق وكان عدوان الأرمن واليونانيين عدوانا صليبيا سافرا يحمل فى ثناياه كل تعصب مقيت وقد وصفت الهيئة التى انتدبها الحلفاء لتحقيق فظائع اليونان فى أزمير بعد احتلالهم لها بأن « الإحتلال اليونانى قد انقلب فتحا وحربا صليبية » .

وقد قضت معاهدة سيفر ببتر البلاد العربية من جسم الدولة العثمانية وأباحت أن تملك الجمهورية الأرمنية ماتشاء من ولايات أرضروم وطرابزون ووان وبتليس وأن تحتل القوات البريطانية والإيطالية والفرنسية مدينة الآستانة وولايتها وأزميد والأجزاء الشمالية من ولاية بروصه وأن تتكفل الحكومة العثمانية بنفقات جيش الإحتلال وأن تضم ولايتا أزمير وإدارته إلى اليونان وأن تقسم الأجزاء الباقية من تركيا إلى مناطق نفوذ بين انجلترا وفرنسا وإيطاليا واليونان وجعلت أمر الأشراف على البواغيز إلى هيئة خاصة اسمتها « لجنة مراقبة البواغيز » ولم تكن الحكومة التركية ممثلة فيها إذ اشترطت لقبولها فى عضوية الهيئة أن تكون عضوا فى عصبة الأمم ، وكانت الهيئة مؤلفة من ممثلى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا واليابان واليونان ورومانيا ، وأن تقبل فيها الروسيا وبلغاريا بعد قبولهما فى عصبة الأمم ، وما كانت هذه الهيئة غير دولة فى داخل دولة فقد كان لها علمها الخاص ونظمها وميزانيتها المستقلة وخول لها فرض الرسوم المختلفة وتنظيم الملاحة فى بحر مرمرة والبواغيز وأن تكون لها ادارتها البوليسية الخاصة يقوم بها ضباط من الأجانب .

ولم تزد معاهدة سيفر الحركة الوطنية فى الأناضول إلا اشتعالا وأصدر مصطفى كمال منشوراً بأن الحكومة الوطنية ترفض المعاهدة ولا تعترف بها .

وفى غمار هـذه الحوادث وقعت الحرب بين جمهورية أريفـان الأرمنية والحكومة الوطنية بالأناضول وكان الهجوم اليونانى قد توقف فى الأناضول على أثر الأحداث السياسيـة التى كانت جارية فى اليونان بين أنصـار فنزيلوس وأنصار الملك قسطنطين وكانت فرصة ساقها القدر للجيش الوطنى فى الأناضول للقضاء على عدوان الأرمن قبل أن يعاود اليونانيون هجومهم وقد استولى الأتراك على قارص واحتلوا قلعتها المنيعة وأسروا حاميتها وتقدموا نحو أريفان العاصمة فى ظروف مناخية بلغت غاية القسوة فقد وصلت درجة البرودة إلى ١٥ تحت الصفر واستولوا عليها واستمروا فى تقدمهم حتى قضوا على قوات الأرمن بين كوبرى وقاره كليسه وتخلص الوطنيـون من مناوأتهم وأمنـوا ولاياتهم الشرقيـة وهى أرضروم وطرابزون ووان وبتليس وانفرج فى وجوههم طريق الإمدادات الحربية من أذربيجان .

وعاود اليونانيون هجومهم فى الأناضول فى أوائل يناير سنة ١٩٢١ وكانوا قد أعدوا له ما استطاعوا من عدة وعديد للقضـاء على الوطنيين وفرض معاهدة سيفر على تركيا بعد أن اتجهت نوايا بعض الحلفاء إلى تعديلها بغية إقرار السلام فى الشرق وكان اهتمام اليونان بالقضاء على تركيا يقوم فى الحقيقة على رغبتها فى أن تخلف تركيا فى زعامتها الدولية فى الشرق الأدنى وفى تلك المنطقة البلقانية الفسيحة الأرجاء ودولها الناشئة التى لم تستكمل بعد عوامل نضجها السياسى وقوتها الدولية .

وهزم اليونانيون هزيمة نكراء فى «إين أوكى» بعد معركة حامية الوطيس حارب فيها الطرفان حربا باسلة التحمت فيها قواتهم مراراً فى وحشية بالغة وخسر فيها اليونانيون أربعة آلاف من خيرة ضباطهم وجنودهم عدا ألف وخمسمائة من الأسرى .

وكانت المسألة الشرقية وإقرار السلام فى الأناضـول بعض ما تناوله الحلفاء فى مؤتمر باريس فى ٢٤ يناير سنة ١٩٢١ بعد انتصار الأتراك فى معركة إين أوكى

بضعة أيام ، وطالب الكونت سفورزا مندوب إيطاليا فى المؤتمر بتعديل معاهدة سيفر وناصره بريان الفرنسى فى ذلك ولكن لويد جورج الإنجليزى عارض اقتراح سفورزا معارضة شديدة وأخيراً قبل الحلفاء دعوة ممثلى تركيا واليونان لمناقشة معاهدة سيفر فى مؤتمر يعقد بلندن فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ ولم يصل مؤتمر لندن إلى فض الخلاف بين تركيا واليونان .

وتجدد القتال بين الفريقين وكانت إنجلترا تمد اليونان بالذخائر والعتاد فأعدت للمعركة القادمة أكثر منه مائة ألف مقاتل واستدرج الأتراك هذا الجيش من الكبير إلى ميدان «اين أونو» وأوقعوا به هزيمة فرت على أثرها فلوله تاركة خلفها آلاف القتلى والعتاد الحربى والمهمات الوفيرة .

وبدأت إنجلترا تميل إلى تدخل الحلفاء بعد مابدا من عجز اليونان حيال الأتراك وتسوية الخلاف بالطريقة التى تقرها الدول ولكن اليونان رفضت وساطة الدول وكانت إنجلترا تؤيدها سراً كما تؤيد فرض معاهدة سيفر قسرا على الأتراك وقد ضمنت فى هذه الآونة أن تخرج بنصيب الظافرين من ميراث المسألة الشرقية ، ورجحت كفة السياسة البريطانية نحو تركيا بعد سقوط كونت سفورزا الذى كان يعطف عليها ويدعو إلى تعديل معاهدة سيفر لإقرار الحالة فى الشرق .

وتجدد الهجوم اليونانى فى ٨ يوليه سنة ١٩٢١ وتقدمت قواتهم نحو خط اسكى شهر وكوتاهية أفيون قره حصار واحتلت هذه المدن وبدا هجومهم متفوقا فى أول الأمر ودارت المعركة الأخيرة حول نهر سقاريا وكانت معركة خالدة فى تاريخ الأتراك الحربى وكتبت لهم الظفر النهائى فى معركة الأناضول واستمرت معركة سقاريا دائرة الرحى إحدى وعشرين يوما من ٢٤ أغسطس إلى ١٦ ديسمبر فكانت بهذا من أطول معارك التاريخ أمدا .

وكان نجاح الوطنيين فى ميدان السياسه الخارجية لا يقل عن نجاحهم فى ميدان الحرب فقد كانت وفودهم فى الخارج تتصل بساسة الدول الأوربية فى موسكو وباريس وروما داعية للقضية الوطنية فتجد تأييدا وتشجيعاً فى هذه العواصم الثلاث .

وكان من انتصار الأتراك وتفوقهم فى ميدان القتال ما آزر جهود هؤلاء الساسة حتى تكللت بالنجاح فعقدوا اتفاقا مع السوفييت فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ فى معاهدة نصت على استرجاع روسيا لثغر باطوم على أن تعترف لتركيا بامتلاكها أردهان وقارص كما اعترفت تركيا فى اتفاقية قارص بينها وبين الروسيا فى ١٣ أكتوبر بجمهورية أرمينيا السوفييتية وكانت حكومة الثورة قد أعلنت وقت قيامها تنازلها عن أطماعها الإقليمية فى المضايق والبلقان وحرية الشعوب فى تقرير مصيرها مما قرب وجهات النظر بينها وبين تركيا .

وأرادت فرنسا بدورها أن تنهى حالة الحرب بينها وبين تركيا ونادت بتعديل معاهدة سيفر فى المؤتمرات الدولية ولقيت تأييداً لم يكن له أثر ما حيال تمسك البريطانيين واليونانيين بها فلجأت إلى تصفية مشاكلها مع الحكومة الوطنية فى أنقرة رأساً وكانت نتيجة هذا الاتجاه الجديد اتفاق الطرفين فى ٢٠ أكتوبر اتفاقا كان من شأنه جلاء القوات الفرنسية عن كيليكيا مقابل بعض الإمتيازات التجارية كما أقر هذا الاتفاق الحدود الجديدة بين سوريا وتركيا واعترف باللغة التركية لغة رسمية فى سنجق الإسكندرونة .

وقبل الحلفاء فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ النظر فى تعديل معاهدة سيفر ولكن الأتراك رفضوا وضع السلاح قبل جلاء القوات اليونانية عن الأناضول وبدأ النضال من جديد وكان الحلفاء قد أنذروا القوات اليونانية بعدم الإقتراب من الآستانة وحالوا بينها وبين احتلالها .

وتحول الأتراك إلى الهجوم واستولوا على أفيون قره حصار وبروصه مقتفين أثر الفلول اليونانية المتقهقرة إلى الغرب ، ودخلوا أزمير بعد أن أخلتها القوات اليونانية كتلة من النيران .

وقد أثار انتصار الأتراك خوف بريطانيا على تحقيق أهدافها فى المضايق فاتجهت إلى الحلفاء وشعوب الدومنيون تستعديهم على تركيا ولكن هؤلاء لم يبد منهم

أى اهتمام بما أثارته بريطانيا فوقفت كل من فرنسا وإيطاليا موقفا سلبيا ولم يبد من شعوب الدومنيون تأييد لاتجاه بريطانيا فيما عدا استراليا ونيوزيلندا فقد أظهرتا نوعا من الاهتمام بالأمر ، ولكن بريطانيا سارعت بإنزال قواتها بقيادة الجنرال هارنجتون فى جناق قلعة فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

وأعد الوطنيون عدتهم لاستعادة تراقيا وكان هذا كفيلا بخلق احتكاك عسكرى جديد مع القوات الإنجليزية فى جناق قلعة ولكن الحلفاء اعترفوا فى اتفاقية «مدانيا» فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ بإرجاع تراقيا الشرقية إلى تركيا واعترف الأتراك بدورهم بحيدة البواغيز تحت إشراف الدول .

وكان فشل سياسة لويد جورج الشرقية كفيلا باتجاه السياسة البريطانية وجهة جديدة لإقرار السلام فى الشرق وعقد مؤتمر لوزان فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢ لهذه الغاية ولكنه انفض دون الوصول إلى اتفاق ما فى فبراير سنة ١٩٢٣ ثم استأنف مباحثاته فى ٢٣ أبريل ووصل أخيراً إلى نصوص معاهدة لوزان التى وافق عليها الطرفان فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ وبمقتضاها جلت القوات الأجنبية عن الأناضول والآستانة وأقرت المعاهدة حق تركيا فى تراقيا الشرقية حتى نهر مرتزا كما استعادت جزيرتى أمبروس وتيندوس أما باقى جزر بحر إيجه فقد أصبحت لليونان واعترفت المعاهدة بجزر الدوديكانيز لإيطاليا وقبرص لإنجلترا وكانت إيطاليا قد احتلت الدوديكانيز سنة ١٩١٢ وبسطت إنجلترا سيطرتها على قبرص برضاء الدولة العثمانية بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٨ . أما المضايق فقد نصت معاهدة لوزان على عدم قيام تحصينات إلى مسافة معينة على كلتا الضفتين وان سمحت بتحصين الآستانة وقيام حاميه تركيه قوامها اثنى عشر ألفا بها كما نصت على حرية الملاحة فيها فى السلم وفى الحرب إذا كانت تركيا على الحياد أما إذا اشتبكت فى الحرب فأن حرية الملاحة فى المضايق تكون وقفاً على بواخر الدول المحايدة .

وقد قبلت كل من تركيا واليونان تبادل الأقليات بينهما مما كان له أثره فى تسوية الخلافات القديمة بين الشعبين وبدء سياسة جديدة فى علاقتهما .

واستقبلت تركيا عهدها الجديد بإلغاء الخلافة فى مارس سنة ١٩٢٤ وكانت قد ألغت السلطنة فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ وأعلنت الجمهورية التركية وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ وأصبحت أنقره مهد الحركة الكمالية عاصمة للبلاد فى عهدها الجديد بدلا من الآستانة القديمة وكان إلغاء الخلافة أول نذير باستدبار تركيا ماضيها وزعامتها وحضارتها الشرقية لتطالع الغرب وحضارته فى إصرار ويقين وإيمان به وبتقاليده ونظمه وحضارته ومثله العليا .

ولا يفوتنا أن نتدبر تطور السياسة الدولية حيال تركيا فى أعقاب الحرب فقد جرت الأحداث السياسية على غير ماجرت به حوادث التاريخ فى القرن التاسع عشر فقد كانت أهداف روسيا التقليدية تدور حول السيطرة على البواغيز والتغلغل فى البلقان والوصول إلى المياه الدافئة وكانت إنجلترا تقف لها بالمرصاد وتمنعها من التهام الرجل المريض ليقف حائلا بينها وبين تهديد روسيا لمواصلاتها البحرية فى البحر الأبيض المتوسط خاصة وفى الشرق الأوسط عامة وكانت الدولة العثمانية وفارس المستقلة تقفان سداً منيعاً أمام التقدم الروسى إلى مناطق النفوذ الإنجليزى أوخطوط المواصلات الإمبراطورية أو المراكز الاستراتيجية البريطانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط أو فى الخليج الفارسى أو على طريق الهند

وقد تقاضت الروسيا نصيبها فى الاتفاقات السرية التى أبرمت بين دول الوفاق فى مستهل الحرب والتى دارت حول تقسيم ميراث الرجل المريض وأقرت لها بامتلاك الآستانة والشاطىء الأوربى للبسفور وبحر مرمرة والدردنيل وكذلك شقة ضيقة من الشاطىء الأسيوى لبحر مرمرة وتعهدت فى مقابل ذلك أن ترعى مصالح حليفتيها إنجلترا وفرنسا فى تلك المنطقة .

ولكن قيام الثورة البولشفية وخروج روسيا من معركة الأمم وإعلانها مبادىء الثورة الجديدة التى تقوم على التعاون والأخاء والمساواة بين الشعوب وحق كل شعب فى تقرير مصيره ونزعهم الأطماع الاستعمارية وتبرؤهم من المعاهدات السرية وشروطها وإعلانهم نصوص هذه المعاهدات السرية التى عقدت بينها وبين دول الوفاق وجفوتها

فى هـذا الوضع الجديد لأطماعها الإستعمارية التقليدية وبالتالى لأهدافها القديمة فى الآستانة والبواغيز ، فلم يبق مجال للخوف أو الجفاء بينها وبين تركيا بل أصبح هـذا العدو القديم أكبر نصير لها فى جهادها ضـد الحلفاء وفى مؤتمر لوزان الذى عقد لتسوية الموقف فى الشرق وإنهاء حالة الحرب بين تركيا وأعدائها . وكانت روسيا قد نجحت فى القضاء على الجفاء التقليدى بينها وبين تركيا وأبرمت معها معاهدة صداقة سنة ١٩٢١ تنازلت لها فيها عن قارص وأردهان وأريفان الأرمنية بعد أن نجحت الجيوش الوطنية التركية فى الاستيلاء عليها واستردت روسيا فى مقابل ذلك باطوم واعترفت لها تركيا بضم جورجيا وأرمينيا إلى جمهوريات السوفيت .

وكان موقف روسيا من البواغيز فى مؤتمر لوزان يدور حول أقرار حق تركيا فى حمايتها وتحصينها وهو الحق التقليدى الذى جرت بريطانيا على توكيده وإقراره طوال القرن التاسع عشر ولـكنها فى مؤتمر لوزان جاءت تبشر بحرية الملاحة فى البحار وعلى تركيا أن تترك الملاحة فى البواغيز حرة فلا تقيم فيها قواعد بحرية أو جوية أو تحصينات أو حاميات من أى نوع ولا ترسى فيها سفنا حربية ولا تبث فيها ألغاما تعوق الملاحة فى السلم أو فى الحرب .

والواضح فى هذا الاتجاه الجديد أن بريطانيا وقد خرجت من الحرب ظافرة كانت تأمل فى عالم يطول فيه السلام فى ظل سيادتها الجديدة التى لم تدع الحرب لها ما ينافسها ويقض مضجعها الذى أمنت اليه واستراحت فيـه . وكان يهمها أن تظل سيادتها وقد حققتها الحرب قوية فلا يقوم من هـذه الدول المغلوبة مارد يهدد أمنها وسلامتها وسيادتها فكان كل همها فى معاهدات الصلح أن تشل منابع القوة فى هذه الدول المغلوبة فلا تعود بعدها أبداً إلى استعادة قوتها والوقوف أمامها من جديد والحد من أطماع حلفائها حتى لا تـكون قوتهم الجديدة منافسا خطيراً لنفوذهم الجديد فى العالم . كما كان من صالحها وقد تحققت لها سيادة البر والبحر أن تـكون الطرق والممرات والمنافذ البحرية مفتوحة أمامها لا يعيقها عائق عن الوصول إلى أهدافها والمحافظة على سلامتها وسيادتها وكانت حرية الملاحة فى البواغيز بعض ما تهدف اليه وتنادى به ثقة منها بسيادتها وأملا فى أن لا يعيق هذه السيادة أى عائق فى تغلغلها فى بقاع العالم ونواحيه المتباينة وأن يكون البحر الأسود بين ما تجوبه سفائنها من البحار .

وثمة عامل جديد هو ظهور روسيا بمبادئها واتجاهاتها الجديدة فى المجال العالمى ظهوراً أثار كثيراً من الخوف والقلق من تسرب هذه المبادىء الجديدة إلى الأمم الأخرى وحمل الدول على تجنبها والحذر منها والرغبة فى القضاء عليها فضلا عما كان لانسحاب روسيا من الحرب من أثر مرير فى نفوس الحلفاء .

وكان من البين أن اصرار بريطانيا والحلفاء على أقرار حرية الملاحة فى البواغيز وتجريد مناطقهامن التحصينات والمراكز الدفاعية والقواعد الحربية كان لتيسير وصول الأسطول البريطانى أوأساطيل الدول المتحالفة إلى مياه البحر الأسود وتهديد روسيا تهديداً مباشرا فى القرم وقد وضحت هذه الحقيقية عند ماقامت بريطانيا بإنجاد الروس البيض ومدهم بالعتاد والذخائر لحرب السوفيت عبر المضايق إلى البحر الأسود .

وأدركت روسيا هذه الغاية وقدرتها فكان ممثلها شيشيرين فى مؤتمر لوزان يناهض مناهضة قوية حرية الملاحة فى البواغيز أو نزع سلاحها أو جعلها تحت الأشراف الدولى ، ولكن تركيا وقد حققت فى معاهدة لوزان جل ماتصبو إليه لم تشأ أن تثير أشكالا جديدا بشأن البواغيز فى وقت اتجهت فيه سياستها إلى النهوض بالوطن فى الداخل مولية ظهرها مشاكل العالم وخلافاته القائمة ما دامت لاتعرقل أهدافها الجديدة أو سياستها الداخلية ، فسلمت للحلفاء بمطالبهم فى البواغيز على غير مارغبت حليفتها روسيا تاركة للزمن مداواة جروحها ودعم حقوقها ، ولم ترض روسيا عن هذا الموقف من حليفتها تركيا ، وإن وافقت فى النهاية على معاهدة لوزان التى ظلت سارية دون أن تمس ما يتوقف على اثنى عشر عاما حتى واتت الظروف الدولية المناسبة فانتهبتها تركيا لمطالبة الدول بتعديلها فيما يخص البواغيز واستجابت بريطانيا لها وعقد مؤتمر مونترو سنة١٩٣٦ ليقرر حق تركيا فى السيادة على البواغيز وحقها فى تحصينها وتسليحها .

أما إيطاليا فقد وعدها الحلفاء بأقليم أضاليا فى الأناضول عام١٩١٥ ثمنا لإعلانها الحرب على حلفائها بالأمس وفى عام ١٩١٧ وعدت بأزمير وبعض المناطق الأخرى

وكانت تحتل الدوديكانز منذ عام ١٩١٢ بعد إعلانها الحرب على تركيا واحتلال طرابلس .

وفى أعقاب هدنة مدروس التى أنهت حالة الحرب بين الأتراك والحلفاء كان السباق عنيفاً للفوز بالأسلاب الجديدة فاندفع اليونان فى مغامرتهم العسكرية نحو الأتراك لتوطيد سيادتهم الجديدة على ما منحتهم معاهدة سيفر من مناطق النفوذ فى غرب الأناضول كما احتل الفرنسيون كيليكيا فى الشرق ونزلت قوات الحلفاء فى الآستانة .

وكان لاختلاف الحلفاء على اقتسام الأسلاب وسعى بريطانيا للفوز بنصيب الأسد فى القسمة الجديدة رغم ما أبرموه من اتفاقيات وما أقروه من عهود أثره الملموس فى مهادنة السياسة الفرنسية والإيطالية لتركيا فقد كانت إيطاليا لا ترضى احتضان انجلترا لليونان مما يحقق لها كثيراً من أسباب التفوق والبروز فى البحر الأبيض المتوسط خوفاً على كيانها ونفوذها فيه ثم أن معاهدة سيفر منحت أزمير لليونان على خلاف ما وعد به الحلفاء إيطاليا فى اتفاق أغسطس سنة ١٩١٧ .

أما فرنسا فلم تكن تنظر بعين الارتياح لسياسة حليفتها فى سوريا ورأت فى اتجاهاتها الجديدة عرقلة لمراميها وأغراضها فى تلك البلاد ، فما كان منها إلا أن سارعت بانهاء حالة التوتر القائمة بينها وبين تركيا فى الشرق وسلمت لتركيا بحقها فى كيليكيا بل خطت خطوة أبعد من هذا بالتنازل لتركيا عن منطقة الموصل مقابل بعض امتيازات اقتصادية تكون لها فى المستقبل وظلت تلح فى تعديل معاهدة سيفر وإقرار الحالة فى الشرق بما يرضى تركيا ويحقق السلام فى تلك الربوع .

وجرى كونت سفورنا مندوب إيطاليا على نصرة تركيا فى المؤتمرات الدولية التى عقدها الحلفاء لإقرار الحالة فى الشرق وكان يطالب بتحقيق سيادة الأتراك على البلاد العثمانية حتى يستقر التوازن الدولى فى تلك المنطقة على أسس واضحة معقولة . ولم تتمسك إيطاليا بحق مامنحتها اتفاقية سنة ١٩١٥ بينها وبين الحلفاء من سيادة على

إقليم أضاليا وحفظ لها الأتراك هـــذا الصنيع فأقرت سيادتها على جزر الدوديكانيز فى معاهدة لوزان .

وظفرت اليونان بجزر بحر إيجه وإن كان ظفرها هذا لا يعادل خسارتها الفادحة فى حرب الأناضول . وكانت اتفاقية تبادل الأقليات بين الدولتين غرما على اليونان فقد كان عليها أن تقبل مليونا ونصف مليونا من اليونانيين الذين طابت لهم الحياة فى تركيا قريبا من الوطن كأترابهم من اليونانيين فى مصر والبلاد الشرقية الذين يجدون فى تلك البلاد وطناً ثانياً يكفل لهم طيب الحياة ولينها بعيداً عن شظف العيش وقسوة الحياة فى بلادهم التى لا ينسونها وإن نأت بهم الدار وبعد المزار .

ولم يكن هنـاك من الأتراك فى بلاد اليونان سوى نصف مليون كانت تركيا فى أشد الحاجة إلى جهودهم ونشـاطهم فى حياتها الجديدة التى ظفرت بها فى نضالها الأخير .

العرب في مؤتمر الصلح :

نجحت الثورة العربية ودخل فيصل على رأس قواته العربية دمشق يحمل ألوية الظفر وهلل أهل البلاد فرحاً بدخوله سوريا واستبشروا بنجاح الثورة وظنوا آمالهم فى الحرية والاستقلال تتحقق فى هـذا العهد الجديد فأعلنوا تأييدهم لها وترحيبهم بالحكومة الفيصلية فى البلاد الشامية .

وخشيت فرنسا مغبة انتصار العرب ووصول قواتهم إلى شمال سوريا والمناطق الساحلية منها فسارعوا بإنزال قواتهم فى بيروت واحتلال المناطق الساحلية من كيليكيا إلى الناقورة بعد أن أحتجت لدى القيادة البريطانية فى مصر على إحتلال القوات العربية لهذه المناطق وحملتها على دعوة فيصل بإخلائها وأصبحت البلاد العربية فى أعقاب الحرب وهى تخضع لإدارات متباينة فالحسين فى الحجاز يديره منذ أن أعترف الحلفاء به ملكا عليه فى نوفمبر سنة ١٩١٦ ، وإنفرد الإنجليز بالعراق يحكمونه فى ظل الأحكام

العسكرية ويشرف على إدارته مفوض ملكى بريطانى كانت الكثرة الساحقة من كبار معاونيه من الإنجليز والصغار من الهنود أما سوريا فقد خضعت لثلاث إدارات متباينة فالمنطقة الشرقية وتشمل سوريا الداخلية من العقبة إلى حلب تحت إدارة عربية على رأسها فيصل والمنطقة الغربية وتمتد على طول الساحل من الناقورة إلى كيليكيا تحت إدارة فرنسية والمنطقة الجنوبية وتشمل فلسطين تحت الإدارة البريطانية.

وكان أكثر ما يهم كل من فرنسا وإنجلترا فى مؤتمر الصلح ما سوف تكون عليه التسوية النهائية لمستقبل هذه البلاد ، وخضعت هذه التسوية لتيارات متضاربة تحكمت فيها الأهواء والمصالح المتباينة لكل من الإنجليز والفرنسيين ودخل الصهيونيون عنصراً آخر زاد الحل تعقيداً فضلا عما كان هناك من إتفاقات ووعود بين الإنجليز والعرب . وقد ظن العرب عندما نجحت الثورة ودخل فيصل على رأس قواته الظافرة دمشق وأخذ يهىء لقيام حكومة عربية مستقلة فى سوريا أنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق آمالهم فنزلوا إلى مؤتمر الصلح يحدوهم الأمل فى اقتطاف ثمار النصر وما عرفوا أن آمالهم ستصدمها هذه المطامع البادية للأنجليز والفرنسيين والصهيونيين وأسفرت هذه المطامع عن أساليبها البهلوانية من جانب إنجلترا وطابعها الأحمق الثائر من جانب فرنسا وطريقتها الخبيثة الماكرة من جانب الصهيونية ، ولم يكن غريبا على هذه الأساليب وهى التى ساست الاتفاقيات السرية التى أبرمت لاقتسام ميراث الدولة العثمانية أن تسوس النتائج وفق أهوائها ومطامعها ، فالصهيونيون ينشدون تحقيق حلمهم فى وطن قومى فى فلسطين والفرنسيون يتطلعون إلى سواحل اللفانت وسوريا التى تربطهم بها علائق ومصالح قديمة والإنجليز يهدفون إلى توطيد سيطرتهم فى ذلك القطاع من الأرض الذى يمتد من قناة السويس إلى الخليج الفارسى على طريق الهند.

وعقد مؤتمر الصلح وأرسل الملك حسين إلى ابنه الأمير فيصل وكان مقيما فى دمشق ينتدبه لتمثيل العرب فيه وتلقى الأمير برقية أبيه وهو فى حلب فغادرها إلى بيروت بعد أن أقام أخاه الأمير زيدا نائبا عنه فى سوريا ، واستقل الطراد البريطانى دوق جلوسستر إلى مرسيليا حيث وصلها فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩١٨ ليجد الكولونل لورنس

فى إنتظاره بملابسه العربية الأنيقة التى كان يعتز بارتدائها ، ولقى الأمير فى كنف الحكومة الفرنسية ترحيباً وتكريما كزائر كبير ليس له صفة الممثل السياسى أو المندوب الرسمى لحكومة معينة ، ولم يجد لورنس من آداب اللياقة ما وجد الأمير العربى من الحكومة الفرنسية بل طلب إليه أن يبرح فرنسا ما دام مصراً على ارتداء الملابس العربية .

ثم سافر الأمير إلى لندن حيث قوبل بموجة من التكريم والمجاملة غلبت عليها روح النفاق والتمويه ما لم يخف على الأمير الذى عرف بالأناة والدعة ولباقة المجاملة .

وأخذت خفايا الأمور تتكشف للأمير فى رحلته إلى مؤتمر الصلح شيئا فشيئا وأخذ يدرك نفاق السياسة الأوربية وخباياها وكان أول ماجبهه من ختلها يقينه بحقيقة ما شاع خلال سنى الحرب عن الاتفاقيات السرية التى أبرمها الحلفاء فيما بينهم حول تقسيم مناطق النفوذ فى البلاد العربية كما خيب آماله أصرار فرنسا على عدم الإعتراف بحكومته فى سوريا أو بتمثيل حكومة الحجاز فى مؤتمر الصلح كما وجد نفسه حيال حملة منظمة شنها الصهيونيون عليه وعلى أبيه لموقفها من وعد بلفور .

وأخذ شعور الأمير بالمرارة وخيبة الأمل يتضاعف كما وجد نفسه هدفاً لحملات قاسية سواء من الحكومة الفرنسية أو دعاة الصهيونية وأنصارها وتقاعس بريطانيا عن الأخذ بناصره ولم يكن له فى هذه الوحدة القاسية من ينصره ويأخذ بيده سوى صديقه القديم لورنس وقد لجأ إليه يستشيره فى الحاح الحكومة البريطانية عليه للاعتراف بالوطن القومى لليهود فى فلسطين وفى محاولة دعاة الصهيونية التأثير عليه لحمله على توقيع اتفاق مع الزعيم الصهيونى حاييم وايزمان لأقرار فكرة الوطن القومى كما أقرها البريطانيون ، ولم تجد نصيحة لورنس أو غيره من الأنجليز الذين عرفهم فيصل قبل ذلك فى الشرق لديه شيئا فقد كان يرى كأبيه أن التعاون بين العرب واليهود فى فلسطين أمر مستحيل فلم يستجب لألحاح الحكومة البريطانية أو محاولات الصهيونيين لديه أو نصيحة لورنس بأن تحقيق فكرة الوطن القومى لاتسىء إلى أمانى العرب أو تضر مصالحهم وقد فكر فيصل يوما ما فى إمكان التعاون بين العرب

واليهود فى فلسطين ولكن أوامر أبيه بالتزام الحدود التى رسمها له فى مؤتمر الصلح وفى مفاوضاته مع البريطانيين أو غيرهم لم تجعل له مجالا للتصرف بما يقتضيه تفكيره المستقل أو وحيه الخاص ، والمعروف أن فيصل قد قبل توقيع الاتفاق مع الزعيم الصهيونى وايزمان ولكنه علق تنفيذه على وفاء بريطانيا بوعودها لأبيه وتحقيق استقلال البلاد العربية .

وقد أخذ الكثيرون من زعماء البلاد العربية على فيصل قبوله الاتفاق مع الزعيم الصهيونى ولكن فيصل كان فى الحقيقة لا يجد ضيرا من قبول فكرة الوطن القومى لليهود تحت سيادة العرب مادام فى قدرتهم أن يكبحوا جماح طموحهم القومى وأهدافهم السياسية فقد استطاعت العقيدة الإسلامية أن تجاور العقائد الأخرى وتلمها فى رحابها وتتعاون معها وتتقبلها دون عنت لها أو ضير يقع عليها وفى سماحتها ما يجعلها تتقبل العقائد الأخرى فى رضاء واطمئنان فإذا قدر لليهود أن يعيشوا فى كنف العرب المسلمين فلا ضير عليهم من العرب ما دامت أطماع اليهود لا تحدوهم إلى عدوان مقيت أو جور ظالم ولا ضير على اليهود ما عاشوا مسالمين ثم أن وجود الأداة السياسية الكبرى فى يد العرب المستقلين ما يمنع جور اليهود ويحد من طغيانهم ، وهذا ما حدا بفيصل إلى توقيع اتفاقه مع وايزمان معلقا بتحقيق استقلال البلاد العربية ، ولكن ما اشترطه فيصل فى ذيل الاتفاق لم يتحقق فأصبح الاتفاق بدور غير ذى موضوع .

ولا يعود إلحاح الحكومة البريطانية على فيصل بقبول الاتفاق إلى مجاراة المطامع الصهيونية وتأييدها وقد كان كثير من يهود بريطانيا لا يتقبلون وعد بلفور قبولا حسنا بل راحت طائفة منهم تنكره وتقاومه قدر ما يعود إلى حرصها التقليدى على مصالحها الأمبراطورية فى فلسطين ، فإن فلسطين تحتل موقعا استراتيجيا ممتازا يهدد مواصلاتها الامبراطورية ويؤثر على سلامتها تأثيراً تاما فأنها تشرف من ناحية على طريق المواصلات البرى إلى الهند كما تطل على قناة السويس من ناحية ثانية وتتصل من ناحية ثالثة اتصالا مباشراً بالقواعد البريطانية فى الخليج الفارسى وكانت قد أخذت عهدا على الصهيونيين

قبل إصدار وعد بلفور بأن تكون فلسطين تحت حمايتهم وأن يرفضوا فكرة الإدارة الدولية أو الثنائية لفلسطين .

أما فرنسا فإنها لمست حرج موقفها فى سوريا وتعرض أطماعها فى الشرق للخطر ، فأخذت تلح فى تنفيذ اتفاق سيكس - بيكو وتتمسك بحذافيره وراحت بريطانيا تماطل فى تنفيذ الاتفاق ريثما تحقق أهـــدافها فى ضم الموصل إلى العراق وكانت ضمن منطقة النفوذ الفرنسى فيه وجعل فلسطين منطقة نفوذ بريطانى لادولى وجرت المحادثات بين لويد جورج وكليمنصو لتحقيق هذا الأمر وراح لويد جورج يوعز إلى كليمنصو بأن اتفاق سيكس - بيكو لم تعد له قيمته القديمة بعد أن أنكرته الروسيا وهى أحد أطرافه وكان يعتمد فى هذا بما أحرزته انجلترا من تفوق فى الميدان الشرق وبشعوره بما يكنه العرب من جفاء نحو الفرنسيين حتى ذهبت فرنسا فى تلك الآونة تتهم حليفتها بعرقلة مساعيها فى سوريا وتبدى شكوكها فى حسن نواياها من ناحيتها ولم تكن نوايا بريطانيا فى الحقيقة إلا تحقيق مصالحها وأهدافها الخاصة دون احراج حليفتها وإن لم يفتها أن تغمزها هذا الغمز مايثير شعور النقص فيها فتكون مصالحها أسهل تحقيقا وأيسر منالا مما لو أعتدت فرنسا بمكانتها وجهودها الحربية فى الشرق .

واتخذت بريطانيا من تحقيق وعد بلفور وسيلة لفرض انتدابها على فلسطين بعدما تبينت قيمتها الاستراتيجية من الناحية العملية لحماية قناة السويس وكان كتشنر أول من أشار إلى أهمية فلسطين فى الدفاع عن القناة ، ثم جاءت الحرب فحققت صدق نظريته وكان هذا التطور الجديد فى النظر إلى فلسطين واضحا فى خطوط السياسة الإستراتيجية الجديدة للامبراطورية .

ولم يكن لبريطانيا بعد الحرب من هم إلا حمل العرب على قبول فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين وكانت محاولات الحكومة البريطانية لحمل فيصل على تأييد أمانى الصهيونيين من الألحاح إلى حد أن لجأت إلى لورنس عساه يكون أقدر على إقناعه بقبول الفكرة الصهيونية والاعتراف رسميا بأسم العرب الذين يمثلهم بالوطن القومى ثم كانت محاولاتها فيما بعد مع الملك حسين فقد جعلت الإعتراف

بما فرضه مؤتمر سان ريمو من قرارات بشأن البلاد العربية أساساً لإبرام الإتفاق بينها وبينه وكانت مشكلة الوطن القومى لليهود فى فلسطين هى العقبة التى أصطدمت بها المفاوضات التى جرت بين الطرفين عام ١٩٢٣ فقد استقرت الأوضاع السياسية فى العراق وشرق الأردن على شكل يرضى بعض آمال الملك العربى وكانت مشكلة سوريا تتعلق بفرنسا مما لا يجعل لبريطانيا دخلا فى تقرير مصيرها مع الملك حسين ولم يبق غير مشكلة فلسطين حجر عثرة فى سبيل الإتفاق بين بريطانيا وحليفها العربى فى الحجاز الذى لم يقبل أن يعترف بالانتداب البريطانى على فلسطين وقيام الوطن القومى لليهود فيها وكان فشل الحكومة البريطانية فى حمل الحسين على الاعتراف بذلك كفشلها فى حمل فيصل على الاعتراف به من قبل .

وكان حرصها على سلامة هذا المركز الاستراتيجى الهام وضمان عوامل الأمن والاستقرار فيه هو الذى يحدوها إلى السعى وراء العرب للاعتراف بالوضع الذى حرصت على إقامته فى فلسطين حتى لا يكون عداء العرب لفكرة الوطن القومى لليهود مثارا لنزاع وقلاقل تهدد سلامة فلسطين واستقرارها الضروريين لتأمين المصالح البريطانية . ولم يكن صالح العرب وحقوقهم التاريخية مما يدور فى أذهان رجال السياسة البريطانية فى تلك الآونة أو فيما بعدها .

ورجع فيصل إلى باريس فى ٦ يناير عام ١٩١٩ لحضور مؤتمر الصلح بعد زيارته القصيرة للندن تلك الزيارة التى خلفت فى نفسه ألوانا من الخوف والقلق على مصير القضية العربية وشهد فيها تخبط السياسة البريطانية ، ليواجه فى فرنسا موجة من العداء لشخصه والاستنكار للمهمة التى يضطلع بها فى مؤتمر الصلح حتى عزمت على عدم الاعتراف لمندوب الحجاز بحضور المؤتمر ولكنها سرعان ما تراجعت عن موقفها بعد توسط الحكومة البريطانية ومثل الحجاز بمندوبين بدل مندوب واحد حضرا حفل افتتاح المؤتمر فى ١٨ يناير وفى ٢٩ حرر فيصل مذكرة بالقضية العربية لعرضها على المؤتمر وفى ٦ فبراير عرضت القضية لأول مرة ووقف فيصل يتكلم زهاء عشرين دقيقة يدافع عن حق العرب فى الاستقلال وباقتراح لجنة تحقيق لاستفتاء الشعوب العربية فى تقرير مصيرها ، ولقى هذا الاقتراح قبولا

من الرئيس ويلسون فأيده وعضده وعين ممثليه فى اللجنة وجاراه فى هذا لويد جورج فى فتور لايشوبه أى حماس للفكره ووقف كليمنصو يعارضه ويقلل من شأنه .

وكانت معارضة الفرنسيين للاقتراح تقوم على تقديرهم لحقيقة الموقف ضدهم فى سوريا وارتيابهم فى نوايا حلفائهم البريطانيين فقد ظنوا أنهم أو عزوا إلى فيصل بهذا الاقتراح للتخلص منهم فى سوريا وعارض الصهيونيون الإقتراح معارضة تامة وخافوا أن يقضى على جهودهم التى بذلوها طوال مدة الحرب وآمالهم التى أصبحت تدنوا من نهايتها وأخذ فتور بريطانيا فى تأييد الاقتراح يتضاعف بعد أن نوقشت فكرته ولمست أن أعمال لجنة التحقيق قد تشمل العراق وفلسطين أيضا ولم تبد إيطاليا اكتراثاً بالأمر إذ لم يكن لها مصلحة فى الإهتمام به وبقى الرئيس ويلسون وحده مصرا على استفتاء الشعوب العربية فى تقرير مصيرها فأصدر أمره إلى الممثلين الأمريكيين دكتور « هنرى كنج » ومستر « شارل كرين » باختيار أعوانهما والسفر للقيام بما وكل إليهما من استفتاء الأهلين وتحقيق رغباتهم وقد أطلق على اللجنة رسميا اسم « القسم الأمريكى من لجنة الانتدابات الدولية فى تركيا » ولكنها عرفت واشتهرت باسم « لجنة كنج وكرين » .

ووصلت اللجنة إلى يافا فى ١٠ يونيه وقامت بمهمتها خير قيام مجردة عن الهوى الشخصى والأغراض الخاصة فكان تقريرها صورة صادقة لمشاعر الأهلين وأهدافهم واتجاهاتهم لا فى سوريا وحدها وإنما فى فلسطين والعراق أيضا ، وحبذت اللجنة قيام الانتداب فى البلاد العربية ولكن لمدة محدودة تصل بالبلاد إلى كمال استقلالها وقالت بوحدة سوريا فلا تفصل عنها فلسطين بل تكون جزءا منها وإن حبذت قيام نوع من الحكم الذاتى فى لبنان ألا أنها أشارت أن يكون ذلك فى نطاق الوحدة السورية العامة وأن يكون حكم تلك البلاد حكما ملكيا دستوريا ورشحت فيصل لعرش سوريا وأن يستفتى العراق فيمن يتولى ملكه من أمراء العرب وكانت اللجنة قد تعرفت بعض اتجاهات العراقيين على ضوء ماجمعته من معلومات فى سوريا وإن لم تكن قد زارت العراق واتصلت بأهله اتصالا مباشرا ، ولكن مما لاريب فيه أن أصداء الاتجاهات الفكرية والسياسية فى البلادالعربية كانت تتردد فى كل نواحيها وتمور فى كل جانب منها فلم يخف على اللجنة أى أمر مما يدور فيها .

وأشارت اللجنة إلى كراهية العرب للفرنسيين وهى لهذا لاتستطيع أن توصى بالانتداب الفرنسى ورشحت الولايات المتحدة للانتداب على سوريا فإن لم تقبل فبريطانيا التى أوصت اللجنة بانتدابها على العراق .

وكان للجنة رأى فى مطامع الصهيونيين فى فلسطين فقد رأت أن مطامعهم لا يحدها إلاقيام دولة صهيونية فى فلسطين ولن يتأتى هذا إلا بالاعتداء على حقوق العرب المدنية والدينيه فإنهم يهدفون إلى إجلاء العرب عن فلسطين بشراء أراضيهم ورأت لذلك تحديد هجرة اليهود نهائيا إليها ونبذ فكرة الوطن القومى اليهودى فيها .

ولم يتح لتقرير لجنة كنج وكرين أن يكون موضع نظر الحلفاء أو اهتمامهم حتى الرئيس ويلسون نفسه الذى شايع اقتراح فيصل وتبناه ومهد للجنة الأمريكية القيام بتحقيقها فى بلاد المشرق لم يبد من الاهتمام بتنفيذ مقترحاتها ما يضاهى تحمسه للفكرة أومناصرته لها، وطوى التقرير فى غمار الأطماع البريطانية والفرنسية كما طويت مبادؤه التى نادى بها من قبل .

وريع الفرنسيون لمقترحات لجنة كنج وكرين ورأوا أن عواطف الشعب السورى لا تشجع تحقيق مطامعهم إذا ما أخذ بمبدأ الاستفتاء وطبقت قرارات اللجنة وشنت صحافتهم حملة شديدة على بريطانيا واتهموا البريطانيين بنكث العهد ومحاولتهم التخلص من التزامات اتفاق سيكس ـ بيكو بتشجيع العرب على معارضة حقوق فرنسا فى سوريا .

ورأت بريطانيا أن أطماعها فى سوريا لا توازى الوقوع مع فرنسا فى مشاكل سياسية تفل من تحالفهما وتعاونهما وتقضى عليه كما أن نفقات الجيوش البريطانية فى سوريا وكيليكيا وكلاهما خارج نطاق المصالح الانجليزية يحتم عليها التشيع لفرنسا والاستجابة لبعض مطالبها ورأى لويد جورج أن الوقت مناسب تماما للتقدم باقتراح إخلاء الجيوش البريطانية لسوريا وكيليكيا بعد أن رفض اقتراح اللجنة الأمريكية بقبول الانتداب على سوريا على أن تقوم القوات الفرنسية باحتلال غرب سوريا

محلها والعرب باحتلال العقبة وعمان ودمشق وحمص وحماه وحلب وما يتبعها وتبقى فلسطين تحت الاحتلال البريطانى ووافق كليمنصو على الإقتراح فى ١٥ سبتمبر على أن لا يؤثر ذلك فى التسوية النهائية .

وكان البند الخاص باحتلال القوات العربية للمواقع المتقدمة وكانت تقوم فيها فعلا ترضية من بريطانيا للعرب فقد كانت ارتباطاتها السابقة معهم تسبب لها حرجا كبيرا أمام الضمير العالمى وكان الإنجليز يأملون فى الوصول إلى اتفاق مع فيصل يبرر سلوكهم أمام الرأى العام سواء فى بريطانيا نفسها أو فى البلاد العربية أو فى العالم أجمع ، ولذلك قامت الحكومة البريطانية بدعوة فيصل إلى إنجلترا مرة ثانية وكان قد رجع إلى سوريا لاستقبال اللجنة الأمريكية وحرصت على أن يكون وصوله إليها بعد أن تنتهى من إقرار الاتفاق مع فرنسا حتى يجابه بالأمر الواقع وقد وصل إليها فى ١٩ سبتمبر .

ولم يقبل فيصل الاتفاق واحتج عليه احتجاجا شديداً فدفعته بريطانيا إلى مفاوضة الفرنسيين مباشرة وكانت ترى فى اتصال فيصل بالفرنسيين مايبدد شكوكهم فى نوايا بريطانيا ويبرر مسلكها العام حيال العرب ثم أنها تفيد من خلافهما فى تقرير وجهة نظرها والظهور بمظهر البراءة أمام الطرفين .

ويجب أن نشير إلى أن الاتفاق الإنجليزى الفرنسى أو اتفاق « لويد جورج كليمنصو » قضى قضاء تاما على إمكان إثارة مقترحات اللجنة الأمريكية وكان قبول فيصل الدخول كطرف ثالث فى المفاوضات وأدا أبديا لها كما نشير إلى أن هذا الاتفاق كان تمهيدا سياسياً للقرارات التى اتخذت فى مؤتمر سان ريمو فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ .

وخرجت بريطانيا من هـذا الاتفاق ظافرة بتحقيق ماكانت ترمى إليه من تعديل اتفاق سيكس ـ بيكو تعديلا يتفق ومصلحتها وأهدافها الخاصة . فقد ضمنت تنازل الفرنسيين عن الموصل مقابل حصة من البترول وعدم اعتراضهم على مستقبل فلسطين واحتلالهم لها والموافقة على بقاء المنطقة الواقعة فى شرق نهر الأردن تحت

سيادتهم وإقرار المصالح البريطانية فى العراق ، وكان هذا كله فى مقابل جلاء القوات البريطانية عن سوريا وكيليكيا .

وبدأت القوات البريطانية جلاءها عن سوريا فى نوفمبر عام ١٩١٩ وفى ٢٥ منه حلقت الطائرات البريطانية فى سماء دمشق وألقت منشورات تحمل تحية وداع طيبة لشعب سوريا وحكومتة العربية جاء فيها ما يأتى « أن القائد العام للجيش البريطانى وضباطه وعساكره فى دمشق يرومون أن يودعوا سمو الأمير زيد المعظم والهيئة الحاكمة وأهل دمشق ويشكرونهم من صميم أفئدتهم على ما أظهروه نحوهم من العطف أثناء وجودهم بدمشق ويتمنون من قلوبهم مستقبلا حسنا لدمشق وللشعب العربى كله » .

وقد أشاع اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو جوا من القلق والتوتر فى أرجاء البلاد العربية وكانت روح القلق على أشدها فى سوريا حيث تقوم الحكومة الفيصلية فى دمشق ودعا السوريون إلى مؤتمر عام فى دمشق يمثل سوريا فى مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية وهى المناطق التى تخضع لسلطات مختلفة وعقد المؤتمر السورى العام فى ٧ مارس سنة ١٩٢٠ وأصدر قراره باستقلال سوريا الموحدة والمناداة بفيصل ملكا دستوريا على البلاد .

وفى ٢٥ ابريل اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو وأصدر قرارات الانتداب على البلاد العربية وهى صورة لاتفاق لويد جورج ـ كليمنصو ولا تختلف عنه إلا فى وضع المنطقة الشرقية من سوريا التى تشمل دمشق وحمص وحماه وحلب والتى كانت تحت سيطرة الحكومة الفيصلية تحت الانتداب الفرنسى .

وأعلنت قرارات مؤتمر سان ريمو فى ٥ مايو وعرف العرب أن الإنتداب البريطانى قد أصبح حقيقة مقررة على العراق وفلسطين كما تقرر الإنتداب الفرنسى على سوريا التى قسمت إلى سوريا ولبنان ، وسارعت فرنسا بتعيين الجنرال جورو مندوبا سامياً لها فى منطقة انتدابها فأخذ ينفذ قرار الانتداب الفرنسى فى

سوريا وحمل عليها بقواته الفرنسية وزحف على دمشق وقضى على مقاومة السوريين في ميسلون واستشهد في المعركة بعض رجالها الوطنيين وأجبر فيصل على مغادرة البلاد .

وأثار إعلان الانتداب على البلاد العربية في الشام والعراق موجة من البغض والموجدة في العالم العربي ضد الدول الكبرى التي سيطرت على مؤتمر الصلح ويشير جورج أنطونيوس إلى هذا الشعور بقوله « عند ما أعلنت قرارات مؤتمر سان ريمو في ٥ مايو ولدت شعورا جديدا في العالم العربي كان مداره البغضاء الشديدة لقوى الغرب ولم يكن سببه إنكار حق العرب في الوحدة والاستقلال بقدر ما كان سببه نكران الوفاء ونكث العهود مما جعلهم ينتقلون من خيبة الأمل إلى اليأس الذي كان سببا في الثورات التي أعقبت ذلك . ولم تكن قرارات سان ريمو في نظر العرب خيانة لهم فحسب بل نكثا لعهد سطرته الدماء فانطوت كراهيتهم لها على موجة من الاحتقار المرير » .

وقضت قرارات مؤتمر سان ريمو على أمل العرب في مؤتمر الصلح وإن لم تقض على آمال فيصل أو أبيه في الوصول إلى تسوية عادلة مع البريطانيين وكان فيصل أقل من أبيه تمسكا بتحقيق الوعود البريطانية للعرب وهى الوعود التي جرى بها اتفاق « الحسين — مكماهون » والتي أكدها الكوماندور هوجارث للملك حسين شخصيا في يناير عام ١٩١٨ والتصريح البريطاني للسبعة في يونيه من نفس العام والتصريح البريطاني الفرنسي المشترك الذي أذيع قبل إعلان الهدنة بقليل ، وتركت هذه التوكيدات المتكررة للوعود التي جرى بها اتفاق الحسين — مكماهون أثرا قويا في نفس الملك حسين جعلته يقف موقف الإصرار على تحقيقها وهو الرجل الذي طبعته البادية على عرفان عهود الشرف والتمسك بها ولم يكن يعتقد أن الوفاء البريطاني لعهود الشرف يقل أبدا عما تركته الصحراء في نفسه من وفاء بالعهد وتمسك بكلمة الشرف ، ولكن فيصل الذي رأى بعينيه ختل السياسة الأوربية وشهد مصرع الوعود والوفاء على أبواب مؤتمر الصلح كان أقل من أبيه أملا في تحقيق الوعود برمتها وكان يرى أن الفوز ببعضها خير من فقدانها جميعا ورأى ضرورة الصبر على السياسة البريطانية ومسايرتها إلى النهاية علها تحقق بعض ما وعدت

أن لم تحقق كل ما وعدت فبقى على اتصاله بساسة بريطانيا حتى بعد أن قضى الفرنسيون على ملكه فى سوريا .

وكان مؤتمر القاهرة الذى دعت إلى عقده وزارة المستعمرات البريطانية فى مارس سنة ١٩٢١ باقتراح وزيرها تشرشل لدراسة الحالة فى البلاد العربية واقتراح التدابير اللازمة لمواجهة الأحداث التى تمخضت عنها الأحوال فى البلاد العربية بعد إعلان قرارات مؤتمر سان ريمو ولاسيما فى البلاد التى تدخل تحت الانتداب البريطانى، فرصة مواتية لتعديل سياستها فى تلك البلاد وتقديم بعض الترضية للأمراء العرب الذين خدموا قضية الحلفاء خلال سنى الحرب ، وكان للمحادثات التى جرت فى لندن بين فيصل وتشرشل أثرها فى الروح التى سادت جو المؤتمر عامة ، فقد رأى المؤتمرون وضع التفاهم الذى تم بين الرجلين موضع التنفيذ واقترحوا قيام حكومة عربية فى العراق وأن يرشح فيصل ملكا عليه وأن تمهد الإدارة البريطانية لاستفتاء الشعب فى ذلك .

ثم كانت زيارة تشرشل للقدس فى ٢٤ مارس بعد أن انتهى من مؤتمر القاهرة زيارة مرسومة لدراسة الموقف فى البلاد الواقعة شرق نهر الأردن وكان الأمير عبدالله ينزل فى معان على رأس أتباعه وعشائره منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٢٠ وسبب وجوده فى تلك المنطقة قلقا شديداً للفرنسيين فى سوريا وللبريطانيين فى فلسطين ، وجرت محادثات بينه وبين الأمير عبد الله حول إقامة حكومة عربية فى تلك المنطقة تضم فلسطين وشرق الأردن أو إلحاق تلك المنطقة بالعراق ولم يقبل تشرشل عرض الأمير عبدالله وإن لوح له بإمكان إقناع فرنسا بإعادة الحكم العربى فى سوريا وترشيحه لملكها وانتهت المفاوضات بينهما بأقرار الحالة القائمة فى شرق الأردن لتكون إمارة عربية تحت حكمه وتقديم معونة مالية من الحكومة البريطانية تساعد على إنشاء قوة عربية لإقرار النظام والأمن فيها حتى يصفو الجو مع فرنسا لتنفيذ الاقتراح السابق .

واستقرت الأمور فى شرق الأردن على الوضع الذى كان قائماً فيها وأصبحت

إمارة عربية تخضع للانتداب البريطانى تحت حكم الأمير عبد الله ومنذ ذلك التاريخ ولدت إمارة شرق الأردن .

ورأى البريطانيون فيما تم تحقيقاً للوعود التى قطعتها بريطانيا للعرب كما رأى لورنس وقد حضر مؤتمر القاهرة مستشارا لوزارة المستعمرات البريطانية فى الشئون العربية وكان من أشد الناس تحمساً لقضية العرب فى تلك الحلول ترضية طيبة للعرب ووفاءا بعهود بريطانيا لهم كما أشار إلى ذلك فى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» .

والواقع أن هذه الحلول كانت تتفق وروح السياسة العامة لكل من إنجلترا وفرنسا وقبلها فيصل بما عرف عنه من مرونة سياسية اكتسبها من اتصاله بدهاقين السياسة الأوربية فى مؤتمر الصلح وما لمسه من إصرارهم على تحقيق أطماعهم ومصالحهم الخاصة فلم يكن أمامه غير الرضوخ لتياراتها والرضاء بما قسمت له أما أبوه فوقف من البريطانيين موقفاً جلداً فيه صلابة البادية وعنف إقدامها ولم يسلم لهم بما ارتأووه وظل على موقفه منهم حتى رموه بمنافسه السعودى وحملوه إلى المنفى حيث قضى أيامه الأخيرة فى مرارة لا يصبره عليها إلا شعوره بأنه أدى رسالة الثورة العربية على خير ما يكون الإداء .

وبذا تمت التسوية التى شغلت الحلفاء بعد الحرب بفرض الانتداب البريطانى على العراق وشرق الأردن وفلسطين والإنتداب الفرنسى على سوريا ولبنان لتستقبل هذه البلاد دوراً جديدا من أدوار تاريخها يتسم بنوع من النضال أشد عنفا مما كان بينها وبين الدولة العثمانية من قبل .

الموصل فى ميدان النضال السياسى :

اتخذت منطقة الموصل فى شمال الجزيرة من أرض العراق وضعاً خاصاً فى مؤتمر الصلح بين إنجلترا وفرنسا وفيما بعد المؤتمر وصدور قرارات مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو بين إنجلترا وتركيا حتى أصبحت مشكلة قائمة بذاتها تتطلب حلا خاصا ثنائيا

أو دوليا زاد من إشكاله ما لجأت إليه فرنسا نكاية فى إنجلترا من تنازلها عنها لتركيا فى الاتفاق الفرنسى التركى عام ١٩٢١ .

وكانت الموصل فى اتفاق سيكس - بيكو ضمن منطقة النفوذ الفرنسى ولم تكن إنجلترا قد أدركت أهميتها بعد فلم يكن اهتمامها بالعراق يتعدى حماية مصالحها فى الخليج الفارسى وتأمين طريق الهند وضمان مواردها البترولية فى جنوب فارس فلم تعمل لها حسابا فى اتفاق سيكس - بيكو ولم تكن خطوط السياسة الاستراتيجية للحكومة الإنجليزية فى الهند لتتعدى منطقة بغداد ، ولعل إنجلترا حين سهت عن التطلع إليها أرادت أن تكون سخية فى اتفاقها مع الفرنسيين نزولا على ضرورات الحرب وما تقتضيه من تكاتف وتعاون وجمع القوى أمام العدو المشترك أو إنها لم تكن قد قدرت حتى عام ١٩١٦ وهو العام الذى عقد فيه الاتفاق أهمية البترول هذا العامل الجديد الذى أصبح غذاء الحرب الحديثة وقوتها فإن اهتمامها به حتى ذلك الوقت كان لا يتعدى ضمان تموين أسطولها منه وكان بترول فارس يكفيها هذه الغاية وهو أقرب إلى البحر وفى متناول الأسطول من بترول الجزيرة ولم يكن اهتمامها بشركة البترول الإنجليزية الفارسية إلا لإيجاد قاعدة تموينية قريبة تمد الأسطول بحاجته من البترول بعد التعديل الذى أجرته فى سفنه كما هو ديدنها فى إقامة القواعد المختلفة على طول الطريق الذى يسلكه أسطولها لتموينه بحاجته من الوقود .

كما أن ما يمكن أن تتمخض عنه الحرب من هزيمة أو نصر ما زال فى ضمير الغيب وما زالت التسويات التى يمكن أن تتكشف عنها نتائج الحرب أمراً مجهولا وليست هذه الإتفاقات التى أبرمت سواء بينها وبين العرب أو بينها وبين حلفائها إلا رجما بالغيب لم تقصد من ورائها إلا تجنيد هذه القوى كلها وتكتلها لمجهود الحرب بدليل ما كان فيها من تضارب وتناقض وبدليل سعيها إلى العرب بوجه غير الوجه الذى تقابل به حلفاءها .

وأخذت انجلترا ترنو إلى ضم الموصل إلى منطقة نفوذها عندما انتهت الحرب وتمخضت عن النصر الباهر الذى كسبه الحلفاء ، يحدوها إلى ذلك أنها لا تريد أن تترك للفرنسيين نفوذا يقترب من مراكزها الاستراتيجية الحساسة كأن يكون لهم معبر على

طريق الهند فإذا لم يكن هناك معدى من أن يشاركهم الفرنسيون غنيمة النصر فأحرى بهم أن يقتصوا من نصيبهم ما أمكن وأن يبقوهم بعيدين عن الإقتراب من مناطق نفوذهم الهامة فاهتموا بفرض انتدابهم على فلسطين حتى تكون حاجزا بين النفوذ الفرنسى فى سوريا ولبنان والإقتراب من قناة السويس واهتموا بضم الموصل إلى منطقة انتدابهم فى العراق لأن الموصل تقع على طريق الإقتراب الطبيعى عبر الجزيرة إلى فارس فالهند .

ثم إن انتدابها على الموصل يجعلها قريبة من مراقبة الحدود الروسية وإن كانت روسيا قد استكانت إلى عزلتها إلا أن انقلابها الشيوعى يجعلها مصدر خطر يهدد نظامها ونفوذها فى امبراطوريتها وأملاكها كما كان فى عهد القيصرية أن لم يكن أعظم وأخيراً ما كشفت عنه الحرب من أهمية البترول الجديدة أصبح عاملا له قوته فى أهمية الموصل التى تدل الأبحاث على وفرة بترولها وغزارته وأهمية غيرها من مناطق البترول فى الشرق الأوسط فرسمت سياستها الجديدة على أساس السيطرة على موارد البترول فى تلك المنطقة كما سيطرت من قبل على قواعده ومراكزه الاستراتيجية الهامة .



وبدأت المحادثات بينها وبين فرنسا بشأن الموصل أثناء انعقاد مؤتمر الصلح وجرت المحادثات فى هذا الأمر بين لويد جورج وكليمنصو وسلم كليمنصو بوجهة نظر انجلترا وإن لم يشأ أن يقطع بأمر فى هذا الموضوع ، وكان من الممكن أن تسلم فرنسا لانجلترا فى الموصل لولا ما حدث بينهما من خلاف انتقل من محيط المؤتمرات والمفاوضات السياسية إلى محيط العمل السلبى فإن فرنسا أخذت تظن الظنون فى انجلترا وتتهمها بعرقلة مساعيها فى سوريا وزادت ظنونها سوءاً عندما سحبت بريطانيا قواتها منها فى وقت كان القلق والانفعال الوطنى فيها يمور بشتى الإحتمالات والأحداث وينذر بشر مستطير وتركتها تتلقى وحدها مغبة تجاهل الشعور الوطنى فى سوريا ولم تحمد فرنسا لحليفتها هذا الأنسحاب ورأت أنه تم فى وقت غير مناسب كما لم تحمد لها مؤازرة الوطنيين السوريين وتشجيع فيصل على تحقيق أهدافه فى

ملكها كما كانت تظن ، رغم أن بريطانيا لم تعترف مثلها بقرارات المؤتمر الوطنى السورى الذى نادى بفيصل ملكا دستوريا على سوريا الموحدة المستقلة فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠.

وكانت فرنسا تنظر بعين الريبة إلى عطف انجلترا على فيصل رغم مابدا من أن عطفها عليه كان بعيداً عن التشجيع ولعل فرنسا كانت تتناول الموضوع بطبيعتها الثائرة الصريحة وهو ما ينكره أسلوب السياسة الإنجليزية المرنة التى تميل إلى الأناة واللف والدوران فى تحقيق أهدافها ، كما أن انفراد بريطانيا فى الاتفاق مع العرب وزعماء الثورة العربية فى بداية الحرب وما جرت به الحرب بعد ذلك من أحداث كان كفيلا بإثارة الجفاء بين زعماء الثورة العربية وفرنسا التى ناصبت أهدافهم وأشخاصهم العداء فى مؤتمر الصلح وفى التسويات الأخيرة التى أعقبت الحرب كما كان كفيلا بإثاره الشكوك والريب بينها وبين انجلترا .

وحملت هذه الظنون فرنسا على التقرب من تركيا فأخذت تلح فى تعديل معاهدة سيفر لمصلحة تركيا نكايه فى انجلترا التى وقفت على رأس المطالبين بتطبيق المعاهدة وإذلال تركيا وجرت فرنسا فى سياستها حيال تركيا شوطاً أبعد من هذا فقررت إنهاء حالة الحرب معها وجلت عن كيليكيا وسحبت قواتها إلى داخل خط الحدود الجديد الذى أقرته الدولتان فى معاهدة سنة ١٩٢١ ، ولجأت إلى ماهو أكثر من هذا فعرضت على تركيا الاستيلاء العاجل على منطقة الموصل على أمل أن تنال منها فيما بعد امتيازا باستغلال بترولها ، رغم قرار مجلس الحلفاء الأعلى بضم الموصل إلى منطقة الانتداب البريطانى مقابل بعض الامتيازات البترولية لفرنسا وما كانت فرنسا ترمى من وراء هذا التنازل إلا إلى خلق أشكال جديد بين تركيا وانجلترا ، وبهذا التنازل انتقلت مشكلة الموصل إلى دائرة النزاع البريطانى التركى .

وبنت انجلترا دعواها فى المطالبة بالموصل على أنها فى الأصل جزء من العراق فلم تعترف بتنازل فرنسا عنها واحتجت على احتلال الأتراك لها على اعتبار أن هذا الاحتلال يعد خرقا لنصوص هدنة مدروس .

ولما نودى بفيصل ملكا على العراق قام العراقيون بايعاز انجلترا بالمطالبة بالموصل على اعتبار أنها جزء من الوطن العراقى واحتلت قواتهم المنطقة ، وفى مفاوضات الصلح التى سبقت إبرام معاهدة لوزان احتدم الخلاف بين الوفدين البريطانى برئاسة لورد كيرزون والتركى برئاسة عصمت إينونو حول منطقة الموصل ورفض البريطانيون طلب الأتراك بإجراء استفتاء فى المنطقة يقرر تبعية الموصل وذكروا الأتراك بعهودهم للعرب ووعودهم لهم بتخليصهم من الحكم التركى كما استندوا إلى حق الانتدات الذى خولتهم أياه عصبة الأمم ، وتناولت المناقشات صحة الانتداب من الناحية القانونية كما تناولت مسألة العناصر التى تقطن المنطقة من عرب وأكراد وترك ، وأخيراً لجأت إلى حق الغزو ولم يسلم الأتراك بهذا الحق الذى لايتفق وعقلية القرن العشرين وحق الشعوب فى تقرير مصيرها .

وأبرمت معاهدة لوزان دون أن يصل الطرفان إلى حل ما لمشكلة الموصل وقبل الوفد التركى تأجيل حل مشكلتها إلى مفاوضات قادمة وجاء فى المادة الثالثة من معاهدة لوزان ما يشير إلى ذلك فقد نصت الفقرة الثانية منها على مايأتى « يتم تخطيط الحدود بين تركيا والعراق بواسطة اتصالات ودية بين تركيا وبريطانيا العظمى فى خلال تسعة أشهر ، وفى حالة فشل الحكومتين فى الوصول إلى اتفاق فى الوقت المحدد ، يحال النزاع إلى مجلس عصبة الأمم » .



وقد دارت المفاوضات بين الحكومتين دون الوصول إلى نتيجة مابسبب تشبث كل من الطرفين بموقفه وأخيراً رفع الأمر إلى مجلس العصبة الذى قرر فى جلسة ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ تشكيل لجنة لتحقيق الموضوع من الكونت تيليكى المجرى وهوأحد أساتذة الجغرافيا الممتازين والمسيو دى ويرسن أحد رجال السلك السياسى السويدى والكولونل باوليس البلجيكى ، ورأت اللجنة مد خط حدود مؤقت يراعيه الطرفان حتى تتم التسوية النهائية وعرف باسم خط بروكسل ، ثم قررت بعد أن أتمت دراسة المشكلة من كافة نواحيها فيما يتعلق بكيانها الجغرافى والعناصر الغالبة فى سكانها واقتصادياتها المختلفة وما يوحى به الصالح العام للمنطقة أن تضم إلى العراق على أن تكون تحت انتداب عصبة الأمم لمدة ٢٥ سنة وأن يشترك الأكراد وهم العنصر الغالب فى سكان المنطقة فى مناصبها الإدارية والقضائية والتعليمية وإذا تعذر الإستقرار

المنشود للمنطقة فى ظل التبعية العراقية فمن الأوفق أن تكون تحت السيادة التركية حيث الاستقرار أضمن وأوفر .

وقد اعترض المندوب التركى على هذا القرار عندما رفع إلى مجلس العصبة فى ٢٥ يوليه سنة ١٩٢٥ فإن تركيا لم تعترف مطلقا بنظام الإنتدابات وإزاء هذا الإعتراض قرر المجلس رفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية لتبدى رأيها فى قانونية قرار لجنة التحقيق وقد رأت محكمة العدل الدولية أن القرار ملزم للطرفين ويعتبر حلا نهائيا لمشكلة الحدود بين تركيا والعراق على أن يكون القرار بالإجماع . وحيال هذا الرأى قرر مجلس العصبة تبعية الموصل للعراق فى ظل انتداب يقوم لمدة ٢٥ سنة .

وأصبحت منطقة الموصل أحد الألوية التى يتكون منها الوطن العراقى وحققت بريطانيا أغراضها فى توحيد منطقة البترول فى شمال العراق وهى المنطقة التى تتكون من لواء كركوك فى الجنوب ولواء الموصل فى الشمال وأصبحت هذه المنطقة بأكملها منطقة استغلال لرؤوس الأموال الإنجليزية فقد أصبح لها أكثر من نصف أسهم شركة البترول التركية وهى التى أصبحت تعرف باسم شركة البترول العراقية وقبلت الشركة مختارة مساهمة رأس المال الأمريكى جريا على سياسة الباب المفتوح التى نادت بها الولايات المتحدة أما فرنسا فقد تركت لها الحصة التى كانت مخصصة لمساهمة رأس المال الألمانى قبل الحرب ، ولكن هذا لم يمنع من تفوق رأس المال الإنجليزى فى الشركة مما يضمن للانجليز السيطرة التامة على شئونها .

وقد تدفق بترول العراق خلال أنابيبه إلى طرابلس فى ١٤ يوليه سنة ١٩٣٤ وإلى حيفا فى ١٤ أكتوبر من نفس العام وافتتح الملك غازى الخط رسميا فى كركوك فى ١٤ يناير سنة ١٩٣٥ وإن كان بترول الموصل لم يستغل بعد .

شبه الجزيرة العربية :

لم تدخل شبه جزيرة العرب فى اتفاق سيكس - بيكو ولا فى غيره من الإتفاقات السرية التى قامت بين الحلفاء لتقسيم أملاك الدولة العثمانية فقد ظلت شبه جزيرة

العرب ذات الصحارى الواسعة والفيافى الجرداء والجبال التى تسفعها شمس الهجير فتحيلها أتونا من العذاب لاتطيقه قدم المستعمر الأوربى الذى لايرى فيها من الخيرات مايحمله على مصابرة سعيرها وشدة جفافها ، وكان هذا سبباً فى غفلة الاستعمار الأوربى عنها فى وقت لم تتفجر عيون البترول فيها فتجعلها قبلة الاستعمار وهدفه فى الاستغلال والنفوذ ولم تكن أهمية الذهب الأسود قد وضحت تماما فى مستقبل العالم بعد .

ولم يراود الدول الأوربية الاستعمارية طمع مافى شبه جزيرة العرب واكتفت بريطانيا ببسط حمايتها على الإمارات العربية الواقعة على شواطئها فى الخليج الفارسى والشاطىء الجنوبى لشبه الجزيرة ومخرج البحر الأحمر إلى المحيط الهندى حيث استولت على عدن وأصبحت إحدى مستعمرات التاج منذ سنة ١٨٣٩ . وذلك لتأمين مواصلاتها البرية والبحرية إلى امبراطوريتها فى الهند والشرق الأقصى عبر مسالك الشرق الأوسط البرية ومنافذه البحريه .

حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى وتطلع الحلفاء إلى زعيم قوى يسند قضيتهم ويجمع العرب حوله لينفخ فى تلك البلاد الهاجعة روح الثورة ضد الأتراك وقع اختيارهم على شريف مكة الحسين بن على الذى ينحدر بنسبه إلى الدوحة النبوية الطاهرة ، وقاد الشريف حسين الثورة العربية لصالح الحلفاء ثم أعلن نفسه ملكا على العرب فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٦ بعد إعلان ثورته على الترك فى الحجاز ببضعة أشهر ومامر أسبوع حتى اعترف به الحلفاء ملكا على الحجاز وزعيما على العرب وما كان اعتراف الحلفاء بذلك إلا تسليما بالأمر الواقع فقد كان بودهم أن يظل كل شىء معلقا حتى نهاية الحرب .

وسارت الأمور على هوى الحسين الرجل الطيب خلال سنى الحرب ودخلت قواته الظافرة دمشق وامتدت آماله إلى صبح السلام المنتظر يوم يتحقق له ملك العرب من المحيط الهندى فى الجنوب إلى أعالى الفرات فى الشمال ومن حدود فارس شرقا إلى سواحل البحر المتوسط غربا ولكنها لم تكن غير أمال فى مهمه فسيح من خيال الرجل الكبير الذى لم يدرك حقيقة السياسة البريطانية ووعودها النكراء حتى بانت نواجذها الصفراء فى مؤتمر السلام عن حقيقتها البشعة وإن دعت حكومة الحجاز إلى مؤتمر الصلح وأن سمحت للأمير فيصل بالسفر لحضور المؤتمر إلا أنها كانت تبيت فى قرارة نفسها إلا تنفذ للحسين من مطالبه إلا مايتفق ومصالحها وأهدافها ولم تشأ

أن يكون له فى مؤتمر الصلح رأى مسموع أو كلمة نافذة فوضعت شروط معاهدتى فرساى وسيفر دون أن يكون لممثليه فى المؤتمر رأى فيهما وعقد مؤتمر لوزان لتصفية المسألة الشرقية فلم يكن للعرب من يمثلهم فيه وبدت البوادر الجديدة لسياسة بريطانيا تجاه العرب تدل على فرض وضع معين مرسوم عليهم أن يقبلوه وتقره معاهدات تربطهم بها وتكون حلا نهائيا لمشاكل البلاد العربية .

وكانت اتجاهات السياسة البريطانية تدور حول الظفر باعتراف الملك حسين بنظام الإنتداب فى سوريا والعراق وقبول وعد بلفور وإقرار الوضع القائم فى شبه جزيرة العرب فيكون للملك حسين ملك الحجاز وتتعهد له بريطانيا بالمحافظة على هذا الوضع ويكون للسعوديين نجد وملحقاتها .

وكان فى شبه جزيرة العرب خمس إمارات تتمتع بدرجة كبيرة من الإستقلال ولكنها كانت كغيرها من البلاد العربية تخضع لسيادة الدولة العثمانية الشرعية وقد أتاح ضعف السيطرة العثمانية عليها أن يكون لأمرائها الكلمة العليا فى شئونها وكانت هذه الإمارات الخمس فى أعقاب الحرب هى مملكة الحجاز وعلى رأسها الملك حسين فى مكة وسلطنة نجد وملحقاتها تحت حكم السلطان عبد العزيز آل سعود فى الرياض واليمن ويحكمها الإمام يحيى فى صنعاء وإمارة شمر ويحكمها ابن الرشيد فى حايل وأمارة الإدريسى فى عسير .

ولم تكن العلاقات بين هذه الأمارات دائما علاقات مودة وحسن جوار فقد كانت الشحناء والبغضاء والتنافس والحذر والعداوة هى السائدة بينها جميعا ولم يكن هناك من قانون فى الصحراء غير قانون القوة والغلب رغم خضوعها جميعا لسيادة تركيا الشرعية التى لم يعد لها من القوة فى داخل شبه الجزيرة وأطرافها ما يدعم سلطانها عليها وأعرق هاته العداوات ما كانت بن آل الرشيد فى شمر وآل سعود أمراء نجد وفرسانها .

وكان حكم آل الرشيد فى حايل فى جبل شمر أما السعوديون فكانت الرياض مقر حكمهم وقد ابتناها جدهم الثانى تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود الكبير ومن الرياض بسط آل سعود سيادتهم على القبائل الضاربة فى جنوب نجد حتى الربع الخالى وانتهب ابن الرشيد ما نشب من خلاف فى البيت السعودى فاجتاح الرياض

وهرب عبد الرحمن آل سعود بأولاده وأتباعه ونزل بجوار قبائل عجمان ومنها انتقل إلى الجنوب حتى لا يناله نفوذ آل الرشيد ونزل فى واحة جبرين إلى جوار قبائل بنى مرة ، وفى هذه البيئة البدائية شب عبدالعزيز آل سعود ورفيقه وخدن صباه ابن عمه عبدالله بن جلوى الذى أصبح ساعده الأيمن فيما بعده وقد نشأ نشأة اسبرطية تلهبها بداوة الصحراء وضراوة القبائل الضاربة حول واحة جبرين وأخذ عن بنى مرة أساليب الحرب فى البيد ومافيها من خداع وخفة حركة ومفاجأة ، ورضع الفتى عبدالعزيز فى ذلك القفر البعيد لبان الحركة الوهابية وتاريخها وتعاليمها عن أبيه عبد الرحمن الذى لم ينس فى منفاه البعيد مجد السعوديين وماضيهم التليد .

ولم يكن عبد الرحمن ليرضى بعزلته فى هذا القفر الموغل فما أن وجه إليه الشيخ محمد أمير الكويت دعوة الترحيب به وبأسرته للاقامة فى الكويت حتى قبلها مسروراً .

وكان حافظ باشا حاكم الحسا التركى قد هاله عظم نفوذ آل الرشيد وما ينجم عنه من خطر على الحكم التركى فى شبه الجزيرة العربية فأوعز إلى أمير الكويت بدعوة السعوديين إليه وإجراء الرواتب عليهم حتى يرمى بهم آل الرشيد إذا ما استشرى نفوذهم وبانت سطوتهم .

وفى الكويت طالع الفتى الذى شب فى قبائل بنى مرة ألوانا جديدة من الحياة والحضارة التى تفد إلى هذا الثغر من مختلف بقاع العالم القاصية أو الدانية فنمت ثقافته وعظمت تجاربه وتفتحت مواهبه حتى إذا كان عام ١٨٩٧ مات محمد بن الرشيد وأبدت القبائل الضاربة فى جنوب نجد ترحيبها بعودة السعوديين مما دعا الفتى الصغير عبد العزيز الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره إلى محاولة جمع القبائل الموالية حواليه لاسترجاع الرياض ولكنه لم يجد منها ما يحقق أمله فعاد إلى الكويت يطوى قلبه على حسرة مريرة .

وجرت الأحداث بعد ذلك بما يحقق حلم الفتى الصغير وأبيه عبد الرحمن فقد تطلع ولهلم الثانى قيصر ألمانيا إلى ثغر الكويت ليكون نهاية خط حديد بغداد ولكنه فشل فى مساومة الشيخ مبارك أمير الكويت الجديد الذى اغتصب الأمارة من أخيه

الشيخ محمد الأمير السابق ، واستخدم القيصر نفوذه لحمل السلطان على خلع الشيخ مبارك الذى رحب بالحماية البريطانية وأوعز الأتراك إلى آل الرشيد بمهاجمة الكويت وحمل هذا الشيخ مبارك على تمهيد الطريق لعودة آل سعود إلى الرياض ليشغل آل الرشيد بهم عنه .

وجمع عبد العزيز وكان فى حدود العشرين من عمره جماعة من أنداده وآل بيته المغامرين ومن بينهم خدن طفولته عبدالله بن جلوى للقيام بمغامرته الجديدة لاسترجاع الرياض وقد أفاد من فشله فى المرة السابقة ما وقاه شر الفشل فى هذه المرة ، فنزح إلى مهد طفولته فى واحة جبرين يجمع الأنصار والأعوان حوله وهناك وضع خطته لاقتحام الرياض التى دخلها ليلا وأعمل السيف فى أعوان الرشيد وجنده وما أصبح الصبح حتى دانت له المدينة التى أسسها جده الكبير تركى وكانت مغامرة جرت أشبه ماتكون بخرافة من قصص البطولة التى حفلت بها الأساطير القديمة .

وفى المسجد الجامع فى الرياض اجتمع رجال الدين ووجوه القوم ليشهدوا اعتراف عبد الرحمن ببيعة ابنه عبد العزيز حاكما على نجد وإماما للوهابيين وقد وطد حكمه الجديد بهزيمته جند الرشيد سنة ١٩٠٤ وأمن شرهم بعد وفاة زعيمهم عبد العزيز ابن متعب سنة ١٩٠٦ وانتشار الخلل فى صفوفهم بعده ولم يصل ابنه سعود إلى الحكم إلا بعد متاعب جمة من آل بيته .

وقد اتجه عبد العزيز آل سعود إلى إصلاح شئون إمارته وتنظيم الدعوة الدينية ودعم أواصر الأخوة الوهابية بين الأخوان الوهابيين الذين نظمهم على غرار الأتباع السنوسيين سنة ١٩١٠ كما دعم قواه الحربية ونماها .

وفى عام ١٩٠٩ ظهر عامل جديد فى شبه الجزيرة العربية كان أثره عظيما فيما جرى من أحداث فيها بعد ذلك فقد عين الحسين بن على بن عون من آل هاشم شريفاً لمكة وكان ينزل منفيا فى ضيافة السلطان عبد الحميد فى الآستانة منذ عام ١٨٩١ واستمر بها حتى أواخر عام ١٩٠٨ حيث عين شريفا لمكة بعد خلع عبد الحميد .

ولم يبد الحسين منذ وصوله إلى الحجاز فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ ارتياحه لزيادة نفوذ آل سعود فى نجد فعمل على مقاومتهم وأغار على حدود نجد فى سنة ١٩١٠

وأوقع بالسعوديين هزيمة تغلغل بعدها فى قلب نجد حتى القصيم وانتهت هذه الحملة بصلح واتفاق بين الأميرين حول القبائل الضاربة فى حدود نجد والحجاز وتعرض السعوديين لها .

وفى الوقت الذى كان الحسين يتطلع فيه إلى بسط سلطانه على الأمارات المجاورة ويملأ أرجاء شبه الجزيرة بدعاويه العريضة وتصل دعاواه إلى رجال تركيا الفتاة فى الآستانة كان الأمير السعودى ينتهب كل فرصة مواتية لتوسيع ملكه دون طنطنة أو ضجيج وانتهز فرصة اشتباك الأتراك فى الحرب البلقانية سنة ١٩١٣ وسحب قواتهم من شبه الجزيرة فأغار على الهفوف فى زحف سريع واستولى عليها وتقدم إلى ميناء العقير على الخليج الفارسى وبسط سلطانه على منطقة الحسا ونصب رفيق صباه ابن جلوى حاكما عليها . ولم يترك قيام الحرب العالمية الأولى من الزمن للأتراك مايسترجعون فيه سلطانهم على الحسا .

وإلى الجنوب من الحجاز تقوم أمارة الإدريسى فى «عسير» وقد وافق قيام هذه الإمارة تنصيب الشريف حسين أميرا على مكة فقد قدم السيد محمد الأدريسى إلى عسير سنة ١٩٠٨ ونزل بمسجد جده الكبير السيد أحمد بن أدريس وكان قد حج إلى مكة فى ختام القرن الثامن عشر ونزح إلى عسير وأقام بها يرشد الناس إلى أمور دينهم ودنياهم وقد جمع صلاحه وتقواه الناس حوله وأصبح بينهم وليا من أولياء الله .

وقد قدم حفيده السيد محمد الأدريسى إلى عسير بعد أن أقام مجاوراً فى الأزهر يطلب العلم على شيوخه فترة من الزمن انتقل بعدها إلى واحة الكفرة وعاش بين شيوخ السنوسية وأتباعها ثم عاد إلى عسير لينظم أتباعه على نمط ما شاهده فى تنظيمات السنوسية ويخلع طاعة الأتراك ويحمل على «أبها» عاصمة عسير السياسية ولكنه يرتد عنها بعد أن حمل عليه الشريف حسين بجنوده الحجازية ولكنه يستعيد نفوذه بعد أن يمد له الأيطاليون يد المساعدة كما مدوها إلى الأمام يحيى فى اليمن الذى حارب الأتراك بدوره بعد أن خلع طاعتهم وأجبر الدولة العثمانية على الاعتراف به إماما لليمن المستقلة فى أكتوبر سنة ١٩١١ .

أما ما عدا هذه الإمارات الخمس فى شبه جزيرة العرب فقد كان هناك عدد من الإمارات الصغيرة على سواحل شبه الجزيرة من المحيط الهندى إلى الخليج الفارسى خضعت بدرجات متفاوتة منذ سنة ١٨٣٩ للنفوذ البريطانى .

وقامت الحرب العالمية الأولى والحال كما ذكرنا بين الإمارات الخمس وأعلن الشريف حسين ثورة العرب على الأتراك وشغل بمعاونة الحلفاء عن توطيد أمور الحجاز وهام بالحكم الكبير الذى ظل يراوده طوال سنى الحرب عن التهيؤ للمستقبل وما يحمله من فجاءات وغدر وأعلن نفسه ملكا على البلاد العربية وكان يقصد بالبلاد العربية تلك البلاد التى كانت ولايات عثمانية قبل الحرب وكان يرى أنه الوارث الحقيقى لأملاك الدولة العثمانية فى الشرق وأن سيادته الشرعية التى اكتسبها بزعامته للعرب وإعلان استقلال البلاد العربية قد نسخت سيادة العثمانيين الشرعية فما أن أعلن الثورة حتى سارع بأرسال الهدايا إلى ابن السعود جريا على سنه سلاطين آل عثمان فى إهداء الولاة فى بدء توليهم للسلطة وقد قبل الزعيم الوهابى هدايا الشريف الهاشمى ورد عليه بمثلها وأرسل وفداً يطلب تخطيط الحدود بين نجد والحجاز وطلب الملك حسين من الوفد أن يقولوا لموفدهم هذه الكلمة « كل ما أنت عليه فهو لك » .

وندرك مما جرى أن الملك حسين قد ادعى ملك العرب ووراثه سيادة الدولة العثمانية على البلاد العربية ونظر إلى جيرانه كتابعين له عليهم ما كان لسلاطين آل عثمان من حقوق على الولاة والتابعين يستمد هذا الحق من انتمائه إلى العترة النبوية الطاهرة وزعامته الدينية للعرب التى أصبحت بتحالفه مع بريطانيا زعامة سياسية أيضاً .

ولكن جيران الملك الهاشمى لم يقروا له بما أدعى وأن ساورتهم المخاوف من ارتباطه الجديد ببريطانيا هذا الارتباط الذى يهدد سلامتهم وسيادتهم على بلادهم ودعا هذا ابن سعود إلى الإتصال بالإنجليز بعد عودة وفده من لدن ملك الحجاز وطلب إليهم أن يحددوا موقفهم حياله وحيال الحسين فأمنه الإنجليز على ملكه من اعتداء الحسين كما أفهموه حقيقة موقفهم منه كمتحدث بلسان العرب .

وقد كان لابن سعود علاقات قديمة مع البريطانيين منذ أن وصلت جيوشه

إلى ميناء العقير على الخليج الفارسى وكان يتلقى إعانة قدرها خمسة آلاف جنيه سنويا كغيره من الأمراء والسلاطين الذين يحكمون على سواحل المحيط الهندى والخليج الفارسى من شبه جزيرة العرب وأن لم يكن مثلهم خاضعاً للحماية البريطانية .

وقد اتصلت به الحكومة البريطانية فى الهند فى بداية الحرب لضمان معاونته ووعد ابن السعود بوقوفه على الحياد محتفظاً بعلاقاته الطيبة مع البريطانيين ، وأبرم معهم معاهدة العقير فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ اعترفوا له فيها بأن نجد والحسا والقطيف وجبيلا وتوابعها هى بلاد عبد العزيز وآبائه من قبل كما اعترفوا به حاكما عليها مستقلا ورئيساً مطلقا على قبائلها وبأبنائه وخلفائه بالإرث من بعده ثم عزز ارتباطاته معهم سنة ١٩١٧ .

وانضم آل الرشيد إلى الترك وأقاموا على الولاء لهم فى داخل الجزيرة يمدونهم بالإبل ويأخذون منهم الأموال والسلاح وربطوا مصيرهم بمصير الترك ومستقبلهم فى الحرب الدائرة .

أما الإمام يحيى وكان قد حقق أطماعه فى إمامة اليمن وحكمها وعقد مع الأتراك معاهدة اعترفوا فيها باستقلاله فقد اعتصم بعزلته ولم يرض بالدخول فى مفاوضات مع البريطانيين وظل طوال حكمه الطويل ينأى باليمن عن الارتباط بالأجانب أو الاحتكاك بهم .



وقامت الحرب والعلاقات متوترة بين الإدريسى فى عسير والأتراك وجاءت فى مصلحته فقد شغلت الأتراك عنه ، ووقفت الغزوات التى سيرها الشريف حسين قبل الحرب ضده وأتاح له ظهور البريطانيين فى البحر الأحمر فرصة الاتصال بهم فأبرم معهم معاهدة فى سنة ١٩١٥ اعترفوا فيها بإمارته واستقلاله وأمدوه بالسلاح والمال وقام ببعض العمليات الحربية ضد الأتراك فى «أبها» حاضرة عسير ولكنها لم تنجح ، ثم عزز صلته بهم بمعاهدة أخرى أبرمها عام ١٩١٧ اعترفوا له فيها بالسيادة على تهامة من اللحية حتى القنفذة وتعهدوا بحمايته من أى اعتداء خارجى كما تعهد لهم بعدم قيام علاقات تجارية أو سياسية له مع غيرهم ، فكأن إمارة عسير قد أصبحت محمية بريطانية يجرى عليها ما يجرى على إمارات

الخليج الفارسى والسلطنات العربية على المحيط الهندى .

هذا هو الموقف الخارجى العام فى شبه جزيرة العرب أبان الحرب لم يحتفظ فيه بالحياد التام غير اليمن ولم يكن بينها وبين جيرانها الآخرين ما يعكر صفو علاقاتها معهم ولم تكن لها بهم ارتباطات أو مصالح تسىء إلى عزلتها أو حيادها الذى ارتضته عدا بعض حوادث الحدود بينها وبين الإدريسى فى عسير الذى كان جادا فى توسيع حدود إمارته على حساب جيرانه الأقربين ، الحجاز فى الشمال واليمن فى الجنوب . وقد أثار اعتداؤه على ميناء القنفذة واستيلاؤه عليها سنة ١٩١٦ وضمها إلى إمارته بمساعدة الإنجليز بعد أن أسر حاميتها التركية ثائرة الملك حسين الذى كان يعتبر القنفذة حجازية وقد انتهت هـذه المشكلة الجديدة بتنازل الأدريسى عنها للحجاز بعد تدخل الإنجليز .

وحدث نزاع مشابه لما حدث بين الأدريسى والملك حسين حول ميناء القنفذة بينه وبين الإمام يحى وكان ذلك بسبب ميناء الحديدة المنفذ البحرى لليمن خلال الحكم العثمانى وقد احتلته القوات البريطانية فى نهاية الحرب بعد أن سلمت حاميته التركية وظلت تحتله حتى يناير سنة ١٩٢١ حيث أخلتها وسمحت للادريسى باحتلالها وضمها إلى إمارته مما أثار غضب الإمام يحى واحتجاجه حتى انتهب فرصة وفاة « السيد محمد الأدريسى » سنة ١٩٢٣ وما نشب من خلاف بين أفراد الأسرة حول الحكم فضم إلى اليمن جزءا كبيرا من أراضى عسير الجنوبية وشقة على الساحل يدخل فيها ميناء الحديدة .

أما الإمارات الأخرى فى شبه الجزيرة غير اليمن فقد شاركت فى مجهود الحرب بدرجات متفاوتة كل حسب مصلحتها فى الجانب الذى ارتضت مناصرته ، فانضم الحسين إلى جانب الحلفاء انضماما سافرا وأعلن ثورته على الأتراك وساهم الأدريسى فى مجهود الحرب وحمل على الأتراك فى أبها والقنفذة كما تعهد ابن سعود بتسهيل مطالب القوات البريطانية على سـواحل الخليج الفارسى وكان لحياده

وصداقته للبريطانيين أثر كبير فى نجاح حملة العراق ، أما ابن الرشيد فقد اضطلع مع الأتراك وارتبط بهم وربط مصيره بمصيرهم .

وانتهت الحرب والتوتر بين هذه الإمارات يوشك أن يقود إلى حرب داخلية عنيفة تقرر مستقبل شبه الجزيرة العربية .

وكان النضال المرتقب هو ما ينتظر أن يشجر بين السعوديين والهاشميين فلم يكن للامارات الأخرى من شأن يذكر إلى جانب هذين البيتين الكبيرين فى نجد والحجاز ، فقد كانت الفرقة والخلافات تشيع بين آل الرشيد وتمنعهم من التفكير فى الخطر الجديد وكان الإدريسي من الضعف بحيث لا يؤبه به وظل الإمام يحى بعيدا عن موطن النضال يعتز باستقلاله فى اليمن وليس له من أمل غير أن يحافظ على استقلال بلاده وأن يمد رقعتها حتى تسع حدودها التاريخية القديمة وقد حقق ما يبغيه ولم يعد يلقى بالا إلى ماتعج به شبه الجزيرة من أحداث .



ولم يطل أمد انتظار النضال القادم بين السعوديين والهاشميين ففى ١٩ مايو سنة ١٩١٩ حدث أول صدام جدى بين الفريقين على مقربة من «ترابه» وكانت هزيمة قوات الحجاز بقيادة الأمير عبد الله تامة إلى درجة أن أصبح الطريق مفتوحا أمام القوات السعودية لاجتياح الحجاز لولا تدخل بريطانيا فى الوقت المناسب لإنقاذ حليفها الهاشمى من حليفها السعودى ، واستجاب ابن سعود للانذار البريطانى ورجع إلى نجد ولم يكن رجوعه عن الحجاز نزولا على الإنذار البريطانى بقدر ما كان استجابة بارعة لدواعى السياسة فقد كان عليه أن يتخلص من آل الرشيد أمراء شمر أعدائه القدامى قبل أن يعود إلى تصفية مشاكله مع الحجاز كما كان من الخير له أن يحافظ على علاقاته الطيبة مع البريطانيين وهو يرى أن علاقاتهم تسوء يوما بعد الآخر بالملك حسين .

ثم كان إغتيال الأمير سعود الرشيد فى ربيع عام ١٩٢٠ ماجعل الفرصة مواتية لابن سعود لاجتياح حايل عاصمة آل الرشيد والاستيلاء على شمر

ودافع أمير حايل محمد بن طلال عنها دفاعا مجيدا حتى سقطت المدينة فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ ونقل أمراء الرشيد إلى الرياض أسرى وفر بعضهم إلى العراق وعاد عبد العزيز آل سعود إلى عاصمته ظافرا وصار يلقب «بسلطان نجد وملحقاتها».

وامتدت حدود نجد الجديدة بعد سقوط آل الرشيد إلى الشمال وأصبحت تتاخم مناطق الإنتداب الانجليزى فى العراق وشرق الأردن والفرنسى فى سوريا ولما لم تكن الحدود قد خطت فى تلك المنطقة بعد فقد تمكن أن يمد نفوذه شرقا إلى وادى الرماح وغربا إلى وادى سرحان .

وفى ذلك الوقت كانت المفاوضات دائرة بين الإنجليز والملك حسين للوصول إلى اتفاق يصفى كل مابينهما من أمور معلقة ، وكانت الحكومة البريطانية قد دعت حكومة الحجاز لإرسال مندوب عنها لحضور مؤتمر الصلح فى باريس وأوفد الملك حسين ولده الأمير فيصل لحضور المؤتمر وحال الفرنسيون بين الأمير والمؤتمر واعتبروا دعوة الحكومة البريطانية للملك حسين دون مشاورتهم فى ذلك مناورة بيتها الإنجليز للاساءة إلى الفرنسيين الذين أخذوا يسيئون الظن بحلفائهم ويعتقدون أن بريطانيا تسعى لهدم نصوص اتفاق سيكس ـ بيكو وإقصائهم عن المشرق حتى يتاح لهم بسط نفوذهم عليه وقد تحقق للبريطانيين فى الحرب الثانية ماعز عليهم تحقيقه بعد الحرب الأولى وهم بصدد محاولات جديدة لبسط نفوذهم على دولتى المشرق فى شكل اتفاقيات أو اتحادات اقليمية تمكن لهم من النفوذ فيهما ، واستعان البريطانيون بالرئيس ويلسون للتغلب على معارضة الفرنسيين والسماح لمندوبى العرب بحضور مؤتمر الصلح ونزلت فرنسا على رأى حلفائها أخيرا ومثل العرب فى مؤتمر الصلح .

ولم يكن إلحاح البريطانيين على فرنسا بقبول ممثلى العرب فى مؤتمر الصلح إلا مناورة سياسية بارعة كان القصد منها أن يشترك العرب فى توقيع معاهدات الصلح وقبول مايقره المؤتمر خاصا بالبلاد العربية وبذلك يتخلص البريطانيون من ارتباطاتهم الخاصة سواء مع العرب أو مع حلفائهم الفرنسيين أو مع اليهود .

ثم أقر الحلفاء فى مؤتمر فرساى عهد عصبة الأمم واعتبروا جميع الدول التى خاضت غمار الحرب بجانبهم ومنها الحجاز أعضاء مؤسسين فى عصبة الأمم على شرط أن توافق على معاهدة فرساى وتقر نصوصها وفوت الملك حسين على حلفائه البريطانيين هذه المناورة وأبى أن يوقع معاهدة فرساى أو يوافق على ماجاء فيها خاصاً بفرض الإنتداب على البلاد العربية على أساس أنه نظام لا يتفق والعهود التى قطعت للعرب .

وفى مؤتمر الحلفاء الذى عقد فى مارس سنة ١٩٢١ فى لندن مثل الأمير فيصل حكومة الحجاز وانتقد نظام الإنتداب وقال أنه لايتفق ووعود الحلفاء للملك حسين باستقلال البلاد العربية .

وكانت الحكومة البريطانية حريصة على إقرار علاقتها بالملك حسين والوصول إلى اتفاق معه يسوى ما بينهما من مشاكل ولكن اختلاف وجهات النظر حال دون ذلك فقد كان الملك حسين شديد التمسك بحقوقه وتحقيق ما وعدت به بريطانيا العرب من حرية واستقلال وكانت بريطانيا حريصة على دعم نفوذها فى العراق وفلسطين كما كانت حريصة على تحقيق وعد بلفور وعدم إغضاب حليفتها فرنسا إذا أقرت للحسين بمطالبه فى سوريا .

وكان الملك حسين يعارض قيام الإنتداب فى البلاد العربية كما كان يعارض أى ادعاء لليهود فى فلسطين وكان الرجل الطيب قويا فى معارضته عنيفاً فى التمسك بحقوقه وكأنما كان ينشد أن ينصف ثورته أمام التاريخ .

وكان إصرار الملك حسين على تحقيق مطالبه هو الصخرة التى تحطمت عليها المفاوضات بينه وبين الإنجليز تلك المفاوضات التى بدأت بينه وبين صديقه لورنس الذى وصل إلى ميناء جدة فى أواخر أغسطس سنة ١٩٢١ يحمل أسس الاتفاق الذى تود أن

تبرمه الحكومة البريطانية مع ملك الحجاز . وكان لورنس رجلا يحمل فى قلبه كثيراً من المثل العليا ومروءة فرسان الصحراء وكان يهمه أن ينصف الدور الذى لعبه فى تنظيم الثورة العربية بإرضاء العرب الذين يمثلهم الملك حسين فلا يقال أنه غرر بقوم وجد فى رحابهم سعة الصحراء ورحابة المروءة الموروثة فى البيد ، وقد قبل أن يخرج من عزلته لما أزمعت الحكومة البريطانية انصاف العرب وشغل منصب مستشار وزارة المستعمرات للشئون العربيه . وبذل لورنس جهدا كبيراً فى حمل صديقه الحسين على قبول الاتفاقية الجديدة دون جدوى ، ولجأ لورنس إلى الأمير عبدالله فى شرق الأردن على أن يخفف من غلواء أبيه ولكن رفض الحسين كان حازما وباتا فلم يقبل أن يحيد أبدا عما رسمه لنفسه من تحقيق آمال الثورة العربية .

واستؤنفت المفاوضات مرة أخرى بين مندوب الملك حسين الدكتور ناجى الأصيل والحكومة البريطانية فى ربيع عام ١٩٢٣ واستمرت حتى صيف العام التالى دون الوصول إلى نتيجة ما ، واصطدمت المفاوضات هذه المرة بعقبة الإنتداب البريطانى على فلسطين وتحقيق وعد بلفور فإن قيام فيصل فى العراق وعبد الله فى شرق الأردن قد أخرجهما من دائرة المفاوضات الجارية بين الحسين والحكومة البريطانية .

وفى هذه المفاوضات الأخيرة سلم البريطانيون بحقوق العرب المدنية والدينية ولا يتنافى هذا وما ورد فى وعد بلفور من رعاية هذه الحقوق ولكن الملك حسين قد أصر على أن يسلموا بالحقوق السياسية والاقتصادية للعرب أيضاً على أن يكون لليهود فى فلسطين ما للرعايا الآخرين من حقوق ورعاية ، ولكن حرص السياسة الدولية على تحقيق وعد بلفور وأهمية فلسطين الاستراتيجية للبريطانيين حالا دون ذلك . ونفذ صبر السياسة البريطانية لإصرار الحسين على موقفه وأخذت تتخلى عنه ولا تعير احتجاجاته المتوالية أى التفات وحملت الصحافة البريطانية عليه وجعلت تنعته بنعوت بعيدة عن المجاملة واللياقة .

وفى موجة هذا الجفاء بين الحليفين وقعت الكارثة التى غفل الحسين عن

بوادرها طويلا فلم يعطها من اهتمامه ما أعطى قضية العرب وحقوقه لدى الحلفاء من اهتمام ، فقدهاجم السعوديون الحجاز والعراق وشرق الأردن فى أغسطس سنة ١٩٢٤ وكانوا قد أزمعوا مهاجمة هـذه الأقطار الثلاثة التى يقوم فيها حكم الهاشميين وكان ادعاء الحسين للخلافة الإسلامية بعـد أن ألغاها الكماليون فى تركيا مبرراً قويا فى نظر الوهابيين للقضاء على الأسرة الهاشمية فضلا عن اضطرام الخلاف بين الحسين ملك الحجاز وعبد العزيز آل سعود سلطان نجد وملحقاتها .

وفشلت حملة السعوديين على العراق وشرق الأردن واشتركت الطائرات البريطانية فى مطاردتهم إلى قلب نجد ونجحت حملتهم على الحجاز واستولوا على الطائف وبدأوا يهاجمون مشارف مكة وانضم إليهم كثير من العربان وشيوخ القبائل وطلب كبار الحجازيين إلى الملك حسين أن يتنازل عن الحكم لابنه « الأمير على » عسى أن يكف السلطان عبد العزيز آل سعود عن مهاجمتهم وكان ينشر على الملأ أنه ماقام لحرب الحجاز إلا بقصد إنقاذه من حكم الحسين .

ولم يجد الحسين فى بلواه صديقا يشد أزره أو حليفا يعتمد عليه وإذا كنا لانلوم الحسين الزعيم الذى قاد الثورة العربية بنجاح فريد وأسمع صوت العرب كافة الآذان وحمل قضيتهم إلى المؤتمرات الدولية فإنا نلوم الحسين الملك الذى فشل فى حمل رسالة الحكم وتنظيم أداته والذى ألهاه ما أحرزه من ذكر وصيت عن حقيقة الأمر الواقع فلم يعمل على كسب الرأى العام الإسلامى إلى جانبه وأوقد جذوة العداوة بينه وبين جيرانه أمراء نجد وعسير ولم يهادن أمراء شمر ويعينهم على السعوديين واختلف مع الحكومة المصرية حول بعض الإجراءات الصحية ولم يبد فى علاقاته الدولية كياسة الحازم أو مرونة اللبيب ، حتى الحجيج لم يعمل على كسب وفودهم إلى جانبه وسرت إليهم روح الاستياء التى انتشرت بين رعيته من حكمه وعادت وفودهم دعاة سوء عن الفوضى الضاربة فى البلاد المقدسة وسوء المعاملة التى يلاقونها مما كان له وقعه السىء فى أرجاء العالم الإسلامى وخاصة بين مسلمى الهند الذين زادت نفرتهم منه بعد أن أدعى الخلافة وأخذ البيعة بها من الحجاز والعراق وشرق الأردن .

وتطلع الحسين فى وحدته إلى معونة بريطانيا ولكن دوائر هوايت هول بدأت تهمل الرجل وتغفو عن معونته ولم تكتف بهذا بل أخذت تسخر منه وتجعل من مطالبه مادة للتسلية والفكاهة وتشيع عن الرجل العجوز المخرف من القصص ما أخذ ينتشر هنا وهناك ، ولم يكن هذا القصص الجديد البعيد عن المجاملة والوفاء إلا دعاية مستورة لتبرير تخلى السياسة البريطانية عن الوفاء للرجل ومعونته فى محنته كما كان للدعاية الصهيونية بعض الأثر فى الحملة التى شنتها الصحافة عليه والتى تتجدد صورها فى الوقت الحاضر ضد بعض حكام العرب وملوكهم الذين يعادون الصهيونية ويحاربونها .

ولم تبد الحكومة البريطانية أى رغبة فى التدخل كما تدخلت من قبل بل أنها أعلنت أن الخلاف بين السعوديين والهاشميين ماهو إلا خلاف دينى ليس لها أن تتدخل فيه إلا إذا طلب اليها ذلك الطرفان المتخاصمان .

ولم يضع ابن سعود الوقت سدى بعد أن امتلك الطائف ولم يرده عن قصده تنازل الحسين عن الملك لابنه الأمير على فزحف إلى مكة واحتلها فى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٤ بعد أن أخلاها الملك على وانسحب منها إلى جدة حيث أخذ فى إقامة وسائل الدفاع عنها ، وكان فى وسع السعوديين اجتياح البلاد واحتلال جدة غير أنهم تريثوا حتى تسلم دون مقاومة تسفك فيها الدماء وتم ذلك فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ وغادرها الملك على إلى بغداد حيث عاش فى بلاط أخيه الملك فيصل .

أما الملك حسين فقد غادر أرض الحجاز بعد أن تنازل عن الملك لابنه الأكبر على ، وأبحر إلى ميناء العقبة وأقام بها حتى طلبت إليه الحكومة البريطانية أن يترك العقبة التى يتطلع ابن سعود اليها ويعتبرها أرضا حجازية وقد يجد فى إقامة الحسين بها حجة لاجتياحها ونزل الحسين على طلب بريطانيا حليفته القديمة واختار أن ينزل فى قبرص وأقام بها إلى سنة ١٩٣٠ وكان قد بلغ الخامسة والسبعين وأخذ يحس دبيب

الفناء يسرى إلى هيكله الذى حطمته السنون فى منفاه القريب من الأرض التى شهدت سورة أحلامه وأمانيه ، وأخيراً سمحت الحكومة البريطانية لهذا الشيخ المحطم أن يغمض عينيه على ثرى آماله وأحلامه قريباً من آله وبنيه فانتقل إلى عمان حيث ودع الحياة فى يونيه من نفس العام ودفن فى بيت المقدس .

ولم تكن نهاية الرجل لتتفق مع آماله وأمانيه وجهوده وتضحياته ، ولعله عاش فى غير جيله فكم من عظماء قضى عليهم أن يسبقوا أجيالهم فلا يحسون أصداء نفوسهم لدى معاصريهم وقد ينكر الناس عليهم آمالهم وأحلامهم ولكن ما أن يطوى الزمن جيلهم حتى تنصفهم الأجيال اللاحقة وتخلد ذكراهم ، وهؤلاء العظماء هم أرباب المثل العليا والداعون لها ، هاته المثل التى ينشدها الناس ولا تكون حقيقة إلا بعد أن يمضى الزمن بهم . وقد يهيم بعض الناس بهذه المثل العليا ويدعون لها ويطبقونها فى حياتهم فلا ترحمهم الجماعة التى يعيشون فيها ولا تغفر لهم خروجهم على ناموسها وقانونها .

ومن هؤلاء الناس كان الحسين بن على ، فإن لم يجد الإنصاف بين معاصريه فلا ريب من إنصاف التاريخ له عند ما يكشف عن حقيقة الرجل والعوامل التى أحاطت به ، وإذا لم يكن له غير إيمانه بقضية العرب وحقهم فى الإستقلال والوحدة هذا الحق الذى ساومته الحكومة البريطانية عليه طويلا عسى أن يحيد عنه فلم يحد ولم يلن إيمانه بها ما كان سبباً فى سقوطه ، لكفى بهذا سبيلا إلى عظمته وخلوده وإذا كان قد تعرض للنقد المر فى ثورته على الأتراك فقد أبان موقفه الأخير عن حقيقة نفسه فكان الرثاء لسقوطه أشد من النقد لثورته .

ولا يمكن للتاريخ أن ينسى له وقفته وقد تكاثر عليه أهله وعشيرته يلحون أن يقبل المعاهدة البريطانية فأبى وهجر بيته إلى الكعبة يقسم بربها أن لن يسلم بحقوق العرب واستقلالهم ولن يساوم فيها .

ولا يمكن للتاريخ أن ينسى أن قبوله للمعاهدة كان حتما ينقذه من المصير المؤلم الذى انتهى إليه فقد تعهد له البريطانيون فيها بالمحافظة على بلاده فى نطاق الحدود التى

تعين لها . ولكنه أبى أن يخون قضية العرب ، حتى إذا وقعت الواقعة لم يجد له وليا ولا نصيراً .

وكان تسليم جدة للسعوديين نهاية آمال الهاشميين فى ملك الحجاز فقد نودى بالسلطان عبد العزيز آل سعود ملكا عليه فى ٨ يناير سنة ١٩٢٦ وقفز بهذا إلى بؤرة الأحداث فى شبه الجزيرة العربية .

وبدأت شبه الجزيرة تستقبل دوراً جديداً من أدرار تاريخها الطويل ولم تكن المشاكل التى تواجه الحكم الجديد من البساطة بحيث يمكن التغلب عليها بسهولة بل كانت من التعقيد بحيث تتطلب كثيراً من الكياسة والمرونة العقلية والسياسية فقد كان على العاهل الجديد أن يواجه مدى تقبل الحجازيين للعقيدة الوهابية كما كان عليه أن يدرك مدى تقبل العالم الإسلامى لحكم الوهابية فى الحجاز مهبط الوحى وموطن الحرمين الشريفين ، وما يكون من موقف المذاهب الإسلامية الأخرى من المذهب الوهابى ومدى تقبل الوهابية لهذه المذاهب التى أقرت كثيراً من مظاهر الحضارة والتقدم العلمى الجديد ما لا يزال أئمة الوهابية ومتعصبيها فى أعماق نجد يعتبرونها عملا من رجس الشيطان كاستخدام المسرة والحاكى والطائرة والسيارة .

ولم تكن مشاكل الحكم الجديد تنبع من الداخل فحسب فقد كانت علاقته بجيرانه فى شبه الجزيرة بعض ما يواجهه من مشاكل عليه أن يتغلب عليها ويقرها على نمط يتفق وقيام هذا الحكم الجديد الذى يغطى أكبر مساحة من شبه الجزيرة العربية ثم علاقته بالدول التى تربطها بشبه الجزيرة العربية مصالح قديمة قد أخذت لونا جديداً من الأهمية والتركيز والوضوح بعد الحرب وخاصة بريطانيا التى تربطها بإمارات الخليج الفارسى والمحيط الهندى رابطة الحماية والولاء والتى أصبحت حدودها فى مناطق انتدابها فى العراق وشرق الأردن تتاخم حدوده فى شبه الجزيرة تلك الحدود التى لم تسو مشاكلها بينه وبينها بعد .

وكان على عاهل شبه جزيرة العرب الجديد أن يواجه هذه المشاكل مجتمعة وأن

يعالجها بروح الكياسة والمرونة السياسية والعقلية مايتفق واتجاه كل منها واتجاه أهدافه ومراميه .

وقد دل تناوله لهذه المشاكل وعلاجه لها على أنه بناء دولة وسواس ملك من الطراز الأول حتى دعاه بعض مؤرخيه نابليون الجزيرة ، فقد أوتى من الحزم والصراحة وبعد النظر والذكاء الفطرى وروح التنظيم والإعداد ماأوتيه عظماء التاريخ من بنائى الدول ورواد عظمتها ومجدها .

وكان أول ما جبهه من هذه المشاكل حكمه للحجاز وكان قد أعلن فى أثناء زحفه عليه أنه سيترك حكم الحجاز لمشيئة أهله ورأى العالم الأسلامى ، فلما دان له الأمر فيه دعا العالم الإسلامى إلى مؤتمر عام عقد فى يونيه سنة ١٩٢٦ لم تمثل فيه البلاد الإسلامية تمثيلا كاملا ولكنه كان بداية طيبة للتقارب بين العقيدة الوهابية والعقائد الإسلامية الأخرى .

وجرت الأمور فى الحجاز بعد ذلك كما أرادها الملك عبد العزيز آل سعود أن تجرى فقد استطاع أن يجب أسس المغالاة والتطرف بين وهابى نجد وسني الحجاز وأن يتغلب على ما بين المذهبين من تباين وتفاوت وأن يقرب شقه الخلاف بين اتباعه وحجاج البلاد الإسلامية الأخرى ومهد لمظاهر الحضارة الحديثة أن تتغلغل فى أعماق شبه جزيرة العرب فى نجد والحجاز فعبدت الطرق وجرت عليها السيارات بدل قوافل الإبل واستخدمت المسرة والإذاعة ولم يعد الوهابى القديم يرى فيها مسامن الشيطان واستقرت القبائل حول عيون الماء تفلح الأرض وتزرعها وأمحت الغارات وأعمال السطو والنهب بين القبائل وسارت قوافل الحجيج آمنة لايروعها قاطع طريق أوسطو مبيت حتى سارت الأمثال بالأمن الذى ضرب أطنابه على أرجاء ما وسع حكم الملك عبد العزيز آل سعود من شبه الجزيرة العربية .

وكان على العاهل السعودى فى وضعه الجديد أن يسوى حدود دولته

مع الدول التى تقوم على تخومها وكان قد سوى حدوده مع العراق التى تخضع للانتداب البريطانى فى اتفاقيه المحمرة سنة ١٩٢٢ بعد أن ضم إليه جبل شمر ولكن توغله فى وادى سرحان قد مد حدوده إلى تخوم سوريا وشرق الأردن . وبدأت المفاوضات بينه وبين الحكومة البريطانية التى مثلها فى تلك المفاوضات سير جلبرت كلايتون قبل أن ينتهى من حملته على الحجاز ، وانتهت بعقد اتفاقيتى البحر اوالحدا فى ١ و ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٥ الأولى خاصة بتحركات القبائل عبر الحدود الشمالية بين نجد والعراق وشرق الأردن ، والثانية خاصة بالحدود الفاصلة بين نجد ومناطق الإنتداب البريطانى فى العراق وشرق الأردن ونصت على أن يترك وادى سرحان داخل حدود نجد على أن يضم إلى منطقتى الانتداب البريطانى ممر أرضى يصل بينهما ويفصل بين نجد ومنطقة الإنتداب الفرنسى فى سوريا ولم تتعرض الإتفاقية للحدود بين الحجاز وشرق الأردن طالما أن مستقبل الحجاز لا يزال رهنا باستتباب عوامل النزاع بين الهاشميين والسعوديين .

وما أن أبرمت هاتان الاتفاقيتان حتى طلب ابن سعود من الحكومة البريطانية تجديد ارتباطه بها على أساس وضعه الجديد فى شبه جزيرة العرب وكان لايزال يرتبط معها بمعاهدة العقير التى أبرمت سنة ١٩١٥ ولم تشأ الحكومة البريطانية أن تستجيب له قبل أن يتم فتح الحجاز ويقيم حكمه فيه على قواعد ثابتة حتى إذا استقرت له الأمور استجابت له وبدأت المفاوضات بين الطرفين وانتهت بعقد معاهدة جدة فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ وفيها اعترفت الحكومة البريطانية به ملكا مستقلا على الحجاز ونجد وملحقاتها ولم يفتها أن تقر فيها علاقات المودة وحسن الجوار بينه وبين إمارات الخليج الفارسى والساحل العمانى التى تربطها ببريطانيا معاهدات خاصة .

وللمعاهدة أربعة ملاحق تتعلق بتجارة الرقيق وشراء الأسلحة ومعاملة الحجاج وإقرار الوضع القائم فى العقبة ومعان من حيث تبعيتها لشرق الأردن وكانتا فى الأصل ضمن أملاك الحجاز وطالب بهما الملك عبد العزيز آل سعود بعد أن ضم الحجاز

لى ملكه وأقر الملحق الخاص بهما فى معاهدة جده أن تظلا تابعتين لشرق الأردن بعد أن ضمها الأمير عبد الله إلى إمارته حتى تحل مشكلتهما فيما بعد بمفاوضات خاصة بين الطرفين . واعتبرت معاهدة جدة سارية المفعول لمدة سبع سنوات من تاريخ توقيعها وقد جددت مرة أخرى فى سنة ١٩٣٤ .

أما حدوده الجنوبية فقد كان عليه أن يواجه بشأنها الإمام يحى عاهل اليمن وأمراء الأدارسة فى عسير ولم تكن له تجاهها مشاريع خاصة ولكن تطور الأحداث بين إمام اليمن والأدارسة فى عسير جر قدمه إلى مواطن النزاع ، فقد انتهب الإمام يحي فرصة وفاة السيد محمد الأدريسى مؤسس الإمارة سنة ١٩٢٣ وما جد من خلاف فى محيط الأسرة الأدريسية حول الحكم واجتاح الجهات الجنوبية من عسير وجزءا على الساحل يضم ميناء الحديدة وبدا طمعه واضحا فى اجتياح الإمارة وضمها إلى اليمن ولم يكن لحاكمها الجديد إلا أن يختار بين الخضوع لمشيئة إمام اليمن أوطلب حماية ابن سعود وقد اختار الأمر الأخير وأبرم مع السعود بين معاهدة مكة فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٦ أصبح بمقتضاها يتمتع بحماية ملك الحجاز ولكن تطور الأحداث قد جعل الأدراسة يقبلون الخضوع والتبعية لمملكة الحجاز فأصبحت عسير ضمن ملحقاتها منذ عام ١٩٣٠ . ولم يعد فى شبه جزيرة العرب عدا المحميات البريطانية على سواحلها إلا الملك عبد العزيز آل سعود فى الحجاز ونجد التى ضمت إليها قبل ذلك الحسا وإمارة شمر ثم الحجاز وإمارة عسير وأصبحت تعرف منذ ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ بالمملكة العربية السعودية وكان يطلق عليها بعد ضم الحجاز مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها — ثم مملكة الإمام يحي فى اليمن ، وأصبحت هاتان القوتان وجها لوجه تتجاوران لصق بعضهما من البحر الأحمر فى الغرب إلى أقصى المناطق المأهولة فى الشرق ولم يكن للملك عبد العزيز آل سعود أطماع فى اليمن ولكن إمام اليمن كان ينشد مد حدود أمارته حتى تغطى مساحتها التاريخية وكان اجتياحه لإمارة عسير محاولة للوصول إلى تلك الحدود الطبيعية لليمن وكان تعهد الملك عبد العزيز آل سعود بحماية عسير ثم ضمها إلى ملكه أول بوادر الاحتكاك بين العاهلين .

وقد بدأت المفاوضات ثم استمرت طويلا بين العاهلين للوصول إلى تسوية سلمية وإقرار الحدود بينهما دون جدوى ولم تصل بهما إلى نتيجة يقرانها وأخيرا كشر الشر عن أنيابه ودارت رحى الحرب بينهماسنة ١٩٣٤ ولكنها لم تستمر سوى شهرين أسفرت بعدهما عن هزيمة القوات اليمنية هزيمة تامة فى معركة واحدة انسابت بعدها الجيوش السعودية إلى سهول تهامه واحتلت ميناء الحديدة ، وطلب الإمام الصلح واستجاب ابن سعود له معلناً كما أعلن من قبل أن ليست له أطماع فى أملاك جاره ولايرمى إلى استعادة ما استولى عليه أمام اليمن من إمارة عسير وأن كان قد ألحقها ببلاده فلأجل أن يصون مابقى لها من عدوان اليمن .

وكان الملك عبد العزيز كريماً حيال جاره فلم يفرض عليه شروطاً شديدة ولم يحاول أن يقتطع شيئاً من أملاكه أويوقع عليه ما تفرضه الحرب من عقوبات وكان هذا بداية طيبة لحسن الجوار بين العاهلين ولماتمتعت به شبه الجزيرة العربية من سلم دائم فيما بعد .

ووقعا العاهلان معاهدة الطائف فى ٢٣ يونيه سنة ١٩٣٤ وانتهى أمد التوتر والنضال بين العاهلين المستقلين فى شبه جزيرة العرب .

ولايفوتنا أن نذكر أن بريطانيا قد أبرمت معاهدة صنعاء مع اليمن يسرى العمل بها لمدة أربعين عاما واعترفت فيها باستقلال اليمن وسيادتها وذلك فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ أى قبل أن تبرم معاهدة الطائف ببضعة شهور ، كما لا يفوتنا أن نذكر أن توسط بريطانيا فى الصلح بين العاهلين وسماحة الملك السعودى كانا عاملين مهمين فى إقرار العلاقة بينهما وإبرام معاهدة الطائف .

وكانت بريطانيا حريصة على أن يسود السلام فى شبه جزيرة العرب حتى لا تتعرض محمياتها على السواحل أوقواعدها الاستراتيجية فى عدن وبريم ومسقط والكويت والبحرين للخطر وقد عملت فى كل المعاهدات التى أبرمتها مع الحكام المستقلين فى شبه الجزيرة على ضمان سلامة وتأمين هذه القواعد الاستراتيجية كما أنها لزمت موقف الحياد الدقيق فى كل نزاع داخلى فى شبه الجزيرة إلا ما كان منه غير

موال لها فقد أطلقت يد السعوديين للعمل ضد أمراء حايل بعدما انحاز هؤلاء إلى صف تركيا فى الحرب العالميـة الأولى ولم تتعرض لهم عندما اجتاحوا الحجاز بعد أن فشلت فى الوصول إلى اتفاق يضمن سلامة مصالحها فى العالم العربى مع الملك حسين ، كما أطلقت يد الإدريسى فى ميناء الحديدة وهى المنفذ الطبيعى لليمن على البحر وكانت اليمن قد لزمت موقف الحياد الدقيق فى الحرب العامة ولـكنها كانت لا تحب أن تتعرض اليمن لحظر خارجى يهدد سلامة عدن ومدخل البحر الأحمر من المحيط الهندى فـلم تنقم عليها موقف الحياد التى اختطته لنفسها حتى إذا بدأت اليمن تخرج من عزلتها وتعقد المعاهدات مع إيطاليا وروسيا منذ سنة ١٩٢٦ أوجست انجلترا خيفة وسارعت بعقد معاهدة صنعاء معها ولزيادة الطمأنينة أخذت فى مفاوضة إيطاليا بشأن عقد اتفاق بينهما تضمنان فيه استقلال اليمن وسيادتها وعدم نيل امتيازات ذات صبغة سياسية فيها وقد استجابت إيطاليا لرغبة بريطانيا بعدما لمست نشاط روسيا فى اليمن وعقدت الدولتان اتفاقا فى سنة ١٩٣٧ بالرغبة السابقة كما نص على الحيلولة بين أى دولة أخرى والحصول على مركز ممتاز فى اليمن .

ولم يشارك انجلترا فى الإهتمام بشبه جزيرة العرب غير إيطاليا فقد قضت الحرب على آمال ألمانيا فى الوصول إلى الخليج الفارسى ونبذت تركيا أملاكها العربية وانزوت داخل حدودها القومية تبنى حياتها الجديدة وكان اهتمام فرنسا يتركز فى شمال أفريقيا وساحل اللفانت وجفت روسيا أطماعها الاستعمارية القديمة ولم تعد تنشد غير ترويج تجارتها وضمان أسواق لتصريف منتجاتها وكانت بعثة الإتحاد السوفيتى إلى اليمن سنة ١٩٢٦ ترمى إلى عقد معاهدة تجارية معها وقد افتتحت بضع وكالات تجارية فيها بعد عقد هذه المعاهدة لترويج التجارة السوفيتية فى أنحائها .

أما إيطاليا فقد كانت أملاكها فى ارتريا والصومال وأطماعها فى الحبشة تدعوها إلى امتلاك قواعد لها فى البحر الأحمر وكانت تطالب بهذا بعد إنضمامها إلى الحلفاء فى الحرب كما نراها قبل الحرب العالمية سنة ١٩١١ عندما أعلنت الحرب على تركيا وأنزلت قواتها لاحتلال طرابلس ، تمد يد المساعدة إلى الإدريسى فى عسير وكان يحارب الأتراك وتمده بالسلاح والمال وتقيم فى إمارته نفوذا لها سرعان ما تقضى عليه

الحرب العامة عندما يرتبط الإدريسى بالإنجليز ويتحالف معهم وينشد حمايتهم وعونهم ضد الأتراك وحل النفوذ الإنجليزى بذلك محل النفوذ الإيطالى فى عسير .

وكانت المعاهدة التى عقدتها مع الإمام يحيى فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ إحدى محاولاتها لإيجاد منقطة نفوذ لها فى البحر الأحمر وخاصة على الساحل المواجه لأملاكها فى ارتريا والصومال .

ولكن الإمام يحيى كان حريصا على إقصاء كافة المؤثرات الأجنبية عن التدخل فى سياسة اليمن الداخلية أو الخارجية وكانت المعاهدات التى ارتبط بها بالدول الأجنبية ذات صبغة تجارية وكان شديد الحذر من الارتباط ببريطانيا بالذات فقد كان يرى أن مصلحتها تدعوها إلى بسط نفوذها على بلاده ولعله إذا ارتبط بإيطاليا ومنح رعاياها الأولوية فى مزاولة النشاط الاقتصادى رغم يقينه بأطماعها التقليدية فى بلاده فلأنه كان يدرك وهو الرجل الذى عركته تجارب السنين الطوال التى عاشها أن بريطانيا لن تسمح بقيام أى نفوذ أجنبى فى بلاد اليمن يهدد قاعدتها فى عدن وخطوط مواصلاتها الإمبراطورية فى البحر الأحمر فإذا استطاع أن يحمى استقلال بلاده من جور بريطانيا واعتدائها عليه فهو ولاشك يضمن حماية هذا الاستقلال من اعتداء أى دولة أخرى ما دامت بريطانيا تملك ناصية البحار ولها القوة والسلطان فى العالم ومادامت حريصة على صيانة مصالحها التقليدية فى تلك البقاع .

وقد نعمت شبه الجزيره العربية بسلم طويل بعد توقيع معاهدة الطائف لم يعكره إلا التوتر الذى كان يسود علاقات المملكة العربية السعودية بالمملكة المصرية وبإمارة شرق الأردن وكان السعوديون قد نجحوا فى توطيد علاقاتهم بالدول الإسلامية الكبرى فأبرموا معاهدة صداقة مع تركيا فى أغسطس سنة ١٩٢٩ كما أبرموا مثلها مع إيران فى نفس الشهر الذى أبرمت فيه المعاهدة مع تركيا ووقعت معاهدة الصداقة مع العراق فى فبراير من العام التالى ، كما نجحوا فى دعم علاقاتهم مع الدول الكبرى التى تضم فى أملاكها عدداً كبيراً من المسلمين كروسيا وإيطاليا وفرنسا وهولندا .

وظلت علاقتهم بإمارة شرق الأردن متوترة بسبب ما كان بين البيتين السعودى والهاشمى من جفوة وعداء حتى عام ١٩٣٣ حيث أبرما معاهدة صداقة فى يوليه من تلك السنة قضت على عوامل العداوة والبغضاء التى استمرت طوال هذه السنين وكانت سببا فى أثارة كثير من المشاكل وخاصة بين القبائل التى تقطن على حدودهما

أما علاقة السعوديين بمصر وهى الدولة الكبرى بين الدول الإسلامية فى الشرق الأوسط والتى تربطها ببلاد العرب صلات تاريخية قديمة من الود والرعاية فقد اجتاحتها موجة من الجفاء والتوتر بعد حادثة المحمل المشهورة ، ففى أول موسم للحج وفى السنة الأولى لقيام حكم الوهابيين فى الحجاز خرج المحمل كعادته تتقدمه الطبول والموسيقى وصفوف الجند ، ولما كانت هذه المظاهر بدعا فى نظر العقيدة الوهابية فقد حدث احتكاك مسلح بين الطرفين أدى إلى قطع العلاقات بينهما ولم تكن مصر قد اعترفت بعد بحكم السعوديين فى الحجاز ، وظل الجفاء والتوتر يسود علاقات الدولتين ومصر لا تعترف بالملك عبد العزيز آل سعود وحكومته فى الحجاز حتى أبرمت اتفاقية ٧ مايو سنة ١٩٣٦ ، وإعترفت فيها مصر بضم الحجاز إلى الحكم السعودى فقضت على ما كان بينهما من توتر وجفاء .

وبدأت الأقطار العربية تتقارب بعد موجة الجفاء التى ألمت بحكوماتها الجديدة التى قامت على أساس التسويات التى أعقبتها الحرب وكان أول مظهر من مظاهر هذا التقارب الجديد معاهدة الصداقة وعدم الإعتداء التى أبرمتها المملكة العربية السعودية مع العراق فى ٢ ابريل سنة ١٩٣٦ ، وأخذت البلاد العربية ترتبط بسلسلة من الإتفاقيات المشابهة بدت فيها روح التفاهم والتضامن ملموسة واضحة واتجه الرأى العام العربى إلى التفكير فى وحدة عربية شاملة لا ريب أنه كان بداية الفكرة التى قامت عليها جامعة الأمم العربية وبدأ هذا التكتل العربى واضحا جليا حيال مشكلة فلسطين التى كانت فى الحقيقة مبعث هذا التفاهم المشترك بين الأمم العربية حتى إذا كان مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن لبحث هذه المشكلة دعى إليه ممثلوا مصر والمملكة العربية السعودية والعراق وشرق الأردن واليمن.

المسألة المصرية والحماية :

دخلت المسألة المصرية بإعلان الحماية البريطانية على مصر وإلغاء السيادة التركية عنها فى دور جديد ارتبطت فيه بيريطانيا وحدها فأتيح لها لأول مرة أن تفرض على مصر سلطانها مطلقا بحكم الضرورات التى أملتها الحرب وانحياز تركيا إلى معسكر الأعداء ما قضى على المبدأ الذى كفلته المعاهدات الدولية بسلامة الدولة العثمانية وربط مصيرها بمصير الحرب الدائرة فرسمت بريطانيا سياستها حيال المسألة المصرية على أساس الإبقاء على الحماية أو ضم مصر إلى أملاك التاج وفصل مسألة السودان عنها حتى لا ترتبط مصيره بمصيرها ووراثة تركيا فيما كان لها من حقوق فى معاهدة الآستانة لحماية قناة السويس والدفاع عنها وحرصت على أن تقر هذه السياسة فى معاهدات الصلح ولكن الثورة المصرية قلبت خطوط هذه السياسة فألغيت الحماية وأعلن استقلال البلاد مقيدا بالتحفظات التى رأى الإنجليز فيها تحقيقا لسياستهم ومصالحهم وإرضاء لشعور المصريين . فما أن أعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى قام سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية المنتخب وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى عضوا الجمعية بالإتفاق مع رئيس الوزراء حسين رشدى بطلب مقابلة المندوب السامى البريطانى لتقديم المطالب المصرية والسماح لهم بالسفر إلى إنجلترا لعرض هذه المطالب على الحكومة الإنجليزية فقد كان السفر إلى الخارج لا يسمح به إلا بإذن من السلطة العسكرية وتمت المقابلة فى ١٣ نوفمبر وفيها عرض الزعماء الثلاثة على المندوب السامى مطلب مصر فى الاستقلال التام ، وفى اليوم نفسه تكون الوفد المصرى للسعى فى تحقيق حرية البلاد واستقلالها .

ورفضت الحكومة البريطانية طلب الوفد المصرى للسفر إلى الخارج وأشارت عليه بتقديم مقترحاته إلى المندوب السامى مع مراعاة الوضع الجديد الذى تخضع له مصر منذ الحماية ، واعتذرت فى لباقة إلى حسين رشدى رئيس الوزارة وكان قد استأذن عظمة السلطان فؤاد فى السفر برفقة زميله عدلى لعرض مطالب الحكومة المصرية

على الحكومة الإنجليزية ولم يتوان حسين رشدى عن رفع استقالته إلى فخامة السلطان استنكارا لموقف الإنجليز من سفره فكانت استقالته نذيرا بتفاقم الأمور وهبوب العاصفة وكان الوفد المصرى يتابع جهوده فى الداخل بتنظيم الحركة الوطنية والدعوة إلى تحقيق مطالب مصر مما حمل السلطة العسكرية على اعتقال أربعة من أعضائه هم سعد زغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقى وحمد الباسل ونفيهم إلى مالطة علها تقضى بذلك على الحركة فى مهدها ولكن خاب فألها فما أن اعتقل الباشوات الأربعة حتى هبت البلاد عن بكرة أبيها يوم الأحد ٩ مارس سنة ١٩١٩ فى ثورة جارفة تعلن عن سخطها على الإحتلال والمحتلين .

ولم يكن اعتقال سعد وصحبه وإن كان الشرارة التى أضرمت لهيب الثورة ، العامل الأول فى هبوبها بل أنها ترجع فى أسبابها إلى عوامل أبعد وأعمق من ذلك ، فقد بدأت الحركة الوطنية وصحت البلاد للمطالبة بحقوقها منذ قام مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى يلهبون سعير الوطنية ويقظون آمال البلاد من ركودها ويأسها الذى خيم عليها بعد فشل الثورة العرابية واحتلال الإنجليز للبلاد ، ونجح مصطفى كامل ومن أتى بعده من رجال الحزب الوطنى فى إيقاظ الروح الوطنى وجمع البلاد على مقاومة الاحتلال وسياسته وبغض المحتلين ثم كانت الحرب وإعلان الحماية البريطانية على مصر وخلع الخديو وما فرضته السلطة العسكرية من إجراءات عنيفة وما لجأت إليه من تجنيد فرقة العمال المصرية لجهود الحرب والاستيلاء على المحاصيل والدواب وما حاق بالبلاد من غلاء وقحط خلال الحرب وفى أعقابها كانت كلها من الأسباب التى مهدت لثورة المصريين سنة ١٩١٩ وكان ويلسون قد أعلن مبادئه الأربع عشرة ونادى بحرية الشعوب وحق تقرير المصير ورأت الأمم المستضعفة فيها بشيرا بميلاد عهد جديد فأقبلت تحييه وتباركه حتى إذا بان زيفها كان لصدمة اليأس عند هذه الشعوب أثرها فى غضبة الحنق التى نضت عنها هذه الثورات التى عمت بلدان الشرق الأوسط فى أعقاب الحرب .

ويمكن أن نخرج من ذلك بحقيقة نراها موضع التقدير والإعتبار وهى أن الثورة هى

التى دفعت الوفد للعمل لا الوفد هو الذى خلق الثورة وقد ظهر ذلك فيما بعد فى تبلبل خطط الوفد وتشعب آراء أعضائه فيما يسلكون من سبيل لتحقيق مطالب البلاد فقد كانت المطالب واضحة ولكن الخطط بدت غامضة أو على الأقل ضيقة محدودة فلم يدر أحد ماذا تكون الخطة لو حال الإنجليز بين الوفد وعرض القضية على مؤتمر الصلح أو رفضوا الإعتراف به وبمفاوضته أو الدخول فى مفاوضات مع مصر قطعا ونقول أخيرا أن الثورة هى التى حملت الإنجليز على تعديل موقفهم من مصر ومن الوفد وإن كان الفضل الوحيد للوفد هو أنه قام بالإخراج أما الموضوع فكان من صنع غيره .

ولم يكن فى نية الإنجليز من بداية الأمر ومنذ أن فرضوا حمايتهم على البلاد وأعلنوا انتهاء السيادة التركية أن يغيروا من الوضع الذى انتهى إليهم فى مصر بتطور الأحوال الدولية وقيام الحرب وخروجهم منها منتصرين فلم يعد هناك مايحول بين بريطانيا وتحقيق أغراضها ومراميها الحقيقية فى مصر بضمها إلى أملاك التاج أو إقامة نظام فيها يفرض عليها التبعية المباشرة لها وظهر ذلك واضحا فى رد الحكومة البريطانية على طلب سعد زغلول ورفاقه السفر إلى إنجلترا لعرض مطالب البلاد فقد ورد فى الرد الذى أبلغ إليه على لسان الحكومة البريطانية مايشير إلى مراعاة ماجاء فى البلاغ البريطانى إلى السلطان حسين كامل عند توليته من أن حكومة جلالة الملك رأت أن أفضل وسيلة لقيام بريطانيا العظمى بالمسئولية التى عليها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية إعلانا صريحا ، وأن تكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بيد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقا لنظام وراثى يقرر فيما بعد ، كما ظهر ذلك فى مشروع «برونيت» المستشار القضائى لوزارة الحقانية لتعديل القانون النظامى للبلاد وإلغاء الامتيازات الأجنبية بما يلائم الوضع الجديد لبريطانيا فى مصر ، وأدرك المصريون أن الإنجليز لا يرومون من وراء هذه الخطوة إلا الاستئثار بشئون مصر والنزول بها إلى صف المستعمرات البريطانية على نحو ماقاموا به من إلغاء الإمتيازات فى السودان حتى لا يكون لأى دولة أخرى مالهم من حقوق فيه ولا ينافسهم فى ربوعه منافس ، ثم أعلن لورد كيرزون فى خطبة له فى مجلس اللوردات فى ٢٤ مارس

سنة ١٩١٩ عن نوايا حكومته بقوله « إننا نرى دائما أن من أهم الأمور أن نتفق وإياهم على تحديد الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى مستقبل الأيام »

ثم أخذت الحكومة البريطانية تغير من خطتها فقد لجأت للقضاء على الثورة إلى تعيين اللنبى مندوبا ساميا لها فى مصر بدل ونجت عله بما اقترن باسمه من انتصارات فى فلسطين يكون أقدر من ونجت على كبح جماح الثورة كما لجأت من قبل إلى اعتقال سعد زغلول ورفاقه وقمع الثورة بعنف ولم تجد من وراء ذلك نفعاً لا من اعتقال الزعماء ولا من تعيين اللنبى ولا من سائل العنف فى قمع الثورة ولمست قوة الحركة الوطنية وشدتها وإصرار المصريين على مطالبهم وإجماعهم عليها فاستجابت إلى رأى اللنبى وأفرجت عن الباشوات الأربعة وسمحت بالسفر إلى الخارج لمن يرغب من المصريين فيه وإن بقيت على غايتها فى أن تكون الحماية أساسا لأى نظام يقوم فى مصر وعملت لذلك فى مؤتمر الصلح فما أن وصل الوفد المصرى إلى باريس فى منتصف أبريل حتى فوجىء أعضاؤه باعتراف ويلسون بالحماية ثم علموا أن شروط الصلح التى قدمت إلى ألمانيا فى ٧ مايو بقصر فرساى تتضمن الإعتراف الصريح بالحماية على مصر ، وفى ٢٧ يونيه وقعت معاهدة فرساى ونصت المادة ١٤٧ على ما يأتى : « تصرح ألمانيا بأنها تعترف بالحماية التى أعلنتها بريطانيا العظمى على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وتتنازل عن نظام الإمتيازات الأجنبية فى القطر المصرى ويكون هذا التنازل اعتبارا من ٤ أغسطس سنة ١٩١٤» وبذلك كسبت انجلترا اعترافا دولياً بوضعها فى مصر وأشار لورد كيرزون إلى ذلك فى خطبة ألقاها فى مجلس اللوردات فى ١٥ مايو ثم قال «وعلى ذلك لن يمض وقت طويل حتى تنال الحماية الإعتراف العام » .

وفت ذلك من عضد الوفد ولكنه بقى مقيما فى باريس من غير أن يتمكن من عرض المسألة المصرية على مؤتمر الصلح ، ولم يستطع إلا أن يتصل بأعضائه فى خارج قاعاته ولم يجده هذا الاتصال فتيلا ، ولم يقم بغير الدعاية للقضية المصرية فى محيط كان كل من فيه مشغولا بأموره ومشاكله لا يلقى بالا إلى غيره ، ولم يبعث موات الأمل فى نفس أعضائه إلا أن لجنة الشئون الخارجية فى الكونجرس الأمريكى قررت فى أغسطس سنة ١٩١٩ أن مصر ليست تابعة من الناحية السياسية لتركيا ولا لبريطانيا العظمى

وإنها صاحبة الحق فى تقرير مصيرها ، ثم ما كان من رفض الكونجرس فى مارس سنة ١٩٢٠ لمعاهدة الصلح .

ورغم ما كسبته انجلترا باعتراف الحلفاء بالحماية إلا أنها ظلت مشغولة بالثورة وتطورها وعنفها وإجماع المصريين على مقاومة الإحتلال وإصرارهم على مطالبهم فاعتزمت إيفاد لجنة لتحقيق أسبابها ودراسة أهدافها الملافاة مثيلاتها فى المستقبل فما زالت تصر على ما ارتأته من بقاء حمايتها على البلاد كما صرح بذلك كيرزون فى مجلس اللوردات فى مايو سنة ١٩١٩ عن مهمة اللجنة قبل إيفادها بقوله « تحقيق أسباب الإضطرابات التى حدثت فى مصر أخيراً وتقديم تقرير عن حالة البلاد وقانونها النظامى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، وتوسيع نطاق الحكم الذاتى لها توسيعا مطرد التقدم والرقى ، وحماية مصالح الأجانب » .

وتألفت اللجنة فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٩ برئاسة لورد ألفريد ملنر وزير المستعمرات وكان من أعضائها الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية فى مصر فى بداية الحرب ، وأصدرت دار الحماية بلاغا رسميا أعلنت فيه قدوم اللجنة وبينت فيه مهمتها وأهدافها جاء فيه :

« إن سياسة بريطانيا العظمى فى القطر المصرى هى المحافظة على حكومته الذاتية تحت الحماية البريطانية وإنشاء نظام حكومة ذاتية تحت حكم سلطان مصرى ، وغرض بريطانيا العظمى الدفاع عن مصر من كل خطر خارجى أو من تدخل أى دولة أجنبية ، وغرضها فى الوقت نفسه تأسيس نظام دستورى تحت إرشاد بريطانيا العظمى على قدر الحاجة ، النظام الذى يمكن عظمة السلطان ومعالى وزرائه وحضرات مندوبى الأمة فى دوائرهم الخاصة من الإشتراك فى إدارة الأمور المصرية ، وذلك على أسلوب يزيد فيه نفوذهم على مرور الأيام ، ... الخ » .

وقبل قدوم اللجنة تناول كيرزون فى خطبة له فى مجلس اللوردات فى نوفمبر سنة ١٩١٩ موضوع المسألة المصرية وسياسة إنجلترا نحو مصر قال فيها :

« لا أرانى فى حاجة إلى بسط الأسباب التى اضطرت بريطانيا العظمى إلى

الاهتمام بحظ مصر السياسى وجعلتها فى موقف لا تستطيع معه تشجيعها على المطالبة بالاستقلال القومى التام فإن مصر لا تستطيع حماية حدودها أمام غزو أجنبى إذا تركت وشأنها ولن تقوم فيها حكومة قوية عادلة تسوس شئونها الداخلية كما أن وجودها قريبا من فلسطين التى يحتمل أن تلقى فيها على عاتقنا مهمة خاصة ، وموقعها الجغرافى على طريق الهند وفى مدخل أفريقيا يجعل من المستحيل على الإمبراطورية البريطانية إذا أرادت المحافظة على سلامتها وسلامة ملحقاتها أن تتخلى عن تبعتها فى مصر ... الخ » .

وجاءت لجنة ملنر إلى مصر فى ٧ ديسمبر فلم تلق غير الإعراض والمقاطعة وكان إجماع الشعب بكل طوائفه وطبقاته رائعاً فى مقاطعتها ويقول الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى مذكراته السياسية أن ملنر استطاع «فى الأسابيع الأولى من مقامه بمصر ، أن يتصل سرا وتحت جنح الليل بعدد محدود جدا من ذوى الرأى الذين أجمعوا على أن مصر لن تقبل الحماية ، ولكنها لا ترفض تنظيم علاقاتها مع انجلترا على القاعدة التى أعلنها سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ، حين قابلوا سير ونجت ممثل انجلترا فى مصر يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، فإذا أريد وضع العلاقات بين البلدين على هذا الأساس ، فالسبيل له مفاوضة الوفد المصرى المقيم بباريس » .

ولم تجد محاولات اللجنة فتيلا للتحدث إلى المصريين أو الإتصال بهم أو حتى بقادة الرأى من الرسميين وأصحاب المصالح فقد وجدوا لأنفسهم مخرجا من الإتصال بها بحجتهم فى أن سبيل الإتصال الوحيد بالمصريين هو عن طريق الوفد المقيم بباريس ، ولن يجد اتصال ما بأى هيئة أخرى عداه .

ورأى ملنر بعد فشله فى مصر أن لا سبيل للتفاهم وبحث المسألة المصرية إلا مع الوفد ورجع إلى انجلترا وهو يؤمن بذلك وإن لم يشأ أن يخطو خطوته هذه وهو فى مصر حتى لا ينتقص ذلك من هيبة وفادته أو كبرياء الإمبراطورية فى النزول على رغبة المصريين ، فما أن وصل إلى بلاده حتى اتصل بالوفد المصرى فى باريس وأبلغه رغبة اللجنة فى مفاوضته دون قيد أو شرط ، ولبى الوفد دعوة ملنر بعد أن استطلع أمر هذه الدعوة وجديتها بمقابلة تمهيدية بين ملنر وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود وعلى ماهر الذين أرسلهم إلى لندن ليبحث هذه الدعوة قبل قبولها .

وأسفرت المفاوضات عن مشروع معاهدة بين مصر وانجلترا رفضه الوفد وقدم مشروعا رأى أنه أساس صالح للعلاقات بين البلدين فرفضته اللجنة ، ثم استؤنفت المفاوضات مع عدلى يكن وانتهت بتقديم مشروع آخر لا يختلف كثيراً عن المشروع الأول ورأى ملنر ضرورة عرضه على الوفد على أن يعد عند قبوله له وموافقته عليه بالدفاع عنه والترغيب فيه ، ورأى الوفد عرض المشروع على الأمة حتى لايتحمل وحده تبعة البت فى مصير البلاد ومستقبلها بقبول مشروع يفرض عليها كثيرا من الإلتزامات .

ولم يرض المصريون مشروع ملنر كما لم يرض به جل أعضاء الوفد ولارجال الحزب الوطنى واعتبره الجميع حماية مقنعة وقال عنه عبد العزيز فهمى أنه مشروع يرمى إلى « أخذ إقرار الأمة المصرية نفسها بتصحيح مركزهم إزاءها كما أخذوا إجماعا أوشبه إجماع من الدول بتصحيح مركزهم فى مصر والسودان ليتم لهم بذلك قطع كل احتجاج يقوم فى وجههم من الداخل أو الخارج معاً » وقال عما نص عليه المشروع من وجود قوات انجليزية فى البلاد بأنه « اشتراط لايتفق مطلقا مع سيادة البلاد فى الداخل ، بل هو من طبيعة الحال فى كل بلد للغير حماية عليها أو ملكية فيها » .

ودعى الوفد مرة ثانية إلى لندن لإتمام المفاوضات ، فسافر اليها يصحبه عدلى وعرض على ملنر تحفظات الأمة على المشروع فرفض بحثها وصرح بأن عمله قد انتهى عند هذا الحد .

ونلاحظ فى مشروع ملنر الأول والثانى أولا فرض ماهو أشبه بالوصاية أو الحماية البريطانية على مصر فرضا أبديا يمنح ممثل الحكومة الإنجليزية مركزا ممتازاً فى البلاد وإشراف المستشارين الإنجليز على المالية والقضاء والأمن الداخلى وحماية الأجانب ومباشرة التشريع الخاص بهم إذا ألغيت الإمتيازات الأجنبية هذا فضلا عن الإحتفاظ بقوات احتلال بريطانية فى مراكز مختلفة من البلاد ، وثانيا عدم الإشارة إلى السودان بل أن ملنر بين صراحة فى كتاب خاص إلى عدلى أرفقه بمشروعه الثانى أن موضوع السودان خارج تماما عن دائرة الإتفاق المقصود لمصر قال فيه :

«إن موضوع السودان الذى لم نتناقش فيه نحن وزغلول باشا وأصحابه خارج كلية عن دائرة الإتفاق المقصود لمصر ، فإن البلدين يختلفان اختلافا عظيما فى أحوالهما ، ونحن نرى أن البحث فى كل منهما يجب أن يكون على وجه مختلف عن وجه البحث فى الآخر ، إن السودان تقدم تقدما عظيما تحت إدارته الحالية المؤسسة على مواد اتفاق سنة ١٨٩٩ فيجب والحالة هذه أن لا يسمح لأى تغيير يحصل فى حالة مصر السياسيه أن يوقع الإضطراب فى توسيع نطاق تقدم السودان وترقيه على نظام انتج مثل هذه النتائج الحسنة ، على أننا ندرك من الجهة الأخرى أن لمصر مصلحة حيوية فى إيراد الماء الذى يصل إليها مارا فى السودان ، ونحن عازمون أن نقترح اقتراحات من شأنها أن تزيل هم مصر وقلقها من جهة كفاية ذلك الإيراد لحاجاتها الحالية والمستقبلة » .

كما نلاحظ فى مشروع الوفد وتحفظاته على مشروع ملنر الثانى أنه سلم باحتلال الضفة الأسيوية للقناة كما سلم بأن تكون مسألة السودان موضوع اتفاق خاص وطالب فى تحفظاته حل مسألة السودان على الوجه الآتى :

١ — ضمان مياه النيل اللازمة لرى أرض مصر المنزرعة الآن وأراضيها القابلة للاصلاح والزراعة .

٢ — أولوية مصر فى أخذ المياه عند عدم كفايتها للقطرين .

٣ — تمتع مصر فعلا بحقوق سيادتها فى السودان .

وكان حرص بريطانيا على إجراء مفاوضات ملنر كحرصها فيما جرى بعد ذلك من مفاوضات يرجع إلى رغبتها الملحة فى إقرار وضعها فى مصر بما يحفظ لها مصالحها إقرارا أبديا يقوم على الإعتراف الصريح من جانب المصريين بهذه الحقوق والمصالح فلا تكون لهم حجة بعد ذلك فى الإعتراض عليها ولا تكون لأى دولة أخرى أن تعترض على سياستها فى مصر التى تقوم على رضاء الطرفين ولا سيما إذا لم تعترف لها تركيا فى معاهدة الصلح بتنازلها عن سيادتها على مصر فإن اعتراف المصريين فى هذه الحالة بحقوق بريطانيا وامتيازاتها يجب حقوق السيادة التركية ويقضى على ميزة اعترافها لبريطانيا بهذه الحقوق .

ولما لم تجد بريطانيا مايحقق رغبتها من مفاوضة الوفد الذى كان يأمل أن تستأنف اللجنة مفاوضاتها معه فى التحفظات التى تقدم بها أعلنت على لسان ملنر أن الوقت غير ملائم لمناقشة تحفظات الوفد وإنه إذا تقرر عقد معاهدة فإنها لا تكون إلا نتيجة لمفاوضات رسمية بين الحكومتين البريطانية والمصرية وفى هذه المفاوضات يمكن إبداء هذه الأمور .

ورفع ملنر تقريره إلى وزير الخارجية البريطانية لورد كيرزون فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ أشار فيه إلى ضرورة النزول على بعض رغبات المصريين القومية مع مراعاة المصالح البريطانية وألح بضرورة مفاوضة الحكومة المصرية لعقد معاهدة بما لا يخرج عن الحدود التى التزمها فى مفاوضاته مع الوفد المصرى .

وقررت الحكومة البريطانية بعد دراسة تقرير ملنر أن الحماية التى أعلنتها على مصر علاقة غير مرضية وأبلغت قرارها إلى عظمة السلطان فؤاد ودعت مصر إلى الدخول فى مفاوضات « للوصول إذ أمكن إلى إبدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخاصة لبريطانيا العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبيه ، وتطابق الأمانى المشروعة لمصر والشعب المصرى » .

وعلى أثر هذا البلاغ تألفت وزارة عدلى لتقوم بعبء المفاوضات مع الحكومة البريطانية ودعا عدلى الوفد للاشتراك فى المفاوضات وكان عدلى موضع ثقة البلاد لمناصرته وزميليه رشدى وثروت قضية الوطن ورشحه سعد من قبل لتأليف وزارة تضع الدستور وتتولى المفاوضات فلقى تأليفه الوزارة كل تأييد ولكن ما أن رجع سعد إلى مصر حتى بدأت المحادثات بينه وبين عدلى حول إشتراك الوفد فى المفاوضات وبدأ معها الخلاف السياسى الذى أخذ يسيطر على حياة البلاد القومية والسياسية إلى حد بعيد ويجرف المسألة المصرية فى غمار المنازعات والخصومات الشخصية ويطبع الأحزاب السياسية بطابع اللدد فى الخصومة والمهاترات اللفظية التى لا تسكن إلى معنى من المعانى أو فكرة من الأفكار فبعدت عن الخطة الصحيحة للتكوين الحزبى السليم وغدت الأحزاب المصرية ولا برامج لها ولا سياسة عامة تسير عليها وإن اجتمعت كلها

على وجوب حل المسألة المصرية بما يوافق مصالح مصر وأمانيها إلا أنها أهملت على حسابها وضع سياسة قومية شاملة متسقة للاصلاح الداخلى وشغلت مصر بالنضال الحزبى فى الفترة التالية من حياتها السياسية حتى طغى على كل غاية مرسومه للانشاء والتعمير والنهوض والإرتقاء فجاءت مرتجلة تدفع إليها الحاجة البادية والضرورة العاجلة .

وثار الخلاف بين سعد وعدلى على رئاسة وفد المفاوضات الرسمى فسعد يتمسك بحق رئاسته كزعيم للشعب وعدلى يرى أن هذا حقه الطبيعى بصفته رئيسا للحكومة وذهب سعد يهاجم عدلى فى خطبه ويثير الشعب عليه فكان الصدع الأول فى بناء الوحدة القومية التى أخرجتها الثورة وأقامت دعائمها .

وتألف الوفد الرسمى برئاسة عدلى وفى لندن بدأت المفاوضات بينه وبين كيرزون فى يوليه سنة ١٩٢١ وانتهت فى نوفمبر بتقديم مشروع معاهدة تبرم بين البلدين لم يكن أفضل ولا أحسن من مشروع ملنر ، رفضه عدلى وعاد إلى الوطن ليرفع استقالته إلى عظمه السلطان بعد أن قدم إليه تقريره عن مراحل سير المفاوضات وكيف انتهت برفضه مشروع كيرزون ، وتمهل السلطان فى قبول الإستقالة وفى غضون ذلك اعتقل سعد وبعض صحبه وبقوا معتقلين حتى نفوا جميعاً إلى سيشل فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٢١ ، فاشتدت ثورة الخواطر ولجأت البلاد إلى سلاح المقاومة السلبية وسلكت إلى هذا سبيل المقاطعة وعدم التعاون وشغلت الهيئات والأفراد بتنظيمهما حتى تكونا شاملتين تماما لا بين طبقات الشعب فحسب وإنما فى دوائر الحكومة وبين الموظفين أيضاً .

ورأى عدلى أن يتعجل قبول استقالته فى يوم ٢٣ ديسمبر حتى لا يتهم بأن له يدا فى اعتقال سعد فقبلت فى اليوم التالى بعد أن ظلت من يوم تقديمها فى الثامن من ديسمبر معلقة لا يبت فيها وبقيت البلاد من غير وزارة قرابة شهرين لا يجرؤ أحد على قبولها إن خوفا من الشعب أو يأساً من نزول بريطانيا على الأمانى المصرية حتى فوتح عبد الخالق ثروت فى تأليفه وزارة فاشترط لتأليفها أن تسلم بريطانيا من ناحيتها بالمطالب التى أرتآها أساساً لقيام علاقة مرضية بين مصر وبريطانيا دون أن

ترتبط مصر فى مقابلها بحقوق أو التزامات خاصة لبريطانيا وتبقى المسائل المعلقة بين البلدين إلى مفاوضات مقبلة .

أما الشروط التى ارتضاها ثرون لتأليف الوزارة فهى :

١ — عدم قبول مشروع كيرزون والمذكرة التفسيرية الملحقة به .

٢ — تصريح الحكومة البريطانية بإلغاء الحماية والإعتراف باستقلال مصر بداءة ذى بدء .

٣ — إعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سفراء وقناصل .

٤ — إنشاء برلمان من هيئتين ، مجلس نواب ومجلس شيوخ ، تكون له السلطة العامة على أعمال الحكومة وتكون الحكومة مسئولة أمامه .

٥ — إطلاق يد الحكومة بلا مشارك فى جميع أعمال الحكومة .

٦ — لا يكون للمستشارين فى الوزارات إلا رأى استشارى وأن يبطل ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء .

٧ — حذف وظائف المستشارين ما عدا مستشار المالية ومستشار الحقانية فإنهما يظلان إلى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة .

٨ — استبدال الموظفين الأجانب بموظفين مصريين وأخذ العدة من الآن لذلك وتعيين وكلاء مصريين للوزارات .

٩ — رفع الأحكام العسكرية والسعى من جانب الوزراء اعتمادا على حسن موقف الأمة فى سحب كل ما اتخذ من الإجراءات بمقتضى الأحكام العرفية بما فى ذلك فك اعتقال المعتقلين وإعادة المبعدين .

١٠ — الدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان مع الحكومة الإنجليزية بواسطة هيئة يعتمدها البرلمان للنظر فيما لا يتنافى مع استقلال البلاد من الضمانات لانجلترا والأجانب ، ولحل مسألة السودان ، بشرط ألا تكون هذه المفاوضات مقيدة بقيد أو شرط مما جاء فى مشروع كيرزون ويكون القول الفصل فى ذلك للأمة الممثلة ببرلمانها .

١١ — يكون قبول هذه الشروط ثابتا بمقتضى وثائق مكتوبة من الحكومة الإنجليزية .

وقد وردت فكرة إصدار بريطانيا لتصريح من جانبها بقبول ما أبدت الحكومة البريطانية إستعدادها للتسليم به ، وإرجاء ما يبقى من مسائل مختلف عليها إلى مفاوضات مقبلة أول ما وردت على خاطر عدلى بعد أن تبين فشل مفاوضاته مع كيرزون وألقى بها إليه ولم يتلق عنها جوابا فلما رجع إلى مصر أسرها إلى السلطان وإلى زميله ثروت ، فجعل ثروت تحقيقها شرطا لقبوله الوزارة ، واستطاع أن يقنع بها اللنبى والمستشارين الإنجليز فى الحكومة المصرية فأبلغوها محبذين إلى حكومتهم ، ورأى اللنبى أن يستعين بنفسه على إقناع حكومته بها فسافر إليها ومعه مستشارا الداخلية والحقانية وكانا يريان رأيه ويقرانه عليه بعد أن اتفق مع ثروت على صيغة التصريح الذى يصدر ، وبقى أياما فى لندن استطاع خلالها أن يقنع لويد جورج رئيس الوزراء وكيرزون وزير الخارجية بفكرته ليعود فيبلغ عظمة السلطان فؤاد تصريحا من جانب انجلترا وحدها تعترف فيه بمصر دولة مستقله ذات سيادة وتحتفظ معذلك وبصورة مطلقة بمسائل أربع لمفاوضات مقبلة، وهى حماية المواصلات الإمبراطورية فى مصر والدفاع عنها، وحماية الأجانب ، وحماية الأقليات،والسودان .

وأعلن هذا التصريح فى لندن والقاهره فى يوم واحد هو يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بهذا النص :

تصريح لمصر

«بما أن حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التى جاهرت بها ترغب فى الحال فى الإعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة .

وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر أهمية جوهرية للامبراطورية البريطانية ، فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية :

١ — إنتهت الحماية البريطانية على مصر وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (إقرار الإجراءات

التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ المفعول على جميع سكان مصر تلغى الأحكام العرفية التى أعلنت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤.

٣ — إلى أن يحين الوقت الذى يتسنى فيه إبرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتى بيانها ، وذلك بمفاوضة ودية غير مقيدة بين الفريقين ، تحتفظ حكومة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الأمور وهى:

(ا) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة .

(ج) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هـــذه الإتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ما هى عليه الآن » .

وأبلغت بريطانيا نحوى التصريح إلى الحكومات الأجنبية معلنة استقلال مصر وسيادتها مع تمسكها بالتحفظات الأربعة كما أبلغتها أنها تعد أى تدخل من دولة أخرى فى شئون مصر عملا غير ودى لها .

وألف ثروت وزارته فى أول مارس سنة ١٩٢٢ وفى ١٥ منه أصدر عظمة السلطان أمراً ملكياً يعلن فيه من جانبه وباسم مصر ، أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ويعلن نفسه ملكا عليها ويتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ، وبعد ذلك بأيام ألفت الوزارة لجنة تمثل جميع طوائف الأمة برئاسة حسين رشدى لوضع دستور على أحدث المبادىء العصرية . وفى تلك الأثناء تكون حزب الأحرار الدستوريين من الخارجين على الوفد والمخالفين لسعد برئاسة عدلى وكان كل أعضائه من ذوى الرأى والنابهين فى البلاد فكان قوة لها من أثرها العميق فى مصير البلاد السياسى فى الفترة التالية ما كان للوفد .

ولم يتح لوزارة ثروت أن تشهد ميلاد الدستور فقد حدث خلاف بينها وبين

القصر حول نصوصه كما اعترض الإنجليز على ماجاء فى مشروعه من أن لقب الملك هو ملك مصر والسودان ومن أن الدستور تجرى أحكامه فى مصر ، أما السودان فمع أنه جزء من مصر فإن نظام الحكم فيه يقرر بقانون خاص ، ورأوا فى هذين النصين ما يتعارض واحتفاظهم فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بمسألة السودان ، ولم يجد ثروت مخرجا من هذا الحرج إلا بتقديم استقالته ، هذا فضلا عما وقع من حوادث الإغتيال التى تناولت الإنجليز والمصريين على السواء . وخلفت وزارة نسيم وزارة ثروت واستمرت موجة الإغتيال السياسى على أشدها ولم تمكث طويلا فى الحكم ولكنها سلمت فى فترة حكمها القصير برأى الإنجليز فى حذف النصوص الخاصة بالسودان وتعديلها بما يوافق قصدهم ، ثم خلفتها وزارة يحى ابراهيم بعد أن ظل مركز الوزارة شاغراً بعد استقالة نسيم أكثر من شهر ، وفى عهدها صدر الأمر الملكى بالدستور فى أبريل سنة ١٩٢٣ طبقا للمشروع الذى وضعته لجنة الدستور بعد حذف النصين الخاصين بالسودان وفى ٣٠ أبريل صدر قانون الإنتخاب ، وكانت الحكومة البريطانية قد أصدرت أمرها قبل ذلك فى ٢٧ مارس بالإفراج عن سعد وكان معتقلا فى جبل طارق كما أفرجت عن المعتقلين فى سيشل وفى ٥ يوليه صدر قانون التضمينات بإجازة كل ماقامت به السلطة العسكرية البريطانية من إجراءات إدارية وقضائية وتشريعية مدة الأحكام العرفية وفى اليوم نفسه أصدر اللنبى أمراً بإلغاء الأحكام العرفية ، ثم أجريت الإنتخابات العامة وفاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة ظل يفوز بها فيما بعد فى كل انتخابات تجرى فأصبح المحور الرئيسى الذى تدور حوله كل التيارات الشعبية للسياسة المصرية .

ودخلت المسألة المصرية بعد ذلك فى دور من المفاوضات الثنائية بين مصر وبريطانيا كان كل هم بريطانيا فيها أن تظفر بإجماع الشعب على إقرار مصالحها فى مصر وأن تبرم معاهدة يسلم لها فيها بهذه المصالح فتصبح ولها قدسية الحقوق الشرعية والتزامات المعاهدات التى تقوم على رضاء كل من الطرفين وقبولهما ، وأصبحت المسألة المصرية بذلك مسألة ثنائية بعد أن كانت مسألة دولية فقد حرصت على إبلاغ الدول عند إعلانها

بتصريح ٢٨ فبراير بأنها تعتبر أى تدخل فى شئون مصر عملا غير ودى بالنسبة لها فقيدت بذلك مصير المسألة المصرية بعلاقتها وحدها بمصر بل أنها جعلت من نفسها قيما على شئون الأجانب ومصالحهم فى تلك البلاد ، وكان هذا أهم تطور طرأ عليها بعد الحرب وأعظم نتائجها فيما يتعلق بالمسألة المصرية على الإطلاق ، وبقيت أصولها الحقيقية موضع الخلاف بين الطرفين يتحطم عليها كل مشروع للاتفاق وهى حماية المواصلات الأمبراطورية فى مصر التى تتركز فى قناة السويس وتقرير مستقبل السودان فضلا عن رعاية المصالح البريطانية التى نمت منذ احتلالها مصر نموا مضاعفا .

فارس ونتائج الحرب :

لم تكن النتائج التى تمخضت عنها الحرب فى فارس لتقل عما تمخضت عنه فى بلدان الشرق الأوسط الأخرى وجرت أقرب ما تكون شبها بما تم فى تركيا بعد الحرب فقد خضعت الدولتان فى تاريخهما الحديث لعوامل متشابهة سواء فى سياستهما الداخلية أو الخارجية أو عنف الضغط الأوربى الذى وقع عليهما فى وقت واحد تقريبا ففى الداخل اتسم الحكم بالاستبداد والفساد والضعف والركود فى الوقت الذى تآمرت عليهما فى الخارج قوى الاستعمار فشهدا صراع السياسة الخارجية وتضاربها واختلافها عليهما وكان هذا سبباً فى نجاتهما من الاستعمار وإن لم تسلما من نفوذه وشدة ضغطه وقيوده وامتيازاته ومن هذه العوامل نبعت التيارات القومية التي دفعت الإنقلابات التى تمت فى كل منهما ووجهتها وجهتها التى اختطتها فى أعقاب الحرب .

وقد عرفنا كيف قامت الثورة الكمالية عسكرية يسندها الشعب لتنقذ تركيا من المصير الذى فرضته عليها معاهدة سيفر ، وعلى وتيرتها قامت الثورة فى فارس عسكرية يرعاها الشعب للتخلص من النفوذ الأجنبى ومن المعاهدة التى فرضها الإنجليز على البلاد .

فعندما آذنت الحرب بنهايتها كانت بريطانيا تفكر وقد أيقنت من النصر فيما تكون عليه علاقتها الجديدة بفارس على هدى التطور العالمى الجديد فى السياسة

والاستراتيجة وعلاقته بسياستها واستراتجيتها الإمبراطورية فإن فارس قنطرة العبور إلى الهند كما أنها تطل على البحار المفتوحة إلى وسط وجنوب أفريقيا وجنوب شرق آسيا ثم أصبحت فى ذاتها هدفا استراتيجيا جديراً بالإغراء والتطلع عندما نبع بترولها وفاض غزيراً فى أوائل القرن العشرين وظفرت شركة انجليزية بامتيازه ، وعظمت أهمية فارس بظهور هذا العامل الجديد الذى أضحى مصدر القوى المحركة فى العالم .

وشغلت بريطانيا بفارس منذ أخذت فرنسا تسعى إلى إحياء الطريق البرى القديم للتجارة وقامت بحملتها على مصر لتحقيق هذا المشروع ودخلت فارس فى حوزة امتدادها الاستراتيجى لاقتحام الهند ، وأخذت روسيا تنفذ سياستها الاستعمارية فى آسيا وتحاول الوصول إلى مياه الخليج الفارسى ومنافسة الاستعمار البريطانى فى الهند وأواسط آسيا . وأصبحت فارس منذ ذلك الحين حيزا من حيوز القوى المتنافسة والصراع الدولى حتى إذا رامت بريطانيا إلى تصفية مشاكلها مع فرنسا وروسيا كان الإتفاق الودى عام ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا كما كان الاتفاق الإنجليزى الروسى عام ١٩٠٧ تمنا لسياسة الوفاق بين الدول الثلاث لمواجهة مشاكل القارة الأوربية ، وكان الإتفاق الانجليزى الروسى كسبا لإنجلترا فى أوربا وخسارة لها فى آسيا .

وأدرك ساسة الدولتين قوة الدوافع الحقيقية التى تكمن وراء الإتفاق الإنجليزى الروسى فكتب كيرزون نائب الملك فى الهند حينذاك وكان يمثل وجهة نظر السياسة العامة لحكومة الهند يقول « إن الاتفاق مع الروسيا فى نظرى أمر محزن حقاً فقد سلمنا بكل ما كنا نكافح فى سبيله منذ سنوات بعيدة تسليما لم نقدر عواقبه ولا يبشر بخير مما يملأ الإنسان أسى ويأسا من جدوى حياتنا عامة ، فإن جهود قرن قد ضاعت كلها هباء دون مقابل » . وفى عام ١٩١١ كتب سازانوف وزير خارجية روسيا إلى الوزير الروسى فى طهران يقول « إن الإنجليز يرمون كما هو ديدنهم إلى تحقيق أهداف حيوية فى أوربا وفى سبيل ذلك لن يجدوا ضيرا فى التضحية ببعض مصالحهم فى آسيا بقصد المحافظة على وفاقهم معنا وعلينا أن نفيد من ذلك لصالحنا ولنضرب لذلك مثلا فى الوقت الحاضر ما يتعلق بسياستنا ومصالحنا فى فارس » .

وظلت بريطانيا ترقب توغل النفوذ الروسى فى فارس ولا تستريح إليه وإن أغضت عنه حفاظا على وفاقها معها ذلك الوفاق الضرورى لمواجهة قوة ألمانيا وأطماعها الإستعمارية فى الشرق وفى أفريقيا وللمحافظة على مبدأ التوازن الدولى فى أوربا الذى تسعى ألمانيا وتعمل على الإخلال به ، ففى عام ١٩١٥ عندما فاوضت روسيا حليفتيها بشأن الإعتراف بحقها فى السيطرة على الآستانة والبواغيز سلمت بريطانيالها بذلك مقابل اعتراف روسيا لها بنفوذها فى منطقة الحياد فى فارس ، وظهر أن اهتمام بريطانيا بفارس يفوق اهتمامها بالبواغيز والآستانة فى تلك الإتفاقات التى أبرمت بين الحلفاء فى بداية الحرب لتوزيع الغنائم واقتسام مناطق النفوذ .

وعندما آذنت الحرب بنهايتها وقبل أن تعلن الهدنة عاد التنافس بين روسيا وبريطانيا فى فارس أشد مما كان فإن روسيا بعد أن خرجت من الحرب وقامت بثورتها التى قضت بها على كل آثار القيصرية القديمة واعتنقت مذهبا فى الحكم والسياسة والإقتصاد ونظام المجتمع لم تألفه أوربا من قبل ولا يساير تقاليد الحضارة الغربية السائدة وكان فى مراميه يتجه إلى هدم تقاليد هذه الحضارة الغربية والقضاء على مأثوراتها ونظمها السياسية والإقتصادية ، قد جلبت على نفسها عداوة الدول الغربية والعالم الذى لا يستسيغ هذا التطور المفاجىء فى القيم الحضارية والإنسانية ونظم المجتمع وكيانه الإقتصادى الذى قام على تكتل رأس المال وسيادته فى الصناعة والتجارة ، وأعلنت هذه الدول على روسيا حرباً لاهوادة فيها جرت معاركها خارج حدود الوطن الروسى الذى انطوى على نفسه فى عزلة يتهيأ للساعه التى يخرج فيها للعالم بقوته ودعايته ليبث أراءه ومعتقداته وينشر نظامه بين بلدانه جميعاً واكتفى العالم فى هذه المعركة بالعطف على الروس البيض ومدهم بالقوة والسلاح فى ثورتهم على الروس الحمر دعاة الثورة ومعتنقيها ومنظميها فى روسيا والذين يهيئون لنشرها فى بقاع العالم أجمع وكانت بريطانيا أكثر الدول مشغولية بالإنقلاب البولشفى وإن شغلت عنه بتبعات الحرب كما شغلت الدول الأخرى . واكتفت جميعا بفرض نوع من الحصار الفكرى والسياسى والإقتصادى فى بعض الأحيان على روسيا لم تهتم به كثيراً وانطوت على نفسها فى عزلتها التى رحبت بها فلم تسمح لغريب أن يلج

أراضيها لتهيء للنظام الجديد أسباب الإستقرار والهدوء والتمكن ولتقيم بناء الثورة كما شاده لينين وتخيله ماركس فى داخل الوطن قبل أن تخرج به على العالم .

ورأى الإتحاد السوفيتى وقد لمس عداوة العالم لنظامه الحاضر ومعتنقه الجديد أن يضمن حماية أراضيه والدفاع عن حدوده وعلى هذا الأساس بنت السياسة السوفيتية استراتيجيتها الجديدة ، إعتنقتها فى أعقاب الثورة وبدأت بها وطبقتها تطبيقاً سليما فى أعقاب الحرب وفى فترة ما بين الحربين ، وسارت سياستها الإستراتيجية وفق هذه القاعدة ولم تشذ عنها فاهتمت أول ما اهتمت بحماية البلدان المجاورة لها من النفوذ الأجنبى وناصرت قضاياها الوطنية والقومية لتدعم استقلالها فتكون هذه البلدان حاجزاً قويا بينها وبين القوى المعادية رغم ما بدا من هذه البلدان من جفاء لنظامها الحاضر وتقاليدها الجديدة ، فمدت يد المساعدة للثورة الوطنية فى الأناضول ووقفت إلى جانب تركيا فى المؤتمرات الدولية وتمسكت على غير عادتها بحق تركيا فى حماية البواغيز والدفاع عنها وتحصينها رغم مابدا من تساهل الأتراك فى هذه الناحية ، وعملت فى فارس على إبعاد النفوذ الإنجليزى وإقصائه عنها فقد رأت خلال الحرب كيف زحفت القوات البريطانية على باكو وكيف احتلت شمال فارس وأصبحت خطراً قائماً يهدد الإتحاد السوفيتى ويشجع أعداء الثورة مما دعا السوفيت إلى التعاون مع الألمان والأتراك ضد الإنجليز فى باكو وتركستان .

وخطى السوفيت خطوة أبعد من هذا عندما أعلنوا حكومة فارس فى ١٤ يناير سنة ١٩١٨ بتنازلهم عن كل الإمتيازات التى كانت لروسيا القيصرية فى بلادها واستعدادهم لمعاونتها على إخراج القوات البريطانية والتركية من أراضيها وأن تقوم العلاقة بين الدولتين فى المستقبل كما ورد فى مذكرتها اليها « على أساس الإتفاق الحر والاحترام المتبادل بين الشعوب » . وفى اتفاقية الهدنة التى أنهت حالة الحرب بين ألمانيا وروسيا فى ديسمبر سنة ١٩١٧ وعد الروس بسحب قواتهم من فارس وعندما أبرمت معاهدة « برست ليتوفسك » فى ٣ مارس سنة ١٩١٨ لتنظيم قواعد السلام بين الدولتين أشارت إلى استقلال فارس وحيادها وما يعنيه من جلاء القوات الروسية

والتركية عنها وإلى ضرورة الاتصال بحكومتها لتنظيم عملية الجلاء ونصت المادة السابعة منها على احترام الاستقلال السياسى والاقتصادى لكل من فارس والأفغان ووحدة أراضيها . ويبدو من هذا النص فى معاهدة برست ليتوفسك على احترام استقلال فارس والأفغان اتجاه السوفيت إلى إبعاد أى خطر أونفوذ أجنبى يقترب من أراضيهم وكان من الواضح فى حالة انتصار ألمانيا أن تكون هذه المناطق مجالا لتوسعها ونفوذها السياسى والاقتصادى .

وبدأت دعاية السوفيت فى فارس ولما تنته الحرب أوتبين نتائجها فقد قام الألمان بهجومهم الكبير فى الجبهة الغربية بعد فترة الركود التى شملت هذا الميدان طويلا وإن غدا هذا الهجوم بداية النهاية إلا أن هذه النهاية لم تكن قد وضحت بعد للعيان واتجهت دعاية السوفيت إلى إثارة الفرس على الاحتلال البريطانى والعمل على تحرير فارس وإقصاء النفوذ الإنجليزى عنها ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وأبرمت الهدنة اشتدت دعاية السوفيت فى البلاد وسلكت مسلكا يشجع الفرس على مطالبة الإنجليز بالجلاء والعمل على تحرير بلادهم منهم فقد بعثوا بمذكرة مفصلة إلى الحكومة الفارسية فى ٢٦ يناير سنة ١٩١٩ يعلنون فيها :

١ — تنازلهم عن الديون التى كانت لروسيا القيصرية على فارس .

٢ — نهاية مالها من امتيازات اقتصادية فى الجمارك أو البريد أو الخطوط البرقية .

٣ — إلغاء أى اتفاق خاص أو عام سبق أن ارتبطت به فارس معها .

٤ — يصبح بنك الخصم الروسى من ممتلكات فارس .

٥ — التنازل عن كل حق أو امتياز لها فى الخطوط الحديدية والطرق والموانىء وماشابه ذلك من منشئات كانت تديرها أو تملكها روسيا القيصرية لتكون ملكا لأهل فارس .

٦ — إلغاء الإمتيازات الأجنبية .

ولم يغب المرمى البعيد الذى تهدف إليه السياسة السوفيتية من تملق الفرس عن أذهانهم أو أذهان ساستهم ولم يشغلهم هذا الكرم السوفيتى عن أمانيهم القومية

ولم ينسهم ماكان بينهم وبين الروس من إحن وترات قديمة فعملوا على تحقيق أمانيهم الوطنية دون مانظر إلى هذا التقرب الروسى الجديد منهم وكان استرجاع كردستان وولاياتهم المفقودة فى أواسط آسيا التى اغتصبها الروس من قبل أبان توسعهم الاستعمارى فى آسيا بعض ما عملوا على تحقيقه والمطالبة به أمام مؤتمر الصلح وقد توجه وفدهم إلى باريس برئاسة وزير خارجيتهم « مشاور الممالك » لعرض مطالب فارس على مؤتمر الصلح بجلاء القوات الأجنبية عن البلاد وتعويضها ماليا عما لحقها من أضرار الحرب وويلاتها واسترجاع كل بلاد كردستان وولايات أواسط آسيا ، ولم يلق الوفد ترحيبا أو يجد له مكانا فى مؤتمر الصلح وحالت انجلترا بينه وبين ولوج المؤتمر بحجة أن فارس لم تكن بلدا محاربا ولم تنضم إلى الحلفاء أو تعلن الحرب إلى جانبهم وبقيت على حيادها طوال سنى الحرب .

وبينما كان السوفيت يبدون هـذا الاهتمام البالغ بفارس كان الانجليز بدورهم يفكرون فيما يجب أن تكون عليه سياستهم الجديدة فيها بعد أن وضعت الحرب أوزارها وخرجوا منها ظافرين يسوسون مشاكل العالم وفق هواهم ويدعمون نفوذهم فى تلك المعابر والمناطق التى تقع على طريق الهند فى الشرق الأوسط وكانت فارس وأفغان معبر الروسيا إلى الهند قلب امبراطوريتها الأسيوية كما كانتا هدفا استراتجيا رائعا لكل دولة أوربية كبرى يدفعها طموحها الإستعمارى نحو الشرق .

وجرت سياسة بريطانيا فى فارس وفق هذه الحقيقة الاستراتجية على الدوام فهى حريصة على أن تظل فارس بعيدة عن أى نفوذ أجنبى إلا نفوذها وألا تدع لأى قوة كبرى موقعا استراتجيا فيها يهدد طريق الهند ولم تشذ السياسة البريطانية عن هذه القاعدة إلا عندما أبرم الإتفاق الإنجليزى الروسى عام ١٩٠٧ تحت ظروف دولية قاهرة ومع ذلك بقيت حريصة على سلامة هذه الحقيقة الاستراتجية ومرماها البعيد فكانت منطقة الحياد بين نفوذها فى جنوب فارس ونفوذ روسيا فى الشمال أول مانص عليه الإتفاق ، ولكنها لم تهجر أبدا قواعد سياستها التقليدية فى فارس فإن فارس المستقلة الحرة من أى نفوذ أجنبى أفضل لسلامة هذه الحقيقة الإستراتجية منها تحت نفوذها ونفوذ روسيا المشترك ، وأصبحت بريطانيا أكثر حرصا على هذه

السياسة التقليدية فيها بعد أن فاض بترولها وظهرت أهميته الاستراتجية والعمرانية لها وفازت بامتيازه فغدا مجالا لا ستثمار رأس المال الانجليزى ومورداً هاما من موارد الدخل القومى والحكومى بعد أن ساهمت الحكومة البريطانية بأكثر من نصف رأس مال شركة البترول الإنجليزية الفارسية .

وعادت بريطانيا إلى سياستها القديمة فى فارس بعد خروج روسيا منها وانهيار الأسس التى قام عليها اتفاق عام ١٩٠٧ ولكنها لم تتمسك باحتلالها وفرض سلطانها الاستعمارى عليها بعد الحرب واتجهت حكومتها عندما وافى عام ١٩١٨ على نهايته إلى اخلاء فارس والجلاء عنها والوصول معها إلى اتفاق يعترف لها باستقلالها ويضمن لها مركزها ومصالحها فيها وينأى بها عن أى نفوذ أجنبي يحاول أن يمتد اليها .

وهذا هو طابع السياسة الإنجليزية فى الدول المتقدمة نسبيا تحاول أن تكسب بالمعاهدات الثنائية ما يغنيها عن احتلال الأرض وفرض النفوذ بالقوة العسكرية وماثيره ذلك من قلاقل وثورات ضدها تكلفها رهقا ومالا وتعجل بدمار نفوذها وزواله وقد حرصت أخيراً أن تسند هـذه المعاهدات قوة شعبية بعد أن فشلت فى إبرام بعضها مع حكومات لا تمثل الشعب وتكتفى بجانب هـذه المعاهدات باحتلال بعض المراكز الإستراتجية لترقب منها نفوذها وترعاه وتحافظ على الوحدة العامة لاستراتجيتها الإمبراطورية وسياستها الخارجية ، أما فى البلاد المتأخرة فإنها تملك الأرض والناس تحت تاج الإمبراطورية وفى ظل سيادتها المطلقة .

وفى هذا الاتجاه وضع لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية وسير برسى كوكس السفير الإنجليزى فى فارس نصوص المعاهدة الإنجليزية الفارسية عام ١٩١٩ ووقعاها مع حكومة « وثوق الدولة » فى ٩ أغسطس من نفس العام . وفرضت هذه المعاهده كثيراً من الحقوق لبريطانيا فى فارس وكانت قيداً ثقيلا يهدد استقلالها ويقضى عليه ويجعل منها حيزاً خالصا للنفوذ البريطانى فى السلم وفى الحرب ، فهى بعد أن تعترف فى المادة الأولى باستقلال فارس وحريتها وسيادتها ووحدة أراضيها تعود لتقيد هـذه السيادة بالقيود التى فرضتها لصالحها فتجعل لنفسها الإشراف على

مالية البلاد وجيشها وتفرض رجالها على الإدارات الحكومية المختلفة بمثابة مستشارين لها وتلزمها بتبادل المعونة العسكرية وما يتبع ذلك من احتلال الأرض وإنشاء المطارات والقيام بكافة التسهيلات اللازمة التى تفرضها الحرب عند اشتباك أحدها فيها ، وتعهدت بريطانيا أن تقرض فارس مليون جنيه لمد الخطوط الحديدية اللازمة واصلاح ماخربته الحرب من مرافقها ولا تقصد بريطانيا من وراء ذلك إلا تسهيل تحركاتها الاستراتيجية والسيطرة على منافذ البلاد التى تتيحها المواصلات السريعة .

وبين هاتين السياستين المتعارضتين اللتين سارتا على طرفى نقيض لكل من من الاتحاد السوفيتى و ريطانيا فى فارس لعبت فارس الدور الأول فى مستقبلها وجرى مجهودها القومى أشبه ما يكون بمجهود تركيا القومى وأقرب فى نتائجه إلى النتائج التى انتهت اليها الثورة الكمالية فيها فقد قامت الحركتان القوميتان فيهما على تحدى القوة بالقوة وامتشاق الحسام للحسام ونهض بهما فى كلا البلدين رجل من رجال الجيش وواتتهما الظروف الدولية والمشاكل التى انساق اليها الحلفاء فى أعقاب الحرب وماشب بينهم من خلاف بأحسن الفرص لتحقيق أهدافهما والفوز بمطالبها، ولعبت كل منهما دورها على مسرح مشابه للآخر فبينما كانت دعوة الهزيمة والاستسلام يجمع عليها أصحاب الحكم وذووا السلطان إذ وقف مصطفى كمال فى تركيا ورضا خان فى فارس يحييان موات الهمم ويبعثان حلاوة الأمل فى نفوس أجدبت إلا من اليأس واجتمع حولهما كل ذى همة وخاضا بأنصارهما معركة الهزيمة فانقلبت نصراً وسطر نجاح الحركتين أعظم النتائج التى تمخضت عنها الحرب فى كل من البلدين ، فكانت تركيا الجديدة التى حلت فى الأناضول محل الدولة العثمانية المنهارة كما كانت إيران الجديدة التى قامت على أنقاض حكم آخر شاهات قاجار فى فارس ، الدولتين الوحيدتين اللتين سلمتا من براثن النفوذ الأجنبى فى الشرق الأوسط بعد الحرب الأولى .

ولم تلق المعاهدة الإنجليزية الفارسية تأييداً لا فى المحافل الدولية ولا فى دوائر الحلفاء ولا بين أهل البلاد أنفسهم فقد رأى الإتحاد السوفيتى فيها خطراً جديدا يهدد أمنه الإستراتيجى فقاومها منذ البداية وراح الحلفاء يتهمون بريطانيا بمحاولة كسب نفوذ جديد فى مناطق لم تتناولها معاهدات الصلح بعد أن خرجت ظافرة بنصيب

الأسد فى غنائم الحرب وأخذ الوطنيون فى فارس يطالبون بإلغاء المعاهدة ويتهمون رجال حكومتهم بالرشوة التى أغراهم بها الإنجليز على إمضاء المعاهدة ويعيرونهم بالخيانة الوطنية وبأنهم باعوا فارس للانجليز بينما تشبث الإنجليز بالمعاهدة وطالبوا حكومة فارس بتصديق « المجلس » عليها .

وجاء الاحتكاك المباشر بين الانجليز والسوفيت فى فارس بعيدا فى الظاهر عما ثورفيها من قلاقل ومايندر من خطوب ولايلمس بطريق مباشر صراعهما التقليدى القديم فى تلك البلاد فقد ظهرت قوات الحمر على حدود فارس تقتفى أثر قوات البيض التى تقهقرت إلى أذربيجان واحتلت باكو بقيادة دينكين فتجتاحها فى ابريل عام ١٩٢٠ وتحمل قوات البيض على الانسحاب بطريق باكو إلى ميناء أنزيلى على بحر قزوين وهى المعروفة الآن ببندر بهلوى وكانت تحتلها القوات البريطانية وفى إثرهم قوات الحمر تعبر بحر قزوين بقيادة « راسكو لينيكوف » وتصلى سفنهم وسفن البريطانيين فى الميناء نيرانها وتقذف قنابلها على المعسكرات البريطانيه فى البر ، ولما احتج القائد البريطانى شامبين على ذلك أجابه قائد السوفيت بأنه لايقصد حرب البريطانيين أو الفرس وإنما هدفه قوات البيض ولم يقبل أن يعتبر هذه القوات أسرى حرب نزلوا فى أرض محايدة وجردوا من سلاحهم بل اعتبرهم ثوارا من حقه أن يطاردهم ويقبض عليهم ولم يجد شامبين من القوة مايسند احتجاجه فقد كانت بريطانيا تفكر فى الجلاء عن فارس وتتأهب له بعد تنفيذ المعاهدة التى وقعتها مع الحكومة الفارسية واضطر إلى سحب قواته من ميناء أنزيلى فاحتلتها قوات السوفيت وتقدمت جنوبا حتى رشت وأصبحت تسيطر على سواحل بحر قزوين وولاية جيلان التى استقل بها الثائر كوتشيك خان وكان قد خرج على الحكومة المركزية منذ عام ١٩١٧ وتحاشى البريطانيون الاحتكاك به وإن إجتازت قواتهم الولاية كرها عنه أثناء تقدمها لاحتلال باكو فى يوليه عام ١٩١٨ إلا أنهم اعترفوا فى إتفاق خاص أبرم بينه وبينهم فى الشهر التالى بسيطرته على ولاية جيلان وحقه فى تعيين حاكم رشت بعدما وعدهم بمقاومة كل حركة عدائية ضدهم فى الولايه وطرد مستشاريه من الألمان والأتراك وإطلاق سراح المعتقلين

البريطانيين الذين احتفظ بهم رهينة لديه ، وأفاد البريطانيون من هذا الإتفاق تأمين خطوط مواصلاتهم بين فارس والعراق .

واتصل السوفيت بكوتشيك خان وكانت سيطرته على جيلان قد أخذت تضعف بعد أن شددت حكومة طهران الضغط عليه وسرعان ما أعلنت جيلان جمهورية بولشفية بعد مقابلة تمت فى رشت بين راسكولينكوف وكوتشيك خان وعين السوفيت جعفر بيشارى قومسيرا للداخلية والأمن العام فى الجمهورية الجديدة ،وامتدت الحركة إلى مازندران وخوراسان وأذربيجان الفارسية وأصبحت جيلان مركز الدعاية البولشفيه فى فارس وولايات وسط آسيا وكانت دعاية السوفيت فى هذه الولايات ترمى إلى تحقيق هدفين يتصلان بسياستهم الاستراتيجية والدولية فهم يعملون أولا على تأمين كيان الإتحاد السوفيتى بإبعاد النفوذ الأجنبى عن البلاد المجاورة إن لم يستطيعوا بتشجيع الانقلابات الداخلية والثورة على الحكومات الشرعية إقامة حكومات موالية فى تلك البلاد تخضع لمشورتهم وتنفذ سياستهم ، وهو ما عبر عنه تروتسكى لصحافى تركى أثناء انعقاد مؤتمر الشعوب الشرقية الذى دعا اليه السوفيت فى باكو عام ١٩٢٠ بقوله « إن الاتحاد السوفيتى يرمى من وراء مساعدته تركيا وفارس إلى قيام حكومات شعبية فيهما كما حدث فى روسيا » وهى المحاولة التى زاولوها فى أوربا الشرقية بنجاح فى أعقاب الحرب الثانية وإن لم تنجح معهم فى الشرق فى أعقاب الحرب الأولى وهم يعملون ثانيا على نشر الشيوعية الدولية لتسيطر على العالم بمحاربة الرأسمالية أيا كانت حربا تنتهى بالطابع الثورى الذى سارت عليه فى روسيا .

وتجلت هذه السياسة السوفيتية بشقيها حيال فارس إلا أن دواعى الأمن الاستراتيجى غلبت على دواعى الامتداد المذهبى للماركسية وبث الثورة الشيوعية فى أنحاء فارس فقد كان كل هم السوفيت إخراج الإنجليز وإبعادهم عن فارس حتى لا يكون فى وجودهم ونفوذهم فيها ما يهدد كيان الاتحاد السوفيتى الجديد ، واتجهوا لتحقيق هذا الهدف من أول الأمر وأخذوا يتقربون من فارس وأعلنوا تنازلهم عن كل ما كان لروسيا القيصرية من حقوق وامتيازات فيها رغم مطالبة الفرس باسترجاع كل ما اغتصبه القياصرة من ولايات آسيا الوسطى وإن لم يجدوا فى مؤتمر

الصلح سميعا لهم ولم يأذن لهم الحلفاء بولوجه إلا أن ماظهر من نواياهم كان قمينـا بإغضاب السوفيت الذين لم يغضبوا فى سبيل الهدف البعيد الذى يرمون إليه واعتذروا عن احتلال جيلان عندما احتج الفرس عليه بإنه اجراء لجأت إليه جمهورية أذربيجان السوفيتية لتأمين كيانها وليس لهم من سلطان عليها ، ولم تجز على الفرس هذه المغالطة الـكبيرة وراحت قواتهم القوزاقية تحارب السوفيت وتسترد رشت وتطاردهم حتى جاسيغان ثم تفجأهم نيران الأسطول السوفيتى فى أنزيلى وهى تجتاز الممر الذى يصل إليها فيرتدون إلى خطوطهم الأولى مدحورين ويعود السوفيت إلى احتلال رشت .

وبينما كان الإتحاد السوفيتى يمارس أساليبه السياسية فى فارس كانت بريطانيـا تلح فى تنفيذ المعاهدة الإنجليزية الفارسية قبل أن تجلو عن البلاد ، وظهر عامل جديد خط السطور الأولى فى النتائج التى تمخضت عنها الحرب فى فارس وكان له أبعد الأثر فى توجيه سياستها الجديدة وجهتها التى جرت عليها فيما بعد فقـد ظهر بين ضباط الفرقة القوزاقية ضابط أخذ يسوس الأمور بروح قومية ويؤلب الضباط ويجمعهم حواليه لتخليص البلاد من كل آثار النفوذ الأجنبى ، هو رضا خان بهلوى هاله ماانحدر إليه الجيش من سوء وتأخر تحت إمرة الضباط الأجانب وخاصة بعد انـكساره أمام الروس الحمر فى أنزيلى فعمل على تطهيره منهم واتصلت حركته بحركة سيد ضياء الدين الصحفى الشاب أقوى كتاب فارس وأشهرهم على الإطلاق ومحرر صحيفة الرعد فى ذلك الوقت فقد هاله هو الآخر ماتردت فيه البلاد من فوضى وسوء بسبب عجز الوزارات المتعاقبة عن سياسة أمورها ورأى أن الإصلاح لا يكون إلا بتغيير شامل فى أداة الحكم ونظامه وكان لهذا الاتصال أثره فى نجاح الانقلاب العسكرى الذى قام به رضا خان على رأس قواته القوزاقية واحتل طهران فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ وأصبح يسيطر على مجريات الأمور فيها . وألفت الوزارة الجـديدة برئاسة سيد ضياء الدين وتقلد رضا خان منصب رئيس أركان حرب الجيش ثم تقـلد وزارتى الحربية والمالية وأخذ ينظم الجيش على الوجه الذى يرضاه وظهر كأقوى شخصية يمـكن أن تسوس أمور فارس وترعاها وسط هذه الفوضى الشاملة وتنقذها من براثن الاحتلال والنفوذ الأجنبى الذى ينوشها فى الشمال والجنوب .

وبدأت الحكومة البريطانية تمل تعقد الأمور فى فارس وكان سيربرسى كوكس قد نقل إلى العراق الذى أصبح يحتل من اهتمام السياسة البريطانية أكثر مما يحتله اهتمامها بفارس وإن بقى رجالها فى فارس يرجون أن ينتهى هذا الاضطراب فيها إلى صالحهم إلا أن رجال دوننج ستريت كانوا يتعجلون الجلاء عنها ويصرون عليه فأصدروا أمرهم إلى الفرق البريطانية بالانسحاب حالما تسمح ممرات الجبال بذلك ولتترك فارس لمصيرها تدبره بنفسها .

وكان الاتحاد السوفيتى جريا على سياسة التقرب التى اختطها حيال فارس والتى ظهرت بوادرها منذ عام ١٩١٨ قد انتهى بعد مفاوضات جرت بينه وبين حكومة مشير الدولة خلال عام ١٩٢٠ إلى وضع أصول معاهدة تبرم بين البلدين وتقر علاقتهما السياسية على أساس ثابت واستهلت هذه المعاهدة نصوصها باستنكار العدوان الإجرامى لحكومة القياصرة وحكومات أوربا على شعوب آسيا واستباحة سيادتها واستقلالها ومواردها الاقتصادية ثم نصت على الاعتراف باستقلال فارس استقلالا تاما وتعهد الاتحاد السوفيتى فى هذه المعاهدة بالدفاع عن استقلالها وسلامة أراضيها ضد أى عدوان خارجى وتنازل لها عن جميع الأراضى الفارسية التى استولى عليها القياصرة عام ١٨٩٣ وأن يرجع خط الحدود بين الدولتين إلى ما كان عليه عام ١٨٨١ كما تنازل عن كل ما كان لروسيا من ديون قبل فارس وعن بنك الخصم الروسى وجميع فروعه فى البلاد الفارسية وخطوط البرق والطرق ومبانى الموانىء وعن كل ما كان لها أو لرعاياها من امتيازات وحقوق اقتصادية وسياسية فيها وسمح لها أن تنشىء أسطولا فى بحر قزوين على ألا تتنازل عنه أو عن جزء منه لطرف ثالث أو تضعه تحت تصرف قوة أجنبية أو فى خدمتها وكانت الاتفاقات القديمة بينها وبين القياصرة تمنعها من إنشاء قوة بحرية فيه وأنكر كل ما كان للأرساليات الأرثوذكسية الروسية من حقوق وترك لفارس أن تستولى على مبانيها ومنشآتها وكل مالها فى البلاد .

ولم يكن يهم فارس ما وعدت به حكومة الاتحاد السوفيتى وما نصت عليه هذه المعاهدة قدر ما كان يهمها احتلال القوات السوفيتية للأراضى الفارسية وما تقوم به

من نشاط شيوعى فى الولايات الشمالية ولم تقبل أن تكون المعاهدة سارية قبل جلائها عن البلاد وجرت المحادثات بين المتفاوضين حول جلاء هـذه القوات وصرحت الحكومة السوفيتية بأن جلاء قواتها عن فارس يتوقف على جلاء القوات البريطانية عنها ، وعندما وصل المبعوث السوفيتى الجديد تيودور روثستين إلى فارس فى مارس سنة ١٩٢١ لم تسمح له حكومة سـيد ضياء الدين بدخول البلاد رغم إبرام المعاهدة وتصـديق المجلس النيابى عليها فى فبراير وأرسلت إلى موسكو تقول أنها لن تتبادل التمثيل السياسى معها مالم تجل قواتها عن البلاد .

وكان تصديق المجلس النيابى على المعاهدة الروسية الفارسية فى ٢٦ فبراير سـنة ١٩٢١ ورفض المعاهدة الإنجليزية الفارسية التى ظلت معلقة منذ عام ١٩١٩ حتى تاريخ رفضها أول عمل تم بعد قيام رضا خان بانقلابه العسكرى وتأليف وزارة سيد ضياء الدين ، وأخذت القوات البريطانية تغادر البلاد بينما تلـكأت القوات الروسية فى الجلاء ولعلها كانت تخشى غـدر البريطانيين فلم تجل عن فارس قبل أن يغادرها آخر جندى بريطانى وتم ذلك فى ٨ سبتمبر عام ١٩٢١ وتقدمت القوات الفارسـية إلى جيلان وقضت على حركة كوتشـيك خان الذى لقى حتفه أثناء فراره إلى جبال تالش فلم تدركه قوات الحـكومة إلى جثة هامدة ، وقضى على جمهورية جيلان الشيوعية بعد أن تخلى عنها السوفيت ولم يكن تخليهم عنها إلا تمشياً مع سياستهم العامة فى التقرب إلى فارس وشـعوب وسط آسيا فلا يتهمون فيما بعد بأنهم اسـتباحوا استقلال فارس وسيادتها بينما هم ينادون باستنـكار الاستعمار والعدوان واسـتباحة حمى الشعوب وراحوا، تقريراً لهذا الإتجاه ودعاية لأنفسهم ينشرون نصوص اتفاقهم مع فارس على كل شـعوب آسيا ، كما لم تعد لهم حجة فى البقاء بعد جلاء القوات البريطانية ، ثم أنهم يمكنهم أن يزاولوا نشـاطهم الشيوعى فيها عن طريق ممثليهم السياسيين فى طهران وهو ما انتهجه روثستين سفيرهم فى فارس ومن بعده بوريس شومياتسكى الذى أخذ يوجه نشاطه خاصة إلى محاربة الإستعمار البريطانى كـصنوه راسكولينكوف الذى عين وزيراً مفوضاً لبلاده فى كابل مما دعا الحـكومة البريطانية إلى الاحتجاج بشدة على النشاط السوفيتى المعادى فى فارس والأفغان والهند فى صورة إنذار وجهته إلى موسكو فى مايو سنة ١٩٢٣ ولم يمض غير خمسـة أيام حتى ردت

روسيا على هذا الإنذار باستعدادها لتعويض أسر المفقودين من البريطانيين أثناء الحرب أما ما يتناول دعايتها ونشاطها فى تلك البلاد فمسألة أقل من أن تزعج بريطانيا وإلا ما كانت هناك أبداً علائق طيبة بين الشعوب المختلفة نزولا على هذا القياس ، ولم ينته هذا التوتر إلا بعد أن أبرمت الدولتان اتفاقا يقضى بإيقاف كل دعاية منهما ضد الأخرى ، استدعى بعدها الإتحاد السوفيتى راسكولينكوف من كابل ولكنه أبقى على شومياتسكى فى طهران .

ويقول لنكزوسكى أن هذا الإتفاق لم يجب تماما كل أنواع الخلاف بين روسيا وبريطانيا فى الشرق الأوسط ولم تكن الفترة التالية من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٤١ إلا هدنة مسلحة أكثر من أن تكون سلاما حقيقياً بينهما وخاصة فى فارس .

ولم يكن القضاء على ثورة جيلان هو آخر ما بقى من آثار الإحتلال السوفيتى والدعاية الشيوعية فى شمال فارس وإن كان أعظمها وأجلها خطر فقد بقيت هناك حركات ثورية فى أذربيجان الفارسية وفى مناطق متفرقة أخرى حول كوم أباد وبحيرة أورميا يغذيها السوفيت ويشجعونها ويرقبون تطورها ومدى نجاحها فى حذر لا يمنعهم من الإتصال بزعمائها وقادتها وإن حال بينهم وبين الظهور على مسرح الحوادث ، ولم يجد رضا خان صعوبة فى القضاء عليها والتنكيل بزعمائها ولم تكن هذه الثورات شيوعية فى روحها وإن لقيت من السوفيت كل تشجيع جعلها تنطوى تحت تياراتها ومؤثراتها ولم تكن غير حركات انفصالية قام بها زعماء أقوياء للاستقلال بنفوذهم وسيطرتهم على اتباعهم وأراضيهم عندما لمسوا عجز الحكومة المركزية عن كبح جماحهم أو الوقوف ضد رغباتهم ورحبوا بمعونة السوفيت ليكونوا لهم عونا ضد الحكومة المركزية دون إيمان بمبادىء الشيوعية فقد كان كوتشيك خان مثلا رجلا تغلب عليه نزعته الدينية وإيمانه الإسلامى العميق وتقواه الزائدة وتحول بينه وبين تقبل عقيدة الإلحاد الشيوعى ولم يقبل التعاون مع السوفيت إلا بعد ما لمس عجزه عن الوقوف ضد قوة الحكومة المركزية أثر حملتها عليه فى صيف عام ١٩١٩ ، وكان قد قد اتصل من قبل بالإنجليز وتعاون معهم وأخذ يمد قواتهم بالمؤن والطعام، فلما انسحبوا من المناطق الشمالية لم يجد أمامه غير السوفيت لحمايته وتوطيد سلطته

على جيلان وضحى فى سبيل ذلك بعقيدته الدينية وإيمانه الإسلامى العميق ورأى السوفيت فى هذه الحركات الثورية منفذاً لدعايتهم وامتدادهم وتوسعهم الإقليمى على طريقتهم الجديدة وأسلوبهم فى التوسع والانتشار ، حتى إذا وجدوها تتعارض وأهدافهم الكبرى تركوها وتخلوا عنها فقضى عليها .

وقد أصبح رضا خان ملتقى آمال الفرس والقابض على زمام الأمور فى فارس بعد سقوط وزارة سيد ضياء الدين وهربه إلى الخارج أثر خلاف وقع بينه وبين رضا خان اتهم فيه باتصاله بالإنجليز ولم يكن قوام السلطنة الذى كلفه الشاه بتأليف الوزاره الجديدة يتمتع بسلطة فعلية تمكنه من سياسة أمور فارس وتوجيهها وبقى رضا خان أقوى شخصية تسيطر على تيار الحوادث واتجاهاتها فى البلاد ، وعظم نفوذه بعد أن استردت الحكومة المركزية هيبتها ونفوذها فى البلاد وأصبح موضع تقدير الشعب وإجلاله ولم يعد عنه غناء فى كل وزارة تلى الحكم رغم تعددها وتوالى سقوطها وقيامها حتي أنه لما استقال من منصبه بعد خلاف حدث بينه وبين بعض أعضاء المجلس النيابى لحق به أتباعه راجين وملحين فى عودته وقدم إليه المجلس النيابى الترضية الكافية فقد كان وراءه حب الشعب وتعلق الجيش به ، ولم تمنع استقالته أو الترضية التى قدمت له من معاكسته أو الوقوف ضده بل تطور الحسد له والخوف منه إلى التآمر عليه ولم يجد رضا خان بداً للقضاء على العناصر التى تتآمر عليه من أن يلى هو نفسه رئاسة الوزارة وحمل الشاه على هذا الرأى فعهد إليه بتأليف الوزارة فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٣ واحتفظ لنفسه فيها إلى جانب الرئاسة بوزارة الحربية وسردارية الجيش ، وما لبث الشاه أن غادر البلاد إلى أوربا دون أن يحدد مدة إقامته ، وأجريت الانتخابات العامة بعد ذلك وبدأ الرأى العام ينادى بتغيير نظام الحكم فى البلاد متأثرا إلى حد بعيد بما حدث فى تركيا ، واتجه إلى إعلان الجمهورية على رأسها رضا خان والغاء الملكية . والظاهر أن رضا خان لم يكن راضياً فى قرارة نفسه عن النظام الجمهورى ولو كان هو على رأس الجمهورية ، بل كان يمتد بآماله الى ماهو أبعد من ذلك ، فلم يلق اهتماما إلى هذا الاتجاة وأعلن فى إحدى خطبه أن مصالح البلاد الحقيقية من إقرار الأمن والنظام ونشر الثقافة والتعليم وتنمية

الموارد الاقتصادية أهم من التفكير فى نظام الحكم وتغييره وإن بقى التفكير فى نظام الحكم القادم أهم مايشغل الرأى العام فى فارس ، وكان الإتجاه العام يرمى إلى إسقاط أسرة قاجار وإعلان الجمهورية وانقسم الرأى العام الى فريقين ، فريق يرى فى المجلس النيابى القائم مايؤهله لتعديل الدستور وإعلان النظام الجديد بينما راح الفريق الثانى ينكر عليه ذلك بحجة أنه لا يمثل الاتجاه الحقيقى للشعب ويصر على استفتاء الشعب وعقد جمعية وطنية تعلن «جمهورية شعبية» ، ويتهم رضاخان بأنه يسعى إلى تحقيق ديكتاتورية عسكرية، وقيل أن وراء هذا الفريق الثانى كانت تقف دعاية السوفيت التى اشتدت فى البلاد بعدما عين روثستين سفيراً للاتحاد السوفيتى فى طهران وسار خلفه شومياتسكى على تأليب الرأى العام فى فارس على الإنجليز وفكرة التعاون معهم ، واشتد النضال بين الفريقين سواء فى داخل قاعات المجلس النيابى أو فى خارجها ولعبت الصحافة دورها التقليدى فى الدعاية والتأييد والخصام وبين هذين الفريقين وقف رجال الدين ينكرون إعلان الجمهورية وعليهم اعتمد رضا خان فى تحقيق مآربه التى لم يعلنها صراحة ، فبعد زيارته القصيرة إلى كوم موئل الشيعة ومركز تعاليمها منذ القدم ، عاد إلى طهران وأصدر بيانا تناول فيه جهوده وأعماله وما يهدف إليه وطلب فى آخره الى الشعب طرح فكرة الجمهورية جانباً ، ولما لم يجد بيانه أو يؤثر تأثيره المطلوب قدم استقالته إلى المجلس النيابى وأخطر الجيش فما أن علم بها حتى استعد للزحف على العاصمة اذا لم ترفض الإستقالة وقبل رضا خان بعد إلحاح شديد ورجع إلى تولى منصبه وفاز بثقة المجلس بأغلبية ثلاث وتسعين صوتاً ضد سبعة ، وهكذا قضى على فكرة الجمهورية وانتهى أمرها .

وعاد رضا خان ليواجه أزمات جديدة فقد قامت الثورة فى لورستان بزعامة سردار رشيد بعد أن فر من معتقله وتمكنت قوات الجيش بعد جهد جهيد من القضاء عليها بفضل الأسلحة الحديثة التى استوردها رضا خان من فرنسا وألمانيا وروسيا ، وكان القضاء على نفوذ الشيخ خزعل شيخ المحمرة وسيطرة قبائل البختيارى على أقليم خوزستان آخر ماواجه رضاخان من أزمات وأعظمها جهدا وأجلها خطرا بين كل أعماله فى الفترة التالية من أخريات عام ١٩٢٤ وقبل إعلانه

شاهنشاها على فارس فى نهاية عام ١٩٢٥ ، فلما قضى اخضاع جيلان على نفوذ السوفيت فى الشمال كان القضاء على نفوذ شيخ المحمرة وسطوة البختيارى قضاء على النفوذ الإنجليزى فى الجنوب ، وكانت عقيدة رضا خان القومية والسياسية هى القضاء على كل نفوذ أجنبى فى البلاد وسيطرة الحكومة المركزية فى طهران على ولايات فارس تماما البعيدة منها أو القريبة الخاضعة للنفوذ الإنجليزى فى الجنوب أو المنطوية تحت دعاية السوفيت فى الشمال .

وترجع علاقة الإنجليز بشيخ المحمرة وقبائل البختيارى إلى بداية تغلغل النفوذ الانجليزى فى فارس وأصبح الانجليز أكثر اهتماما بهذه العلاقة بعد تكوين شركة البترول الإنجليزية الفارسية فعقدوا اتفاقين معه ، أحدهما مع الحكومة الانجليزية والثانى مع الشركة رأسا يدوران حول حماية آبار البترول وقواعد الخليج الفارسى وحماية بريطانيا لنفوذه فى منطقته وقد تعهدت له الحكومة البريطانية عام ١٩٠٥ بحمايته من أى عدوان خارجى ولم تكتف بذلك بل وعدته بالمساعدة ضد حكومة فارس نفسها ، وأكدت تعهداتها له فى نوفمبر عام ١٩١٤ فى بداية الحرب عندما حاول الأتراك والألمان تدمير آبار البترول وتخريب أنابيبه الممتدة من هرمز إلى عبدان وبدت حاجتها ماسة إلى نفوذه وقوة عشائره لحراسة أنابيب البترول ومعاونتها فى حملتها على العراق ، وجرت سياسة الحكومة البريطانية مع زعماء البختيارى إلى ارضائهم بالهدايا والأموال ليضمنوا حسن سير العمل فى منطقة البترول وقد بلغ عدد عمال الشركة عام ١٩٢٣ مايقرب من عشرين ألف عامل من البختيارية وعشائر الشيخ خزعل العربية .

وبدأ النزاع بين الحكومة المركزية التى عملت على استرداد سيطرتها على أراضيها والشيخ خزعل الذى رفض أن يسلم لحكومة طهران بحقوقها أو يسدد لخزانة الحكومة ماجمعه من ضرائب وراح يثير القلاقل ويستميل البختيارية الذين انضموا إلى جانبه وبقى ينتظر معونة الحكومة البريطانية التى التزمت موقف الحياد فى ذلك النزاع الداخلى وتخلت عن تعهداتها السابقة له . واتصل بالعناصر الثائرة فى فارس يشجعها على الخروج وشق عصا الطاعة فأعلن رضا خان التعبئة العامة واجتاح

خوزستان من جهات أربع ولم يجد الشيخ خزعل بدا من التسليم ولكنه أخذ يماطل حتى أسرته قوات الحكومة وأعلنت الحكومة البريطانية على لسان لورد بلفور فى مجلس اللوردات بأنها لم تعتبرا يوما ما شيخ المحمرة حاكما مستقلا بل نظرت إليه على الدوام كتابع لحكومة فارس كما أعلنت فى نفس الوقت أن اتفاقها مع فارس عام ١٩١٩ لا يتمشى وروح العصر وما لبثت أن سحبت قواتها التى احتفظت بها فى بوشير لحماية القنصلية البريطانية واستعادت فارس أغنى بقاعها وأحفلها بمشاهد التاريخ وذكرياته وعاد العلم الفارسى يرفرف عليها من جديد .

وأخذ رضا خان يدنو سريعاً من غاية آماله ؛ فقد اجتمع المجلس النيابى فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ وأعلن خلع الشاه أحمد الغائب فى أوربا ونهاية حكم آل قاجار ومنح رضا خان أعلا سلطة فى الدولة حتى تجتمع الجمعية الوطنية لتقرر شكل الحكم الجديد فى فارس ، وصدرت الأوامر إلى حريم الشاه وولى عهده بمغادرة البلاد ، واجتمعت الجمعية الوطنية العامة وأقرت تعديل الدستور ونادت برضا خان شاها على فارس ومن بعده نسله من الذكور . وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ نصب شاها على البلاد واتخذ لقب بهلوى وأعلنت ولاية العهد لابنه الأكبر محمد رضا شاه إيران الحالى ، وأقيم حفل التتويج فى ابريل من العام التالى وتوج رضا خان على عرش الغازى نادرشاه ، شاهنشاها لفارس وتقلد سيفه ، واستقبلت فارس فى عهده طوراً جديداً من التقدم والنهوض لم يشهده تاريخها الحديث منذ زمن طويل ، ولكنها بقيت رغم اتجاهه القومى الخالص وجفوته للنفوذ الأجنبى حيزا من حيوز القوى الكبرى ومجالا لتنافسها فى العالم الحاضر .

الفصل الثانى عشر

مابين الحربين

السياسة الدولية والشرق الأوسط

الصراع بين النفوذ الأجنبي والوعى القومى

تمخضت الاتفاقات الدولية التى جرت فى أعقاب الحرب عن انفراد انجلترا وفرنسا بمناطق النفوذ فى العالم وفى الشرق الأوسط بالذات ، فقد رجعت الولايات المتحدة إلى عزلتها التقليدية وإن لم يفتها أن تطالب بسياسة الباب المفتوح فى الاستثمارات المالية والاقتصادية وخاصة ما يتعلق منها بامتيازات البترول واستغلاله وبقيت أرسالياتها التعليمية والدينية تزاول نشاطها فى بلدان الشرق الأوسط ولا سيما فى مصر ولبنان وإن ضعفت آثارها نتيجة لنمو الوعى القومى فيها بعد الحرب العالمية الأولى ، واستكانت روسيا داخل حدود الوطن الأم تلعق جروحها وتشيد دعائم نهضتها على هدى مبادئها وتعاليمها الجديدة وتنطوى على نفسها فى حذر يقوى جذوره ما تشعر به من نبذ المجتمع الدولى لها ، وخرجت إيطاليا وهى تشعر بما نالها من غبن فى ميراث المغلوبين وانطوت على ضغنها تغالبه لشعورها بالضعف وحاجتها إلى عون حليفتيها الظافرتين حتى قاد سياستها موسولينى فأخذ يسوقها إلى الطريق الذى سارت إليه وانتهى بها إلى مناوأة حلفائها بالأمس والخروج على المبادىء التى نادوا بها فى أعقاب الحرب لدعم السلام العام وأقاموا عصبة الأمم تكفلها وترعاها .

وقبعت اليابان فى أقصى الشرق تنفس على الدول المنتصرة والمستعمرة تغلغل نفوذها فى آسيا وترى نفسها أحق منها بهذا النفوذ وأجدر منها بالقيام على شعوبها ، ولم يعد للدول المغلوبة أثر ما فى اتجاهات السياسة الدولية فقد قضت الهزيمة على قوتها

وحطمتها وثلت عروش أباطرتهـــا ، وقصت معاهدات الصلح أطرافها واغتالت مستعمراتها وجردتها من عناصر قوتها وجبروتها .

وبقيت انجلترا وفرنسا تنفردان بالنفوذ الأوفى فى السياسة العالميـة توجهانها الوجهة التى تتفق ومصالحهما وإن وقفت الولايات المتحدة رغم تمسكها بعزلتها التقليدية توازن بين هذه التيارات المختلفة فى السياسة العالمية صوناً للسلام العام ومنعاً لطغيان دولة كبرى أو انفرادها بشئون العالم ، ولقيت هذه السياسة ترحيباً من انجلترا وخاصة فيما يتعلق بمسائل ألمانيا وإصرار فرنسا على تطبيق معاهدة فرساى بحذافيرها وسداد تعويضات الحرب .

وظهر نفوذ الدولتين قويا واضحاً فى الشرق الاوسط ، فقد انفردتا بالانتداب على القطاع العربى فيه ، وفازت انجلترا بأعظم مما فازت به حليفتها فرنســا فى تقسيم مناطق الانتداب فضلا عما كان لها من نفوذ سابق فى مصر وفى سواحل شبه الجزيرة العربية ، وما ارتبطت به من معاهدات مع عاهلها السعودى فى نجـد والحجاز ، والإمام يحيى فى اليمن ، ولم يكن لفرنسا غير نفوذها فى منطقة انتـدابها على سوريا ولبنان ، ولم يسلم من النفوذ الاستعمارى من بلدان الشرق الاوسط غير تركيا وإيران اللتين أخذتا توجهان سياستهما الخارجية الوجهة التى ترضيانها وتتفق مع مصالحهما القومية .

وقد بدت أطماع الدولتين واضحة جلية فى القطاع العربى قبل قيام الحرب الاولى فى أوقات تختلف بالنسبة لـكل منهما ، فأطماع فرنسا فى اللفانت ترجع إلى بداية سياستها الاستعمارية فى الشرق الأدنى فى أخريات القرن الثـامن عشر ، بينما تعود صلاتها القديمة به إلى أيام الحروب الصليبية وما تركته من آثار ثقافيـة وجنسية استمرت حتى الوقت الحاضر ، وكانت أول الدول تدخلا عندما وقعت مذابح لبنان عام ١٨٦٠ واحتلت قواتها بيروت لشهور معدودة ، وأصبحت بعد ذلك أكثر الدول اهتماما بما يدور فى تلك المنطقة من أحداث ، وأما انجلترا فإن أطماعها فى البـلاد العربية قريبة العهد واهتمامها بتلك المنطقة غير بعيد فإن مصالحها كانت تتركز فى قناة السويس والخليج الفارسى ولم تتيقظ أطماعها فيها إلا بعد ما لمست خطر الامتداد

الألمانى إليها ، وما يحمله من معانى التهديد المباشر لقواعدها الاستراتيجية ومواصلاتها الإمبراطورية فى قناة السويس والخليج الفارسى فاتجهت أول الأمر إلى حماية قواعد الخليج الفارسى وقاومت فكرة امتداد خط حديد بغداد إلى سواحله ، وأدخلت البصرة فى نطاق استراتيجيتها العامة ورتبت احتلالها عندما يبدو خطر يهدد نفوذها فى تلك المنطقة ، وتقدم كتشنر إلى حكومته عام ١٩١٤ باقتراح ضم فلسطين أو جزء منها لتأمين قناة السويس ، ولتكون خطاً أمامياً لحمايتها من أى خطر يفجأها من الشمال ، حتى إذا قامت الحرب وأبرم اتفاق سيكس ـ بيكو السرى بين الحلفاء روعيت فيه أهداف الدولتين وأطماعهما فى البلاد العربية ، وجاء الخلاف بينهما حول السيطرة على فلسطين فقد كانت فرنسا ترى أنهـا جزء من سوريا يجب أن تشملها منطقة نفوذها ، بينما انجلترا ترى ضرورة السيطرة على موانىء فلسطين ولا تستريح لوجود فرنسـا على مقربة من قناة السويس فراحت تحتج بوجود الأماكن المقدسـة فيها وما يتطلبه من إقامة نوع من الإدارة الخاصة بها ، وردت فرنسا على ذلك باقتراح إدارة دولية فى منطقة القـدس وبيت لحم وما يحيط بهما ويترك باقى فلسطين جزءاً من سوريا تحت نفوذها ، وتعقدت المشكلة عندما استؤنفت المحادثات فى بتروجراد ، وتقدمت روسيا بطلب الإشراف على الأماكن المقدسة ومنشئاتها الكنسية والتعليمية فى الناصرة ونابلس والخليل وفرض حمايتها عليهـا وكانت حدود هذه المنطقة ومساحتها تمتد بعيداً إلى ما وراء المنطقة التى اقترحتها فرنسا ؛ ولم يلق طلبهـا قبولا من حليفتيها فاقترحت إقامة إدارة دولية فى فلسطين تشرف على الأماكن المقدسة والمنشئات الدينية فيها ، وأبرم اتفـاق سيكس ـ بيكو بوضع فلسطين تحت إدارة دولية وتركت إنجلترا للظروف تحقيق أطماعها ومصالحها فيها وإن احتاطت للمستقبل بفرض نفوذها على مينائى عكا وحيفا فى نصوص الاتفاق .

ويوضح اتفاق سيكس ـ بيكو إلى حد بعيد لون الدوافع التى تكمن وراء أهداف كل من الدولتين وأطماعهما فى القطاع العربى فإن النفوذ البريطانى المطلق كان يمتد كما أشير إليه باللون الأحمر فى مصور الاتفاق حول الخليج الفارسى إلى بغداد شمالا ثم فى المنطقة الضيقة المحيطة بمينائى عكا وحيفا ومعنى هذا أن بريطانيا لم تكن تهتم

بغير حماية قواعدها البحرية فى الخليج الفارسى بالسيطرة عن جنوب العراق وتأمين قناة السويس بالسيطرة على الموانئ البحرية والجزر القريبة منها فى شرق البحر الأبيض المتوسط فإن سيادة بريطانيا على البحار حتى ذلك الوقت كانت الدعامة الأولى لسلامة امبراطوريتها وأمنها الاستراتيجى ، أما النفوذ الفرنسى المطلق كما أشير إليه باللون الأزرق فـكان يمتد من الناقورة على طول الساحل شمالا ثم ينفرج عند الاسكندرونة شرقا حتى يصل إلى مابعد ماردين وديار بكر على نهر دجلة الأعلى وغربا على امتداد ساحل الأناضول الجنوبى فيضم أطنه ومرسين ثم ينحرف شمالا على شكل قوس حتى سيواس وبذلك يضم مساحة كبيرة من الأناضول تدخل فيها كيليكيا وأطنة ولم يكن لفرنسا أطماع تاريخيه فيهما على خلاف ماكان لها فى سواحل اللفانت والظاهر أن هدفها كان يرمى إلى التوسع الإقليمى دون ما نظر إلى الاعتبارات التاريخية والجنسية والثقافية فى هذا الامتداد وقد أدركت فرنسا خطأ هذا الامتداد فتنازلت عن كيليكيا وأطنه للأتراك عام ١٩٢١ ، وكانت هناك منطقتان أخرتان غير المنطقتين السالفتين تخضعان خضوعا غير مباشر لكل من الدولتين أشير إليهما فى مصور الاتفاق بالحرف « ا » لمنطقة النفوذ الفرنسى التى تمتد شرقا فتضم منطقة الموصل ، وبالحرف « ب » لمنطقة النفوذ البريطانى وتمتد جنوب المنطقة الفرنسية حتى صحراء الجوف وتحيط بالمنطقة الحمراء على شكل قوس كبير يمتد من الشمال إلى الجنوب ويضم إليه فى الشمال لواء كركوك وجزءا من أرض الجزيرة .

ومن الواضح فى هذا التقسيم أنه لم يقم على أى أساس قومى أو تاريخى ولا يحقق إلا أطماع الدولتين فى هذه المنطقة تلك الأطماع التى كانت تهدف عند الانجليز إلى تحقيق أغراض استراتيجية وعند الفرنسيين إلى تحقيق آمال تاريخية كانت بعض قواعد سياستهم التقليدية القديمة فى الشرق . ولـكن هـذه الأهداف سرعان ماتطورت بشكل واضح فى نهاية الحرب عند الانجليز وإن بقيت جامدة تتعلق بإصولها التاريخية عند الفرنسيين ، ويرجع هذا التطور إلى ظهور عاملين كان لأولهما أعظم الأثر فى تطور سياسة بريطانيا واستراتيجيتها العامة فى الشرق الأوسط وإن لم يكن له نفس الأثر عند فرنسا ، وكان لثانيهما أعظم نصيب فى تطور الاهتمام الدولى بهذه المنطقة

وظهر واضحا فى اتجاه السياسة الاقتصادية الأمريكية إلى الاهتمام بها ، وأول هذين العاملين عودة الطرق البرية إلى احتلال أهميتها القديمة نتيجة لتقدم الطيران ووسائل النقل الميكانيكية البرية فقد ظلت سيادة المواصلات العالمية منذ القرن الخامس عشر لوسائل النقل البحرية وسار الاستعمار الأوربى الحديث عبر المحيطات والبحار وكان كل تقدم فى وسائل النقل البحرية دعامة للاستعمار وبسط النفوذ وسيادة الأقوياء ، فشادت انجلترا امبراطوريتها العظيمة بقوة أسطولها وسيطرته على البحار وكانت أعظم المراكز والقواعد الاستراتيجية أهمية هى القواعد والممرات البحرية ، حتى إذا تقدم الطيران خلال سنوات الحرب وبدا ماينتظره من مستقبل باهر فى عالم المواصلات وظهر إلى جانبه تقدم صناعة السيارات والاهتمام بمد الخطوط الحديدية وربطها بعضها ببعض فى مختلف أنحاء المعمورة ، لم يعد لسيادة البحار أهميتها القديمة ولم تعد الممرات والقواعد البحرية تنفرد بالأهميـة الاستراتيجية وأصبحت السيادة على الطرق البرية هدفا استراتيجيا وسياسيا لا يقل فى أهميته عن سيادة البحار ومسالكها وقواعدها المعروفة ولم يفقد الشرق الأوسط أهميته بهذا التطور بل زادت وتضاعفت ، أما العامل الثانى فهو ظهور البترول وما أصبح له من أهمية عمرانية واستراتيجية فى العالم وتفجر أرض الشرق الأوسط عن كمياته الغزيرة ومادلت الأبحاث الجيلوجية على وفرة المخزون منه فى باطن الأرض وظهر أن المعركة القادمة على أديم الشرق الأوسط ستدور حـول البترول واستغلاله والسيطرة على منابعه وأن الأهمية التى كانت للشرق الأوسط والتى كان يستمدها من موقعه وتوسطه بين المواصلات العالمية قد دخل عليها عامل جديد ضاعف منها وزاد فى قوتها فلم يعد هدفا استراتيجيا فحسب بل أصبح هدفا عمرانيا واقتصاديا وزادت دواعى السيطرة السياسية للدول الـكبرى عليه فقد غدا مجالا طيبا لاستغلالها الاقتصادى واستثماراتها المالية وظهر أثر هذين العاملين واضحا فى رغبة بريطانيا فى السيطرة الـكاملة على هذه المنطقة ومنافسة فرنسا فيما فرضه لها اتفاق سيكس - بيكو من نفوذ فى الموصل ورغبة فرنسا من ناحية أخرى فى أن يكون لها امتياز استغلال بترولها وكان تنازلها عن كيليكيا وأطنه والموصل لتركيا فى اتفاق عام ١٩٢١ يهدف فى بعض مراميه إلى الفوز بامتياز استغلاله من

تركيا ، وفيما تقدمت به الولايات المتحدة الأمريكية من المطالبة بسياسة الباب المفتوح فى الاستثمارات الاقتصادية والبترولية فى الشرق الأوسط وبدا فى هذه التيارات الجديدة ما ينتظر هذه المنطقة من مستقبل حافل ملئ بالاحتمالات والنذر .

وانفردت بريطانيا بالاهتمام بالعامل الأول فكانت أكثر الدول عناية بالطريق البرى عبر الشرق الأوسط ولم تشاركها دولة أخرى فى الإهتمام به ، واتجهت سياستها إلى دعم سيطرتها عليه وكانت عنايتها بخلق إمارة شرق الأردن وفرض انتدابها على فلسطين مظهرا لهذا الإهتمام حتى تضمن حماية مواصلاتها الاستراتجيه فى القطاع الممتد من الخليج الفارسى إلى البحر الأبيض المتوسط وهو مركز تجمع القواعد الاستراتجية وخطوط المواصلات البرية والبحرية والجوية فى الشرق الأوسط وبذلك حققت وجهة النظر البريطانية لحكومة الهند فى حماية قواعد الخليج الفارسى كما حققت وجهة نظر القيادة البريطانية فى مصر للدفاع عن قناة السويس وجارت التطور الجديد بفرض سيطرتها على أهم الطرق البرية ومحطات الطيران والنقط الاستراتجية فى الشرق الأوسط وربط مناطق انتدابها فى العراق وشرق الأردن وفلسطين ونفوذها فى مصر بعضها ببعض ، أما العامل الثانى وهو البترول فلم يكن فى قدرتها أن تنفرد به فقد كان إلى جانبها فرنسا التى تتطلع إلى بترول الموصل وتطالب بحصة فيه ، والولايات المتحدة التى تطالب بسياسة الباب المفتوح فى الامتيازات البترولية فى الشرق الأوسط وإن ظفرت بريطانيا فى بداية الجولة بأعظم نصيب فيها إلا أن الجولة لم تكن قد انتهت بعد وأخذت تكشف عن احتمالات جديدة فى مصيرها وخاصة من جانب أمريكا التى لم يكن لها حتى ذلك الوقت مصالح فى الشرق الأوسط فيما عدا مؤسساتها التعليمية والدينية .

وأصبح معروفا وقد بدت قوة هذين العاملين فى تقدير أهمية الشرق الأوسط الجديدة فضلا عن عوامل أهميته القديمة أن يعظم التنافس الدولى حوله وإن يشتد الضغط الأجنبى عليه وإن لم تترك النتائج العامة للحرب مجالا للتنافس فى بقاعه لغير الحليفتين المنتصرتين بعد أن عادت أمريكا تتمسك بعزلتها التقليدية ورضيت إيطاليا بفتات المائدة فى مأدبة

الظافرين وصدرت قرارات مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ لتنظيم الانتداب على البلاد العربية وأصبح معروفا أن القطاع العربى الذى يقع بين حدود فارس ويمتد جنوبا إلى فلسطين على البحر الأبيض المتوسط قد أضحى تحت الانتداب البريطانى على أن تكون سلطة الانتداب فى العراق منفصلة عنها فى فلسطين وشرق الأردن وأن الانتداب الفرنسى قد فرض على لبنان وسوريا بعد أن اقتطع منها لواء الكرك ليضم إلى منطقة الانتداب البريطانى فى فلسطين ورضيت فرنسا فى اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو أن تكون فلسطين تحت الاحتلال البريطانى ثم سلمت بانتداب بريطانيا عليها فى مؤتمر سان ريمو بعد أن كان مفروضا أن تقوم فيها إدارة دولية كنصوص اتفاق سيكس ـ بيكو الذى تمسكت فرنسا بنصوصه أكثر مما تمسكت بها انجلترا .

ولم يكن نظام الانتداب غير لون من ألوان النفوذ الاستعمارى المقنع تفتقت عنه أذهان ساسة الاستعمار بعد ماهللوا طوال الحرب بدعوى الدفاع عن الديمقراطية والحرية وصيانة السلام العام وظهرت مبادىء ويلسون والحرب فى دورها الأخير تنادى بحرية الشعوب وحق تقرير المصير ولم يكن أمام الدول الاستعمارية التى خرجت منتصرة من الحرب إلا أن توفق بين دعاويها هذه ومصالحها الاستعمارية والأمانى القومية التى كانت تجيش فى صدور الشعوب المغلوبة فكان نظام الانتداب الذى يراعى فى ظاهره الأمم الصغيرة ويحفظ على الدول المنتدبة وهى بذاتها الدول الاستعمارية الكبرى مصالحها فلم يكن فى نظام الانتداب حق تملك الأرض ولكنه كان ينظم الإشراف والهيمنة على الشعوب ورعاية مصالحها وإرشادها والأخذ بيدها إلى مستوى أرقى لتستقل بأمورها بعد أن تبلغ رشدها تحت إشراف عصبة الأمم وبتوكيلها وقد جعلت « رفاهية هذه الشعوب المتأخرة ورقيها أمانة مقدسة فى عنق المدنية » وأخذت عصبة الأمم على نفسها أن تراقب سير الانتداب فى الشعوب التى فرض عليها وأن تتولى الأمر بنفسها إذا دعت الحال وأن تقرر أحيانا متى أصبح الانتداب غير ضرورى وأن الشعب الذى تحت الانتداب قد أصبح قادرا على إدارة شئونه بنفسه .

وقد خلق نظام الانتداب خلقا فى قاعات مؤتمر الصلح ولم يكن نتيجة طبيعية

لتطور تدريجى فى نظام الاستعمار وروحه العامة بقدر ما كان تحايلا على أوضاع قررتها دعاوى الحلفاء خلال الحرب وتبريرا لفرض نفوذ استعمارى له كل مزايا الاستعمار القديم وإن استغنى عن بعض حقوقه المعروفة كحق الإمتلاك والسيادة، وسار على نمط الاستعمار القديم فى تقرير علاقة الدولة المنتدبة بمناطق انتدابها بما عليه تفاوت درجات الرقى والتقدم كما كان عليه بين المستعمر والمستعمرة ، فقد تقرر الانتداب على ثلاث درجات هى :

١ — الانتداب (ا) على الأمم المتقدمة نسبياً وجعل لممتلكات الدولة العثمانية التى انفصلت عنها ويكون الحكم فيها فى يد حكومة من أهلها تحت إرشاد الدولة صاحبة الانتداب ، أى أن الحكم فيها شركة بين الطرفين .

٢ — الانتداب (ب) على أمم ذات حظ متوسط من التقدم كافريقيا الشرقية ونفوذ الدولة المنتدبة فيها أقوى من سابقه فهى التى تتولى إدارة شئونها وحماية أهلها من العسف والرق .

٣ - الانتداب (جـ) على الأمم المتأخرة المنحطة كمستعمرات ألمانيا فى أفريقيا والمحيط الهادى شمال خط الاستواء ، وتحكمها الدولة المنتدبة بنفسها مباشرة .

ولا تختلف هذه الأشكال التى فرضت للانتداب عما كانت عليه أشكال الاستعمار القديم نفسه فقد كانت علاقة المستعمر بالمستعمرة تحددها درجة رقى المستعمرة وتقدمها وقدرة المستعمر على فرض نفوذه المباشر أو الغير المباشر عليها .

وظهرت فكرة الإنتداب أول ماظهرت فى كتيب أصدره سمطس عام ١٩١٨ ضمنه أراءه فى تنظيم عالم ما بعد الحرب وكانت أهم مافيه ووجد فيها ساسة الحلفاء منفذاً لتحقيق مصالحهم الإستعمارية حتى لايتهموا بأنهم ما أشعلوا الحرب إلا تحقيقا لمآربهم الذاتية ، هذا فضلا عن تملق الوعى القومى الذى بدأ يثور ويكشف عن قوته فى بلاد الدولة العثمانية ذات الحضارة القديمة والتى دخلت فى نطاق الأطماع الاستعمارية الفعلية منذ بداية الحرب .

ولم ترض الشعوب العربية بنظام الانتداب واعتبرته انتهاكا لسيادتها واستقلالها وكان الوعى القومى قد نمى نموا عظيما فى مختلف بلدان الشرق الأوسـط فلم تعد تستسيغ أى لون من ألوان النفوذ الأجنبى سواء كان انتدابا أو استعماراً سافراً أو مقنعا وشب النزاع واستحكم من أول الأمر بين قوى الاستعمار والشعوب التى تناضل فى سبيل استقلالها وسيادتها واتسمت فترة ما بين الحربين بهذا النضال المرير بين هاتين القوتين ، قوة الاستعمار والنفوذ الأجنبى من ناحية وقوة الوعى القومى فى هاته الشعوب من ناحية أخرى ، وقد انتصرت القومية فى بلدين من أهم بلدان الشرق الأوسط وأحفلها بألوان الضغط والنفوذ الأجنبى والتنافس الاستعمارى هما فارس وتركيا وبقيت بلدان الشرق الأوسط الأخرى تخضع لنفوذ الدولتين اللتين انفردتا بالأمر فيها وهما انجلترا وفرنسا فسيطرت اتجاهاتهما السياسية عليها وأصبحت مصائرها رهينة بتطور النضال بين هاتين القوتين ، قوة النفوذ الاستعمارى ، وقوة الوعى القومى ، حتى بدأ التنافس الاستعمارى من جديد إثر قيام الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا وظهور أطماعهما التوسعية والاستعمارية فى أفريقيا والشرق الأوسط فضلا عن الوحدة الجرمانية التى نادت بها النازية ولجأت فى سبيلها إلى ضم العناصر الجرمانية فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، والممر البولونى ، وأصبحتا قوة جديدة فى تيار السياسة العالمية ظهر أثرها واضحا فى ميدان الشرق الأوسط وأخلت بتوازن القوى الدولية التى سيطرت على أحداثه حتى ذلك الوقت وثم كان تباين المعالم السياسية لفترة ما بين الحربين فى نصفها الأول عنه فى نصفها الثانى ، فقد اتسم النصف الأول باستتباب النفوذ الأجنبى واستقرار السياسة الدولية فيه وجاء التوتر السياسى من الداخل فحسب منبعثاً عن فورة الشعور القومى وما سببه من ثورات وقلق لقوى الإستعمار ، أما النصف الثانى فقد شابه نوع من الاستقرار والهدوء النسبى فى الداخل إثر اهتمام القوى الاستعمارية بتسوية مشاكلها مع الشعوب المغلوبة ولـكنه غص بمشاكل السياسة الخارجية الناجمة عن التوتر الدولى الجديد ، ومنافسة قوى الاستعمار الجديدة لقواه القديمة ، وكانت انجلترا أكثر من فرنسا عناية بتسوية مشاكلها فى مناطق نفوذها فأبرمت معاهدة التحالف والصداقة مع مصر عام ١٩٣٦ وكانت قد انتهت من إبرام معاهدة شبيهة بها مع العراق عام ١٩٣٠ وأخرى مع شرق الأردن عام ١٩٢٨ ولم تستعص عليها غير مشكلة فلسطين فبقيت

شوكة فى جنبها تقض مضجعها ولم تجد لها حلا ، وشرعت فرنسا فى إبرام معاهدات مماثلة مع سوريا ولبنان ولكنها لم تكن جادة فى ذلك إلا إذا كانت المعاهدة ترضى أطماعها وتدعم نفوذها .

وخضعت التيارات السياسية فى بلدان الشرق الأوسط التى بقى فيها النفوذ الأجنبى قائما ، لهذه القوى المتباينة واختطت كل من تركيا وإيران سياسة خاصة خضعت إلى حد بعيد للتيارات القومية بعيدة عن أى تدخل أجنبى وخضعت ليبيا لسياسة الاستعمار الفاشى التى ابتدعها موسولينى لإحياء الإمبراطورية الرومانية وجلبت عليه أساليبه الإستعمارية فيها كراهية العرب والعالم الإسلامى حتى أضحى الحكم الفاشى فى أعين العرب مبعث الخوف والشقاء وبقى الوعى القومى فيها مختلطاً بالشعور الدينى يدفع الليبيين إلى مقاومة الغزاة .

وقام نظام الانتداب من أول الأمر على أساس غير شرعى فإن المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم تنص على ضرورة تعرف رغبات الشعوب التى توضع تحت الإنتداب فى اختيار الدولة المنتدبة ، وأهمل هذا النص وفرض الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان كما فرض الانتداب البريطانى على العراق وشرق الأردن وفلسطين دون استشارة شعوبها . بينما كان أمام الحلفاء تقرير لجنة كنج وكرين وقرارات المؤتمر السورى ولكنهم لم يأخذوا بأى منهما ولم تمنح عصبة الأمم الانتداب بل منحه المجلس الأعلى للحلفاء المجتمع فى سان ريمو والمؤلف من ممثلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ولم يقم فى الحقيقة لتنفيذ مانص عليه عهد العصبة بل لتحقيق مطامعها وأهدافها فى أملاك الدولة العثمانية وأضحى الانتداب فى معناه وأهدافه لا يختلف عن الاستعمار القديم فى أى صورة من صوره ولم يرع نصوص العهد أو قراراته التى فرضها للانتداب .

وجرت سياسة الدولتين كل فى منطقة نفوذها على هدى مصالحها وأهدافها ومزاجها السياسى ذلك المزاج الذى كان أول عامل مؤثر فى توجيه الوعى القومى بشكل غير مباشر والذى أخذ يتفاعل سلبا أو إيجابا مع ألوان هذا المزاج واتجاهاته وطبيعة الوعى

القومى فى كل بلد من بلدان الشرق الأوسط كل على حدة وسنحاول أن نتقصى هذه العوامل المتباينة من حيث اصطدام النفوذ الأجنبى مع قوة الوعى القومى ومزاج كل منهما الخاص وتأثرهما سويا باتجاهات السياسة الدولية وخاصة بعد أن جد عليها التوتر السياسى الذى سبق الحرب الثانية .

الانتداب البريطانى

فى العراق :

يقع العراق شمال شرق شبه الجزيرة العربية ويعتبره الجغرافيون امتدادا لها وتحده تركيا شمالا وإيران شرقا وسوريا غربا ونجدوالخليج الفارسى جنوبا، والعراق موطن حضارة من أقدم حضارات التاريخ عاصرت الحضارة الفرعونية فى مصر والحيثية فى شمال سوريا والفينيقية فى اللفانت واتصلت بها جميعا ، ولعل هذا هو أهم مايسند كيانه القومى فى الوقت الحاضر ، فقد عاش العراق ذا شخصية متميزة عما جاوره من البقاع حتى فى تلك الأوقات التى خضع فيها للدول المجاورة أو كان جزءا من أملاكها ، فقد كان فيه من خصائص المقومات الحضارية أنه بيئة صالحة لقيام الحضارات وإن لم تتسم بما اتسمت به البيئة المصرية من العزلة والحماية الطبيعية التى صانت أصولها وحفظت عليها مقوماتها وتمثلت الثقافات والأجناس النازحة إليها فقد كان العراق أرضا مفتوحة لا تمنعها حواجز طبيعية تصون حضارته وتمنع عنه عدوان القبائل الرعوية على حدوده الشمالية والشرقية ولم يكن لحضارته صفة البقاء والاستمرار التى اتسمت بها الحضارة المصرية القديمة ، فلم تكن وحدة الحضارة أو استمرارها وبقائها قوام كيانه القومى ولكن كانت بيئته التى جذبت الأجناس والأديان والطبائع فى بقعة واحدة يعتزون بها ويتعصبون لها رغم تباينهم وخلافاتهم الداخلية ، فالعراق وإن لم يكن وحدة جغرافية متميزة فهو امتداد لشبه جزيرة العرب وهو جزء من إقليم الهلال الخصيب ذلك الإسم الذى أطلقه الدكتور برستد على وادى الرافدين وسوريا وفلسطين وشرق الأردن ، إلا أنه فى ذاته بيئة متماسكة متميزة تستطيع أن



الانتداب البريطانى والفرنسى فى الشام والعراق

مناطق الانتداب البريطانى : العراق - فلسطين - شرق الأردن — . — . — . — الحدود

مناطق الانتداب الفرنسى : سوريا - لبنان — خطوط حديدية

تفرض طبائعها ومقوماتها على سكانها . وقد عاش العراق طوال عصور تاريخه المديد فى ظلال هذا التماسك القومى وتميز سكانه بهذا الطابع الفريد الذى هو خليط من طبائع الشعوب الرعوية وسكان الحضر والذى يتباين كثيرا وطبائع الشعوب المجاورة ، واحتفظ العراقيون بهذا الطابع المتميز حتى عندما امتدت موجة الفتوح الإسلامية فربطت المسلمين بتلك الوحدة الدينية التى عمرت قرابة ثلاثة عشر قرنا فظل العراقيون غير جيرانهم الشآميين أو الفرس وظل هذا التباين قائما حتى الوقت الحاضر .

ودخل العراق فى حوزة العثمانيين كغيره من بلاد المشرق ومصر إبان امتداد فتوحهم إلى الشرق وظل إيالة عثمانية حتى احتلته القوات البريطانية وطردت منه الأتراك فى الحرب الأولى فبدأ بهذا الحدث أولى صفحات تاريخه الحديث . واتسم الحكم العثمانى فى العراق بما اتسم به فى ولاياتها الأخرى وكان أشبه ما يكون به فى مصر فسرعان ما ضعف سلطان الدولة على ولاياتها البعيدة حتى جرى فى العراق ما جرى فى مصر فاستقل به ولاته لفترات متفاوتة وأقام فيه المماليك حكما يكاد يكون مستقلا من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٨٣١ حين استردت الدولة سيطرتها عليه .

وبقى العراق يعيش فى ظلام العصور الوسطى حتى تولى إيالته مدحت باشا عام ١٨٦٩ فانصرف إلى نشر التعليم وإقرار الأمن والعدل فى البلاد وبث الروح الدستورية بين أبنائه ولكن حكمه لم يطل وسرعان ما عاد الحكم إلى طريقته الأولى بعد عزل مدحت ثم كان الانقلاب الذى قام به الإتحاديون عام ١٩٠٨ فبدأت بوادر الوعى القومى تمتد إليه من سوريا ، ولما ظهر تعصب الاتحاديين العنصرى للأتراك ، أخذ الوعى القومى فى البلاد العربية يتجه إتجاها عربيا إسلاميا ونشطت الحركات السرية لتحقيق هذا الهدف وكانت جمعية العهد التى أسسها عزيز على المصرى أوفى الجمعيات السرية نشاطاً فى العراق فإن جل أعضائها كانوا من الضباط العرب فى الجيش العثمانى وكانت غالبيتهم من العراقيين ، ومن أعضاء جمعية العهد من حملوا لواء النهضة فى العراق فى عهده الجديد وكان هذا الوعى القومى الناشىء الصخرة التى تحطم عليها الإنتداب البريطانى .

ويرجع الاهتمام البريطانى بالعراق إلى بداية تيقظ بريطانيا لخطر الطريق البرى إلى الهند والشرق البعيد ولكنها لم تلق بالا إلى داخلية البلاد واكتفت بالإشراف

على رأس الخليج الفارسي . فقد كانت سياستها حيال الدولة العثمانية تحول دون ذلك وكانت سلامة هذا الحاجز العثمانى ووقوفه سداً منيعاً دون من تسول له نفسه اقتحام طريق الهند البرى تقع فى الاعتبار الأول من استراتيجيتها الامبراطورية ولم يكن يثير خوفها فى هذه الجهات غير تقدم روسيا فى بقاع وسط آسيا وتهديدهم الهند عن طريق أفغانستان وبلوخستان فضمت بلوخستان إليها وأحكمت نفوذها فى أفغانستان وظلت آمنة على سلامة هذا الطريق البرى مادامت تكفل سلامة كيان الدولة العثمانية حتى قام نابليون بحملته على مصر تمهيداً لاقتحام هذا الطريق إلى الهند وشغلت بريطانيا بهذا الخطر البادى فلم تهدأ حتى أجلت الفرنسين عن مصر وأمنت هذا الطريق من جديد ، ولكنها أدخلت فى اعتبارها هذا الخطر وإمكان عودته سواء من ناحية فرنسا أو غيرها فأقامت قواعد سياستها فى الشرق الأوسط على أساس إبعاد أية قوة كبرى يمكنها أن تهدد سلامة طرق الاقتراب البرية إلى الهند أو تدنو منها واتخذت لهذا سبيل المحافظة على سلامة الدول العثمانية حتى أنها حذرت محمد على عندما قام بحملته على الشام من محاولة السيطرة على العراق والاقتراب من بغداد والخليج الفارسي .

ولم يكن الاهتمام البريطانى بالعراق حتى ذلك الوقت ليتعدى الاهتمام بتجارتها وترويجها ، وحملت شركة الهند الشرقية لواء التجارة البريطانية فى الهند والأماكن المجاورة وقضت على نشاط البرتغاليين والفرنسيين فيها ، وأسست أول محط تجارى لها فى الهند عام ١٦١٢ فى سورات ، وماوافى عام ١٦١٦ حتى أصبح لها ثلاثة مراكز أخرى فى أجميرا وأجرا وبرهابور ، وعقدت اتفاقا مع شاه فارس عام ١٦٢٢ خول لها حق حماية التجارة فى الخليج الفارسي ، فأخذت تقيم الحصون والمعاقل ومنحها الملك شارل الثانى حق إعلان الحرب وشن الغارات على من يقف فى طريق مصالحها أو يحول دون نفوذها إلى الأماكن التى تتطلع إليها وسرعان ما تحولت شركة الهند الشرقية إلى أداة سياسية وأخذت الحكومة البريطانية تشرف على أعمالها فاتسعت وزاد نفوذها وأصبحت لها مراكز تجارية ثابتة فى البصرة وبندر عباس وبوشير ثم فى بغداد ، وشغل وكلاؤها مراكز القناصلة والممثلين لبلادهم فيها ونالت الشركات الإنجليزية امتياز مد خطوط برقية فى العراق ، كما أوفدت الحكومة

البريطانية بعثة لدراسة الملاحة فى الفرات عام ١٨٣٦ فقد كان طريق الفرات أيسر الطرق وأقربها إلى الهند فنى استطاعة السفن إذ ثبتت صلاحية الفرات للملاحة أن تعبر الخليج الفارسى إلى شط العرب فالفرات ومنه تنقل إلى البحر الأبيض المتوسط ولكن المشاق التى صادفتها البعثة فى اجتياز الفرات حالت دون نجاح المشروع ، ولما تقدم السلطان فى مناسبة أخرى بمنح امتياز خط حديدى من الخليج الفارسى عبر العراق وسوريا إلى البحر الأبيض أثار هذا الامتياز اهتمام الدوائر المالية والتجارية فى انجلترا ، ولكنه لم ينل موافقة مجلس العموم ، فإن اهتمامهم بالطريق البرى ما كان يعدو اهتمامهم بتأمينه وإبعاد أى خطر عنه ولم يدر فى أذهانهم أن يكون طريقهم الرئيسى للتجارة .

ولم يدر فى خلد الإنجليز حتى ذلك الوقت فكرة احتلال العراق أو امتلاكه حتى أخذت المانيا فى أخريات القرن التاسع عشر تتجه نحو الشرق وتشرع فى مد خط حديد بغداد وتحاول أن تصل إلى الخليج الفارسى فيعاودهم القلق من جديد على سلامة طريق الهند البرى ويهتمون بحماية قواعد الخليج الفارسى ويحولون دون امتداد خط حديد بغداد إليه وتزداد أهمية البصرة وبغداد عندهم حتى أن كيرزون كتب عام ١٨٦٢ يقول « تدخل بغداد بصورة غير مباشرة ضمن قواعد الخليج الفارسى ، ويجب أن تضم إلى منطقة النفوذ البريطانى المطلق » ثم يعود فيصرح أمام مجلس اللوردات عام ١٩١١ بما يأتى « من الخطأ أن يظن أن مصالحنا السياسية تنحصر فى الخليج الفارسى أو فيما بين البصرة وبغداد فحسب , بل إنها تمتد حتى بغداد ذاتها » .

ودخلت البصرة وبغداد بعد ذلك فى نطاق الاستراتيجية البريطانية ، ورتبت الحكومة الإنجليزية فى الهند احتلال البصرة وتأمينها والتقدم إلى بغداد إذا ما قامت الحرب أو لاح خطرها وعندما أبرم اتفاق سيكس ـ بيكو السرى لم تحاول بريطانيا أن تكسب لنفسها من مناطق النفوذ المطلق فى العراق لأبعد مما تقع بغداد ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها امتدت آمالها إلى أبعد من ذلك وعملت على بسط نفوذها على العراق كله ، وساومت فرنسا فى ضم منطقة الموصل فقد تقدمت وسائل المواصلات البرية وتقدم الطيران تقدما يبشر بما سيكون له من مستقبل فى عالم المواصلات

والعراق بموقعه يتوسط شبكة المواصلات البرية والجويه بين الشرق والغرب ، ثم ظهر عامل آخر كان له أعظم نصيب فى اهتمام بريطانيا بالعراق وهو البترول ، فقد عظمت أهمية البترول بعد الحرب من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية فهو مورد لاستثمار رءوس الأموال الإنجليزية وهو عصب الحرب الحديثة ، وكانت الأبحاث الجيولوجية قد دلت على عظم ما تخبئه أرض العراق من هذه المادة ونزلت إليها رءوس الأموال الأجنبية قبل الحرب وألفت شركة البترول التركية لاستثمار بترول الجزيرة وساهم فيها رأس المال البريطانى بنصيب وافر ولكن بريطانيا اتجهت بعد الحرب إلى السيطرة على هذا المورد سيطرة تامة ولو من الناحية السياسية إذا لم تستطع أن تنفرد بالسيطرة الإقتصادية تبعاً للمنافسة القائمة بينها وبين فرنسا وأمريكا حول استغلاله وأصرت على على ضم منطقة الموصل إلى العراق ، كما أن الحاجز العثمانى الذى اعتمدت عليه بريطانيا فى حماية طريق الهند البرى فقد عوامل أمنه إثر تغلغل النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية وتسربه إليها وسيطرته على سياستها الخارجية فلم يكن أمام بريطانيا بعد انهيار الدولة العثمانية إلا أن ترثها فى أملاكها وتدعم نفوذها وسيطرتها على هذا الحاجز ، واستطاعت فى اتفاق سيكس – بيكو أن يقر لها الحلفاء بنفوذها على أهم القواعد الاستراتيجية فيه حتى إذا انتهت الحرب وعقد مؤتمر الصلح أخذت تساوم فرنسا على توسيع منطقة نفوذها وخرجت من مؤتمر سان ريمو بإقرار مجلس الحلفاء الأعلى لانتدابها على قطاع من الأرض يضم أهم القواعد الاستراتيجية وعقد المواصلات البرية والجوية وطرق الإقتراب الرئيسية والموانىء الهامة ويمتد من الخليج الفارسى وأرض الجزيرة إلى البحر الأبيض المتوسط .

ولم يرض العراقيون بالانتداب من أول الأمر فقد انتشرت مبادىء الثورة العربية بينهم وتشربوا أصولها ولوح لهم الإنجليز طوال مدة الحرب بالحرية الموعودة والمجد المنتظر وبشروا باتفاقهم مع الملك حسين وتحالفهم معه لإقامة الدولة العربية الموحدة المستقلة ، هذا فضلا عما كان يثور فى العراق من بوادر الوعى القومى الذى انتقل إليه من الشام ومصر وأخذ يشتد وينتشر على يد رجال العهد ، فلما تم فتح العراق وطرد الأتراك منه انتظر العراقيون أن يفى الإنجليز بوعودهم وصبروا -

على الحكم العسكرى الذى أقاموه فى بلادهم نزولا على ظروف الحرب حتى إذا وقعت الهدنة وهرع الحلفاء إلى مؤتمر الصلح وجد العرب فى أروقته من أنكار لحقوقهم مارجح عندهم اليقين على الشك فى أن الحلفاء يبيتون لهم شراً فبدأت روح التذمر تسرى فى نفوسهم ولم يعد فى قوس الصبر منزع عندما أعلنت قرارات مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو بفرض الانتداب البريطانى على العراق فهبوا فى ثورة جارفة بعد إعلان قرارات الانتداب ببضعة أسابيع ، بلغت من العنف حداً أن كبدت الإنجليز كثيراً من الخسائر فى الأنفس والأموال ما جعلهم يفكرون فى تعديل سياستهم فى العراق بإشراك العراقيين فى تقرير مستقبلهم بشكل لايتنافى ورعاية مصالحهم الامبراطورية وقام سير برسى كوكس ، وكان أول من نادى بتعديل السياسة البريطانية فى العراق ، بتأليف حكومة مؤقتة تسير أموره ، تحت إشراف مستشارين من الإنجليز حتى يتقرر شكل الحكم النهائى بمعرفة العراقيين أنفسهم ، وعقد مؤتمر القاهرة فى ١٢ مارس سنة ١٩٢١ برئاسة تشرشل وهو المؤتمر الذى دعت إلى عقده وزارة المستعمرات لدراسة الحالة فى البلاد العربية وخفض النفقات التى تتحملها الخزانة البريطانية من أجلها ووضع الخطوط الرئيسية لسياسة بريطانيا المقبلة فيها ودعى إليه فضلا عن رجال الحكم البريطانى فى العراق جعفر العسكرى وزير الدفاع وساسون خزقيل وزير المالية فى الحكومة المؤقتة ، ورأى المؤتمر فيما يخص العراق بحث :

١ — علاقات الدولة الجديدة ببريطانيا العظمى فى المستقبل .

٢ — لون الحكم فى العراق والمرشح لحكمه .

٣ — نوع وشكل القوات العسكرية التى ستقع عليها مسئوليات الدفاع فى الدولة الجديدة .

٤ — حالة الأقليات فى العراق وخاصة الأكراد وعلاقتهم بالدولة الجديدة .

واستقر الرأى فى مؤتمر القاهرة على ترشيح فيصل لملك العراق بعد أن اطمأن الإنجليز على رعاية مصالحهم وخفض النفقات البريطانية فيه ووقف تشرشل بعد عودته من الشرق فى مجلس العموم ينوه بنجاح مؤتمر القاهرة فيما عقد له ، ويشير إلى ترشيح فيصل لعرش العراق وتأييدهم له وحرية العراقيين فى اختياره

والواقع أن ترشيح فيصل لعرش العراق وإن أيدته بريطانيا تأييداً يقرب من الإلزام إلا أنه صادف هوى فى نفوس العراقيين فما زال فيصل يمثل نضوج الوعى السليم للقومية العربية ومهد له السبيل أصدقاؤه البريطانيون وأنصاره الكثيرون من العرب ففاز بتأييد العراقيين لترشيحه ونودى به ملكاً دستورياً على العراق فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ وخرجت إلى الوجود مملكة العراق الجديدة وكان خروجها من أعظم النتائج الذى تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأوسط .

ولم يكن العبء الجديد الذى حمله الملك فيصل بولاية ملك العراق سهلا أو هيناً فقد كان حملا ثقيلا ، وكأنما قدر لهذا الرجل منذ فجر شبابه أن يحمل فوق كتفيه الرقيقتين كل هذه الأحداث الجسام من رعاية الثورة العربية والدفاع عن مطالب العرب فى مؤتمر الصلح وأخيرا مسئوليته التاريخية عن بناء الوطن العراقى ليلحق قافلة الزمن وقد تخلف عنها بأشواط بعيدة فيسير فى ركابها والغاية صعبة والأمل بعيد ، واستطاع فيصل أن يقود وطنه الجديد سالما وسط ما كان مقدراً أن يلاقيه من عقبات ومصاعب إلى الغاية المرجاة والهدف المأمول ويقول مؤلف يقظة العرب « إن الدين الذى فى عنق العراق للملك الأول لا يقدر بثمن فقد أهلته مواهبه وتجاربه ليقوم بدور حاسم فى علاج أشد مشاكله صعوبة ، وأجمع العارفون على أن الدولة العراقية الجديدة ما كان ليتم بناؤها لولا تأثيره الشخصى ، فإن جهوده لم تكن قاصرة على توجيه الأمور وقيادتها بل قام بدور هام فى أعمال الدولة الجديدة والتى كان محوراً لها بحكم مركزه ولم ينس قط رغم انهماكه فى حل المشاكل العاجلة ، الأهداف البعيدة للحركة العربية والدور الذى يقوم به العراق لتحقيقها كمثل تحتذيه الدول العربية التى تحت الانتداب ، وقد سبقها جميعاً إلى الهدف المشترك » .

وكانت المشاكل التى على فيصل أن يواجهها كثيرة وشائكة وتتطلب لحلها طرازاً من الرجال لا يوجد فى كل وقت ، فالعراق دولة ناشئة قريبة العهد من حياة العصور الوسطى فى حياتها وتقاليدها ونظمها وحكمها وعلاقاتها بالعالم الخارجى وكان عليه أن ينهض به ليسير فى ركب الحياة والحضارة الجديدة وفق الأنظمة الدستورية الحديثة ، والعراق بلد رغم تماسكه القومى وقلة عدد سكانه الذين يبلغون ٤٫٧٩٩٫٥٠٠ نسمة

كاحصاء عام ١٩٤٧ ، بالنسبة إلى مساحته التي تبلغ ١٤٣٢٥٠ ميلامربعاً الاأنه يعج بالشيع والطوائف والملل والنحل المختلفة والعشائر القوية التى تعتز بحميتها وعصبيتها القبلية فهناك الشيعة والسنة وهم غالبية قاطنيه من المسلمين وهناك الأقلية المسيحية من ست طوائف مختلفة واليهود الذين يبلغون ثمانين ألفاً أو تزيد ، ثم هناك العرب والأكراد والأشوريون والجاليات التركية والفارسية ، فنشأ عن وجود هذه الطوائف المختلفة والقبائل القويه بعض المشاكل ذات الطابع السياسى والإدارى التى عاقت العمل الإنشائى وكادت تعطله فقد درجت العشائر على الإعتزاز بعصبيتها ونفوذها واستقلالها فلم تستجب إلى أوامر الحكومة وتعاليمها وكثيراً ماوقع الصدام المسلح بينها وبين ممثلى الحكومة وكان ولاء الشيعة لأئمتها فى النجف وكربلاء أكثر مما هو لحكومة بغداد التى يغلب عليها الطابع السنى ، أما الأكراد فإنهم يتجهون بعواطفهم وميولهم إلى إخوانهم المقيمين فى تركيا وفارس ويتطلعون إلى الاتحاد معهم وقد اشتد وعيهم القومى فى أعقاب الحرب فلم يكن من السهل أن يدينوا بالولاء للقومية العراقية وبقى الأشوريون قذى فى عين الحكومة العراقية فهم طائفة قوية محاربة نزحت إلى العراق خلال الحرب فرارا من الترك وتبنتهم السلطة العسكرية البريطانية فانطووا على أنفسهم واعتزوا بانتمائهم إلى دولة الانتداب فتركوا فى نفوس العراقيين أثرا مريرا دفع الأشوريين إلى التمسك بعزلتهم والاعتماد على قوتهم الحربية فى دفع العدوان عن أنفسهم ثم كان على فيصل أن يواجه المشكلة الكبرى مشكلة إقرار العلائق بين العراق وبريطانيا بما يرضى كبرياء قومه وبعثهم الجديد ولا يغضب بريطانيا وبرهن فيصل فى تناوله لهذه المشكلة على براعة سياسية كانت خير معوان له على السير بسفينة بلاده إلى بر النجاة ، وكانت هـذه المشكلة أول ماواجه فيصل بعد ارتقائه العرش فبريطانيا حريصة على إقرار اتفاق يضمن لها كل مامنحها الانتداب من حقوق والإشراف على شئون الدولة فى كافة نواحيها والعراقيون لايرضون التسليم لها بهذه المطالب الجائرة ولا يعترفون بأى حق لها فى بلادهم ، وبدأت المفاوضات بين الفريقين للوصول إلى نتيجة تخفف من شدة التوتر الذى يثور فى نفوس العراقيين وتقدمت بريطانيا بمشروع للمعاهدة التى يجب أن تبرم بين الطرفين ولما يمض على تتويج فيصل بضعة أيام واستندت فى ذلك إلى حق الفتح وإن لم تشر إليه صراحة فقد أشارت إلى دخولها العراق باسم

الحلفاء ، كما استندت إلى تنازل تركيا عن أملاكها ومن بينها العراق إلى دول الحلفاء ثم إلى حق الانتداب الذى فوضها إياه مجلس الحلفاء الأعلى بموافقة عصبة الأمم وقدمت لها بديباجة فى خمس فقرات تناولت وجهة النظر البريطانية لإبرام معاهدة تحدد علاقتها بالعراق هى :

(ا) لما كانت تركيا قد تنازلت عن جميع الحقوق والملكية التى لها فى العراق إلى دول الحلفاء الرئيسية .

(ب) ولما كانت دول الحلفاء الرئيسية التى تنازلت تركيا لها عن حقوقها فى العراق قد اتفقت على تنفيذ الفقرة «٤» من المادة «٢٢» من ميثاق عصبة الأمم فيما يخص الاعتراف بالعراق كدولة مستقلة تحت انتداب دولة تقدم لها المشورة الإدارية والمساعدة التى تحتاجها حتى تتمكن من الوقوف بمفردها .

(حـ) ولما كان مجلس الحلفاء الأعلى قد اختار للانتداب على العراق جلالة ملك بريطانيا العظمى .

(د) ولما كان جلالة ملك بريطانيا قد اختار الأمير فيصل ملكا على دولة العراق .

(هـ) ولما كان من الضرورى تحديد العلاقة بين صاحبى الجلالة الملك فيصل والملك جورج الخامس فى صورة معاهدة توافق عليها عصبة الأمم . فلهذا السبب عين الطرفان الساميان وكيلين مفوضين عنهما . الخ .

أما أسس المعاهدة التى وردت فى المشروع البريطانى فهى :

١ — تأييد الاعتراف بالملك فيصل .

٢ — تقديم المشورة والمساعدة وتعيين الضباط والموظفين البريطانيين والأجانب.

٣ — تمثيل بريطانيا فى العراق بمندوب سام وعدد كاف من المستشارين الإنجليز وأن يكون من حق المندوب السامى الإطلاع على سير شئون الإدارة بالتفصيل وبصورة دائمة .

٤ — وضع قانون أساسى باستشارة المندوب السامى يضمن تنفيذ المادة « ٨ — ١١ » من صك الانتداب .

٥ — العهد بإدارة شئون العراق الخارجية إلى الحكومة البريطانية ومنحها حق إعطاء البراءات إلى القناصل الأجانب فى العراق وتقديم الحماية السياسية والقنصلية إلى العراقيين فى خارج العراق .

٦ — الاحتفاظ بقوات بريطانية مسلحة للدفاع الخارجى وتأييد الأمن فى الداخل ، واستخدام الطرق والخطوط الحديدية والموانىء لحركات هذه القوات ونقل الوقود والذخيرة .

٧ — قيد العراق بالمشورة البريطانية فيما يختص بقوة وتوزيع وتجهيز القوات العراقية مادامت هناك حاجة إلى المساعدة البريطانية فى حفظ الأمن فى الداخل ورد الاعتداء من الخارج .

٨ — عدم التنازل عن شىء من أراضى العراق أو تأجيرها إلى أية دولة أجنبية كانت أو وضعها تحت إدارة دولة أجنبية بأية صورة كانت .

٩ — قبول وتنفيذ الشروط التى تنسبها حكومة صاحب الجلالة البريطانية لتأمين مصالح الأجانب على أثر إلغاء الامتيازات .

١٠ — الموافقة على ماتتخذه حكومة صاحب الجلالة البريطانية من الترتيبات لتأمين نفاذ أى من المعاهدات والإتفاقات التى تعهدت بتنفيذها وذلك فيما يختص بالعراق .

١١ — إعطاء الحرية التامة للتبشير

١٢ — اشتراك العراق ، بقدرماتسمح به الظروف الاجتماعية والدينية وغيرها ، فى تنفيذ أية سياسة عامة تتخذ من قبل عصبة الأمم لمنع مقاومة الأمراض ومن جملتها أمراض الحيوان والنبات .

١٣ — سن قانون للعاديات الأثرية خلال سنة من تاريخ تنفيذ المعاهدة يقوم مقام القانون العثمانى وفق الفقرة ٢١ من المادة ١٣ من معاهدة الصلح مع تركيا .

١٤ — عقد اتفاقية تنص على الشروط التى بموجبها يتسلم العراق من الحكومة

البريطانية الأشغال العامة والخدمات ذات الصبغة الدائمة ، وتقديم هذه الاتفاقية إلى عصبة الأمم .

١٥ — قيد العراق فى كل ما يختص بالمسائل المتعلقة بفرض الضرائب والواردات والنفقات العامة ، بمشورة المندوب السامى، مادامت الحكومة البريطانية تتحمل أى نفقات كانت فى العراق .

١٦ — مراجعة شروط هـذه المعاهدة من حين لآخر بقصد إعادة النظر فيما تحتاجه من تعديل تبعاً لظروفها الراهنة .

ونلاحظ فى مشروع هذه المعاهدة أنه لايختلف فى خطوطه الرئيسية عن مشروع لجنة ملنر الذى تقدمت به كأساس لإبرام اتفاق بينها وبين بريطانيا وغيره من المشروعات الأخرى التى تقدمت بها فيما بعد مع اختلاف الوضع الدولى لكل من مصر والعراق فالعراق دولة تحت الانتداب ومصر دولة تحت الحماية ، ولم يغير من وضع الدولتين إلا ثورتهما الجامحة ضد بريطانيا ونزولها على مجاراة الوعى القومى فيهما ذلك الوعى القومى الذى ظهرت عرامته فى البلاد الشرقية فى أعقاب الحرب وجاءت المشروعات الجديدة التى تقدمت بها بريطانيا لمعاهدات التحالف الثنائى حاوية لكل الامتيازات القديمة التى تصون مصالح بريطانيا فى مناطق نفوذها فى ألفاظ وإن دلت فى معناها على زوال كل ما من شأنه أن يثير نعرة القومية فى تلك المناطق إلا أنها فى حقيقتها تضمنت كل أنواع الحماية للمصالح البريطانية سياسية كانت أو استراتيجية أو اقتصادية وهى الأسس التى يقوم عليها الاستعمار البريطانى الحديث .

وتقريرا لهذه الحقيقة نقول أن بريطانيا قد اعترفت صراحة فى ردها الأول على الجانب العراقى بشأن إلغاء الانتداب بقولها « إن الحكومة البريطانية قد تحقق لديها كره الانتداب كرها عظيما فى العراق ، ولذلك أهملت ذكره بقدر الإمكان وأسقطت من المعاهدة كل إشارة إليه » . ثم فى ردها الثانى بقولها فى البند (٤) منه « أنها أهملت ذكر الانتداب فى المعاهدة لكنها لاتستطيع التصريح بإلغائه ، لما فى ذلك من صعوبات دولية جمة ، فإلغاء الانتداب يعيد العراق إلى حكم أراضى العدو المحتلة » وبقولها مرة

ثانية فى البند (٥) منه « أن بريطانيا مقتنعة بكره الانتداب فى العراق ولذلك فإن المعاهدة سوف لاتتضمن أية إشارة إليه » .

وكان إصرار الشعب العراقى على رفض الانتداب فى أية صورة من صوره كإصرار فيصل على رفضه وبدا أن هذه العقبة هى التى تحول دون إبرام المعاهدة بين الدولتين، وأمكن تذليلها باحتفاظ الحكومة العراقية بحقها فى المطالبة « فى كل زمان ومكان برفع الانتداب وعدم الاعتراف به من قبلها وهذا طبعاً لايمس المعاهدة » ووافقت الحكومة البريطانية على هذا التحفظ فوقعت المعاهدة فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ .

وألحق بالمعاهدة بروتوكول تم التوقيع عليه فى ٣٠ ابريل سنة ١٩٢٣ بتعديل المادة ١٨ الخاصة بمدة سريان المعاهدة فإن الرأى العام البريطانى كان يصر على الجلاء عن العراق تخفيفاً للنفقات البريطانية فى الشرق الأوسط واستغل هذا الاتجاه فى الانتخابات البريطانية فى ذلك الوقت ورأت حكومة المحافظين التى وليت الحكم أن تبحث هذا الأمر ولكنها ما كانت تتغاضى عن حقيقة المصالح الامبراطورية وإن اضطرت استجابة للرأى العام إلى تقصير أجل سريان المعاهدة من عشرين عاما كما نصت المعاهدة إلى أربعة أعوام ، ولكنها عادت بعد الموافقة عليها فى المجلس التأسيسى تطالب بمد أجلها إلى خمس وعشرين سنة ، كما ألحق بها أيضاً أربع اتفاقيات لتنظم ما أشارت اليه المواد الثانية والسابعة والتاسعة والخامسة عشرة ، الأولى تتعلق بكيفية استخدام الموظفين البريطانيين فى الحكومة العراقية وتتناول الثانية المساعدات العسكرية والتعاون الحربى بين البلدين إما الثالثة فإنها تدور حول تنظيم الشئون القضائية للأجانب بعد إلغاء الامتيازات وقد وكل أمر الفصل فيها للقضاة البريطانيين وتنظم الرابعة شئون العراق المالية والمشورة البريطانية التى يجب أن تأخذ بها الحكومة العراقية فى إعداد ميزانيتها . ولم تكن هذه الاتفاقيات الأربع غير أغلال قيدت بها بريطانيا استقلال العراق ووافق المجلس التأسيسى الذى انتخب لوضع قانون أساسى للبلاد على المعاهدة فى ٢٧ مارس سنة ١٩٢٤ رغم ذلك إذ لجأ المندوب السامى البريطانى إلى الضغط على الملك فيصل لحمل النواب على الموافقة عليها فى جلسة غير عادية عقدت فى ساعة متأخرة من

الليل بعد أن هدد بحل المجلس ، ووافق أكثر النواب مرغمين على أمل استئناف المفاوضات لتعديلها فيما بعد بما يتفق وأمال العراقيين فى الاستقلال . ثم وافق مجلس عصبة الأمم على المعاهدة والبرتوكول والاتفاقيات الملحقة بها عقب أن رفعت إليه مباشرة فى نفس السنة .

وأصبحت هذه المعاهدة هى الأساس الثابت للعلاقات البريطانية العراقية ولم تكن المعاهدات التى أبرمت فيما بعد إلا تعديلا دعت إليه الضرورة وظروف الموقف الدولى والعلاقات السائدة بين الدولتين . ولعب فيصل دوره الرئيسى فى تقرير العلاقات بين دولته الناشئة وبريطانيا فى براعة سياسية لم توجد إلا فى نفر قلائل من ساسة الشرق فإن عقليته المرنة وتجاربه العديدة من اتصاله بساسة العالم مكنته من موازنة التيارات السياسية فى داخل بلده وتيارات السياسة الخارجية لبريطانيا وساعده على بلوغ هذه الغاية إيمان الرأى العام البريطانى بأن العراق ليس جنة المستعمر وأنه مبعث القلق والمتاعب فأخذت الحكومة البريطانية تظهر حرصها على ضمان الاستقرار والأمن فيه وتنزل بصفة مستمرة عن كل ما قيدت به العراق من قيود تحد من استقلاله مع ضمان مصالحها الحيوية على أساس التحالف المتكافىء بينهما ، كما لعب اتفاق المصالح بين الدولتين دورا أساسيا فى تكوين الوحدة القومية والجغرافية للعراق ودعم عوامل الأمن والاستقرار فى ربوعه وعلى حدوده فإن تطلع بريطانيا إلى بترول الموصل حملها على المطالبة بضم هذه المنطقة إلى الوطن العراقى وبفضل إصرارها ومساعيها السياسية ضُمت الموصل إلى العراق فاكتملت وحدته الجغرافية ، ثم كان لاهتمامها باستقرار الأمن الداخلى فى العراق ما ساعد على علاج مشاكل الأقليات وخاصة مشكلة الأكراد فشاركت فى تأمين كيانه القومى ، وما كان التقرب الذى تم بين الملك فيصل والملك عبد العزيز آل سعود وتسوية الحدود بين دولتيهما وقيام علاقات ودية بين الحكومتين العراقية والسعودية إلا بفضل مساعيها التى دفعها اليها حرصها الحقيقى على تأمين مصالحها فى مناطق نفوذها .

ولم يرض الشعب العراقى بهذه المعاهدة التى فرضت عليه فرضاً وحمل المجلس

التأسيسى على الموافقة عليها وبقى الشعور الوطنى متحفزاً ثائراً لا يقبل أى لون من ألوان النفوذ الأجنبى فكان خير معوان لساسة العراق فى حمل بريطانيا على التسليم بحقوق الشعب العراقى والنزول على أمانيه الوطنية وإن ظلت حريصة على تأمين مصالحها الحيوية فى العراق ، ولعب فيصل دوره الرائع فى إقناع الحكومة البريطانية بتحقيق أمانى بلده ملوحا لها بحرج موقفه أمام شعبه لما يعرفه عن علاقته بالإنجليز وساستهم وكان لصداقته بهم وتقديرهم له ما ذلل كثيراً من الصعاب فى وجه المفاوض العراقى كما كان لحب شعبه له ما جعله يستجيب لنصحه وينزل على رغبته .

ومرت العلاقات البريطانية العراقية بعد إبرام المعاهدة الأولى فى ثلاث مراحل أخرى ، انتهت المرحلة الأولى منها بابرام المعاهد البريطانية العراقية الثانية لتعديل مانص عليه البروتوكول الملحق بالمعاهدة الأولى خاصاً بانتهاء العمل بها عند قبول العراق عضوا فى عصبة الأمم على أن لا يتجاوز ذلك أربع سنوات من تاريخ إبرام الصلح مع تركيا ، فان حكومة المحافظين حين تقدمت فى هذا البروتوكول بتعديل أجل سريانها من عشرين سنة إلى أربع سنوات كانت تهدف إلى ارضاء الرأى العام البريطانى الذى هالته فداحة النفقات البريطانية فى العراق فأخذ يطالب بالجلاء عنه ، ولكنها ما كانت تغفل المصالح الحيوية للامبراطورية فما أن انتهى النزاع بين بريطانيا وتركيا حول تبعية الموصل وجاء قرار عصبة الأمم مؤيدا لضم الموصل إلى العراق على أن يمد أجل الانتداب على العراق إلى خمس وعشرين سنة ، حتى رأت الحكومة البريطانية فى قرار عصبة الأمم ما يخولها تعديل مانص عليه البروتوكول باتفاق جديد .

وتقدمت الحكومة البريطانية بنصوص المعاهدة الجديدة ، على أنها جاءت وقد أجملت فى هذا التعديل الاتفاقيات الملحقة بالمعاهدة الأولى ، ولم يرض العراقيون أن يشملها امتداد أجل الانتداب فأنها تخص العلاقات القائمة بين بريطانيا والعراق ولا دخل للانتداب أو لعصبة الأمم فيها . وهدد المعتمد البريطانى فى العراق بالتنازل عن الموصل لتركيا إن لم يقبل العراق الاتفاق الجديد وكان غريباً أن يلجأ المعتمد البريطانى إلى هذا التهديد وهو يعرف أهمية الموصل لبريطانيا وإلحاحها فى

فى ضمها إلى العراق لتكون تحت نفوذها المباشر، وأثمر هذا التهديد ثمرته المطلوبة فوافق المجلس النيابى على المعاهدة فى ٢١ يناير سنة ١٩٢٦، كما وضعتها الحكومة البريطانية إلا أنها نصت فى مادتها الثالثة، إرضاء للعراق على «أن ينظر بجد ونشاط فى المسألتين الآتيتين عند حلول الوقت الذى كان ينبغى أن تنتهى فيه معاهدة اليوم العاشر من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٢، بموجب بروتوكول اليوم الثلاثين من شهر نيسان سنة ١٩٢٣، ثم بعد ذلك فى فترات متتابعة، مدة كل منها أربع سنوات إلى أن تنقضى مدة الخمس وعشرين سنة المذكورة فى هذه المعاهدة، أو إلى أن يدخل العراق فى جمعية الأمم:

١ — هل فى استطاعته الإلحاح فى إدخال العراق فى جمعية الأمم؟

٢ — إن لم يكن فى استطاعته ذلك ففى مسألة تعديل الاتفاقيات المبحوث عنها فى المادة الثامنة عشرة من معاهدة اليوم العاشر من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٢. بناء على التقدم الذى بلغته مملكة العراق، أو بناء على أى سبب آخر».

فما أن أبرمت هذه المعاهدة حتى شرعت الحكومة العراقية فى بحث الأسس التى يمكن أن يقوم عليها الإتفاق الجديد بين العراق وبريطانيا وتعديل الإتفاقيات الملحقة بما يتمشى مع استقلال البلاد المنشود وأعربت عن رغبتها فى عقد معاهدة جديدة تحل محل معاهدة عام ١٩٢٢ المعدلة بمعاهدة عام ١٩٢٦ على أن يتناول تعديلها ما يضمن تقدم العراق نحو الاستقلال «وأن تبدأ لتحقيق هذا الهدف بتعديل الإتفاقيتين المالية والعسكرية تعديلا صحيحا يتناول الأسس والمبادىء لا القشور والمظاهر»، وبدأت المفاوضات بين الطرفين ورأت الحكومة البريطانية أن الوقت غير مناسب لإجراء أى تعديل يتناول العلاقات البريطانية العراقية فإن فى ذلك ما يثير نفوس الترك وأعضاء عصبة الأمم حول سلامة وضع الموصل تحت الإنتداب كما أنها تنصح بتأجيل دخول العراق عصبة الأمم حتى تزول العوائق الداخلية والخارجية، وتعثرت المفاوضات ثم انتقلت من بغداد إلى لندن لتتعثر من جديد حتى يقيل عثرتها الملك فيصل فتبدأ من جديد بعد أن مهد لها وأقنع رجال الحكومة البريطانية

بوجاهة مطالب شعبه وإن قطع المفاوضات يحرج مركزه أمامه ورأت الحكومة البريطانية فى إلحاح العراق فرصة لإبرام معاهدة جديدة تقوم على الأسس القديمة للمعاهدتين السابقتين وتمتاز عليهما بأنها لا تقوم على الضغط والإكراه بل على رضاء العراقيين وتأييدهم .

ووقعت المعاهدة البريطانية العراقية فى ظل هـذا الأمل البريطانى فى وزارة المستعمرات بلندن فى الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٩٢٧ وفى الثامن عشر وافق عليها مجلس الوزراء العراقى برئاسة جعفر العسكرى ولـكن الوزارة التى خلفتها برئاسة عبد المحسن السعدون لم تـكن تميل إلى إبرام هذه المعاهدة قبل تعديل الإتفاقيتين المالية والعسكرية الملحقتين بالمعاهدة الأولى والتى نصت المعاهدة الجديدة فى المادتين ١٢ و ١٣ على تعديلهما باتفاقيتين جديدتين ، وكان من رأى الحـكومة البريطانية إلا تنفذ المعاهدة إلا بعد تعديلهما حتى تبرم معهما فى وقت واحد .

وبدأت المفاوضات فى بغداد بين الوزارة السعدونية والمعتمد البريطانى يعاونه قائد قوات الاحتلال فى العراق ولـكنها تعقدت لتفاوت وجهات النظر بين الطرفين واستقالت وزارة السعدون فى ٢٩ يناير سنة ١٩٢٩ وبقيت البلاد من غير وزارة حتى عين « سير جلبرت كلايتون » مندوبا ساميا لبلاده فى العراق ، فتألفت وزارة توفيق السويدى ، وكان صديقا لـكلايتون منذ تعرف به فى مؤتمر جده ، وكان كلايتون خبيرا بالشئون العربية عطوفا على العرب محبا لهم منذ اتصل برجال الثورة العربية خلال الحرب وفى أعقابها فعمل على تهيئة جو جديد من الثقة والتفاؤل فى العراق ، وأعلن « أن السياسة البريطانية قد اتجهت اتجاها جديداً ، وإن بريطانيا العظمى عازمة عزما أكيدا على إنهاء انتدابها على العراق وتحديد علاقتها معه بمعاهدة تحالف تخرج إلى حيز التنفيذ بعد تحرر العراق من الانتداب وقبوله عضوا فى عصبة الأمم » .

واستؤنفت المفاوضات فى جو من التفاؤل والاستبشار ورأى المفاوض العراقى أن يصدر تصريح من جانب بريطانيا بتأييد قبول العراق عضوا فى عصبة الأمم تأييداً

خاليا من كل قيد أو شرط وعزز كلايتون هذا الطلب ورأت وزارة العمال الجديده أن تجيبه فأسرعت باتخاذ القرارات التالية :

(ا) إن الحكومة البريطانية مستعدة لتأييد ترشيح العراق للدخول فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ .

(ب) إن الحكوعة البريطانية ستقوم بإبلاغ مجلس عصبة الأمم فى اجتماعه المقبل أنها قررت إهمال الأخذ بمعاهدة سنة ١٩٢٧

(ج) إن الحكومة البريطانية ستبلغ مجلس عصبة الأمم فى اجتماعه المقبل أنها قررت ، وفقا للفقرة (ا) من المادة الثالثة من المعاهدة العراقية البريطانية لسنة ١٩٢٦ ، التوصية بدخول العراق عصبة الأمم عام ١٩٣٢ .

ومات كلايتون فجأة قبل أن يبلغ قرارات حكومته إلى الملك فيصل فقام نائبه بإبلاغها وأضاف إليها على لسان حكومته ما يلى :

« إن الحكومة البريطانية تأمل عقد معاهدة مع الحكومة العراقية قبل عام ١٩٣٢ تقوم فى الأغلب على أساس المقترحات الأخيرة لمشروع المعاهدة البريطانية المصرية وذلك لأجل تنظيم علاقات بريطانيا بالعراق ، بعد دخول العراق عصبة الأمم » .

ورأت وزارة السعدون التى خلفت وزارة السويدى أن تطبيق مشروع المعاهدة البريطانية المصرية لا يتفق مع وضع العراق الجغرافى الذى يختلف كثيراً عن وضع مصر الجغرافى فإن وجود قناة السويس فى مصر وأهميتها للمواصلات الإمبراطورية قد يتطلب وجود قوات بريطانية لحمايتها بينما أن المواصلات الإمبراطورية فى العراق لا تتركز فى غير الخليج الفارسى ولا تتطلب تلك الحماية ، ثم أن نعرة الوطنية فى العراق لا تدانيها أية نعرة وطنية فى الشرق ، ولهذا فما كادت المفاوضات تبدأ حتى تجهم جوها من جديد تجهما انتهى بانتحار عبد المحسن السعدون رئيس

الوزارة بعد أن رأى عنت السياسة البريطانية وتآمر مواطنيه عليه واتهامهم له بممالأة الإنجليز ، فشكل ناجى السويدى وزارته من أعضاء وزارة السعدون أنفسهم ولكنه لم يلبث طويلا حتى توترت العلاقات بينه وبين المعتمد البريطانى بسبب تعرضه للموظفين البريطانيين فى العراق والحد من سلطتهم ومحاولة خفض عددهم فاستقال ، وألف الوزارة الجديدة نورى السعد وعلى يديه أبرمت المعاهدة الرابعة والأخيرة بين بريطانيا والعراق .

وقد دارت المفاوضات حول ركنين أساسيين فى العلاقات البريطانية العراقية ، أولهما الاعتراف بتأمين وحماية المواصلات الجوية لصاحب الجلالة البريطانية بصورة دائمة وفى جميع الأحوال وثانيهما قبول العراق عضوا فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ ، وأبرمت المعاهدة فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٠ ، وأجريت انتخابات المجلس النيابى على أساس استفتاء الشعب فى المعاهدة الجديدة وكانت نصوصها قد نشرت على الرأى العام قبل ذلك ، وخاض نورى السعيد معركة الانتخابات بحزب جديد دعاه « حزب العهد العراقى » وفاز فيها بأكثرية ساحقة فلم تلق المعاهدة معارضة فى تأييدها ووافق عليها البرلمان بأغلبية ٦٩ صوتا ضد ١٣ وتغيب خمسة نواب .

وأهم ما نصت عليه المعاهدة بعد الديباجة التقليدية بالأسباب التى دعت إلى عقدها والاعتراف « بقواعد الحرية والمساواة التامة والاستقلال التام » فى إبرامها ، أن يسود دائما سلم وصداقة بين المتعاقدين ، ثم التعاون العسكرى فى حالة الحرب أو خطر حرب محدق على أن تكون « معونة صاحب الجلالة ملك العراق فى حالة حرب أو خطر حرب محدق ، ، تنحصر فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة البريطانية فى الأراضى العراقية جميع ما فى وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ، ومن ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانىء والمطارات ووسائل المواصلات » ولأجل تأمين وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية « يتعهد جلالة ملك العراق ، بأن يمنح صاحب الجلالة البريطانية طيلة مدة التحالف ، موقعين لقاعدتين جويتين ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية فى البصرة أو فى جوارها ، وموقعا واحدا لقاعدة جوية ينتقيها صاحب الجلالة البريطانية فى غرب نهر الفرات ، وكذلك يأذن جلالة ملك العراق لصاحب الجلالة البريطانية أن يقيم قوات فى الأراضى العراقية ، فى الأماكن الآنفة

الذكر ، وفقا لأحكام ملحق هذه المعاهدة ، على أن يكون مفهوما أن وجود هذه القوات لن يعتبر بوجه من الوجوه احتلالا ، ولن يمس على الإطلاق حقوق سيادة العراق » .

وتناول الملحق العسكرى للمعاهدة تحديد المواقع التى تحتلها القوات البريطانية واعفاءاتها الجمركية وحصانتها القضائية وامتيازاتها المختلفة وتعليم الضباط العراقيين ومد الجيش العراقى بالأسلحة والعتاد والتسهيلات المختلفة التى يقدمها العراق للقوات البريطانية واقامة حرس للمطارات من القوات العراقية ، كما تناول الملحق المالى تعديل الاتفاقات المالية المتعلقة بالسكك الحديدية العراقية وميناء البصرة وهى التى تناولها الملحق المالى للمعاهدة الأولى ، وعدلت الإتفاقية العدلية بحيث ألغت الامتيازات القضائية التى كانت للأجانب بمقتضاها فى المعاهدة الأولى وسوت بينهم وبين العراقيين أمام المحاكم العراقية مع الاستعانة فى بعض المحاكم العراقية وسن التشريعات القضائية بتسعة خبراء قانونيين من الإنجليز . وقد تبودلت عدة مكاتبات بين رئيس الحكومة العراقية والمعتمد البريطانى تناولت تنظيم التمثيل السياسى بين الدولتين واستخدام الموظفين البريطانيين ، واستدعاء بعثة عسكرية استشارية بريطانية للمعاونة فى تدريب القوات البرية والجوية العراقية بالشروط الموضحة فى اتفاقية الموظفين البريطانيين الملحقة بالمعاهدة الأولى وبعقود مدتها عشر سنوات من تاريخ تنفيذ الاتفاقية .

وبإبرام هذه المعاهدة وصلت العلاقات البريطانية العراقية إلى درجة من الاستقرار لم ترها من قبل وإن لم تقض على كل عوامل النفور الكامن فى نفوس العراقيين من الانجليز فإن المعاهدة وإن راعت امكانيات العراق وقدرته الفعلية على تحقيق كيانه الدولى المستقل مع وجود المصالح البريطانية والإعتراف بحقيقة هذه المصالح وعجز العراق عن تكوين جيش يستطيع وحده حماية البلاد من العدوان الخارجى دون مساعدة بريطانيا والتحالف معها كما صرح بذلك رئيس الحكومة العراقية فى تبرير عقد المعاهدة أمام البرلمان ، إلا أنها جاءت دون ما أمل العراقيون واعتقد كثيرون أن المعاهدة الجديدة أبدلت نظام الإنتداب المؤقت باحتلال دائم ولم تحقق

أمانى العراق الوطنية والقومية ، وبقى العداء التقليدى الذى أثاره الشعور القومى فى العراق كامنا فى نفوس العراقيين للانجليز .

وقد حققت المعاهدة لبريطانيا كل مصالحها الحيوية فى العراق واستطاعت أن تربط العراق إلى عجلتها الامبراطورية بحلف دائم يقوم على الاعتراف والرضاء بحقيقة مصالحها فيه وكسبت أمام الرأى العام العالمى اعترافا صريحا برضاء العراقيين عن نفوذهم فى العراق كما انفردت بعيدا عن تدخل عصبة الأمم بإقرار علاقتها الجديدة به .

ولم تكن المعاهدة العراقية البريطانية الا صورة واضحة لسياسة بريطانيا فى مناطق نفوذها فى الشرق الأوسط فقد صرحت بلسان معتمدها فى العراق قبل إبرام المعاهدة بأن تكون على نمط مشروع المعاهدة البريطانية المصرية ، وجاءت المعاهدات الثنائية التى أبرمتها فى فترة مابين الحربين مع مصر والعراق وشرق الأردن صورة واحدة لا تختلف إلا باختلاف مصالحها فى كل منها على حدة .

وقبل العراق عضوا فى عصبة الأمم بعد مناقشات نظرية وفقهية عقيمة فى مجلس العصبة ولجنة الانتدابات عن المستوى الذى يجب إن تبلغه الدولة قبل الغاء الانتداب والمستوى الذى بلغه العراق تحت الانتداب البريطانى وأهليته للاستقلال وأخيرا صدر قرار العصبة بإلغاء الإنتداب وإعلان استقلال العراق وقبوله عضوا فى عصبة الأمم فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

ولم يمض الحول حتى مات فيصل عاهل العراق الأول وراعيه فى نهضته الباكرة وهو يستشفى بسويسرا فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٣ واعتلى عرش العراق أبنه الشاب غازى الأول ليستقبل طلائع العهد الجديد ولما يستقر ، ولم تكن له خبرة أبيه ومرونته وإن فاقه فى حميته واندفاعه ، ولم يترك له الأجل من فسحة العمر ما يكشف صورته على حقيقتها للتاريخ وصادفه من العقبات ما ينوء به كاهله الشاب ولكن روحه الفتية جمعت حوله قلوب العراقيين فأحبوه كما أحبوا فى أبيه شخصيته المتزنة وإيمانه العميق بقضية العراق .

واستقبل غازى عهده الجديد ولما يكتمل نضج العراق السياسى فبقيت مشكلة الحكم قائمة كما كانت فى عهد أبيه ، وازدادت حدة بعد الاستقلال ، فإن الجهاد الخارجى الذى كان يجمع الزعماء على غاية واحدة قد خف أثره ، كما أن شخصية فيصل المجربة المهيبة لم تكن تدانيها شخصية غازى الفتية القليلة التجاريب ، وبذلك انتقلت قيادة الأمور فى عهده والتى استأثر بها فيصل طوال حكمه إلى أيدى الساسة والزعماء فنمت قوتهم واستشرى الخلاف بينهم حول السلطة والحكم وتركزت فى أشخاصهم كل القوى السياسية سواء فى داخل المجلس النيابى أو خارجه بين الأحزاب السياسية التى تبلورت فى أشخاص الزعماء ودانت لهم بالولاء كما كان الحال فى مصر ، فقد ظلت الأحزاب السياسية فى البلاد الشرقية لا تمثل القوى الحقيقية للشعب قدر ما تمثل لوناً طبقياً معيناً ، وكان هذا اللون الطبقى متمثلا فى الأحزاب العراقية أكثر منه فى الأحزاب المصرية التى تمثلت فى شخصية الزعيم فإن نظام الأسر والعشائر والتباين الطائفى والدينى والطبقى أقوى فى العراق منه فى أى بلد من البلدان العربية الأخرى ولم تبلغ المجالس النيابية فى تلك الدول الشرقية قوتها واستقرارها فى الدول الغربية بعد ، فكانت دائما عرضة للحل ولما تكمل دورتها كما كانت الوزارات سريعة التقلب والسقوط وتعرضت الحياة النيابية والسياسية بذلك لهزات عنيفة ، وكان الانقلاب العسكرى الذى قام به الفريق بكر صدقى فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٦ فى العراق بعض مظاهرها وقد انتهى هذا الانقلاب باستقالة وزارة ياسين الهاشمى فى اليوم نفسه وقيام حكمت سليمان الذى وقع عليه اختيار الجيش بتأليف الوزارة وظلت حكومة الانقلاب قائمة حتى دبر اغتيال الفريق بكر صدقى ، وقيل إن للجاسوسية البريطانية يداً فى اغتياله لميوله النازية ، فخلفتها وزارة جميل المدفعى فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٧ .

وتعود تلك الهزات السياسية فى حياة العراق كما هى فى حياة مصر فى بعض أسبابها عدا ما ذكرنا إلى سببين رئيسيين أولهما النفوذ السياسى لممثل بريطانيا ، وثانيهما نفوذ القصر الذى يستمد قوته من شخص الملك ، ويرجع أولهما إلى ضعف الكيان الحقيقى لاستقلال تلك البلاد ، وثانيهما إلى تخلف نضجها السياسى عن نضجها القومى ، فالنضج السياسى مرده الممارسة والتجريب ، أما النضج القومى فمرده العاطفة والعلم ولم تمارس هذه البلاد من ألوان الحكم النيابى ما يؤهلها لممارسة أرقى

أنواع الحكم الديمقراطى وإن كان هذا النضج السياسى لايتم إلا بممارسة هذا اللون من الحكم كاملا والأخطاء وسيلتها إلى الكمال وقد مرت أعرق الأمم ديمقراطية فى هذا الدور واجتازته إلى الكمال كما تجتازه البلاد الشرقية فى تطورها السياسى الحاضر ، ومن الخير لهذه البلاد إلا يكون الخطأ سببا فى إنقاص حقوقها الدستورية أو الحد من سيادة الشعب .

ويجتاز العراق هذا الدور بنجاح كما سلك خطى تقدمه فى تلك الفترة القصيرة من الزمن بين خروجه من حياة العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر فأقبل على افتتاح المدارس على اختلاف أنواعها وأوفد البعوث إلى الخارج وعنى بالزراعة والرى وبعض الصناعات المحلية الصغيرة واهتم بتنظيم الإدارة الحكومية وتدريب الجيش على أحدث النظم واستطاع أن يقضى على الخلافات الطائفية وثورات الأقليات إلى حد كبير وافتتح خطا الأنابيب لنقل بترول كركوك إلى حيفا وطرابلس على البحر المتوسط فى يناير سنة ١٩٣٥ .

ولعل أكبر نجاح ناله العراق كان فى سياسته الخارجية فقد ارتبط بمعاهدات صداقة مع جيرانه وأبرم اتفاقية عدم اعتداء وحسن جوار مع المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٦ انضمت إليها اليمن وكانت بداية التعاون بين البلاد العربية كما اشترك فى ميثاق سعد أباد مع تركيا وإيران وأفغانستان فى ٨ يوليه سنة ١٩٣٧ وهو من مواثيق الصداقة وحسن الجوار والتعاون المشترك .

ولم تطل حياة غازى على عرش العراق فمات فى حادث سيارة فى ٤ أبريل سنة ١٩٣٩ وأحاطت بموته بعض الغيوم وحامت الشبهات حول الإنجليز حتى هاجت الخواطر فى كل مكان واقتحم الجمهور دار القنصلية البريطانية فى الموصل وفتكوا بالقنصل الإنجليزى انتقاما لمليكهم الشاب ، ونودى بابنه الطفل فيصل الثانى ملكا على العراق تحت وصاية مجلس من ثلاثة أوصياء على رأسهم الأمير عبد الإله خال فيصل الثانى وابن الملك على شقيق فيصل الأول ، وكان ذلك قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية بخمسة شهور .

فى شرق الاردن :

لم تكن شرق الأردن أكثر من تعبير جغرافى يطلق على المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن حتى خلقت منها بريطانيا إمارة لها كيانها السياسى المحدود بسلطة الانتداب ثم مملكة مستقلة ذات كيان سياسى ودولى كامل تحقيقا لاعتبارات سياسية واستراتيجية تعنيها وتهمها .

وتقع شرق الأردن فى ذلك المنبسط الفسيح من الأرض بين الحجاز جنوبا وحوران التى تفصلها عن سوريا شمالا ونهر الأردن الذى يفصلها عن فلسطين غربا ونجدو العراق شرقا وتبلغ مساحتها ٣٤٧٧٤ ميلا مربعا أكثر من ثلاثة أرباعها صحراء ، وعدد قاطنيها حوالى أربعمائة ألف نسمة من العرب المسلمين والمسيحيين ثم الجركس وهم أقلية تبلغ أربعين ألفاً أى مايقرب من عدد المسيحيين فيها ويشتغل سكانها بالزراعة أما البدو فيشتغلون بالرعى . وتتكون شرق الأردن من لواء الكرك ويتبعه قضاء السلط ومعان والطفيلة ومن قضاء عجلون وأربد من لواء حوران ، وكانت إلى ما قبل الانتداب البريطانى جزءاً من ولاية سوريا العثمانية حتى حررها جيش الثورة العربية الذى اقتحم العقبة فى ١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ واتخذها قاعدة لعملياته الحربية فى شرق الأردن وخاض على أرضها معارك عنيفة فى الطفيلة ووادى موسى ومعان وأقام فيها حكومة عربية تتبع الحكومة الفيصلية فى دمشق وكان للسلطة العسكرية البريطانية ضباط يمثلونها فى السلط وعمان والكرك كانت مهمتهم الحقيقية التمهيد لبسط النفوذ الإنجليزى عليها ، وكان الاتفاق قد تم بين الإنجليز والفرنسيين على أن تكون فلسطين والمنطقة الواقعة شرق نهر الأردن من مناطق نفوذهم فما أن ضرب الفرنسيون ضربتهم فى ميسلون وغادر فيصل سوريا حتى نشطت الدعاية بين أهلها لحملهم على طلب الحماية البريطانية واجتمع المندوب السامى البريطانى فى فلسطين بشيوخ البلاد للاتفاق على نوع الإدارة التى تقوم فى بلادهم تحت إشراف بريطانيا وحمايتها وكتب فى الوقت نفسه إلى فيصل يخبره بفصل تلك البلاد عن سوريا ودخولها تحت النفوذ البريطانى . وقامت إثر ذلك ثلاث حكومات شبه منفصلة فى شرق الأردن لكل منها مستشار إنجليزى وتتبع كلها الإدارة البريطانية فى فلسطين ، الأولى فى عجلون والثانية فى السلط وعمان والثالثة فى الكرك .

وفى أثناء ذلك ظهر الأمير عبد الله فى معان على الحدود الجنوبية لشرق الأردن وأخذ يجمع حول القبائل والعشائر ليغير بهم على سوريا إنتقاما لأخيه فيصـل وأثار قدومه قلقا عند الفرنسيين والإنجليز على السواء ، ثم قام العراق بثورته العارمة التى أرهقت الإنجليز وكلفتهم كثيرا من الأنفس والأموال . فرأى الإنجليز تخلصـاً من متاعبهم الإدارية وإرضاء للهاشميين ترشيح فيصـل لعرش العراق وعبد الله أميراً لشرق الأردن .

وفى مؤتمر القاهرة الذى عقدته وزارة المسـتعمرات لدراسة مشاكل الشرق العربى وضعت الخطوط الأولى للسياسة البريطانية القادمة فى تلك البلاد ، وقبل أن يصل تشرشل إلى القاهرة انتقل الأمير عبد الله إلى عمان فى قطار خاص أعد له حيث استقبل رسمياً اسـتقبالا أمه شيوخ البلاد وأعيانها وعلى رأسهم المعتمد البريطانى فى شرق الأردن وفى السابع والعشرين من مارس سنة ١٩٢١ غادر عمان إلى القدس حيث اجتمع بتشرشل فى اليوم التالى اجتماعا اتفقا فيه على الأسس التى تقوم عليها الإمارة الجديدة .

وتم مولد إمارة شرق الأردن التى أرادت بريطانيا أن تكون إمارة قائمة بذاتها منفصلة فى إدارتها عن فلسطين وإن كانت تخضع لنفس المندوب البريطانى فيها ، فقد صدرت وثيقة الانتداب على فلسـطين وهى تجمل فيها شرق الأردن إلا أنها أرادت أن تستثنيها من الوطن القومى لليهود وبعثت فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٢ بمذكرة رسمية إلى مجلس عصبة الأمم تطلب إليه وفقاً لنص المـادة الخامسة والعشرين من نظام الانتداب على فلسطين أن يقرر ما يأتى :

« لا تطبق المواد التالية من نظام الانتداب على فلسـطين فى الأراضى المعروفة بشرق الأردن التى تشـمل المناطق الممتدة إلى الشرق من خط يبدأ من نقطة تقع على بعد ميلين غرب مدينة العقبة التى تقع على الخليج المسـمى باسمها مارا بقلب وادى عربه والبحر الميت ونهر الأردن إلى نقطة التقائه بنهر اليرموك فمنتصفه حتى الحدود السورية .

وفى تطبيق نظام الانتـداب على شرق الأردن يسرى عليه من النظم الإدارية ما يسرى على فلسطين تحت إشراف الدولة المنتدبة » .

أما المواد التى أرادت بريطانيا ألا تطبق على شرق الأردن من نظام الانتداب على فلسطين فهى كل المواد والفقرات التى تشير إلى الوطن القومى لليهود أو تتناول حقوقه فكأنها أرادت ألا يكون لليهود فى ذلك القطاع من الأرض مالهم من حقوق فى فلسطين ويتفق هذا إلى حد بعيد مع سياستهم التى رسموها لأنفسهم فى البلاد العربية ومصالحهم الاستراتيجية فيها .

وأول ما نراه من خطوط هذه السياسة التى انتهت بفرض انتدابهم على القطاع العربى من الخليج الفارسى إلى البحر الأبيض المتوسط أنها أرادت أولا أن تؤمن مصالحها الاقتصادية التى نمت نمواً عظيما فى الشرق العربى بعد الحرب الأولى وثانيا أن تدعم سيطرتها على الطريق البرى إلى الهند كما فرضتها من قبل على المعابر والممرات البحرية إليها ، ولكنها ما كانت تأمن فورة الوعى القومى فى هذه المناطق التى تعج بالثورات والقلاقل وكانت تعلم أنها ستنزل فى وقت قريب على التسليم بحقوق هذه الشعوب كما أنها لا تأمن نمو المصالح اليهودية فى فلسطين نموا يهدد نفوذها بالخطر واليهود رغم قلتهم قوة لها أثرها فى المجتمعات الدولية ولقد ساهم اليهود فى بناء الإمبراطورية بأموالهم وجهودهم ، فكان ولا بد أن تتحرز للمستقبل وأن تصون مصالحها بإيجاد قاعدة دائمة لنفوذها السياسى فى البلاد العربية وهذا ما دعاها إلى خلق إمارة شرق الأردن منفصلة عن فلسطين حتى لا يتسرب اليهود إليها ولا تقبل أن تلحقها بالعراق كما طلب ذلك الأمير عبد الله فى الاجتماع الذى تم بينه وبين تشرشل فى بيت المقدس ، حتى لا تنطوى تحت القومية العراقية المتغلبة الثائرة ، فإن قيام شرق الأردن بذاتها منفصلة عن العراق وفلسطين ما يضعف كيانها القومى وما يجعلها دائماً فى حاجة إلى العون المالى البريطانى فيسهل السيطرة عليها ومن ثم النفوذ منها إلى البقاع المجاورة إذا قدر لها أن تستقل عن بريطانيا أو تضعف سيطرتها عليها فشرق الأردن من الناحية الاستراتيجية أصلح مراكز الوثوب إلى البلاد العربية المجاورة كما أنها بحاجتها الدائمة إلى بريطانيا أمثل ما يمكن لنفوذها السياسى فتستطيع أن ترقب منها التيارات المضادة لسياستها فى الشرق العربى وأن تفرض نفوذها السياسى والاقتصادى والاستراتيجى على بلدانه جميعا ، وتحقيقا لهذا الغرض كاملا عملت على ضم معان والعقبة إلى شرقى الأردن وكانتا تابعتين للحجاز فى ذلك الوقت فأوعزت إلى الأمير عبدالله بأن يطلب إلى أبيه ضم

مقاطعة معان وميناء العقبة إلى إمارته وكانت معان تابعة لولاية سوريا وكان ميناء العقبة تابعا للحجاز وقد ضم الملك حسين منطقة معان إلى الحجاز بعد أن استولت عليها القوات العربية أثناء الحرب ، وقبل الملك حسين أن يتنازل عنهما لابنه أمير شرق الأردن تنازلا شخصيا ولما تولى الملك على ملك الحجاز قبل أن يكون التنازل رسمياً ونهائياً واستطاعت الحكومة البريطانية أن تقنع الملك عبد العزيز آلسعود بعدئذ بقبول الأمر الواقع فيما يتعلق بهما وبذلك أصبحتا تابعتين لإمارة شرق الأردن ، وفى سبيل هذا الغرض أيضاً حملت الحكومة البريطانية سلطنة نجد فى اتفاقية الحدا التى أبرمت بينهما على أن تترك ممراً أرضيا من نجد الشمالية يضم إلى منطقة انتدابها فى القطاع العربى حتى تصل بين منطقتى انتدابها فى العراق وشرق الأردن وتفصل بين نجد والانتداب الفرنسى فى سوريا وحققت بريطانيا بذلك الوحدة الاستراتيجية التى تنشدها فى مناطق نفوذها وأصبح إشرافها على الطريق البرى بين الخليج الفارسى والبحر الأبيض المتوسط تاما كاملا .

وقد أعلن هربرت صموئيل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين وشرق الأردن على لسان حكومته سياسة بلاده فى الإمارة الجديدة عند ما زار عمان فى ٢٤ مايوسنة ١٩٢٣ لمناسبة عيدالفطر فألقى كلمة تناول فيهاعلاقة حكومته بإمارة شرق الأردن ، قدم لها بذكر التعاون المثمر الذى تم بين قومه والعرب والصداقة التى تجمعهم وما كان لمعاونة بريطانيا من أثر فى نهضة البلاد وتقدمها ونشر الأمن وتوطيده فى ربوعها ثم أعلن اعتزام حكومته الاعتراف بكيان الإمارة تحت رئاسة الأمير عبد الله بن الملك حسين فى ظل حكم دستورى وبشرط موافقة عصبة الأمم حتى تتمكن حكومة جلالة الملك من القيام بتعهداتها الدولية حيال شرق الأردن وذلك باتفاق يعقد بين الحكومتين .

ولم يعقد هذا الإتفاق إلا فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٨ طبقا لتصريح هربرت صموئيل وبعد إعلانه بخمس سنوات وانتظمت علاقة شرق الأردن بالحكومة البريطانية على قواعد ثابتة أصبحت أساساً لكيان الإمارة فى مستقبلها الجديد وتضمن الإتفاق فى المادة الأولى تعيين معتمد بريطانى فى عمان يمثل حكومته ويعمل بالنيابة عن

المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ويمثل حكومة شرق الأردن فى اتصالاتها الخارجية ، وأن تعمل حكومة شرق الأردن بمشورة حكومة جلالة الملك فى علاقاتها الخارجية وفيما يختص بالميزانية السنوية للامارة وشئون النقد ووراثة الحكم وتكوين مجلس للوصاية عليه وحقوق الأجانب وامتيازاتهم وتعديل أحكام الدستور وذلك فى المادتين الخامسة والسادسة كما تضمن النص على الإعفاءات الجمركية بين فلسطين وشرق الأردن وألا توضع عقبة فى سبيل اتحاد شرق الأردن بما تود من الممالك العربية المجاورة سواء فى الجمارك أو لأغراض أخرى ما دام لايتعارض مع الالتزامات الدولية لصاحب الجلالة البريطانية وذلك فى المادتين السابعة والثامنة ، ونص فى مادته العاشرة على أن يكون « لصاحب الجلالة البريطانية الحق فى أن يحتفظ بقوات مسلحة فى شرق الأردن وأن ينشىء وينظم ويراقب فى شرق الأردن قوات مسلحة تكون فى رأيه ضرورية للدفاع عن البلاد ولتأييد صاحب السمو الأمير فى صيانة السلام والنظام . ويوافق صاحب السمو الأمير على أن لا ينشىء ولا يحتفظ فى شرق الأردن وأن لا يسمح بأن ينشأ أو يحتفظ بأى قوات عسكرية من غير موافقة صاحب الجلالة البريطانية » .

وتضمنت المواد التالية من النصوص ما يكفل سلامة تنفيذ المادة العاشرة ، من أصدار القوانين والتشريعات اللازمة وإعلان الأحكام العرفية وتقديم كافة التسهيلات لتحركات القوات البريطانية . ونصت المادة العشرون على أن يسرى هذا الاتفاق حالما توافق عليه الحكومة الدستورية التى نصت على إقامتها المادة الثانية ، وصدر الدستور الأردنى فى ١٦ أبريل سنة ١٩٢٨ من ثنتين وسبعين مادة تنتظم الشكل الدستورى للامارة وتنص على أن السلطات التشريعية والإدارية فيها مخولة للأمير عبد الله بن الحسين ولورثته الذكور من بعده وفقا لقانون الوراثة الخاص على أن يساعده مجلسان ، مجلس تنفيذى من خمسة أعضاء يختارهم رئيس المجلس الذى يعينه الأمير وبموافقته من موظفى الحكومة ومن أعضاء المجلس المنتخب ، ومجلس تشريعى من ستة عشر عضوا ينتخبون على درجتين ومن أعضاء المجلس التنفيذى ممن ليسوا أعضاء منتخبين فى المجلس التشريعى ، على أن تجرى انتخابات المجلس التشريعى على أساس التمثيل النسبى لمختلف العناصر فى الأمارة فيمثل المسلمون العرب بتسعة أعضاء والمسيحيون

العرب بثلاثة أعضاء والجراكسة بعضوين والبدو بعضوين وأن يكون حق الانتخاب المبدئي لكل أردني من الذكور من غير البدو بلغ من العمر ثمانية عشر عاما .

وبهذا تحقق الكيان الدولي للامارة التي خلقتها بريطانيا تحقيقا لمصالحها السياسية والاستراتيجية ، ولكن الرأى العام فى شرق الأردن بقى معارضا للمعاهدة البريطانية الأردنية وللدستور الجديد وعقدت الاجتماعات بين الوطنيين وكثرت احتجاجاتهم وتعددت مؤتمراتهم ودعوا إلى مقاطعة انتخابات المجلس التشريعي ولكن الحكومة البريطانية لم تعمل حسابا له وبقيت تسوس الأمارة على هواها ، حتى استجابت لبعض رغبات الأمير عام ١٩٣٤ فعدلت المعاهدة كما عدلت بعض مواد الدستور تعديلا شكليا لا يمس روحها العامة ، وأعلنت وزارة المستعمرات عام ١٩٣٦ أنها توافق على أن يكون للأمير مجلس وزراء مسئول أمامه بدل المجلس التنفيذي القائم كما صرحت له بتشكيل قوات عسكرية كما يحب وأن يكون له حق التمثيل القنصلي فى بعض البلدان العربية المجاورة .

وألفت أول وزارة فى شرق الأردن فى ٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ برئاسة توفيق أبو الهدى وكان رئيساً للمجلس التنفيذي منذ تكوينه فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ فأصبح رئيساً لمجلس الوزراء ووزيرا للخارجية واستمر رئيسا للوزراء رغم التغييرات العديدة التى تناولت أعضاء الوزارة منذ ذلك الحين حتى أكتوبر عام ١٩٤٤ حيث خلفه سمير الرفاعي .

في فلسطين :

لم تكن فلسطين فى يوم من الأيام إلا فى فترات قصيرة من تاريخها ، وحدة سياسية قائمة بذاتها فهى تعبير جغرافى أكثر منه تعبير عن وحدة سياسية لها كيانها الدولي وكانت على الدوام معبرا للجيوش الغازية من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال ، وهى إما تابعة للغالب من الشمال وإما تابعة للغالب من الجنوب . واختلف كيانها الجغرافى زيادة ونقصا باختلاف الظروف التى مرت بها والتطورات التى اجتازتها فكانت مساحتها إلى نهاية العهد العثمانى ١٣٫٧٢٤ ميلا مربعا أما فى عهد الإنتداب

فكانت ١٠٫٤٣٤ ميلا مربعا ، ولم يحص عدد سكانها فى العهد العثمانى ولكنه قدر عام ١٩١٩ بسبعمائة ألف نسمة على وجه التقريب منهم ٥٦٨٫٠٠٠ من العرب أما اليهود فكان يبلغ عددهم حينذاك حوالى ٥٨٫٠٠٠ نسمة والباقون من عناصر أخرى كانت أقرب إلى العرب منها إلى اليهود أما فى عام ١٩٣٨ فقد بلغ مجموع سكانها ١٫٤١٥٫٧٠٠ منهم ٩٨٩٫٥٠٠ عربيا و ٤٠١٫٠٠٠ من اليهود وارتفع هذ المجموع فى عام ١٩٤٥ إلى ١٫٨١٠٫٠٣٧ منهم ١٫٢٤٠٫٨٥٠ عربيا و ٥٥٣٫٦٠٠ يهوديا وترجع الزيادة المطردة فى العرب إلى كثرة المواليد بينهم وقلة عدد الوفيات نسبيا فيما بين الحربين لتقدم المستوى الصحى أما النمو العددى لليهود فمرجعه إلى الهجرات المتتالية التى أخذت تفد إلى أرض الميعاد فى العهد الجديد .

وفلسطين ذات سطح جبلى إذا استثنينا السهل الساحلى الضيق الذى ينتهى بمنطقة الكثبان الرملية الرخوة على الشاطىء غربا وبتلال يهوذا شرقا ، وتنحدر تلال يهوذا انحدارا شديدا نحو وادى الأردن المنخفض الشديد الحرارة الذى يقوم مانعا صعب الاجتياز بينها وبين جبال معاب فى الشرق . وليس نهر الأردن فى ذاته مانعا قويا ولكن انحدار الجبلين نحو الوادى وشدة حرارته وجهامته هو الذى حدد من من الرغبة فى اجتيازه فكان حداً فاصلا بين اختلاط السكان كما أن توطن بعوضة الملاريا فى غيرانه جعل اجتيازه مخيفاً أشارت إليه التوراة فى سفر الملوك فيما نزل بجيش الملك «سنحاريب» بعد عبوره وادى الأردن للاستيلاء على أورشليم بما يأتى : « وإذا ملاك الرب قد خرج وضرب من جيش آشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفا ولما بكروا صباحا إذاهم جميعا جثث ميتة» وبعوضة الملاريا هى التى انزلت كما عرف فيما بعد الهزيمة بجيش نابليون الذى كان يحارب فى تلك البقاع وارتد أمام عكا وهى التى أنزلت الموت بقوات اللنبى التى كانت تعبر الوادى لمهاجمة شرق الأردن بعد استيلائها على بيت المقدس واعتصمت به بعد ضغط الأتراك عليها وتقهقرها من سفح جبل معاب إلى بطن الوادى ، ويخرج من جبال يهوذا ألسنة من التلال شرقا وغربا تتعامد عليها وتضم بينها عددا من الوديان العميقة تعوق تحركات الجيوش وسهولة المواصلات فيما بين الشمال والجنوب. وتتبع فلسطين فى مناخها أقليم البحر الأبيض المتوسط فأمطارها شتوية وتغزر على الساحل وتقل فى الداخل وصيفها الجاف أصلح الفصول للقيام بالعمليات الحربية .

وتحد فلسطين من الشمال بالحدود التي تفصل بينها وبين سوريا ولبنان وهى الحدود التى اتفق عليها الإنجليز والفرنسيون عام ١٩٢٠ وتمتد من رأس الناقورة على البحر فى خط يتجه شمالا بشرق مخترقا أعالى وادى الأردن إلى بانياس وينحرف جنوبا ليمر بالتلال الشرقية لبحيرة حوله فالشاطىء الأيسر لنهر الأردن وبحيرة طبريه إلى سمخ حتى الحمامى ، ثم يسير متتبعاً مجرى نهر اليرموك . ومن الشرق يفصلها عن شرق الأردن نهر الأردن والبحر الميت ووادى عربه وهى الحدود التى فرضها الإنجليز بين البلدين عام ١٩٢٢ ومن الجنوب محافظة سيناء المصرية فى خط يمتد من من رفح إلى العقبة وقد ظلت فلسطين حتى اقتحمتها القوات البريطانية جزءا من أملاك الدولة العثمانية وكانت تنقسم من الناحية الإدارية إلى قسمين ، القسم الشمالى منها ويتكون من لواء عكا ويتبعه أقضية صفد وطبرية والناصرة وحيفا ، ولواء نابلس ويتكون من أقضية طولكرم وجماعين وجنين ، ويتبع هذا القسم فى إدارته ولاية بيروت ، والقسم الجنوبى ويتكون من لواء القدس ويتبعه أقضية يافا وغزه وبئر السبع ويتبع وزارة الداخلية مباشرة .

وفلسطين أول حيز من حيوز القوى فى التاريخ وأحفلها بالصراع بين القوى الكبرى فقد شهدت أرضها أعظم المعارك الفاصلة فى تاريخ البشر فهى مركز الإلتقاء لمعابر قارات ثلاث هى قارات الدنيا القديمة وهى المعبر الذى تجتازه قوات الغالب للسيطرة على العالم القديم فقد اجتازتها قوات المصريين إلى الشمال وقوات الإسكندر إلى الجنوب والشرق وقوات أشور وبابل وفارس إلى الغرب وعبرت فوقها فتوح الإسلام الباهرة إلى أفريقيا وآسيا الصغرى ، كما اعتركت فوق أديمها قوات الفرس والرومان وجيوش المسلمين والصليبيين وجحافل التتار والمصريين ، ثم اجتازتها قوات العثمانيين للسيطرة على الشرق الإسلامى ، حتى إذا أرادت بريطانيا أن ترث ملك بنى عثمان فى الشرق وأن تدعم سيطرتها على البلاد العربية كانت المعارك التى خاضت جيوشها غمارها مع الأتراك على أرض فلسطين الخطوة الأولى للانسياب شمالا نحو الأناضول وأعالى الفرات وكان انتدابها عليها فى تسوية ما بعد الحرب هدفا رمت اليه إيمانا منها بأهميتها الاستراتيجية للسيطرة على الشرق الأوسط والإشراف منها على مواصلاتها الإمبراطورية فهى تشرف من ناحية على مدخل قناة السويس كما أنها على رأس الطريق البرى إلى الخليج الفارسى والهند وهى مركز اتصال هام للمواصلات الجوية .

وارتبط تاريخ فلسطين الحديث بوعد بلفور بالوطن القومى لليهود ، ولم يكن

وعد بلفور بوطن قومى لليهود فى فلسطين إلامناورة أخطأها التوفيق من مناورات السياسة البريطانية للتخلص من الإدارة الدولية التى فرضها اتفاق سيكس – بيكو لفلسطين فإن بريطانيا كانت ترى فى قيام الإدارة الدولية فيها مايحول دون سيطرتها على الطريق البرى إلى الهند ومايقرب نفوذ الدولتين الشريكتين فى إدارتها من قناة السويس أهم شريان مائى لمواصلات الإمبراطورية فلم تجد غير تشجيع الأمل الصهيونى فى أرض الميعاد وسيلة للتخلص من الإدارة الدولية على شرط قبول الحماية البريطانية وحدها دون الدولتين الأخرتين ، وقد نجحت بريطانيا فى تحقيق هدفها ولكنها كانت أقل عمقا فى تقدير الاحتمالات المقبلة من الصهيونية ، وبرهنت الأحداث فيما بعد على أنها كانت ضحية خدعة صهيونية بارعة جرت فى تيارها تلك المآسى الدامية التى حفلت بها الأرض المقدسة فى تاريخها الحاضر ومازالت تنزبالقلق والحقدوالعداء الذى تأصل بين العرب واليهود بسبب الجشع البريطانى الفاشل .

وقد جاء اهتمام بريطانيا بفلسطين نتيجة عاملين أولهما تطور النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية ومحاولات تركيا القريبة العهد الاستيلاء على سيناء وضمها إلى أملاكها وثانيهما وضوح أهمية المواصلات البرية بعد تطور وسائلها الحديثة . وكان كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر أول من أدرك أهمية فلسطين وخطورة موقعها فكتب إلى حكومته يلفت نظرها إلى أهميتها كدعامة يستند إليها الدفاع عن قناة السويس فى خط يمتد من عكا وحيفا على البحر الأبيض المتوسط إلى خليج العقبة على البحر الأحمر ، ثم دفع الكولونل نيوكومب من سلاح المهندسين الملكى إلى مسح شبه جزيرة سيناء عام ١٩١٤ وأقنعت النتائج التى وصل إليها نيوكومب من مسح سيناء كتشنر بصحة رأيه فعمل على تأييد فكرته عندما اشترك فى الوزارة بعد إعلان الحرب مما دفع اسكويث رئيس الحكومة إلى تشكيل لجنة رسمية لدراسة مطالب روسيا وفرنسا فى أملاك الدولة العثمانية بالنسبة لمطالب بريطانيا ومصالحها فيها ، وجاء تقرير اللجنة مؤيدا لنظرية كتشنر وكان هذا سببا فى إصرار بريطانيا على المطالبة بمينائى عكا وحيفا ليكونا تحت نفوذها المطلق فى اتفاق سيكس – بيكو وفيما أشارت اليه من ضرورة الرجوع إلى الملك حسين قبل أن يتقرر مستقبل فلسطين النهائى وفيما

أوحت به إلى مكماهون أثناء مفاوضاته مع الحسين بألا تدخل فلسطين ضمن المنطقة التى استثنتها بريطانيا من اتفاقها مع الحسين وأجرت بشأنها بعض التحفظات لمصلحة فرنسا وهى المنطقة التى تقع إلى الغرب من دمشق وحمص وحماه وحلب .

وازدادت أهمية فلسطين فى نظر بريطانيا بتقدم الحرب فان نجاح القوات التركية فى اختراق برية سيناء إلى قناة السويس ، ونجاح مورى فى اجتيازها إلى فلسطين فى العام التالى قضى على قوتها كمانع طبيعى كما أن تقدم آلة الحرب قضى قضاء مبرما على قوة الصحراء كمانع استراتيجى ، ثم أن بريطانيا أخذت تحس أطماع فرنسا فى سوريا فكان لابد لها أن تقيم بينها وبين النفوذ الفرنسى القادم حاجزاً يحمى قناة السويس من خطر اقترابها أو اقتراب أية قوة عظمى منها . وكان تبنى بريطانيا لفكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين وسيلتها للتخلص من الإدارة الدولية التى فرضها اتفاق سيكس — بيكو ومن ثم بسط سيطرتها عليها .

وقد ظل الصهيونيون يسعون طويلا لاتخاذ فلسطين وطنا قوميا دون نجاح ، وفشل زعيمهم الأول موسى منتفيورى فى الاتفاق مع محمد على على انشاء مستعمرات زراعية لليهود فى فلسطين كما فشل بعدئذ فى الاتفاق مع السلطان على تحقيقها بعد زوال الحكم المصرى من الشام ولم يفز منه إلا بمنح اليهود الامتيازات التى للأجانب فى الدولة العثمانية ، ثم ظهر كتاب تيودور هرزل الكاتب النمسوى اليهودى عن « الدولة اليهودية » عام ١٨٩٦ فأثار من الحماسة والاهتمام فى أوساط اليهود مادفعهم فى العام التالى إلى عقد مؤتمر عام لهم فى مدينة بال بسويسرا لوضع القواعد الأساسية لسياسة الصهيونية فى تحقيق فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ووسائلها التى تتلخص فيما يأتى :

١ — الاستيلاء على الأرض والسيطرة على الصناعة بإيفاد عمال للزراعة والصناعة إليها .

٢ — تنظيم العلاقات وتوثيق الروابط بين العناصر اليهودية المشتتة بتكوين

هيئات محلية ودولية تعمل لهـذا الغرض وفقا للقوانين المرعية فى الدول المختلفة .

٣ — ايقاظ الوعى القومى لليهود .

٤ — العمل على تحقيق أغراض الصهيونية وتأييدها لدى الحكومات المختلفة واختيار أنسب الأوقات لذلك .

واتجه هرزل إلى الباب العالى لينال موافقته على اتخاذ فلسطين وطنا قوميا لليهود ورأى السلطان عبد الحميد فى إلحاح هرزل وسيلة لتسخير اليهودية العالمية لتأييده ضد أعدائه فى أوربا وكاد هرزل ينجح فى مسعاه لولا رفض اليهود الإنجليز للثمن الذى طلبه السلطان ، وأراد الانجليز تعويضهم عن هذا الفشل بمنحهم وطنا فى أوغندا ولكن تعصبهم للعودة إلى أورشليم انتهى بهم إلى رفض هذا العرض أمام المؤتمر الصهيونى السابع لعام ١٩٠٥ ، وتجددت مساعى الصهيونيين لدى حكومة الاتحاديين فى تركيا ولكنها لقيت من الفشل مالقيته مساعيهم من قبل .

وقامت الحرب الأولى واليهود حيارى أية ناحية يتجهون حتى إذا دخلت تركيا الحرب إلى جانب المانيا اتجهوا إلى تقوية صلاتهم بالحلفاء علهم ينالون منهم إذا ما انتهت الحرب بانتصارهم ماعز عليهم نواله من الدولة العثمانية ولكن اسكويث رئيس الوزارة الإنجليزية لم يكن ميالا إلى تأييد الفكرة الصهيونية فأهمل مطالبهم وأعرض عنها فقد كان يؤمن فى قرارة نفسه أن قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين وهم من الأوهام ، وكتب أثر زيارة قام بها لفلسطين بعد ذلك بعشر سنوات يقول « ما زلت أعتقد كما اعتقدت من قبل أن الحديث فى اتخاذ فلسطين وطنا قوميا لليهود ضرب من الأوهام » . ولكن لويد جورج الذى تولى الوزارة بعده كان على خلافه فى الاستجابة لآمال الصهيونيين يدفعه إلى ذلك عاملان آمن بهما تماما ، عامل سياسى وآخر استراتيجى ، فأما العامل السياسى فهدفه استمالة اليهود فى ألمانيا والنمسا لتأييد الحلفاء ، وأما العامل

الاستراتيجى وهو الأهم فى نظر لويد جورج فإنه يهدف إلى الانفراد بالسيطرة على فلسطين واتخاذ الصهيونيين وسيلة لذلك ، وكان عليه أن يتأكد أولا من تأييد الصهيونيين لقبول الحماية البريطانية على فلسطين .

وأدرك زعماء الصهيونية مايهدف إليه رئيس الحكومة البريطانية فجروا جريه وساروا فى تياره فقد أيقنوا بتحقيق الأمل على يديه وأكدوا للسير مارك سيكس الذى كلفه لويد جورج بمفاوضتهم فى أول اجتماع عقده معهم ، بأنهم يعترضون اعتراضا تاما على إقامة ادارة دولية فى فلسطين ولو كانت من فرنسا وبريطانيا وحدهما وانهم سيعملون من الآن فصاعدا على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية إذا أيدتهم بريطانيا فى تحقيق أمانيهم فى الوطن القومى ، وكانت الخطوة التالية أن تنال الأمانى الصهيونية تأييد فرنسا دون ما تعرض لشكل الإدارة المقبل فى فلسطين وترددت فرنسا طويلا ولكنها قبلت أخيرا أن تصدر تصريحا فى صالح الصهيونية ووافق الرئيس ويلسون بدوره على فكرة الوطن القومى وفى اليوم الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ صدر وعد بلفور فى صورة خطاب من وزير الخارجية البريطانية لورد بلفور إلى لورد روتشيلد بالصيغة الآتية :

« يسرنى كثيرا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضى والارتياح إلى انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وانها ستبذل خير مساعيها لتيسير الوصول إلى هذه الغاية على أنه يجب أن يفهم فهما صحيحا أنه لن يسمح بإجراء مامن شأنه أن يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية التى تقيم فى فلسطين أو تمس الحقوق والمزايا السياسية التى يتمتع بها اليهود فى البلدان الأخرى » .

وصدر وعد بلفور فى صيغته هذه التى وافق عليها الصهيونيون وقد راعى أن يكون لليهود وطن قومى فى فلسطين لا أن تكون فلسطين وطنا قوميا لهم كما كانوا يطالبون أن تكون صيغة وعد بلفور فإن بريطانيا لم تشأ أن تلزم نفسها بتعهد قد

يسىء إلى مصالحها فى فلسطين ، كما راعى ألا يكون فى انشائه مايؤثر على حقوقهم وامتيازاتهم السياسية فى الدول التى يعيشون فيها حتى لا يقف اليهود الآخرون موقف العداء من وعد بلفور فلاتستطيع أن تحقق هدفها الأصيل من إصداره وإن لا يكون فى تحقيق الوطن القومى مدعاة لاضطهادات أخرى تقع على اليهود فى البلاد التى يقيمون فيها للتخلص منهم وحملهم على الهجرة إلى وطنهم الجديد .

لم يكن وعد بلفور إذن ثمنا للجهود التى بذلها اليهود فى الولايات المتحدة لتدخل الحرب إلى جانب الحلفاء فإن هذه الجهود لم تجذب اليها انتباه المؤرخين الذين تناولوا أسباب التدخل الأمريكى ، كما أن المصالح الحقيقية للولايات المتحدة من التدخل ما كانت تخضع للصهيونية العالمية فى ذلك الوقت بدليل ما كان من معارضة كثير من اليهود فى انجلترا وأمريكا لفكرة الوطن القومى قبل إعلان وعد بلفور خشية أن يفقدهم مالهم من امتيازات وحقوق ومصالح فى البلاد التى استوطنوها أو أن يحملهم أهلها على الجلاء عنها ماداموا ينتسبون إلى وطن آخر ، كما لم يكن وعد بلفور مكافأة للزعيم الصهيونى حاييم وايزمان على مساهمته فى مجهود الحرب الفنى ولم يكن أيضا ثمنا لمساهمة اليهود فى القرض الحربى الذى عقدته بريطانيا فإن أكبر عدد من حملة سنداته كانوا من اليهود المعارضين لفكرة الوطن القومى ، وقد تكون هذه العوامل جميعا من الأسباب التى ساعدت على اصدار وعد بلفور ولكنها على أية حال لم تكن السبب الرئيسى الذى حمل بريطانيا على الاهتمام به أو إصداره وإنما حملها على إصداره ما رسمته لنفسها من السيطرة على فلسطين والإنفراد بها دون شريكتيها ، ويمكن أن نقول أخيرا أن هذه العوامل التى عمل الصهيونيون على نشرها وترويجها وحمل العالم على الإيمان بها لم تكن إلامن قبيل الدعاية لأنفسهم والتدليل على مايتمتعون به من قوة فى الأوساط الدولية قد تحمل الدول التى تناوىء كيانهم القومى على التفكير قبل الأقدام على معاداتهم والإصطدام بهم وقد لجأوا إلى هذا السلاح أخيرا عندما قامت الحرب بينهم وبين العرب حتى يحملوا العرب على التسليم لهم خوفا من الدول القوية التى تسندهم وهم سادرون فى هذه الدعاية ليحملوا العرب على عقد الصلح معهم ومسالمتهم .

حقيقة أن الصهيونية وقد نجحت فى تحقيق أمانيها قد حملت اليهود فى مختلف بقاع العالم على تأييدها فأثاروا بذلك حربا من العنصرية لم تظهر آثارها بعد ، فقد نجحوا فى مداراتها بدعاياتهم القوية التى يسيطرون على شتى أسبابها ووسائلها ولكن العداء التقليدى لليهود ما زال كامنا فى النفوس وستنقلب عليهم أوضار العنصرية التى أشاعوها بين صفوفهم وحملوا رايتها فى العصر الحديث الذى جاهد كثيراً للقضاء على العنصرية والتعصب الدينى ، وستكشف الويلات والمصائب التى دفعوا البشرية إليها عن خبث طويتهم ويومذاك ستكون نهايتهم فصلا من فصول التعصب العنصرى والدينى ، وتعلم اليهودية العالمية ذلك علم اليقين فتراها جاهدة فى خلق المشاكل التى تشغل العالم عن التفكير فى صنيعها ، وهى سياسة تسوق العالم إلى الدمار وستقع مغبتها على رأس مثيريها ومحركيها يوم تستيقظ البشرية على الهوة التى تتردى فيها أو تسوقها إليها اليهودية العالمية .

وقد أثار إعلان وعد بلفور جواً من الحيرة والقلق بين العرب وفزع الحسين حين أتاه نبأه ، وكان على بريطانيا أن تسكن فزعه وأن تزيل من نفوس العرب ماألم بها من شك فى حقيقة نواياها فبعثت بالكوماندور هوجارت أحد رجال المكتب العربى بالقاهرة ومن ذوى الثقافة العربية الواسعة إلى الملك حسين واستطاع أن يقنعه بأن وعد بلفور لا يرمى إلى غير إسكان المضطهدين من اليهود فى فلسطين دون التعرض لحقوق العرب السياسية والدينية والاقتصادية كما استطاعت أن تزيل من نفوس العرب كل أثر للشك فى صدق نواياها ، وأكد الزعيم الصهيونى وايزمان نوايا اليهود الطيبة لمن اجتمع بهم من العرب أثناء مروره بالقاهرة فى طريقه إلى فلسطين فى شهر مارس سنة ١٩١٨ .

وكانت بريطانيا أكثر وفاء لليهود منها للعرب ولا يمكن أن نعرف على وجه التحديد تلك القوى الخفية القاهرة التى كانت تقف وراء بريطانيا وتدفعها دفعا لتأييد المزاعم الصهيونية عن الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، فما كانت السياسة البريطانية أبداً لتهتم بغير مصالحها وما كانت تقف موقفا فى السياسة الدولية وتصر عليه إلا وكان من ورائه نفع للامبراطورية ووحدتها التى ارتفعت فى أعين البريطانيين

إلى مكان القداسة فى تقاليدها وآدابها وحياتها العامة ، فقد انتهت الحرب التى حملتها على بذل الوعود وإبرام الاتفاقيات المتناقضة بغير حساب وخرجت منها منتصرة وأخذت تساوم الفرنسيين على ما أقرته لهم من حقوق فى الاتفاقيات السرية وجعلت تتلكأ فى الوفاء بعهودها للحسين وتضربه بفرنسا من ناحية وبالصهيونيين من ناحية أخرى ، وكان من المنتظر ، وقد سخرت كلا من اليهود والعرب لمصلحتها فى الحرب الدائرة ، أن تنقلب على اليهود كما انقلبت على العرب ولا يكون وفاؤها لهم بأكثر من وفائها للعرب ، فهى قد تنكرت للعرب وأنكرت على الحسين دعواه لكنها آزرت اليهود وعززت دعواهم فإذا كان العرب أمة شرقية لهم عليها حق الولاية والرعاية ، وإذا كان الحسين شيخا من شيوخ القبائل تسحره المجاملة وبدرات الذهب للتسليم بحقوقه فإذا امتنع فهو شيخ مخرف أو قرد عجوز على حد تعبير سيكس فما كان اليهود غير شعب مستضعف فإذا استشرى فقد حطمته القوة وشتتت بنيه فى أربعة أركان المعمورة من قبل وما كانت تسنده صولة ولا جاه ولا قومية غير بروز بعض أفراده فى نواحى الحياة العامة وما كان هؤلاء بدورهم مؤيدين للصهيونية فى كل مزاعمها ، فإذا نزلنا على ماتدعيه الصهيونية من أنها خدمت قضية الحلفاء خلال الحرب فقد خدمها العرب بدورهم .

وكان من الهين على بريطانيا أن تتنكر لهم كما تنكرت للعرب وكما نفست على الفرنسيين مطامعهم فى سوريا أما وقد أيدتهم فلابد وأنهما كانت تبغى غير مصلحة الإمبراطورية فإذا كانت قد تبنت فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين وأصدرت وعد بلفور وحملت فرنسا على تأييده وظفرت بموافقة الرئيس ويلسون عليه فلأنها أرادت أن تتخذهم تكأة للخلاص من الإدارة الدولية لفلسطين ، أما وقد ظفروا ببغيتهم وسلمت لهم فرنسا فى اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو بالانتداب على فلسطين فقد بقيت لهم مصلحة أخرى فى قيام الوطن القومى لليهود فيها وفى سبيل هذه المصلحة صدر قرار الانتداب وقد أدمج فى مقدمته وعد بلفور حتى تكون له من الحرمة والقداسة ما للمعاهدات الدولية وأشارت بنوده المختلفة إلى حقوق اليهود تحت إدارة الانتداب الجديدة والاعتراف بهيئة يهودية تنصح وتعاون الأدارة البريطانية فى كل ماله علاقة بإنشاء الوطن القومى اليهودى من المسائل الاقتصادية والاجتماعية

وغيرها ، كما أشارت إلى واجب إدارة الانتداب فى تسهيل هجرة اليهود إليه ، أما هذه المصلحة التى عناها الإنجليز وعنتهم من قيام الوطن القومى لليهود فى فلسطين فهو ضمان نفوذهم فى البلاد العربية فقد كانوا يحسون تقدم الوعى القومى وعرامته فى تلك البلاد وما يكشف عنه كل يوم من نذر ليست فى صالحهم ، فإذا أقاموا لليهود وطناً فى فلسطين فقد أوجدوا فى البلاد العربيـة قوة يمكن أن تـكون عوناً لهم على العرب إذا ما خرج هؤلاء عليهم ، وتـكون وسيلة لبسط نفوذهم على البلاد العربية ، فاليهود مهما بلغت قوتهم ستظل حاجتهم ملحة إلى سند دولة كبرى يعتمدون عليها فى مجابهة العداء العربى كما يعتمدون عليها فى دعم كيانهم الاقتصادى والقومى ، ثم أن فى قيام الوطن القومى لليهود فى فلسطين ما يشغل العرب عن قضاياهم الوطنية أو التفرغ لمشاكلهم الداخلية والخارجية ، وقد تحرز الإنجليز لليهود بدورهم فخلقوا إلى جوارهم إمارة شرق الأردن لتـكون وسيلة لخضد شوكتهم وتهديدهم ، إذا ما تمردوا عليهم أو انقلبوا ضدهم .

وأخطأ التوفيق بريطانيا فى سياستها الشرقيـة فما بقى اليهود على عهدهم لها وما استطاعت أن تتخذ منهم أداة لتأييد نفوذها فى البلاد العربية أو أن تحد من عرامة الثورات القومية فيها بل أضافت إلى عوامل العداء العربى لبريطانيا عاملا جديداً كان سبباً فى القلاقل والاضطرابات وثورة النفوس وغليانها فى تلك المنطقة الحساسة من مناطق الخطر فى العالم .

وعمل أبناء صهيون لأنفسهم ولأهدافهم من أول الأمر وسخروا من الطمع البريطانى وسيلة لتحقيق مراميهم حتى إذا استنفدوا أغراضهم انقلبوا على حماتهم ومؤيديهم بالأمس وراحوا يصلونهم من نيران غضبهم وحقدهم ما عجل بانهيـــار النفوذ البريطانى فى فلسطين ، فقد رأى اليهود أخيرا أن الاحتلال البريطانى يحول بينهم وبين قيام إسرائيل المأمولة وإعادة بناء صهيون فشنوها حرباً لا هوادة فيها ضد الإنجليز حتى حملوهم على الجلاء عنها فى منتصف عام ١٩٤٨ .

وخلق تأييد بريطانيا لليهود نوعاً من العداء المرير لها فى البلاد العربية لم تحسه

فى غمرة نشوتها بالانتصار وحلمها فى سيادة العالم فى ظل السلام الذى أقامت دعائمه فى فرساى وبقى الشك عند العرب فى نوايا بريطانيا وصدقها حائلا يمنع من قيام علاقات ودية بينها وبينهم ، ولا شك أن خيانة بريطانيا لعهودها مع العرب وتنكرها لحقوقهم وأمانيهم الوطنية والقومية قد قضى قضاء تاماً على إمكان قيام علاقات ودية معهم وعجل بانهيار نفوذهم فى بلدان الشرق الأوسط ، ذلك النفوذ الذى يحتضر فى غمرة الأحداث الدولية الحاضرة والذى لا يرجى له قيام بعد الآن .

ولم تكتف بريطانيا بخيانة العرب والتنكر لعهودها ووعودها ، بل تنكرت أيضاً لمواثيق عصبة الأمم التى أقاموها لفرض سلامهم المزعوم على العالم ولم يكن هناك نفوذ حقيقى فى المجتمع الدولى لغيرها أولا ولفرنسا ثانياً فقد أصبح ويلسون لعبة تتقاذفه أهواء كليمنصو الفرنسى ولويد جورج الإنجليزى ، بينما وقف أعضاء مجلس الحلفاء الأعلى فى مؤتمر الصلح يتفرجون وكأنهم أعضاء شرف فى ندوة من ندوات التمثيل وطبقت المواثيق تطبيقاً بدت فيه ملامح الطمع الإنجليزى والفرنسى واضحة جلية ، وجاء الانتداب البريطانى والفرنسى فى البلاد العربية صورة واضحة لهذه المعالم فكان أول خيانة للمواثيق الدولية وعهود عصبة الأمم فقد نصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق العصبة على أن تقتصر مهمة الدولة المنتدبة وذلك فى حالة الشعوب المتقدمة التى كانت تحت حكم الأتراك ، على تقديم المساعدة وإسداء المشورة حتى تستطيع تلك الشعوب أن تصل إلى المكانة التى تؤهلها للاستقلال التام وتولى أمورها بنفسها كما نصت على وجوب تعرف رغبات هذه الشعوب فى اختيار الدولة التى تنتدب لها .

ولم ترع الدولتان الطامعتان هذه الشروط وجعلتا من الانتداب بديلا عن الاستعمار ولم تتحريا رغبات الشعوب فى اختيار الدولة المنتدبة ، وظهر التناقض والتضارب بين هذه المثل الإنسانية الزائفة التى أجملها الميثاق وبين الإعتراف بوعد بلفور وإجمال حقوق لليهود فى فلسطين فإن فى هذا الاعتراف عدواناً صريحاً على حقوق العرب ومقدساتهم الدينية والمدنية أشارت إليه لجنة كنج وكرين ، وحذرت من فتح باب الهجرة على مصراعيه للصهيونيين وكشفت عن الهدف البعيد من

إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين وهو إنشاء دولة صهيونية لا يمكن أن يتم انشاؤها دون أن تتعرض حقوق المواطنين فيها من غير اليهود لأشد ألوان العدوان. وقد جاءت لجنة كنج وكرين فلسطين وهى تؤمن بدعوى الصهيونية وخرجت منها وقد عرفت أهداف الصهيونيين الحقيقية وهى الاستئثار بفلسطين وإجلاء مواطنيها عنها وإقامة دولة يهودية فيها فاستنكرتها وطالبت فى تقريرها بوضع حد للأطماع الصهيونية وتحديدها بما يربطهم بفلسطين من صلات روحية وحذرت من تشجيع هجرة اليهود إليها وبينت أن تنفيذ البرنامج الصهيونى لن يتم إلا قهراً وبقوة السلاح وليس من المعقول أن يستخدم الحلفاء السلاح لتنفيذ قرارات جائرة.

ولم تغب هذه الحقائق لا عن الحكومة الإنجليزية ولا عن الصهيونيين فعملوا جميعاً على كسب موافقة ولو ضمنية من الملك حسين على إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين وسعوا سعيهم لدى فيصل عله يتغلب على إرادة أبيه ولكن فيصل كان كأبيه فى رفض المشروع وإن اختلف عنه فى الطريقة والأسلوب فقد قيد الاعتراف بالوطن القومى لليهود فى فلسطين فى اتفاقه مع وايزمان بموافقة الحلفاء على قيام الدولة العربية الموحدة المستقلة فى الحدود التى جرى بها اتفاق الحسين ـ مكماهون، وفشل سعى وايزمان ونفذ المشروع دون موافقة العرب أو استشارتهم.

وكان الاستفتاء الذى قامت به لجنة كنج وكرين فى البلاد العربية هو الاستفتاء الوحيد الذى تم لتعرف آراء العرب والوقوف على حقيقة رغباتهم وكان من الممكن أن يكون أساساً لتنفيذ ما نص عليه عهد العصبة من تعرف رغبات الشعوب فى البلاد التى كانت تابعة للدولة العثمانية أو أن يجرى استفتاء دولى آخر يؤيد قرارات اللجنة الامريكية أو ينفيها، ولكن الحلفاء لم يأخذوا بتقرير لجنة كنج وكرين ولم يقوموا باستفتاء آخر تنفيذاً لعهد العصبة وساروا فى سياسة الإنتداب وفى تنفيذ وعد بلفور وفق أهوائهم ومراميهم الخاصة وقرروا الإنتداب البريطانى على فلسطين والعمل على تحقيق فكرة الوطن القومى لليهود فيها، فإذا كان صدور وعد بلفور فى فبراير سنة ١٩١٧ هو البداية النظرية لمشكلة فلسطين فإن صدور قرار الإنتداب

فى ابريل سنة ١٩٢٠ وموافقة عصبة الأمم عليه فى يوليه سنة ١٩٢٢ هو البداية الحقيقية والإخراج العملى لها .

وبرزت هذه المشكلة فى صورة نضال رهيب بين العرب الذين يدافعون عن تراثهم ومقدساتهم واليهود الذين يدعون فى الأرض المقدسة حقوقا وملكا يرجع إلى بضع عشرات من القرون واتسم هذا النضال بقوة الدوافع الروحية والمادية التى تدفع كلا من الفريقين كما اتسم باتصاله بقوى خارجية قدر لها أن تكون حكما بين المتناضلين ولعبت فى هذا النضال عصبية كل من الفريقين دورها القوى البعيد عن موطن النزاع فكانت تقف وراء كل فريق منهما عصبيته وعنصريته تنصره وتؤيده وتدعو له ولبست المشكلة فى نهايتها هذه الصورة من النضال العنصرى بين العرب واليهود لا فى فلسطين فحسب وإنما فى مختلف أنحاء العالم الخارجى .

وتتطور المشكلة فى ثلاث مراحل متعاقبة اتفقت كلها فى العوامل الأساسية التى كيفت وجودها واختلفت فى قوة هذه العوامل بعضها إلى بعض فى كل مرحلة منها على حدة كما تأثرت بدخول عوامل جديدة أخذت تسيطر على اتجاهاتها الحقيقية وأسلوب كل منها فى تناولها ، وقد بدأت المرحلة الأولى بسعى الصهيونية إلى تهويد فلسطين وترجع إلى جهود منتفيورى وهرزل الأولى وتتطور بإعلان وعد بلفور وتنتهى باعتراف عصبة الأمم بالوطن القومى لليهود فى فلسطين وتتسم بتلك المناورات الخفية الماكرة التى قام بها الصهيونيون لتحقيق فكرتهم ، وأما المرحلة الثانية فهى التى تبدأ بقيام الانتداب البريطانى فى فلسطين وتتسم بإصرار بريطانيا على تنفيذ تعهداتها للصهيونيين والثورات التى قام بها العرب ضد اليهود والعداء الذى تأصلت جذوره فى نفوسهم للانجليز وإقبال المهاجرين اليهود من مختلف بقاع العالم على فلسطين وانتقال ملكية مساحات واسعة من الأراضى الزراعية إلى أيديهم وينتهى بإعلان سياسة الانجليز الجديدة حيال المشكلة الفلسطينية فى الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ وتبدأ المرحلة الثالثة بقيام الحرب وتحول سياسة الصهيونية عن التعاون مع الانجليز وإعلان مقاومتها السافرة العنيفة لهم بعد الحرب ودخول الولايات المتحدة كعامل جديد فى المشكلة وخاتمة الإنتداب البريطانى على فلسطين وقيام الحرب النظامية بين الدول العربية واليهود وتنتهى بإعلان دولة

إسرائيل لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطورها مازالت خاتمتها فى ضمير الغيب .

والمرحلة الثانية هى أهم هذه المراحل الثلاث جميعا فهى التى شيد خلالها الكيان الفعلى للدولة اليهودية كما رسموا خطوطها فى مؤتمرهم الأول بمدينة بال بسويسرا وكانت بريطانيا فى هذه المرحلة أكبر نصير للصهونيين واستغلوا تحيزها لهم حتى آخر قطرة من الغفلة البريطانية ولم تصح بريطانيا من غفلتها إلا على عمق الهاوية التى تتردى فيها مصالحها بإغضاب العرب ونصرة الصهيونية التى أخذت تلمس من أهدافها فى إقامة دولة يهودية لها كيانها الذى يستند إلى نفوذ اليهود فى العالم ما يجب نظريتها السياسية الخاطئة فى إمكان اتخاذ اليهود وسيلة لدعم نفوذها فى البلاد العربية وسيطرتها على الشرق الأوسط .

وشهدت هذه المرحله من عنف المقاومة العربية فى الدفاع عن الوطن والأعراف والمقدسات مايغفر لهم ماأصاب جهادهم من فشل وما كانت عليه خطتهم من تباين واضطراب وما انساق اليه بعضهم من بيع أراضيهم ، أما فشل جهادهم فقد كان سببه وقوف سلطة الانتداب البريطانية إلى جانب اليهود وانتصارها لهم ، وأما تباين خطتهم واضطرابها فإن الهيئة التنفيذية العربية التى انتخبت بعد المؤتمر السورى العام فى دمشق وقدر لها أن تقود المقاومة العربية لم تكن تستند إلى كيان مادى من القوة المنظمة أو من عون الشعوب العربية التى شغلت بمشاكلها الخاصة وقضاياها الوطنية ، فلم يكن لها من سبيل للمقاومة إلا عقد المؤتمرات وإصدار البيانات والاحتجاجات الحماسية دون التفكير فى خطة عملية لانقاذ الأراضى من التسرب إلى أيدى اليهود ، فقد غلب اندفاعهم العاطفى على كل سياسة حكيمة رشيدة وتمسكوا بشرعية حقوقهم أكثر مما تمسكوا بحيازة أراضيهم ، وإذا اغتفرنا لأهل فلسطين فشل جهادهم فإنا لا نغفر لهم إهمالهم مقاومة الخطة الصهيونية التى ترمى إلى تملك الأرض وحيازتها وإن تلمس لهم البعض عذرا فى أن الأرض التى ابتاعها اليهود كانت ملكا لبعض اللبنانيين منذ كانت فلسطين جزءا من ولاية بيروت فى العهد العثمانى وقد عمدوا إلى بيع أراضيهم فى العهد الجديد بأبخس الأثمان ، كما أن جزءا من هذه

الأراضى التى ابتاعها اليهود كانت ملكا لبعض الفلسطينيين المشتغلين بالصناعة وأرادوا الانتفاع بأثمانها المرتفعة فى استثماراتهم الصناعية وهناك قلة من الفلاحين عمدت إلى بيع أراضيها تحت إغراء الأثمان الباهظة التى دفعها اليهود . ولكن هذا كله لا يبرر إهمال الهيئة التنفيذية العربية الاهتمام بانتقال الملكية الزراعية إلى أيدى اليهود وهى الأساس الذى قامت عليه سياستهم لتهويد فلسطين وان كان عذرها الأكبر فى أنها لا تملك القوى المادية التى يملكها اليهود ولا تستند إلى معونة مالية خارجية كالتى يستندون اليها وتقصر مواردها المالية عن القيام بهذا العمل ، كما أن التنظيم الداخلى للهيئات الصهيونية كان يفوق بكثير التنظيم الداخلى للهيئات العربية فقد قام على الدراسه العلمية الصحيحة والتنظيم الجماعى المحكم واتسم بوحدة الغاية ووحدة الشعور والتجانس أكثر مما اتسمت تنظيمات العرب وتجانس تفكيرهم وإن ظلت وحدة الشعور بين عرب فلسطين كأقوى ماتكون ولم يستطع اليهود أن يفرقوا بينهم عند ماراحوا يبثون دعايتهم الماكرة فى نفوسهم ويبذرون بذور الفرقة والعداء الطبقى بين صفوفهم وبقيت وحدتهم الروحية تجذبهم إلى مقاومة الصهيونية مقاومة لاهوادة فيها وتمدهم بوحى من الشعور الجماعى يدفعهم إلى القتال دون ما سابقه من تدبير أو إعداد

وقد عمل زعماء اليهود فى فلسطين على تجنب الاشتباك مع العرب حتى لايشغلهم قتالهم عن التفرغ لإنشاء الوطن القومى وتنفيذ سياسة الصهيونية فى تهويد فلسطين ولكنهم ما استطاعوا أن يكبحوا جماح أتباعهم أو يحولوا بينهم وبين إثارة العرب واستفزازهم فوقعت تلك المصادمات العديدة فى القدس وبيسان ويافا من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٩ عندما عمت الفتنة أكثر مدن فلسطين لأسباب تافهة ما كانت تكفى وحدها لإثارة نزاع أو وقوع شغب لولا ما كان فى نفس كل منهما للآخر من مقت وكراهية. ووقفت سلطة الإنتداب إلى جانب اليهود تحميهم وتكفيهم مؤونة الدفاع عن أنفسهم ضد العرب فهيأت لهم نوعا من الاستقرار والحماية اللازمين لتنفيذ سياستهم وتحقيق أهدافهم ووقعت بعض هذه الاضطرابات فى الفترة التى سبقت صدور قرارات الإنتداب وكانت السلطة العسكرية البريطانية هى التى تقوم بالحكم فى فلسطين وجاءت نتيجة

للاتجاه العام فى دوائر الحلفاء إلى تنفيذ وعد بلفور وما أثاره من روح العداء العنصرى بين الطائفتين حتى إذا صدرت قرارات الإنتداب اتقد هذا العداء العنصرى واشتد سعيره فسطر هذه الخطوط الدامية فى تاريخ فلسطين .

ولم يكن لهذا العداء العنصرى أثر من قبل فقد عاش العرب واليهود فى جيرة رضية طوال قرون مضت تجمعهم أواصر قوية من الوئام والألفة لم يكن لها ضريب فى بلدان الغرب التى حفل تاريخها بالعداء لليهود والتنكيل بهم واضطهادهم ونز هذا العداء الجديد بعدة عوامل نفسية كان أثرها قويا فيما اتسم به من مرارة وعنف ووحشية فقد عز على العرب أن يصبح اليهود سادة أراضيهم وبلادهم وأن تكون لهم هذه القوة الجديدة التى يدلون بها ويستعلون على العرب ووجد اليهود فى العرب عدوا تمثلت فيه كل القوى التى ناوأتهم من قبل فصبوا عليهم جام حقدهم وغضبهم الذى دارته السنون والأحقاب وغلفته بغلالة من الذل والمسكنة فكان انتقامهم من العرب انتقاما لكل ما نزل بهم طوال حياتهم من اضطهاد وتشريد وكانت هذه القسوة البالغة التى ظهرت فى تمثيلهم بقتلى العرب واعتدائهم على الأطفال والشيوخ والنساء تنفيسا عن الكبت الذى ظل يكمن فى أعماقهم جيلا بعد جيل .

وبدأت بريطانيا فى تطبيق سياستها المرسومة لفلسطين بعد إعلان قرارات المجلس الأعلى للحلفاء فى سان ريمو بانتدابها عليها فأسرعت بإلغاء الإدارة العسكرية وقيام حكومة مدنية على رأسها الوزير اليهودى الإنجليزى هربرت صموئيل مندوبا ساميا لبلاده فيها وكان من مؤيدى الوطن القومى لليهود فى فلسطين ولعب دورا بارزاً فى إصدار وعد بلفور وقد قام غداة إعلان الحكومة الجديدة بإذاعة بيان رسمى عرض فيه سياسة بلاده ومسئوليتها الجديدة فى فلسطين بعد اضطلاعها بالانتداب عليها والتعهد بإنشاء وطن قومى لليهود فيها ، وجاء تصريح تشرشل وزير المستعمرات فى يوليه سنة ١٩٢٢ تأييدا لوعد بلفور وبيان هربرت صموئيل ولم تكن وثيقة الانتداب قد مرت بعد فى مجلس عصبة الأمم ، فلما صدرت بموافقتها وقد أدمجت وعد بلفور فى مقدمتها أصبح للوطن القومى لليهود فى فلسطين كيان دولى وقانونى . وقام هربرت صموئيل حال إعلان الحكومة الجديدة بتكوين مجلس

استشارى من الموظفين البريطانيين وممثلى المسلمين والمسيحيين واليهود . ولما وضع نظام الإدارة الجديد لفلسطين ونص على قيام مجلس تشريعى بدل المجلس الاستشارى يمثل فيه البريطانيون بإحدى عشر عضوا من موظفى الحكومة وإثنى عشر عضوا منتخبا لكل الطوائف المختلفة فيكون للعرب المسلمين ثمانية أعضاء ولكل من المسيحيين واليهود عضوان ، وقاطع العرب انتخابات المجلس التشريعى على أساس أنهم لا يمثلون فيه بأغلبية صريحة مادام الأعضاء الانجليز سيمثلون رأى الحكومة التى تعتنق تنفيذ سياسة الوطن القومى وتيسير الهجرة اليهودية وامتلاك اليهود للأرض وهم بالإضافة إلى الأعضاء اليهود أغلبية المجلس ولما فشل تشكيل المجلس التشريعى اقترحت الحكومة البريطانيه انشاء هيئة عربية تكون بمثابة الوكالة اليهودية ولها حقوقها ورفض العرب هذا العرض حتى لا يكون فى قبولها اعتراف منهم بوضع الوكالة اليهوديه أو المساواة باليهود .

ولم تقتصر وثيقة الانتداب على أدماج وعد بلفور فى مقدمتها بل تناولت بنودها كل مايتعلق بإنشاء الوطن القومى فقد تضمنت المادة الثانية مدى مسئولية بريطانيا عن الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية التى تكفل إنشاء الوطن القومى اليهودى كما نصت المادة الرابعة على الاعتراف بالجمعية الصهيونية كهيئة يهودية عمومية ومنحتها كثيرا من الحقوق والمزايا الاجتماعية والاقتصادية والإدارية ماجعل منها قوة لها شأنها فى مستقبل البلاد وتناولت المادة السادسة شئون الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتنظيمها وتيسيرها بإشراف الهيئة اليهودية ومساعدتها ، وبدىء فى تنفيذ ذلك رسميا فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ وإن كان تنفيذها العملى قد بدأ قبل ذلك فى يوليه سنة ١٩٢٠ فأخذت وفود اليهود تترى على فلسطين وتتزايد عاما بعد عام منذ ذلك الوقت حتى بلغ عدد الوافدين إليها حينئذ ٥٫٥٠٠ ارتفع عام ١٩٢٣ إلى مايقرب من ٧٫٤٠٠ مهاجر ازداد حتى وصل إلى ١٢٫٨٠٠ مهاجر عام ١٩٢٤ ونيف على ٣٣٫٨٠٠ مهاجر فى عام ١٩٢٥ .

ولم يثر العرب لسيئة من سيئات الانتداب قدر ماثاروا على توافد هذه الأعداد الوفيرة من اليهود إلى بلادهم فقد ظهر لهم جليا أن القصد منها هو تغليب اليهود على

العرب بزيادة عدد النازحين إلى فلسطين من اليهود حتى يفوق عددهم عدد العرب وتتم لهم السيطرة على البلاد بحكم كثرتهم العددية أولا ثم نشاطهم الإقتصادى والصناعى الذى يفوق نشاط العرب بمراحل ثانيا فيهبط مستواهم فى هـذا المجتمع الجديد إلى مستوى الأجراء وخاصة بعـد أن يستولى اليهود على مايملكونه من أراض زراعية بمختلف الوسائل والحيل ، ولا يبقى لهم بعـد ذلك فى البلاد من كيان غير كيانهم التاريخى المسلوب .

وعبر العرب عن قلقهم تارة بالاحتجاجات يدبجونها ضد الدولة المنتدبة وسياسة الصهيونية ، وتارة بتلك المصادمات التى كثيرا ما كانت تقع بينهم وبين اليهود ، ولـكن سلطة الإنتداب استطاعت أن تقمع هذه الحركات الثورية وتؤيد النظام فى البلاد حتى كان عام ١٩٣٦ عندما قام أهل فلسطين عن بكرة أبيهم فى ثورة عارمة يحاربون الصهيونية وسلطة الانتداب معا وسرت فى البلاد العربية بادرة من الحماس الجارف لنصرة عرب فلسطين ومعونتهم وتوافد المتطوعون من سوريا والعراق إلى فلسطين يشـدون أزر أخوانهم ، وجاءت هذه الثورة نتيجة عاملين أولهما اشتداد الهجرة اليهودية فى الأعوام الأخيرة وكانت قد خفت بعض الشىء أثناء وقوع الأزمة المالية العالمية التى عمت العالم بين الحربين ، ولـكنها عادت ترتفع بعد عام ١٩٣٣ عندما اجتاح الاضطهاد النازى فى ألمانيا طوائف اليهود وحملهم على الهجرة فـكانت فلسطين موئلهم الذى يفدون اليه ، ودخل بعضهم البلاد خلسة أو عن طريق الهجرة المشروعة وقد بلغ عدد النازحين إلى فلسطين من اليهود عام ١٩٣١ ما يقرب من ٤٫٠٠٠ مهاجر قفز إلى الضعف فى سنة ١٩٣٣ حتى إذا كان العام التالى وصل إلى ٤٦٫٠٠٠ مهاجر وإلى ٦٠٫٠٠٠ مهاجر فى العام الذى يليه ، أما العامل الثانى فهو يأس العرب من العدالة البريطانية وتحيز حكومة فلسطين لليهود وفشل اللجان التى اقترحتها الحـكومة البريطانية لتحقيق أسباب ثورات العرب والوصول إلى حل يرضيهم ورفض المطالب التى تقدم بها العرب وتتلخص فى وقف الهجرة ومنع بيع الأراضى إلى اليهود وقيام حكومة ديمقراطية فى فلسطين وقد أجمعت الأحزاب العربية عليها وتقدمت بها إلى المندوب السامى فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

وشهدت السنوات التى سبقت قيام الثورة نمو الأحزاب السياسية لعرب فلسطين فتكون حزب الاستقلال عام ١٩٣٢ وكان يعبر عن وحدة العرب التى تمسك بها أهل فلسطين وعقدوا لأجلها المؤتمرات مابين دمشق والقدس واستمروا يناضلون فى سبيلها بزعامة موسى كاظم الحسينى حتى وفاته عام ١٩٣٤ فاتخذ الوعى السياسى بين عرب فلسطين وجهة جديدة هى التى قامت عليها الأحزاب السياسية التى تكونت بعد ذلك ، وتكون حزب الدفاع الوطنى فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ برئاسة رشيد النشاشيبى وحزب عرب فلسطين برئاسة جمال الحسينى فى مايو سنة ١٩٣٥ وحزب الإصلاح العربى فى يوليه والكتلة الوطنية فى أغسطس من نفس السنة ، ورأى زعماء هذه الأحزاب أن وحدة الغرض الذى يناضلون من أجله لا تتفق وتعدد أحزابهم فاتجهوا إلى توحيد جهودهم وكانت المطالب التى تقدموا بها إلى المندوب السامى فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أول أثر لوحدتهم الجديدة ، وما مرت بضعة أيام على قيام الثورة حتي اتحدت هذه الأحزاب فى هيئة واحدة برئاسة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين عرفت باسم الهيئة العربية العليا .

وقد بدأت الثورة فى قطاع طولكرم ـ نابلس فى ١٨ ابريل سنة ١٩٣٦ وعمت كل جهات فلسطين فى اليوم الحادى والعشرين منه وفى الخامس والعشرين تكونت الهيئة العربية العليا من الأحزاب القائمة وتقدمت بمطالبها إلى المندوب السامى وهى لا تخرج عن المطالب القديمة التي تقدم بها زعماء الأحزاب من قبل ، ولا تختلف عما يهدف اليه عرب فلسطين جميعا وهى قيام حكومة ديمقراطية للبلاد ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومنع بيع الأراضى لليهود ورفضت الهيئة العربية العليا وقف الثورة قبل إجابة هذه المطالب ولكن حكومة فلسطين بدلا من أن تمنع الهجرة ، سمحت بقبول مهاجرين جدد فوق العدد المقرر .

واتخذت الثورة طابعا عنيفا حمل الحكومة البريطانية على التفكير فى أمرها فأعلنت عن تكوين لجنة ملكية برئاسة « لورد بيل » للتحقيق فى أسباب الثورة والنظر فى مطالب أهل فلسطين من العرب واليهود على أن يستجيب الثوار للهدوء ، ولكن الثورة اشتدت عنفا ورفضت الهيئة العربية العليا دعوة

الثوار إلى الهدوء ولكنها رجعت عن إصرارها بعد توسط ملكي العراق والمملكة العربية السعودية وأمير شرق الاردن ، فأبحرت اللجنة إلى فلسطين فى الخامس من نوفمبر سنة ١٩٣٦ وفى نفس اليوم أعلنت وزارة المستعمرات عن قبول مهاجرين جدد خلال ستة أشهر قادمة بمعدل ١٫٨٥٠ مهاجر كل شهر ، فنادت الهيئة العربية العليا بمقاطعتها واستمرت على موقفها حتى اقتنع رجالها بضرورة عرض قضيتهم على اللجنة نزولا على نصيحة ملكي العراق والمملكة العربية السعودية ، فاتصلوا بها وعرضوا مطالبهم عليها خلال تلك الأيام القليلة التى سبقت رحيلهم .

ولم يكن اهتمام بريطانيا بقضية فلسطين ناجما عن اشتعال الثورة فحسب ، فقد كانت تعتقد أنها لا تلبث أن تخمد أو إنها قادرة على إخمادها بوسائلها الملتوية أو الصريحة ، ولكن عنف الثورة والخسائر التى نزلت بالإنجليز حملاها على التفكير فى مستقبل هذه البقعة الهامة من بقاع الشرق الاوسط فى الوقت الذى اكفهر فيه جو السياسة الدولية إثر هجوم ايطاليا على الحبشة وتحديها لبريطانيا ومن ورائها عصبة الامم وإعلان موسوليني زعيم ايطاليا الفاشية لحقوق ايطاليا التاريخية فى البحر الابيض المتوسط ، ثم قيام النازى فى ألمانيا بتحطيم قيود معاهدة فرساى واعتناقهم سياسة القوة لتنفيذ أهدافهم مما ينذر بحرب عالمية جديدة ، فلم تجد بريطانيا بدا من مهادنة عرب فلسطين وهم يتمتعون بعطف العالم الإسلامى على قضيتهم ومناصرة الشعوب العربية لهم ، كما تنبهت إلى ضرورة الوصول إلى حل لمشاكلها المعلقة مع دول الشرق الاوسط سواء منها ما كان خاضعا لنفوذها أو بعيدا عنه ، وكان إهتمامها بتقرير اللجنة الملكية وهى التى عرفت بلجنة بيل اهتماما صادقا يدفعها إليه ضرورة الوصول إلى حل لمشكلة فلسطين .

وقامت لجنة بيل بتحقيق مشكلة فلسطين بما استطاعت من جهد ووسائل وكانت أقرب إلى الإنصاف فى ابراز الحقائق من غيرها ولكنها خضعت للدعاية الصهيونية فى النتيجة التى وصلت اليها والحل الذى نادت به فلم تنصف مطالب العرب قدر ما أنصفت حقهم وسلامة قضيتهم فقد تعرضت لحق العرب فى الحرية والاستقلال وإقامة حكومة ذاتيه أسوة بإخوانهم فى البلاد العربية الأخرى ولم تنكر عليهم هذا

الحق ولكنها رأت فيه إخلالا بتعهدات بريطانيا لإنشاء الوطن القومى اليهودى كما رأت فى إفساح الهجرة اليهودية إلى فلسطين غزوا يهوديا بطيئا سينتهى أمره بالتفوق على الأكثرية العربية واغتصاب حقوقها وانتقدت الأسلوب الذى جرت عليه بريطانيا فى تطبيق سياسة الانتداب وسارت فى تحليل هذه السياسة حتى انتهت إلى أنها غير قابلة للتطبيق وإن الانتداب كما أثبتت نتائجه تجربة فاشلة ، ثم رسمت لنفسها فى علاج المشكلة دستورا يهدف إلى تحقيق ثلاثة أمور يتصل بعضها ببعض تماما وهى « أن يكون المشروع قابلا للتطبيق ، وأن يتفق مع تعهدات بريطانيا ، وأن ينصف العرب واليهود » ، ولم تجد حلا لذلك أبدع من اقتراح التقسيم فيكون السهل الساحلى لليهود والجزء الداخلى للعرب على أن يضم إلى شرق الأردن ويكون معها دولة واحدة يصلها بالبحر ممر ضيق ينتهى عند يافا وترتبط كل من هاتين الدولتين مع بريطانيا بمعاهدة تضطلع فيها بمهمة الانتداب ، أما الأماكن المقدسة فى القدس وبيت لحم والناصرة فتبقى تحت حكم الدولة المنتدبة مباشرة .

ويلاحظ فى هذا المشروع أنه اعترف بحق اليهود فى إقامة دولة يهودية لم يمنحهم إياه وعد بلفور ولم تشر إليه وثيقة الانتداب . ثم أنه قسم تلك المساحة الضيقة من الأرض إلى ثلاثة أقسام منفصلة وإنه جعل من الدولة اليهودية بوضعها المقترح فاصلا بين البلاد العربية فى جنوبها وشمالها ، ولم يقبل العرب هذا المشروع واستنكروه أما اليهود فقد لقى تحبيذ أكثريتهم عامة وإن رفضوا معظم بنوده وفوض المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى زيورخ فى أغسطس سنة ١٩٣٨ الزعيم وايزمان مواصلة الجهود مع الحكومة البريطانية للوقوف على التفصيلات المقترحة لإنشاء الدولة اليهودية .

وعرض مشروع التقسيم على مجلس العموم فقرر عرضه على لجنة الانتدابات الدائمة بعصبة الأمم فأيدته مبدئياً ولكنها لم تحبذ استقلال الدولتين وفضلت بقائهما تحت الإنتداب مؤقتاً ، وطلبت إلى الحكومة الإنجليزية موافاتها بتفصيلات المشروع ، فألفت لجنة فنية برئاسة وودهد لدراسته ووضع التفصيلات اللازمة له . وقامت لجنة وودهد بعملها فى جو من القلق والتوتر فقد تجددت الاضطرابات فى فلسطين وشبت الثورة أعنف مما كانت وقاد عصابات الثوار « فوزى القاوقجى » وجعل يشن بهم

الغارات الفجائية العنيفة على مراكز الحكومة والمستعمرات اليهودية وكانت حكومة الإنتداب قد أمرت بحل اللجنة العربية العليا إثر قتل حاكم طبرية الإنجليزى وإلغاء وظيفة المفتى أمين الحسينى الذى أصبحت له زعامة عرب فلسطين بعد موت موسى كاظم الحسينى ، وألقت القبض على زعماء العرب إلا أن المفتى تمكن من الفرار إلى لبنان ومنها إلى العراق حيث ظل يتابع سير القضية إلى أن أعلنت الحرب العالمية الثانية فانتقل إلى ألمانيا كما تمكن جمال الحسينى من الفرار بدوره إلى سوريا أما الآخرون فقد نفوا إلى سيشل ثم نقل بعضهم إلى روديسيا بجنوب أفريقا أثناء الحرب الأخيرة وظلوا بها حتى أفرج عنهم بعد الحرب .

وانتهت لجنة وودهد من عملها والثورة مازالت مستعرة ونشرت تقريرها فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ ، وانتقدت فيه مشروع التقسيم وبينت استحالة تنفيذه وبنت رأيها على أن التقسيم سيثير مشكلة أخرى هى وجود جالية عربية ضخمة فى الدولة اليهودية المقترحة تقرب فى مجموع عددها من مجموع عدد رعاياها اليهود وستكون نفس المشكلة فى الدولة العربية كما أن الكيان الإقتصادى لكل من الدولتين سيبقى ضعيفاً وأشارت أخيراً بإقامة اتحاد اقتصادى بين الدولتين على أساس مشروع التقسيم ، وانتهت الحكومة البريطانية وقد أدركت مدى مايعترض مشروع التقسيم من صعوبات إلى العدول عنه .

وبدأ عام ١٩٣٩ والثورة مازالت قائمة واكفهرار الجو الدولى يزداد حلكة وينذر بشر مستطير وآلهة الحرب تنشر أجنحتها الرهيبة لتنفخ فى بوق الخراب والدمار وأصبح الناس يتوقعون الحرب بين آونة وأخرى ، فعملت الحكومة البريطانية على حل مشكلة فلسطين حلا يكفل لها الاستقرار والهدوء ويؤمن مصالحها فى تلك المنطقة الحيوية فى نطاق استراتيجيتها الإمبراطورية قبل أن تنشب الحرب ورأت أن يقوم العرب واليهود بالتعاون معها على حل المشكلة فدعت إلى مؤتمر يعقد بلندن بين اليهود والعرب . ووجهت الدعوة إلى مصر والمملكة العربية السعودية والعراق وشرق الأردن واليمن ومثل مصر سفيرها فى لندن ورئيس الديوان الملكى وبعثت العراق بنورى السعيد والمملكة العربية السعودية بالأمير فيصل ومثل اليهود

وايزمان على رأس تسعة عشر مفوضاً يمثلون الوكالة اليهودية والهيئات الصهيونية الأخرى فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ودول شرق أوربا ورفض عرب فلسطين حضور المؤتمر مالم يمثلهم اثنان من زعمائهم وفكت الحكومة البريطانية نزولا على رغبتهم إسار معتقلى سيشل على أن تكون إقامتهم خارج فلسطين .

وعقد المؤتمر فى السابع من فبراير سنة ١٩٣٩ وعرف بمؤتمر المائدة المستديرة ورفض ممثلو عرب فلسطين أن يجلسوا على مائدة واحدة مع اليهود فانقسم المؤتمر إلى قسمين ، قسم يمثل العرب وآخر يمثل اليهود واجتمع كل منهما على حدة مع الممثلين البريطانيين ، وانفض المؤتمر فى ٢٧ مارس من غير أن يصل إلى نتيجة ، وأرادت الحكومة البريطانية أن تضع الفريقين أمام الأمر الواقع فأجملت سياستها فى كتاب أبيض صدر فى ١٧ مايو بعد أن نال موافقة البرلمان الإنجليزى ، أعلنت فيه صراحة أنه ليس من أهدافها إنشاء دولة يهودية فى فلسطين كما نفت دعوى العرب بضم فلسطين إلى البلاد العربية فى اتفاق الحسين ـ مكماهون وبينت أنها ترمى إلى إقامة حكومة مستقلة فى فلسطين تضم كلا من العرب واليهود وترعى مصالح الطرفين وترتبط بها بمعاهدة تؤمن مصالحها الإستراتيجية والإقتصادية على أن يتم إنشاؤها فى مدى عشر سنوات يمارس فيها الشعب الفلسطينى سلطات ومسئوليات أوسع بإشراف مستشارين من الإنجليز وتحت رقابة المندوب السامى ومن هذه النواة يتكون مجلس الوزراء فى المستقبل على أساس دستورى تشرع الحكومة البريطانية فى وضع أسسه مع مندوبى الشعب الفلسطينى ، فإذا عن لها تأجيل إعلان الحكومة المستقلة يجب أن تشاور فى ذلك مندوبى الشعب الفلسطينى ، ومجلس عصبة الأمم والدول العربية قبل اعلان قرار التأجيل . واعترض العرب على شرط المدة على أساس أنه يتيح لليهود زيادة عدد مهاجريهم إن سرا أو علانية خلالها وبذلك يزداد عدد ممثليهم فى البرلمان متى قام النظام النيابى فى البلاد كما اعترضوا على التحفظ القائل بتأجيل اعلان الحكومة المستقلة وكان بقاء هذا الشرط من أهم الأسباب التى دعت إلى رفض سياسة الكتاب الأبيض .

وتناول الكتاب الأبيض مسألة الهجرة وبدا أن الحكومة البريطانية قد اقتنعت بخطر الهجرة اليهودية المفتوحة فأخذت بتحديدها وقررت أن تستوعب فلسطين فى مدى خمس سنوات ٥٠٫٠٠٠ مهاجر بمعدل ١٠٫٠٠٠ مهاجر سنويا عدا ٢٥٫٠٠٠ مهاجر هو حصة فلسطين فى إيواء المشردين الذين وقع عليهم اضطهاد النازية فيكون المجموع الكلى ٧٥٫٠٠٠ مهاجر ، وأرادت بذلك أن يصل عدد اليهود فى نهايتها إلى ثلث عدد سكان البلاد كما أشار إلى مشكلة الأرض التى نجمت عن انتقال ملكيات واسعة إلى أيدى اليهود بما يأتى : « بينت التقارير المختلفة التى صدرت عن اللجان المختصة أنه يجب تقييد انتقال ملكية الفلاحين العرب فى بعض المناطق إذا أريد المحافظة على مستوى معيشتهم الحالى ومنع قيام طبقة كبيرة من المعدمين العرب ، وعليه يجب أن يمنح المندوب السامى سلطات واسعة لتنظيم وتحديد انتقال ملكية الأرض » وأخذت الحكومة البريطانية بهذا التوجيه فسنت عام ١٩٤٠ قانونا بتنظيم ملكية الأراضى فى فلسطين قسمت البلاد بمقتضاه إلى مناطق هى :

١ — المنطقة «ا» وتشغل مساحة قدرها ٦٫٦١٥ ميل مربع فى المنطقة الجبلية المزدحمة بالسكان وتقع فى القطاع الجنوبى لفلسطين ومعظم أراضيها يحتاج إلى الإصلاح ولا سبيل إلى إصلاحها إلا بنفقات ورؤوس أموال طائلة وحرم على اليهود ابتياعها .

٢ — المنطقة «ب» ومساحتها ٣٫٢٩٥ ميل مربع حول بحيرة حولة والجليل والنقب وبعض الأجزاء الساحلية وقيد البيع فيها مالم يكن لمصلحة الطرفين وتحت إشراف الحكومة .

٣ — المنطقة « ج » حول بيت المقدس ومساحتها ثلثمائة ميل مربع ولم يقيد بيع أراضيها .

وقد أثار هذا القانون ثائرة اليهود واحتج عليه الأعضاء اليهود فى مجلس العموم البريطانى فكان رد وزير المستعمرات أنه إذا كان من حق اليهود على الحكومة أن تصون مصالحهم فإن من واجبها أن ترعى هذا الحق للعرب أيضا وقد قررت الحكومة من قبل أن تمنع نقل الأرض التى يشتريها اليهود إلى العرب وعليها أن تحمى العرب بإصدار مثل هذا القانون .

ومما هو جدير بالذكر أن اليهود قد ابتاعوا من الأرض حتى سنة ١٩٢٥ مامقداره ١٢٥٫٠٠٠ فدان ولم يكن بأيديهم أكثر من نصف هـذه المساحة قبل الحرب وفى سنة ١٩٣٩ بلغت مساحة مايملكونه أو يسيطرون عليه ٣٢٥٫٠٠٠ فدان وهو مايقرب من ربع مساحة الأراضى الزراعية فى البلاد .

وقوبلت قرارات الكتاب الأبيض بشعور يتراوح بين الرضاء والسخط فى نفوس العرب أما اليهود فقد أعلنوا سخطهم عليه واستنكروه وحملوا على قراراته وظهرت قوتهم الدولية فى رفض لجنة الانتدابات الدائمة بعصبة الأمم له ، ولكن الحكومة الانجليزية وقد بنت سياسة الكتاب الأبيض على ضوء مصالحها الإمبراطورية لم تلق بالا إلى هذا الرفض وسارت فى تطبيقها كما رسمتها وكان هذا بداية الجفاء بين اليهود وبريطانيا فانصرفوا عنها وقد استنفذوا أغراضهم منها إلى التعاون مع الولايات المتحدة التى أخذت تسند قضيتهم وتتبناها بما لهم من نفوذ قوى يتغلغل فى دوائرها الحكومية ويسود وسائل الدعاية المختلفة فى بلادها كما يتغلغل فيسيطر على اقتصادياتها ومنشئاتها المالية .

ولم تمض بضعة أسابيع على صدور الكتاب الأبيض حتى اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر واتجه الإنجليز إلى تسخير جهودهم للحرب التى تواجههم، وانتهت بذلك مرحلة حاسمة من مراحل إقامة الدولة اليهودية التى عمل اليهود لها وجهدوا فى سبيل خلقها واتسمت هـذه المرحلة بتطور الخطة والهدف لكل من من العوامل الثلاثة التى لعبت دورها على مسرح الحوادث، الإنجليز والعرب واليهود ، أما اليهود فقد رأوا نجاح الخطة الصهيونية إلى أبعد حد عندما استطاعت أن تسخر الأهواء والمطامع البريطانية لمصلحتها كما استطاعت أن تجذب بخطواتها الناجحة عطف اليهود وتأييدهم فى العالم وأصبحت الحركة الصهيونية حركة عالمية يلتف حولها كل يهود العالم ولا سيما طوائفهم القوية فى بريطانيا والولايات المتحدة ممن كانوا يعارضون فكرة الوطن القومى اليهودى خوفا على مصالحهم وحقوقهم التى اكتسبوها

على مر الزمن وكان النفوذ اليهودى فى هاتين الدولتين أقوى منه فى أى دولة أخرى فقد استطاعوا أن يسخروا النظم الاقتصادية والديمقراطية فيهما للظهور والدعاية لأنفسهم والمشاركة فى الحياة العامة والوصول إلى أرفع مناصب الدولة ، وكانوا من قبل برغم براعتهم المالية وتفوقهم الاقتصادى فى عزلة تكاد تكون تامة عن الشعب ، وكان هذا التوفيق الذى أصابته الصهيونية بداية خطوتها التالية لإقامة الدولة اليهودية والانصراف عن فكرة الوطن القومى .

أما العرب فقد تحولت أفكارهم أيضاً تبعاً لتطور الحوادث خلال هذه المرحلة من اعتناق فكرة الدولة العربية الموحدة التى قامت عليها الثورة العربية إلى تحقيق استقلال فلسطين قبل أن تطغى أعداد الوافدين من اليهود على الأكثرية اليهودية لأهل البلاد فإن قيام حكومة مستقلة فيها سيمكن أصحاب البلاد أنفسهم بحكم أكثريتهم العددية من التحكم فى مصير وطنهم والحد من مطامع الصهيونية التى تهدف إلى إقامة دولة يهودية تحت حماية الاستعمار الأجنبى .

وأما الإنجليز فقد حسبوا عندما اعتنقوا فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين وأيدوها ، أنهم سيتخذون من اليهود تكأة لنفوذهم واستعمارهم فى البلاد العربية حتى إذا لمسوا بعد المطامع الصهيونية وأنها تتجاوز ما رسموه لها ، أخذوا يحدون منها وكانت سياستهم فى الكتاب الأبيض دليل تحولهم عن تأييد الصهيونية تأييداً مطلقاً .

الانتداب الفرنسى

اتجه فلاسفة الاستعمار الفرنسى الحديث إلى الشرق بعد أن فقدت فرنسا امبراطوريتها فى الهند وأمريكا وكانت حملتها على مصر جزءاً من هذه السياسة التى رسموا خطوطها الشاملة لاقتحام الطريق البرى إلى امبراطوريتهم القديمة فى الهند ومنافسة الاستعمار الإنجليزى الغالب فى المناطق الأسيوية . ولم يقض فشل حملتها هذه على

بإصالة أهدافها التى وضعت تحقيقها نصب عينيها فظلت تسعى لكسب نفوذ لها فى مصر وفى سواحل الشرق ودارت معركة عنيفة بينها وبين انجلترا فى هذه المناطق حول النفوذ وكسب الامتيازات التجارية انتهت بغلبة انجلترا فى مصر والشرق ، ثم كان الاتفاق الودى بين الدولتين خاتمة صراعهما المرير فى الشرق ، وخرجت فرنسا من المعركة دون ما كسب حقيقى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط إلا مظاهر من نفوذ روحى وثقافى فى ساحل المشرق بدا أشد وضوحا فى لبنان بين الموارنة والكاثوليك منذ عام ١٨٦٠ ، منه فى أى منطقة أخرى من بلاد الشام .

وترجع علاقة فرنسا بهذه المناطق إلى عهد الحروب الصليبية وحملاتها العديدة على الشام ومصر حينذاك ، حتى إذا قامت دولة بنى عثمان كانت أسبق الدول الأوربية إلى الاتصال بها ومحالفتها وكسب الامتيازات التى لم تكن لغيرها فى أملاكها . وقد اقتحم الفرنسيون أرض المشرق فى أثواب التجار ثم ارتدوا فوقها مسوح الكهنوت وبعثوا بإرسالياتهم الدينية إلى بلاد الشام فوجدت مرتعها الخصيب بين اللبنانيين ، وانتشرت مدارسها العديدة التى ساهمت فى حركة البعث القومى وإحياء نهضة اللغة العربية والاتجاه إلى الغرب بثقافته ونظمه وحضارته ثم تحولت إلى أداة سياسية استعمارية تعمل على نشر اللغة الفرنسية وتهتم بها عن اللغة العربية وادعت فرنسا حماية الكاثوليكية فى بلاد الدولة العثمانية وأصبحت لها امتيازات دينية فى البقاع المقدسة وكانت أسرع الدول إلى التدخل عندما وقعت مذابح لبنان عام ١٨٦٠ فاحتلت بيروت وبعض المناطق الأخرى ولم تجل عنها حتى وضعت لائحة « النظام الأساسى » لحكم لبنان ونصت على أن يكون حاكمها مسيحياً يعاونه مجلس من اثنى عشر عضواً يمثلون الطوائف المسيحية والدرزية والإسلامية فيها .

وبقى النفوذ الفرنسى يحتل لبنان تسنده الثقافة الفرنسية التى تغلغلت بين اللبنانيين والعلاقات الطيبة التى تربط الفرنسيين بالموارنة والكاثوليك والرعاية الروحية التى

ادعتها فرنسا لنفسها فى تلك البقاع على الكاثوليك ولم يستطع النفوذ الفرنسى أن يتغلغل فى سوريا مثلما تغلغل فى لبنان فإن العصبية الإسلامية والنعرة العربية لم تتركا لها مجالا للنفوذ إليها ، ولكنها بقيت ترنو ببصرها نحو سوريا وتعتبرها مركزاً من مراكز نفوذها المنشود فى الشرق الأوسط ، ووقف مسيو بوانكاريه رئيس الحكومة الفرنسية فى مجلس الشيوخ عام ١٩١٢ يشير إلى مصالح فرنسا فى سوريا ولبنان وأنها قد عقدت العزم على المحافظة عليها واحترامها محذراً بذلك من خطر النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية ومنذرا ألمانيا من امتداد نفوذها إلى تلك البقاع ، وعندما عقد اتفاق سيكس - بيكو السرى خلال الحرب العالمية الأولى طالبت فرنسا ببسط نفوذها عليها بعد الحرب .

وظفرت فرنسا فى مؤتمر سان ريمو بقرار انتدابها على سوريا ولبنان ، وكانت قواتها قد احتلت بيروت بعد دخول فيصل دمشق على رأس قواته العربية مع القوات البريطانية بقيادة اللنبى ، ثم احتلت بعد ذلك اللاذقيـة وأنطاكية والاسكندرونة ، وحكمت البلاد حكما عسكريا فكان ذلك أول بوادر الجفاء بينها وبين العرب ، وازداد الجفاء حدة بعد موقف الفرنسيين من القضية العربية فى مؤتمر الصلح حتى نصحت لجنة كنج وكرين بعدم انتداب فرنسا على سوريا ، ولم يسلك الفرنسيون بعد انتدابهم على البلاد مسلكا يرضى العرب أو يحببهم فيهم فظل التوتر والجفاء قائماً بينهما وكانت تلك الثورات العديدة التى قام بها العرب بعد ذلك ضد الحكم الفرنسى أثراً من آثار الأسلوب الفرنسى السىء فى إدارة البلاد وحكمها .

وقد قسمت البلاد بعد طرد الأتراك منها إلى ثلاث مناطق ، المنطقة الجنوبيـة وتشمل فلسطين وشرق الأردن تحت الإدارة العسكرية البريطانية ، والمنطقة الغربية تحت إدارة فرنسية ، والمنطقة الشرقية وتشمل سوريا الداخلية تحت إدارة عربيـة على رأسها الأمير فيصل ، وأصبحت البلاد بذلك وهى تخضع لثلاث إدارات مختلفة متباينة لكل منها أسلوبها وطابعها الإدارى الخاص .

وشغلت القضية العربية أذهان الحلفاء وتفكيرهم فى مؤتمر الصلح وفى المؤتمرات الخاصة التى عقدت بين الإنجليز والفرنسيين من ناحيـة أو بينهم وبين العرب من ناحية ثانية أو بينهم وبين اليهود من ناحية ثالثة ، وكانت المشكلة التى تعترض الحلفاء أو الإنجليز بالذات ترجع فى أصولها إلى تعدد الارتباطات والوعود التى ارتبط بها الحلفاء وتباينها سواء فى اتفاقاتهم السرية أو فى عهودهم لليهود أو وعودهم للعرب ، وقد حملت بريطانيا وحدها مسئولية وعودها للعرب ، ولم يسترح الفرنسيون لقيام الثورة العربية وأرادوا حصرها فى شبه الجزيرة حتى لا تمتـد إلى الشمال فتعوق مطامعهم وأهدافهم فى سوريا ، وأنكروا على فيصل فى مؤتمر الصلح أن تكون له صفة الحليف واعترضوا على تمثيل العرب فيه وراحوا يتهمون بريطانيـا بعرقلة مساعيهم ونفوذهم فى سوريا ، فحملها العرب لهم وأصبحوا موضع نقمتهم وسخطهم ، وكانت سوريا معقل الحركة العربية والتف زعماؤها حول فيصـل فدعا إلى عقد مؤتمر عام فى دمشق يمثل مناطق سوريا الثلاث لتقرير نظام الحكم الجديد وعرض مطالب البلاد على لجنة الاستفتاء الأمريكية القادمة فى الطريق .

واجتمع المؤتمر فى ٧ يونيه سنة ١٩١٩ لأول مرة فى دار النادى العربى بدمشق حتى إذا تعثرت مطالب البلاد فى المؤتمرات الدولية عقد المؤتمر اجتماعه الحاسم فى ٧ مارس سنة ١٩٢٠ وأعلن استقلال سوريا الموحده بحدودها الطبيعية التى تشمل المناطق الثلاث واختيار فيصل ملـكا دستوريا عليها ، وفى نفس الاجتماع قرر مندوبوا العراق اختيار الأمير عبد الله شقيق فيصل ملـكا على العراق .

ولم يأفل الشهر الثانى على عقد مؤتمر دمشق حتى صدرت قرارات مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو بالانتداب الفرنسى على كل من سوريا ولبنان تحقيقـا لرغبة الفرنسيين فى فصل البلدين بعضهما عن بعض ، وفى ١٤ يوليه وجه الجنرال جورو إنذاره إلى الحكومة الفيصلية بضرورة تسليم خط حديد الرياق — حلب إلى

الفرنسيين واحتلال مدينة حلب وتسريح القوات العسكرية وقبول الانتداب الفرنسى والتعامل بورق النقد الذى أصدرته وتأديب المجرمين أعداء فرنسا ، فهاجت دمشق وقامت المظاهرات فى أنحائها وتعددت اجتماعات المؤتمر السورى ، فزحفت القوات الفرنسية على دمشق رغم قبول الحكومة الفيصلية للانذار ، ودارت معركة ميسلون فى ٢٣ يوليه وقتل فيها يوسف العظمة وزير الحربيـــة وانتهت بهزيمة المتطوعين السوريين ودخلت القوات الفرنسية دمشق فى اليوم التالى وغادر فيصل البلاد صباح ٢٧ يوليه سنة ١٩٢٠ إثر إنذار الحكومة الفرنسية له بمغادرتها ، فانتهى بذلك عهد الحكومة الفيصلية فى سوريا .

وبدأت حكومة الانتداب الفرنسى بذلك بدايتها الدامية فى حكم البلاد وأقامت حكمها على أساس الفصل بين سوريا ولبنان فقد كانت تهـدف إلى إضعاف الوحدة العربية وكبت الشعور القومى بإشاعة الفرقة بين الشيع والطوائف حتى تمكن لنفوذها ولـكنها لم تستطع أن تنزع من قلوب الناس كراهيتهم لها وظلت تغذى فى نفوسهم هذا المقت والعداء بأسلوبها السىء فى الإدارة والحكم .

فى لبنان :

أعلن الجنرال جورو المندوب السامى الفرنسى قيام دولة لبنان الـكبير فى نهاية أغسطس سنة ١٩٢٠ تتـكون من سنجق لبنان القديم ذى الأكثرية المسيحية الغالبة والذى كان يتمتع بنوع من الحكم الذاتى منذ عام ١٨٦١ ولواء بيروت بأكمله ويضم أقضية صيدا وصور ومرجعيون فى الجنوب وهى التى كان يتـكون منهـا فى العهد العثمانى ثم مدينة طرابلس مع قضاء عكار وحده فى الشمال وسهل البقاع الخصب من شمال بعلبك إلى حدود فلسطين بأقضيته بعلبك وحاصبيا وراشيا والبقاع فى الشرق وبهذا كبرت دولة لبنان الجديدة على حسـاب سوريا وأصبحت تضم عدداً من المسلمين كاد يطغى على الأكثرية المسيحية التى قام لأجلها سنجق لبنان بنظامه الخاص فى العهد العثمانى .

وكانت فرنسا ترمى بذلك إلى تقوية لبنان الموالى لها والذى تربطها بأهله من الموارنة علاقات ود ومصالح قديمة على حساب سوريا ولكنها بهذا العمل أضعفت شأن الأغلبية المسيحية وخاصة طائفة الموارنة التى تعتمد عليها وكان لاتصال المصالح القومية بين الموارنة والعرب فى العهد الجديد ما جعل مشاعر الفريقين تتجاذب وتتقارب وتجتمع أخيراً على مقاومة الانتداب الفرنسى الذى طغى على حقوق الموارنة كما طغى على حقوق العرب .

وتزيد مساحة لبنان الحالية على ٤٠٠ر٤ ميل مربع وعدد سكانها كما ورد فى إحصاء عام ١٩٤٧ يبلغ ١٤٥ر١٨٦ر١ نسمة من المسلمين والمسيحيين والدروز واليهود يضاف اليهم عدد ممن لم يتناولهم الإحصاء وجلهم من الرجل الذين يشتغلون بالرعى ويبلغ عدد المسلمين ٣٢٥ر٤٧٠ نسمة منهم ٥٢٧ر٢٤٩ من أهل السنة والباقون من الشيعة ويقيم معظمهم فى سهل البقاع وفى جنوب لبنان ، أما المسيحيون فيبلغ عددهم ٧١٩ر٦٢٤ نسمة ينقسمون إلى طوائف عديدة تغلب عليهم الكثرة المارونية التى يبلغ عدد أفرادها ٧١٥ر٣٤٣ نسمة والباقون من الكاثوليك والأرثوذكس على اختلاف أجناسهم ثم من البروتستانت والكلدان واللاتين. وتعداد الدروز ٥٦٠ر٧٨ نسمة يقطنون الجبل وتعداد اليهود ٩٥٠ر٥ نسمة يقيم معظمهم فى بيروت . وأهل لبنان دائمو التنقل والهجرة طلبا للرزق والثروة ولكنهم على بعد مهاجرهم لا ينسون وطنهم الأول ، وهى عادة انحدرت اليهم من أبائهم الفينيقيين وأكثر هجرتهم إلى الأمريكتين ولهم فيهما جاليات قوية ثم إلى مصر حيث أصابهم التوفيق فى ميدان الصحافة والنشر وفى ميدان التجارة والأعمال الحرة .

وسطح لبنان جبلى فى معظمه تخترقه سلسلة جبال يهوذا التى تعرف بجبل لبنان وتصل إلى أقصى ارتفاعها فوق خط الثلج الدائم فى الشمال وتفصل بين السهل الساحلى الضيق وسهل البقاع الخصب وهو طريق الإقتراب الطبيعى من شمال سوريا إلى سهل ازدرائيليون فى فلسطين . ويخترقه نهر الليطانى الذى ينبع من شمال بعلبك وينحدر جنوبا ليصب فى البحر الأبيض المتوسط شمال صور . وتضم الحدود الشرقية

للبنان جزءاً من امتداد جبال معاب إلى الشمال يعرف بالحرمون ولبنان الصغير وهى وعرة صعبة الاجتياز إلا حيث تخترقها الطرق المعبدة إلى سوريا .

وتحتل لبنان بموقعها على امتداد كبير من ساحل البحر الأبيض المتوسط أهمية استراتيجية خاصة لا تتوفر لغير مصر وفلسطين بإشرافهما على حوضه الشرقى كما أنها مع سوريا وفلسطين نقطة التقاء قارات الدنيا القديمة وتقف جبالها عقبة كأداء فى وجه أى هجوم يأتيها من الشمال أو الشرق وتحول بينه وبين الوصول إلى ساحل البحر إلا خلال ممرات ضيقة لاتشجع أمام الدفاع عنها على اجتيازها ، ولا يصلح سهلها الساحلى لاجراء عمليات حربية ولا يساعد على حربة المناورة لضيقه وأهل الجبل محاربون أشداء . وقدا كتسبت لبنان ميزة أخرى بامتداد أحدفرعى أنابيب بترول العراق إلى طرابلس أحدمينائيها الشهيرين وميناؤها الثانى بيروت قدأخذ يحتل مركزاً هاما فى المواصلات الجوية فضلا عن المواصلات البحرية .

وقد حكم لبنان حكما فرنسيا خالصا فأقيم عليه حاكم فرنسى يعاونه مجلس إدارى من ستة عشر عضواً حل محله مجلس تمثيلى منتخب عام ١٩٢٢ لم تكن لقراراته قوة بجانب رأى المندوب السامى وقراراته وذلك رغم ماكان لفرنسا من علاقات قديمة ترجع إلى عشرات السنين بأهله وخاصة طائفة الموارنة ، وما كان للثقافة الفرنسية من أثر واضح فى حياة البلاد الاجتماعية والعلمية ، وما كان للنفوذ الفرنسى من قوة فى سنجق لبنان القديم ، وهى كلها عوامل تجعل الفرنسيين يطمئنون إلى قيام حكم ذاتى يتمتع بنوع من الاستقلال الداخلى لمصلحتهم ومصلحة لبنان ذاته ، ولكن الأساليب الفرنسية طبقت فى لبنان كما طبقت فى سوريا وسارت كلها لمصلحة الفرنسيين دون غيرهم حتى طغت فى بعض الأحيان على مصالح الموارنة حلفائهم ومؤيديهم ، فأنتجت هذه النتيجة السيئة لفرنسا وقربت فى النهاية بين الموارنة والمسلمين وبين لبنان وسوريا فى مقاومة الانتداب الفرنسى .

وفى خلال الثورة السورية الكبرى منح لبنان دستوراً من صنع المندوب السامى نفسه على أساس النظام الجمهورى البرلمانى على أن يكون البرلمان من مجلسين ، مجلس للنواب وآخر للشيوخ ، أما مجلس النواب فقد تقرر أن يتكون من أعضاء المجلس

التمثيلى السابق وأن يقوم المندوب السامى بتعيين أعضاء مجلس الشيوخ وفى ٢٦ مايو سنة ١٩٢٦ اجتمع المجلسان فى هيئة مؤتمر انتخب شارل دباس رئيساً للجمهورية اللبنانية الجديدة وفى ٣١ مايو ألفت وزارة لبنانية تمثل طوائف البلاد الدينية . ولم يكن للجمهورية الجديدة حقوق السيادة المألوفة للحكومات المستقلة فقد بقيت حقوق الانتداب والتزامات الدولة المنتدبة قائمة فى صلب الدستور الجديد ، كما بقيت سلطة المندوب السامى تسيطر على العلاقات الخارجية والجيش وكان له حق الاعتراض على أى قرار لمجلسى البرلمان لا يتفق واتجاهات فرنسا ومراميها .

وظل العمل بهذا الدستور قائماً رغم مافيه من قيود حتى رأى المندوب السامى تعطيله عام ١٩٣٢ والعودة إلى الحكم المباشر ولكنه رجع فى يناير سنة ١٩٣٤ فوضع نظاما مؤقتا للحكم وعين حبيب السعد رئيساً للجمهورية لمدة سنة واحدة أعقبها بسنة أخرى وفى ديسمبر سنة ١٩٣٦ عندما بدأت حركة الأضراب فى سوريا ضد فرنسا ، دعى مجلس النواب لدورة استثنائية وانتخب أميل إده رئيساً للجمهورية لمدة أربع سنين زيدت إلى ست بقرار خاص من المندوب السامى . وفى الوقت الذى بدأت فيه المفاوضات بين السوريين والحكومة الفرنسية لعقد معاهدة على غرار المعاهدة العراقية البريطانية تعلن استقلال سوريا وتنظم علاقاتها الجديدة بفرنسا كانت المفاوضات جارية مع لبنان لعقد معاهدة مماثلة وقعت أصولها وملاحقها العسكرية فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٦ ببيروت ولكنها لم تجر مجرى التنفيذ وقامت الحرب العالمية الثانية والعلاقات الفرنسية اللبنانيه على حالها الأول لم تتغير .

وبرهن الحكم الفرنسى فى لبنان على مايتمع به من سوء السمعة فقدوالى اللبنانيون فرنسا من أول الأمر وكانت تربطهم بها علاقات ود قديمة وتطوع كثير من الموارنة فى الجيش الذى سيرته لاحتلال سوريا وخلع الحكومة الفيصلية وكان أحرى بفرنسا أن تقوم علاقتها بلبنان على أساس من الولاء القديم بين البلدين ولكنها سارت فى سياستها على أسلوب آذن بانقلاب اللبنانيين حتى الموارنة عليها وتضامنهم مع السوريين ضدها وإن لم يقم فى لبنان ماقام فى سوريا من ثورات على الحكم الفرنسى ولكنها فى تلك المناطق العربية التى انتزعت من سوريا لتكون لبنان الكبير قد أقامت إلى

جانب الأكثرية المسيحية طائفة قوية من العرب المسلمين لا يمكن تجاهل أثرها فى تطور البلاد السياسى والقومى وأضعفت من كيان الأكثرية المسيحية التى يكون الموارنة أغلبيتها الساحقة ، وقد ظل المسلمون العرب فى بعلبك وطرابلس وصور وصيدا وغيرها من أنحاء لبنان يطلبون الوحدة مع سوريا حتى بدأت عواطف الموارنة والعرب تتقارب وتتحد لمقاومة الفرنسيين وكان الدافع لهذا التقارب تلك السياسة الاقتصادية التى اختطتها فرنسا والتى أساءت إلى اللبنانيين أكثر مما أساءت إلى السوريين فقد كانت لهم رؤوس أموال فائضة فى المهجر يمكن أن تستغل داخل البلاد سواء فى الصناعات أو فى المشروعات العامة ووقفت فرنسا دون تشجيعها وحمايتها بل عملت على عرقلتها حتى تفسح لرؤوس الأموال الفرنسية مجال الاستغلال والاستثمار واختطت كافة السبل لحمايتها وحماية تجارتها فاحتكرت كافة المشروعات العامة كالخطوط الحديدية وميناء بيروت وشركات الإضاءة والمياه وإنشاء البنوك كما ربطت عملة البلاد بالفرنك الفرنسى رغم ضعفه وتقلبه المستمر وعهدت بإدارة النقد الجديد إلى بنك فرنسى راعت فيه نفع مساهميه الفرنسيين على حساب الاستقلال المالى لسوريا ولبنان وجرت بذلك على البلاد كثيراً من الخسائر أوغرت صدور الناس عليهم . وقامت قيامة الموارنة عندما منح الفرنسيون إحدى شركاتهم امتياز احتكار تجارة الدخان فى سوريا ولبنان عام ١٩٣٥ ولجأوا إلى بطريركهم يوسطونه لدى المندوب السامى فلم يقابل توسطه بغير الرفض .

وهكذا أخذ الشعور القومى يتجه بين الموارنة إلى مقاومة الفرنسيين وإن لم يظهر هذا الاتجاه قويا إلا فى أثناء الحرب العالمية الثانية وكان السوريون قد وعدوا باحترام استقلال لبنان الكبير داخل حدوده القائمة .

فی سوریا :

حملت سوريا وحدها عبء النضال الوطنى ضدالإنتداب الفرنسى وأساليبه الغاشمة واتسم نضال السوريين بالعنف أكثر مما اتسم به نضال أى شعب آخر من شعوب العالم العربى فيما بين الحربين فقد كان الفرنسيون يهدفون إلى تحقيق منافع ذاتية هى نتاج ماقر فى أذهانهم فى القرن الثامن عشر بعد أن فقدوا امبراطوريتهم الاستعمارية فى آسيا وأمريكا من ضروة تعويض مافقدوه من مستعمرات بمستعمرات أخرى فى مناطق جديدة لم يسبقهم إليها أحد وكان الشرق الأدنى أحد هذه المناطق التى اتجهت اليها أنظارهم ومن سوء حظهم أنهم اتجهوا إلى هذه المناطق التى تميزت بقوة عصبيتها وعراقة تاريخها وإصالة تقاليدها وقدم حضارتها ولم يفرقوا بينها وبين مستعمراتهم المتأخرة فى آسيا وإفريقيا وأخذوا يمارسون معها نفس الأساليب التى مارسوها فى مستعمراتهم الأسيوية والأفريقية المتأخرة ،وكانوا يهدفون من ورائها إلى تحقيق غايتين أولاهما استغلال البلاد استغلالا اقتصاديا شاملا وثانيهما طبع البلاد بطابع فرنسى خالص فى الثقافة والتفكير والتمدين وساروا فى الأولى على أسلوب يمكنهم من السيطرة على مواردالبلاد واستغلالها واستنزاف موارد الثروة فيها ولم يرعوا فى ذلك مصلحتها أو حقوق أهلها وساروا فى الثانية على فرض لغتهم وتقديمها على اللغة القومية وبث ثقافتهم وأصول مدنيتهم فى إصرار دفعهم فى كثير من الأحيان إلى انتهاج أبلغ وسائل العنف فى قمع النزعات القومية والحركات الاستقلالية دون ما نظر إلى تاريخها القديم وحضارتها السابقة وتقدمها الجديد وما أخذت تكشف عنه فى الوقت الذى نزلوا فيه اليها من بوادر تيقظها ووعيها القومى الجديد ولم يكن للفرنسيين فى هذه البلاد من المصالح الاستراتيجية ما كان لبريطانيا فى مناطق نفوذها فى الشرق الأوسط فلم يصرفهم الاهتمام بها عن الاهتمام بهاتين الغايتين وتقديمهما على كل غاية أو مصلحة أخرى فقد كان اهتمامها الاستراتيجى بسواحل اللفانت لا يعدو اهتمامها بإيجاد قاعدة لنفوذها

فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط تسند نفوذها فى حوضه الغربى ولكنه لا يعلو على اهتمامها باستغلال موارد البلاد استغلالا اقتصاديا وبث حضارتها ومدنيتها فى أنحائها .

وعملت فرنسا على تمزيق وحدة سوريا والقضاء على قوميتها فأعلن الجنرال جورو غداة احتلالها والقضاء على الحكومة الفيصلية قيام دولة لبنان الكبير ثم عاد فقسم سوريا إلى دويلات صغيرة هى حلب وعاصمتها حلب وألحق بها لواء الاسكندرونة ثم حكومة العلويين وعاصمتها اللاذقية وتضم المنطقة الساحلية الواقعة بين لبنان الكبير ولواء الاسكندرونة ، ودولة جبل الدروز وعاصمتها السويداء وتضم المنطقة الواقعة بين دمشق وحدود شرق الأردن وأخيرا دولة سوريا وعاصمتها دمشق وتضم ماتبقى من البلاد الواقعة تحت الانتداب ، وعين لكل منها حاكما فرنسيا ماعدا دولة سوريا ودولة حلب فقد كان حاكماهما من السوريين

وشعر جورو بما تركه تمزيق وحدة البلاد من أثر سىء فى نفوس الوطنيين فأعلن فى يونيه سنة ١٩٢٢ قيام اتحاد سورى من مجلس يمثل حكومات دمشق وحلب واللاذقية وانتخب لرئاسته صبحى بركات وهو تركى من أهالى انطاكية ومن أصدقاء فرنسا والمتشيعين لها . وجاء فيجان بعد جورو فألغى الاتحاد السورى وأعلن قيام الدولة السورية من دولتى دمشق وحلب والعاصمة دمشق واختير لرئاستها صبحى بركات أيضا يعاونه وزراء للداخلية والعدلية والمعارف والمالية والاشغال ومجلس تمثيلى منتخب ولكن السلطة بقيت فى أيدى الفرنسيين وحدهم فلم يكن هذا النظام غير صورة يختفى وراءها نفوذ المستشارين الفرنسيين وسلطة المندوب السامى القوية ولم تدخل حكومة اللاذقية التى كانت ضمن الاتحاد السورى فى الدولة الجديدة ورجعت إلى وضعها الأول عند التقسيم ، أما لواء الاسكندرونة وكان جزءا من دولة حلب فقد فصل عنها عام ١٩٢٤ ومنح نظاما إداريا وماليا مستقلا على أن يبقى تابعا للدولة السورية .

ولم يكن هذا التخبط فى تنفيذ السياسة الفرنسية إلا دليل الفشل التدريع الذى

منيت به والذى ظهرت بوادره فى أول خطى تنفيذها فإن وقوفها أمام الوعى القومى الفائر فى سوريا ومحاولتها تمزيق أوصال الوحدة العربية فى بلد كان الرعيل الأول من دعاة القومية العربية من أبنائه هو كفيل بالقضاء على نفوذها إن عاجلا أو آجلا، هذا فضلا عن سياستها الاقتصادية الجشعة التى قامت على التحيز والاستغلال دون أن ترعى حاجة الشعب وقدرته ومصلحة أفراده ثم جهل الفرنسيين بتقاليد البلاد وعاداتها ونظمها .

وكانت سنى الحكم الفرنسى القصيرة فى سوريا سنى اضطراب وثورات ومشاكل منذ البداية بين الفرنسيين والسوريين ، ولم تمر سنة من غير أن تقوم ثورة فى ناحية من أنحاء سوريا كثورة العلويين وثورة حوران التى استمرت حتى أكتوبر عام ١٩٢٠ وثورة إبراهيم هنانو فى جبل الزاوية وقد تزعم الثوار فى شمال سوريا وأخذ يكيل الضربات للفرنسيين حتى يوليه عام ١٩٢١ عندما جردوا للقضاء عليه مايقرب من ثلاثين ألف مقاتل ثم اضطرابات دمشق التى حدثت فى منتصف عام ١٩٢٢ إثر زيارة مستر كرين عضو لجنة الاستفتاء الأمريكية لها وانتهت بمحاكمة زعماء دمشق وعلى رأسهم الدكتور عبدالرحمن شهبندر بالسجن لمدد طويلة وكذلك حوادث جبل الدروز عام ١٩٢٢ عندما تعرض الفرنسيون للقبض على أدهم خنجر أحد قواد العصابات فى حمى زعيم الدروز سلطان باشا الأطرش ، فقاومهم دفاعا عن حماه حتى سير الفرنسيون حملة قوية إلى الجبل فنزح عنه والتجأ بعشيرته وأنصاره إلى شرق الأردن وهذا غير أعمال العصابات التى انتشرت فى أنحاء البلاد لمقاومة الفرنسيين والسطو عليهم وإقلاقهم ، ولا أدل على عنف المقاومة السورية من مقال للجنرال ساراى ثالث مندوب سام لسوريا قال فيه أنه «قامت فى سوريا وحدها عام ١٩٢٢ خمس وثلاثون ثورة ودفن فيها من رجال الجيش خمسة آلاف جندى » وكان ذلك ردا على مقال للكاتب الفرنسى الشهير هنرى بوردو اتهمه فيه بالعجز وقال فيه « أن سوريا كانت هادئة ساكنة فى عهدى جورو وفيجان » .

وبينما كان جهاد السوريين يسلك طريقه العنيف فى الداخل ، كان جهادهم فى الخارج يتمثل فى قوة « المؤتمر السورى الفلسطينى » الذى اجتمع لأول مرة فى

جنيف برئاسة الأمير ميشيل لطف الله فى أول سبتمبر سنة ١٩٢١ واتخذت لجنته التنفيذية مقرها فى القاهرة وجعلت تنظم الدعاية لمطالب سوريا وفلسطين فى الخارج وكان وفدها الدائم فى جنيف يتكون من الأميرين ميشيل لطف الله وشكيب ارسلان وإحسان الجابرى وسليمان كنعان وقد نشط الوفد فى إثارة الرأى العام الأوربى على الفظائع التى يرتكبها الفرنسيون كما ثابر على إرسال الاحتجاجات المستمرة إلى مجلس عصبة الأمم والهيئات الدولية المختلفة .

وانتهى هذا الدور العنيف من أدوار الانتداب الفرنسى بقيام الثورة السورية الكبرى التى شبت فى جبل الدروز فى يولية ١٩٢٥ واستمرت ملتهبة الأوار طوال عام ١٩٢٦ بعد أن عمت كل البلاد السورية حتى فل من عضد الثوار فتحولت إلى حرب عصابات مبعثرة انتهت فى ربيع عام ١٩٢٧ وقد خاض الثوار معاركها العنيفة فى شجاعة وإصرار واستعان الفرنسيون عليها بقائدهم الفذ جاملان ولجأوا فى إخمادها إلى أبشع وأشنع ما ترتكبه دولة متمدينة فى اخضاع ثورة وطنيه من أساليب كانت موضع انتقاد لجنة الانتداب الدائمة بعصبة الأمم .

وبدأ دور جديد اختطت فيه السياسة الفرنسية خطة جديدة تميل إلى المهادنة ومسالمة الوطنيين بعد أن تلقت درسا قاسيا بما أنزلته الثورة بها من خسائر ومن سوء السمعة التى منيت بها إدارتها للبلاد ، وكان تعيين المندوب السامى من المدنيين أول بوادر تحولها هذا فقد درجت قبل ذلك على تعيينه من العسكريين كان أولهم جورو ثم فيجان فساراى وعلى هذا الأخير يقع وزر الثورة وما اقترفته فرنسا فيها من فظائع وكانت لهم خطتهم التى تتصف بالجمود والعنف فى مقابلة النزعات الوطنية وهم الذين نفذوا سياسة الانتداب فى سنيها الأولى فطبعوها بطابعهم العنيف دون ادراك لمقومات الشعب الذى يتعاملون معه والفرق بينه وبين الشعوب المتأخرة التى حكموها فى أفريقيا وآسيا وإن لم يخرجوا فى سياستهم عما رسمته وزارة الخارجية الفرنسية لإدارة سوريا وهى السياسة التى لم تتغير كثيرا بتعيين المندوبين الساميين من المدنيين وإن تغير أسلوبها وخطتها على أيديهم .

وكان دى جوفنيل أول مندوب سام مدنى يعين للبلاد وخلف الجنرال ساراى والثورة فى عنفوانها ودل أسلوبة فى معالجة الثورة فى تلك المدة القصيرة التى قضاها فى منصبه على سعة أفقه وحيلته ومكره وإن لم يستطع أن يتحرر من الأساليب الفرنسية العنيفة إذا أعوزته الحيلة وخانه مكره فقد اتصل وهو فى طريقه إلى سوريا بأعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى فى القاهرة وتعرف اليهم واستمع إلى أرائهم ثم نزل إلى بيروت وأقام فيها يدرس أسباب الثورة قبل أن يبدأ مفاوضاته مع الوطنيين وأعلن الجمهورية اللبنانية بحدودها القائمة ليقطع على السوريين سبل المطالبة باسترجاع الأجزاء المقتطعة من سوريا ولما رأى إجماع السوريين على طلب الاستقلال دعا إلى إجراء انتخابات لجمعية تأسيسية تضع الدستور ، ولكن السوريون قاطعوها لتدخل الفرنسيين فى حريتها وشكل حكومة جديدة فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٢٦ على رأسها أحمد نامى وأشرك معه بعض الوطنيين من أمثال فارس الخورى ولطفى الحفار وحسنى البرازى أعضاء فى الوزارة ولكنهم استقالوا لما رأوا تلكؤ الحكومة الفرنسية فى تحقيق مطالب سوريا فكان جزاؤهم النفى وبدأ دى جوفنيل مفاوضاته لابرام معاهدة مع سوريا وسافر إلى باريس لهذا الغرض واتصل بممثلى المؤتمر السورى الفلسطينى فى جنيف ولكن كبرياء الحكومة الفرنسية أبى عليها السير فى مفاوضات والثورة مازالت قائمة فأعلنت قطع المفاوضات واستقال دى جوفنيل ليخلفه بونسو ولما تخمد الثورة بعد .

كان تعيين بونسو بداية التحول الحقيقى للسياسة الفرنسية فى سوريا عن العنف إلى المسالمة وقد وصل إلى بيروت لاستلام مهام منصبه فى ١ كتوبر سنة ١٩٢٦ وكان أهم مايعنيه هو إيجاد مخرج من حالة التوتر التى سادت العلاقات الفرنسية السورية وبرهن خلال المدة التى قضاها فى منصبه والتى تفوق مدة أسلافه الأربعة كلهم إذ بلغت سبع سنين ، على مدى مايتمتع به من مرونة وكياسة وصبر فى معالجة الأمور ودل ذلك الهدوء الذى ساد سوريا فى عهده على حسن سياسته وإدارته للبلاد رغم ما كان عليه الموظفون الفرنسيون من صلف وغرور واستبداد ولكنه بعد هذه المدة الطويلة لم يستطع أن ينتهى إلى حل حاسم للقضية السورية .

وما أن وصل بونسو بيروت حتى أعلن أن سيعنى بدراسة الموقف على حقيقته ولن يقضى أمراً حتى يلم بكل نواحيه ، وقضى ما يقرب من عامين دون أن يخطو خطوة عملية لحل المسألة السورية المعلقة رغم ما أبداه من اهتمام بأمرها وما بذله من جهد فى دراستها والاتصال بكافة مؤثراتها ومحاولاته الصادقة للوصول إلى التفاهم مع الزعماء الوطنيين بشأنها ونجاحه فى القضاء على بعض المساوىء البارزة فى الإدارة ، حتى كانت دعوته عام ١٩٢٨ إلى انتخاب جمعية تأسيسية لوضع الدستور فكانت أول خطوة عملية يخطوها لتحقيق بعض مطالب السوريين ، وقوبلت من جماعة الوطنيين الذين ألفوا فى ذلك الوقت حزب « الكتلة الوطنية » بشىء من الاطمئنان دفعهم إلى خوض المعركة الانتخابية . ثم عين حكومة مؤقتة على رأسها الشيخ تاج الدين الحسنى لإجراء الانتخابات والإشراف عليها .

وأجريت الانتخابات وفازت فيها الكتلة الوطنية بأغلبية ساحقة ، وعقدت الجمعية التأسيسية أولى جلساتها فى ٩ يونيه واختارت لرئاستها هاشم الأتاسى وشكلت لجنة لوضع الدستور كان من أعضائها ابراهيم هنانو وفوزى الغزى ، ووضعته فى مائة وخمس عشرة مادة تنص على قيام حكومة دستورية على النظام الجمهورى لها برلمانها الذى تستغرق دورته أربع سنين وينتخب أعضاؤه رئيس الجمهورية لمدة خمس سنين ، ثم تقدمت به إلى الجمعية التأسيسية لمناقشته والموافقة عليه ، ولكنها فوجئت بأمر من المندوب السامى بحذف ست مواد رأى أنها تتعارض مع حقوق الانتداب والتزامات فرنسا الدولية حياله . وتتعلق هذه المواد بالوحدة السورية والتمثيل الخارجى وتنظيم الجيش وإعلان الحرب وحق العفو وإطلاق سراح المعتقلين لرئيس الجمهورية والبرلمان ، ورفضت الجمعية التأسيسية حذف المواد الست ، فما كان من المندوب السامى إلا أن أمر بتعطيلها لمدة ثلاثة أشهر ثم بعد ذلك إلى أجل غير مسمى ، وكانت المفاجأة التالية يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ عندما أعلن قبول الدستور كما وضعته لجنة الدستور ، ولكنه أضاف اليه مادة أخرى تعطل مفعول المواد الست ، قوبلت بأشد ألوان الامتعاض والاحتجاج فى جميع أنحاء سوريا ، وعلل هذا الإجراء بأنه لضمان حسن

سير الأمور فى الفترة التى لابد من انقضائها قبل الدخول فى مفاوضات لعقد معاهدة بين الطرفين .

وقد استمرت الحكومة المؤقتة أربع سنوات ، وما كان مقدراً لها أن تستمر طوال هذه المدة ، فإنها لم تقم فى الأصل إلا لإجراء انتخابات الجمعية التأسيسية والتمهيد للحكومة النيابية التى تختارها البلاد ، حتى أقالها المندوب السامى فى نوفمبر عام ١٩٣١ وخلفتها حكومة على رأسها فرنسى هو نائب المندوب السامى فى سوريا لإجراء انتخابات تضمن لفرنسا من المشايعين والأنصار ما يوازن قوة الوطنيين المحتملة فى البرلمان ، وبدأت عملية الانتخابات فى ٢٠ ديسمبر وصحبها من القلاقل والاضطرابات فى دمشق وحماه ودوما ما دفع الفرنسيين إلى إيقافها ، ولكنها أجريت فى العام التالى وجاءت نتيجتها متوازنة بين الوطنيين وأنصار الفرنسيين ، واجتمع المجلس فى السابع من يونيه عام ١٩٣٢ وانتخب على العابد رئيسا للجمهورية وألفت الوزارة برئاسة حقى العظم وكان من بين اعضائها اثنان من الوطنيين هما مظهر رسلان وجميل مردم ، ولكنهما لم يلبثا طويلا حتى استقالا فى ١٨ أبريل سنة ١٩٣٣ عندما تبينا أن مشروع المعاهدة الذى تقدم به المندوب السامى لا يحقق رغبات السوريين .

وفى ذلك العام استدعت فرنسا بونسو بعد أن فشل فى الوصول إلى اتفاق مع السوريين وعينت بدله كونت دى مارتيل ، وكان طرازا فذا من رجال الديبلوماسية الفرنسية الأقوياء الذين عرفوا بالصرامة والحزم وإن لم تكن له كياسة سلفه بونسو أو مرونته ، فما أن اضطلع بمهام منصبه الجديد فى اكتوبر سنة ١٩٣٣ حتى تقدم بمشروع معاهدة حمل رئيس الوزارة على قبوله واستقال احتجاجا عليه سليم جنبرت أحد أعضائها وعمل على فرض المشروع على النواب فحوصرت دار البرلمان أثناء عرضه ولكنه فوجىء بعريضة تقدمت بها الكتلة الوطنية ووقعها أغلبية النواب برفض مشروع المعاهدة فما كان منه إلا أن عطل المجلس إلى أجل غير مسمى ، واستأثر بسلطة الوزارة رغم بقائها فى الحكم حتى مارس عام ١٩٣٤ حينما خلفتها وزارة تاج الدين الحسنى الثانية وقصر عملها على تنفيذ أوامره وأراد أن يصرف

البلاد عن الاهتمام بقضيتها الوطنية إلى الاهتمام بالتعمير والإصلاح فأعلن عن عدة مشروعات اقتصادية رغب لإنجازها أن يتوقف كل نشاط سياسى للسوريين .

واستمر دى مارتيل يمارس أساليبه العنيفة الملتوية يعززه تعزيزاً تاما اتجاه وزارة الخارجية الفرنسية التى استهواها خلود السوريين إلى الهدوء والسكينة لمدة طويلة فأرادت أن تملى سياستها إملاء يحقق أهدافها المقصودة، ولكن هذه الأساليب العنيفة الملتوية جنت أخطاءها بقيام السوريين بإضرابهم العام الذى استمر ستين يوما وكان فى ذاته نتيجة مباشرة لتصرف أحمق من تصرفات الفرنسيين فقد هوجمت دور حزب الكتلة الوطنية وأغلقت واعتقل كثير من الزعماء فى وقت كانت البلاد تحتفل فيه بذكرى الأربعين لوفاة الزعيم السورى ابراهيم هنانو فى غمرة من حماس الشعب وهياجه . وقاوم الفرنسيون الإضراب بموجة من الاعتقالات الجديدة لم تفت فى عضد الشعب ولم تقض على حماسه وإصراره واستمر الإضراب عاما شاملا فى نظام رائع ومثابرة عجيبة لم تعهدها هذه الشعوب من قبل وكانت عنوانا على تطور وعيها القومى والسياسى ونموه بين أفرادها

وأثمر الإضراب ثمرته المرجوة فنزلت فرنسا على رغبة الشعب وأعلن دى مارتيل فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٦ رغبته فى فتح باب المفاوضات لإبرام معاهدة وصرح باستعداده لإصدار قرار بالعفو العام وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وتلقى زعماء الكتلة هذه الرغبة بالترحيب وأعلنت أسس الإتفاق الجديد فى أول مارس وتقضى بالاعتراف باستقلال سوريا ووحدتها فى معاهدة تبرم بين زعماء سوريا والحكومة الفرنسية وتجرى المفاوضات بشأنها فى باريس بين وفد سورى ووزارة الخارجية الفرنسية وبذلك انتهى إضراب سوريا ، وبدأت مرحلة أخرى من مراحل التفاهم والمفاوضة للوصول إلى حل يرضى الطرفين، فاستقالت وزارة الحسنى وخلفتها وزارة عطا الأيوبى لتضطلع بالحكم حتى تبرم المعاهدة .

وأقلع وفد المفاوضات السورى إلى باريس وكان يتكون من هاشم الأتاسى وفارس الخورى وسعدالله الجابرى وجميل مردم ويمثلون الكتلة الوطنية ومن إدمون

حمصى ومصطفى الشهابى من أعضاء الوزارة وألحق بالوفد الضابط أحمد اللحام مستشارا عسكريا ونعيم انطاكى أحد المحامين الوطنيين سكرتيراً ، وبدأت المفاوضات إثر وصول الوفد إلى باريس واستغرقت ستة شهور وقعت بعدها المعاهدة السورية الفرنسية فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٦ وكانت صورة من المعاهدة الفرنسية اللبنانية التى أبرمت بعدها فى ١٣ نوفمبر ولا تختلف عنها إلا فى وضع القوات العسكرية فى كل من البلدين فقد نصت المعاهدة السورية على حق فرنسا فى الاحتفاظ بقاعدتين عسكريتين فى جبل الدروز واللاذقية لمدة خمس سنوات من تاريخ سريانها وحقها فى استخدام قاعدتين جويتين فى مكانين تختارهما لمدة سريانها كاملة ، أما المعاهدة اللبنانية فقد نصت على حق فرنسا فى الاحتفاظ بأى عدد تشاء من قواتها العسكرية فى لبنان وفى أية أمكنة تختارها طوال مدة سريانها ، وحددت هذه المدة فى كل من المعاهدتين بخمس وعشرين سنة قابلة للتجديد باتفاق الطرفين . وتعهدت فرنسا بترشيح الدولتين لعصبة الأمم فى خلال السنوات الثلاث الأولى التى تعقب التصديق على المعاهدتين .

ولا تختلف المعاهدة السورية الفرنسية كثيرا عن المعاهدة البريطانية العراقية فقد تمسك السوريون بأن يكون اتفاقهم مع فرنسا على غرار اتفاق بريطانيا والعراق ولا يقل عنه بأى حال من الأحوال وساعد على نجاحهم فوز الاشتراكيين فى معركة الانتخابات الفرنسية وتأليف ليون بلوم للوزارة وحددت مدة الانتقال التى تسبق تنفيذ المعاهدة بثلاث سنوات ونصت على أن يسود سلام وصداقة بين فرنسا وسوريا على الدوام وأن تتبادلا التمثيل السياسى وتتشاورا فيما يتعلق بسياسة سوريا الخارجية وتتعاونا كحليفتين فى حالة نشوب الحرب أو خطر نشوبها وأن تقوم الحكومة السورية بشئون الأمن الداخلى وتضطلع بالدفاع عن أراضيها وإن تحتفظ فرنسا بقواعد عسكرية وجوية معينة فى البلاد ولا يكون فى وجودها إخلال بحقوق السيادة السورية .

وسلمت المعاهدة بوحدة سوريا ولم تتعرض للوحدة بين سوريا ولبنان أو استعادة سوريا لمناطقها التى ضمت إلى لبنان الكبير وإن أساء هذا الوضع إلى أهالى هذه المقاطعات الذين كانوا يتطلعون إلى العودة إلى أحضان الوطن الأصلى وتظاهروا

احتجاجا واتخذت مظاهراتهم شكلا خطيراً فى بيروت وطرابلس اضطر الجيش الفرنسى إلى قمعها حتى يهيىء لموافقة البرلمان اللبنانى عليها رغم المعارضة الخارجية، أما السوريون أنفسهم وقد عرفوا أن المعاهدة لا تحقق كل آمالهم فقد تركوا للمستقبل علاج هذه المشكلة . واحتفظ لواء الاسكندرونة بوضعه الخاص ، وأثارت تركيا مسألته فى مجلس عصبة الأمم وطالبت أن تحل قبل أن تقرر المعاهدة الجديدة مستقبله بالنسبة لسوريا واتخذت وضعها المعروف الذى انتهى بضمها إلى تركيا تحت اسم «حاتاى» إحياء لذكرى الدولة الحيثية القديمة التى عاشت فى تلك البقاع .

واستقبل وفد المفاوضات السورى فى أوبته إلى الوطن استقبال الظافرين رغم إيمان السوريين بأن المعاهدة لا تحقق كل أمانيهم إلا أنهم كانوا يعتبرونها خطوة موفقة لإقرار العلاقات السورية الفرنسية والإعتراف بحقوق البلاد .

وأجريت الانتخابات العامة بعد عودة الوفد مباشرة وفاز فيها حزب الكتلة الوطنية بأغلبية ساحقة واجتمع البرلمان لأول مرة فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ وانتخب هاشم الأتاسى رئيساً للجمهورية وتألفت الوزارة الوطنية برئاسة جميل مردم فى ٢٢ ديسمبر واشترك فيها سعدالله الجابرى وشكرى القوتلى وعبدالرحمن الكيالى من أعضاء الكتلة الوطنية . وصدق المجلس على المعاهدة ولم يبق لتنفيذها إلا أن يصدق عليها البرلمان الفرنسى ، ولكن فرنسا لم تكن صادقة النية فى تنفيذها ومضى عامان لم يصدق البرلمان خلالهما عليها حتى سقطت وزارة بلوم الاشتراكية وقام العسكريون يضغطون على حكومتهم لإلغائها فاستجابت لهم واستدعت دى مارتيل وعينت بدله جبرييل بيو فى ٥ يناير سنة ١٩٣٩ الذى أعلن أن حكومته قد عدلت عن إبرام المعاهدة وستعود إلى نظام الانتداب فاستقالت وزارة جميل مردم وخلفتها وزارتان لم تستمرا طويلا واضطر هاشم الأتاسى إلى الاستقالة من رئاسة الجمهورية فعمد بيو إلى إلغاء الجمهورية والوزارة وحكم البلاد حكما مباشراً وأعلن فصل اللاذقية وجبل الدروز عن سوريا كما كانتا من قبل وعادت موجة الأرهاب واضطهاد الوطنيين من جديد وفى هذا الجو الخانق البغيض أعلنت الحرب العالمية الثانية .

وتحتل سوريا بموقعها المتوسط فى الشمال الشرقى لبلاد الشام مركز الإلتقاء بين قارات الدنيا القديمة الثلاث وتستمد أهميتها الاستراتيجية من موقعها هذا وتكون مع لبنان وفلسطين والأردن وحدة استراتيجية تسيطر على أهم المنافذ البرية إلى قلب القارات الثلاث القديمة ، ويفصلها عن العراق وفلسطين خطا الحدود اللذان اتفقت عليهما دولتا الانتداب فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ كما يفصلها عن تركيا خط الحدود الذى اتفقت عليه تركيا وفرنسا فى معاهدتهما عام ١٩٢١ وهوأطول امتداد لحدودها مع جاراتها ويبلغ ٤٦٢ ميلا طولا ونسبته إلى طول حدودها عامة ٣٥٪ وقد نصت المادة الثامنة من المعاهدة المذكورة على أن يبدأ خط الحدود بين سوريا وتركيا من نقطة تختار على خليج الاسكندرونة وتقع مباشرة فى جنوب باياس وتتجه بوضوح نحو ميدان اكبس ـ وتبقى محطة السكة الحديدية والمحلة تابعتين لسوريا ومن هناك يتجه خط الحدود إلى الجنوب الشرقى بحيث يترك لسوريا محلة مرسوة ولتركيا محلة قرنبة ، ومدينة كليس حيث يتصل بالخط الحديدى عند محطة جوبان بك ثم يتبع خط حديد بغداد التى تبقى أرضها داخلة فى الأراضى التركية حتى نصيبين وجزيرة ابن عمر حيث يلتقى بدجلة وتبقى محلتا نصيبين وجزيرة ابن عمروالطريق بينهما فى أرض تركيا على أن يكون لكل من الطرفين نفس الحقوق فى الانتفاع بهذا الطريق وتكون المواقف والمحطات بين جوبان بك ونصيبين ملكا لتركيا كأنها جزء من أرض الخط الحديدى .

ونصت المادة التاسعة على أن يظل قبر « سليمان شاه » جد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانيه ـ وهو القبر المعروف بترك مزار ـ الواقع فى جرابلس وملحقاته ملكا لتركيا التى يكون لها الحق فى وضع حراس عليه ورفع الراية التركية فوقه ، كما نصت المادة الثانية عشرة على أن يكون لمدينة حلب الحق فى أخذ فتحة من مياه دجله وتسييرها على حسابها للقيام بحاجات المنطقة من المياه . وقد أقرت هذه المعاهدة بوضع خاص لمنطقة الاسكندرونة ونصت المادة السابعة على قيام نظام إدارى خاص لها وأن يتمتع سكانها الأتراك بجميع التسهيلات اللازمة لترقية ثقافتهم وأن تكون

اللغة التركية فيها لغة رسمية . وجاءت معاهدة لوزان فأقرت هذه الحدود ولم تعدل إلا فى عام ١٩٣٩ عندما ضمت منطقة الاسكندرونة إلى تركيا .

وتبلغ مساحة سوريا الحالية مايقرب من ٥٨٫٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها كتعداد عام ١٩٤٧ يبلغ ٣٫٠٣٤٫٣١٠ نسمة بزيادة نسبية قدرها ١٣ فى الألف كل عام ، منهم ٢٫٤٨٨٫٩٠١ من المسلمين و٤٢٤٫٠١٠ من المسيحيين و٩٦٫٦٤١ من الدروز وهم من أشد المحاربين مراساولهم جولات موفقة مع الفرنسيين و٣٠٫٨٧٣ من اليهود و٢٫٨٨٥ من اليزيدية ، وأكثر المسلمين السوريين من السنيين إذ يبلغون ٨٢ ٪ من مجموع السكان العام أما الباقون فمن الشيعة ويتمثلون فى العلويين ويقطنون منطقة اللاذقية وبعض الاسماعيلية ويقيمون حول حماه ومن الممكن أن نجمل بين طوائف الشيعة طائفة الدروز التى تعتصم بقرى جبلها المنيع أما طائفة اليزيدية فإنها تقيم مابين جبل سنجار قريبا من الحدود العراقية وجبل الأكراد فى الشمال . وتضم الطائفة المسيحية أعدادا متفاوتة من الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت والنساطرة والكلدانيين والموارنة .

وطبوغرافية سوريا هى امتداد لطبوغرافية الإقليم وتضاريسه العامة فان سلسلتى جبال يهوذا ومعاب تمتدان متوازيتين مع السهل الساحلى وتضمان فيما بينهما عددا من السهول أهمها سهل البقاع الخصب وإلى الشرق والشمال من السلسلة الشرقية تمتد هضبة متسعة مستوية حتى الصحراء فى الشرق وأرض الجزيرة فى الشمال حيث يخترقها نهر الفرات داخل حدود سوريا ، ويليها جنوبا عدد من السهول هى سهول حلب وحماه وحمص وغوطة دمشق وحوران وتمتد السلسلة الغربية من الشمال إلى الجنوب فهى جبال أمانوس فى الشمال ثم جبل أكرا ، فجبل العلويين ، فجبل لبنان جنوبا وهو أعلاها ارتفاعا حيث يبلغ ارتفاع قرنة السودة أعلى قممها ٣٠٨٨ مترا فوق سطح البحر وهو أحفلها بالرؤى والمناظر وأشدها ازدحاما بالسكان وتقع فيه جبال الأرز إلى الجنوب الشرقى من طرابلس . أما السلسلة الشرقية وتقع بعيدا عن الساحل على حافة السهول الداخلية فإنها تضم جبل الأكراد وتلال جبل سمعان وبريشا شمال غرب حلب وجبل لبنان الصغير والحرمون المعروف بجبل الشيخ وهو أعلاها حيث يرتفع

إلى ٢٨١٤ مترا فوق سطح البحر ويقع جنوب غرب دمشق ، ويخترق هاتين السلسلتين عدد من الممرات ووديان الأنهار تصل إلى السهول الداخلية ، والسهول هى مسارح العمليات الحربية أما الجبال فصعبة المرتقى والمسلك ويصعب إجراء الحركات العسكرية إلا خلالها حيثما عبدت طرقاتها ومهدت ممراتها ومثلها فى ذلك السهل الساحلى لضيقه وقلة مواصلاته الجيدة وسهل البقاع هو طريق الاقتراب الطبيعى إلى فلسطين ، أما طريق الاقتراب إلى شرق الأردن فيقع إلى الشرق من جبل الحرمون ولبنان الصغير حيث يخترق الخط الحديدى الهضبة الشرقية مارا بدمشق ودرعا وعمان .

وليس لسوريا موانىء على البحر سوى ميناء اللاذقية فقد اقتطعت منها منطقة الاسكندرونة بمينائها الجيد وضمت إلى تركيا وخلقت بذلك مشكلة مازالت قائمة بينها وبين سوريا .

مشكلة الاسكندرونة :

تقع الاسكندرونة على رأس خليج بعيد الغور تستره الجبال وتمنع عنه عصف الرياح الشمالية الباردة وتكسبه مناعة قوية لا تتأتى لغيره من موانىء اللفانت وتبلغ مساحة المنطقة التابعة لها ما يقرب من ألفى ميل مربع يقطنها ٢٢٫٨٠٠ نسمة تبلغ نسبة الاتراك فيهم ٤٠ ٪ والباقى من المسلمين والمسيحيين العرب وتبلغ نسبة المسلمين العلويين ما يقرب من ثلاثة أضعاف المسلمين السنيين ويضم لواء الاسكندرونة مدينة انطاكية التاريخية .

ولواء الاسكندرونة من الناحية الجغرافية جزء من سوريا فضلا عن الروابط التاريخية والاجتماعية التى تربطه بها وميناء الاسكندرونة هو المنفذ البحرى لمنطقة حلب وليس لسوريا موانىء على البحر عداه سوى ميناء اللاذقية .

ولا يفصل بينها وبين الحدود التركية سوى اثنى عشر ميلا وهى تطل من موقعها هذا على وادى أطنة الذى يقع إلى الغرب من خليجها ، ووادى أطنة بالاضافة إلى وادى أضاليا هما

طريقا الإقتراب الطبيعيان إلى قلب الأناضول ومن هنا كانت أهمية الاسكندرونة الاستراتيجية لتركيا . ولقد فكر الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى فى إنزال حملة عسكرية فى الاسكندرونة لتهديد مواصلات الأتراك عبر جبال طوروس ولكن فشل حملة الدردنيل وكارثة غاليبولى لم تشجعا الحلفاء على القيام بها . وبرزت أهمية الاسكندرونة الاستراتيجية قبيل الحرب العالمية الأولى عندما مد الأتراك خطا فرعيا يربطها بخط حديد بغداد وتضاعفت أهميتها أخيرا بعد أن دلت أعمال التنقيب والحفر الجيولوجى على وجود معدن الكروم وزيت البترول فيها . وكان لهذه الاعتبارات الاستراتيجية صداها لدى الأتراك فى تقدير أهميتها والاهتمام بأمرها لتأمين حدودهم الشرقية ومنافذ الاقتراب الطبيعية إلى قلب الهضبة واستغلال مواردها المقدرة .

وقامت دعوى الأتراك فى المطالبة بلواء الاسكندرونة على تفوق الجالية التركية العددى على غيرها من الجاليات والأقليات الأخرى وكان لهذه الجالية التركية وضع خاص فى المنطقة يقوم على تنمية وتشجيع الثقافة التركيه منذ أبرام المعاهدة الفرنسية التركية سنة ١٩٢١ . ولكن اهتمام تركيا بمنطقة الاسكندرونة وميناءها لم يكن فى الحقيقة وليد هذه الاعتبارات الجنسية والثقافية بقدر ماكان وليد الاعتبارات الاستراتيجية واتصالها بسلامة الحدود الجنوبية الشرقية لتركيا ، وإن كانت أهميتها الاستراتيجية لسوريا لا تقل عن أهميتهاهذه لتركيا وتقوم على نفس الاعتبارات التى تثير تركيا فضلا عن أن ميناء الأسكندرونة هو المنفذ البحرى الوحيدلسوريا الشمالية كما أنه أحد مينائين لها على البحر بعد انفصال لبنان بمينائيها بيروت وطرابلس عنها ولم يعد لسوريا بعد انفصال لواء الاسكندرونة من ميناء على البحر سوى اللاذقية . وقد ظلت تركيا ترقب الفرص المواتية لتحقيق أطماعها فىلواء الأسكندرونة وكانت تدرك تماماً أن السوريين لن يسلموا مطلقا باقتطاع جزء من الوطن السورى لقمة سائغة لهم وأن سوريا المستقلة ستحول دون تحقيق الأطماع التركية فى تلك المنطقة، وكان تسليم الفرنسيين بضرورة تنظيم علاقتهم مع دولتى المشرق قميناً بأيقاظ الأطماع التركية والإسراع بتحقيقها قبل أن تسلم فرنسا باستقلالهما وكانت

علاقتها بتركيا منذ ابرام معاهدة سنة ١٩٢١ علاقة ود ومجاملة وكانت تيارات السياسة الدولية تدفع فرنسا إلى تقوية هذه العلاقة الودية ودعم أواصرها وأثارت تركيا موضوع الأسكندرونه فى عصبة الأمم وطالبت بحل مشكلتها قبل أن تبرم المعاهدة ورأت فرنسا محافظة على علاقتها الطيبة بتركيا عرض الموضوع على عصبة الأمم فهى صاحبة الحق القانونى فى الانتداب ورأت عصبة الأمم استفتاء الأهالى فى تقرير مصيرهم أيبقون تابعين لسوريا أو يختارون الانضمام إلى تركيا ، ولعل فرنسا وقد انحازت إلى جانب تركيا رأت أن يأخذ حل المشكلة وضعا قانونيا فلا تدع للسوريين مطعنا فى شرعية ما تنويه من التسليم بها إلى تركيا إزاء ما قررته قواعد الانتداب من أنه ليس من حق الدول المنتدبة أن تتنازل عن انتدابها أو جزء من البلاد المنتدبة عليها لدولة أخرى دون الرجوع فى ذلك إلى عصبة الأمم صاحبة الحق الأول فى الانتداب ، وقامت عصبة الأمم فى الوقت الذى كانت تتهاوى فيه تحت لطمات الدول الخارجة عليها ببحث الحالة فى الاسكندرونة وكان قرارها أن توافق الحكومتان الفرنسية والتركية على احترام استقلال الأسكندرونة الذاتى تحت إشراف العصبة وقد جعل هذا القرار للاسكندرونة صفة خاصة ليست إلا للدول أو الهيئات ذات الكيان الدولى المعروف . ثم أصدرت العصبة قانونا بتنظيم الهيئة الحاكمة فى لواء الاسكندرونة وهى تتكون من مجلس تشريعى ينتخب على درجتين بطريق التصويت العام ، وهيئة تنفيذية من مندوب فرنسى له حق تعطيل القوانين التى لا يوافق عليها تعاونه قوة بوليسية فرنسية عددها ١٥٠٠ جندى وضابط .

ولم يكن هذا القرار الذى اتخذته عصبة الأمم موضع رضاء العرب أو الأتراك على السواء فهو اعتراف ضمنى من العصبة بوضع خاص للاسكندرونة لا يقره السوريون الذين لا يعترفون بفصلها عن وحدة الوطن السورى العامة وفى الوقت ذاته لا يحقق أطماع الاتراك الذين ينشدون ضم الاسكندرونة إلى تركيا ، ولكن فرنسا سارت فى سبيل ارضاء الأتراك أكثر مما سارت عصبة الامم واتصلت بتركيا رأسا دون وساطة العصبة وأقرت بأن يكون لها فى الاسكندرونة قوة

بوليسية مساوية للقوة الفرنسية ، وعقدت الحكومتان فى سبيل ذلك معاهدة صداقة وتعاون اعترفت بالوضع الجديد للاسكندرونة وأقرته .

وأجريت الانتخابات الجديدة للجمعية التشريعية وحشدت لها تركيا كل عدتها فى الدعاية وفازت فيها بفرق ضئيل فقد نال الاتراك ٢٢ مقعدا من ٤٠ واجتمعت الجمعية الوطنية فى انطاكية فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ وانتخبت رئيسا تركيا للواء كما انتخبت رئيسها ورئيس الوزراء من الأتراك أيضا وأطلقت على المنطقة اسم حاتاى بدلا من الاسم القديم وقد جرت فى هذا على سياسة تركيا الجديدة فى تتريك كل ما هو عربى وأصبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى حاتاى الجديدة وانتزع الموظفون العرب من المسلمين والمسيحيين من وظائفهم وحل محلهم موظفون من الأتراك وأصبح لحاتاى علمها الجديد وهو لا يختلف كثيراً عن العلم التركى .

وفى يونيه عام ١٩٣٩ وقد لاحت فى الأفق بوادر الحرب العالمية الثانية تخلت فرنسا عن منطقة الاسكندرونة نهائياً لتركيا دون أن تستشير السوريين أو تتنازل لهم عن حقوقها فى إدارة اللواء بجانب الاتراك .

ولم ينس السوريون لواء الاسكندرونة وأن كانت الحرب قد شغلتهم عنه طوال سنيها العجاف كما شغلهم عنه سعيهم لتحقيق استقلال الوطن فى أعقاب الحرب وماجرت به الأحداث فى العالم العربى ، وتعرف تركيا أن استقلال سوريا قد جعل للمشكلة وجها آخر لا يكفى معه اعتراف فرنسا بضم الاسكندرونة إليها وانما أصبح لسوريا بعد استقلالها الحق الأول فى الاعتراف بوضع الاسكندرونة الحالى أو إنكاره وأصبح هم تركيا أن تظفر باعتراف سوريا بالوضع القائم .

مصر والمسألة المصرية

تحتل مصر بموقعها فى الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا أهم مركز لا لتقاء المواصلات العالمية فى الشرق الأوسط فهى تطل على بحرين عظيمين وتقع على قمة أقرب الطرق البرية والجوية إلى أوربا والشرقين الأوسط والأقصى ، وهى المدخل الرئيسى للقارة الأفريقية أو قلب الأرض الثانوى فإن أرض وادى النيل تمتد جنوبا إلى قلب القارة حتى الهضبة الاستوائية وتتلاقى فى امتدادها مع المنافذ الرئيسية وطرق الإقتراب الهامة إلى أطراف القارة فى الشرق والغرب والجنوب وقد استخدم طريق القاهرة ـ الكاب الجوى من الشمال إلى الجنوب خلال الحرب العالمية الثانية كما كان طريق دكار ـ جيبوتى من الغرب إلى الشرق خطا هاما للنقل والتموين والمواصلات السريعة المأمونة بين ميادين القتال المختلفة فى الشرق الأوسط . وهى قاعدة الحشد للقوات الزاحفة شمالا نحو أعالى الفرات وهضبة الأناضول أو شرقا نحو أرض الجزيرة وإيران ، وقد ظلت مصر ملتقى الطرق البرية والبحرية التى تنقل تجـــارة الشرق الأقصى إلى أوربا وسواحل البحر الأبيض المتوسط فى القديم حتى تحول الطريق البحرى إلى رأس الرجاء الصالح وفقدت الطرق البرية والبحرية عبر الشرق الأوسط أهميتها التجارية ففقدت بذلك عاملا هاما من عوامل تقدمها ورخائها واتصالها بالعالم الخارجى ثم أخذت الطرق البرية تحتل أهميتها القديمة بتقدم المواصلات البرية والجوية فاستعادت أهميتها القديمة وإزدادت تبعا لتطور الصلات العالمية وارتباطها ارتباطا وثيقا فى الوقت الحاضر ، وكان افتتاح قناة السويس للملاحة عاملا هاما فى عودة النشاط التجارى إلى هذا الطريق مرة أخرى وعودة الاهتمام السياسى والاستراتيجى بمصر وبلدان الشرق الأوسط من جديد أعنف منه فى أى وقت مضى وضاعف من عنفه ما كشفت عنه تربة الشرق الأوسط من موارد بترولية هائلة أخذت تلعب أخطر دور فى تاريخه وفى أهميته الإستراتيجية وتطوره السياسى والاقتصادى والعمرانى الشامل وجعلت منه أخطر مركز من مراكز التنافس الدولى فى العالم .

وقد ارتبطت مصر فى تاريخها الطويل بالبلدان المجاورة ، وكانت منها على الدوام فى مكان الصدارة وانتقلت إليها زعامة العالم الإسلامى السياسية والروحية والثقافية لفترات طويلة حتى إذا فقدت زعامتها السياسية بقيت زعامتها الثقافية والروحية كأقوى ما كانت ، وأصبحت ملجأ الأحرار عندما اشتد طغيان الأتراك فى بلاد الشام وموئل نشاطهم فى سبيل القضية العربية والدعوة لها خلال الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها ، ثم رعت الجامعة العربية وتزعمتها فى الوقت الحاضر وقادت خطاها التى تعثرت بين أهواء الزعامات العربية المتباينة والأطماع الذاتية ودسائس السياسة الأجنبية المغرضة ومازالت مصر المثل الذى تحتذيه الدول العربية والاسلامية فى تطورها وتقدمها وجهادها الوطنى لاستكمال استقلالها التام وكيانها الدولى الـكامل .

وتنقسم مصر من حيث طبيعة أرضها إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى أولا الوادى ويتـكون من دلتا النيل الطامية وتعرف بمصر السفلى ووادى النهر ويمتد من حلفا إلى القاهرة ويعرف بمصر العليا وثانيا صحراء العرب وتمتد شرق الوادى على طول البحر الأحمر وخليج العقبة وتشمل صحراء سيناء والصحراء الشرقية حتى حدود السودان وثالثا صحراء لوبيا وتقع غرب الوادى وتمتد حتى الحدود المصرية الليبية وهى قسمان ، القسم الشمالى ويمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منطقة المنخفضات العظمى التى تسع سيوه ومنخفض القطارة والبحرية ، والقسم الجنوبى ويمتد من منطقة المنخفضات العظمى حتى حدود مصر الجنوبية .

وتبلغ مساحة مصر ٣٨٣٫٠٠٠ ميل مربع ولـكن مساحتها المأهولة فى الدلتا

والوادى والواحات لا تعدو ١٣٫٦٠٠ ميل مربع وهى بذلك مساحة ضيقة ضئيلة بالنسبة للمساحة العامة التى تتسع فيها الصحراء وتمتد على الجانبين فتغطى ما يقرب من ٩٦ ٪ منها . وقد بلغت جملة الأراضى المزروعة كإحصاء عام ١٩٤٩ ما مساحته ٨٫٣٠٥٫٨٣٤ فدانا عدا ١٫٤٣٣٫٧٢٨ فدانا من الأملاك الأميرية المستصلحة والقابلة للاصلاح ، وهذه المساحة الضئيلة تضيق بسكانها الذين يعتمدون اعتمادا كليا على الزراعة فإن عدد المشتغلين بها يقرب من ٧٠ ٪ من مجموعهم العام وهى أشد

جهات العالم كثافة بالسكان فإن متوسط عددهم فى الميل المربع من الأرض المأهولة ١٤٥٠ نسمة ترتفع ارتفاعاً عظيما فى المحافظات فهى فى القاهرة ١٥٫٢٨٣ نسمة لكل كيلو متر مربع وفى الاسكندرية ١٢٫٩٨١ نسمة وفى القنال ٧١٣٤ نسمة وفى السويس ٤١٤٠ نسمة وفى دمياط ٢٤٨٢ نسمة والمتوسط العام ٤١٩٧ نسمة وأهل مصر سريعو التكاثر تقدر نسبة مواليدهم بأربعين فى كل ألف ، وهى ولا ريب أعلى نسبة للمواليد فى العالم بعد فلسطين ، ونسبة الوفيات بدورها أعلى نسبة للوفيات فى العالم وتقدر بست وعشرين فى كل ألف وهى أعلى ما تكون بين الأطفال حتى أنها بلغت ٢٢٤ فى كل ألف طفل عام ١٩٣٥ وقد بلغ عددسكان مصر ١٩٫٠٩٢٫٣٨٩ نسمة وذلك فى إحصاء عام ١٩٤٧ وكان عددهم ١٥٫٩٣٢٫٦٩٤ نسمة فى إحصاء عام ١٩٣٧ بزيادة نسبية متوسطها ١٩٫٨ ٪ خلال عشر سنين ، بينما لم تزد مساحة الأراضى المزروعة عما كانت عليه قبلا إلا زيادة ضئيلة لا تكاد تذكر قدرت بحوالى أربعة آلاف فدان فى العام وإن ازدادت غلة الأراضى العامة عما كانت عليه من قبل لتعميم الرى الدائم ، والإكثار من استخدام السماد الصناعى إلا أن زيادتها النسبية التى بلغت ١٨ ٪ قبل الحرب العالمية الثانية لاتضاهى تلك الزيادة الكبيرة فى عدد السكان وبذلك تناقص متوسط دخل الفرد فى السنوات العشر التى سبقت قيام الحرب الثانية عما كانت عليه فى السنوات العشر التى تلت الحرب الأولى بنسبة تعادل زيادة الإنتاج المحدودة إلى زيادة السكان المضاعفة فى السنوات الأخيرة وجاءت سنوات الحرب فهبطت نسبة الإنتاج لتعذر استيراد الأسمدة وإن لم يؤثر ذلك فى مستوى الدخل العام للفرد بسبب ظروف الحرب الطارئة الا أن مستوى الدخل الحقيقى للفرد من الزراعة قد هبط خلال الحرب عنه فى السنوات التى سبقتها رغم الرواج الظاهرى الذى نعم به الفلاح نتيجة لارتفاع ثمن المحاصيل وارتفاع أجور العمال الزراعيين فإن اشتداد الغلاء قد طغى وزاد على قيمة ما كسبه الفرد من ارتفاع الأجر وزيادة ثمن المحصول لأن هذا الارتفاع فى أثمان المحاصيل لم يفد منه فى الحقيقة غير مالك الأرض أما مؤجرها وأجيرها فلم يفيدا منه شيئا وبقى المستوى السىء المنحط للفلاح يزداد انحطاطا وسوءا أفزع بعض المفكرين حتى نادوا بوجوب تنظيم امتلاك الأرض والحد من الثروة الطائلة والعمل على تصنيع البلاد حتى تستوعب كثيرا من العمال الفائضين

فى الريف وهم من الكثرة بدرجة تزيد على حاجة الزراعة الحقيقية للأيدى العاملة ويرى الاستاذ كليلاند أن ١٠٪ من مجموع العمال الزراعيين فى مصر قادر على القيام بالإنتاج الحالى لو استخدم نصف ما تستخدمه المزارع الامريكية من آلات زراعية ، وتستطيع سياسة تصنيع رشيدة أن تستوعب تلك الأيدى الوفيرة من العمال الزراعيين فى الصناعات التى تنشأ نتيجة لها . كما يرى أن صلاح حال الفلاحين لايتم إلا بإصلاح النظام المتبع فى توزيع الأرض وبغير ذلك لن يرجى أى صلاح لحالهم لاسيما وأنهم لم يجنوا أية فائدة من تقدم الانتاج الزراعى وارتفاع أسعار المحاصيل بعد الحرب الأخيرة ، وقد استعرضت دورين وارنر مؤلفة كتاب « الأرض والفقر فى الشرق الأوسط » ما وصل إليه حال الفلاح المصرى من تأخر وانحطاط نتيجة لسوء توزيع الأرض وقالت أنه لايرجى من مثل هذا الاستغلال الاقتصادى المجحف غير هذه النتيجة الحتمية المزرية المؤلمة حتى أن وباء الملاريا قد فتك بأكثر من مائة ألف نفس من سكان مديريتى قنا وأسوان نتيجة لسوء التغذية والفقر المدقع وأشارت إلى اعتراف مصطفى النحاس رئيس الوزراء فى البرلمان عام ١٩٤٤ بأن ما أصاب سكان أسوان من كارثة كان نتيجة الفقر الناجم عن سوء توزيع الأرض وما يصحبه من ظلم وإجحاف .

أما مساحة السودان فهى تقرب من ثلاثة أضعاف مساحة مصر وتنقسم إلى ثلاث مناطق جغرافية متباينة فى البيئة والمناخ والغلات هى بلاد النوبة والسودان الشمالى والسودان الجنوبى . وتمتد بلاد النوبة من التقاء العطبرة بالنيل حتى نهاية منطقة الجنادل فى الشمال وهى امتداد للصحراء الإفريقية الكبرى ويقع فى وسطها على ضفتى النهر وادى النيل الضيق الخصب وإلى الشرق منه منطقة جافة مجدبة رملية ترتفع تلالها تدريجا حتى تصل إلى ألفى قدم فى المكان الذى يجتازه خط حديد حلفا ـ أبو حمد تعرف بصحراء العطمور وتستمر فى ارتفاعها حتى تصل إلى سلسلة جبال البحر الأحمر التى تمتد على طول الساحل وتنحدر نحوه انحداراً شديداً ويقطعها عدد من الغيران الصخرية إليه ويفصل بينها وبين البحر سهل ساحلى ضيق يمتد شمالا حتى السويس . وإلى الغرب من النيل النوبى تمتد الصحراء متسعة قاحلة تغطيها الغرود الرملية فى

ارتفاع تدريجى قليل نحو الغرب . ووادى النيل هو طريق الإقتراب الوحيد للسودان من الشمال كما أن طريق بور سودان ـ العطبرة هو طريق الإقتراب من البحر الأحمر إليه .

ويمتد شمال السودان جنوب المنطقة النوبية بين سفوح هضبة الحبشة فى الشرق وحدود السودان الغربية فى الغرب حيث يقع إقليما كردفان ودارفور . ويتوسطه إقليم الجزيرة الخصب بين النيلين الأبيض والأزرق وتستغله فى زراعة القطن والذرة شركة إنجليزية انتهى امتيازها إلى حكومة السودان عام ١٩٥٠ . وتتدرج المنطقة شرق إقليم الجزيرة فى الارتفاع والوعورة وتغطيها الغابات الكثيفة حول النيل الأزرق والعطبرة والسوباط الأعلى ، ويصل ارتفاع الهضبة الحبشية على حدود السودان الشرقية إلى ألفى متر تقطعها غيران عميقة ذات سفوح حادة تتجه من الجنوب الشرقى أو الشرق إلى الشمال الغربى ، مما يجعل التحرك بين الحبشة وشرق السودان مقيدا بمسالك معينة أهمها :

١ ـ طريق كسلا ـ أسمرا شمال خور الجاش .

٢ ـ طريق الروصيرص ـ أديس أبابا جنوب النيل الأزرق .

٣ ـ طريق القلابات ـ جندار شمال بحيرة تانا.

وتمتد سهول كردفان غرب النيل الأبيض فى ارتفاع يصل إلى ألفى قدم تقطعها غيران ووديان تمتلىء بالأمطار عقب نزولها وتكسو وديانها أعشاب كثيفة ترعى عليها الماشية وهى مصدر من مصادر الثروة فى السودان ، وتزداد كثافة كلما اتجهنا جنوباً حتى تصل إلى غابات بحر الغزال . وترتفع هضبة دارفور إلى ثلاثة آلاف قدم يجرى وسطها خط تقسيم المياه بين النيل وبحيرة تشاد ، وإلى جوارها تمتد إفريقيا الاستوائية الفرنسية جرداء قاحلة لمسافات طويلة ، ولا تناسب أرضها سوى عمليات حربية ضيقة تقوم بها قوات خفيفة ، وأهم طرق الاقتراب إلى وسط السودان عبر دارفور وكردفان هو طريق الفاشر ـ الأبيض ـ كوستى .

ويسع جنوب السودان حوض بحر الجبل وبحر الزراف وحوض بحر الغزال وروافده وهو حوض عظيم الاتساع مستوية أرضه كثيرة مستنقعاته تعترض مجارى أنهاره سدود نباتية متراكمة تقف دون تدفق مياهها وانسيابها فتغمر الأرض فيما حواليها ، والمنطقة من بحيرة البرت إلى غندكرو جبلية وعرة المسالك شديدة الانحدار نحو السهول الشمالية ويجتاز بحر الجبل فيها واديا صخريا مرتفع الجوانب تعترض مجراه شلالات تعوق الملاحة فيه إلى بحيرة البرت ، وجنوب السودان بالنسبة لكثرة مستنقعاته وكثافة غاباته وسدوده العشبية وصعوبة مواصلاته وأمراضه المتوطنة لا يتيسر غزوه واقتحام أراضيه ولا يلائم القيام بعمليات حربية واسعة .

ويقرب مجموع سكان السودان من ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة جلهم من المسلمين الذين يبلغ عددهم حوالى خمسة ملايين نسمة ، ويتبعون عدة طرق دينية أقدمها الجيلانية ولكن أكثرها انتشارا فى الوقت الحاضر الطريقة الختمية وهم اتباع الشريف السيد على الميرغنى حفيد مؤسس الطريقة ومنشئها السيد محمد عثمان الكبير الذى انشأ قرية الختمية فى كسلا التى أصبحت مقر الدعوة وينتشر اتباع الختمية فى السودان الشمالى والشرقى ومن فروعها الإسماعيلية ومؤسسها السيد المكى ومقرها الأبيض وينتشر اتباعها فى السودان الغربى ثم السامانية وهى أقواها بعد الختمية ، والأحمدية وتعرف أيضا بالإدريسية وشيخها الشريف محمد عبد المتعال من صعيد مصر والتيجانية وهى فرع من الخلوتية واتباعها من الفلاتة والهوسة وقد نزحوا إلى دارفور من أفريقيا الغربية والمجذوبية ومن أنصارها الجعلية والبجه وبعض البشاريه ومركزها سواكن ، والراشدية ويتبعها بعض الدناقلة وفريق من أهالى أم درمان والنيل الأبيض ، أما المهدية فهى دعوة أكثر منها طريقة ورائدها الآن السيد عبد الرحمن المهدى بن المهدى الكبير وأكثر أتباعه من البقارة فى كوردفان ودارفور ولها نفوذها السياسى والدينى القوى فى السودان .

والمسلمون فى السودان خليط من الجنسين الحامى والسامى يتكلمون اللغة العربية وتغلب عليهم تقاليد العرب وطبائعهم وأشهر قبائلهم ، الكبابيش وتقطن الصحراء عند ثنية النيل الكبرى حتى دارفور ، والبشاريه وتقيم فى المنطقة الممتدة شمال العطبرة

إلى مصر ، والبجة فيما بين العطبرة والبحر الأحمر ، والبقاره غرب النيل الأبيض ، وباقى سكان السودان من الحاميين الوثنيين ويعيشون على الفطرة فى السودان الجنوبى وينتشر بينهم التبشير المسيحى تحت رعاية الإنجليز ولـكنه يجد منافسة شديدة من انتشار الدعوة الإسلامية على أيدى بعض الدعاة المسلمين ، وأشهر قبائلهم الشلوك على الضفة الشرقية للنيل الأبيض قريبا من كدوك والدنكا فى إقليم بحر الغزال والنوير ويقطنون بعض جهات بحر الجبل والزراف والسوباط ، ثم النيام نيام فى المنطقة الفاصلة بين حوض النيل وحوض الـكنغو .

والسودان رأس الأمبراطورية البريطانية الإفريقية ومنطقة الدفاع عنها فى الشمال والشرق ، وقد احتل أهميته الاستراتيجية فى خطوط الدفاع الأمبراطورية البريطانية بعد الحرب الثانية حين قرر وزراء خارجية دول الـكومنولث البريطانى فى مؤتمر عقد فى لندن عام ١٩٤٥ ، نقل خط الدفاع الإمبراطورى القديم الذى يرتـكز على جبل طارق ومالطة وقبرص والسويس ويقع على خط عرض ٣٠ شمالا إلى خط الاستواء جنوبا حتى أكرا فى مستعمرة الساحل الذهبى غرب إفريقيا مارا بنيجيريا والسودان وكينيا وتنجانيقا ويرتـكز على قاعدة كينيا التى يمكن أن تحل محل قاعدة السويس ويتوفر لها من العمق الاستراتيجى ما لا يتوفر فى قاعدة السويس القريبة من مواطن الصراع العالمى وأصبح السودان بذلك أكثر أهمية من مصر وقناة السويس فى التطور الجارى للاستراتيجية البريطانية والذى أخذ يكشف عن إتجاهاته القادمة فى خطوط سياستها الجديدة واختطت فى السودان سياسة ترمى إلى تحقيق أهدافها منه ومصالحها فيه تقوم على فصله عن مصر حتى تنفرد به وتجعل منه منطقة نفوذ لها فى أية صورة من صور النفوذ والسيطرة مع إيمانها العميق بحيوية وحدة وادى النيل لمصلحة أهله فى الشمال والجنوب .

والحدود السياسية الحالية بين مصر والسودان حدود مفتعلة فهى وليدة إتفاقية الحكم الثنائى التى أبرمت عام ١٨٩٩ وتقع على خط عرض ٢٢ شمالا وتبعد بذلك عن الحدود القديمة التى كانت تمتد إلى الشلال الثالث جنوبا وقد وضعت بريطانيا تصميم الحدود الفاصلة بين مصر والسودان عندما طلبت إلى الحـكومة المصرية إخلاء السودان

وسحب القوات المصرية شمالا إلى أسوان أو وادى حلفا وكأنها كانت ترسم للمستقبل ما يمكن أن تمتد إليه حدود السودان فى كافة النواحى فلم تفكر فى استرجاع السودان قبل أن تنتهى من تقسيم الغنيمة الإفريقية بينها وبين الدول المتكالبة عليها وتحوير الكيان الجغرافى للسودان على الوجه الذى تريده بعد أن تقتطع ما تود اقتطاعه هى وأشياعها منه ، وظلت حدود السودان فى الشرق والغرب والجنوب عرضة للتغيير والتبديل حتى بعد إستعادته وإبرام إتفاقية عام ١٨٩٩ ، فقد خطت الحدود بينه وبين ارتريا فى عدة اتفاقيات أبرمت بين بريطانيا وإيطاليا فى ديسمبر عام ١٨٩٨ ، وفى يناير عام ١٨٩٩ ، وفى أبريل عام ١٩٠١ ، أما الحدود بينه وبين الحبشة فقد أبرمت بشأنها إتفاقية مايو عام ١٩٠٢ بين بريطانيا وإيطاليا والحبشة . وفى عامى ١٩٠٦ و ١٩١٠ اتفقت بريطانيا وبلجيكا على الحدود التى تفصل بينه وبين الكنغو ، وسارت الحدود الجنوبية التى تفصل بينه وبين أوغندا من بحيرة رودلف إلى النيل الأبيض ولكنها عدلت عام ١٩١٤ بحيث أدخلت الجزء الأكبر الصالح للملاحه من النيل الأبيض ضمن حدوده .

ومثلما أعطت بريطانيا لنفسها الحق فى تخطيط حدود السودان السياسية فقد تدخلت لمصلحتها فى تخطيط الحدود المصرية فى الشرق والغرب ، ففى الشرق وقفت من الأتراك موقفاً حاسما عندما أرادوا اقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر عام ١٨٩٢ وعندما عادوا مرة أخرى فاحتلوا طابا عام ١٩٠٦ ، وإنتهى هذا النزاع حول الحدود الشرقية بإعتراف تركيا بحدود مصر السياسية فى الشرق وهى التى تمتد من رفح إلى خليج العقبة ، وفى الغرب حملت الحكومة المصرية عام ١٩٢٥ على تعديل الحدود الغربية لمصلحة إيطاليا فى ليبيا بضم واحة جغبوب إليها .

جغبوب والحدود الغربية :

تقع جغبوب إلى الغرب بقليل من خط الحدود السياسى بين مصر وليبيا على بعد ٢٢٠ كم جنوبا من بئر الرملة فى الشمال وكانت تقع داخل حدود مصر وذلك قبل أن توقع إتفاقية شالويا عام ١٩٢٥ بتعديل الحدود الغربية بينها وبين ليبيا تحت ضغط بريطانيا ونزولها على إلحاح إيطاليا بضم واحة جغبوب إلى ليبيا ، وتستمد جغبوب

أهميتها من موقعها فى ملتقى طرق القوافل بين ساحـــل البحر الأبيض المتوسط والسودان الفرنسى وبين ليبيا وصحراء مصر الغربية وهى مركز حشد القوات المتقدمة من ليبيا إلى مصر العليا عن طريق سيوه ، وإن لم تـكن مركز الحشد أو التقدم الرئيسى إليها فإن طريق الإقتراب الرئيسى يسير مساحلا للبحر فى الشمال ولـكن القوات الزاحفة من جغبوب يمـكنها أن تطوق جنب القوات المدافعة فى الشمال وتقطع عليها خط الانسحاب نحو الجنوب فلا تستفيد من العمق الاستراتيجى لوادى النيل وبالعكس يمـكن للقوات الزاحفة من مركز الحشد فى سيوه إلى ليبيا حماية الجنـاح الأيسر للقوات الزاحفـة إلى ليبيا عن الطريق الرئيسى لغزو شمال إفريقيا ، وقد ظهرت أهمية جغبوب الاستراتيجية عندما تقدم السنوسيون منها إلى داخل الحدود المصرية واحتلوا الواحات عام ١٩١٦ مزمعين السير صوب مصر لضرب القوات الانجليزية فيها وعندما ارتـكزت عليها قوات المحور أثنـاء الحرب العالمية الثانية للهجوم على مصر .

وليست جغبوب فى خصب الواحات الأخرى فماؤها مزق والنبت فيها قليل ولـكنها اكتسبت أهميتها عند الإيطاليين من كونها المركز الروحى للدعوة السنوسية ومعقل تعاليمها ، فقد اتخذها السيد محمد بن على السنوسى مؤسس الدعوة ورائدها الأول مقراً له فى ليبيا ينشر منها دعوته ويمد نفوذه فى الأصقاع المجاورة ، وبنى فيها زاويته المختارة التى أصبحت موئل الدعوة السنوسية ومدرستها الأولى ، ترحل إليها الوفود للاتصال بهاديها وداعيتها الأكبر ويقصدها الطلاب لارتشاف مناهل العلم والعرفان والتفقه فى أمور الدين وتشرب أصول الطريقة التى عليهم أن يدعوا لها وينشروها بين الناس ، وفيها مات ودفن وشيد ضريحه الذى أصبح مزار الرواد دعوته وأتباعه وبقيت جغبوب مركز التعاليم السنوسية ومقرها الروحى حتى بعد انتقال مركز الدعوة إلى واحات الـكفره عام ١٨٩٥ ، فقد زارها الرحالة المصرى أحمد حسنين عام ١٩٢٣ ورآها بلداً عامراً بالعلم والدين يسع مسجدها الـكبير زهاء ستمائة نفس وتسع مدرستها ثلثمائة طالب أو تزيد ممن يقصدونها للدراسة والعلم وتلقى أصول الطريقة السنوسية .

وقد لقيت إيطاليا من مقاومة السنوسيين والسنوسية لتوسعها الاستعمارى ماحفزها إلى القضاء على الدعوة فى زواياها ومعاقلها المنتشرة فى الصحراء وكان السنوسيون كثيراً مايلوذون بجغبوب بعيدا عن سطوة الإيطاليين ونفوذهم ، فعملت إيطاليا على ضم جغبوب إليها وتوسلت إلى ذلك بمساومة الحلفاء عليها عندما انضمت إليهم فى الحرب العالمية الأولى وطالبت فى اتفاق لندن السرى عام ١٩١٥ بضمها إلى ليبيا وبالرغم من أن اتفاق تالبوت الذى عقد بين السنوسيين وايطاليا عام ١٩١٧ كان يقضى ببقاء جغبوب جزءاً من الأراضى المصرية ، واشترط السنوسيون لتنفيذ الاتفاق أن تبقى جغبوب مصرية ، إلا أن ايطاليا لم تنس أطماعها فيها ومنافعها منها ، وجرت مفاوضات شالويا ـ ملنر بينها وبين بريطانيا لتعيين خط الحدود بين ليبيا ومصر عام ١٩١٩ من غير علم مصر أو استشارتها ، وبالرغم من معارضة رجال الحرب البريطانيين فى ضم جغبوب إلى ليبيا لضرورتها فى الدفاع عن الحدود الغربية حتى كتب محافظ الصحراء الغربية الإنجليزى فى مارس سنة ١٩٢٥ مشيرا إلى تقرير الخبراء العسكريين وإجماعهم على أهمية جغبوب الحيوية للدفاع عن مصر ، وإلى أن بريطانيا قد وعدت السنوسيين فى اتفاق تالبوت عام ١٩١٧ بالاحتفاظ بجغبوب لمصر وعدم التفريط فيها لإيطاليا فإذا سلمت بريطانيا بمطلب إيطاليا فيها فإن ذلك ولاريب يمس كرامتها ويضيع الثقة بها لاسيما وأن للسنوسيين أتباعا ومريدين أقوياء فى نيجيريا والسودان ، بالرغم من كل هذا سلمت بريطانيا تسليما تاما بحق إيطاليا فى ضم جغبوب إلى ليبيا وتعديل الحدود التى تفصل بينها وبين مصر ، وأنذرت مصر ، بأن إصرارها على التمسك بجغبوب سيفقدها إياها فى النهاية دون أن تنال تعويضاً عنها فى منطقة السلوم فاضطرت إلى توقيع اتفاق التنازل عنها وتعديل الحدود الغربية فى ديسمبر عام ١٩٢٥ وهو الاتفاق الذى عرف باتفاقية جغبوب واحتلتها ايطاليا بعد ذلك فى ٧ فبراير سنة ١٩٢٦ .

وتمتد الحدود الغربية بين مصر وليبيا تبعاً لما أقرته اتفاقية جغبوب من خليج السلوم فى خط يشطر هضبة السلوم شطرين ويتجه جنوبا حتى يتلاقى مع الحدود السياسية بين مصر والسودان بحيث يترك واحة جغبوب داخل حدود ليبيا ، ولم تكن

إيطاليا أول من أثار مسألة الحدود الغربية فقد أثارتها تركيا كما أثارت مسألة الحدود الشرقية من قبل وذلك بعد أن احتلت بريطانيا مصر وكان كل يوم يمر على احتلالها يضاعف من يقين تركيا بتمسك بريطانيا بمصر وتثبيت دعائم احتلالها ونفوذها فى هذا الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا وخاصة بعد أن عقد الاتفاق الودى بينها وبين فرنسا عام ١٩٠٤ فحاولت أن تقتص من أطراف مصر الغربية ما تستطيع وضمها إلى ليبيا وكانت لا تزال ولاية عثمانية وكان نصيبها من الفشل فى هــذه المحاولة لا يقل عن نصيبها من الفشل فى محاولة اقتطاع شبه جزيرة سيناء من قبل . ففى نفس العام الذى عقد فيه الاتفاق الودى أبدت رغبتها فى أن تجعل من رأس علم الروم حدا لمصر من جهة الغرب، ويقع رأس علم الروم إلى الشرق من مرسى مطروح ، وأن تكون تلك المساحة الواسعة من رأس علم الروم إلى هضبة السلوم داخل حدود ولايتها الإفريقية وتحرم مصر بذلك عاملا هاما من عوامل منعتها الطبيعية وحماية حدودها الغربية ، ورفض الإنجليز هذا المطلب بحجة أن حدود مصر الغربية كانت على الدوام عند هضبة السلوم وأن بلدة السلوم نفسها وواحة جغبوب أملاك مصرية لا تنفصل عنها ، وفى عام ١٩٠٥ تقدم كتشنر بمشروع لتحديد تخوم مصر الغربية يقوم على دراسة استراتيجية عميقة ، فقد جعل من رأس الملح التى تقع على مبعدة خمسة عشر ميلا غرب السلوم نقطة امتداد الحدود إلى الجنوب بين مصر وطرابلس ويساير هذا المشروع إلى حد بعيد امتداد الحدود السياسية القديمة لمصر من ناحية الغرب ، ولهذا المشروع مزاياه الاستراتيجية الواضحة إذا قيس إلى خط الحدود الحالى فإنه جعل خليج السلوم وهضبتها داخل الحدود المصرية وراعى أن تكون أقرب قاعدة للحشد وهى طبرق على بعد غير قليل منها وأن يكون مرسى سليمان وهو الذى عرف بثغر البردية ويقع مباشرة إلى الغرب من خليج وهضبة السلوم داخل الأراضى المصرية . وتمتد الحدود جنوبا فتكون واحة جغبوب مصرية أيضاً حتى لا تكون قاعدة لأى غزو لمصر من ناحية الغرب عن طريق الصحراء فإن أقرب الواحات إلى جغبوب فى الغرب هى واحة جالو وتبعد عنها بحوالى مائتين وخمسين ميلا

والمرحلة بينهما شاقة مجهدة لا تتوفر فى عبورها موارد المـاء ، ومن المعروف أن جغبوب تتسلط على منطقة المنخفضات العظمى فى الصحراء الغربية وهى على رأس طريق الإقتراب الصحراوى المكشوف إلى وادى النيل من ناحية الغرب .

ولم يلق مشروع كتشنر من حفاوة الحكومة البريطانيـة ما هو جدير به من تقدير واعتبار فإن بريطانيا حتى ذلك الوقت لم تـكن تخشى غزوا يأتى مصر من ناحية الغرب وكان جل اهتمامها موجها إلى حماية قناة السويس ورعاية الحدود الشرقية الغربية من خطر الامتداد الألمانى فى الشرق ، واتفقت تركيا وبريطانيا عام ١٩٠٧ على أن تبدأ الحدود الغربية من نقطة تقع على خليج السلوم وتشطر الخليج والهضبة شطرين أحدهما وفيه السلوم داخل حدود مصر والآخر وفيه ثغر البردية داخل حدود طرابلس فقضى بذلك على كل المزايا الاستراتيجية فى مشروع كتشنر ، بإن البردية بموقعها على قمة الهضبة تتسلط على بلدة السلوم وخليجها المنخفض وتجعل الدفاع عنهما أمرا صعباً إن لم يكن مستحيلا ، ومن المعروف أن المسافة من السلوم فلى مرسى مطروح خالية من الموانع الطبيعية التى يعتمد عليها كخطوط دفاع أمامية ضد الغزو ، ورضيت تركيا بعد ذلك أن تسحب مخافرها الأمامية من منطقة السلوم إلى داخل الحدود الجديدة ، ولم يتناول هذا الاتفاق مصير جغبوب فبقيت داخل حدود مصر حتى قامت الحرب العالمية الأولى وكانت إيطاليا قد نزلت إلى طرابلس قبل قيامها بثلاث سنوات واحتدم النضال بينها وبين السنوسيين ووجد السنوسيون فى انضمام إيطاليا إلى الحلفاء فرصة لتحرير بلادهم فدفعوا بالإيطاليين إلى الساحل ودفعتهم تركيا إلى غزو مصر فتقدموا إلى مرسى مطروح واحتلوها فى الشمال ، كما تقدموا إلى جغبوب واحتلوا منطقة الواحات وظهرت أهمية جغبوب للمرة الأولى فى العصر العصر الحديث كطريق اقتراب إلى وادى النيل كما ظهرت أهميتها مرة أخرى خلال الحرب الثانية عندما اتخذتها قوات المحور قاعدة للتقدم نحو مصر . ثم انتهت الحرب الأولى وما أن وطدت إيطاليا نفوذها فى مناطق ليبيا حتى أخذت تلح على الحـكومة

البريطانية بتنفيذ اتفاق شالويا — ملنر بضم جغبوب إلى ليبيا مخالفة بذلك اتفاق تالبوت الذى عقدته مع السنوسيين عام ١٩١٧ وكانت بريطانيا طرفا فيه ، وحملت بريطانيا مصر على التنازل عن جغبوب لإيطاليا فى مقابل أن تمتد حدود مصر عند السلوم غربا إلى بئر الرملة على مسافة عشرة كيلومترات من السلوم ، وشمل التنازل منطقة واسعة من الصحراء الغربية وسعت بجانب جغبوب واحتى أركنو والعوينات واتخذت ايطاليا جغبوب قاعدة للاستيلاء على الكفرة عام ١٩٣١ .

وقد وقعت الحكومة المصرية برئاسة زيور اتفاقية جغبوب فى غيبة البرلمان فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٥ وصدق عليها برلمان صدقى فى يونيه عام ١٩٣٢ ، واعتبر تصديقه عليها غير قانونى لأنه قام فى ظل نظام يخالف دستور البلاد وإجماعها الشعبى ، وعادت مصر تطالب باسترجاع جغبوب بعد هزيمة إيطاليا فى الحرب الثانية وانهيار امبراطوريتها ، ولكن لم يتم شىء بشأنها حتى الآن .

المسألة المصرية والمفاوضات الثنائية :

دخلت المسألة المصرية بإعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فى دور من المفاوضات الثنائية بين مصر وبريطانيا لحل المسائل المعلقة بين البلدين وهى التى تضمنتها تحفظات بريطانيا الأربعة فى هذا التصريح ، ولم يكن يهم بريطانيا من هذه المفاوضات إلا أن تكسب من ورائها اعترافا شرعياً بحقيقة مصالحها فى مصر ، وتعثرت المفاوضات بين تمسك بريطانيا بمصالحها ، وإصرار مصر على الفوز بحقوق سيادتها كاملة ، ولم تنجح المفاوضات إلا فى عام ١٩٣٦ وانتهت بإبرام معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ .

وكانت الحركة الوطنية قد لقيت كثيرا من عنت سلطات الإحتلال ومن تدخل القصر فى الحكم ، والروح الحزبية التى طغت على وحدة الأهداف الوطنية وقوتها ، وجاء الوقت بعد مرور أربعة عشر عاماً من إعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

مناسبا لإبرام معاهدة عام ١٩٣٦ فقد شهدت البلاد خلالها من ألوان الضغط الإنجليزى وتدخل الإنجليز بشكل سافر أو مستور فى شئون البلاد الداخلية ونزعة القصر الاستبدادية والعبث بالدستور والخلاف الحزبى ما فل كثيراً من عرامة الروح الوطنية وقوتها وحماسها ، وساعد ذلك على قبول هذه المعاهدة بمساوئها وقيودها .

وبدأت المفاوضات الأولى بين سعد ومكدونلد بلندن فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، وكان سعد على رأس الحكومة المصرية بعد فوز الوفد بالأغلبية البرلمانية ، وكان مكدونلد على رأس الحكومة البريطانية بعد فوز العمال فى الانتخابات العامة ، واستبشر سعد بوجودهم فى الحكم ولكن السياسة الخارجية لبريطانيا لا تتغير فى قواعدها الأساسية باختلاف الأحزاب أو تغير الحكومات ، فلم تجد المطالب التى تقدم بها سعد ترحيبا من حكومة العمال وانتهت المفاوضات برفضها ، وتتلخص هذه المطالب فى جلاء القوات البريطانية عن مصر وعدم اشتراك بريطانيا فى الدفاع عن القناة ، وإلغاء وظيفتى المستشارين المالى والقضائى ، واستقلال مصر بممارسة سياستها الخارجية حرة من كل مظاهر السيطرة البريطانية ، وتنازل بريطانيا عن دعواها فى حماية الأقليات والأجانب والاعتراف بملكية مصر للسودان .

وكانت المفاوضات التالية بين ثروت الذى رأس الحكومة الائتلافية فى مصر فى ابريل سنة ١٩٢٧ وتشمبرلن وزير الخارجية البريطانية فى حكومة المحافظين إذ وصل المتفاوضان إلى مشروع معاهدة أبقاه ثروت سراً مكتوما حتى عن أعضاء وزارته إلى أن ألح عليه الوفد بضرورة عرض المشروع وبحثه وخرج من هذا البحث برفضه ، ورفضه مجلس الوزراء بدوره ولم يجد فيه ما يدعوه إلى عرضه على البرلمان ولا يختلف ما جاء فى هذا المشروع عما جاء فى مشروع كيرزون القديم فهو يحقق لبريطانيا كل ما تهدف إليه من نفوذ وسيطرة واستغلال لموارد البلاد فى السلم والحرب .

وما أن علمت الحكومة البريطانية برفض المشروع حتى أخذت تبرق وترعد

مهددة متوعدة ، وأعلنت مندوبها السامى بما يأتى : « إن النحاس باشا على مايظهر ليس أكثر ميلا إلى إدراك حقائق المسألة مما كان عليه زغلول باشا منذ أربع سنوات عندما ذكر له مستر رمزى مكدونلد أنه لايمكن لأية حكومة بريطانية أن تعمد بعد تجربة الحرب الأخيرة إلى التنازل حتى لحليف عن مصلحتها فى حراسة حلقة حيوية فى المواصلات البريطانية مثل قناة السويس . ويجب أن يكون مثل هذا الضمان وجها من وجوه أى اتفاق يعقد وإن إدراك ثروت باشا لهذه الحقائق هو الذى جعل من المتيسر المفاوضة لعقد المعاهدة ، ورفض النحاس باشا إدراكها هو الذى سيجعل من جديد الوصول إلى تسوية مستحيلا » . وكان هذا رداً على رسالة المندوب السامى البريطانى إلى تشمبرلن بفحوى حديث جرى بينه وبين النحاس رئيس الوفد وزعيم الأغلبية قال فيها : « إن زعيم الأغلبية قال إنه يشعر أنه من العبث البحث فيما يعود على مصر من فوائد من مواد المعاهدة المختلفة ما دامت المعاهدة لا تنص على جلاء القوات البريطانية عن مصر جلاء تاما » . ومن ثم أخذت الحكومة البريطانية تسفر عن تدخلها فى شئون البلاد الداخلية وأنذرت الحكومة المصرية بسحب مشروع قانون الاجتماعات من البرلمان ، وأثارت أزمة لم تجد الحكومة المصرية حيالها بدا من تأجيل النظر فى المشروع وإهماله .

وكان الدور الثالث من المفاوضات بين محمد محمود الذى ألف الوزارة بعد إقالة وزارة النحاس وبين آرثر هندرسن وزير الخارجية فى حكومة العمال التى خلفت حكومة المحافظين بعد فوز العمال بالأغلبية البرلمانية فى انتخابات مايو سنة ١٩٢٩ ، وكان محمد محمود قد أبدى رغبته إلى هندرسن ببحث مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر ورأى هندرسن أن تتناول المفاوضات بحث المسألة المصرية كلها ، وبدأت المفاوضات صيف عام ١٩٢٩ وأسفرت عن مشروع معاهدة مرن ليست فيه قيود مشروع معاهدة ثروت — تشمبرلن إلا أنه لا يختلف فى جوهره عنه ، فإنه يحتفظ بالاحتلال البريطانى للبلاد ويفصل مسألة السودان عن المسألة المصرية حتى قال عنه تشمبرلن فى خطبة له « إن المقترحات الحالية هى من وجوه كثيرة أقرب ماتكون للمقترحات التى فاوضت فيها ثروت باشا » . ولما أعلن نص المشروع علق الوفد النظر فيه على عودة الحياة النيابية لتقول الأمة كلمتها واضحة جلية ، واستجابت الحكومة

البريطانية لهذا الرأى فسقطت وزارة محمد محمود وألف عدلى الوزارة التى أجرت الانتخابات العامة فى ديسمبر ، وفاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة دعى النحاس بعدها لتأليف الوزارة فألفها واستأنف المفاوضات مع هندرسن فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٠ للوصول إلى اتفاق حول المسائل المعلقة بين البلدين ، وفى ٨ مايو قطعت المفاوضات لعدم الوصول إلى اتفاق بشأن السودان .

وكان الدور الأخير من المفاوضات هو الذى جرى بين الجبهة الوطنية التى تألفت من الأحزاب المصرية برئاسة النحاس وبين المندوب السامى البريطانى مايلز لامبسون ومعاونيه من العسكريين والمدنيين وبينما كانت هيئة المفاوضات البريطانية تضم ثلاثة من أساطين العسكرية البريطانية فى مصر والشرق الأوسط هم القائد العام للقوات البريطانية فى مصر وقائد أسطول البحر الأبيض المتوسط ومارشال الطيران فى الشرق الأوسط ، لم يكن بين المفاوضين المصريين من يمثل هذه الناحية تمثيلا صحيحاً ، ولذلك جاءت المعاهدة وقد كبلت البلاد بقيود وأعباء عسكرية ثقيلة .

وانتهت المفاوضات بإبرام معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا ، ووقعت أصولها فى قاعة لوكارنو التاريخية بوزارة الخارجية البريطانيـة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ وحققت لبريطانيا كثيراً من قواعد سياستها التقليدية التى تمسكت بها فى وادى النيل وتحطمت على صخرتها المفاوضات أكثر من مرة قبل إبرامها ، ولم تحقق مصر منها ما كانت ترجوه من تحقيق سيادتها واستقلالها غير منقوصين .

وانتهت بذلك مرحلة هامة من مراحل تطور المسألة المصرية ، قرت بعدها العلاقات بين مصر وبريطانيا على أوضاع ثابتة ظلت تسيطر على اتجاهات مصر السياسية والوطنية إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عندما أثار المصريون موضوع تعديل المعاهدة وإقرار العلاقات البريطانية المصرية على أساس جديد يتفق وما تتطلع إليه مصر من تحقيق سيادتها كاملة على ضوء المبادىء الجديدة لهيئة الأمم المتحدة ، وتطور العلاقات الدولية العامة .

وقد جرت الحياة فى مصر خلال تلك الفترة أى ما بين إعلان تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ وإبرام معاهدة أغسطس سنة ١٩٣٦ قلقة ثائرة مضطربة تنوشها عوامل متعددة من تدخل القصر فى حكم البلاد وما جره من تعطيل الحياة النيابية مراراً ، وتناحر الأحزاب واختلافها بشكل أساء إلى حماس الحركة الوطنية ، وعرقل جهادها وأهدافها ، وإن ساعد على تقدم الوعى السياسى للجماهير ونمو الفكرة الديمقراطية والحرص على الحياة الدستورية بين طوائف الشعب ، وقد استغلت بريطانيا اختلاف الأحزاب وتدخل القصر فى الحكم لدعم سياستها وتحقيق مآربها التى انتهت بما كانت ترجوه من إبرام معاهدة وطدت لنفوذها فى البلاد وأكسبته صفة شرعية .

السودان والمفاوضات الثنائية :

كانت مسألة السودان فى حقيقة الأمر الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات بين مصر وبريطانيا للوصول إلى حل للمسألة المصرية ، فإن نمو المصالح البريطانية فى أفريقيا وأهدافها الاستراتيجية والإقتصادية فى السودان كانت تدفعها على الدوام إلى الإستئثار به والفصل بينه وبين مصر بالقضاء على تلك العلاقة الواهية التى تربطه بمصر فى اتفاقية عام ١٨٩٩ . فعملت على ترك موضوع السودان جانباً فى كل مفاوضة تدور لحل المسألة المصرية .ففى مفاوضات سعد ـ مكدونلد رفض مكدونلد الاعتراف بحقوق مصر فى السودان وفى مفاوضات ثروت ـ تشمبرلن تعرض المتفاوضان لموضوع السودان بما لا يخرج عن البحث فى مصالح مصر فى مياه النيل وجاء المشروع الذى اتفقا عليه غفلا من ذكر السودان ، وفى مفاوضات محمد محمود ـ هندرسن تناول المتفاوضان موضوع السودان على هامش مشروع الإتفاق فى مذكرات تبادلاها عن دين السودان لمصر وطريقة تطبيق المعاهدات ذات الصفة الفنيه والإنسانية التى تبرم بين مصر وبريطانيا على السودان أما من حيث عودة كتيبة مصرية إلى السودان فإن مذكرة هندرسن فى هذا الموضوع جاءت بما نصه « فإذا نفذت المعاهدة

بالروح الودية التى تفاوضنا بها فى المقترحات كما تؤمل ذلك بإخلاص حكومة صاحب الجلالة البريطانية ببريطانيا العظمى وشمال إيرلندا ، فإن الحكومة تكون مستعدة لأن تفحص بروح العطف الإقتراح بشأن عودة أورطة مصرية إلى السودان فى الوقت الذى تسحب فيه القوات البريطانية من القاهرة » ولم تتعرض المفاوضات للمسائل الرئيسية التى تربط بين البلدين ، أمامفاوضات النحاس – هندرسن فقد قطعت بسبب عدم الاتفاق على مسألة السودان . حتى إذا أبرمت معاهدة الصداقة والتحالف لم تغيرمن وضع السودان شيئاً إلا أن أرجعت الحالة فيه إلى ما كانت عليه قبل إخراج الجيش المصرى منه فقد نصت المادة الحادية عشرة على أن تكون إدارة السودان مستمدة من إتفاقيتى الحكم الثنائى وأشارت فى نهاية الفقرة الأولى منها إلى أن هذا ليس له أى مساس بمسأله السيادة على السودان وسمحت فى الفقرة الثالثة أن يكون لمصر جنود فى السودان للدفاع عنه تحت إمرة الحاكم العام بجانب الجنود الانجليزية والسودانية . وبذلك يمكن أن نقول أن وضع السودان لم يتغير مطلقا عما كان عليه من قبل إلا فى النص على حرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى الحكم الثنائى .

وقد بدأت بريطانيا سياستها فى فصل السودان عن مصر فى اتفاقية الحكم الثنائى بما خولته للحاكم العام الإنجليزى من سلطات واسعة فى ظل الأحكام العرفية وذلك بعد أن حملت مصر من قبل على إخلاء السودان لتنزل إليه فى ركاب القوات المصرية التى تعود تحت قيادة الضباط الإنجليز للقضاء على الدراويش . حتى إذا أبرمت معاهدة لوزان وتنازلت تركيا عن حقوق السيادة التى لها على وادى النيل حرصت بريطانيا على الوصول إلى إتفاق مع مصر يسبغ على مصالحها فيها صفة شرعية قانونية ولم تتعرض لموضوع السودان على اعتبار أنها قد كسبت هذا الوضع القانونى فى إتفاقيتى الحكم الثنائى ولما رأت إصرار المصريين على المطالبة بحقوقهم فى السودان تحت نحوا جديدا فى فصله عن مصر يرمى إلى إضعاف الصلات بينه وبينها وتنمية الشعور بالكيان الذاتى لدى السودانيين فعملت أولا على القضاء على تلك الصلة الواهية التى تربط مصر بالسودان

فى إتفاقيق الحكم الثنائى واهتبلت فرصة إغتيال السردار عام ١٩٢٤ ووجهت إنذارها المشهور إلى الحكومة المصرية بسحب القوات المصرية من السودان وزيادة المساحة المزروعة من أرض الجزيرة إلى الحد الذى تقتضيه الحاجة ، عدا بعض مطالب تعسفية أخرى أملتها القوة والاستبداد وقامت عقب سحب القوات المصرية من السودان بإنشاء قوة الدفاع السودانية لا تدين بالولاء لملك مصر وإنما تتبع الحاكم العام مباشرة وتقسم له يمين الولاء وكانت قد عملت من قبل على احتكار الوظائف الرئيسية والاستئثار بالمشروعات التجارية والاستثمارات المالية لأبنائها وأخذت تتقرب من شيوخ القبائل وتشيع فيهم النفرة من المصريين والحكم المصرى وتثير بينهم النعرة القبلية وتحرم على الموظفين الاشتغال بالسياسية . ولكن فورة الشعور الوطنى فى السودان لم تكن أقل منها فى مصر وسارت الحركة الوطنية يتزعمها الضباط والطلبة متجاوبة مع الحركة الوطنية فى مصر رغم مقاومة السلطة الإنجليزية لها حتى أبرمت معاهدة عام ١٩٣٦ وقابلها المصريون بالفرح والسرور بينما قابلها السودانيون بالأسى والحزن فكانت بداية النضال الوطنى الجديد الذى قام على إثره مؤتمر الخريجين لتحرير السودان من الاستعمار والنهوض بالحياة الإجتماعية والثقافية فيه .

معاهدة عام ١٩٣٦ والتحفظات الأربعة :

أعلنت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ باستقلال مصر مقيدا ببعض التحفظات التى أجملتها فى أربع فقرات وذلك فى البند الثالث من التصريح (ص ٦٤٢) وصدر التصريح من جانب واحد وقبلته مصر لأنه لا يقيدها بقبوله أو رفضه ولا يلزمها بالتزامات معينة فضلا عن أنه ينهى حالة قائمة شائكة كانت موضع سخط المصريين وغضبهم وهى الحماية البريطانية والأحكام العرفية التى تخضع لها . وقد رضيت مصر أن تلج باب المفاوضات لحل قضيتها وجاء التصريح وقد مهد لها سبيل قيام حكومة دستورية تستطيع أن تضطلع بالمفاوضات وهى تمثل إرادة الشعب ، وأشار لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية إلى هذا المعنى بقوله « أن ما حملها

على إعلان هذا التصريح هو أنه لا توجد حكومة مصرية تستطيع حمل مصر على الارتباط بمعاهدة مع بريطانيا » .

وبدأت مرحلة المفاوضات التالية وهى تدور فى حقيقتها حول هذه المسائل الأربع وكان منها ماهو موضع اهتمام بريطانيا خاصة لأنه يتعلق بمصالحها وأهدافها الحقيقية فى تلك البقعة من العالم كتأمين المواصلات الامبراطورية فى مصر والدفاع عنها ضد العدوان الخارجى والسودان ، أما حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات فقد اتخذتهما وسيلة للمساومة على المسائل الأخرى وقد ارتبطت بحماية الأجانب والأقليات ارتباطا يرجع إلى بداية احتلالها عندما أعلنت أن الاحتلال موقوت بإقرار النظام وحماية المصالح الأجنبية ، أما حماية الأقليات فكانت وسيلة من وسائلها الملتوية للاعتماد عليها فى شل الحركة الوطنية وإشاعة الفرقة بين أبناء الوطن الواحد واتهام البلاد بالتعصب الدينى حتى تبرر وجودها بضرورة إقرار العدالة والمساواة بين طوائف الشعب .. وقد سلمت بريطانيا فى المادة الثانية عشرة من المعاهدة «بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها » واعترفت فى المادة الثالثة عشرة « بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة ». وبذلك وصلت المعاهدة إلى حل واضح مستقيم لمسألة من المسائل الأربع التى قيدت استقلال مصر فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . ولما كانت الامتيازات الأجنبية لا تتعلق ببريطانيا وحدها وإن جعلت من نفسها قيمة على مصالح الأجانب فى مصر ، فقد دعت الحكومة المصرية الدول صاحبة الامتيازات وهى اثنتى عشرة دولة إلى مؤتمر يعقد فى مدينة مونترو بسويسرا فى ١٢ ابريل سنة ١٩٣٧ للبحث فى إلغاء الامتيازات ، وعقد المؤتمر فى موعده المحدد وانفض بعد أن اتفق المندوبون على إلغاء الامتيازات الأجنبية فى القطر المصرى الغاء تاما وأن يخضع الأجانب للتشريع المصرى على أن تبقى المحاكم المختلطة قائمة حتى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٩ تنقل بعدها اختصاصاتها إلى المحاكم الوطنية ووقعوا بذلك اتفاقية مونترو فى ٨ مايو سنة ١٩٣٧ وصدق عليها البرلمان المصرى فى يوليه وبهذا تحققت سيادة مصر على سكانها .

ويبقى بعد ذلك ثلاث مسائل يجب أن يتناولها الاتفاق وهى مسألة السودان وقد انفق الطرفان المتعاقدان على أن تظل إدارة السودان مستمدة من اتفاقيتى الحكم الثنائى وبذلك بقيت دون حل مما أغضب السودانيين وجعلهم أكثر ميلا للاعتماد على أنفسهم فى كفاحهم الوطنى ، أما المسألتان الباقيتان وهما تأمين المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر فأنهما فى الحقيقة مسألة واحدة تتناول وضع الاحتلال فى صميمه وما تحب بريطانيا أن يسود العلاقات المصرية البريطانية من تفاهم دائم حول هاتين المسألتين .

وقد حرصت بريطانيا على أن يكون للمعاهدة صفة البقاء والدوام ولا يمنع هذا « من الدخول فى مفاوضات جديدة بقصد إعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك ... ومن المتفق عليه أن أى تغيير للمعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقاً للمبادىء التى تنطوى عليها المواد ٤ و٥ و٦ و٧ ... » وعملت على دعم احتلالها الفعلى للبلاد بالرغم مما نصت عليه المعاهدة من أن وجود القوات لا يحمل صفة الاحتلال ، ولا يخل بوجه من الوجوه بالسيادة المصرية كما ربطت مصر إلى عجلتها فى سياسة الامبراطورية الاستراتيجية مما يعرضها لهجوم يشنه الأعداء على القوات البريطانية المقيمة فى أرضها ، وبذلك أضفت المعاهدة على الاحتلال صفة شرعية وفرضت على مصر تحالفا أبديا سداه الدفاع عن المصالح الإمبراطورية ولحمته دعم نفوذها المنشود فيها وحققت بريطانيا ماظلت تسعى إليه أكثر من نصف قرن وهو أن تعترف مصر والدول صاحبة الشأن بمصالحها فى مصر اعترافا قانونيا .

وفيما يلى نص المعاهدة لأهميتها فى فهم حقيقة الأهداف البريطانية فى مصر وإدراك حقيقة العلاقات التى تربطها بها وتطور سياستها العامة فى بلدان الشرق الأوسط .

معاهدة الصـــداقة والتحالف

بين مصر وبريطانيا العظمى

(٦ أغسطس سنة ١٩٣٦)

المادة الأولى : انتهى احتلال مصر عسكريا بواســطة قوات صـاحب الجلالة الملك والإمبراطور .

المادة الثانيــة : يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صـاحب الجلالة الملك والإمبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية .

المادة الثالثة : تنوى مصر أن تطلب الانضمام إلى عضوية عصبة الأمم . وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فإنها ستؤيد أى طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها فى المـادة الأولى من عهد العصبة .

المادة الرابعة : تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصـداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما

المادةالخامسة : يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفاً يتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية .

المادة السادسة : إذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لأحكام عهد عصبة الأمم أو لأى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة .

المادة السابعة : إذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفاً وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتى ذكرها .

وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والإمبراطور داخل حدود الأراضى المصرية ومع مراعاة النظام المصرى للادارة والتشريع جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات .

وبناء على هـذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة .

المادة الثامنة : بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر وهو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فإلى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق هـذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها .

ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الأحوال .

كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية .

ومن المتفق عليه أنه إذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحدودة فى المادة السادسة عشرة على مسألة ما إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لأن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة فإن هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقا لأحكام عهد العصبة النافذة وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقاً للاجراءات التى قد يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

ملحق المادة الثامنة :

١ — من غير إخلال بأحكام المادة السابعة يجب أن لا يزيد عدد قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى توجد بقرب القنال على عشرة آلاف من القوات البرية وأربعمائة طيار من القوات الجوية ومعهم العدد الضرورى من المستخدمين الملحقين بهم للادارة والأعمال الفنية ولا يشمل هذا العدد الموظفين الفنيين كالكتبة والصناع والعمال .

٢ — توزع القوات البريطانية التى توجد بقرب القنال كما يأتى :

(ا) فيما يتعلق بالقوات البرية فى المعسكر ومنطقة جنيفه على الجانب الجنوبى الغربى للبحيرة المرة الكبرى .

(ب) وفيما يتعلق بالقوات الجوية على مسافة خمسة أميال من سكة حديد بور سعيد ـ السويس من القنطرة شمالا إلى ملتقى سكة حديد السويس ـ القاهرة والسويس ـ الإسماعيلية جنوبا مع امتداد على خط سكة حديد الإسماعيلية ـ القاهرة بحيث يشمل محطة القوات الملكية للطيران بأبى صوير وما يتبعها من الأراضى المعدة لنزول الطيارات والميادين الصالحة التى قد يقتضى الأمر إنشاءها شرق القنال لإطلاق النار وإلقاء القنابل من الطائرات .

٣ — يعد فى الأماكن المحددة آنفا للقوات البريطانية والجوية التى حدد عددها فى الفقرة الأولى سالفة الذكر بما فى ذلك أربعة آلاف من الموظفين المدنيين (مع خصم ألفين من رجال القوات البرية وسبعمائة من رجال القوات الجوية واربعمائة وخمسين موظفا مدنيا وهم الذين توجد لهم الآن معدات السكن) ماتحتاج اليه من الأراضى والثكنات الثابتة والمستلزمات الفنية بما فيها من توفير الماء الذى قد تستلزمه الطوارىء وتكون الأراضى والمساكن وموارد المياه مطابقة للنظم الحديثة . وفضلا عن ذلك تقدم للجنود وسائل الراحة المعقولة مع مراعاة طبيعة هذه الجهات وذلك بغرس الأشجار وإنشاء الحدائق وميادين الألعاب ... الخ . ويعد موقع لإقامة مخيم للنقاهة على ساحل البحر الأبيض .

٤ — تقدم الحكومة المصرية وتنشىء المساكن وموارد المياه ووسائل الراحة ومخيم النقاهة المشار إليها فى الفقرة السابقة باعتبارها ضرورية علاوة على ماهو موجود منها الآن فى تلك الجهات وذلك على نفقتها الخاصة على أن تساهم حكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة بدفع ما يأتى :

(١) المبلغ الذى أنفقته الحكومة المصرية فعلا قبل سنة ١٩١٤ فى إقامة ثكنات جديدة أنشئت لتحل محل ثكنات قصر النيل فى القاهرة .

(٢) تكاليف ربع الثكنات والمستلزمات الفنية للقوات البرية .

على أن يدفع أول هذين المبلغين فى الوقت المحدد بالفقرة الثامنة الآتى ذكرها لانسحاب القوات البريطانية من القاهرة . ويدفع المبلغ الآخر فى الوقت المعين لانسحاب القوات البريطانية من الإسكندرية طبقاً للفقرة الثامنة عشرة الآتى ذكرها . وللحكومة المصرية أن تتقاضى إيجارا مناسباً نظير استعمال المساكن المعدة لإقامة المستخدمين المدنيين ويتفق على قيمة الإيجار بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة المصرية .

٥ — بمجرد نفاذ هذه المعاهدة تعين كل من الحكومتين فورا شخصين أو أكثر تتألف منهم لجنة يعهد إليها بجميع المسائل المرتبطة بتنفيذ هذه الأعمال من وقت البدء فيها إلى حين تمامها وتقبل مشروعات التصميمات ورسومها التخطيطية «السكروكية» والمواصفات التى يقدمها ممثلو حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة بشرط أن تكون معقولة وأن لا تتجاوز مدى التزامات الحكومة المصرية الواردة فى الفقرة الرابعة ويجب أن يقر ممثلو كل من الحكومتين فى هذه اللجنة التصميمات والمواصفات الخاصة بكل عمل تقوم به الحكومة المصرية قبل البدء فيه . ويكون لكل عضو فى هذه اللجنة وكذلك لقواد القوات البريطانية أو ممثليهم حق فحص الأعمال فى جميع أدوار انشائها كما يجوز لممثلى المملكة المتحدة من أعضاء اللجنة تقديم مقترحات بشأن طريقة تنفيذ العمل . ولهم أيضا حق اقتراح تعديل التصميمات والمواصفات أو تغييرها فى أى وقت أثناء سير العمل وتنفيذ المقترحات والمشروعات التى يقدمها ممثلو المملكة المتحدة فى اللجنة بشرط أن تكون معقولة وأن لا تتجاوز مدى التزامات الحكومة المصرية الواردة فى الفقرة الرابعة . وفيما يتعلق بالآلات وغيرها من المهمات حيث يكون لوحدة الطراز أهميتها قد اتفق على أن تكون المهمات التى تشترى وتركب من الطراز المقرر والمستعمل عادة فى الجيش البريطانى .

ومن المفهوم طبعاً أنه يجوز لحكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة أن تقوم على نفقتها الخاصة بعد استعمال القوات البريطانية لهذه الثكنات والمساكن بادخال التحسينات والتغييرات وإنشاء مبان جديدة فى المنطقة المحددة فى الفقرة الثانية السالف ذكرها

٦ — تحقيقاً لبرنامج الحكومة المصرية فى تحسين الطرق ومواصلات السكك الحديدية فى القطر المصرى ولإبلاغ وسائل المواصلات فيها مستوى حاجات الفنون الحربية الحديثة ستتولى الحكومة المصرية إنشاء الطرق والكبارى والسكك الحديدية المبينة بعد وصيانتها :

(ا) الطرق :

(١) بين الاسماعيلية والاسكندرية عن طريق التل الكبير وزفتى والزقازيق وطنطا وكفر الزيات ودمهور .

(٢) بين الاسماعيلية والقاهرة عن طريق التل الكبير ومنه يستمر على ترعة المياه الحلوه إلى هليوبوليس .

(٣) بين بورسعيد والاسماعيلية فالسويس .

(٤) مواصلة بين الطرف الجنوبى للبحيرة المرة الكبرى والطريق الممتد من القاهرة إلى السويس على مسافة خمسة عشر ميلا تقريبا غربى السويس .

ولإبلاغ هذه الطرق المستوى العام للطرق الجديدة الصالحة لحركة المرور العامة سيكون عرضها عشرين قدما ويكون لها تحويلات حول القرى ... الخ . وتنشأ من مواد من شأنها أن تجعلها صالحة دائما للانتفاع بهاقى الأغراض الحربية وأن تنشأ بحسب ترتيب أهميتها سالف الذكر وأن تتطابق المواصفات الفنية المبينة بعد وهى المواصفات المعتادة للطرق الجيدة الصالحة لحركة المرور .

وتكون الكبارى والطرق صالحة لتحمل صفين كاملين من سيارات النقل الميكانيكى الثقيلة ذات الأربع العجلات أو ذوات الست العجلات أو الدبابات المتوسطة الحجم ففيما يتعلق بالسيارات ذات العجلات الأربع يكون البعد بين الدنجل الأمامى لأية سيارة وبين الدنجل الخلفى للسيارة التى أمامها عشرين قدما ويكون الثقل على كل دنجل خلفى أربعة عشر طنا وعلى كل دنجل أمامى ستة أطنان وتكون المسافة بين الدنجلين ثمانية عشر قدما وفيما يتعلق بالسيارات ذات العجلات الست تكون المسافة بين الدنجل الأمامى لكل سيارة منها وبين الدنجل الخلفى للسيارة التى أمامها عشرين قدما . المسافة بين الدنجل الخلفى والدنجل الأوسط أربعة أقدام وبين الدنجل الأوسط . الدنجل الأمامى ثلاثة عشر قدما ويكون الثقل على كل من الدنجلين الخلفى والأوسط ٨ر١ أطنان وعلى كل دنجل أمامى أربعة أطنان أما الدبابات فتقدر باعتبار أن وزنها ١٩ر٢٥ طنا وطولها الكلى خمسة وعشرون قدما والبعد

بين مقدم إحداها ومؤخر السابقة لها رأسا ثلاثة أقدام ويكون ثقل أل ١٩ر٢٥ طنا محملا على شريطين ترتكزان على مسطح قدره ثلاثة عشر قدما من الطريق أو الكوبرى .

(ب) السكك الحديدية :

(١) تزاد تسهيلات السكك الحديدية فى منطقة القنال وتحسن لسد حاجة القوات بعد زيادتها فى تلك المنطقة ولتسهيل سرعة نقل الرجال والمدافع والعجلات والمهمات بالقطارات وفقا لما تقتضيه حاجة الجيوش الحديثة .

ويرخص بموجب هذا الحكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة بأن تنشئ على نفقتها الخاصة ما قد تقتضيه حاجات القوات البريطانية فى المستقبل من الإضافات والتعديلات على السكك الحديدية فاذا مست هذه الإضافات أو التعديلات الخطوط الحديدية المستعملة للنقل العام وجب الحصول على إذن بذلك من الحكومة المصرية .

(٢) يجعل الخط بين الزقازيق وطنطا مزدوجا .

(٣) يحسن الخط بين الاسكندرية ومرسى مطروح ويجعل دائما .

٧ — فضلا عن الطرق المبينة فى الفقرة السادسة السالف ذكرها وللأغراض ذاتها ستنشئ الحكومة المصرية الطرق المبينة بعد وتقوم بصيانتها :

(١) الطريق من القاهرة بمحاذاة النيل جنوبا إلى قنا وقوص .

(٢) من قوص إلى القصير .

(٣) من قنا إلى الغردقة .

وستنشأ هذه الطرق والكبارى التى تقام عليها وفق نفس المستوى المبين فى الفقرة السادسة السالف ذكرها .

وقد لا يتيسر إنشاء الطرق المشار إليها فى هذه الفقرة والطرق المبينة فى الفقرة السادسة فى وقت واحد ولكنها ستنشأ فى أقرب وقت مستطاع .

٨ — وحينما تتم الأماكن المشار إليها فى الفقرة الرابعة على مايرضى الطرفين المتعاقدين (ولا تدخل فى ذلك المساكن الخاصة بالقوات التى ستبقى مؤقتا بالاسكندرية طبقا للفقرة الثامنة عشرة الآتى ذكرها) . وتتم الأعمال المشار إليها فى الفقرة السادسة ، السالف ذكرها (عدا السكك الحديدية المبينة فى الشرطين ٢ر٣ من الجزء (ب) من تلك الفقرة) تنسحب القوات البريطانية الموجودة فى أنحاء القطر المصرى غير الجهات الواقعة فى منطقة القنال والمبينة فى الفقرة الثانية السالف ذكرها مع استثناء القوات الباقية مؤقتا بالأسكندرية وتخلى الأراضى والثكنات ومنازل الطائرات البرية ومراسى الطائرات البحرية والأبنية التى تشغلها القوات وتسلم إلى الحكومة المصرية إلا ماقد يكون منها ملكا للأفراد .

٩ — أى خلاف فى الرأى بين الحكومتين فى تنفيذ الفقرات (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨) السالف ذكرها يعرض الفصل فيه على لجنة تحكيم مؤلفة من ثلاثة أعضاء تعين كل من الحكومتين عضوا منهم ويعين الثالث بالاتفاق مع الحكومتين ويكون قرار اللجنة نهائيا .

١٠ — تحقيقا لحسن تدريب الجنود البريطانية قد اتفق على إعداد المناطق المحددة بعد لتدريبها .

ويجرى التدريب فى المنطقتين «ا» و «ب» طول السنة . وتكون المنطقة «ج» للمناورات السنوية خلال شهرى فبراير ومارس :

(ا) غربى القنال من القنطرة شمالا إلى خط سكة حديد السويس القاهرة جنوبا (بما فى ذلك الخط المذكور) وإلى خط طول ٣٠ ٣١ شرقا بحيث تستبعد كل الأراضى المزرعة .

(ب) شرقى القنال وحسب الحاجة

(ج) امتداد المنطقة (ا) جنوبا إلى خط العرض الشمالى ٣٠ ٢٩ ومن ثم فى الجنوب الشرقى إلى ملتقى خط العرض الشمالى ٣٠ ٢٩ بخط الطول الشرقى ٤٤ ٣١ ومن هذه المنطقة شرقا على امتداد

خط العرض الشمالى ٣٠ ٢٩ . ومساحات المناطق المشار اليها فيما سبق مبينة على الخريطة الملحقة بالمعاهدة (مقياس رسم ١ - ٠٠٠ر٥٠٠) .

١١ — تمنع الحكومة المصرية الطيران فوق الأراضى الواقعة على جانبى قنال السويس وعلى مسافة عشرين كيلومترا منه إلا ما كان بقصد العبور من الشرق إلى الغرب وبالعكس فى ممر عرضه عشرة كيلو مترات عند القنطرة مالم تتفق الحكومتان على غير ذلك . على أن هذا المنع لا يسرى على قوات الطرفين المتعاقدين ولا على هيئات الطيران المصرية الصميمة وعلى هيئات الطيران التى تتبع تبعية حقيقية أى جزء من أجزاء مجموعة الأمم التى تتكون منها الدولة البريطانية وتعمل تحت سلطة الحكومة المصرية .

١٢ — تقدم الحكومة المصرية عند الضرورة وسائل المواصلات المعقولة للوصول من وإلى الجهات التى توجد فيها القوات البريطانية كما أنها تقدم ببور سعيد والسويس التسهيلات الضرورية لتفريغ المهمات الحربية والمؤن اللازمة للقوات البريطانية وخزنها ومن هذه التسهيلات ابقاء ثلة صغيرة بريطانية فى هاتين الميناثين لتسلم وحراسة هذه المهمات والمؤن عند مرورها .

١٣ — نظراً لأن سرعة الطيران الحديث وسعة مداه تقتضيان استخدام مساحات واسعة لحسن تدريب القوات الجوية فإن الحكومة المصرية تأذن للقوات البريطانية فى الطيران حيثما ترى ضرورة لذلك من أجل التدريب ويكون لقوات الطيران المصرية مثل هذه المعاملة فى الأراضى البريطانية .

١٤ — نظرا لأن سلامة الطيران تتوقف على إعداد كثير من الأماكن لنزول الطائرات فإن الحكومة المصرية ستهيىء وتيسر على الدوام المنازل والمراسى الصالحة لنزول الطائرات البرية والبحرية فى الأراضى والمياه المصرية .

وستحقق الحكومة المصرية أى طلب يقدم من القوات البريطانية لإعداد المنازل

والمراسى الإضافية التى تدل التجربة على ضرورتها لجعل العدد كافيا لحاجات الحليفين .

١٥ — تأذن الحكومة المصرية للقوات الجوية البريطانية فى استخدام منازل الطائرات البرية ومراسى الطائرات البحرية السالفة الذكر وفى إرسال مقادير من الوقود والمهمات إلى البعض منها لخزنها فى سقائف تقام عليها لهذا الغرض وفى القيام فى أحوال الاستعجال بأى عمل قد تقتضيه سلامة الطائرات .

١٦ — تمنح الحكومة المصرية جميع التسهيلات اللازمة لمرور مستخدمى القوات البريطانية والطائرات والمهمات من وإلى منازل الطائرات البرية ومراسى الطائرات البحرية السالفة الذكر وتمنح مثل هذه التسهيلات لموظفى القوات المصرية وطائراتها ومهماتها فى القواعد الجوية للقوات البريطانية .

١٧ — تكون للسلطات الحربية البريطانية حرية استئذان الحكومة المصرية فى إرسال جماعات من الضباط يرتدون الملابس الملكية إلى الصحراء الغربية لدراسة الأرض ورسم الخطط الحربية ولا يرفض هذا الاذن دون مبرر معقول .

١٨ — يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور فى ابقاء وحدات من قواته فى الاسكندرية أو على مقربة منها لمدة لا تتجاوز ثمان سنوات من تاريخ نفاذ هذه المعاهدة وهى المدة التقريبية التى اعتبرها الطرفان المتعاقدان ضرورية لما يأتى .

(١) لاتمام بناء الثكنات فى منطقة القنال نهائيا .

(ب) لتحسين الطرق الآتية :

١ — الطريق بين القاهرة والسويس .

٢ — بين القاهرة والاسكندرية عن طريق الجيزة والصحراء .

٣ — بين الاسكندرية ومرسى مطروح

وذلك للوصول بها إلى المستوى المبين فى جزء (ا) من الفقرة السادسة

(ج) تحسين السكك الحديدية بين الاسماعيلية والاسكندرية ومرسى مطروح كما أشير إلى ذلك فى الشطرين ٢و٣ من الجزء (ب) من الفقرة السادسة .

وتتم الحكومة المصرية العمل المبين فى الشطرات (ا) و (ب) و (ج) السالفة الذكر قبل انقضاء مدة الثمانى السنوات المذكورة آنفا وستتولى الحكومة المصرية طبعا صيانة الطرق ووسائل المواصلات المذكورة فيما تقدم .

١٩ — تظل القوات البريطانية الموجودة فى القاهرة أو بجوارها إلى وقت انسحابها طبقاً لنص الفقرة الثامنة السالف ذكرها كما تظل القوات البريطانية ، الموجودة فى الإسكندرية أو بجوارها إلى نهاية الوقت المحدد فى الفقرة الثامنة عشرة السالف ذكرها متمتعة بالتسهيلات التى لها الآن .

المادة التاسعة : يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ماتتمتع به من اعفاء وميزات فى الوسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والإمبراطور التى تكون موجودة فى مصر طبقاً لأحكام هذه المعاهدة .

المادة العاشرة : ليس فى أحكام هذه المعاهدة مايمس أو ما يقصد به أن يمس بأى حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى قد تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

المادة الحادية عشرة :

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و١٠ يوليه سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين .

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين .

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ — وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين .

٤ — تكون هجرة المصريين إلى السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ — لا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين فى شئون التجارة أو المهاجرة أو فى الملكية .

٦ — اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة فى ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية فى السودان .

ملحق للمادة الحادية عشرة : ما لم وإلى أن يتفق الطرفان المتعاقدان على غير ما يأتى

تطبيقاً للفقرة الأولى من هذه المادة يتعين أن يكون المبدأ العام الذى يراعيانه فى المستقبل بالنسبة للاتفاقات الدولية هو أنه لا تطبق على السودان إلا بعمل مشترك تقوم به حكومة المملكة المتحدة وحكومة مصر وأن مثل هذا العمل المشترك يكون لازما كذلك إذا أريد إنهاء اشتراك السودان فى اتفاق دولى منطبق عليه

والاتفاقات التى يراد سريانها فى السودان تكون على العموم اتفاقات ذات صفة فنية أو إنسانية ومثل هذه الاتفاقات تكاد تشمل على الدوام حكما خاصا بالانضمام إليها فيما بعد ، وفى مثل هذه الأحوال تتبع هذه الطريقة لجعل الاتفاق ساريا فى السودان . ويجرى الانضمام بوثيقة مشتركة يوقعها عن مصر وعن المملكة المتحدة كل فيما يخصه شخصان مفوضان فى ذلك تفويضا صحيحا . وتكون طريقة إيداع وثيقة الانضمام فى كل حالة موضع اتفاق بين الحكومتين .

وفى حالة ما إذا أريد أن يطبق على السودان اتفاق لا يحتوى على نص خاص بالإنضمام ، تكون طريقة تحقيق ذلك موضع تشاور واتفاق بين الحكومتين .

وإذا كان السودان بالفعل طرفا فى اتفاق وأريد إنهاء اشتراكه فيه فتشترك المملكة المتحدة ومصر فى إصدار الإعلان اللازم لهذا الإنهاء .

ومن المتفق عليه أن اشتراك السودان فى اتفاق ما وإنهاء ذلك الاشتراك لا يكونان إلا بعمل مشترك يجرى خصيصا بالنسبة للسودان ولا يترتبان على مجرد كون المملكة المتحدة ومصر طرفين فى الاتفاق ، ولا على نقضهما لهذا الاتفاق .

وفى المؤتمرات الدولية التى تجرى فيها المفاوضات فى مثل هذه الاتفاقات يكون المندوبان المصرى والبريطانى بطبيعة الحال على اتصال دائم بالنسبة لأى إجراء قد يتفقان على أنه مرغوب فيه لصالح السودان .

المادة الثانية عشرة : يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن المسئولية عن

أروح الأجانب وأموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها فى هذا الصدد .

المادة الثالثة عشرة : يعترف صاحب الجلالة الملك والإمبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة .

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر فى إلغاء هذا النظام دون إبطاء وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن فى ملحق هذه المادة .

ملحق المادة الثالثة عشرة :

١ — أن الأغراض التى ترمى إليها التدابير الواردة فى هذا الملحق هى :

(ا) الوصول على وجه السرعة إلى إلغاء الامتيازات فى مصر وما يتبع ذلك حتما من إلغاء القيود الحالية التى تقيد السيادة المصرية فى مسألة سريان التشريع المصرى (بما فى ذلك التشريع المالى) على الأجانب .

(ب) إقامة نظام انتقال لمدة معقولة تحدد ولا تطول بدون مبرر وفى حدود تلك المدة تبقى المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاصات المخولة الآن للمحاكم القنصلية فضلا عن اختصاصها القضائى الحالى .

وفى نهاية فترة الانتقال هذه تكون الحكومة المصرية حرة فى الاستغناء عن المحاكم المختلطة .

٢ — تتصل الحكومة المصرية كخطوة أولى فى أقرب وقت مستطاع بالدول ذوات الامتيازات بقصد :

(ا) إلغاء أى قيد يقيد التشريع المصرى على الأجانب . و (ب) إقامة نظام انتقال للمحاكم المختلطة كما هو وارد فى الشطرة (ب) من الفقرة الأولى سالفة الذكر .

٣ — أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة بصفتها دولة من ذوات

الامتيازات وبصفتها حليفة لمصر لاتعارض بتاتا فى التدابير المشار إليها فى الفقرة السابقة وستتعاون تعاونا فعليا مع الحكومة المصرية فى تحقيق هذه التدابير باستعمال كامل نفوذها لدى الدول ذوات الامتيازات فى مصر .

٤ — من المتفق عليه أنه فى حالة ماإذا وجد من المستحيل تحقيق التدابير المشار اليها فى الفقرة الثانية فإن الحكومة المصرية تحتفظ بحقوقها كاملة غير منقوصة إزاء نظام الامتيازات بما فيه المحاكم المختلطة .

٥ — من المتفق عليه أن الشطرة (١) من الفقرة الثانية لا تعنى فقط أن موافقة الدول ذوات الامتيازات لن تكون ضرورية لسريان التشريع المصرى على رعاياها ولكنها تعنى أيضا انتهاء الاختصاص التشريعى الحالى الذى تباشره المحاكم المختلطة بالنسبة لتطبيق التشريع المصرى على الأجانب ويتبع ذلك أن لا يكون للمحاكم المختلطة فى سلطتها القضائية أن تقضى فى صلاحية سريان قانون أو مرسوم مصرى طبقه البرلمان المصرى أو الحكومة المصرية على الأجانب .

٦ — يصرح صاحب الجلالة ملك مصر بمقتضى هذا أن أى تشريع مصرى يطبق على الأجانب لن يتنافى مع المبادئ المعمول بها على وجه العموم فى التشريع الحديث وأنه فيما يتعلق بالتشريع المالى على الخصوص فإن هذا التشريع لن يتضمن تمييزا مجحفا بالأجانب بما فى ذلك الشركات الأجنبية .

٧ — لما كان من المعمول به فى أكثر البلاد أن يطبق على الأجانب قانون جنسيتهم فى مسائل الأحوال الشخصية فينظر بعين الاعتبار إلى أنه من المرغوب فيه أن يستثنى من نقل الاختصاص على الأقل فى البداية مسائل الأحوال الشخصية لرعايا الدول الممتازة التى ترغب فى أن تستمر محاكمها القنصلية فى مباشرة هذا الاختصاص .

٨ — سيقتضى نظام الانتقال الذى يوضع للمحاكم المختلطة ونقل الاختصاص

الحالى للمحاكم القنصلية اليها (الأمر الذى سيكون بطبيعة الحال خاضعا لأحكام الاتفاق الخاص المشار الية فى المادة التاسعة) إعادة النظر فى القوانين الحالية الخاصة بتكوين المحاكم المختلطة واختصاصها بما فى ذلك إعداد وإصدار قانون جديد لتحقيق الجنايات .

ومن المفهوم أن إعادة النظر هذه ستتضمن فيما تتضمنه المسائل الآتية :

١ — تعريف كلمة (أجنبى) بصدد الاختصاص المقبل للمحاكم المختلطة .

٢ — زيادة عدد موظفى المحاكم المختلطة بما يقتضيه التوسيع المقترح لاختصاصها .

٣ — الإجراءات المتعلقة بمسائل العفو أو تخفيض عقوبة الأحكام الصادرة على الأجانب والاجراءات المتعلقة بتنفيذ عقوبة الاعدام الصادرة عليهم .

المادة الرابعة عشرة : تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها منافيا لأحكام هذه المعاهدة ، ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين إذا طلب أحدهما ذلك بيان بالاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك فى مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة .

المادة الخامسة عشرة : اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الأمم .

المادة السادسة عشرة : يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب أى منهما فى أى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه هذه المعاهدة وذلك بقصد إعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك فإذا لم يستطيع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التى أعيد نظرها يحال الخلاف

إلى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقا للاجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

ومن المتفق عليه أن أى تغيير للمعاهدة عند إعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادئ التى تنطوى عليها المواد (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧). ومع ذلك ففى أى وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول فى مفاوضات برضاء الطرفين المتعاقدين بقصد إعادة النظر فيها كما سبق بيانه .

* * *

نقد وتعليق :

لم تكن المعاهدة غنما لمصر قدر ما كانت غرما عليها فقد فرضت عليها الاحتلال بينما هى تعلن نهايته فى أول موادها وتكرر أن الاحتلال لا يخل بسيادة مصر على أراضيها وإنما جعل لأغراض الدفاع وحماية البلاد من العدوان الخارجى ثم جعلت أمد الاحتلال موقوتا بقدرة الجيش المصرى على الدفاع عن القناة وقررت فى هذا الأمر الاحتكام إلى عصبة الأمم أواى هيئة أو فرد يرتضيه الطرفان فكأنما قدرت أن قوة الجيش المصرى ستكون موضع خلاف بينها وبين مصر أوانها لن تسلم بقدرته على الدفاع عن القناة أبدا ، وهى إذ تقرر الاحتكام فإنها تدرك مالنفوذها الدولى من أثر فى توجيهه ، وتضمن أن يكون احتلالها قرينا بإرادتها . وبالرغم من أنها حددت عدد قوات الاحتلال فإن هذا التحديد لم يجر مجرى الحقيقة ولم تعمل على تنفيذه واستمر عدد قواتها يزيد على ماحددته المعاهدة حتى بعد انتهاء الحرب وتسريح عدد كبير من الجيوش المحاربة .

وفرضت المعاهدة على البلاد من ناحية أخرى التزامات مالية باهظة فى إنشاء الثكنات والطرق ترهق ميزانيتها ، هذا فضلا عما تقوم به فى حالة الحرب من

تسهيلات ومعونة لقوات الاحتلال بما فى ذلك استخدام موانىء البلاد ومطاراتها وطرق مواصلاتها والقيام بالإجراءات الإدارية والتشريعية وفرض الرقابة على الأنباء والصحف وإعلان الأحكام العرفية . وبذلك فرضت على البلاد من أعباء الحرب وتكاليفها ومساوئها وجهدها ما تقوم به الدول المحاربه فعلا من غير أن يكون لها صالح فيها .

ثم أن المعاهدة لم تحقق أيضاً وحدة وادى النيل ولم تتعرض لمسألة السودان إلا فى حدود ما رأته لايتنافى مع مصالحها الحقيقية فبقيت اتفاقيتا الحكم الثنائى ساريتين كما فصلت بين قوة الدفاع السودانية والقوات المصرية وكان الجنود السودانيون قبل انسحاب القوات المصرية من السودان عام ١٩٢٤ جزءا من القوات المصرية ، ولم تحرص بريطانيا على الوفاء بما نصت عليه المعاهدة من المساواة فى الوظائف بين المصريين والإنجليز ولم تمتنع عن التمييز بين رعاياها وبين المصريين فى شئون التجارة أوالمهاجرة أو التملك ، وحدت من هجرة المصريين إلى السودان كما قيدت انتقال السودانيين إلى مصر وسارت بعد ذلك فى سياسة فصل السودان عن مصر دون ما رعاية لوحدة النهر التاريخية أو المصالح المشتركة التى تربط بين الشمال والجنوب أو حق تقرير المصير لشعب وادى النيل .

ولم يكن إلغاء الامتيازات الأجنبية فى المعاهدة انصافا للحقيقة أو روح العصر فقد قيدته أولا برغبة الدول ذوات الامتيازات فى البلاد وثانيا بضرورة وجود نظام انتقال لفترة حددت فيما بعد باثنى عشر عاما بينما ألغت تركيا وإيران الامتيازات كحق من حقوق سيادتهما ولم تستشيرا أو تفاوضا الدول فى إلغائها أو تقررا فترة انتقال تمهد لإلغائها ، وكان من الانصاف أن تترك بريطانيا لمصر أمر الغاء الامتيازات من جانبها كحق من حقوق السيادة التى اعترفت لها بها فى المعاهدة لا سيما وأن الدول لم تعترف لها بما كانت تدعيه من حق حماية الأجانب والمصالح الأجنبية فى البلاد .

ومن الناحية القانونية نرى أن المعاهدة ليست إلا عدوانا صريحا على استقلال مصر وسيادتها الذى كفلته معاهدة لندن مقيداً ببعض القيود واعترفت به معاهدة

لوزان متحررا من هذه القيود وافتئاتا على حقوق الفرمانات السلطانية لمصر على السودان ووحدة بلاد النهر ، وعلى نصوص معاهدة الآستانة التى قررت حرية الملاحة فى قناة السويس وكفلت حيادها وجعلت أمر الدفاع عنها موكولا لتركيا ومصر وأصبح بعد معاهدة لوزان من واجب مصر وحدها .

وقبلت مصر المعاهدة وهلل لها الزعماء فهلل الشعب من ورائهم فرحا بها ولم يكن الوعى السياسى قد نضج فى أذهان أفراده ، فقد سبق الوعى الوطنى للشعب وعيه السياسى الذى أخذ ينضج فى الفترة التالية حتى كشف عن إصالته فيما بعد الحرب الثانية ، وتطور الوعى الوطنى بدوره فأصبح يتبلور فى المبادىء والأفكار أكثر مما كان يتبلور فى أشخاص الزعماء وفى أفكارهم . ولم تقرب المعاهدة من بعد الهوة التى تفصل بين الشعب والدولة الحليفة فقد بقى الشعور بالعدوان قائماً فى نفوس أبنائه من بقاء قوات الاحتلال ومن المزايا العديدة التى أصبحت لبريطانيا بمقتضى المعاهدة ومرت الفترة القصيرة التى سبقت الحرب لتكشف عن نذر هذا الشعور فى بعض هباته حتى وضح تماما فى أثناء الحرب وكانت ويلاتها التى تحملها الشعب حافزا له على الانتقاض على المعاهدة وتبلورت آمال الشعب فى الدعوة إلى الجلاء ووحدة وادى النيل .

ليبيا والاستعمار الايطالى

قلنا أن الشرق الأوسط تعبير سياسى أكثر منه جغرافى ولهذا الإعتبار تدخل ليبيا فى هذا الإقليم ، واعتبارها فى نطاق الوحدة السياسية لإقليم الشرق الأوسط حديث العهد يرجع إلى بداية تأثر استراتيجيتها باستراتيجية هذا الإقليم وتأثره بها منذ أن أصبحت نقطة الارتكاز للهجوم على المدخل الرئيسى للشرق الأوسط من ناحية الغرب خلال الحرب العالمية الثانية وقاعدة التغلغل إلى وسط وشرق أفريقيا قبيل هذه الحرب ، وكانت ليبيا قبل ذلك تندرج تحت الوحدة السياسيه لبلدان شمال أفريقيا كما أنها جزء من كيانها الجغرافى العام ، وتتكون ليبيا من برقة وطرابلس وفزان وغلب

عليها اسم طرابلس الغرب فى العهد العثمانى ولكنها عرفت بسماها هذا بعد قيام الحكم الإيطالى .

وتطل ليبيا على البحر الأبيض المتوسط وتساحله على امتداد يقرب من ألف ومائتى ميل بين بئر الرملة على حدود مصر الغربية ورأس أغادير نقطة التقاء الحدود بينها وبين تونس ، وتمتد فى قلب الصحراء حتى تتاخم السودان والصحراء الكبرى وتسع مساحتها ٦٧٩ر٣٥٨ ميلا مربعا وقدر عدد سكانها أخيراً بما يقرب من ٥٤٣ر١٦٥ر١ نسمة منهم ٨٨٧ر٠٨٣ر١ من الوطنيين العرب والترك واليهود الذين يبلغون ما يقرب من ثلاثين ألفا أغلبهم فى مدينة طرابلس ففيها وحدها مايقرب من اثنين وعشرين ألف يهودى وأغلب الجالية الأوربية من الإيطاليين ممن نزحوا اليها فى عهد الاستعمار الإيطالى .

وأرض ليبيا صحراء مجدبة إلا من سهل ساحلى ضيق يتميز ببعض الخصوبة ويتركز فيه أكثر المدن الآهلة بالسكان ، وتعتمد الزراعة على الأمطار التى تقل كلما توغلنا فى الداخل وتتدرج أرضها فى الإرتفاع من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب حيث يصل ارتفاعها فى الغرب والجنوب فى بعض الجهات إلى ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر بينما لا يزيد ارتفاعها فى الشمال والشرق على ستمائة قدم وتنتشر الغرود الرملية على أديمها وتبعد واحاتها المأهولة بعضها عن بعض بمسافات بعيدة .

وليبيا بلاد فقيرة قليلة الموارد لا تهوى اليها قلوب المستعمرين والمستغلين والباحثين عن الثروة ولكن موقعها الممتاز على البحر الأبيض المتوسط وفى مواجهة إيطاليا قد حملها على اغتصابها من تركيا واستعمارها لتكون وسيلة لدعم نفوذها الاستعمارى فى أفريقيا والامتداد منها إلى قلب القارة العذراء والسيطرة منها على طرق المواصلات البحرية فى البحر الأبيض المتوسط وازدادت أهميتها بعدما أخذ موسولينى زعيم إيطاليا الفاشية يبرز خطوط سياسته الاستعمارية ويعلن عن إحياء الإمبراطوار الرومانية القديمة وأطماع إيطاليا فى البحر الأبيض المتوسط ويدعى أنه

بحيرة إيطالية ويكشف عن مشروعاته الاستعمارية فى أفريقيا . ولليبيا عدة موانىء بحرية جيدة كانت أوكارا للقراصنة فى العصور الوسطى استطاعوا منها أن يهددوا سير الملاحة فى البحر وأن يفرضوا أتاواتهم على الملاحين والسفن وأن يمدوا سلطانهم على البلدان المجاورة ومن هذه الموانىء درنة وبنغازى وطرابلس وهوأهمها ولكن فقر المناطق التى تستند اليها هذه الموانىء وتعتبر منفذا لها قد جعلها غير ذات أهمية تجارية ملحوظة ، إلا أنها قواعد بحرية جيدة للأساطيل تسيطر على خطوط الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط وتشرف عليها وقداستطاع المحور خلال الحرب العالمية الثانية أن يستخدمها استخداما جيدا فى قطع طريق المواصلات البحرى بين قناة السويس وبوغاز جبل طارق وفى نقل قواته العسكرية إلى ليبيا .

وأهمية ليبيا الاستراتيجية هى فى أهمية هذه القواعد البحرية وحسن استخدامها للسيطرة على الملاحة فى البحر ، وفى توفر القواعد الصالحة للطيران فى أرضها مما لفت اليها أنظار الولايات المتحدة الأمريكية فأدخلتها فى النطاق الأرضى أو أرض الهامش التى تحيط بالإتحاد السوفيتى والتى نثرت فيها قواعدها الجوية لتطويق روسيا واحتواء بلدان الكتلة الشرقية فى داخلها ، ولها فى طرابلس قاعدة الحمامة الجوية على تمام الأهبة لمهاجمة الأراضى السوفيتية عندما تشب الحرب ، ولبريطانيا بدورها بعض القواعد الجوية فى برقة فى الأماكن التى كانت مطارات ايطالية من قبل ، وكانت ايطاليا شديدة الحفاوة بمواصلاتها الجوية عبر ليبيا إلى ارتريا والحبشة ، ومن دواعى الأهمية الاستراتيجية لليبيا أنها تتوغل فى الداخل فتشرف على السودان فى الجنوب وتحوى طرق القوافل القديمة بين غرب أفريقيا وحوض النيل وقد أفاد السنوسيون من توسط موقع ليبيا بين غرب القارة وشرقها ووسطها فى نشر الدعوة السنوسية وتغلغلها فى أفريقيا الغربية والوسطى وفى مفاوز الصحراء الكبرى وواحاتها المنثورة .

وقامت الحرب العالمية الأولى ولما يستقر الأمر لإيطاليا فى البلاد فقد أثمرت مقاومة السنوسيين فى برقة بعد ما فشلت مفاوضات الصلح بينهم وبين الإيطاليين وهى المفاوضات التى وسطت إيطاليا فيها لدى السنوسيين خديو مصر عباس الأول ،

واستطاعوا أن يستقلوا بالبلاد ودفعوا بالإيطاليين إلى الساحل ، ولم يسلم أهل طرابلس إلا بعد أن حشدت لهم ايطاليا كل قوتها وانقطعت عن المجاهدين أمداد السلاح والذخيرة فلجأ بعضهم إلى تونس وانسحب الآخرون إلى فزان يتأهبون للمقاومة من جديد ولجأ زعيم المقاومة سليمان البارونى إلى الآستانة حتى إذا ما دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من إعلانها رأت تركيا أن تثير أهل برقة ضد الإيطاليين وتدفعهم إلى غزو مصر من ناحية الغرب فى الوقت الذى تطبق فيه قواتهم عليها من ناحية الشرق وقام السنوسيون بحملتهم على الحدود المصرية وانتهت بالفشل ورأى الإنجليز وقد أجلوا السنوسيين عن الحدود المصرية أن يتوسطوا لعقد الصلح بينهم وبين ايطاليا واستجاب السنوسيون لهذه الرغبة وعقد صلح عكرمة بإعلان استقلال السنوسيين فى داخل برقة على أن يبقى الإيطاليون فى الساحل محتفظين بما يسيطرون عليه من أراض وتحدد الحدود بين أراضى الفريقين وأن تعترف ايطاليا بالسيد محمد إدريس السنوسى أميرا على برقة وكان السيد أحمد الشريف السنوسى قد غادر برقه إلى تركيا ومنها انتقل إلى الحجاز بعد ذلك وتوفى بالمدينة المنورة .

أما أهل طرابلس فإنهم عادوا يتجمعون مرة أخرى تحت زعامة سليمان البارونى الذى عاد إلى البلاد ليقود حركة المقاومة الجديدة وأعلن قيام الجمهورية الطرابلسية فى مصراته وكانت القوات الإيطالية قد انكمشت فى الساحل أمام ضغط المجاهدين ، ولم يجد الإيطاليون بدا من الاتفاق مع الجمهورية الطرابلسية وموافقتهم على قانونها الأساسى فى أبريل سنة ١٩١٩ بتكوين حكومة لطرابلس من ثمانية أعضاء ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسى من بين أعضائه وعضوين إيطاليين ينتخبهما الحاكم العام الذى يعينه ملك إيطاليا ولم يتعرض القانون لجنسية الحاكم فقد يكون عربياً وقد يكون إيطاليا .

وغادر البارونى طرابلس إلى الآستانة على اعتبار أن مهمته قد انتهت بعقد الصلح وتوقيع القانون الأساسى . ولكن إيطاليا أخذت تماطل فى تنفيذه رغم صدور مرسوم ملك إيطاليا به فى أول يونيه سنة ١٩١٩ ، مما دعا أهل طرابلس إلى عقد مؤتمر فى غريان ، وقر قرارهم على مطالبة إيطاليا بتنفيذ الاتفاق والاتصال بالسنوسيين لتوحيد المقاومة

وأبرموا معهم اتفاق «سرت» وأعقبوه بمبايعة السيد إدريس السنوسى أميراً عليهم حتى تتوحد البلاد تحت زعامته لمقاومة الإيطاليين ، وقبل السنوسى البيعة فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ وثار الإيطاليون لما علموا بخبر هـذه البيعة وعبثاً حاولوا أن يثنوه عن قبولها وشب النزاع من جديد ونزح السنوسى إلى مصر فى ديسمبر سنة ١٩٢٣ وأقام بها يتتبع سير النضال عن كثب ، وبدأت البلاد مرحلة جديدة من مراحل جهادها المتصل تحت قيادة بطل من أتباع السنوسية هو عمر المختار الذى اتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة لغزواته الموفقة وحملاته المفاجئة على القوات الإيطالية حتى أسر وأعدم عام ١٩٣١ فكان لإعدامه رنة أسى شملت بقاع العالمين العربى والإسلامى جميعاً ورثاه الشعراء بأبلغ المراثى فى بلاد الإسلام ورأوا فيه شهيداً من شهداء الحرية وضحية من ضحايا الاستعمار الغاشم .

وكان أمد النضال فى برقة أطول منه فى طرابلس فقد تسنى للايطاليين أن يخضعوا طرابلس لسلطانهم وأن يبسطوا نفوذهم السياسى عليها منذ عام ١٩٢٣ ، أما السنوسيون فى برقة فقد استمدوا من روح تعاليمهـم ووحدتهم وزعامتهم الرشيدة المؤمنة التى تمثلت فى بطلهم عمر المختار قوة على النضال فلم تقض إيطاليا على مقاومتهم حتى عام ١٩٣١ ، ودارت المعارك رهيبة بينهم وبين الإيطاليين فى الجبـل الأخضر ، وعملت إيطاليا على عزل الجبل الأخضر والقضاء على مراكز السنوسيين فى الداخل وسد منافذ الإمدادات إليهم من الخارج ، وكان موسولينى قد ولى أمرها وقاد سياستها الاستعمارية ذات الطابع الفاشى العنيف ، واستولت على واحة جغبوب من مصر بمساعدة بريطانيا وكانت مركزا هاما من مراكز السنوسية وقاعدة ترتكز عليها إمداداتهم فى الجنوب الشرقى ثم استولت بعد ذلك بعامين على واحتى أوجله وجالو وهما على طريق القوافل بين برقة والسودان ومن أهم مراكز السنوسية .

وكانت الخطوة التالية أن وحد موسولينى برقة وطرابلس فى أوائل عام ١٩٢٨ تحت إمرة حاكم واحد هو المارشال بادوليو ومنحه سلطات واسعة للقضاء على الحركة الوطنية بأية وسيلة كانت فاستولى على غدامس وفزان لقطع كل صلة بين طرابلس وبرقة ، ودارت مفاوضات للصلح بين عمر المختار والجنرال بادوليو لم يكن الإيطاليون

يقصدون من ورائها إلا كسب الوقت وعجم عود المجاهدين وقوتهم وصبرهم فانتهت بالفشل وبدأت المعارك بين الفريقين كأعنف ماتكون من جديد وتولى قيادة القوات الإيطالية فى هذه المرحلة الحاسمة جرازيانى وهو من أشهر قوادهم وقد جاءوا به نائباً للحاكم العام على ليبيا ليقضى على مقاومة عمر المختار فعمل على إجلاء العرب النازلين حول الجبل الأخضر حتى يقطع كل صلة بين المجاهدين وأهالى البلاد ثم استولى على واحات الكفرة آخر معاقل السنوسية فى الجنوب فى ٢٩ يناير سنة ١٩٣١ ، بعد أن جرد عليها أقوى حملة شهدتها صحراء ليبيا ودارت المعركة رهيبة بينها وبين المجاهدين انتهت بهزيمتهم فنزحوا عنها ميممين شطر السودان ومصر يحدوهم الفزع والجوع والموت ولم ينقذهم من هول الطريق إلا معونة إخوانهم المصريين الذين هبوا لنجدتهم فى الطريق من الواحات الداخلة ، وكان قد مد الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشرقية بين البردية وجغبوب ليمنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ويقطع عليهم سبيل الاتصال بمصر .

وضاقت الحلقة حول البطل وأتباعه البواسل ولكنه ظل يحمل علم الجهاد حتى آخر معركة خاضها وهو يقود خمسين فارساً من أتباعه وأسر فيها بعد أن استشهد أكثرهم وصرع جواده من تحته ، وأعدم بعد محاكمة عسكرية قصيرة فكانت محاكمته وإعدامه ضربة أصابت سمعة إيطاليا فى العالم الإسلامى وقضت على كل جهد بذلته للدعاية لنفسها فى أرجائه الواسعة. وقضى بموته على آخر جهد للمقاومة فى برقة خاصة وفى جميع أنحاء ليبيا عامة وحكمت إيطاليا البلاد بعد ذلك وفق سياستها الاستعمارية الغاشمة ، وأصبحت حركة المقاومة التى قام بها أبطال ليبيا ضد الاستعمار الإيطالى طوال عشرين عاما مضرب المثل فى البطولة والشجاعة والتضحية فى جميع أنحاء العالم، وضربت إيطاليا بجريمتها هذه أسوأ مثل لأمة متمدينة فلم تقترف أمة فى استعمارها ما اقترفت بإعدام عمر المختار فقد ثار من قبله عرابى فى مصر وعبدالقادر الجزائرى فى الجزائر وعبد الكريم الخطابى فى مراكش وما كان مصيرهم غير النفى .

وكان استعمارها بدوره أسوأ مثل للاستعمار الحديث فقد جرت على تشريد

السكان وإبادتهم واغتصاب أراضيهم واستثمارها لصالح أبنائها الذين حملتهم أفواجا إلى الهجرة إليها وقدمت لهم كل أنواع التسهيلات الممكنة للاقامة والاستقرار، واحتكرت تجارة البلاد ومواردها الاقتصادية فأورثت الليبيين الفقر وأوردتهم موارد الخراب والهلاك حتى دفعتهم إلى الهجرة والنزوح عنها ، وهاجر إلى السودان الفرنسى وحده مايقرب من ربعهم ، وقد بدأ الاستعمار الإيطالى مرحلته الحاسمة فى ليبيا عام ١٩٢٨ عند ما أعلن موسولينى اعتبارها مقاطعة إيطالية عبر البحر وامتدادا للوطن الإيطالى وبدأت عملية الاستيلاء على الأرض وتهجير الإيطاليين إلى ليبيا على أوسع نطاق ففى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣٠ صدر مرسوم ملكى إيطالى بإلغاء الاتفاقيات التى أبرمت من قبل بين إيطاليا والسنوسيين ومصادرة أراضى الزوايا وممتلكاتها .

وقد دخلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١ يحدوها مركب النقص الاستعمارى فقد كانت آخر دولة تدخل وليمة الاستعمار فلم تنل غير فتات الموائد وكانت هزيمتها فى عدوه أمام الحبشة قد ضاعفت من شعورها بمركب النقص وأورثها هذا الشعور إحساساً بالحقد والضغينة على الدول التى سبقتها إلى ميدان الاستعمار وأفادت منه الفاشية فى دعوتها العريضة للسيادة والاستعمار وبعث مجد الامبراطورية الرومانية ، فانتقلت أهمية ليبيا فى نظر الإيطاليين من مجرد كونها مستعمرة تجعل إيطاليا فى عداد الدول ذوات لسيادة الاستعمارية إلى كونها قاعدة عسكرية كبرى للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط الذى أدعى موسولينى أنه بحيرة إيطالية وسماه « Mari Nostrum » وللتوغل منها فى باقى أجزاء القارة التى تتطلع إليها وتحسد جيرانها على أملاكهم فيها ، وعبر عن هذا الاتجاه المارشال بالبو بقوله «أن توطن الإيطاليين فى ليبيا يسهل على زعماء إيطاليا مشروعاتهم الحربية المقبلة» ، وبذلك أضحت أهمية ليبيا الاستراتيجية فى نظر زعماء الفاشية فى إيطاليا تفوق أهميتها الاقتصادية ودعاهم هذا إلى الاهتمام بمد السكك الحديدية وتعبيد الطرق البرية والعمل على توفير مياه الشرب فى أنحاء البلاد تيسيرا للعمليات الحربية وتحركات الجيوش عندما تبدأ الحرب الاستعمارية التى تبيت لها وتتوقعها .

وكانت خاتمة المطاف يوم اعتلى موسولينى ظهر جواده الأشهب فوق كومة من الرمل الأحمر كفرسان المسارح يخطب فى أهل ليبيا عندما زارها لافتتاح الطريق

الساحلى عام ١٩٣٧ ويعدهم بعدالة روما وكان بالبو حاكم ليبيا قد أعد له سيفاً حمل الأهالى على إهدائه لزعيم إيطاليا ، ودعاه سيف الإسلام هدية إلى حامى الإسلام. ولم تنقض على هذه المسرحية سنتان حتى كانت ليبيا مسرحاً من أهم مسارح الحرب العالمية الثانية تلك الحرب التى طوحت بالاستعمار الإيطالى لتبدأ البلاد مرحلة من مراحل تاريخها الحديث .

شبه جزيرة العرب

تحتل شبه جزيرة العرب موقعاً هاماً فى قلب العالم القديم وبين قاراته الثلاث وقد عبرتها الرواحل منذ قديم الزمن بين بحار الهند وسواحل القلزم وبحر الروم وشهدت من الحضارات ما ازدهرت وسارت بذكرها الأحاديث ورددت سيرتها كتب السماء كحضارات سبأ ومعين وحمير فى اليمن ، وطالعت من سير الغابرين عظة الزمن وعبرة الأجيال ، ومنها خرجت الموجات البشرية لتملأ العالم القديم وتبنى أقدم حضاراته ، ثم انطوت تضم رمالها فى صمت وسكون حتى امتدت إليها يد العلم فى القرن العشرين فأخذت تكشف عن أسرارها وكنوزها لتعود مرة أخرى إلى أهميتها التى كانت لها فى الماضى إن لم تزد .

وتمتد شبة جزيرة العرب بين الخليج الفارسى شرقا والبحر الأحمر غربا وبحر العرب جنوبا وبادية الشام شمالا فى مساحة تقدر بأكثر من مليون ميل مربع يقطنها مالا يزيد عن عشرة ملايين نسمة والجزء الأكبر من أرضها صحراء تضم الجزء الجنوبى من بادية الشام وصحارى النفود والدهناء والربع الخالى وتمتد هذه الصحارى من سلسلة جبال البحر الأحمر التى يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وعشرة آلاف قدم فوق سطح البحر والتى يفصلها عن ساحل البحر الأحمر سهل ساحلى ضيق ، يتراوح عرضه بين عشرة أميال وأربعين ميلا ثم تنحدر نحو الشرق إلى الخليج الفارسى فى

مسطح هائل من هضبة صحراوية مرتفعة مستوية لاتشذ فى استوائها كثيراً إلا فى ركنيها الجنوبى الشرقى والجنوبى الغربى حيث تبلغ جبال الساحل العمانى فى الشرق عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وقد نثرت الواحات فى تلك الصحراء الهائلة حيث قامت المدن والقرى يقيم فيها الحضر من السكان أما البدو فيعيشون على الرعى وينتجعون الأرض أنى يطيب لهم المرعى . وقد بدأت معالم الحضارة الحديثة تتسرب إلى داخل شبه الجزيرة وأخذت الحياة تستقر بكثير من السكان الرحل بعد السياسة التى لجأ اليها الملك عبد العزيز آل سعود فى إسكان البدو فى مهاجر أقامها لهم .

وقد ظلت شبه جزيرة العرب بعيدة عن اهتمام الدول الاستعمارية فلم يكن فيها مايجذبهم إليها وإن لم تنج سواحلها الطويلة من النفوذ الإستعمارى الذى ظفرت به بريطانيا وحدها التى نزلت إليها فى ختام المعركة الاستعمارية فى أوليات القرن التاسع عشر لحماية طريقها إلى الهند فاستولت على عدن وبسطت حمايتها على سلطنات الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة وهى التى تعرف بالمحميات ونفذت إلى عمان ومسقط وإمارات الخليج الفارسى ولم تستطع دولة أخرى أن تنزل إلى هذه السواحل أو تشارك بريطانيا نفوذها فيها وإن كانت إيطاليا قد حاولت فى أوليات القرن العشرين أن تنفذ إلى قاعدة بحرية على ساحل البحر الأحمر الجنوبى فى مواجهة مستعمراتها الإفريقية ، إلا أن محاولاتها باءت بالفشل .

ولكن شبه الجزيرة قد أخذت تجذب إليها اهتمام العالم وتثير انتباه القوى الرأسمالية بعدما نبضت أرضها بالبترول الذى تفجرت أرضها عنه فى نواح كثيرة ، والذى يوحى بغزارة فيضه وضخامة إنتاجه ، بل إن الولايات المتحدة الأمريكية قد أدخلتها فى نطاق استراتيجيتها العامة ، وجعلتها قاعدة من قواعدها الهامة التى نثرتها على طول النطاق الأرضى الذى تضربه حول روسيا والكتلة الشرقية ، فأقامت قاعدة الظهران الجوية فى الحسا لحماية مواردها البترولية فى شبه الجزيرة وحراسة أنابيب البترول التى تخترق قلبها إلى البحر الأبيض المتوسط ، ولتكون قاعدة للهجوم الجوى على روسيا . وتوحى طوالع الغيب أن مستقبل شبه جزيرة العرب مستقبل حافل بالأحداث التى

يتمخض عنها اهتمام أمريكا بها وما تخبئه أرضها من كنوز بترولية مدفونة لم تصل إليها يد الاستغلال بعد .

وتشمل شبه جزيرة العرب ، المملكة العربية السعودية واليمن ، وهما مملكتان مستقلتان ، ومستعمرة عدن والمحميات ، ومسقط وعمان وقطر والكويت والبحرين .

المملكة العربية السعودية :

عرفت المملكة العربية السعودية باسمها هذا منذ أن أعلنه ملكها عبد العزيز آلسعود فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ ، وكانت تعرف من قبل بمملكة الحجاز ونجد وملحقاتها .

وتتكون من نجد والحسا والحجاز وعسير . ونجد هى مهد الوهابية الأصيل ومقر الإخوان الوهابيين ، وأهم مدنها عنيزة وبريدة والرياض وهى عاصمة المملكة أما الحجاز فهو منزل الإسلام يتجه إليه المسلمون فى كافة بقاع العالم الإسلامى بالتقديس والإكبار ، وفيه مكة حاضرة الحجاز وموئل الكعبة قبلة المسلمين والمدينة مهجر الرسول «صلى الله عليه وسلم» ومزار ضريحه ، وفيها تتلاقى وفود الحجيج من كافة بقاع العالم الإسلامى فتتجلى فى بطاحها أخوة الإسلام وتتجدد كل عام ، ثم ميناء جدة حيث ينزل المسافرون والحجيج إلى أرض الحجاز فيسلكون الطريق المعبد إلى مكة مسافة خمسة وأربعين ميلا ، وقد تم تعبيده فى خريف عام ١٩٤١ أو الطريق الآخر إلى المدينة عن طريق رابغ ومن رابغ إلى الوجه عن طريق ينبع . وهناك مدق تطويه السيارات من مكة إلى الرياض ومنها إلى العقير فالظهران على الخليج الفارسى شرقا مسافة ٨٢٩ ميلا ، وتستطيع السيارات فى الوقت الحاضر أن تخترق البلاد فيما بين الرياض والكويت ، والرياض والجرف وحايل إلى أقصى الشمال ، وما بين جده والمويلح ، وجده وجيزان وسبيا ، ويربط المملكة خط جوى من جده إلى الظهران ، وهناك مشروع لمد خط حديدى يربط الرياض برأس التنورة

على الخليج الفارسى ، أما الجزء من سكة حديد الحجاز القديمة فما زال معطلا وإن كانت النية تتجه إلى إصلاحه .

وتقع عسير جنوب الحجاز وتمتد فتجاور اليمن فى مستطيل سهلى كثيف السكان نسبياً ، يبلغ طوله على ساحل البحر الأحمر مائتا ميل ويصل عرضه إلى أربعين ميلا ويعرف بإقليم تهامه ، وتمتد سلسلة جبال الحجاز إلى الشرق منه حيث تبلغ أقصى ارتفاعها ولكنها تنحدر تدريجاً حتى نجران فتصل إلى نصف ارتفاعها وتستمر فى انحدارها نحو الشرق ، وأبهاهى عاصمة عسير وأشهر مدنها .

وإلى الشرق من نجد تقع الحسا وتطل سواحلها على الخليج الفارسى بينما تصل حدودها إلى الربع الخالى فى الجنوب وتنتهى بالشقة الحرام بين الكويت والمملكة العربية السعودية فى الشمال ، والحسا بموانئها الثلاثة العقير والقطيف وجبيل منفذ نجد على الخليج الفارسى وعاصمتها الهفوف واحة نضرة ترويها سبعة عيون من ماء تتفجر عن ٢٢٫٥٠٠ جالون كل دقيقة فتخصب الأرض وتجود زراعة الفاكهة وكان التمر أغنى مواردها ففيها مايزيد على مليونى نخلة ثم نبع بترولها فأغنى المملكة كلها وأفاض عليها الخير .

وأصبحت المملكة العربية السعودية بعد أن وسعت تلك المساحات الواسعة فى شبه الجزيرة أقوى دولها وأصبحت شخصية ملكها عبد العزيز آل سعود شخصية أسطورية جذبت إليها انتباه الكتاب والمؤرخين فى الغرب كما استهوتهم صحاريها ورمالها الواسعة فكانت منهلافياضاً لروعة خيالهم وكتاباتهم عنها ، وقبلة أنظار رجال المال والأعمال للبحث عن كنوزها المخبوءة حتى ظفرت شركة البترول العربية الأمريكية « أرامكو » بامتياز استثمار البترول فى مساحات قدرها ٢٥٠٫٠٠٠ ميل مربع عام ١٩٣٣ لمدة ٦٦ سنة ، وأرامكو شركة مساهمة تملك أسهمها بالتساوى شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا وشركة تكساس وشركة ستاندارد أويل أوف نيوجرسى ، وصار البترول هو المصدر الرئيسى للدخل القومى للمملكة منذ ذلك الحين بعد أن كان جل اعتمادها على موارد الحج المحدودة .

ويرجع الفضل فى الكشف عن موارد شبه الجزيرة البترولية إلى جهود الملك عبد العزيز آل سعود فى تهيئة موارد الثروة القومية وجعلها أكثر اعتماداً على المصادر الأهلية حتى لا تتأثر بما ينتاب موسم الحج من هبوط ، فاهتم بالزراعة وتهيئة وسائلها ودعى الإخوان الوهابيين إلى الإقامة والاستقرار حول عيون الماء ومدهم بالأموال والمساعدات التى تعينهم فى حياتهم الجديدة ، ثم اهتم باستغلال الموارد المعدنية فى شبه الجزيرة واتجه فى اهتمامه هذا إلى من وثق بهم من الأمريكيين وقاده هذا الاهتمام إلى الكشف عن موارد البترول الغنية حول الظهران فى دمام وأبقيق والقطيف من منطقة الحسا فى غرب شبه الجزيرة على الخليج الفارسى ، ثم منح امتياز استغلال المعادن فى مساحة واسعة شمال مهد الذهب إلى شركة أخرى عرفت باتحاد التعدين السعودى العربى تنتج ما قيمته ربع مليون جنيه كل عام .

وتعد حقول البترول فى المملكة العربية السعودية من أغنى حقول البترول فى العالم وأوفرها إنتاجا ، ويقدر احتياطيها العام بما لا يقل عن خمسة آلاف مليون برميل ، وقد بدأت الشركة فى إنتاجها التجارى عام ١٩٣٨ فأنتجت ٦٨٫٠٠٠ طن ثم أخذ هذا الإنتاج يتزايد عاما فعاماً حتى بلغ ٢٣٫٢١٠٫٠٠٠ طن عام ١٩٤٩ ، حيث وصل عدد الآبار المستغلة إلى ٨١ بئراً عدا ٢٩ بئراً أخرى صالحة للاستغلال ومعدة للانتاج ، وفى الربع الأول من سنة ١٩٥٠ بلغ متوسط الإنتاج اليومى ٤٧٧٫٠٠٠ برميل مقابل ٤٥١٫٠٠٠ برميل سنة ١٩٤٩ ، ووصل فى الربع الثانى إلى ٥٢٦٫٠٠٠ برميل وفى شهر يونيه بلغ المتوسط بنوع خاص ٥٦٢٫٠٠٠ برميل ، وبهذا أصبحت المملكة العربية السعودية من أعظم دول العالم إنتاجا للبترول واحتلت المرتبة الخامسة بينها والمرتبة الثانية بين دول الشرق الأوسط وقدرت الشركة أن يصل إنتاجها اليومى إلى مليون برميل يومياً عام ١٩٥٣ .

ويعمل فى الشركة أكثر من ١٠٫٠٠٠ عامل من العرب عدا ٨٥٠ أمريكى من الفنيين ، وللشركة معمل للتكرير فى رأس التنورة تبلغ طاقته اليومية ١٤٠٫٠٠٠ برميل ، تستولى عليها القوات البحرية للولايات المتحدة ،

ويصلها بأبقيق والظهران عدة أنابيب لنقل البترول الخام ، وهناك أنبوبة أخرى من الظهران إلى البحرين طاقتها ١١٠٫٠٠٠ برميل يومياً .

وقد تكونت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية شركة خطوط الأنابيب العربية لنقل بترول المنطقة إلى البحر الأبيض المتوسط وإنشاء معمل للتكرير عند نهايتها وقامت بمد خط الأنابيب المعروف بالتابلين لنقل البترول العربى من موطن انتاجه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويبدأ من أبقيق مخترقا أرض شبه الجزيرة نحو الشمال ليعبر أراضى المملكة الأردنية الهاشمية ومنها إلى الأراضى السورية فيمر بأطراف جبل الدروز ووادى اليرموك ليرتفع إلى ٢١٠٠ قدم ثم ينزل إلى قاع وادى نهر الحسبانى على ارتفاع ٨٤٠ قدما ويعاود ارتفاعه مره أخرى إلى ١٨٠٠ قدم عند الحدود السورية اللبنانية ليهبط إلى ٦٠٠ قدم وهو يخترق وادى نهر الليطانى ، ثم يرتفع مع جبال لبنان من جديد إلى ١٦٠٠ قدم ، ومن هناك يأخذ فى الانحدار التدريجى إلى البحر حتى يصل إلى نهايته فى نقطة تقع جنوبى صيدا عند مصب نهر الزهرانى .

وتم إنشاء هذا الخط عام ١٩٥٠ ويبلغ طوله ١١١٠ ميلا وطاقته ٣٣٠٫٠٠٠ برميل يومياً ، وهو من أعظم الأعمال التى تقع فى طاقة الجهد الإنسانى لطوله وضخامة تكاليفه ، ولكنه يهبط بتكاليف نقل البترول إلى مقدار الثلث .

وكان لاكتشاف البترول واستغلاله فى المملكة العربية السعودية أثره البالغ فى الارتفاع بدخلها القومى إلى مستوى لم تكن تنتظره وجعلها أكثر اعتماداً على مقدراتها الاقتصادية الثابتة أكثر من اعتمادها على موسم الحج ومقدراته المتغيرة وفتح أبوابها أمام الأجانب بعد أن ظلت مغلقة فى وجوههم لآماد طويلة .

وقد برهن الملك عبد العزيز آل سعود فى حكمه لمملكته على إصالة الحاكم القدير الخبير بأحوال بلاده ومقدراتها فلعب دوره على مسرح الحوادث سواء فى الداخل أو فى الخارج كأبرع ما يلعبه حاكم أو سياسى ، ففى الوقت الذى عانى فيه من تعصب

الإخوان الوهابيين وهو إمامهم ورائدهم ، لم يمنعه التشيع للعقيدة الوهابية من الأخذ بمقومات الحضارة الأوربية وكان دوره فى هذا دور المعلم الذى ينصح ويرشد ويعلم فإذا لم تجد النصيحة أو التعليم حملهم على ما يريد حملا دون ماهوادة أولين ، وفى الوقت الذى رأى فيه حاجته إلى التعاون والاتصال بالعالم الخارجى سلك طريقه فى هـذا السبيل كأبرع مايسلكه سياسى مجرب فقامت العلاقات بينه وبين جيرانه على أساس من الود والمجاملة واللباقة التى قضت على كل نزعة للضغن أوبادرة للتوتر وظهر هذا واضحا فى معاهدة الطائف التى أبرمها مع إمام اليمن وفى معاهدة جده التى أبرمها من قبل مع الحكومة البريطانية وفى غيرها من الاتفاقيات الودية التى أبرمها مع جيرانه الهاشميين فى الشمال .

وقامت الحرب العالمية الثانية فوقف منها موقف الحياد المشرب بالعطف على الحلفاء واستطاع أن يكسب إعجابهم وتقديرهم فازدادت مكانته السياسية ارتفاعا بينهم حتى أصبح قوة لها خطرها فى الشرق الأوسط يتملقها ساسة الغرب ويعملون على كسبها إلى جانبهم .

اليمن :

تقع اليمن فى الطرف الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية بين المملكة العربية السعودية فى الشمال والشمال الشرقى وعدن والمحميات فى الجنوب والجنوب الشرقى والبحر الأحمر فى الغرب من نقطة تقع فى مواجهة جزر فرسان إلى رأس الشيخ سعيد فى مواجهة جزيرة بريم ، وتمتد حدودها الشمالية من سهول تهامة فى الغرب إلى صحراء نجران فى الشرق وهى الحدود التى اتفقت عليها المملكتان فى معاهدة الطائف عام ١٩٣٤ ، أما حدودها الجنوبية بينها وبين عدن والمحميات فأنها تمتد وفقا لما قررته اللجنة التركية الإنجليزية المشتركة عام ١٩٠٣ — ١٩٠٥ والاتفاق الإنجليزى التركى فى ٩ مارس سنة ١٩١٤، وهو الاتفاق الذى رفض إمام اليمن أن يتقيد به بعد أن أعلن استقلال بلادة عقب الحرب العالمية الأولى وحمل على ضالع ويافع فى

المحميات على اعتبار أنها جزء من أملاكه حتى أخرجه الإنجليز منها وسوى النزاع بعقد معاهدة صنعاء فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ لمدة أربعين سنة وقبول الوضع القائم للحدود فى الاتفاق التركى الإنجليزى حتى يسوى أمرها فيما بعد باتفاق ودى يعقد بين الطرفين .

وتبلغ مساحة اليمن ٧٥٫٠٠٠ ميل مربع ويتراوح عدد سكانها بين ثلاثة ملايين وثلاثه ملايين ونصف كلهم من العرب المسلمين من طائفة الزيدية إحدى طوائف الشيعة ومن السنيين ، ما عدا أقلية يهودية عدد أفرادها تسعون ألفاً . ويتدرج سطحها فى الارتفاع من السهل الساحلى الرملى ذى الحرارة الشديدة والمطر القليل إلى المرتفعات الداخلية ذات المناخ المعتدل والمطر الوفير والتربة الخصبة التى عرفت بخصبها منذ أقدم عصور التاريخ . وأشهر مدنها صنعاء عاصمتها والحديدة ميناؤها .

وقد انطوت اليمن على نفسها واحتفظت بعزلتها بعيداً عن تيارات الحضارة الغربية والنفوذ الأوربى وسلمت من الاستعمار ولكنها بقيت تعيش فى غمار العصور الوسطى وتخلفت عن ركب الحياة والتقدم أشواطاً بعيدة حتى إذا ما أخذت قدم الرجل الغربى تتوغل فى قلب الجزيرة وتقتحم فيافيها لم تدن من اليمن ، ومن استطاع الدنو منها أو ولوجها فإن العيون ترصده أينما يسير وتترقبه فى حله وفى ترحاله ، فبقيت عالماً تحيط به الأسرار بالرغم من خروجها إلى المجتمع الدولى وعضويتها فى هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية وعلاقتها التجارية بالعالم الخارجى وتاريخها العريق وحضارتها القديمة الزاهرة .

وخضعت اليمن للسيادة العثمانية عندما امتدت موجتها إلى الشرق وغمرت شبه جزيرة العرب ولكن النفوذ الحقيقى فى البلاد بقى لطائفة الزيدية وأمامتها الدينية التى استطاعت فى كثير من الأحيان وأن تقود الثورة ضد الأتراك وكانت ثورة الإمام يحيي عام ١٩١١ آخر تلك الثورات وانتهت بالاتفاق على أن يكون النفوذ للامام يحى فى المناطق الجبلية فى الداخل حيث نفوذ الزيدية وقوتهم وللأتراك فى سهول تهامة الساحلية حيث يقطن أغلب أهل السنة مع خضوع البلاد جميعا للسيادة

العثمانية ، واستمر هذا الوضع قائماً حتى زالت السيادة التركيـة تماما بعد أن ألقت تركيا السلاح بتوقيع هدنة مدروس فأعلن الإمام يحي استقلال اليمن .

ولم تكن لبريطانيا أطماع حقيقية فى اليمن فاعترفت باستقلالها فى معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤ وبالإمام يحي ملكا عليها على أساس من الرضاء وحسن الجوار ، ولكن بقيت مسألة الحدود بينها وبين عدن والمحميات تثير كوامن النزاع فى الفينة بعد الفينة ، وسيزداد هذا النزاع شدة بعدما دلت الأبحاث الجيلوجية على وجود كميات هائلة من البترول قد تعادل فى مقاديرها كل بترول المملكة العربية السعودية ، وذلك فى مناطق الحدود التى يدور حولها النزاع .

ولم يبد لدولة أوربية من الطمع فى اليمن ما بدا من إيطاليا فقد كانت تتطلع دائماً لإيجاد قاعدة لنفوذها على الساحل الشرقى للبحر الأحمر المواجه لإرتريا واستطاعت أن تستخدم كثيراً من العمال اليمنيين فى ارتريا فيما بين عامى ١٨٩٧ و ١٩٠٠ ، وعندما نهضت الفاشية فى إيطاليا أخذت تمهد لنفوذها فى اليمن وغمرتها بالمساعدات المالية والأسلحة وأبرمت معها معاهدة تجارية فى يناير سنة ١٩٢٧ ، وأنشأت هيئة طبية فى صنعاء ، ولكن الحذر الأصيل فى نفس الإمام يحي من كل نفوذ غربى بقى يحول بينه وبين الاطمئنان للنوايا الإيطالية ، وقضى على كل أمل للايطاليين فى الامتداد إلى ذلك الركن القصى من شبه الجزيرة العربية .

وارتبطت اليمن أيضاً فى فترة ما بين الحربين بمعاهدات واتفاقيات تجارية مع الاتحاد السوفيتى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٨ وهولندا فى ١٢ مارس سنة ١٩٣٣ .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية وقفت منها موقف الحياد وسلمت خلالها من التدخل الأجنبى سواء من جانب الحلفاء أو من جانب المحور ، وذلك لبعدها عن ميدان العمليات الحربية ولكنها لم تسلم من بعض نواحى الضغط البريطانى فيما يتعلق بنشاط الإيطاليين فقد رأت الحكومة البريطانية إخراج البعثة الطبية الإيطالية من اليمن ، وكان أطباؤها من غلاة الفاشيين وارتبطوا بكثير من الصلات الشخصية بأهالى البلاد ،

واستجاب الإمام يحيى لهذه الرغبة ، وفيما عدا ذلك بقيت اليمن بمنأى عن الخضم العالمى الثائر وأعاصيره الهوجاء .

ولما وضعت الحرب أوزارها أخذت اليمن تلج ميدان النشاط الدولى من أضيق أبوابه فقد بقى الحذر الكامن فى نفس الإمام يحيى من خطر الأطماع الأجنبية يسيطر على نوازعه فأغلق أبواب بلاده فى وجه كل طارق لا يستريح إليه وإن لم يهمل توطيد علاقاته الخارجية بالدول الأجنبية فأبرم معاهدة مع فرنسا فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٦ وأخرى مع الولايات المتحدة فى ٤ مايو من العام نفسه ، ولكن بلاده بقيت بدون تمثيل سياسى لها الخارج إذا استثنينا تمثيلها فى جامعة الأمم العربية وفى هيئة الأمم المتحدة التى أصبحت عضوا من أعضائها فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

ولكن المستقبل يوحى بأن تلك العزلة التى ضربت حول اليمن لن تلبث طويلا حتى تتحطم تحت معاول التجاوب والارتباط العالمى فلم يعد فى قدرة شعب أن يعيش فى عزلة عن العالم الخارجى ، واليمن بذاتها بوقوعها على مفرق من مفارق الطرق العالمية الهامة وما تخبئه أرضها من كنوز لابد وأن تجذبها الدوامة العالمية إلى محيطها السريع الدوران فتفتح أبوابها على مصراعيها لاستقبال النشاط العالمى الذى يمتد إلى كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية التى أخذت تضيق بنشاط سكانها .

ولن تبق اليمن طويلا حتى تطرقها قبضة النفوذ الأجنبى القوية ، فإن ما تخبئه أرضها من ثروة بترولية هائلة أشار إليها كثير من الجيلوجيين يغرى رؤوس الأموال الأجنبية بها ، ويجذب إليها قوى الاستغلال الاقتصادى . وواجب اليمن أن تلعب دورها فى توجيه هذا التنافس الاقتصادى لمصلحتها وإن تفصل تماما بين الاستثمار الاقتصادى لمواردها ، والنفوذ السياسى الذى يكمن وراءه ، فتتحوط لحماية استقلالها بالإقبال على الحضارة الحديثة والعلم والإصلاح الداخلى الشامل لكل مرافقها وشئونها .

عدن والمحميات :

تبلغ مساحة عدن ومحمياتها حوالى ١١٢٫٠٠٠ ميل مربع تمتد على طول الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية مسافة ٧٥٠ من رأس الشيخ سعيد غرباً إلى الحدود الغربية لسلطنة مسقط وعمان شرقا ، وتقع اليمن فى شمالها الغربى بينما تتصل حدودها بالصحراء الواسعة فى الشمال الشرقى دون معالم توضحها ويختلف عرضها من خمسين ميلا فى الغرب إلى مائتى ميل فى الشرق .

وقد كان لهذه المساحة الممتدة من الغرب إلى الشرق على طول السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية أهميتها القديمة فى عالم التجارة فقد سيطر أهلوها على طريق التجارة القديم إلى البحر الأبيض المتوسط مارا بصنعاء ومكة وبطرا مبتدئاً من جزيرة صخرية صغيرة تعرف بحصن الغراب وتقع فى مواجهة حضرموت على بعد مائتى ميل شرق عدن . حتى إذا كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح قضى على أهمية الطرق البرية عبر شبه جزيرة العرب والشرق الأوسط ، ولكن بقى لهذا الساحل أهميته القديمة لإشرافه على الطريق البحرى إلى الهند ، وإن فقد أهلوه أعظم مصدر من مصادر ثروتهم وكسبهم .

ولم ينجح البرتغاليون فى النزول إلى الساحل أو اتخاذ قواعد لهم فيه بينما كان الأتراك يتوغلون فى شبه الجزيرة حتى وصلوا إليه واحتلوا عدن عام ١٥٣٨ ، وما فتىء التنافس بين القوى الاستعمارية يشتد حوله دون أن تستطيع إحداها النفوذ إليه أو الاستقرار فيه أو امتلاك بعض قواعده البحرية حتى نزل الإنجليز إلى ميدان الاستعمار واستأثروا بالهند بعد أن قضوا على القوى الاستعمارية الأخرى فأخذوا يقيمون قواعد نفوذهم فيه ويسيطرون عليه مكانا بعد الآخر .

واستمر هذا الساحل يحتل أهميته التقليدية بعد افتتاح قناة السويس وتحول الطريق الرئيسى للملاحة إليها فإن إشرافه على طريق الهند جعل بريطانيا تحرص على حماية نفوذها فيه ، وكانت قد نزلت إليه فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر

تبسط حمايتها على جميع أجزائه وقواعده ، وازدادت أهميتـه بعد عودة الطرق البرية القديمة إلى سابق نشاطها وتفجر منابع البترول فى شبه جزيرة العرب وسواحل الخليج الفارسى عن فيضها الغزير .

مستعمرة عدن:

تتـكون مستعمرة عدن من ميناء عدن وجزيرة بريم وجزر كوريا موريا وتتبعها من الناحية الإدارية جزر قمران فى البحر الأحمر على مسافة مائتى ميل شمال جزيرة بريم ، وقد استولت عليها بريطانيا من الأتراك عام ١٩١٥ .

ويقع ميناء عدن فى الطرف الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية على مسـافة مائة ميل شرق بوغاز باب المندب ، ويتـكون من شبه جزيرتين بركانيتين صغيرتين تبرزان فى البحر ويصلهما بالأرض الداخلية برزخ رملى حيث تقع بلدة الشيخ عثمان والقرى التابعة لها ، وتبلغ مساحته ٥٧ ميلا مربعا ، وتقع جزيرة بريم فى مدخل بوغاز باب المندب وتشرف بذلك على طريق الملاحة بين البحر الأحمر وبحر العرب وتبلغ مساحتها خمسة أميال مربعة ، أما جزر كوريا موريا فهى عبارة عن خمس جزر تـكون مجموعة واحدة ولا تزيد مساحتها فى مجموعها على ثلاثين ميـلا مربعا وأهميتها فى أنها تقع على الطريق الملاحى الرئيسى للهند .

ويبلغ عدد سكان المستعمرة ٨٠٫٥١٦ نسمة يفوق عدد الرجال فيهم عدد النساء بكثير ، كما يغلب العنصر العربى بين السكان على غيرهم من الهنود والصوماليين واليهود ويبلغ عددهم وحدهم ٥٨٫٥٠٠ نسمة .

وقد دخلت عدن فى نطاق سياسة بريطانيا الاستراتيجية منـذ أخذ نابليون يتطلع إلى الهند وقام بحملته على مصر لاقتحام الطريق البرى إليها فأرادت أن تسد عليه منافذ الاقتراب الرئيسية إلى مستعمرتها العظيمة فنزلت إلى جزيرة بريم عام

١٧٩٩ ولكنها اضطرت بعد سنتين للجلاء عنها لنقص موارد المياه فيها ، ونزلت قواتها إلى عدن فى ضيافة صاحبها سلطان لحج فأحسن استقبالهم ، ونشأت على أثر هذا الحادث علاقات من المودة انتهت بإبرام معاهدة تجارية بين الطرفين فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢ . ثم أخذت بريطانيا تجد بحثاً وراء قاعدة لتموين اسطولها بالفحم فى تلك المنطقة وكانت السفن التجارية قد حلت محل السفن الشراعية فلم تجد أوفق من عدن واتخذت من اعتداء العرب على احدى سفنها الغارقة حجة لاحتلالها ، واحتلتها فى يناير عام ١٨٣٩ بعد أن قصفتها بمدافع الاسطول واسترضت سلطان لحج بعد ذلك بمنحة مالية تدفع اليه كل عام وعقدت معه صلحا اعترف لها فيه بامتلاكها عدن ولكنها تعرضت لكثير من هجمات العرب خلال السنوات الخمس التالية وتوترت العلاقات بينها وبين السلطان ولم تستقر الأمور لها تماماً إلا فى عام ١٨٥٧ فجدد الصلح وعادت إلى دفع رواتب السلطان والأمراء ، واستولت منهم بعد ذلك على بلدة الشيخ عثمان عام ١٨٨٢ .

وكانت عدن تتبع فى إدارتها حكومة الهند حتى عام ١٩٣٢ وإلى سنة ١٩٣٧ كانت تحت إشراف حاكم الهند العام مباشرة ثم أصبحت إحدى مستعمرات التاج منذ أول إبريل سنة ١٩٣٧ يعين لها حاكم مسئول أمام البرلمان ووزارة المستعمرات مباشرة يعاونه مجلس تنفيذى حل محله مجلس استشارى عام ١٩٤٧ .

وتتبع جزر كوريا موريا فى إدارتها المقيم الانجليزى فى الخليج الفارسى بالرغم من أنها جزء من المستعمرة وذلك لبعدها عن عدن ، وكانت من أملاك سلطان عمان ومسقط وتنازل عنها لبريطانيا عام ١٨٥٤ .

وقد لعبت عدن دورا بارزاً فى الحرب العالمية الثانية كقاعدة للحلفاء أثناء حملتهم على المستعمرات الإيطالية فى شرق افريقيا عام ١٩٤١ وانتقلت إليها حكومة الصومال البريطانى عندما اجتاحها الإيطاليون عام ١٩٤٠ ، وما زالت أهم قواعد بريطانيا فى تلك المنطقة تشرف منها على الملاحه فى المحيط الهندى والبحرين العربى والأحمر وتطل منها على شبه جزيرة العرب من الجنوب .

وقد تلعب عدن دورها الخطير كمحط لتكرير البترول وتصديرة كما لعبته كمحط لتموين الأسطول بالفحم ، ولا سيما إذا استخرج بترول شابوا ومدت أنابيبه اليها وما يحتاجه من إقامة معامل لتكريره فيها . وستبقى أهميتها لحراسة هذه المناطق وحمايتها لبريطانيا كما كانت فى الماضى .

المحميات :

وهى المحميات الغربية والمحميات الشرقية وتخضع كلها للحماية البريطانية بموجب معاهدات عقدتهـا بريطانيا مع سلاطينها وشيوخها فى مناسبات عديدة بعد استيلائها على عدن واشترطت عليهم فيها أن لا يرتبط أى سلطان أوشيخ منهم بدولة أخرى دون رضاها ومن غير موافقتها .

وتحيط المحميات بمستعمرة عدن فى الشمال والشرق والغرب ، ويحدها فى الشرق سلطنة مسقط وعمان وفى الشمال والغرب الصحراء واليمن التى بينت معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤ الحدود بينها وبين المحميات وذلك فى المادة الثالثة منها على أساس الوضع القائم عند توقيعها . ويقدر عدد سكانها بما لايزيد عن ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة أو أقل أكثرهم من العرب .

والمحميات قسمان ، القسم الغربى ويعرف بالمحميات الغربية ومساحته ٤٢ر٠٠٠ ميل مربع ويضم تسع عشرة سلطنة أهمها سلطنة لحج ، والقسم الشرقى ومساحته ٧٢ر٠٠٠ ميل مربع ويتكون من احدى عشر سلطنة أهمها حضرموت التى تضم سلطنة الشحر والمكلا ثم سلطنة مهرى فى قشن وسقوطرة وسلطنة آل عبد الواحد وبعض السلطنات والمشيخات الأخرى ويحمل سلطانا لحج والشحر والمكلا لقب صاحب السمو ويقابلان بالتحية عند نزولهما الى عدن كما يقابل بمثلها غيرهما

من السلاطين والمشايخ مع التفاوت فى درجة التحية ، ولهما قوات عسكرية صغيرة يشرف على تدريبها ضباط من الإنجليز .

ويمثل الحكومة البريطانية فى المحميات قائمان بريطانيان أحدهما فى المحميات الغربية والآخر فى المحميات الشرقية ويخضعان مباشرة لحاكم عدن ، ولا يتدخلان فى الإدارة الداخلية للمحميات إلافيما يتعلق منها بشؤون الأمن الداخلى ، أما العلاقات الخارجية فان بريطانيا تهيمن عليها هيمنة تامة وليس لأى سلطان من هؤلاء السلاطين أن يرتبط بدولة أخرى من غير مشورة بريطانيا أو دون وساطتها وهذا بموجب المعاهدات والاتفاقيات المبرمة بينها وبينهم .

ولم تفقد المحميات أهميتها لبريطانيا بعد أن خرجت القارة الهندية من دائرة نفوذها المباشر ولم يعد لطريقها الملاحى أهميته الاستراتيجية القديمة ، فإن الثروة البترولية التى تسكن فى صحاريها تدفع رأس المال الإنجليزى الى التمسك بها ، فقد دلت الأبحاث الجيلوجية على وفرة البترول المخبوء فى أرضها وذكر الخبراء أنهم شاهدوا القطران ينبع من جوف الأرض وان أبحاثهم دلتهم على وجود بحيرات واسعة من هذه المادة فى منطقة شابوا وروى «جون فلبى» بعد رحلته عبر صحراء الربع الخالى عام ١٩٣١ أن البترول يغزر فى شابوا ، وفى عام ١٩٤٩ منحت بريطانيا امتياز البحث عن البترول فى أرجائها لشركة تتفرع من شركة البترول العراقيه والشركة الانجليزية الإيرانية .

ولا ريب أن اهتمام بريطانيا بعدن والمحميات الآن يفوق اهتماماً بها فيما مضى ، فإنها لم تهتم بها من قبل إلا لتأمين طريق الهند فهو اهتمام غير مباشر أما الآن فإن اهتمامها بها اهتمام مباشر ينبع من ذات الأهمية الجديدة لها كمورد من أغنى موارد البترول المنتظرة فى العالم .

ومازالت مشكلة الحدود بين اليمن والمحميات قائمة لم تحل ولم يصل الطرفان المتنازعان وهما بريطانيا واليمن الى وضع يرتضيانه ويقرانه معاً وما زالت هذه

المشكلة سبباً فى إثارة بعض المنازعات من وقت لآخر بين الطرفين وآخرها ماحدث من قطع العلاقات الدبلوماسية بينهما عام ١٩٤٩ ولم يسو النزاع إلا بعد مفاوضات استغرقت ستة أسابيع وانتهت بإصدار تصريح مشترك فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٥٠ باستئناف العلاقات الدبلوماسية وعرض الحلول المقترحة على الحكومتين ولكن يبدو أن هناك عنصراً جديدا يوشك أن يدخل كطرف ثالث فى المشكلة وهو حق الأهالى أنفسهم فى تقرير مصيرهم فإن الاقبال على التعليم العصرى وتغلغل الحضارة والتمدين الغربى فى البلاد وتقدم الوعى القومى والإنسانى فى العالم وان كان يتسرب ببطء إلى هذه المناطق ، سيكون لهذا كله أثر فعال فى تطور المشكلة وتطور نظم الحكم السائدة فى هذه المناطق وتقاليدها إن قريباً أو بعيداً .

الخليج الفارسى

يقع الخليج الفارسى على رأس طريق الجزيرة البرى إلى ساحل اللفانت وهو طريق الاقتراب البحرى إلى الهند من العراق ويطل مدخله على الطريق البحرى الطويل إلى الهند والشرق الأقصى ، وكان أحد الطرق الرئيسية التى عبرتها تجارتها إلى البصرة فبغداد ومنها إلى سواحل اللفانت أو الأناضول قبل كشف طريق رأس الرجاء الصالح وكانت هرمز التى تقع على الشاطىء الشرقى لمدخل الخليج أهم مراكز التجارة فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت ، وقد احتلها البرتغال عام ١٥٠٧ ثم احتلت مسقط فى العام التالى فسيطرت بذلك على الخليج الفارسى سيطرة تامة ، وانتهى النفوذ فى الهند وبحارها إلى الإنجليز فى القرن الثامن عشر فأخذوا يبسطون سيطرتهم على القواعد الهامة فى الطريق ويستولون على المنافذ الرئيسية لطرق الاقتراب البحرية إليها . ورموا بأبصارهم إلى الخليج الفارسى للقضاء على القراصنة الذين يتخذون أوكارهم فى خلجانه وموانئه ويهددون سفنهم التجارية فى ذهابها وعودتها والقضاء على تجارة الرقيق الرائجة فى تلك المنطقة ، ثم تطورت نظرتهم إليه بتطور المنافسة الاستعمارية فأصبحت حماية الخليج والسيطرة على قواعده قاعدة أساسية من قواعد سياستها الإمبراطورية وحلقة هامة فى حلقات استراتيجيتها العامة . وبدأ اهتمامها

بالسيطرة على الخليج الفارسى وبسط نفوذها على شواطئه بعد حملة نابليون على مصر فعقدت اتفاقا مع سلطان مسقط عام ١٧٩٩ لمحاربة النفوذ الفرنسى فى بلاده والقضاء على أية محاولة يبذلها الفرنسيون للوصول إلى الخليج ثم أخـذت تنفذ إلى أجزائه واحداً بعد الآخر حتى سيطرت عليه تماما حتى وقتنا هذا .

وازدادت أهمية الخليج لبريطانيا بعد أن نبع البترول على شواطئه وقريباً منه فى فارس أولا ثم بعد ذلك فى البحرين والـكويت ، ولما نبع البترول فى فارس أخذت بريطانيا تدعم نفوذها على رأس الخليج فى البصرة ولدى شيخ المحمرة وتتوسع فيه حتى تصل دائرته إلى بغداد وتنتهى باحتلال العراق فى الحرب العالمية الأولى. وأصبح الخليج معبر الناقلات التى تحمل البترول إلى مواطن استهلاكه فى أوربا الغربية الفقيرة إليـه ، وأضحت موانئه قواعداً للأسطول البريطانى الذى يتجول فى أنحائه لحراسة آبار البترول ومعامل تـكريره فى فارس والعراق والـكويت والبحرين .

وتبلغ مساحة خليج فارس نحو ٩٧٫٠٠٠ ميل مربع و شاطئه الشرقى إيرانى يتبع إيران وسكانه من الإيرانيين وهو خالص من السيطرة الأجنبية فقد قضت إيران فى نهضتها الحديثة على كل ما كان للانجليز من نفوذ فيه وانتزعوا منهم الجزر التى كانوا يسيطرون عليها بجواره ، أما شاطئه الغربى فسكانه من العرب. ولـكنه يخضع للنفوذ الإنجليزى تحت إدارة أمرائه وشيوخه المتعددين ، ماعدا ساحل الحسا التابع للمملـكة العربية السعودية ، والإمارات التى تقوم فيه من الجنوب إلى الشمال هى سلطنة عمان ومسقط والساحل العمانى ، ومشيخة قطر وساحل الحسا ، ومشيختا البحرين والـكويت ، وسلطنة عمان أعظمها شأنا وأهمية وتليها البحرين فالـكويت ويقدر سكان هذه الإمارات بحوالى مليونين ونصف مليون نسمة يشتغلون بالتجارة والزراعة وصيد اللؤلؤ وأخيراً بصناعة البترول واستخراجه .

عمان ومسقط :

تقع سلطنة عمان ومسقط فى نهاية الطرف الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية وتمتد سواحلها إلى مسافه ألف ميل فى الجنوب الشرقى والشرق من حدود سلطنة قشن وسقوطرة شرقا إلى مدخل الخليج الفارسى غربا ويسير السهل الساحلى الضيق على طولها من الشرق إلى الغرب حيث تمتد خلفه سلسلة من الجبال تصل فى ارتفاعها إلى تسعة آلاف قدم فوق سطح البحر تليها هضبة تتصل بالصحراء الواسعة فى الداخل ، وأغزر أمطارها تسقط على المرتفعات حيث تجود الزراعة ولاسيما فى الجبل الأخضر . وسكانها من العرب الذين تجرى فى عروقهم دماء زنجية وهندية ولا سيما فى المناطق الساحلية والمدن ويقدر عددهم بنصف مليون نسمة ، وتبلغ مساحتها ٨٢٫٠٠٠ ميل مربع وأهم منتجاتها التمر والسمك المجفف .

وبدأ الاهتمام الأوربى بعمان ومسقط بنزول البرتغاليين إلى هذه البقاع ، فاستولوا على مسقط عام ١٥٠٨ وأضحت أهم مركز لهم فى هذه النواحى بعد خروجهم من هرمز عام ١٦٢٢ وفشلهم فى النفوذ إلى عدن والبحر الأحمر ، وبقى البرتغال أصحاب السيادة فى مسقط حتى ثار عليهم أهلها وأجلوهم عنها عام ١٦٥٠ ، وبدأت سلطنة عمان ومسقط عهدا زاهرا من القوة والتوسع استطاعت أن تمد رقعتها خلاله فى داخل شبه الجزيرة العربية وتبسط نفوذها على الساحل الشرقى لإفريقيا وترث البرتغال فى مقديشو وممباسا وزنزبار وتصل إلى سواحل الهند وتستولى على البحرين وتسيطر على الخليج الفارسى ثم نقل سلطانها مقره إلى زنزبار عام ١٨٣٢ ، إلى أن اقتسم ولدا السلطان السلطنة وآل إلى أحدهما حكم سواحل أفريقيا الشرقية ومن سلالته الأسرة التى تحكم زنزبار فى الوقت الحاضر وآل إلى الآخر حكم عمان ومسقط وبقيت سلالته تحكمها حتى وقتنا هذا .

وبدأت بريطانيا ترنو ببصرها إلى مسقط والقرن الثامن عشر على وشك أفوله وشركة الهند الشرقية فى أوج نشاطها والمعركة الاستعمارية بين الفرنسيين والإنجليز

تأخذ دوراحاداوكانت جزرموريس قاعدة صالحة للفرنسيين فى المحيط الهندى لتهديد المواصلات البريطانية ونابليون يتطلع إلى الهند ويقتحم طريق الشرق بحملته على مصر عام ١٧٩٨ ، ونجح الإنجليز فى كسب سلطان عمان إلى جانبهم وأبرمت شركة الهند الشرقية اتفاقاً معه بإقامة مركز تجارى لها فى بندر عباس وفى عام ١٨٠٠ عينت الحكومة البريطانية أحد وكلاء الشركة مقيما سياسيا فى مسقط ثم أبرمت مع السلطان اتفاقاً تجارياً عام ١٨٣٩ وآخر جمركيا عام ١٨٤٦ ، عدا اتفاقين آخرين لمكافحة تجارة الرقيق فى سنة ١٨٢٢ وفى سنة ١٨٤٥ . وفى سنة ١٨٦٢ أصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية تصريحا مشتركا باحترام استقلال عمان ومسقط ، ولم يمر عامان حتى نال الإنجليز امتيازا بمد خطوط برقية فى أملاك السلطان ، عززوه باتفاق آخر عام ١٨٦٥ ، ثم أبرمت اتفاقاً جديدا لمكافحة تجارة الرقيق عام ١٨٧٣ نالت فيه حق إقامة قوة عسكرية فى دار وكالتها السياسية بمسقط وفى عام ١٨٩١ أبرمت اتفاقاً تجاريا آخر نسخت به اتفاق عام ١٨٣٩ وتعهد فيه السلطان بأن لايتنازل عن جزء من أراضيه أو يؤجرها أو يبيعها لغير بريطانيا أو يأذن لغيرها باحتلالها ، ولم يحل دون إعلان الحماية البريطانية على سلطنة عمان ومسقط حينذاك إلا الاتفاق الإنجليزى الفرنسى عام ١٨٦٢ باحترام استقلالها ، ثم عادت فى عام ١٩٠٢ فنالت إقرارا من السلطان بعدم منح امتياز استخراج الفحم من مناجم صير قبل الرجوع إليها وتفضيلها على غيرها فى منح الامتياز ، وظفرت بعد ذلك بثلاث سنوات بامتياز صيد الإسفنج فى الخليج لمدة خمسة عشر عاماً ، وفى عام ١٩١٣ تعهد السلطان بأن لايبرم أمرا قبل أن يستشير فى ذلك المعتمد البريطانى فى الخليج الفارسى وأصبحت السلطنة بذلك فى مركز التبعية التامة للحكومة البريطانية .

وقد شعر العمانيون بثقل هذه التبعات التى فرضتها عليهم بريطانيا فثاروا على سلطانهم عام ١٩١٥ ولم يتمكن السلطان من إخماد ثورة القبائل إلا بعد الاستعانة بالقوات البريطانية التى ظلت تحتل البلاد حتى جلت عنها عام ١٩٢١ بعد أن تم الاتفاق بين السلطان والثوار من شيوخ القبائل ورجال الدين عام ١٩٢٠ على استقلال المناطق الداخلية تحت حكم إمام دينى مقره نزوى ، وبقيت المناطق الساحلية

تحت حكم السلطان خاضعة للنفوذ البريطانى ولم ينجح الإنجليز فى الاتفاق مع إمام نزوى أو حمله على الارتباط بهم .

ولما بدأت المنافسة حول امتيازات البترول تشتد وتعنف فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أسرعت بريطانيا فأبرمت اتفاقا مع السلطان عام ١٩٢٣ بأن لايقوم باستخراج البترول فى أراضيه قبل استشارة الحكومة البريطانية وموافقتها وبعد ذلك بعامين منحت امتياز البحث عن البترول فى مسقط وعمان إلى شركة انجليزية متفرعة عن شركة البترول الإنجليزية الإيرانية .

وفى عام ١٩٣٩ أبرمت معاهدة للصداقة والتجارة والملاحة حلت محل الاتفاق التجارى الذى أبرمته من قبل عام ١٨٩١ ، وربطت المعاهدة الجديدة سلطنة عمان ومسقط بالحكومة البريطانية برباط وثيق من التبعية والنفوذ السياسى لمدة مائة وخمسين عاما من تاريخ تنفيذها وإن سمحت للسلطان بفرض الضرائب الجمركية إلا أنها احتفظت لنفسها بكل الامتيازات التجارية والإعفاءات الجمركية التى كانت لها فى الاتفاقيات السابقة . وما زالت المعاهدات التى ارتبط بها السلطان بالولايات المتحدة عام ١٨٣٣ وبفرنسا عام ١٨٤٤ سارية حتى اليوم .

وينتظر عمان ومسقط ما ينتظر شبه الجزيرة العربية من مستقبل حافل بالأحداث بسبب بترولها وماتدل عليه الأبحاث الجيلوجية من غزاره فيضه .

الساحل العمانى :

يطلق إسم الساحل العمانى على المنطقة الممتدة جنوبا على الساحل العربى للخليج الفارسى من رأس الكلبة عند الحدود التى تفصل بينه وبين سلطنة عمان ومسقط إلى خور العبيد على حدود قطر الجنوبية مسافة ٣٦٠ ميلا يعرف جزؤه الشمالى بساحل القرصان والجنوبى بساحل عمان وتضم مشيخات دبى ورأس الخيمة وابوظبى والشارقة وأم الكراين .

وساحل عمان رملى مقفر قليل الموارد والسكان يشتغل أهله بصيد اللؤلؤ وهو عملهم الرئيسى ، أما ساحل القرصان فأكثر سكانا ولكن ماءه العذب قليل حتى أن ميناء أبو ظبي يعتمد فى سقياه على الماء المجلوب اليه من دبى على مسافة ثمانين ميلا فى الشرق ويشتغل الأهالى بصيد اللؤلؤ وصناعة السفن ، وكانوا يشتغلون بالقرصنة حتى عام ١٨٢٠ عندما حملت عليهم بريطانيا باسطولها عام ١٨٠٥ بسبب تهديدهم لسفن شركة الهند الشرقية وحملتهم على احترام راية الشركة وسفنها وتجارتها وأعمالها وتابعيها فى اتفاق وقعه شيوخهم ، ثم حملت عليهم مرة أخرى عام ١٨١٩ . عندما أغاروا على البحرين واحتلوها ، فأجلتهم عنها وعقدت معهم اتفاقا جديدا فى العام التالى بوقف أعمال القرصنة وتجارة الرقيق وخضعت البلاد منذ ذلك الوقت للنفوذ البريطانى ، حتى إذا كان عام ١٨٦٩ أصبحت بريطانيا ترتبط باتفاقيات نفوذ وحماية مع شيوخها ثم أبرمت معهم عام ١٨٩٢ اتفاقا عاما شبيها باتفاقها مع البحرين ، تعهدوا فيه أن لا يعقدوا اتفاقا مع دولة أخرى ولا يتصلوا بغيرها من الدول ولا يأذنوا لوكيل حكومة أخرى بالإقامة فى أراضيهم من غير موافقتها وأن لا يتنازلوا أو يؤجروا أو يبيعوا جزءا من أراضيهم إلا بإذنها ورضائها . كما تعهدوا عام ١٩١١ بأن لا يمنحوا امتياز صيد اللؤلؤ لأية دولة أجنبية قبل استشارة المعتمد البريطانى فى البحرين وفى عام ١٩٢٢ شمل الاتفاق امتياز البحث عن البترول واستخراجه .

وبقى شيوخ الساحل العمانى يحتفظون باستقلالهم الظاهرى تحت حماية بريطانيا ونفوذها ولم يثر من ألوان الخلاف ما يقلق بال بريطانيا فى هذه الجهات إلا بعض الخلافات الطفيفة التى لا تتناول طابع العلاقة بين بريطانيا وهؤلاء الشيوخ .

قطر :

وتقوم مشيخة قطر فى شبه جزيرة قطر بين الساحل العمانى والحسا وتبلغ مساحتها ٥٠٠٠ ميل مربع ويقدر سكانها بحوالى ٣٠,٠٠٠ نسمة ، وسواحلها

رملية ومياهها الساحلية قليلة الغور مليئة بالشعاب وتعتمد فى سقياها على الآبار وأرضها هضبة مستوية واطئة مقفرة من النبات والزرع ،

وسرى النفوذ البريطانى الى قطر عندما عقدت بريطانيا أول اتفاق مع شيخها عام ١٨٢٠ عززته باتفاق آخر عام ١٨٣٥ كسبت فيه من الامتيازات ما كسبته من شيوخ الساحل العمانى ، ولما وقع الخلاف بين شيخ قطر وجيرانه سكان أبو ظبى عام ١٨٦٧ تدخلت بريطانيا لفض الخلاف واتفقت مع الطرفين على الرجوع إليها فى أى خلاف ينشب بينهما فى المستقبل واعترفت بسيادة البحرين على قطر وإن حدت من نفوذها فيها ، وعند ما وصل الأتراك إلى الحسا عام ١٨٦٩ فى عهد مدحت ، اغتنم شيخ قطر هذه الفرصة وأعلن خضوعه للسيادة العثمانيه وعين قائمقاما على قطر من قبلها وأنشأت تركيا فى الدوحة إحدى ثغور قطر محطا للفحم ومرسى للسفن ، وأبى الانجليز الإعتراف بما حدث وأنكروه حتى تنازلت تركيا عام ١٩١٣ عن كل مالها من حقوق فى قطر الى سكانها وفى عام ١٩١٦ أبرمت بريطانيا اتفاقا مع شيخ قطر ضمنته كل البنود التى حوت اتفاقاتها مع شيوخ الساحل العمانى وسلطنة عمان ومسقط بما فيها الاتفاقات الخاصة بامتياز صيد اللؤلؤ وامتياز البحث عن البترول واستخراجه .

وقد نالت بريطانيا امتياز البحث عن البترول فى قطر عام ١٩٣٥ لشركة البترول الانجليزية الإيرانية وتألفت شركة بترول قطر لاستغلال الامتياز عام ١٩٣٦ وقسم رأس المال على مساهمى شركة البترول العراقية وبنفس النسبة ، وبدأت أعمال الحفر عام ١٩٣٨ فى حقل دكهان وتمت فى يناير عام ١٩٤٠ وبلغ الانتاج اليومى ٥٠٠٠ برميل ، وفى عام ١٩٤١ كشفت بئر ثانية وبدأت أعمال الحفر فى بئر ثالثة ، ثم تعطلت بسبب الحرب إلى أن استؤنفت عام ١٩٤٧ من جديد وبلغ الانتاج اليومى لحقل دكهان ٤٠٫٠٠٠ برميل يوميا عام ١٩٥٠ .

البحرين :

يتكون أرخبيل البحرين من بضعة جزر تقع فى الخليج الفارسى إلى الغرب من شبه جزيرة قطر وإلى الشرق من ساحل الحسا ، هى البحرين والمحرق والرقاع والحد والبديع والأولى أهمها وأكبرها ويبلغ طولها ثلاثون ميلا وعرضها عشرة أميال تقريبا والمنامة ثغرها وأهم مدنها ويقطنها وحدها حوالى ٢٨٫٠٠٠ نسمة من العرب والإيرانيين والهنود عدا أقلية من الأوربيين والأمريكيين عدد أفرادها ثمانمائة نسمة وتلى جزيرة المحرق جزيرة البحرين فى الأهمية والاتساع ، وأكبر مدنها المحرق وسكانها من العرب ويبلغ عددهم ١٨٫٠٠٠ نسمة . وتبلغ مساحة الأرخبيل عامة ٢١٣ ميلا مربعا وعدد سكانه ١٢٠٫٠٠٠ نسمة أغلبهم من العرب المسلمين ، ثلاثة أرباعهم من طائفة الشيعة والربع من أهل السنة .

وتسيطر البحرين على الملاحة فى الخليج سيطرة تامة ، وهى القاعدة الرئيسية للأسطول البريطانى فى مياهه ومنها قامت الحملة البريطانية على العراق عام ١٩١٤ ، كما أنها مقر المعتمد البريطانى فى الخليج ويقيم فى المنامة عاصمة الأرخبيل ، وأكبر مدن البحرين وهى مدينة على الطراز الحديث ففيها الطرق المعبدة للسيارات والحدائق والمصحات والأندية والمدارس ومكاتب البرق والبريد ، وتقع البحرين على الطريق الجوى بين أوربا والشرق الأقصى . وفى المنامة مطار على تمام الأهبة لاستقبال الطائرات تديره شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار وتمر بها تجارة نجد والحسا وهى مركز تجارة اللؤلؤ وصيده فى الخليج الفارسى .

ويبدأ الاهتمام الأوربى بالبحرين منذ نزل إليها البرتغال عام ١٥٠٧ واحتلوها وشيدوا فيها قلعة مازالت آثارها باقية إلى الآن ولكنهم لم يعمروا طويلا فقد أغار عليهم العرب من فارس عام ١٦٠٢ وطردوهم منها واتبعوها دولة فارس وظلت فى أيديهم حتى عام ١٧٨٣ عندما أغار عليها الشيخ أحمد بن خليفة من قبائل عتيبة

وانتزعها من صاحبها ومن سيادة الفرس ولـكن بقى النزاع على ملـكيتها بينه وبين الوهابيين فى نجد من ناحية وسلطان مسقط من ناحية ثانية والفرس من ناحية ثالثة وقد انتهى النزاع بتوطيد سيادته عليها عام ١٨١٦ . ولم تـكن بريطانيا قد دخلت فى علاقات سياسية معها حتى ذلك الوقت وإن كانت العلاقات التجارية قد بدأت بينهما منذ عام ١٨٠٥ ، وكانت أول اتفاقية تربط بينهما عام ١٨٢٠ مع شركة الهند الشرقية تعهد فيها شيخ البحرين بأن يمنع تجارة المهربات التى يغتصبها القراصنة فى بلاده وأن يعيد إلى أسرى الشركة حرياتهم وأن يحافظ على السلام والأمن فى الخليج الفارسى. وأبرمت بعد ذلك عدة اتفاقيات فيما بين عام ١٨٤٧ وعام ١٨٩٢ جعلت لبريطانيا حق الإشراف التام على علاقات البحرين الخارجية وإن احتفظت لها باستقلالها ، ففى عام ١٨٦١ أبرمت مع الشيخ اتفاقا تعهدت له فيه بالدفاع عن أملاكه على أن يحافظ على السلام مع جيرانه ويمتنع عن إعداد أية قوات برية أو بحرية ، ثم حدث نزاع بين الشيخ وجيرانه دعا المعتمد البريطانى فى بوشهر للتدخل المسلح ، وانتهى بعقد اتفاقية عام ١٨٨٠ تعهد فيه الشيخ عن نفسه وعن خلفائه بأن لا يدخلوا فى مفاوضات أو يعقدوا اتفاقيات مع أية دولة أجنبية دون الحصول على موافقة الحـكومة البريطانية وأن لا يمنحوا أى حق لأية دولة كانت بإقامة قنصليات أو ممثلين لها فى البحرين وأن لا يمنح أى امتياز اقتصادى أو تجارى دون مشورتها أو رضائهـا ، وعزز هذا الاتفاق بآخر مفصل عام ١٨٩٢ وكانت الحـكومة البريطانية قد أنشأت وكالة سياسية لها فى البحرين قبل ذلك بعامين تتبع المعتمد العام فى الخليج الفـارسى واتخذت المنامة مقراً لها .

وكانت الاتفاقية الأخيرة التى أبرمها الطرفان تغطى كل وجهات النظر البريطانية فى ذلك الوقت . ولـكن كلما جد جديد أتبعتهـا باتفاقية إضافيـة ، فعقدت فى سنة ١٨٩٨ اتفاقية خاصة بتهريب الأسلحة وفى عام ١٩١٢ اتفاقية أخرى بمد أسلاك برقية وإقامة محط لاسلـكى ، وفى عام سنة ١٩١٤ اتفاقية جديدة تعهد فيها الشيخ بأن لا يمنح امتيازاً للبحث عن البترول أو استخراجه قبل الرجوع إليها فيه .

ونجحت بريطانيا عام ١٩١٣ فى حمل تركيا على التنازل عن حقوقها فى البحرين

فقد نصت المادة الثالثة عشرة من المعاهـــدة المبرمة بينهما على ما يأتى « تتعهد الدولة العلية العثمانية بالتنازل عن سائر حقوقها فى جزر البحرين مع جزيرتى لبنان الأعلى ولبنان الأدنى وتعترف باستقلال البحرين وتصـدق عليه » . ولـكن لم تـكن تركيا وحدها هى التى تدعى حق السيادة على البحرين فإن فارس تدعيها وتتمسك بملـكيتها ولم تفوت بادرة أو فرصة تواتيها دون أن تطالب بها حتى الآن ، فعندما أبرمت معاهدة جدة بين بريطانيا والسعوديين عام ١٩٢٧ احتجت لدى عصبة الأمم على ما ورد فيها خاصا بالبحرين باعتبار أنه ليس من حق بريطانيا أن تقيم من نفسها وصيا عليها وأشارت إلى اعتراف لورد كلارندن بسيادتها على البحرين فى مذكرة رسمية قدمت إلى الحـكومة الفارسية فى أبريل عام ١٨٦٩ ، ولم تشأ بريطانيا أن تسلم بذلك وظلت إيران توالى احتجاجاتها كلما جد جديد يتعلق بالبحرين أو علاقاتها الخارجية فاحتجت لدى بريطانيا والولايات المتحدة على منح امتيازات البترول وذلك فى سنة ١٩٣٠ وفى سنة ١٩٣٤ ، وأضحت المطالبة بالبحرين قاعدة أساسية فى السياسة الإيرانية حتى وقتنا هذا وأثار موضوع المطالبة بها قوام السلطنة رئيس الحـكومة الإيرانية عام ١٩٤٦ وكانت آخر محاولة لها فى هذه الناحية عندما نشب النزاع بينها وبين بريطانيا حول تأميم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية .

وتستغل شركة بترول البحرين امتياز الزيت فى جزر الأرخبيل وهى فرع من شركة كاليفورنيا ستاندارد . وقد انتقل إليها الامتياز عام ١٩٣٠ وكانت تملـكه نقابة الشرق العامة البريطانية منذ عام ١٩٢٥ ، ولم تفرط فيه إلا بعـد أن فشلت فى استنباط البترول من أرض البحرين ، وسجل الإمتياز الجديد فى كندا حتى يوائم التزامات شيخ البحرين للحكومة البريطانية بأن تـكون امتيازات الاستثمار من حقها وحدها ، وذلك بعد مفاوضات استمرت أكثر من عام مع وزارة المستعمرات واشترطت لموافقة الحـكومة البريطانية شروطا خاصة كتعيين بعض المندوبين الانجليز بالشركة واستخدام أغلبية الموظفين من رعاياها ، وفى سنة ١٩٣٥ ابتاعت شركة تـكساس البترول نصف أسهم الشركة وأصبح رأس المال بعد ذلك مناصفة بين شركتى كاليفورنيا ستاندارد وتـكساس . وقبل شيخ البحرين عام ١٩٤٠ أن يمد أجل الامتياز حتى يناير عام ١٩٩٥ .

وتفجر أول بئر فى البحرين عام ١٩٣٢ وبلغ متوسط الانتاج السنوى عام ١٩٣٧–١٩٣٨ ثمانية مليون برميل ولكنه أخذ فى الهبوط خلال سنى الحرب ثم أخذ فى الارتفاع بعدها حتى بلغ ١٠ر٩٨٥ر٤٨٤ برميلا عام ١٩٤٩ ، وتم انشاء معمل للتكرير عام ١٩٣٦ ، تبلغ طاقته السنوية فى الوقت الحاضر ٥ر٢٠٠ر٠٠٠ طن وينقل إليه أربعة أخماس هـذا المقدار من الظهران عبر أنبوبة تمتد منها إلى البحرين . وتأتى البحرين فى مؤخرة البلاد المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط .

وقد تعرضت البحرين خلال الحرب الأخيرة لغارات السلاح الجوى الإيطالى وقاست من نقص الموارد الغذائية وارتفاع الأسـعار ماقاسته بلدان الشرق الأوسط وكانت محنتها أشـد وأقسى لاعتمادها على الموارد الخارجيـة التى تأثرت بظروف الحرب .

الـكويت :

تقع الـكويت على الشاطىء الغربى من رأس الخليج الفارسى بين العراق فى الشمال والغرب والحسا فى الجنوب ويفصلها عن الحسا منطقة من الأرض المحايدة . وتبلغ مساحة الـكويت ٢٠ر٠٠٠ ميل مربع من الأرض الصحراوية ذات الـكلأ الذى ترعاه الأبل ويقدر عدد سكانها بما لا يقل عن نصف مليون نسمة يقطن العاصمة وحدها منهم ٧٠ر٠٠٠ نسمة .

واسترعت الـكويت بموقعها قريبا من رأس الخليج أنظار المهتمين بإحياء طريق الجزيرة للمواصلات البرية فـكانت تعتبر دائما النهاية الطبيعية للخطوط الحديدية التى يمكن أن تمد عبر هذه المنطقة وفـكر فيها شيزنى أحد الضباط الانجليز عند ماتقدم بمشروع خط حديد الفرات كنهاية له . وبدأ الاهتمام بالـكويت يأخذ مظهراً آجلياً من التنافس الدولى عندما دخلت فى مشروعات السياسة الألمـانية نحو الشرق وتطلع إليها الألمان كنهاية لخط حديد بغداد ، ممـا دعا الانجليز إلى التدخل فبسطو حمايتهم على الـكويت عام ١٨٩٩ حتى لايجتاحها الأتراك رغبة فى مد خط حديد بغداد إليها وعقدوا مع أميرها اتفاقا شبيها باتفاقهم مع شيخ البحرين ولم تعترف تركيا بهـذا

الاتفاق ولكنها سلمت عام ١٩١٣ بإشراف بريطانيا على امتداد الخط الحديدى إلى جنوب البصرة كما تنازلت عن سيادتها على الكويت وتعهدت بأن لاتجند أحداً من أبنائها النازلين فى العراق أو تحصل رسوما من صياديها . ثم عينت بريطانيا معتمداً سياسياً لها فى الكويت عام ١٩٠٤ ، وأبرمت عدة اتفاقيات معها أولاها عام ١٩٠٠ خاصة بتجارة الأسلحة وتهريبها والثانية عام ١٩١١ خاصة بامتيازات صيد الأسفنج واللؤلؤ والثالثة عام ١٩١٣ خاصة بامتيازات البترول ولا تخرج كلها عن الأهداف الرئيسية لاتفاقاتها مع البحرين وامارات الخليج الفارسى الأخرى .

وقد تعرضت الكويت لغزو الأتراك من حايل خلال الحرب العالمية الأولى كما تعرضت لغزو السعوديين مرتين بعد الحرب الأولى عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٧ ولكن حماية بريطانيا لها صانتها من الغزو فى كل مرة .

وظلت الكويت تعتمد فى ثروتها القومية على صناعة السفن وتجارة المرور حتى نبع بترولها فأغناها عنهما ، وتقوم شركة بترول الكويت باستغلال بترولها وقد نالت امتيازها فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣ لمدة ٧٥ سنة تنتهى عام ٢٠١١ ، وتملك أسهمها مناصفة شركة البترول الانجليزية الإيرانية وشركة أبحاث الخليج الأمريكية ، وبدأت عمليات الحفر فى ثلاث مناطق ، بحره ، ومدانيا ، والبرقان ، وتركزت فى المنطقة الأخيرة بعد أن بلغ عدد الآبار المستغلة فيها ثمانية عشر بئرا عام ١٩٤٨ ووصل فى نهاية العام التالى إلى سبعة وثمانين بئرا بلغ متوسط انتاجها اليومى فى تلك السنة ٢٤٢ر٠٠٠ برميل ، وارتفع عدد الآبار عام ١٩٥٠ إلى ستة وتسعين بئرا بلغ متوسط انتاجها اليومى خلال شهر يونيه ٣٥٨ر٠٠٠ برميل ويبلغ الاحتياطى عشرة بلايين برميل وهو أعظم احتياطى لأى حقل بترول فى العالم .

وتعتبر الكويت سادس إقليم ينتج البترول فى العالم وثالث منطقة بين مناطق انتاجه فى الشرق الأوسط ويقدر لانتاجها اطرادا فى الزيادة مع استغلال بقية الآبار والبترول مصدر الثروة الرئيسى للكويت ويحصل أميرها عن كل طن يصدر ثلاث روبيات ونصف . ولاريب أن هذا المورد الجديد لاتقاس إليه مواردها الكفيفة من غيره وهى التى كانت تعتمد عليها قبل ذلك وأهمها صيد اللؤلؤ .

تركيا

فى عهدها الجديد

أخذت تركيا تستقبل حياتها الجديدة ، فى حدود الوطن التركى الأصيل الذى احتفظت به سليما متماسكا فى معاهدة لوزان ، وتتجه فى هـذه الحياة الجديدة اتجاها قويا خالصا مداره الشعب التركى والوطن الذى يلمه بعيداً عن أثقال الدولة العثمانية وقيودها التى حملتها زهاء خمسة قرون من الزمان تناوبتها فيها أوقات من الرخاء وأوقات من الشدة ومرت بها فترات من القـوة وفترات من الضعف لم تلن لها فيها قناة ولم يهن لها عزم وبقيت فى أوقات رخائها وشدتها وفترات قوتها وضعفها متماسكة الجوانب قائمة البنيان بالرغم من عوامل الانحلال التى سرت إليها وجعلت تنخر فى عظامها حتى لقبت بالرجل المريض ، ولمـا لفظ الرجل المريض آخر أنفاسه وتهيأ الناس لتشييعه إلى قبره إذا به قد خلف وليداً غضا أخذ يكبر فى شعاب الأناضول ووهاده حتى غدا مارداً جباراً يقف وقفته الرائعة ليبقى على الدار التى تأويه ولايتطلع إلى الدور العديدة التى تنقل فيها أباؤه سادة ظافرين من قبل ، وقبع فيها ينظم شئونها ويسوى أمورها على طرائق الغرب ونظمه وعاداته موليا ظهره إلى الشرق بماضيه وأثقاله وتقاليده وقيوده فألغى الخلافة بعد السلطنة وأعلن الجمهورية وأصدر قراره عام ١٩٢٨ بأن تـكون الدولة مدنية علمانية وكان الإسلام دينها الرسمى وقضى على الطرق الصوفية والتكايا وأقفل المدارس والمعاهد الدينية وفرض القبعة بدل الطربوش والزى الغربى بدل الزى الشرقى وحرر النساء من رق البيت والحجاب فأصبحن يشاركن الرجل ويبنين الوطن إلى جانبه وكتب بالحروف اللاتينية بدل العربية ونزل إلى الميادين العامة يحمل السبورة يعلم الناس كيف يكتبون بالحروف الجديدة ، وأخذ ينقى اللغة التركية من مفرداتها الدخيلة عربية كانت أو فارسية حتى تناول الأسماء نفسها فأبدل اسمه باسم كمال أتاتورك كما أبدل رجال دولته أسماءهم بأسماء تركية ودعى مواطنيه إلى السير على غراره ، وجعل يجتث كل صلة تربط تركيا بماضيها .

وأخذ الناس فى الشرق الإسلامى ينظرون إلى هذا البعث الجديد فى تحرره واتجاهاته نظرة القلق والإشفاق فى كثير من الإنكار لما يسمعون والجفاء لما يقع ، فقد كانت الآثار العميقة التى خلفتها الصلات القوية التى تربط المسلمين بدولة الخلافة قوية الجذور لم تجتثها روح القومية التى سرت بينهم أو يقظة الوعى القومى فى بلاد الإسلام . ولكن تركيا سارت فى اتجاهاتها الجديدة لا تلوى على شىء ولا تتلفت إلى الماضى مهما بلغ إعزازه فى نفوسهم ، وكانت إرادة كمال أتاتورك الحديدية تقف وراء كل شىء تدفعه دفعا نحو الغاية التى يقصدها والهدف الذى يرتجيه حتى روع بعض الأحرار بتصميمه وإصراره واستبداده ومنهم من حارب إلى جانبه فتآمروا على قتله عام ١٩٢٦ ، واكتشفت المؤامرة فكان جزاء المتآمرين الشنق والنفى .

ولم يكن اتجاه تركيا إلى الغرب خروجاً على المألوف أو شذوذاً عن الناموس الطبيعى لتطور الجماعات فإن الأتراك وقد انطووا على أنفسهم فى حدود دولتهم ونزعتهم القومية الجديدة لم يجدوا فى تقاليدهم المغولية القديمة مايمكنها أن تساير روح العصر وتطور العقلية التركية بعد أن اعتنق الأتراك الإسلام وتأثروا بالروح الإسلامية والتفكير الإسلامى وارتبطوا هذا الارتباط الوثيق بالعرب والمسلمين فلما كفروا بالعرب والمسلمين وأنكروا ماضيهم الطويل فى خدمة الإسلام والجامعة الإسلامية وآمنوا بأن تكون لهم قومية متميزة مستقلة فى حدود وطن لا يقطنه غير شعبهم ، أخذوا يكونون تقاليدهم من جديد مستوحين نماذجها من طابع الحضارة الغالبة والتمدين السائد ولم تسعفهم النزعة الطورانية إلا فى تمجيد روح القتال والشجاعة فى العناصر الطورانية ولم يجدوا فى آثارها الفكرية والعقلية ما يفخرون به فادعوا كثيراً من آثار غيرهم ونسبوها اليها تمجيدا لأنفسهم ولأصولهم الأولى . وأعوزتهم المثل العملية فى التقاليد والعادات فاتجهوا إلى تقاليد الغرب وعاداته يقتبسونها ويطبقونها لتكون منها تقاليدهم وعاداتهم ومثلهم الجديدة .

وكانت السنوات الأولى التى تلت ثورة الكماليين وحرب الاستقلال سنوات جهد شاق فى ترسيب هذه التقاليد الجديدة وبعث الوطن بعثاً قومياً لايتطرف نحو النزعة

الطورانية ولا ينكرها ولكنه يغلو أشد الغلو فى اتجاهه نحو الغرب وانكار ميراثه العقلى والفكرى من الشرق ، كما كانت سنوات عمل متواصل لإنشاء الوطن الجديد وإصلاح بنائه العام فوضعت القوانين المدنية والأنظمة العامة المقتبسة من قوانين الغرب ونظمه ، وأصلحت الإدارات الحكومية وافتتحت المدارس للتعليم الفنى والعام بكثرة ملحوظة ، وعمم التعليم الإبتدائى الى أقصى حد ممكن وأنشئت جامعتان احداهما فى استانبول والأخرى فى أنقرة ومنحت المرأة حق التصويت والانتخاب ولم تأل الحكومة جهدا فى تشجيع الرياضة والفنون والآداب ورعاية الشئون الصحية والاقتصادية والزراعية والصناعية للوصـــول بتركيا إلى مستوى الأمم الناهضة المتقدمة .

وحكمت تركيا خلال هذه السنوات حكماً ديمقراطيا بكل مظاهره ونصوصه فالدستور التركى يسوى بين الإفراد مساواة تامة ويصون الحقوق ويرعى حرية الفكر والرأى ولكن الحكم خضع تماماً لسيطرة حزب واحد ، ولم يكن هذا عن كفر بالنظام الديمقراطى فقد كان الكيان العام للحزب يقوم على أسس ديمقراطية صحيحة سليمة ، ولكن خوف أتاتورك من المعارضة التى يمكن أن تعرقل مشروعاته الإصلاحية ومن التناحر الحزبى الذى يسىء الى الحرية فى الشعوب التى لم ينضج وعيها السياسى بعد ، هو الذى دعاه إلى الأخذ بهذا النظام فأنشأ حزب الشعب الجمهورى عام ١٩٢٤ يدين له بالولاء التام وله تشكيلاته الحزبية المنتشرة فى كل ناحية من أنحاء تركيا ، ونظمه الصارمة الدقيقة التى تجعله يقضى على كل معارضة لاتجاهات الحكم ، وكانت له هيئته البرلمانية التى تناقش السياسة العامة خارج جدران المجلس سراً أوعلنا وكانت من القوة بحيث يمكنها أن تسحب ثقتها من الوزراء وتحملهم على الاستقالة وكان على الحزب بجانب وظيفته الرئيسية أن يرشد ويوجه ويسيطر على الحياة السياسية فى البلاد لتتجه كلها اتجاهاً واحداً متسقاً . وظل الحزب يسيطر على على انتخابات المجلس الوطنى ويوجهه إلى ما بعد الحرب الأخيرة فكان منه أعضاء المجلس البالغ عددهم أربعمائة عضو يخضعون لقراراته خضوعا تاما ، وكان عليه أيضا

أن يرعى الحياة الاجتماعية فأنشأ بيوت الشعب فى كل انحاء البلاد تخضع لنظام دقيق ويزاول فيها الشباب من الجنسين نشاطهم الرياضى والثقافى والاجتماعى والسياسى ، فكان كل بيت من بيوت الشعب خلية سياسية تسيطر على نزعات الجماهير واتجاهاتها وتتحكم فيها تماماً ، وقد أراد كمال أتاتورك أن يجرب فائدة المعارضة البرلمانية فأنشأ حزبا معارضا عام ١٩٣٠ ، ولكن فشل التجربة صرفه عنها ، فقد فهم المعارضون المعارضة بأسلوبها ومعناها دون غايتها ومرماها .

ويفتتح المجلس الوطنى دورته البرلمانية فى أول نوفمبر من كل عام لمدة ستة شهور يمارس فيها سلطاته التشريعية التامة . ويشرف على السلطة التنفيذية التى تتركز فى يد رئيس الجمهورية وفى أيدى وزرائه ، والوزراء مسئولون أمامه ، ويتمتع أعضاؤه بالحصانة البرلمانية ، ولا يخضعون لاجراءات التفتيش والقبض إلا بعد استئذان المجلس .

وفى حدود الوطن التركى والقومية التركية الجديدة قاد أتاتورك سياسة تركيا الخارجية بنفس القوة والعزم اللذين قاد بهما سياستها الداخلية وكانت عقيدته أن ينأى ببلاده عن مشاكل العالم الخارجى وأن تقوم علاقاتها الدولية على أساس من الود والمجاملة والحياد الذى يصون مصالح بلاده ويرعى حقوقها ، وظهرت مرامى هذه السياسة جلية فى معاهدة لوزان فلم تتمسك تركيا بسيادتها على ولاياتها العربية وكانت من المرونة بحيث تجنبت الاصطدام مع الحلفاء بشأن البواغيز وان أغضب موقفها هذا صديقتها الجديدة روسيا وهى التى ساعدتها ووقفت إلى جانبها فى حرب الاستقلال ، ثم كانت هذه السياسة أكثر وضوحاً خلال الفترة القصيرة التى أعقبت معاهدة لوزان وانتهت بظهور الفاشية فى ايطاليا والنازية فى ألمانيا فقد انطوت تركيا على نفسها تصلح من شأنها وترعى أمورها الداخلية غير ملقية بالا إلا لمن يمد اليها يد السلام والمعروف . وكانت روسيا أول من مدها بعد الجفوة القصيرة التى أعقبت معاهدة لوزان فأبرمت معها عام ١٩٢٥ معاهدة صداقة وحياد مشرب بالود اذا تعرضت أحداهما لهجوم خارجى ، وجددتها عام ١٩٢٩ بالرغم من المقاومة الصريحة التى أبداها أتاتورك للشيوعية .

وكانت هذه الفترة فى حقيقتها فترة ركود نسبى فى السياسة العالمية قبعت فيها الدول المغلوبة تلعق جروحها ، ونشطت الدول الغالبة للمحافظة على السلام الذى وضعت خطوطه الملتوية فى فرساى ، حتى إذا بدأت روح الأثرة تثور فى الطامعين الذين شعروا بما نالهم من غبن فى مأدبة الظافرين كاليابان وإيطاليا ، وأخذت الدول المغلوبة كألمانيا تتحفز للثأر . نشط جو السياسة العالمية ، وكشفت روح الشر عن غريزة العدوان الكامنة فى أعماق الشعوب القوية ، فاجتاحت اليابان منشوريا عام ١٩٣١ ، وخرجت المانيا من عصبة الأمم عام ١٩٣٢ ، ثم خرقت نصوص معاهدتى لوكارنو وفرساى ، وجعلت إيطاليا تتحرش بالحبشة وتكشف عن أطماعها فى البحر الأبيض المتوسط ، فبدا للناس أن مواثيق السلام ومبادىء عصبة الأمم لا تدور إلا فى مخيلة فلاسفة المدينة الفاضلة . وأخذت تركيا تنفض غبار عزلتها وتنزل إلى المعترك العالمى فى حدوده الضيقة ، التى تصون حقوقها وترعى مصالحها ، وكان البلقان أول ميدان تنزل إليه فهو الحيز الأرضى الذى يقع منه التهديد المباشر على تركيا إذا تعرض لهجوم خارجى ، وكانت إيطاليا قد أخذت تسفر عن أطماعها فاحتلت جزيره كورفو التابعة لليونان عام ١٩٢٣ ولم تجل عنها إلا بعد أن تدخلت عصبة الأمم وألزمت اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا ، ثم أبرمت اتفاقية تيرانا مع ألبانيا عام ١٩٢٦ ونالت فيها كثيراً من الامتيازات الاستراتيجية ، فازدادت شكوك دول البلقان من أطماعها ، وكانت اليونان أول من شعرت بالخطر الذى يهددها ، فاستجابت لرغبة تركيا فى تصفية المشاكل المعلقة بينهما وأبرمت الدولتان معاهدة أنقرة عام ١٩٣٠ وأعقبتاها بدعوة دول البلقان إلى الاتحاد لدفع الخطر الذى يهددها سويا .

وكان مؤتمر السلام العالمى قد عقد فى أثينا عام ١٩٢٩ فمهد لتفاهم الدول البلقانية وتقاربها وعقد أول مؤتمر لها فى أثينا فى نفس العام ، والثانى فى استانبول فى العام التالى ، ووقعت تركيا واليونان فى سبتمبر عام ١٩٣٣ ميثاق عدم اعتداء لمدة عشر سنوات ، وفى فبراير عام ١٩٣٤ عقد ميثاق البلقان يضم تركيا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا ، ورفضت بلغاريا توقيع الميثاق لمجافاة نصوصه

لرغبتها فى إعادة تعديل حدودها التى قيدتها بها معاهدة نويللى ، ولكنها عادت وأبرمت مع دول الميثاق معاهدة تعهدت فيها الدول الخمس بالتفاهم الودى وعدم الالتجاء إلى القوة فيما ينشب بينها من خلاف ، وفى مقابل هذا قبلت دول الميثاق إلغاء قيود معاهدة نويللى الخاصة بنزع سلاح بلغاريا وما نصت عليه معاهدة لوزان خاصاً بالمنطقة المجردة من السلاح فى أرضها المجاورة لحدود تراقيا ، ولم تشترك ألبانيا فى توقيع الميثاق لارتباطها بمعاهدة تيرانا مع إيطاليا .

وما أن انتهت تركيا من تأمين حدودها الغربية حتى أخذت تتجه إلى الشرق وقامت بتقريب وجهات النظر بين إيران والعراق وأفغانستان ، وكللت جهودها بالنجاح فأبرم ميثاق سعد آباد فى يوليه عام ١٩٣٧ بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان على نفس الأسس التى قام عليها ميثاق البلقان ولنفس الغاية فنص على عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الموقعة على الميثاق ورعاية حدودها المشتركة والتشاور فيما يتعلق بمشاكلها الدولية أو مصالحها المشتركة وعدم الاعتداء أو الاشتراك فى اعتداء يقع على إحداها ، واحترام أنظمة الحكم والقوانين السائدة فى كل منها ، وحسم الخلافات التى تنشب بينها بالوسائل السلمية . وحدد أجل الميثاق بخمس سنوات متجددة ولا يصح لأى دولة أن تتحلل منه أو من أحد نصوصه إلا إذا أنذرت شريكاتها بذلك قبل ستة أشهر ، على أن تبقى أحكام الميثاق سارية على الباقين .

ورأت تركيا فى التوتر الدولى الذى سبق الحرب العالمية الثانية فرصة لاستعادة سيادتها على البواغيز ، وكانت قد أصبحت عضواً فى عصبة الأمم فى يوليه عام ١٩٣٢ وأخذت تميل إلى الغرب وتوددت اليها بريطانيا بعد ظهور الأطماع الإيطالية فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تشارك تركيا فى الشعور بالخطر الجديد ، فاستجابت لرغبتها فى تعديل نصوص معاهدة لوزان بشأن البواغيز وعقد مؤتمر مونترو من الدول الموقعة على المعاهدة وقرر فى يوليه عام ١٩٣٦ الغاء الرقابة الدولية على البواغيز ، وحق تركيا فى تحصينها وغلقها كما تشاء فى السلم والحرب ، وحق دول البحر الأسود فى مرور أساطيلها إذا اشتبكت فى حرب على أن يكون لتركيا إذا أرادت حق المنع .

وأخذ اتصال تركيا بدول الغرب ينمو بزيادة التوتر العالمى ووضوح سياسة المحور ، فعقدت قرضاً من بريطانيا عام ١٩٣٨ أعقبته بقرض آخر من الولايات المتحدة ، ثم أبرمت فى العام التالى معاهدة تبادل المعونة مع بريطانيا تعهدت فيها بريطانيا بمساعدة تركيا إذا تعرضت للعدوان على أن تقوم تركيا بمساعدتها إذا هوجمت فى البحر الأبيض المتوسط ، ومس الهجوم مصالح تركيا فيه .

وفى نفس العام أبرمت معاهدة مع فرنسا ظفرت فيها بلواء الإسكندرونة من سوريا ، ولم تيأس ألمانيا من اجتذاب تركيا إلى صفها وانتزاعها من بين أحضان الغرب ، فبعثت فى أبريل عام ١٩٣٩ برجل من خيرة ديبلوماسييها هو فون بابن سفيراً لها فى أنقرة لتحقيق هذه الغاية .

ولكن تركيا وقد شبت الحرب بعد ذلك بشهور قلائل ، أعلنت حيادها واحتفظت به كاملا بين المتحاربين ، فلما بلغت قوة النازى أوجها فى السنوات الأولى للحرب قبلت أن تبرم فى يونيه عام ١٩٤١ ميثاق صداقة مع ألمانيا لمدة عشر سنوات ، ولكنها خرجت من المعمعة العالمية محتفظة بحيادها ولم تعلن الحرب على ألمانيا إلا فى فبراير عام ١٩٤٥ بعد ما أعلن الحلفاء أنه لن يدعى إلى مؤتمر الأمم المتحدة فى سان فرنسسكو إلا الدول التى أعلنت الحرب على المحور .

وليس هناك دولة فى العالم تحتل موقعا هاما بين الشرق والغرب كما تحتله تركيا التى تقوم بحدودها الجديدة فى الأناضول وتراقيا الشرقية بين البحر الأسود شمالا والبحر الأبيض المتوسط جنوبا وتتصل حدودها الشرقية والشمالية الشرقية بحدود سوريا والعراق وإيران والاتحاد السوفيتى وتعبر بحر مرمرة والبوغازين لتضم تراقيا الشرقية وتجاور بلغاريا واليونان . وتبلغ مساحتها بقسميها الأسيوى والأوربى ٢٩٦ر٢٩٧ ميلا مربعا وأحصى عدد سكانها عام ١٩٤٥ فبلغوا ٢٢٢ر٨٦٠ر١٨ نسمة ، وهى بذلك تحتل أهم حيز لصراع القوى الكبرى فى العالم كما يقول علماء الجيوبلتكس فهى الحاجز الاستراتيجى المنيع الذى يفصل قلب الأرض عن قلب الأرض الثانوى عند أقصر طريق للاقتراب والنفوذ إلى جزيرة العالم بسيطرتها على بوغازى البسفور

والدردنيل أهم طريق مائى وأقصره إلى أرجاء الجزيرة العالمية الواسعة وحفل تاريخها بهذا اللون من الصراع بين القوى الاستعمارية الكبرى للسيطرة عليها وتحطيم هذا الحاجز الذى يقف دون بعضها والخروج إلى مناطق الاستغلال والنفوذ ويحمى بعضها الآخر من اقتحام القوى الأولى عليها مناطق استعمارها واستغلالها ويمنع التحامها بها وجها لوجه ، وكان تاريخ المسألة الشرقية تدوينا لهذا الصراع المستمر الذى يتخذ صورة جديدة فى الوقت الحاضر .

وقد حبتها الطبيعة منعة لم تتأت لغيرها من الأقاليم التى تحيط بقلب الأرض ، وعوضها عن موقعها الاستراتيجى بين فكى الصراع العالمى ، فهى تسيطر على البوغازين سيطرة تامة وتستطيع أن تتحكم فى الدخول إليهما أو الخروج منهما عندما تحب ولا تصلح سواحلها الشمالية على البحر الأسود لإنزال قوات كبيرة فموانئها قليلة مفتوحة غير مأمونة والساحل ضيق وتقف سلسلة جبال بنطس حائلا بينها وبين الوصول إلى الهضبة فى الداخل والهضبة وعرة المسالك تخترقها عدة جبال مرتفعة قليلة المنافذ التى تصلح للعبور من الشمال إلى الجنوب وطريق الاقتراب الوحيد خلالها يقع عبر وادى سقاريا وقيزل أرمق وهما غير صالحين لمرور قوات كبيرة ، وسهل أزمير فى غرب الهضبة أصلح مكان لعمليات حربية واسعة وهو طريق الاقتراب الطبيعى من الغرب إلى الشرق ووادبا أطنة وأضاليا هما طريقا الاقتراب إلى داخل الأناضول من الشرق والجنوب الشرقى وتقف جبال طوروس على الساحل الجنوبى للأناضول حائلا بينه وبين التقدم إلى الداخل وأنهار الأناضول ضيقة قريبة الغور لا تصلح للملاحة تفيض زمن الربيع فتطغى على ماحولها وتغيض زمن الصيف حتى تشرق مجاريها ، وأكبرها وهو قيزل أرمق ماؤه ملح أجاج فى أكثر من نصف امتداده ، ولهذا كانت تركيا الأسيوية قلعة منيعة يصعب اختراقها أو غزوها ولا يتأتى إخضاعها والسيطرة عليها إلا بتطويقها والالتفاف حواليها من الشرق والغرب وعزلها تماما حتى تسلم تحت ضغط الحصار والضرب الجوى المستمر فإذا قامت الحرب الثالثة فإنه من المنتظر أن يخترق الهجوم الروسى البلقان إلى البحر الأبيض المتوسط ويدور بذلك حول الجناح الأيسر لتركيا من ناحية الغرب أو يخترق شمال الجزيرة

صوب شاطىء اللفانت إلى قناة السويس ويدور بذلك حول الجناح الأيمن لها من ناحية الشرق ولايبقى أمامه بعدالسيطرة على جزيرتى قبرص وكريت إلاأن تحملها على الخضوع والتسليم . ولهذا تهتم الحكومة الأمريكية اهتماما بالغ الحد بتركياوتعتبرها الخط الأول للدفاع عن الولايات المتحدة كما جاء فى تصريح روزفلت فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ وأخذت بعدالحرب الأخيرة ترعاها وتمدها بالمال والعتاد الحربى لتكون على تمام الأهبة للدفاع عن أراضيها ضد الغزو المفاجىء الذى يمكن أن تقوم به روسيا عليها فى أى وقت تشاء .

ايران

تحت حكم رضا خان بهلوى

ظلت ايران تعرف باسمها القديم فارس حتى مارس عام ١٩٣٥ عندما أطلق عليها الإسم الجديد رسميا فأصبحت تعرف به .

وقد بدأ الشاه الجديد رضا خان بهلوى الذى توج شاها على إيران فى ٢٥أبريل سنة ١٩٢٦ سياسته بتوطيد سيادة الدولة واستقلال البلاد والقضاء على كل أثر للنفوذ الأجنبى فيها فألغى الامتيازات الأجنبية وسن القوانين الجديدةمستمدة من القانون الفرنسى تحقق سيادة الدولة على رعاياها ولا ينفر الأجانب من أحكامها ، وأنشأ البنك الوطنى لايران وحرم على الأجانب تملك الأراضى الزراعية وأحكم الرقابة على التجارة الخارجية والجمارك وعمل على تحرير الاقتصاد القومى والمنشآت الأهلية من سيطرة الشركات الأجنبية وإن لم يمنع استغلال الأموال الأجنبية فى بلاده وعنى بتقوية الجيش والأسطول وأصبح لإيران أسطول بحرى يحرس شواطئها على الخليج الفارسى واهتم بالمواصلات الداخلية فعبد الطرق ومد خطا حديديا يربط بين الخليج الفارسى وبحر قزوين وكان حريصا على أن يكون اتساعه مغايرا لاتساع الخطوط الحديدية فى روسيا وجعل من أهدافه الكبيرة تصنيع البلاد فأسس مصانع الغزل والنسيج والسكر والصناعات الكيماوية والمعدنية ولم يترك بابا من أبواب

النهوض والتقدم دون أن يلجه فاهتم بالتعليم والثقافة والفنون الجميلة التى اشتهرت بها إيران فى تاريخها الطويل .

وكانت نهضة الشاه ببلاده أشبه ماتكون فى خطوطها الرئيسية بنهضة أتاتورك بتركيا ولا يختلف الرجلان إلا فى أن الشاه حافظ فى إصلاحاته على الطابع الاسلامى فرعى التقاليد الدينية ولم يتعرض للتفكير الدينى عند الأئمة والمجتهدين وصان مقدسات البلاد ومذهبها الدينى ، بينما فصل أتاتورك تماما بين الدين والدولة وقضى على الطرق الصوفية وحطم كل نفوذ لرجال الدين وحرر الاتراك من رق التقاليد المتوارثة والعادات القديمة .

وسار الشاه فى سياسته الخارجية على تقوية علاقاته بجيرانه فأبرم المعاهدات الودية مع روسيا وتركيا والعراق وأفغانستان بعد أن صفى مشاكل الحدود بينه وبينها وقام بزيارة تركيا فى يونيه عام ١٩٣٤ وقوبل بحفاوة بالغة ربطت بين الدولتين برباط وثيق من الصداقة والمودة ، كما كانت زيارة فيصل ملك العراق لطهران فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٢ بادرة موده ربطت بين العراق وايران وكان لهذه العلاقات الودية أثرها القوى فى إبرام ميثاق سعد آباد عام ١٩٣٧ .

وحافظ الشاه فى علاقاته بالدول الكبرى على أبعاد أى ظل لنفوذها فى بلاده فقامت علاقته بروسيا على أساس معاهدة عام ١٩٢١ وكانت روسيا قد نفضت عنها سياسة القيصرية القديمة وانزوت داخل حدودها تعيد بناء الدولة الجديده . وجرت علاقة الدولتين ودية لا تربطهما غير المصالح الاقتصادية كامتياز صيد السمك الذى تستغله روسيا فى الشاطىء الإيرانى لبحر قزوين . ولم تنس بريطانيا نفوذها القديم فى إيران . ولكنها وقفت ترقب الميدان من بعيد فإنها لم تجد منفذاً للتدخل فى شئونها أو كسب امتيازات جديدة فيها ، وكان الشاة بدوره كثير الحذر منها ومن الدول التى تقع بلاده فى دائرة مصالحها ، فاتجه إلى الدول التى لا يحذر خطرها كالولايات المتحدة وألمانيا وبعض دول شمال أوربا واستعان فى أول حكمه بمستشار مالى أمريكى منحه سلطات واسعة لإصلاح مالية البلاد ، وأقبل الرجل على عمله بهمة مشكورة وإخلاص بين فسوى فى فرض الضرائب بين الأغنياء والفقراء ووازن

إيرادات الحكومة ومصروفاتها واستغنى عن كثير من الموظفين الزائدين على حاجة العمل ، وبدا التحسن واضحاً فى مالية البلاد ، ولكن صلابة الرجل فى تطبيق آرائه وتنفيذ مشروعاته دون أن يربط بينها وبين سياسة الدولة العامة حمل الحكومة الإيرانية على الاستغناء عنه وعن معاونيه . واتجه الشاه بعده إلى الاستعانة بالخبراء الألمان واستخدمهم فى تنظيم بنك إيران الوطنى الذى انشأه عام ١٩٢٨ كما استخدم المهندسين من السويد والدنمارك فى الخط الحديدى الكبير بين قزوين والخليج الفارسى ومنح شركة جونكر الألمانية للطيران عام ١٩٢٧ امتياز مرور أربعة خطوط جوية ببلاده الأول يمر بطهران وهمذان وكرمنشاه وقصر شيرين إلى بغداد والقاهرة والثانى بين طهران واصفهان وشيراز وبوشهر إلى كراتشى وبومباى والثالث بين طهران ومشهد إلى هرات وكابل والرابع بين طهران ورشت إلى باكو واستمرت الشركة فى عملها حتى عام ١٩٣٢ كما عقد اتفاقا مع شركة الخطوط الجوية الإمبراطورية البريطانية عام ١٩٢٨ بتسيير خطوطها الجوية إلى الهند عبر سواحل الخليج الفارسى .

ولم يكن حذر الشاه من بريطانيا بعيداً عن الصواب فسرعان ما دب الخلاف بين شركة البترول الإنجليزية الإيرانية والحكومة الإيرانية حتى تدخلت الحكومة البريطانية فى الأمر دفاعا عن الشركة ، فإذا كان بترول إيران أهم موارد بريطانيا البترولية ، فإنه أهم مصادر الإنتاج فى إيران وقوام صادراتها ولكن تهرب الشركة من الوفاء بالتزاماتها والمغالطات الواضحة فى حساباتها بقصد حرمان الحكومة الإيرانية من نصيبها فى الأرباح والتأثير فى مالية الدولة التى تدخل أرباحها من الشركة فى ميزانيتها العامة وفداحة شروط الامتياز ، كل هذا حمل الحكومة الإيرانية على مطالبة الشركة بتعديل شروط الامتياز لصالح إيران ، وجاء هذا عندما هبط نصيب الحكومة من أرباح الشركة إلى النصف ، واتهام الحكومة الإيرانية للشركة بتقييد الإنتاج لصالحها مما يعود بالضرر على الدولة ، واعتذرت الشركة بالأزمة العالمية ، وهبوط أسعار البترول عن تقييد الإنتاج ، ودارت المفاوضات عام ١٩٢٨ دون أن تنتهى إلى نتيجة حاسمة فقد أبت الشركة تعديل شروط الامتياز . واستؤنفت المفاوضات عام ١٩٣١ ودارت هذه المرة حول الطريقة التى يتم بها حساب أرباح الشركة ونصيب الحكومة منها . وانتهت المفاوضات بالوصول إلى اتفاق قبله الطرفان فى مايو عام

١٩٣٢ ، ولكن تقدير حصة الحكومة فى الأرباح جاءت مخيبة لأمل إيران فقد انخفضت عما كانت عليه قبلا .

ولم تجد الحكومة بداً من إلغاء الامتياز بعد أن أعيتها الحيل فى الوصول إلى اتفاق مضمون ، وأنذرت الشركة بذلك فى نوفمبر من نفس العام ، وجاء فى الإنذار مايفيد استعداد الحكومة لمنح الشركة امتيازاً جديداً يكفل رعاية المصالح الإيرانية ، وأنكرت الشركة قانونية هذا الاجراء فما كان من الحكومة الايرانية إلا أن أعلنت تمسكها به وإصرارها عليه .

ولم تجد الحكومة البريطانية بداً من التدخل فأرسلت فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٢ مذكرة شديدة اللهجة إلى إيران تعد فيها الغاء الامتياز خرقا للتعهدات الدولية وهو أمر لا تقره ولا ترضاه ، وطالبتها بسحب الإنذار « والا أصبحت فى حل من إتخاذ الإجراءات المشروعة لحماية مصالح الشركة العادلة التى لاخلاف فيها » . ورفضت الحكومة الإيرانية المذكرة وردت رداً مفحما هددت بعده الحكومة البريطانية برفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية ، وانكرت إيران اختصاص محكمة العدل بنظر النزاع وأحالت الموضوع إلى عصبة الأمم وكانت قد أصبحت عضوا من أعضائها منذ عام ١٩٣٠ . وجاء قرار العصبة موافقاً للطرفين فقبلاه فى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٣ وأقره المجلس الإيرانى وصادق عليه الشاه فى شهر مايو من نفس العام .

وقد خفض الاتفاق الجديد مساحة الامتياز الى النصف فأصبح من حق الحكومة الإيرانية أن تتصرف فى باقى المساحة كما تريد ، وألغى حق الشركة فى احتكار مد أنابيب البترول إلى الساحل الجنوبى ، كما نص على أن تعمل الشركة من جانبها على توسيع نطاق أعمالها فى منطقة امتيازها الجديد وأن تبدأ فى عمليات استخراج البترول وتكريره فى كرمنشاه بالإضافة إلى أعمالها فى خوزستان ، وفرض الاتفاق للحكومة الإيرانية أتاوة مقدارها أربعة شلنات عن كل طن تبيعه الشركة سواء للاستهلاك المحلى أوالخارجى على أن لاتنقص حصة الحكومة منها عن ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه فى السنة خلاف النسبة المئوية التى تحصلها عن أرباح الشركة ومقدارها ٢٠ ٪ كما حدد الاتفاق أجل امتياز الشركة بستين عاما قادمة تؤول بعدها كافة ممتلكاتها الى إيران ،

كما تناول الاتفاق شروط استخدام العمال الفنيين وغير الفنيين وسعر الاستهلاك المحلى للبترول ومدفوعات السنتين السابقتين وكانت كلها لصالح ايران . إلا أن الشركة كسبت مقابل هذا كله إعفاء وارداتها من الرسوم الجمركية وصادراتها البترولية من الضرائب وحقها فى الاحتفاظ بما تحت يدها من عملات أجنبية وبهذا انتهى النزاع بين شركة البترول الانجليزيه الايرانية وحكومة إيران لينشب مرة أخرى أشد ما يكون عنفا بعد الحرب العالمية الثانية .

وتحتل إيران حيزاً هاماً من حيوز الصراع العالمى بين القوى الكبرى فهى الحاجز الطبيعى بين روسيا والتسرب الى بقاع العالم المختلفة وتقع على أهم طرق الإقتراب الرئيسية لبريطانيا إلى الهند والشرق الأقصى ولذلك بقى النزاع محتدم الأوار طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين روسيا وبريطانيا على إمتلاكها والنفوذ اليها حتى اتفقتا عليها عام ١٩٠٧ ، ولكن أهمية ايران كمعبر لنفوذ القوى الغالبة فى العالم قد بدأ يغلب عليه عامل جديد يتعلق بشدة الصراع العالمى بين كتلتى الشيوعية والرأسمالية فهى جزء من قلب الأرض التى تسيطر روسيا على معظم أجزائه تعتبر الحلقة المفقودة فى الاستراتيجية الروسية للتغلب على العالم والسيطرة على بقاعه المختلفة ، ولذلك بقيت إيران بعيدة عن صراع القوى الكبرى طالما كانت روسيا محتفظة بعزلتها فى فترة ما بين الحربين ، حتى إذا أخذت تظهر على مسرح السياسة الدولية وتبرز بقوتيها المادية والمذهبية من جديد برزت أهمية إيران كميدان من أهم ميادين الحرب الباردة فى الوقت الحاضر والحرب الحامية التى يمكن أن تشب فى أية لحظة بين المعسكرين المتنافسين.

وتبلغ مساحة إيران ٦٢٨٫٠٠٠ ميل مربع يحدها من الشمال بحر قزوين وجمهوريات القوقاز السوفيتية ومن الغرب تركيا والعراق ومن الشرق روسيا وأفغانستان وبلوخستان ، وتطل سواحلها الجنوبية الغربية والجنوبية على الخليج الفارسى وخليج عمان والمحيط الهندى . وتمتد مساحتها من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى مسافة ١٫٤٠٠ ميل ، ومن الشمال إلى الجنوب ٨٧٥ ميلا ، وأرضها جبلية على وجه العموم ، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق هى : السهل الساحلى

الشمالى ويقع بين بحر قزوين وجبال البرز ويضم مقاطعتى جيلان ومازندران ، والسهل الساحلى الجنوبى ويطل على الخليج الفارسى ويضم مقاطعتى خوزستان وبلوخستان ، ثم الهضبة الداخلية ويتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف قدم وتقطعها الجبال من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى وهى قليلة النبت عامة ولكن تغطيها بعض الغابات فى كردستان ولورستان كما تنموا غابات البلوط فى بعض جهاتها ، وتتخللها ثلاث صحار ملحية مقفرة هى صحراء لوت وصحراء كوير وصحراء هلمند ، ولا يوجد فى إيران غير نهر واحد صالح للملاحة هو نهر قارون ويجرى نحو الخليج الفارسى .

وقد قدر تعداد السكان فى إيران عام ١٩٤٥ بحوالى ١٦ر٥٤٩ر٨٣٧ نسمة وهم خليط من الأجناس الآرية والمغولية والسامية ، وما زالت الروح القبلية سائدة بينهم فإنهم ينتمون إلى قبائلهم أكثر مما ينتمون إلى أراضيهم ومساكنهم .

وأشهر هاته العناصر القبلية الأكراد ويقيمون فى شمال غرب إيران ويسببون كعشائرهم فى تركيا والعراق كثيراً من المتاعب للحكومة الإيرانية ، واللوريون ويقيمون فى لورستان ، والبختيارى فى جنوبى إيران حيث أعمال شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، والقاشجاى فى السهل الساحلى جنوب بوشير وجنوب شرق اصفهان ، ثم العرب ويقطنون الشاطىء الجنوبى لإيران وحوض نهر قارون وزعيمهم شيخ المحمرة ، وهذا عدا القبائل التركمانية فى خراسان والقبائل التركية الأصل فى مازندران وجيلان وبعض العناصر الأفغانية فى سيستان وبلوخستان الإيرانية ، وتتميز هذه القبائل بروحها الحربية وشدة مراسها فى القتال وبكثرة ثوراتها على الحكومة المحلية إذا ما آنست منها ضعفاً .

وطهران العاصمة أكثر المدن سكاناً ويقدر عددهم بحوالى ٨٥٠ر٠٠٠ نسمة بينما يتراوح عددهم فى مشد وتبريز واصفهان بين مائتى ألف ومئتين وخمسين ألف نسمة ولا يزيد عددهم فى عبدان وشيراز ورشت وهمدان عن مائة ألف نسمة وتبلغ كثافة السكان عامة ٢٥ نسمة فى الميل المربع ولكنها ترتفع إذا أخرجنا الصحارى من حسابنا إلى ٣٧ نسمة فى الميل المربع .

وينتمى أغلب الإيرانيين إلى المذهب الشيعى وهم من غلاة المتعصبين لمذهبهم ، ولرجال الدين نفوذ قوى فى البلاد كان عون الشاه رضاخان فى الوصول إلى عرش الأكاسرة وظل سنداً له عند الشعب ، ومدينة مشد حيث دفن الإمام الثامن من أئمة الشيعة مزار الإيرانيين وكذلك مدينة كوم حيث دفنت أخته فاطمة ، ويتبع المذهب السنى الأكراد والتركمان . والمسيحيون فى إيران من الأرمن ويقدر عددهم بحوالى ١٢٠٫٠٠٠ نسمة يقيمون فى تبريز وطهران وإصفهان ويبلغ عدد اليهود حوالى ٤٥٫٠٠٠ يقطنون المدن ، أما أتباع زرادشت فيتراوح عددهم بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفاً يقطن أغلبهم فى يزد وكرمنشاه ، وهناك عدد من البهائيين لايعرف عددهم تماماً لعدم اعتراف الدولة بديانتهم .

خاتمة

تناولت فى الفصول السابقة ماهية الشرق الأوسط فى الإصطلاح الجديد الذى جرى على لسان العسكريين والساسة وأخذ يعم استعماله بين الكتاب والصحفيين والمعقبين السياسيين والعسكريين والإخباريين حتى طغى على الإصطلاح القديم الذى جرى عليه المؤرخون والجغرافيون فى تقسيم الشرق تقسيما إقليميا إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى وتناولت أهميته الجديدة وعواملها القوية التى بدأت باحتدام المعركة الاستعمارية بين قوى الاستعمار الكبرى بعد أن فرغت من التهام مناطقه الشاسعة فى آسيا فأخذت تبحث عن مناطق أخرى لإشباع أطماعها الإستعمارية وبخاصة تلك الدول التى فاتها سبق الاستعمار فى شوطه الأول كايطاليا وألمانيا أو فشلت فى الاحتفاظ بمستعمراتها الأولى كفرنسا فلم يكن أمامها غير أملاك الدولة العثمانية الضعيفة تنزوا عليها وتغتال أطرافها وتحاول أن تنفذ إلى قلبها ، وبعض بلاد الإسلام الأخرى التى نجت من الاستعمار فى جولته الأولى ، وبينت كيف أخذت هذه الأهمية تعظم وتزداد بعودة المواصلات العالمية اليه بعد افتتاح قناة السويس وتقدم وسائل المواصلات البرية والجوية ، ثم علاقة هذا التنافس الاستعمارى بالمسألة الشرقية والمسألة المصرية وأخيراً ظهور البترول كعامل من أعظم العوامل التى تسيطر على مصير الشرق الأوسط إن لم يكن أعظمها جميعاً .

كما تناولت فى تلك الفصول عوامل اليقظة الإسلامية ونموها فى بلاد الإسلام وبداية الوعى القومى الحديث فى بلدان الشرق الأوسط كتركيا ومصر والبلاد العربية وفارس ومدى التجاوب الفكرى والسياسى فى تلك المنقطة وأثر هذا البعث الحديث فى نضال الاستعمار ومقاومة الضغط الأوربى وتطور السياسة الأوربية فى الشرق الأوسط تبعاً لتطور الوعى القومى والسياسى والمعركة الدائرة بينهما وبين الاستعمار بطريق مباشر وبينهما وبين الأتوقراطية الحاكمة بشكل غير مباشر من ناحية ثم صراع القوى الكبرى فى العالم والتنافس الدولى على استعماره والنفوذ إليه من ناحية أخرى وتأثره بهاته القوى جميعا فى قوتها أوضعفها .

وقد تأثر تاريخ الشرق الأوسط الحديث بهذه العوامل كلها مجتمعة ولعبت جميعها أدوارها على مسرح التاريخ فى آن واحد فقد جاءت اليقظة الإسلامية مقترنة بنمو الوعى القومى ونمت هاتان القوتان وقد بدأ الضغط الأوربى يقع عليه وينفذ إلى بلدانه واحدة بعد الأخرى مصحوبا بنمو المصالح الأوربية فيها وبداية التنافس الدولى عليها ، وتميزت المصالح الأوربية بطابعها الاستراتيجى فكانت الاستراتيجية هى التى تسير دفة السياسة الدولية فى ربوعه فإن قيام الحملة الفرنسية على مصر وإن كان هدفها تكوين مستعمرة فرنسية فى ذلك الركن الوسيط الغنى من أركان العالم إلا أن هدفها الأخير كان الارتكاز على مصر لاقتحام طريق الهند البرى حيث الأسواق الرائجة والخامات الوفيرة والمستعمرات الغنية ولم يكن اهتمام بريطانيا بالحملة الفرنسية على مصر إلا اهتماما بالدفاع عن مصالحها فى الهند ، ثم كان اهتمامها بتحطيم قوة محمد على الناشئة حتى لا تكون خطراً يهدد مراكزها الحيوية فى الخليج الفارسى وسواحل شبه الجزيرة العربية فى الجنوب عندما أخذت تقترب منهما وتدنو من طريق الهند ، ولم يكن الخلاف حول المسألة الشرقية إلا خلافا على السيطرة على المنافذ الحيوية للمواصلات البحرية التى تسيطر عليها الدولة العثمانية والإبقاء على الحاجز العثمانى الذى يحول دون روسيا والنفوذ إلى البحار الدافئة حتى لا تقف وجها لوجه أمام النفوذ البريطانى الغالب فى البحار وتدنو من مستعمراتها الغنية فى آسيا وأفريقيا ، ولا تقضى على أطماع فرنسا الاستعمارية فى البحر الأبيض والشرق الأدنى . وارتبطت المسألة المصرية برغبة بريطانيا فى السيطرة على قناة السويس أهم شريان مائى يربطها بمستعمراتها بالرغم من الضمانات التى كفلتها معاهدة الآستانة لسلامة القناة وحرية المرور فيها كما ارتبطت بأطماع فرنسا الاستعمارية فى مصر والاقانت . وكذلك كانت السياسة الألمانية نحو الشرق تدور فى غايتها حول الوصول إلى مناطق الشرق الغنية والسيطرة عليها واتخذت من الشرق الأوسط قنطرة تعبر فوقها إلى أغراضها وكان خط حديد بغداد خطاً استراتيجياً أكثر منه خط لتيسير المواصلات العالمية أو المحلية فى الإقليم .

وكانت أهمية الشرق الاوسط أهمية استراتيجية وكانت الاستراتيجية هى التى تخط معالم السياسة وترسم خطوطها الرئيسية حتى إذا نبع بتروله وفاض غزيراً ليكون من

أهم موارد العالم البترولية ، وزادت قوة سكانه الشرائية وقدرته الإستهلاكية بتقدم أسباب الحضارة فأصبح سوقاً رائجاً للمنتجات الأوربية وتميزت بعض بلدانه ببعض الخامات اللازمة للصناعة الأوربية كالقطن المصرى ، بدت أهميته الاقتصادية فى ميدان التنافس العالمى. وقدتناولنا أهمية البترول الاستراتيجية بالتفصيل وأهمية موارد الشرق الأوسط من هذه المادة بالنسبة لأية حرب تدور بين القوى الكبرى فى العالم لقربه من موطن النضال المرتقب . كما لا نجهل أهمية القطن كخامة تدخل فى الصناعات الحربية . ولكن هذه الخامات والمواد ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة لها أهميتها الاقتصادية العظمى أيضاً فالقطن المصرى هو الذى يمون مصانع الغزل والنسيج فى فى لانكشير وأصبح يمون كثيراً من مصانع أوربا . وبترول الشرق الأوسط هو المورد الرئيسى لتموين أوربا الغربية وبعض جهات الشرق الأقصى .

وبالرغم من هذه الأهمية الاقتصادية الجديدة للشرق الأوسط فإنها لم تطغ قط على أهميته الاستراتيجية ومازالت الاستراتيجية هى التى تسير دفة السياسة الدولية نحوه وتدير معركة الصراع الاستعمارى فى بلاده ولا نستطيع أن نفهم تيارات السياسة الدولية فى الشرق الأوسط إلا إذا أدركنا قوة الدوافع الإستراتيجية التى تكمن وراءها فالإستراتيجية هى التى تدفع السياسة وهى التى تكتب خاتمتها وهذا تفسير لتعريف كلاوزفتز للحرب من أنها السياسة ولكن فى صورة عنيفة أو إنها المرحلة الأخيرة للعمل السياسى . وليس العمل السياسى أو الاستراتيجى غاية فى ذاته ولكنه وسيلة لتحقيق مصالح خاصة تنشدها الدولة وتعمل على تحقيقها بالوسائل السلمية وهذا هو عمل السياسة ، أو بالوسائل الحربية وهذا هو عمل الاستراتيجية ، وهذه المصالح الخاصة هى فى غالبيتها مصالح اقتصادية غايتها الكسب واستغلال موارد الثروة فى المستعمرات واستثمار رؤوس الأموال فى مناطق النفوذ وتهجير القوى البشرية الزائدة فى الدولة إلى مستعمراتها واحتكار الأسواق التجارية وهذه المصالح الخاصة هى العامل الأول فى الصراع العالمى واحتدام النزاع والتنافس بين الدول الاستعمارية . وهى التى تقود فى النهاية إلى الحرب .

وبجانب هذه المصالح الخاصة للدول الاستعمارية وهى التى توجه سياستها واستراتيجيتها نحو إقليم معين أو نحو منافساتها العظمى ، توجد العوامل الداخلية التى تلعب دورها الكبير فى تطور سياسة الدولة واستراتيجيتها فهناك درجة رقى الإقليم وتقدمه الحضارى والاقتصادى وقوة وعيه الشعبى ، فكلما كان الإقليم أوفى تقدما وكان سكانه أكثر رقيا كلما صعب التسلط عليه أو النفوذ إليه أو استعماره ، وكلما عظمت موارده الاقتصادية كلما اشتد التنافس عليه ، وكلما كانت يقظته ووعيه مكتملين كلما كان ذلك أدعى إلى شدة الصراع بينه وبين القوى الطامعة فيه أو التى نفذت إليه ، أما إذا كان الإقليم متأخراً متخلفا سهل حكمه وسلس قياده وبدت غلبة القوى الاستعمارية عليه واضحة جلية . ودرجة الإقليم من التقدم أو التأخر تكيف إلى حد بعيد سياسة الدول الاستعمارية نحوه فلا يمكن لها أن تحكم إقليما متقدما له ماضيه الحضارى ويقظته البادية كما تحكم إقليما متأخراً لاحضارة له ولا قومية تربط أفراده .

ويتميز إقليم الشرق الأوسط بعراقة شعوبه وماضيها الحضارى المجيد وتطلعها إلى استكمال أسباب تقدمها ورقيها وأخذها من الحضارة السائدة بما يعود عليها بالخير والنفع وكان لهذه الميزة الواضحة فى إقليم الشرق الأوسط أثرها فى مقاومة الضغط الأوربى الذى وقع عليه فى الوقت الذى أخذ يستيقظ فيه من سباته ويكشف عن عراقته وحيويته ، ولهذا جرت السياسة الاستعمارية حيال شعوبه على غير ماجرت عليه حيال الشعوب المتخلفة فى أفريقيا وآسيا .

وعلى ضوء هذه العوامل مجتمعة يمكن دراسة المشاكل السياسية فى الشرق الأوسط فعلينا أن ندرك أولا أهمية هذا الإقليم فى دائرة الصراع الدولى القائم دواماً بين القوى الكبرى فى العالم وما يكمن وراء هذه الأهمية من دوافع استراتيجية أو اقتصادية بالقياس إلى مصالح الدول الكبرى وأطماعها العامة أو الخاصة وثانياً أثر هذه العوامل كلها بالنسبة لشعوبه ودوله ودرجة تقدمها وقوة وعيها القومى والسياسى .

وقد تناولت فى فصول هذا الجزء الأول تلك العوامل مجتمعة وأثرها بالنسبة للاقليم عامة وبالنسبة لكل دولة من دوله حتى نهاية الفترة التى سبقت قيام الحرب العالمية الثانية أما مابعد ذلك فإن موضوعه الجزء الثانى من هذا الكتاب إن شاء الله .

ثبت المصادر

نورد فيما يلى أسماء المصادر العربية والإفرنجية التى رجعنا إليها فى كتابة الجزء الأول من هذا الكتاب ، والتى اكتفينا بذكرها فى هذا المكان عن الإشارة إليها فى ذيول الصفحات راجين أن تسمح الظروف بذلك فى الطبعات التالية حتى نوفر على القارىء عناء تحديدها والرجوع إليها معتذرين عن هذا التقصير بكبر حجم الكتاب وأزمة الورق عند بدء طباعته ، وهناك بعض المصادر التى رجعنا إليها فى هذا الجزء ولكنها تعتبر مراجع أساسية للجزء الثانى فتركنا ذكرها إليه . والله ولى التوفيق ؟

المصادر العامة

عجاج نويهض ترجمة عن ستودارد ، وتعليق شكيب أرسلان .

— حاضر العالم الإسلامى — جزءان

أحمد أمين — الدكتور .

— زعماء الإصلاح فى العصر الحديث

حسين كان سليم — الأستاذ .

— تاريخ أوربا الاقتصادى فى القرن التاسع عشر .

راشد البراوى — الدكتور

— حرب البترول فى الشرق الأوسط — الطبعة الثالثة

— الدولة والنظم الاقتصادية فى الشرق الأوسط — ترجمة عن ا . بونيه

محمد رفعت .

— التيارات السياسية فى البحر الأبيض المتوسط

محمد بدران — ترجمة عن رمزي ميور

— النتائج السياسية للحرب العظمى

حسن أحمد السلماوى — ترجمة عن دورين وارنر

— الأرض والفقر فى الشرق الأوسط

أحمد حمودة — يوزباشى — ترجمة عن الإنجليزية

— الاستراتيجية الألمانية فى الحرب العظمى — فيليب نيم

— مبادىء الحرب ـ مارشال فوش
— الأصول والأحكام ـ مارشال فوش
— حروب التاريخ الحاسمة ـ دراسة فى فن الاستراتيجية ـ ليدل هارت
— الحرب الحقيقى من ١٩١٤ — ١٩١٨ ـ ليدل هارت
محمد عثمان — النقيب
— الحرب
محمد قاسم وحسين حسنى
— تاريخ القرن التاسع عشر
محمد عبد المنعم الشرقاوى ـ الدكتور
— نحو الشرق

Fitzgerald.
— Imperial Military Geograpby.
Cole.
— Imperial Military Geograpby.
G. E. Kirk.
— A Short History of the Middle East.
W. B. Fisher.
— The Middle East. A Physical, Sociol, and Regional Geograpby.
E. A. Speiser.
— The United States and the Near East.
Royal Institute of International Affairs.
— The Middle East. A Political and Economic Survey.
Karl Brockelmann.
— History of Islamic Peoples.
F. J. C. Hernshaw.
— Main Currents of European History. 1815 — 1915.
A. j. Grant and H. Temperly.
— Europe in the Nineteenth century.
Geoffry Bruun.
— The World iu the Twentieth century.
H. A L. Fisher.
— A History of Europe.
William L. Ianger.
— An Incyclopedia of World History.

G. M. Gathorne Hardy.
— A Short History of International Affairs 1920 — 1939
The R. T. Hon. Winston Churchill.
— The World Crisis.
H. W. Temperly.
— A History of the Peace Conference of Paris. 6. Vols.
Sir Reader Bullard.
— Britain And ths Middle East.
W. theimer and P. Campbell.
— Incyclopaedia of World Politics.
W. Friedmann.
— An Introduction to World Politics.
Frederick L. Schuman.
— Interonational Politics.
A. J. Toynbee
— Survey of International Affairs.
Sir R. Storrs.
— Orientations.
Elizabeth Monroe.
— The Mediterranean in History.
Gearge Slocombe.
— The Dangerous Sea. the Mediterranean ond its Future.
H. L. Hoskins.
— Britioh Routes to India.
A. Bonne.
— Economic Development of the Middle East.
Doreen Warriner.
— Land and Poverty in the Middle East.
R. L. Mikesell and H. B. chenery.
— Arabian oil : America's stake ia the Middle East.
S. H. Steinberg.
— Statesman's Year-Book. 1951.
Middle East Institute; Woshington.
Middle East journal.

مصادر البحث عن البلاد العربية

«شبه جزيرة العرب ـ العراق ـ سوريا ـ لبنان فلسطين ـ شرق الأدرن»

على حيدر الركابى ترجمة عن جورج انطنيوس
— يقظة العرب
أمين سعيد
— الدولة العربية المتحدة . ثلاثة أجزاء .
الجزء الأول عن : تاريخ الاستعمار الإنجليزى فى بلاد العرب .
الجزء الثانى عن : تاريخ الاستعمار الفرنسوى والإيطالى فى بلاد العرب
الجزء الثالث عن : تاريخ اليقظة القومية عند العرب وبرنامج لانشاء دولة عربية متحدة .
— الثورة العربية الكبرى ـ ثلاثة أجزاء
أمين الريحانى
— ملوك العرب .
أحمد حمودة ـ يوزباشى .
— الحملة البريطانية على العراق ـ ترجمة عن ماجور إيفانس
عبد الفتاح إبراهيم .
— على طريق الهند .
حسين مؤنس . الدكتور .
— الشرق الإسلامى فى العصر الحديث .
الظاهر أحمد الزاوى .
— تاريخ العراق السياسى الحديث ثلاثة أجزاء
محمد رفعت .
— قضية فلسطين . سلسلة اقرأ .
نجيب صدقة . الدكتور .
— قضية فلسطين

P. K. Hitti.
— History of the Arabs
Bernard Lewis.
— The Arabs in History.
Ameer Ali.
— The Spirit of Islam.
Goorge Antonius.
— The Arab Awakening : the **Story of the Arab National** Movement.
T. E. Lawrence
— The Seven Pillars of Wisdom.
— in the Desert.
. ihani.
— Around the Coast of Arabia.
j. B. Philby.
— Arabia
— Arabia of the Wahhabis.
D. G. Hogarth.
— Arabia.
K. S. Twitchell.
— Saudi Arabia.
King Abdullah of Transjoardan.
— Memoirs.
H. C. Armstrong:
— Lord of Arabia : Ibn Saud, an Intimate Study of a King
H. Scott.
— In the High Yemen.
Col. A. P. Wavell.
— Palestine Campaigns.
Baha ud-Din Toukan.
— Short History of Transjordan.
P. W. Ireland.
— Iraq, A study in Political Devclopment.
S. Longrigg.
— Four Ccnturies of Modera Iraq.
H. A. Foster.
— The Making of Msdern Iraq.

Royal Institute of Internatinal affairs.
— Great Britain and Palestine.
Chaim Weizmann.
— Trial and Error.
Robin Fedden.
— Syria
R. Pearse.
— Three Years in the Levant.
F. Charles-Roux.
— La France et les chretiens d' orient.
A. Latron.
— La Uie Rurale en Syrie et au Liban.
E. Rabbath.
— Unité Syrienne et l' avenir arabe.
George Haddad.
— Fifty Years of Modern Syria and Lebanon.
A. H. Hourani.
— Syaia anq Lebanou : a Political Essay.
— Great Britain and the Arab World.
— Minorities in the Arab World.
M. V. Seton-Williams.
— Britain and The Arab states : A Survey of anglo - Arab Relations, 1920—1948.

مصادر البحث عن المسألة الشرقية وتركيا

مصطفى كامل ـ زعيم النهضة فى مصر
ـ المسألة الشرقية
الكابتن ه . س . أرمسترونج
ـ الذئب الأغبر : مصطفى كمال . ترجمة دار الهلال
J. A. R. Marriot.
— The Eastern Question.
E. Driault.
— La Question d' Orient.
S. Ekrem.
— Turkey : Old and New.

J. Parker and C. Smith.
— Modern Turkey.
Barbara Ward.
— Turkey.
D. E. Webster.
— The Turkey of Ataturk.
H. C. Armstrong.
— Grey Wolf : Mustofa Kemal, an Intimate Study of a Dictator.
Philp Graves.
— Briton and Turk.
E. M. Earle.
— Turkey, the Great Powers, and the Baghdad Railway.
Dr. K. Kruger.
— Kemalist Turkey and the Middle East.

مصادر البحث عن مصر والسودان

محمد حسين هيكل ـ الدكتور
١ ــ تراجم مصرية وغربية
٢ ــ مذكرات فى السياسة المصرية .
الجزء الأول من سنة ١٩١٢ ـ ١٩٣٧
محمد فؤاد شكرى . الدكتور
ــ الحملة الفرنسية وظهور محمد على
ــ الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥
ــ مصر والسيادة على السودان ـ الوضع التاريخى للمسألة .
محمد شفيق غربال ـ الأستاذ .
ــ محمد على من سلسلة أعلام الإسلام
نعوم شقير
ــ تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ــ ثلاثة أجزاء .
عبد الرحمن الرافعى ــ سلسله تاريخ الحركة القومية
١ ــ تاريخ الحركة القومية ـ جزءان
٢ ــ عصر محمد على
٣ ــ عصر اسماعيل جزءان

٤ — الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى

٥ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٨٨٢ — ١٨٩٢

٦ — مصطفى كامل — باعث الحركة الوطنيه

٧ — محمد فريد — رمز الأخلاص والتضحية

٨ — ثورة سنة ١٩١٩ . جزءان

٩ — فى أعقاب الثورة . ثلاثة أجزاء

محمد رفعت

— تاريخ مصر السياسى فى الأزمنه الحديثة .

راشد البراوى وحمزة عليش

— التطور الأقتصادى فى مصر العصر الحديث الطبعة الرابعة

توفيق أحمد البكرى

— مهدى الله من سلسلة أعلام الأسلام

عثمان أمين — الدكتور

— محمد عبده من سلسلة أعلام الإسلام

محمد صبرى — الدكتور

— الإمبراطورية المصرية فى أفريقيا

عباس مصطفى عمار . الدكتور

— المدخل الشرقى لمصر

مصطفى الحفناوى . دكتوراه فى القانون

— قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة الجزء الأول

أساتذة كلية الأداب .

— المجمل فى التاريخ العربى

— محاضرات للأساتذة : شفيق غربال . مصطفى عامر . حسين كامل سليم .

محمد فؤاد شكرى . عزت عبد الكريم . راشد البراوى .

مصلحة الإحصاء والتعداد

— إحصاء الجيب السنوى : سنة ١٩٥١

H. Dodwell.
— The Founder of Modern Egypt.
Sh. Gorbal.
— The Eygptian Question and the Rise of Mehemet Ali.
M. Rifaat Bey.
— The Awakening of Moderu Eygpt.
Sir Valentine Chirol
— The Egyptian Problem.
R. Fedden.
— The Land of Egypt.
Royal Institute of International Affairs.
— Great Britain and Egypt: 1914 - 1936
A. P. Wavell.
— Allenby in Egypt.
Lord Cromer.
— Modern Egypt.
Lord Lloyd.
— Egypt Since Cromer.
H. J. Schonfield.
— Suez Canal
Sir A. T. Wilson
— The Suez Canal : its Past, Present and Future.
Moustapha El-Hefnaoni.
— Les Problemes Contemporains Pasés par le Canal De Suez.
B. M. Allen'
— Gordon aud the Sudan.
Sir H. A. Mac Michael.
— History of the Arabs in the Sudan.
M Sabry.
— L' Empire egyptien sous Mohemed Ali et La question d'Orient. 1811-1849.
K. D. D. Henderson.
— Suvey of the Anglo - Egyptian Sudan. 1898 - 1944.
A. B. Theobald.
— The Mahdiya : A History of the Anglo Egyptian Sudan 1881 - 1899
John Buchan.
— Gordon At Khartoum.

The Rt. Hon. Wlnston Churchill.
— The River War: an account of the Reconquest of the Soudan.
W. S. Blunt.
— Gordon At Khartoum.
Dr Rashed El Barawy.
— Egypt, Britain and the Sudan.

مصادر البحث عن إيران

أحمد محمود الساداتى
ـ رضا شاه بهلوى ـ نهضة إيران الحديثة
G. N. Curzon. Earl of Kedleston.
-- Persia aud the Persian Question.
ir P. M. Sykes.
— History of Persia.
Sir A. B. T. Wilson.
-- The Persian Gulf.
-- Persia
L. P. Elwell - Sutton.
— Modern Iran.
George Lenczowski
-- Russia and the West in Iran. 1918 - 1948.
Donald M. Wilber.
-- Iran : Past and Present.

مصادر البحث عن ليبيا وشمال إفريقيا

ـــ محمد فؤاد شكرى ـ الدكتور
السنوسية دين ودولة
علال الفاسى
ـــ الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى
محمود الشنيطى
ـــ قضية ليبيا
عبد الرزاق الحسنى
ـــ جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب
The National Council For the Liberation of Libya.
-- Note on Libya.

للمؤلف

تحت الطبع

١ — السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط   الجزء الثانى

٢ — رجال وأعمال ـ صفحة من تاريخ النهضة المصرية الحاضرة

٣ — إسرائيل والشرق العربى

٤ — الحرب القادمة والشرق الأوسط

[illegible]

[illegible]

١ — [illegible]

٢ — [illegible]

٣ — [illegible]

٤ — [illegible]



